

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم (سورة الأعراف من آية 1-87)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو
بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the
researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any
other degree or qualification

Student's name:

اسم الطالب/ة: حافظ تكريم البطة

Signature:

التوقيع: 

Date:

التاريخ: 2016 / 01 / 30



الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
قسم التفسير وعلوم القرآن

دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم
(سورة الأعراف من آية ١-٨٧)

Analytical study of the purposes and objectives of surat AL araf the verses from (1- 87)

إعداد الطالب
حافظ تكريم حافظ البطة

إشراف الأستاذ الدكتور
جمال محمود محمد الهوبي

قُدِّمَتْ هذه الرسالة استكمالاً لِمُتَطَلِّبَاتِ الحُصُولِ على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م



هاتف داخلي 1150

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

الرقم... ج.س.ع/35/..... Ref

التاريخ... 2015/06/15 Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شؤون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ حافظ تكريم حافظ البطة لنيل درجة الماجستير في كلية أصول الدين/ قسم التفسير وعلوم القرآن وموضوعها:

دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم (سورة الأعراف من الآية 1-87)

وبعد المناقشة التي تمت اليوم الاثنين 28 شعبان 1436هـ، الموافق 2015/06/15م الساعة التاسعة صباحاً، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

.....

.....

.....

مشرفاً ورئيساً

أ.د. جمال محمود الهوبي

مناقشاً داخلياً

د. عبدالكريم حمدي الدهشان

مناقشاً خارجياً

أ.د. عبد الله علي الملاحي

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في كلية أصول الدين/ قسم التفسير وعلوم القرآن.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي و للدراسات العليا

.....
أ.د. فؤاد علي العاجز





قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩٠]

الإهداء

- ❖ إلى خاتم الأنبياء وإمام الاتقياء وسيّد المرسلين وخليل ربّ العالمين محمّد (ﷺ).
 - ❖ إلى الصحابة العظام الذين أقاموا دين الله ونصّروه.
 - ❖ إلى والدي الكريمين الحبيبين حفظهما الله تعالى.
 - ❖ إلى رفيقة دربي زوجتي الحبيبة حفظها الله.
 - ❖ إلى أبنائي وبناتي الأعزاء ثمرة فؤاد قلبي.
 - ❖ إلى إخواني وأخواتي الكرام رعاهم الله.
 - ❖ إلى أهل بيت المقدس المرابطين الشجعان.
 - ❖ إلى المجاهدين المسلمين في أنحاء المعمورة.
 - ❖ إلى الأسرى الذين يقبعون خلف القضبان.
 - ❖ إلى الشهداء الذين قدّموا أنفسهم فداءً للإسلام.
 - ❖ إلى أستاذي الفاضل د. شحاته بخيت العمري.
 - ❖ إلى علماء الأمة وإلى كلّ طالب علم يبتغي مرضاة الله.
 - ❖ إلى كلّ مسلمٍ غيورٍ على دينه وعرضه وبلده.
 - ❖ إلى أساتذتي الأفاضل الذين أناروا ليّ الطريق.
- إلى هؤلاء جميعاً أهدي رسالتي

شكر وتقدير

الحمدُ لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أمّا بعدُ:
 فلا يسعني إلا أن أتوجّه إلى الله (ﷻ) بالحمد الخالص والشكر الجزيل، على ما أنعم وأجزل،
 وامتنن به وتفضّل، فله الحمد في الأولى والآخرة، على ما أعانَ وسهّل، وأسبل من النعم ويسرّ، وما
 لطفَ به وقدرَ، له الحمد على أن أعانني ووفقتني على إتمام هذا البحث المتواضع الذي أسأل الله
 تعالى أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله قبساً ينير درباً من دروب الباحثين والمطلعين.
 وامتثالاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]
 ويقول رسوله (ﷺ): (مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ) (١)، واعترافاً بالجميل والعرفان لأهل الفضل؛ فإنّي
 أتقدم في بداية بحثي بأسمى آيات الشكر والعرفان معترفاً لأهل الفضل على فضلهم لأستاذي ومشرفي
 فضيل الأستاذ الدكتور: جمال محمود محمد الهوبي - حفظه الله - الذي مدّني بالتوجيه، والإرشاد،
 والتصويب، ومواصلة متابعتي لأن أخرج بهذه الرسالة العلمية على أفضل صورة.
 والذي تفضل ابتداءً بقبول الإشراف على هذه الرسالة؛ حيث كان نعم الأخ الكبير والموجه
 الناصح الأمين فله منّي كلُّ الاحترام والتقدير، فإله أسأل أن يبارك فيه، ويجعله ذخراً للإسلام
 والمسلمين، وينفع به فجزاه الله عني وعن المسلمين خير الجزاء.
 كما وأتقدم بجزيل الشكر وخالص التقدير إلى عضوي لجنة المناقشة، وهما أستاذي الكريمين:
 الدكتور: عبد الكريم حمدي الدهشان مناقشاً داخلياً.
 والدكتور: عبد الله علي الملاحي مناقشاً خارجياً.
 اللذان تفضلاً بقبول مناقشة هذه الرسالة، وعلى ما سيبدلانه من جهود في تجويد الرسالة، وتصويبها،
 وتنقيحها؛ وإثرائها لتخرج بإذن الله بأفضل ما يكون.
 والشكر موصول بالجميل إلى منارة العلم والعلماء في أرض بيت المقدس، ومخرجة القادة
 والنُبلَاء، هذا الصرح العلمي الشامخ (الجامعة الإسلامية - غزة)، وأخصُّ بالذكر أساتذتي في كلية
 أصول الدين.
 والشكر كذلك موصولاً بالعرفان للدراسات العليا التي أتاحت لي الفرصة لإكمال دراستي العليا.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة . باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (٤٠٣/٣)، حديث رقم (١٩٥٤)،
 وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٩/١).

كما وأتقدم بالشكر الجزيل لكلّ من أعانني بفائدةٍ أو نصيحةٍ، أو توجيهٍ، أو تصحيحٍ، ممّا ساهم في إثراء هذا البحث وإنجازه، وأخص بالذكر الإخوة الكرام:

محمود محمد حنيدق، وبلال منصور المزين، ومحمد راتب أبو زرقة حفظهم الله جميعاً، فجزى الله الجميع عنّي خير الجزاء، ونفع بهم، وأنعم عليهم بوافر الصّحة وكمال العافية في الدّين والدّنيا والآخرة.

ولا أنسى أن أشكر أخي المهندس محمد نديد البطة على ما بذل من جهدٍ كبيرٍ في تنسيق وطباعة هذه الرّسالة كي تخرج بأجمل حُلّة وهيئة.

وفي الختام الله تعالى أسألُ أن يغفر لي تقصيري، ويتجاوز عن هفواتي، فهذا الجهد المتواضع لا شكّ في أنّه لم يخلُ من خطأ أو نقصٍ أو تقصيرٍ، فإن أصبت فمن الله تعالى وحده، وإن أخطأت فمن نفسي، وأسأل الله مغفرته ورضوانه، كما أسأله تعالى أن ينفعني بما علّمني، وأن يوفّقني لما يُحب ويرضى، وأن يجعل أعمالي خالصةً لوجهه الكريم، وأن يتقبلها منّي، إنّه بي وبالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ.

الباحث

مُتَكَلِّمًا

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على محمد (ﷺ) الذي أرسله الله تعالى هادياً ومُبَشِّراً، ونذيراً، صلاةً وسلاماً متلازمين أبداً إلى يوم الدين، أمّا بعدُ: فإنَّ علم التفسير يُعدُّ من أجلِّ العلوم، وأعظَمِها، وأرفعها منزلةً، وأعلاها درجةً، لتعلُّقه بكلام الله الذي يمثل منهاجاً ربانياً لهذه الأمة جميعها، ويعدُّ سبيلاً للهداية وطريقاً للسلامة من الضلال والغواية، كما أنَّه يتمُّ من خلال علم التفسير التعرف على المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، وكيفية تحقيقها في حياة المسلمين، والمتدبر والمتأمل في هذا الكتاب الكريم يجد بأنَّه لا تخلو آيةٌ من آياته إلا وتحمل بين دفتيها وفي طياتها معنى جميل، أو فائدة عظيمة، أو حكمة بليغة، أو تشريع سماوي أصيل، وكلُّ آيةٍ منه تحتوي عدداً من المقاصد العظمى والأهداف الكبرى التي إن ظهرت وكُشِفَت كانت علاجاً شافياً وسبباً ناجحاً وبلساً ناجحاً في تشخيص مشكلات الأمة وهمومها جميعاً.

ومن إحكام الله وكمال رحمته أن جعل كتابه الكريم معجزاً في ألفاظه، وتراكيبه، ومعناه؛ وذلك ليعجز عن الإتيان بمثله كلُّ مخلوق؛ لذلك فإنَّ معاني القرآن ومقاصده كانت ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته الكريمات، فالأحكام مبينة في آيات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصاص في مواقعها، وقد نحا كثيرٌ من المفسرين بعض تلك الأفنان، لكنَّ فناً من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن، هو فن مقاصد القرآن، وهو الذي لم يخصه أحدٌ من المفسرين بكتابٍ كما خصَّوا الأفانين الأخرى^(١). من هذا المنطلق كان عنوان بحثي:

"دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم سورة الأعراف من الآية (١-٨٧)" وبناءً على ذلك فإنَّ علم المقاصد يقوم على الاستنباط العميق والفهم الدقيق للنص القرآني ودلالاته وإيحاءاته، ويحتاج إلى أن يعيش الباحث المسلم في أجواء النصِّ وظلاله ونفحاته البيانية، وهو في الجملة والمحصلة توفيقٌ ربانيٌّ يهبه الله لمن يشاء من عباده، وغاية المفسر من التفسير معرفة المقاصد الجليلة، والغايات الحميدة التي نزل القرآن العظيم لبيانها، فتفسير القرآن وفق الأغراض المراد منه أمرٌ عظيمٌ وعملٌ شريفٌ، فإنَّ القرآن أنزله الله كتاباً لصالح أمر النَّاس كافةً رحمةً لهم، ومراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدِّين والدُّنيا، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيّناً، وتعبَّدنا بمعرفه مراده والاطلاع عليه^(٢). فحريٌّ بنا أن نتمسك بكتاب ربِّنا، ونُدِيم الصِّلَةَ به علماً وعملاً، تلاوةً وتدبيراً وفهماً من أجل استنباط مقاصد القرآن والتي هي عبارة عن حقائق كلية وقواعد جامعة في بيان مراد الله تعالى.

هذا وأسأل الله العظيم، ربَّ العرش الكريم، أن يوفِّقني لما يُحبُّ ويرضَى.

(١) إلا ما كان من ابن عاشور الذي نبَّه على الأغراض العامة لكلِّ سورةٍ ومقاصدها في تفسيره التحرير والتنوير.

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٨/١).

عنوان البحث

" دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم سورة الأعراف من الآية (١-٨٧) " المقدمة: وقد اشتملت على:

أولاً: أهمية الموضوع.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع.

ثالثاً: أهداف البحث والغاية منه.

رابعاً: الدراسات السابقة.

خامساً: منهج البحث.

سادساً: طريقة البحث .

سابعاً: خطة الدراسة.

أولاً: أهمية الموضوع:

١. تعلق هذا الموضوع بأشرف كتاب وأجله وهو القرآن الكريم.
٢. أن هذا الموضوع يبحث في بيان مقاصد القرآن الكريم وأهدافه العامة وتطبيقات ذلك في الواقع الإسلامي.
٣. أن الدراسة التحليلية المقاصدية تصقل شخصية المسلم وتبني فيه قدرات وملكات في فهم كلام الله بما يتناسب وروح العصر، وتبعث على رسوخ الإيمان في النفس البشرية.
٤. إبراز جمال القرآن الكريم، وبلاغته، وكمال نظمه، ووحدة بنائه وترابطه.

ثانياً: أسباب اختيار الموضوع:

١. العمل على إرضاء الله من خلال تدبر آيات كتابه تحقيقاً لقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢]
٢. إبراز المقاصد والغايات التي من أجلها أنزل القرآن الكريم.
٣. الوقوف على مقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم.
٤. أن هذا النوع من التفسير لم يأخذ حظه من العناية والدراسة شأنه شأن أنواع التفاسير الأخرى.
٥. المشاركة في مشروع كلية أصول الدين - قسم التفسير الذي يتناول مقاصد وأهداف سور القرآن الكريم في إطار دراسة تحليلية جامعة.

ثالثاً : أهداف البحث:

١. ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى في الدنيا والآخرة .
٢. إبراز التفسير المقاصدي لسورة الأعراف من آية (١-٨٧).
٣. التأصيل الشرعي لعلم التفسير المقاصدي، واعتبار المقاصد في تفسير القرآن الكريم.
٤. المساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية بهذا النوع من التفسير المتجدد من خلال بحث علمي مُحكَّم.

٥. بيان أنّ هذا البحث التفسيري يؤكد أنّ القرآن الكريم لا تتقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء.
٦. بيان المقاصد والأهداف يحث على العناية بالقرآن الكريم والإقبال عليه.
٧. بيان أنّ التفسير المقاصدي لون من ألوان التفسير المعاصر.
٨. بيان عظمة القرآن الكريم وإعجازه؛ وذلك من خلال دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الآيات القرآنية محل الدراسة.

رابعاً: الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع والبحث لم أعثر على أيّة دراسة علمية محكمة تطرقت لموضوع البحث: "الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم - سورة الأعراف من آية (١-٨٧)" وتبيّن أن الموضوع جديدٌ على المكتبة الإسلامية فهو طرحٌ علميٌّ من قبل قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية - غزة.

خامساً: منهج البحث:

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي في بيان مقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم، فقد قمتُ بجرد كتب التفسير القديم منها والحديث، واستخراج ما تناثر من أقوال المفسرين ممّا فيه كشفٌ لمقصدٍ قرآنيٍّ أو فقهيٍّ أو أصوليٍّ أو شرعيٍّ أو تربويٍّ أو دعويٍّ أو اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ أو سياسيٍّ أو عسكريٍّ أو تاريخيٍّ.

لذلك فقد انتخبت هذا البحث التفسيري المقاصدي من مئة تفسيرٍ كلها موجودة في غزة.

سادساً: طريقة البحث:

١. كتابة الآيات القرآنية بالرسم القرآني، مع عزوها إلى سورها، بذكر اسم السورة ورقم الآية، وذلك كلّهُ في متن الرسالة.
٢. تخريج الأحاديث النبوية الواردة في البحث، وعزوها إلى مصادرها الأصلية، فإن كان الحديث في الصحيحين أكتفي بعزوه إليهما، لتلقّي الأمة لهما بالقبول، وإذا ذكر الحديث في كتب السنن أنقل حكم العلماء الأجلاء على الحديث.
٣. عزو الأقوال المنسوبة لأصحابها بما يحقق الأمانة العلمية، مع توثيقها حسب الأصول.
٤. بيان المصطلحات والكلمات الغريبة الواردة في البحث بالرجوع إلى مظانها، وذكرها في الحاشية.
٥. ترجمة الأعلام المغمورة، بالرجوع إلى مظانها كتب التراجم.
٦. أكتفي عند توثيق الكتاب بذكر اسم الكتاب، واسم المؤلف، ورقم الجزء والصفحة، وأذكر مواصفات المصدر التفصيلية الباقية من رقم الطبعة وتاريخها، ودار النشر وبلد النشر وتاريخ النشر، في قائمة المصادر والمراجع في ذيل الرسالة.
٧. ربط المقاصد القرآنية المستنبطة بواقع الأمة الإسلامية وحالها قدر الجهد والطاقة.

٨. ترتيب الدراسة وتقسيمها إلى فصولٍ، ثمَّ إلى مباحثٍ، ومن ثمَّ إلى مطالبٍ.
٩. تقسيم الحزب القرآني موضع الدراسة إلى مقاطع متناسقة في المعاني.
١٠. عمل فهرسٍ علميةٍ عامةٍ؛ تيسيراً للوصول إلى المعلومة بأقرب طريق وأسهله، وأيسره.
١١. استنباط المقاصد القرآنية تارةً من لغة الآية، وتارةً من سبب نزولها، وتارةً من جو نزولها، وأخرى مما ترشد إليه الآية.
١٢. التدليل على صحة المقاصد القرآنية المستنبطة بأقوال علماء التفسير.

سابعاً: خُطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وأربعة فصولٍ، متوجِّهاً بخاتمةٍ، ثم فهرسٍ علميةٍ.

المقدمة: وقد اشتملت على:

- أولاً: أهمية الموضوع.
- ثانياً: أسباب اختيار الموضوع.
- ثالثاً: أهداف البحث والغاية منه.
- رابعاً: الدراسات السابقة.
- خامساً: منهج البحث.
- سادساً: طريقة البحث.
- سابعاً: خُطة الدراسة.

الفصل التمهيدي

بين يدي سورة الأعراف

ويتكوّن من ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: اسم السورة وعدد آياتها وترتيبها ومحورها.

ويشتمل على ستة مطالب:

المطلب الأوّل: تعريف أهل الأعراف لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تسمية سورة الأعراف.

المطلب الثالث: ترتيب السورة وعدد آياتها.

المطلب الرابع: زمان السورة ومكانها.

المطلب الخامس: محور سورة الأعراف.

المبحث الثاني: المناسبات في سورة الأعراف.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: مناسبة سورة الأعراف لما قبلها الأنعام.

المطلب الثاني: مناسبة سورة الأعراف لما بعدها الأنفال.

المطلب الثالث: مناسبة أوّل سورة الأعراف بآخرها.

المبحث الثالث: مفهوم التفسير المقاصدي.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: تعريف التفسير لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً.

الفصل الأوّل

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١-٣٠)

القرآن الكريم كتابٌ هدايةٍ وإعجازٍ

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأوّل: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١-١٠)

القرآن الكريم كلام الله حقيقةً

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الحروف المقطعة من دلائل الإعجاز

المطلب الثاني: زوال الظالمين حتميةً قرآنيةً

المبحث الثاني: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١١-١٨)

قصة البشرية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: نشأة الحياة دليلٌ على وجود الخالق

المطلب الثاني: الأصل في الوجود التفاضل

المبحث الثالث: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١٩-٢٦)

آدم نبيٌّ مُكَلَّمٌ

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الجنّة مخلوقةٌ

المطلب الثاني: الإسلام حضارة وتقدم

المبحث الرابع: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٢٧-٣٠)

التدافع بين الصلاح والفساد سنةً كونيةً

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: التقوى وصية الله للعباد

المطلب الثاني: تقليد الآباء صدٌّ عن شرع الأنبياء

الفصل الثاني

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣١-٤٦)

إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال

ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣١-٣٧)

الغلو والإسراف انحراف عن منهج الله

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الإسلام يحثُّ على الجمال

المطلب الثاني: إيجاب التوحيد وتحريم الشرك

المبحث الثاني: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣٨-٤٢)

الثواب والعقاب بيد الله

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان

المطلب الثاني: الجنّة سلعة الله غالية

المبحث الثالث: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٣-٤٦)

الهداية أعظم نعمةٍ ومقصودٍ

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: الغلُّ مرضٌ مدمرٌ للمجتمع المسلم

المطلب الثاني: وعد الله حقٌّ

المطلب الثالث: أهل الأعراف مآلهم إلى الجنّة

الفصل الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٧ - ٦٤)

العباد بين فضل الله وعدله

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأول: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٧-٥١)

الجنة حراماً على الكافرين

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الدعاء عبادة

المطلب الثاني: رحمة الله واسعة

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٢-٥٥)

إن الله مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الاستواء معلومٌ والكيف غير معقولٍ

المطلب الثاني: التسخير الكوني نعمةً ربانيةً

المبحث الثالث: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٦-٥٨)

النهي عن الفساد واجبٌ

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الفساد شرٌّ كلُّه

المطلب الثاني: الأمثال من وسائل الهداية

المبحث الرابع: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٩-٦٤)

حاجة البشرية إلى الرسل والرّسالات

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: القصص القرآني حقائقٌ وقيمٌ

المطلب الثاني: جنس الرجال أفضل من جنس النساء

الفصل الرابع

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٦٥-٨٧)

الإقرار بالنبوات واجبٌ

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأوّل: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٦٥-٧٢)

هود رسولُ الله

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الدّين السّمائي واحدٌ

المطلب الثاني: الأخلاق الحميدة سمة المسلمين

المبحث الثاني: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٧٣-٧٩)

صالح رسولٌ من ربّ العالمين

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: لكلّ نبيٍّ معجزةٌ

المطلب الثاني: الكبر بطل الحقّ وغطّ النَّاس

المبحث الثالث: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٠-٨٤)

قصة لوط عليه السلام

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره

المطلب الثاني: النجاة على الله واجبة

المبحث الرابع: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٥-٨٧)

شعيب رسولٌ ربّ العالمين

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الإسلام دين الإصلاح

المطلب الثاني: أفعال الله حميدةٌ

الخاتمة: وتشتمل على:

أولاً: أهم النتائج.

ثانياً: التوصيات التي تمّ التوصل إليها.

ثالثاً: المراجع والمصادر.

رابعاً: الفهارس العلمية.

الفصل التمهيدي بين يدي سورة الأعراف

وتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسم السورة وترتيبها ومحورها.

المبحث الثاني: المناسبات في سورة الأعراف.

المبحث الثالث: مفهوم التفسير المقاصدي.

المبحث الأول

اسم السورة وعدد آياتها وترتيبها ومحورها

اشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأعراف لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تسمية سورة الأعراف.

المطلب الثالث: ترتيب السورة وعدد آياتها.

المطلب الرابع: زمن السورة ومكانها.

المطلب الخامس: المحور الرئيس لسورة الأعراف.

المبحث الأول: اسم السورة وعدد آياتها وترتيبها وفضلها ومحورها

المطلب الأول

تعريف سورة الأعراف

سورة الأعراف أطول السور المكية؛ إذ تبلغ آياتها مائتين وست آيات، وهي تُعتبر بمثابة التفصيل لما ورد في سورة الأنعام من أصول العقائد وكرامات الدين. وقد اشتملت هذه السورة على الحديث عن بدء الخليقة الإنسانية، فذكرت قصة آدم (عليه السلام) وزوجه حواء، وخروجهما من الجنة، ثم عرضت آيات السورة الكريمة كغيرها من سور القرآن الكريم إلى النظر في السموات والأرض وما بينهما من نظامٍ بديع. كما عرضت السورة بعد ذلك لقصص النبيين، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى (عليه السلام)، وذكرت ما دار بين هؤلاء الأخيار وأقوامهم، وختمت السورة بتصوير من يُعطى الهداية ثم ينسلخ منها بضليل الشيطان، وما يكون منه، ثم بيان الدعوة الحق التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).^(١) وهي تتمتع بسمات القرآن المكي من حيث أهداف ومقاصد السورة المكية في بيان عظمة القرآن وجلالة قدره في بيان منهج الدعوة الإسلامية، واعتمدت السورة الكريمة أسلوبين بارزين في عرض الحقائق الشرعية وهما: أسلوب التذكير بنعمة الله تعالى، والتخويف من نعمته وعذابه.

تعريف الأعراف لغة: قال ابن فارس: "عرف: العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، والآخر: على السكون والطمانينة"^(٢).

والأعراف جمع عرف وكل عال مرتفع من الأرض عند العرب يُسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه على ما سواه من جسده^(٣) فالأعراف أعالي السور. الأعراف شرعاً: هو السور الذي بين الجنة والنار يحول بين أهلها^(٤). وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة^(٥).

ولقد اختلفت عبارات المفسرين في تعريف أصحاب الأعراف من هم على عشرة أقوال، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو: أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف، وعلى هذا الرأي أكثر المفسرين، وهو الصواب، وقد تمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف^(٦).

(١) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٢/٣).

(٢) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٨١/٤).

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٤٩٧/٥)، ولسان العرب: ابن منظور مادة (ع ر ف) (٢٤١/٩).

(٤) تفسير مجاهد (ص: ٣٣٧)، وجامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٤٩٧/٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٦/٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٦/٢).

(٦) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢١٢/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٦/٢).

المطلب الثاني

تسمية سورة الأعراف

الظاهر أنَّ تسمية السُّور كان قديماً جداً، حيثُ كان مع بدايات النُّزول، فالتسمية كانت مكية المنشأ؛ لأنَّ الصحابة المكيين قد رووا أحاديث كثيرةً فيها أسماء للسور، ومن الواضح أيضاً أنَّ تسميات السُّور لها علاقة بشيءٍ مذكور في السورة، ومنها ما يكون موضوعه مذكوراً في السورة؛ كسورة (التوبة)؛ سُمِّيت بهذا الاسم لورود موضوع التوبة على النبي (ﷺ) والذين معه والذين خُلفوا، ومنها ما يكون لفظ الاسم وارداً فيها، وعلى هذا أغلب التسميات^(١)؛ ومن ذلك سورة الأعراف، فالأعراف هو الاسم الذي اشتهرت به هذه السورة من عهد الرسول الله (ﷺ) وفي كلام أصحابه الكرام، فاسمها توقيفي؛ فقد أخرج النسائي من حديث عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: "قرأ رسولُ الله (ﷺ) في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرَّقها في ركعتين"^(٢). وفي الصحيح عن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) أنه قال: رأيتُ رسولَ الله (ﷺ) يقرأ في المغرب بأطول الطُّولين، وأطول الطُّوليين؟ الأعراف^(٣). والمراد بالطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام؛ فإنَّ سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام، باعتبار عدد الآيات^(٤). وبهذا الاسم دونت السورة في المصاحف وكتب التفسير^(٥)، يقول الطبري في تفسيره: "تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف"^(٦).

وجه التسمية: وجه تسميتها بسورة الأعراف؛ لأنَّه ذكر فيها لفظ (الأعراف) في قوله: ﴿وَيَبْنِيهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ولم يُذكر في غيرها من سور القرآن، وقد تفردت السورة أيضاً بذكر شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنَّه ذكر بلفظ (سور) في سورة الحديد في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]^(٧). ولا شك أنَّ المتأمل في أسماء السور يجد لطائف من العلم، وتبرز له حقائق ودقائق تدعوه إلى البحث في أسرار القرآن الكريم، وهذا النظر مدعاة للتدبر في أسماء السُّور القرآنية.

(١) المحرَّر في علوم القرآن: مساعد بن سليمان الطيار (ص: ١٧٠).

(٢) أخرجه النسائي في السنن كتاب الافتتاح . باب القراءة في المغرب بـ ﴿المص﴾ حديث رقم (٩٩١)، (١٧٠/٢)، وقد

صححه الألباني. ينظر: صحيح النسائي (١/٢١٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان . باب القراءة في المغرب، حديث رقم (٧٦٤)، (ص: ٩٨)، والفتح (٢/٦٦٧).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢/٦٦٩).

(٥) أسماء سُور القرآن وفضائلها: منيرة الدوسري (ص: ١٩٦)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن: مصطفى مُسلم (١/٣).

(٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (١٢/٢٩١).

(٧) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٦/٨).

المطلب الثالث

زمن السورة ومكانها

كان للسلف الصالح عناية خاصة بمكان نزول القرآن وزمانه، ومنه نشأ علم المكي والمدني، والأصل في معرفة المكي والمدني من السور والآيات إنَّما هو النقلُ عن الصحابة الذين نزل القرآن بين ظهرانهم^(١). فاعتناء علماء الصحابة والتابعين بضبط منازل القرآن آيةً آيةً ضبطاً يحدد الزمان والمكان، هذا الضبط عمادٌ قويٌّ في تاريخ التشريع يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرج في الأحكام والتكاليف^(٢).

وبناءً عليه سورة الأعراف مكيةٌ كلُّها، قاله ابنُ عباسٍ والحسنُ ومجاهدٌ وعكرمةٌ وعطاءٌ وغيرهم^(٣). ونقل غيرُ واحدٍ من المفسرين الإجماع على مكية سورة الأعراف، فقد نقل الماوردي عن علماء السلف أنَّ سورة الأعراف مكيةٌ كلُّها^(٤).

قال العلامة الألويسي: "وأخرج غيرُ واحدٍ عن ابن عباس وابن الزبير أنَّ سورة الأعراف مكيةٌ ولم يستثنيا شيئاً"^(٥). وأكد ذلك الشيخ محمد رشيد رضا فقال: "الأعراف مكيةٌ بالإجماع، وقد أطلق القول في ذلك ابنُ عباسٍ وابنُ الزبير"^(٦).

قال عبدالكريم الخطيب: نزلت بمكة إجماعاً^(٧).

(١) المحرَّر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ١١٢).

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان (ص: ٤٥).

(٣) البحر المحيط: أبو حيان (٢٦٦/٤)، والدُّر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٢٥/٣).

(٤) النكت والعيون: الماوردي (١٩٨/٢).

(٥) روح المعاني: الألويسي (٧٤/٨).

(٦) تفسير المنار: محمد رشيد رضا (٢٩٤/٨).

(٧) التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (٣٦٢/٤).

المطلب الرابع

ترتيب السورة وعدد آياتها

لم يقع خلاف بين الأمة في أنّ ترتيب الآيات القرآنية كان بتوقيف من النبي (ﷺ)، إذ كان يقرؤه على الصحابة ليلَ نهار، ولم يُسمع من أحدهم أنّه خالف في ترتيب آيةٍ من الآيات.

أمّا مسألة ترتيب السور فقد وقع فيها خلافٌ؛ هل كان بتوقيف من النبي (ﷺ) أم باجتهاد من الصحابة الكرام؟ ولكلّ قولٍ وجهٌ معتبرٌ، وحظٌّ من النظر، والخلاف بين هذين القولين قويٌّ جداً، والذي يترجّح القول الأوّل لأمرٍ؛ منها: أنّه قد ثبت في أحاديثٍ عديدةٍ ذكر سور القرآن المتوالية حسب ترتيب المصحف، ومنها عدم ترتيبه على النزول، بحيثُ يقدم المكي على المدني، والذي يظهر من أمر القرآن أنّ الأصل فيه النقل في كلّ أمره، في ترتيب سورته وآياته وأسماء سورته وآياته وفضائل سورته وآياته، ليس لأحدٍ في هذه الأمور اجتهادٌ، وإنّما ظهر الاجتهاد فيما بعد فيما يتعلق برسمه، وضبطه، وزخرفته ووضع أسماء سورته، وترقيم آياته، ووضع رموز وقوفه إلى غير ذلك مما أدخله العلماء الثقات، وتلقّى بالقبول^(١)، فإنّ جميع القرآن كما هو من ترتيب حروفه وكلماته وآياته وسوره حتى جُمع كما هو فإنّه من فعل الله وتوليه جمعه، أوحى به إلى نبيه (ﷺ)، وبينه (ﷺ) للناس، فلا يسع أحداً تقديم مؤخر من ذلك ولا تأخير مقدم أصلاً^(٢)، وعليه فسورة الأعراف هي السورة السابعة في ترتيب المصحف العثماني الإمام، وهي أوّل سورة طويلة نزلت من القرآن، وهي أطول سورة في المكي^(٣)، وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة الجنّ.

وسورة الأعراف من السور التي ابتدأت ببعض حروف التهجّي ﴿المص﴾ ولم يسبقها في النزول من هذا النوع من السور سوى ثلاثة وهي سور: (ن، ق، ص)^(٤)، وهي من السبع الطوال التي جعلت في أوّل القرآن لطولها، وهي سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة، وقدم المدني منها وهي سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، ثمّ ذكر المكي وهو: الأنعام، والأعراف على ترتيب المصحف العثماني اعتباراً بأنّ سورة الأنعام أنزلت بمكّة بعد سورة الأعراف فهي أقرب إلى المدني من السور الطوال^(٥).

(١) المحرّر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ١٩٧).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم (١/١٢٢)، والمحرر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ٩٧).

(٣) تفسير القرآن الكريم: عبدالله شحاتة (٨/٤٢٢).

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي (٥/٢٤١).

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٧)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١/٥٠٨).

عدد آياتها:

يرتبط عد أي السور بموضوع (الفاصلة القرآنية)، وعد الآي يعتمد على معرفة رأس الآية. كما أن له علاقة بعلم (الوقف والابتداء) في حكم الوقف على رأس الآية، وله تعلق بعلم القراءات من حيث حكم إمالة بعض الكلمات إذا كانت رأس آية عند من يميل من القراء. كما أن له تعلقاً بعلم إعجاز القرآن؛ لأن الوقف على رأس الآية مقصد من مقاصد المتكلم بالقرآن، والأصل في هذا العلم النقل، بل هو توقيف من الرسول (ﷺ)، ولا يمكن لأحد أن يخترع موقفاً يجعله رأس آية؛ فإن الصحابة القراء لم يكونوا أهل رأيٍ واختراعٍ، بل كانوا أهل تمسكٍ واتباعٍ. فعدد آيات سورة الأعراف مائتان وست آيات في عد أهل المدينة النبوية والكوفة، ومائتان وخمس في عد أهل الشام والبصرة^(١). وهذا الاختلاف في عد الآي إنما هو في موضع رأس الآية، وليس في زيادة آية أو نقصها، فجملة ما نزل به القرآن لم يقع فيه خلافٌ، وإنما وقع في تحديد رأس الآية، فمن جعل سورة الأعراف مائتين وست آيات، أو مائتين وخمس آية، لم ينقص الأول في مقدار النازل، ولم يزد الثاني فيه، وإنما اختلفوا في موطن رأس الآي فقط^(٢).

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٧/٨).

(٢) التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب (٤/٣٦٢)، والمحرر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ١٧٦. ١٨٠).

المطلب الخامس

المحور الرئيس لسورة الأعراف

موضوع سورة الأعراف ومحورها الرئيس:

موضوع السورة هو مجمل ما اشتملت عليه السورة من المعاني العامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والسور التي أنزلها الله بمكة مثل: الأنعام، والأعراف، وذوات: ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿طس﴾ ونحو ذلك، هي متضمنة لأصول الدين، كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر"^(١).

وقد قصَّ الله تعالى فيها قصص الكفار الذين كذبوا الرُّسل وكيف أهلكهم، ونصر رسله والذين آمنوا. بناءً عليه فإنَّ لكلِّ سورة قرآنية مذاقها ولونها وأسلوبها المميز، بل وموضوعها الذي اختصت به واختص بها، فسورة الأعراف مكية، وموضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي العقيدة والإيمان، لكن هذه السورة تتحدث عن العقيدة الإسلامية في تاريخها البعيد الضارب في عمق التاريخ إلى مبدأ الوجود البشري، وتسير مع هذا التاريخ عبر رسالات الرُّسل والانبياء، ودعوتهم أقوامهم، وردَّ أقوامهم عليهم، مروراً بنوح وهود وصالح ولوطٍ وشعيب (عليهم السلام)، وانتهاءً بموسى (عليه السلام) وما لقي من قومه، فسورة الأعراف وهي تعالج موضوع العقيدة وتعرض موضوعها في مجال التاريخ البشري في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنَّة والملا الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها، في هذا المدى المتطاوَل تعرض موكب الإيمان من لدن آدم (عليه السلام) إلى محمد (صلى الله عليه وآله) تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة الإيمانية، ويمضي بها على مدار التاريخ يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيلٍ، وقبلاً بعد قبيلٍ^(٢). وحين نستعرض السورة الكريمة نجد آياتها من مبدئها إلى منتهاها تدور حول هذا الموضوع، وتعالجه، وتشكل كلُّ آيةٍ أو مقطعٍ من مقاطع السورة لبنة في بنائه المحكم المتين، كما أنَّ سورة الأعراف تطوف بتلك القلوب المؤمنة في آفاق السموات والأرض، وفي مشاهد القيامة في الآخرة، كما تطوف بهم في مصارع الأمم المكذبة للاعتبار.

وهذه السورة المكية أنموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطر، ويركزها في القلوب، عقيدة الإقرار بالله، خالق الكون والنَّاس، ومدبر السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله، والتصديق برسالة محمد (صلى الله عليه وآله) الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله، والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء.

وسورة الأعراف تعالج تلك القضية بأسلوب رائد فهي تعرضها في آياتها الأولى ثم تمضي بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب، منيرة للروح، مثيرة للتأمل والتدبر كما تقدم أدلة وبراهين على تلك

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١/١٢٣)، وعلم مقاصد السور: محمد الربيعية (ص: ٨).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٤٤)، والقصص القرآني إبحاؤه ونفحاته: فضل حسن عباس (ص: ٢٨٩)،

والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: مصطفى مسلم (٨/٣).

القضية معروضة في صفحة الكون ومشاهده، وفي نشأة الإنسان وأطواره وفي مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة والحركة وفي مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقتها! كذلك تبين السورة صوراً للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها. وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها وتعرض صوراً للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان، يشهده كل قارئ لهذا القرآن^(١).

وسورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت قصص الرسل والأنبياء بالتفصيل، ومهمتها مهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله (ﷻ)، وتقدير الوحي والرسالة، وحاصله أن موضوع السورة يدور حول تاريخ الناس، آدم وزوجه حواء وذريتهما ثجاة ما يجب عليهم من اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وما يحرم عليهم من اتباع أولياء من دون الله، وبيان ما أثبتته الواقع من أن الناس قليلاً ما يتذكرون عبر التاريخ البشري^(٢).

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٢٨٠٢/٥).

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبير: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٣٩/٤).

المبحث الثاني

علاقة السورة بغيرها من السور

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: مناسبة سورة الأعراف لما قبلها الأنعام.

المطلب الثاني: مناسبة سورة الأعراف لما بعدها الأنفال.

المطلب الثالث: مناسبة أول سورة الأعراف بآخرها.

المطلب الرابع: مناسبة محور سورة الأعراف لمقاطعها.

المطلب الأول

مناسبة سورة الأعراف لما قبلها الأنعام

إنَّ سورة الأعراف كسورة الأنعام، موضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي، وهو العقيدة الإسلامية، فإنَّ موضوع سورة الأنعام هو العقيدة، وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة، ولكن سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها، وتواجه الجاهلية مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق، أمَّا سورة الأعراف فتأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوع العقيدة في مجال آخر، هو مجال التاريخ البشري ورحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملا الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها، وفي هذا المدى المتناول تعرض موكب الإيمان من لدن آدم (ﷺ) إلى محمد (ﷺ) تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ^(١).

إنَّ علاقة سورة الأعراف بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥] واستطرد منه لما بعده، وإلى قوله آخر السورة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي وذكر الأمر باتباعه^(٢).

ثم جاء في ختام سورة الأنعام الحديث عن الصراط المستقيم الذي يمثل الدين الخالص، والمنهج الصافي الذي لا يقبل عند الله سواه؛ إنَّه الإسلام، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، وجاء في سورة الأعراف الأمر باتباع الدين الحق، والتحذير من الشرك، واتخاذ الأولياء من دون الله، قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وفي أواخر سورة الأنعام جاء الحديث عن المعاد والمصير إلى الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وفي أول سورة الأعراف بيان لما يتم في ذلك اليوم من سؤال للعباد، وإنبائهم بما كان منهم، ووزن لأعمالهم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ. وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٦-٨]. وفي أواخر سورة الأنعام بيان أن الله استخلف النَّاسَ في هذه الأرض، وجعلهم أمماً تتلاحق ويخلف بعضها بعضاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وفي أوائل سورة الأعراف حديث عن الأرض، وخلق آدم (ﷺ)، وتصويره، وإسكانه، هو وزوجه الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض للعيش فيها ابتلاءً^(٣).

وبهذا يتبين أنَّ هناك علاقة وثيقة بين سورة الأعراف وسورة الأنعام التي قبلها.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٤٤/٣)، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: مصطفى مسلم (٢/٣ - ٣).

(٢) البحر المحيط: أبو حيان (٢٦٦/٤).

(٣) الأساس في التفسير: سعيد حوى (١٨٣٨/٤)، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: مصطفى مسلم (٣/٣).

المطلب الثاني

مناسبة سورة الأعراف لسورة الأنفال الآتية بعدها

ذكر البقاعي^(١) أنّ مقصد سورة الأنفال تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة المثمر لنصر الدّين، وإذلال المفسدين المنتج لكلّ خير، والجامع لذلك كله أنّه لما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله، والاجتماع عليه لما ثبت من تقرده واقتداره، كان مقصود هذه إيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضى والتبرؤ من كلّ حول وقوة إلى من أنعم بذلك، ولو شاء سلبه، وأدل ما فيها على هذا قصّة الأنفال التي اختلفوا في أمرها وتنازعا قسمها فمنعهم الله منها، وكف عنهم حظوظ الأنفس والأزمهم الإخبات والتواضع، وأعطاهما نبيه(ﷺ) لأنّه الذي هزمهم بما رمى من الحصبات التي خرق الله فيها العادة بأن بثها في أعين جميعهم، وبما أرسل من جنوده، فكان الأمر له وحده، يمنحه من يشاء، ثم لما صار له النبي(ﷺ) رده فيهم منة منه عليهم وإحساناً إليهم.

فمناسبتها لسورة الأعراف أنّه لما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء(ﷺ) مع أممهم في الأعراف ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم(ﷺ) مع قومه، وتقدم أنّه لما أطنب(ﷺ) في قصة موسى(ﷺ) كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع، فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين، الأنفال في أوّل أمره وأثانه، وبراءة في ختام أمره وانتهائه، وفرق بين القصتين، وذلك أن قوم موسى(ﷺ) كانوا في سوء العذاب، وكانوا يعلمون عن أسلافهم أن الله سيذكرهم وينجيهم من أيدي القبط، فلما أتاهم موسى(ﷺ) وبيّن لهم الآيات التي أمره الله بها لم يشكوا في أنّه الموعود به من رحمة الله لهم، وإتيانه نفع لهم عاجل مع ما فيه من النفع الآجل، فأطبقوا على أتباعه، وكانوا أكثر من ستمائة ألف مقاتل، ومع ذلك فقد كانوا يخالفون عليه في كل قليل، ولا يجدون قلباً يواجهون بها القبط في الإباء عن امتثال أوامره، وأمّا محمد(ﷺ) فأتى قومه ولا حس عندهم من نبوة ولا علم لهم بها، ولم يكونوا تحت ذل أحد، بل كانوا ملوك العرب، فعندهم أنّه جاء يسلبهم عزهم ويصيرهم له تبعاً فخالفوا أشد المخالفة ولم يدعوا كيداً حتى باشره في رده عما جاء به، ومع ذلك فنصره الله عليهم ولم يزل يؤيده حتى دخل النّاس هم وغيرهم في دين الله أفواجاً، وأظهر دينه على الدّين كلّها كما وعده(ﷺ)، ثم أيدّ أمره من بعده ولم يزل أتباعه ظاهرين ولا يزلون إلى يوم الدّين.

(١) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين، مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، ولد سنة(٨٠٩هـ) وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق(٨٨٥هـ) من مؤلفاته: عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور. ينظر: الأعلام: الزركلي(٥٦/١).

فبين القصتين فرقان لأولى الإبصار والإتقان، وأمّا مناسبة أولها لآخر تلك فقد تبين أن آخر الأعراف آخر قصة موسى (عليه السلام) المختمة بقصة بلعام، وأن ما بعد ذلك إنّما هو تتمات لما تقدم لا بدءاً منها وتتمات للتتمات حتى كان آخر ذلك مدح من أهلهم لعنديته (عليه السلام) بالإذعان وتمام الخضوع، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالوية، اقتضى ذلك سؤالاً عن حال الذين عند المخاطب (عليه السلام) فأجيب بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأعراف: ١] أي الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة كما علمتم ذلك، فهم المستحقون للأنفال وليس لهم إليها التفات وإنّما همهم العبادة، والذين عندك إنّما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك فهم يسألون ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ التي توليتهم إياها بأيدي جنودي سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها؛ لأنّ ذلك يفضي إلى افتراق الكلمة والضعف عن مقاومة الأعداء^(١).

والخلاصة أنّ مناسبة خاتمة الأعراف لفاتحة الأنفال أنّ سورة الأعراف ختمت بحال أهل القرب، وما فيه من العبادة، وهم الملائكة الأبرار، وقد تولوا حقيقة النصرة يوم بدر، وافتتحت سورة الأنفال بحال أهل النصرة، وقد حصلت منهم المنازعة والمسائلة عن الأنفال التي لا ينبغي الانشغال بها؛ لأنّها تضعف عن مقاومة الأعداء، وتضعف عن حقيقة القرب من الربّ المعبود، الذي له الحول والطول المطلق في أمر دينه ورسوله (عليه السلام).

المطلب الثالث

مناسبة أول سورة الأعراف بآخرها

قال الحافظ ابن حجر: "إنّ السورة القرآنية مرتبطٌ بعضها ببعض"^(٢). فالمناسبة بين افتتاحية سورة الأعراف وخاتمتها، هي افتتاح السورة الكريمة ببيان إنزال القرآن الكريم إلى الرسول (عليه السلام)، ودعوته إلى الإنذار به، وتبليغه، وتذكير المؤمنين به، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] واختتمت السورة الجليلة بالدعوة إلى الاستماع لهذا القرآن والإنصات لتلاوته، والأمر بذكر الله تعالى، والتحذير من الغفلة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤-٢٠٥]^(٣).

وكذلك ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد، فكانت الدعوة إلى الإيمان بالله الخالق المعبود في البدء والختام^(٤).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي (٢١٧/٨).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٠٤/٢)، وصفة صلاة النبي (عليه السلام): الألباني (٣٩٥/١).

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: مصطفى مسلم (٣/٣).

(٤) صفوة التفاسير: محمد على الصابوني (٤٣٤/١)، وتفسير المنير: الزحيلي (١٣٥/٨).

المطلب الرابع

محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة

إنَّ المحور الذي تدور حوله سورة الأعراف هو العقيدة الإسلامية عبر رحلة البشرية منذ وجودها الأوَّل ومسيرها الطويل، إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة؛ فقد خلق الله تعالى آدمَ وزوجه حواء وأسكنهما الجنةَ، وحذرهما من عدوهما الشيطان، ومن كيدِه ووسوسته، ثم بين كيف وسوس لهما الشيطانُ حتى أخرجهما من الجنةَ، فأهبطا إلى الأرض، وبدأت رحلة البشرية على الأرض التي خلقت وهيئت لحياة البشر ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠]. ثم تاب الله تعالى على آدم وزوجه، وأهبطهما إلى الأرض ابتلاءً، وخاطب الله تعالى بني آدم محذراً إياهم من الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنةَ، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، وبيَّن لبني آدمَ أنَّه سيرسل لهم رسلاً يقصون عليهم آيات الله وينذرونهم، ثم دعاهم الله إلى الاستجابة لنداء الإيمان إذا أردوا أن يعودوا إلى الجنة التي أخرج أبواهم منها.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى قصص الأنبياء (ﷺ) مع أقوامهم، مبتدئاً بقصة نوح (ﷺ) مع قومه، ونصحه لهم، وردهم عليه، ثم بيان عاقبة كفرهم وتكذيبهم، ثم قصة هود، وصالح، ولوط، وشعيب، ثم يعقب السياق القرآني على هذه القصص قبل أن ينتقل إلى قصة موسى (ﷺ) مع فرعون وقومه، ودعوته لهم، وتكذيبهم ورفضهم للآيات، ونقضهم للعهد والميثاق، ثم عاقبة كفرهم واستكبارهم بالغرق والهلاك، وأمَّا جزاؤهم في الآخرة فأشد وأعظم، وفي المقابل نجاة موسى ومن معه واستخلافهم في الأرض للابتلاء.

ثم يقف السياق القرآني طويلاً مع قصة موسى (ﷺ) وهو يُعلم قومه ويربيهم ويغرس في نفوسهم عقيدة الإيمان بالله، ويحذرهم من الشرك.

تأتي التعقيبات الختامية في السورة لإبطال اتخاذ الشركاء، وبيان أنَّهم لا يخلقون شيئاً ولا يستطيعون نصراً لأنفسهم فضلاً عن أن ينصروا أولياءهم، ثم الدعوة إلى التمسك بولاية الله (ﷻ) ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم بيان ضعف كيد الشيطان، وأَنَّه قاصر على الوسوسة والأذى التي يطردهما ذكرُ الله، ويزيل آثارهما التذکر والانتباه ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وفي ختام سورة الأعراف دعوة للاستماع إلى هذا الكتاب العظيم والإنصات إليه، وذكر الله تعالى وحضور القلب معه، وبيان أنَّ المسلم حين يكون في ذكر الله والإنابة إليه يكون في انسجام مع هذا الكون كلِّه، ومع العباد الأطهار من الملائكة الكرام^(١).

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم: مصطفى مُسلم (٤/٣ - ٦).

المبحث الثالث

مفهوم التفسير المقاصدي

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف التفسير لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً.

المطلب الأول

تعريف التفسير لغةً واصطلاحاً

التفسير في لسان العرب: التفسير مصدر على وزن تفعليل من الفَسَّرَ، وهو البيان، قال ابن فارس: "الفَسَّرُ: كلمةٌ تدلُّ على بيانِ الشيءِ، وإيضاحه"^(١). تقول فسرتُ الشيءَ بالتخفيف أفسره فسراً وفسرته بالتشديد أفسره تفسيراً إذا بينته. وقال الراغب الأصفهاني: "الفَسْرُ: إظهارُ المعنى المعقول"^(٢). وجاء في لسان العرب لابن منظور^(٣): "الفَسْرُ: البيان وكشف المغطى، والتفسير: البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المُشكِل"^(٤). وأصل الفسر: نظر الطبيب إلى الماء ليعرف العلة، وعليه فإنَّ المعنى الأصليَّ لمادة (فسر) هو البيان والكشف والتوضيح والإظهار، وكلُّ تصريحاتٍ واشتقاقاتِ الكلمة ترجعُ إلى هذا المعنى الأصليِّ الجامع^(٥).

التفسير اصطلاحاً: هو بيان المراد باللفظ القرآني^(٦).

للعلماء والمفسرين عدَّةُ تعريفاتٍ لمصطلح (تفسير القرآن) أختار منها تعريفين:

الأول: تعريف الزركشي^(٧)، قال: "التفسير: علمٌ يفهمُ به كتابُ الله، المنزَّلُ على نبيه محمد (ﷺ)، وبيان معانيه، واستخراجُ أحكامه وحِكَمِهِ"^(٨). الثاني: تعريف محمد الطاهر ابن عاشور^(٩): قال: "التفسير: اسمٌ للعلم الباحثِ عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يُستفادُ منها، باختصارٍ أو توسُّعٍ"^(١٠). والخاصةُ أن تفسير القرآن علمٌ يتمُّ به فهمُ القرآن، وبيانُ معانيه، وفق مُراد الله تعالى.

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٥٠٤/٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٣٦).

(٣) هو: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، صاحب معجم (لسان العرب)، الإمام اللُّغوي الحجة، وليّ القضاء في طرابلس، روى عنه السُّبكي والذهبي، عنده تشيُّعٌ بلا رفضٍ، تُوفِّي سنة (٧١١هـ). ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي (٢٤٨/١).

(٤) لسان العرب: ابن منظور (٥٥/٥).

(٥) التفسير الموضوعي: صلاح عبدالفتاح الخالدي (ص: ١٢).

(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٦٢٧/٩).

(٧) هو: أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله بدر الدين الزركشي، مفسر، فقيه، أصولي، له مصنفات كثيرة في عدة فنون، من كتبه: البرهان في علوم القرآن، والبحر المحيط في أصول الفقه، تُوفِّي سنة (٧٩٤هـ). ينظر: طبقات المفسرين: الأندروني (ص: ٣٠٢).

(٨) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (١٣/١).

(٩) ابن عاشور: هو محمد الطاهر ابن عاشور، ولد سنة (١٢٩٦هـ)، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه، مفسرٌ، لُغويٌّ، أديب، عين عام ١٩٣٢م شيخاً للإسلام مالكيًّا، من مؤلفاته: تفسير التحرير والتتوير (١٥ مجلداً) كان مدة تأليفه أربعين سنةً، تُوفِّي سنة (١٣٩٣هـ). ينظر: الأعلام: الزركلي (١٧٤/٦).

(١٠) التحرير والتتوير: ابن عاشور (١١/١).

المطلب الثاني

تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً

المقاصد لغةً: المقاصد كلمة على وزن مفاعل، وأصله من الجذر الثلاثي (قَصَدَ)، قال ابن فارس: "قصد القاف والصاد والدال أصولٌ ثلاثة: يدلُّ أحدها على إتيان شيءٍ، وأمّه، والآخر على اكتنازٍ في شيءٍ"^(١)، قال الراغب: "القَصْدُ: استقامة الطريق"^(٢).

وقال ابن جني^(٣): "أصل مادة (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام والتوجه والتّهوض نحو الشيء، هذا أصله في الحقيقة"^(٤)، وملخص كلام اللغويين أنّ مادة (قصد) في الاستعمال العربي تدلُّ على معاني الاستقامة والاعتدال والتوجه والامتلاء، والعزم^(٥)، فالمقصد هو العمدة الذي يتجه إليه الكلام ويرجع إليه، وعليه فيمكن تحديد مقصد السورة بأنّه: "مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها"^(٦). أمّا علم المقاصد فقد عرفه البقاعي بأنّه: "علمٌ يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه: آيات السور، كلّ سورة على حياتها"^(٧).

المقاصد اصطلاحاً: للمقاصد عدة تعريفات اصطلاحية منها:

١. تعريف الشاطبي^(٨): "تحقيق امتثال المكلف لأوامر الشريعة"^(٩).
٢. تعريف ابن عاشور: "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختصر ملاحظتها بالكون على نوع خاص من أحكام الشريعة"^(١٠).

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس (٩٥/٥).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٠٤).

(٣) عثمان بن جنيّ الفارسي الموصلي، أبو الفتح، ولد ب(الموصل) إمام العربية، وأحدق أهل الأدب، وأعلمهم بالنحو والتصريف، ووجوه القراءات، أخذ عن أبي عليّ الفارسي دهرًا، ولما توفي أبو عليّ أخذ مكانه ببغداد، له تصانيف كثيرة، منها: الخصائص، و المحتسب، وله شعر، تُوفي ببغداد سنة (٣٩٢هـ) عن نحو ٦٥ عاماً. ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي (١٧/١٧)، بغية الوعاة: السيوطي (١/٢٦)، والأعلام: الزركلي (٤/٢٠).

(٤) لسان العرب: ابن منظور (٥/٣٦٤٢).

(٥) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس (٩٥/٥)، ولسان العرب: ابن منظور (٥/٣٦٤٢)، وتاج العروس: الزبيدي (٩/٣٨).

(٦) علم مقاصد السور: محمد بن عبدالله الربيعية (ص: ٧).

(٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي (١/١٥٥)، وعلم مقاصد السور: محمد بن عبدالله الربيعية (ص: ٧).

(٨) الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم ابن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الشهير ب"الشاطبي" من أهل غرناطة بالأندلس، من أئمة المالكية، محدثٌ أصوليٌّ، ولغويٌّ حافظٌ، فقيه من علماء المقاصد، من كتبه: الموافقات، والاعتصام، توفي سنة (٧٩٠هـ). ينظر: معجم المؤلفين (١/١١٨)، والأعلام: الزركلي (١/٧٥).

(٩) نظرية المقاصد عند ابن عاشور: اسماعيل الحسيني (١/١١٥).

(١٠) مقاصد الشريعة الإسلامية: ابن عاشور (ص: ١٦٥).

٣. تعريف الدكتور القرضاوي: "الغايات التي تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهي والاتجاهات، وتسعى الأحكام الجزئية إلى تحقيقها في حياة المكلفين، أفراداً وأسرّاً لمصلحة العباد"^(١).

التعريف المختار للمقاصد:

يرى الباحث أنّ المقاصد هي الأسرار والغايات الحميدة التي وضعها الشارع في المعاني والحكم وكافة شؤون الحياة لتحقيق المصلحة العامة للعباد، وهي النتائج المرجوة بعد تحقيق الأهداف والغايات من المعاني والأحكام المتعلقة بشؤون الحياة لجلب المنافع ودفع المضار حسب الطاقة البشرية، فالمقاصد في التفسير هي الغايات التي تهدف إليها السورة وترجع إليها جميع موضوعاتها ومعانيها^(٢).

التفسير المقاصدي:

إنّ من أهم ما يبني عليه هذا البحث هو ضرورة أخذ النصوص القرآنية بمقاصدها، وضرورة إدخال التفسير المقاصدي المصلي في معانيها وأحكامها. والمقاصد العامة، هي أصول قطعية لكلّ اجتهادٍ ولكلّ تفكيرٍ إسلامي؛ فلا بدّ من اعتبارها في فهم نصوص الكتاب والسنة.

ومن هنا يرى الباحث أنّ إحياء علم المقاصد القرآني هو عملٌ ضروريٌ لتجديد التفسير وتقوية دوره ومكانته في حياة المسلم المعاصر.

ونظرية المقاصد القرآنية سندها استقرار تفاصيل الشريعة الغراء فيما نطقت به النصوص القرآنية القطعية، ثبوتاً ودلالةً، من تعليقات لإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وشرح الشرائع. وهي تعليقات تنبئنا أنّ الله تعالى إنّما أراد بهذا الكتاب رحمةً للعالمين، وتركياً للنَّاس وتعليمهم، وإقامة العدل بينهم، وحفظ الفطرة، ومن مقاصد القرآن الكبرى تصفية النفوس وتركيتها من الأدران، وإصلاح أحوال العباد^(٣). هذا هو التسليم الجازم بكون القرآن الكريم إنّما وأنزل لجلب مصالح العباد، ودرء مفسدهم في الدنيا والآخرة.

لذلك فقد وجب على الآخذ في فن التفسير أنّ يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبينها.

(١) دراسة في فقه المقاصد بين المقاصد الكلية والنصوص الشرعية: القرضاوي (ص: ٢٠٠).

(٢) علم مقاصد السور: محمد بن عبدالله الربيع (ص: ٨).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١/٣٨).

والمقاصد القرآنية الأصلية كلها ترجع إلى مقصدين عظيمين هما:

المقصد الأول: بيان التوحيد الخالص: فالتوحيد في الإسلام هو كل الإسلام، والقرآن الكريم كُله يدور حول توحيد الخالق، آيات القرآن الكريم إمّا إخبارٌ عن الله وصفاته وخلقه وأفعاله وتدبيره، وإمّا أمرٌ ونهيٌّ وهما من لوازم ربوبيته وقيوميته على خلقه، وإمّا بيانٌ للثواب بأنواعه، وهو جزاءٌ من أطاعه واتَّبَعَ رسَلَه الذين أرسلهم بشريعته القائمة على توحيدِه في الربوبية والأسماء والصفات والألوهية، وإمّا بيانٌ للعقاب بأنواعه وهو جزاءُ المخالفين لشرعه، وإمّا إخبارٌ عن أحوال المكذبين الماضين وهو بيانٌ لمن خرج عن مقتضى توحيدِه وعبادته. فالتوحيدُ هو لبُّ الإسلام وأساسُه، ومنه تنبثق سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومناهجه، وكلُّ ما فيه عبادات وأحكام يرسخه ويقويه ويثبتُه في قلوب المؤمنين^(١).

والمقصد الثاني: تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أي في الدنيا والآخرة؛ فإنَّ مقاصد الإسلام التي دلَّ استقراء نصوص الشريعة عليها، هي تحقيق مصالح العباد وردء المفساد والأضرار عنهم في العاجل والآجل، وبهذا كله تتحقق لهم السعادة الحقة في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى، وبهذا صرَّح المحققون من علماء الإسلام، قال الإمام العز بن عبد السلام: "إنَّ الشريعةَ كلَّها مصالح؛ إمّا درءُ مفساد، أو جلب مصالح"^(٢)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنَّ الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفساد وتقليلها"^(٣)، وقال تلميذه المحقق ابن قيم الجوزية: "الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلُّها ورحمةٌ، ومصالح كلها وحكمة كلها"^(٤)، وقال الشاطبي في موافقاته: "إنَّها - أي: الشريعة - وضعت لمصالح العباد"^(٥).

الواقع أنَّ ما ذكره هؤلاء الأئمة الأعلام حقٌّ ووصفٌ ثابتٌ للإسلام، تدلُّ عليه نصوصه القرآنية والحديثية، ويكفي هنا ذكر نصٍّ واحدٍ في تعليل رسالة محمد (ﷺ)، يتضمَّن ما قالوه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وإمَّا كانت رسالته (ﷺ) رحمةً للعالمين؛ لأنَّها تتضمن تحقيق المصالح للعباد في دنياهم وآخرتهم، وتدرأ عنهم المفساد والأضرار في الأولى والآخرة.

(١) أصول الدعوة: عبدالكريم زيدان (ص: ٢٦).

(٢) القواعد: العز بن عبدالسلام (٩/١).

(٣) منهاج السنة النبوية: ابن تيمية (١٤٧/١، ٢٤٠/٢، ١١٨/٣).

(٤) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن قيم الجوزية (١٠/٣).

(٥) الموافقات: الشاطبي (٣٨٤، ٦/٢)، وأصول الدعوة: عبدالكريم زيدان (ص: ٢٨٩).

الفصل الأوّل

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٣٠-١)

القرآن الكريم كتابٌ هدايةٍ وإعجازٍ

ويتكون من أربعة مباحث:

المبحث الأوّل: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (١٠-١).

المبحث الثاني: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (١١-١٨).

المبحث الثالث: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (١٩-٢٦).

المبحث الرابع: الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٢٧-٣٠).

المبحث الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١ - ١٠)

القرآن الكريم كلام الله حقيقةً

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الحروف المُقطّعة من دلائل الإعجاز.

المطلب الثاني: زوال الظالمين حتميةً قرآنيةً.

المبحث الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١ - ١٠)

القرآن الكريم كلام الله تعالى حقيقةً

توطئة وتمهيد:

سورة الأعراف من السور المفتحة بالأحرف المقطعة، والأحرف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، هي للتحدي والمعجزة والإعجاز، ولإشارة إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله، حيث يضع بين أيدي الكافرين المنكرين المادة الأولية لصياغة وتركيب الكلام العربي، وهي الحروف. وكأنه يقول لهم: القرآن كلام عربي مبين، وأنتم تتكلمون العربية، فإن كنتم في شك من أنه كلام الله فهي الأحرف المقطعة، المادة الأولية للكلمات القرآنية، فصوغوا منها كلاماً مثل القرآن في الفصاحة والبلاغة والبيان، فإن عجزتم فاعلموا أنه كلام الله رب العالمين^(١)، آية: ﴿المص﴾ تسجيل لإعجاز القرآن، وإنهاء على عامة المشركين عجزهم عن معارضته، وهو مؤلف من حروف كلامهم، وكفى بهذا نداء على تعنتهم^(٢).

يقول الأستاذ سيد قطب^(٣): "إن في النصوص القرآنية قوة خفية، وعنصراً مستكناً، يجعل لها سلطاناً وإيقاعاً في القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغاة، مما يقوله البشر في جميع الأعصار، وهي ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدل فيها؛ لأن السامع يدركها، ويميزها، ويهتز لها، من بين سائر القول، ولو لم يعلم سلفاً أن هذا قرآن، والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة في شتى أوساط الناس، فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التي يعرفون، ونمطه هو هذا النمط المعجز الذي لا يمارون في إعجازه، أمام التجربة الواقعة، وأمام موازين القول التي يقر بها الجميع، إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشى بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز، ويرتجف

(١) لطائف قرآنية: صلاح الخالدي (ص: ٣٥)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية: (ص: ٢).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١/٢٢٧).

(٣) سيد قطب: سيد بن قطب بن إبراهيم، مصري، مفكر وأديب، وداعية إسلامي كبير، من مواليد قرية موشا في أسيوط بمصر سنة (١٣٢٢هـ)، تخرج من كلية دار العلوم بالقاهرة سنة (١٣٥٣هـ)، وتقلد عدة وظائف، أوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم في أمريكا سنة (١٩٤٨م) ولما عاد انتقد البرامج المصرية، وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تنمسي والقيم الإسلامية، وبنى على هذا استقالته سنة (١٩٥٣م)، انضم إلى صفوف "الإخوان المسلمين"، وسجن معهم، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم، وذلك أيام حكم الطاغية عبد الناصر سنة (١٩٦٦م)، له مؤلفات عديدة تركّز على نقد الحياة الغربية، وتدعو إلى تحكيم الإسلام في بلاد المسلمين، ومنها: في ظلال القرآن، والمستقبل لهذا الدين، ومعالم في الطريق. ينظر: الأعلام: الزركلي (٣/١٤٧).

ويتزائل، ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتح القلب، وصفا الحس، وارتفع الإدراك، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة، مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة غير بشرية على وجه اليقين، وأنه تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين^(١).

وقد اشتمل هذا المقطع القرآني على ثماني حقائق دينية هي:

١. بيان أن القرآن مُنزلٌ من الربِّ الخالق للعالمين المخاطبين بما جاء فيه.
٢. بيان وظيفة الرسول محمد (ﷺ) بالنسبة إلى القرآن، بوصف كونه رسولاً، وهي تبليغه وبيانه، وأخيراً الإنذار بما جاء فيه من إنذارات، وبيان ما يجب على النَّاس تجاه ربِّهم والكتاب المنزل إليهم، فالمطلوب من المؤمنين أن يكون هذا الكتاب ذكرى لهم دواماً.
٣. توجيه الله الأمر لكلِّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان والابتلاء بأن يتخذوا ربِّهم هو وليهم، وأن لا يخذوا من دونه أولياء على خلاف ما تقتضيه ولايته لهمن وبأن يتَّبِعُوا ما أنزلَ إليهم من ربِّهم.
٤. بيان حقيقة من حقائق واقع المجموع البشري، وهي أنهم قليلاً ما يتذكرون ما يجب عليهم تجاه ربِّهم لتحقيق سعادتهم الأبدية.
٥. الإلماح الى الإنذار بمعجل العقاب في الحياة الدنيا قياساً على من أهلكهم الله من أهل القرى السابقين بسبب كفرهم، وعدم اتباعهم ما أنزل الله إليهم، وتكذيبهم رسل ربِّهم، مقروناً ببعض تفصيل عن أسلوب الله تعالى في إهلاكهم.
٦. توجيه الإنذار بمؤجل العقاب إلى يوم الدين، من خلال عرض لمحاتٍ من عُنصرين من عناصر محكمة العدل الربانية يوم الدين، وهما عنصر السؤال، وعنصر الوزن لأعمال العباد.
٧. بيان أن الله قد جعل النَّاس في الأرض ممتَّعين بأتمَّ كيفية لتحقيق امتحانهم في الحياة الدنيا، بين طريق الشكر لربِّهم، وطريق الكفر به، إذ مكَّنهم في الأرض فجعلهم قادرين على أن يتصرَّفوا فيها على ما يُريدون من طاعةٍ لربِّهم بإرادة الخير وفعله، أو معصيةٍ لربِّهم بإرادة الشرِّ وفعله، وجعل لهم فيها وسائل عيشٍ مختلفة ليلوهم فيما آتاهم.
٨. بيان حقيقة من حقائق واقع حال المجموع البشري، وهي أنهم قليلاً ما يشكرون^(٢).

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٢٨٠٤/٥).

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبر: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (٤١/٤).

المطلب الأول: الحروف المُقطّعة من دلائل الإعجاز وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: الحروف المُقطّعة في أوائل السور إعجازٌ و تبكيّت^(١).

ويدلُّ على هذا المقصد اللُّغوي الفريد قول الله تعالى: ﴿المص﴾ [الأعراف: ١].

يمكن دراسة هذا المقصد دراسة تحليلية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية:

المص: اختلف المفسرون في الحروف المقطّعة على أقوال كثيرة، والصواب في فواتح السور أنّ لها معاني، وأنّها حروفٌ هجاءٍ عربية، فقله: ﴿ق﴾ حرفٌ من حروفِ الهجاءِ المذكورة في أوائل السور، كقله: ﴿ص﴾، ﴿ن﴾، ﴿م﴾، ﴿حم﴾، ﴿طس﴾ ونحو ذلك، قاله مجاهد^(٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣): "لا يجوز أنّ يتكلم الله بكلامٍ ولا يعني به شيئاً"^(٤).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٥):

هذه الحروفُ الصُّوتيةُ وأمثالها تُذكرُ في أوائل بعض السور لتنبية المشركين إلى أنّ القرآن الكريم مُكوّنٌ من هذه الحروفِ التي ينطقون بها، ومع ذلك يعجزون عن الإتيان بمثله، كما أنّ هذه الحروف إذا تُليت تُنبهُ النَّاسَ إلى السَّماعِ كي يتدبّروا، ويتعظّوا بما يسمعون. وقد اختلفُ المفسرون في المراد بالحروفِ المُقطّعة في أوائل السورِ اختلافاً كثيراً، واستقراءُ القرآن العظيم يُرجّحُ واحداً من تلك الأقوال، وسأذكر الخلافَ المذكورَ وما يُرجّحُه استقراءُ القرآن فأقول:

إنّ بعض العلماء ذهب إلى أنّ الحروف المُقطّعة التي في أوائل السور هي ممّا استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله ولم يُفسرها، ومن العلماء من فسرها واختلف هؤلاء في معناها: فمنهم من قال: إنّما هي أسماءٌ للسور التي افتتحت بها^(٦)، وقال الفخر الرازي^(٧): "إنّ ﴿المص﴾

(١) التبكيت: هو المواجهة بقيح الفعل. ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥٢٣/١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢١/٤)، وبحوث في علوم التفسير: الذهبي (ص: ٣٦).

(٣) هو: أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الحراني الدمشقي، أبو العباس، ناصر السنة وقامع البدعة، نادرة دهره، ولد سنة (٦٦١هـ) بحران، أفتى ودرس وصنف وهو دون العشرين، برع في تفسير القرآن وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، واستتبط منه أشياء لم يسبق إليها، وقد امتحن وأوذى مراراً، مات معتقلاً بقلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ). ينظر: البداية والنهاية: ابن كثير (١٤١/١٤)، وطبقات المفسرين: الداودي (٤٦/١).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨٦/١٣).

(٥) التفسير المنهجي: جمال أبو حسّان (٦٣/٣).

(٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري (٨٣/١)، وتنزيه القرآن عن

المطاعن: القاضي عبد الجبار الهمداني (ص: ٥٩)، ونهاية السؤل: الإسنوي (٣٥٥/١).

اسم لقب لهذه السورة، وأسماء الألقاب لا تفيد فائدة في المسميات، بل هي قائمة مقام الإشارات^(٢). وعن مجاهد^(٣) أنه قال: ﴿الم﴾ و﴿حم﴾ و﴿المص﴾ فواتح افتتح الله بها القرآن، وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً^(٤). إلى غير ما ذكر من الأقوال في فواتح السور، وهي نحو واحد وعشرين قولاً، وأكثر هذه الأقاويل مدخولة؛ لأنها ليست على نهج كلام العرب؛ ولأنه لا يجوز في كلام الحكيم الأصوات الخالية من المعنى^(٥).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٦):

اللطيفة الأولى: لا خلاف أن هذه الآية ﴿المص﴾ من فواتح بعض السور حين ينطق بها القارئ أسماء الحروف التهجى التي يُنطق في الكلام بمسمياتها، ولذلك يقول القارئ: (ألف. لام. ميم. صاد) مثلاً ولا يقول: ﴿المص﴾، وإنما كتبها في المصاحف بصور الحروف التي يتهجى بها في الكلام التي يقوم رسم شكلها مقام المنطوق به في الكلام ولم يكتبوها بدوّال ما يقرأونها به في القرآن؛ لأن المقصود التهجى بها، وحروف التهجى تكتب بصورها لا بأسمائها، ولأن رسم المصحف سنة لا يُقاس عليه، وهذا أولى؛ لأنه أشمل للأقوال المندرجة تحتها.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿المص﴾ هذه الفواتح قرآن لا محالة، ولكن اختلف في أنها آيات مستقلة، والأظهر أنها ليست بآيات مستقلة بل هي أجزاء من الآيات الموالية لها على المختار من مذاهب جمهور القراء، والصحيح عند القراء الكوفيين أن جميعها آيات وهو اللائق بالقرآن، قال ابن عاشور: "والوجه عندي أنها آيات؛ لأن لها دلالة تعريضية كنايةً إذ المقصود إظهار عجزهم أو نحو ذلك فهي تطابق مقتضى الحال مع ما يعقبها من الكلام"^(٧).

(١) هو: محمد بن عمر بن الحسين، المعروف بالفخر الرازي، المفسر والأصولي، كان أشعرياً فيلسوفاً، ثم ترك هذه العقائد آخر عمره، وله وصية مشهورة في ذلك، وقد كان كثير التصنيف، منها: كتاب التفسير الكبير، المسمى: مفاتيح الغيب، توفي سنة (٦٠٦هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي (٥٠٠/٢١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٧/١٤).

(٣) هو: مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج المخزومي، الإمام المشهور، تابعي، مقرئ، مجمع على إمامته وتقدمه والاحتجاج به في الفقه والتفسير، من أشهر تلاميذ ابن عباس، توفي بمكة سنة (١٠٤هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي (٤٤٩/٤)، وتهذيب التهذيب: ابن حجر (٢٥/٤).

(٤) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (١١٨/١ - ١٢٥).

(٥) باهر البرهان في مشكلات معاني القرآن: نجم الدين القزويني (ص: ٢٨).

(٦) الكشاف: الزمخشري (٩٥/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٦/١).

(٧) الكشاف: الزمخشري (١٠٦/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٨/١).

اللطيفة الثالثة: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: (ا ل م ص ر ك ي ع ط س ح ق ن) يجمعها قول: (نصٌ حكيمٌ قاطعٌ له سرٌّ)، وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف، قال الزمخشري^(١): "وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القفلة، وقد سردها مفصلة ثم قال: "فسبحان الذي دقَّت في كلِّ شيءٍ حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أنَّ معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله"^(٢).

اللطيفة الرابعة: لم ترد الحروف المقطعة كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيث كما كررت قصص كثيرة^(٣).

اللطيفة الخامسة: كلُّ سورةٍ افتتحت بالحروف فلا بدُّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة^(٤).

رابعاً: بيان المقصد من الآية:

لا شكَّ أنَّ هذه الحروف لم يُنزلها الله عبثاً ولا سُدًى، ومَن قال: إنَّ في القرآن ما هو تَعَبُدٌ لا معنى له بالكليَّة، فقد أخطأ، فتعيَّن أنَّ لها معنى في نفس الأمر، ولم يُجمع العلماء فيها على شيءٍ مُعيَّن، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليلٍ فعليته أتباعه وإلا فالوقف حتى يتبيَّن، أمَّا الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها، وهو القول الذي يدلُّ استقراء القرآن على رُجحانه فهو: أنَّ الحروف المقطعة ذُكرت في أوائل السور التي ذُكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن مُعارضته بمثله مع أنَّه مُركَّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وحكى هذا القول الرَّاظي في تفسيره عن جمع من المُحقِّقين، ونصره الرَّمخسريُّ، وإليه ذهب الشَّيخُ ابنُ تيمية، والحافظ المِرِّيُّ، ووجهُ شهادة استقراء القرآن لهذا القول: أنَّ السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يُذكر فيها دائماً عَقِبَ الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وعظمته وأَنَّ الحقَّ الذي لا شكَّ فيه، وذكُر ذلك بعدها دائماً دليلٌ استقرائيٌّ على أنَّ الحروف المقطعة قُصدَ بها إظهار إعجاز القرآن،

(١) هو: محمود بن عمر الزمخشري، أبو القاسم، جار الله، إمام في العربية، كان معتزلياً مجاهراً بذلك، له في التفسير كتابه الشهير المعروف بالكشاف، توفي بقصبة خوارزم سنة (٥٣٨هـ). ينظر: نزهة الألباء (ص: ٢٩٠).

(٢) الكشاف: الزمخشري (١٠٣/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٧/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٦/١).

(٣) الكشاف: الزمخشري (١٠٤/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٨/١).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٨/١).

وأنه حق^(١). فقولُه: ﴿المص﴾ هذا المطلع من الحروف المُقطعة المختار في تفسيرها الرأي القائل: بأنها حروفٌ مقطعةٌ يشيرُ بها إلى أن هذا القرآن مؤلفٌ من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ثم يعجزهم أن يؤلفوا منها كلاماً كهذا القرآن، وأن هذا بذاته برهانٌ على أن هذا القرآن ليس من صنع البشر، فقد كانت أمامهم الأحرف والكلمات التي صيغ منها، فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآناً مثله؛ فلا بُدَّ من سرٍّ آخر وراء الأحرف والكلمات^(٢)، وهو تبكييت المشركين وإلزام الحجة إياهم، وذلك من دلائل إعجاز القرآن الكريم^(٣).

وقيل: إنها حروف قصد منها تنبيه السامع، مثل النداء المقصود به التنبيه في قولك: يا فتى لإيقاظ ذهن السامع؛ فإنَّ الحكيم إذا خاطب من يكون محلَّ الغفلة أو مشغول البال يُقدِّم على الكلام المقصود شيئاً ليلفت المخاطب إليه بسبب ذلك المقدم ثم يشرع في المقصود فقد يكون ذلك المقدم كلاماً مثل النداء وحروف الاستفتاح، وقد يكون المقدم صوتاً كمن يصفق ليُقبل عليه السامع فاختر الحكيم للتنبيه حروفاً من حروف التهجي لتكون دلالتها على قصد التنبيه متعينة إذ ليس لها مفهوم فتمحضت للتنبيه على غرض مهم^(٤).

وكثيرون من العلماء رأوا أن هذه الحروف المُقطعة جاءت للتحدي والإيقاظ، أمَّا الإيقاظ؛ فلأنَّ العرب لم يتعودوا مثل هذا في كلامهم من قبل، فليس في كلامهم مثل هذه الحروف المُقطعة على هذا النظام، فوجودها في القرآن من شأنه أن ينبههم ويزيد في إيقاظهم حينما يسمعون شيئاً لا قبل لهم به، وتلك قضية نفسية مسلمة لا محل فيها لارتياب، وأمَّا التحدي؛ فلأنَّ كلام العرب مكون من هذه الحروف نفسها، فحينما تبدأ بعض السور بها، فهو تحدُّ يقال فيه للعرب: لم عجزتم عن أن تأتوا بهذا القرآن مع أنه مكون من مادة الحروف التي تتكلمون بها، وهذه حروفه التي يتكون منها: ﴿الم﴾ [البقرة: ١]، و﴿المص﴾ [الأعراف: ١]، وهي حروفكم نفسها، فلم العجز، ويستدل على ذلك بأنه جاء عقب هذه الحروف في غالب السور ذكر الكتاب العزيز^(٥). قال ابن عاشور: "والذي يستخلص من أقوال العلماء بعد حذف متداخله وتوحيد متشاكله أن الأرجح من تلك الأقوال ثلاثة، وهي كون تلك الحروف لتبكييت المعاندين، وتسجيلاً لعجزهم عن المعارضة، أو كونها أسماءً للسور الواقعة هي فيها، أو كونها أقساماً أقسم بها لتشريف قدر

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٨/١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٤٠٣، ٤٠٢)، وصفوة التفاسير: الصابوني (٤٣٦/١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٢).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٥٤/٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٨/١).

(٤) البحر المحيط: أبو حيان (١٥٦/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٤/١) بتصرف.

(٥) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: فضل حسن عباس (ص: ٤١).

الكتابة، وتنبه العرب الأميين إلى فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية، وأرجح هذه الأقوال الثلاثة هو أولها، وهذا أولى؛ لأنه أشمل للأقوال" فإن هذه الحروف سبقت مساق التهجي مسرودة على نمط التعديد في التهجية تبكيتاً للمشركين وإيقاظاً لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تُحدوا بالإتيان بسورة مثله، هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم؛ كأنه يغيرهم بمحاولة المعارضة ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف ومعالجة النطق تعريضاً بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللُّغة، فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم بالكتاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزاً لا معذرة لهم فيه، قال في الكشف: "وهذا القول من القوة والخلافة بالقبول بمنزلة"، وهو المختار عند أكثر أهل التفسير، وتظهر المناسبة لوقوعها في فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز؛ فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته ويؤيد هذا القول أن التهجي ظاهر في هذا المقصد فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره، وأن التهجي معروف عندهم للتعليم فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم عرف السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم؛ لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ، ويعضد هذا الوجه تعقيب هاته الحروف في غالب المواقع بذكر القرآن وتنزيله أو كتابيته^(١)، وبالجملة فالدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن ممّا يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به^(٢). ولولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي (ﷺ) بل تلا عليهم ﴿حم﴾ و﴿المص﴾ وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة وحرصهم على زلة، لذلك ذهب كثير من المفسرين وأهل الأصول إلى أن الخطاب بما لا يفهم بعيد^(٣).

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهداف وهدايات^(٤):

١. آية ﴿المص﴾ تسجيل لإعجاز القرآن، وإنحاء على عامة المشركين عجزهم عن معارضة

القرآن، وهو مؤلف من حروف كلامهم، وكفى بهذا نداءً على تعنتهم.

٢. أن الحروف المقطعة في فواتح السور مسوقة مساق التهجي لإظهار عجز المشركين

عن الإتيان بمثل بعض القرآن.

(١) الكشف: الزمخشري(١/٩٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(١/٢٠٧، ٢١٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية(١٧/٣٩٠ . ٤٠٠)، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة:

الجزيري(ص: ١١١)، وشرح لمعة الاعتقاد: محمد بن صالح العثيمين(ص: ٣٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير(١/٣٤٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(١/٢١٠).

(٤) التفسير الكبير: الرازي(٤/١٧)، وتنزيه القرآن عن المطاعن: عبد الجبار الهمداني(ص: ٥٩)، ومجموع

الفتاوى: ابن تيمية(١٧/٣٩٩)، وقضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية: فضل حسن عباس(ص: ٤١).

٣. أنه غير جائز أن يخاطب الله أحداً من خلقه إلا بما يفهمه، وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذي يفهمه، فلا يوجد في القرآن ما لا حكمة له^(١).
٤. في الآية ردُّ على الذين قالوا: "نثبت الأسماء والألفاظ ولكن لا ندري عن المعاني شيئاً"، كأن الله خاطب الأمة بكلام لا يفهمونه، أو كأن الرسول لم يُبين لهم معاني نصوص القرآن، ومعلوم أن هذا قدح في القرآن والأنبياء.
٥. أن الله تعالى لا يجوز أن يخاطبنا بالمهمّل، ولا بما يخالف الظاهر؛ لأنَّه لو كان جائزاً لتعذر الاستدلال بالألفاظ على الحكم الشرعي، ولأنَّه هذيان، وهو نقص، والنقص على الله محال؛ فلا يجوز أن يتكلم الله بشيءٍ ولا يعني به شيئاً^(٢).
٦. تفاوت النَّاس في فهم الحروف المُقطعة، فمنهم من رأى أنَّها سرٌّ من أسرار هذا الكتاب، والقرآن كتاب سماوي لا بُدَّ أن تكون له أسرار، كأى كتاب سماوي.
٧. لا يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يُعلم معناه، لذلك اتفق العلماء على أنه ليس في القرآن ما لا معنى له، ولا تعبدنا الله بتلاوة حروفه بلا فهم^(٣)؛ لأنَّها حينئذٍ تكون بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، وهذا ما يُنزه عنه كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ).
٨. أن الأدلة الشرعية . القرآن والسنة . لا تنافي قضايا العقول.
٩. اللفظ الذي ورد في الكتاب والسنة يجب القول بموجبه سواء فهمنا معناه أو لم نفهمه، فما جاء في الكتاب والسنة وجبَّ على كلِّ مؤمنٍ الإيمان به، وإن لم يفهم معناه^(٤).
١٠. كلُّ كلام لا تفهمه العربُ فهو رطانة^(٥)، ولا رطانة في كتاب الله، فيبْعُدُ أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحدٍ من الخلق إلى معرفته.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٩/١، ٢٢٧)، ولغة القرآن الكريم: عبدالجليل عبدالرحيم (ص: ٢٠١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٢).

(٢) درء تعارض النقل والعقل: ابن تيمية (١/٢٠٤)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد بن عبد العزيز الشايع (ص: ٣٠١)، ونثر الورود على حائية ابن أبي داود: زيد بن محمد المدخلي (ص: ٥١).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٣/٢٨٥)، والموافقات: الشاطبي (٣/٢١٢)، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة: محمد الجيزاني (ص: ١١٠)، التفسير والتأويل في القرآن: صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص: ١٢٢).

(٤) التدمرية: ابن تيمية (ص: ٦٥)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥/٢٩٨)، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة: عثمان بن علي حسن (١/٢٢٣).

(٥) فقه اللغة: الثعالبي (ص: ٤٨)، وشرح النووي على مسلم (١٦/٤٥٩)، وأحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين: سليمان الديخي (ص: ٦٧، ٦٩).

المقصد الثاني: القرآن الكريم كتابٌ إنذارٌ وتذكيرٌ.

دلُّ عليه قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]

يمكن دراسة هذا المقصد دراسة تحليلية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: المفردات اللغوية المتعلقة بالمقصد^(١):

كِتَابٌ: الكتب: ضمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة، وفي التعارفِ ضمُّ الحُرُوفِ بعضها إلى بعضٍ بالخطِّ، فالأصلُ في الكتابةِ: النَّظْمُ بِالخَطِّ لکن يُسْتَعَارُ كُلُّ وَاحِدٍ لِلآخِرِ، ولهذا سُمِّيَ كَلَامُ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ يُكْتَبْ كِتَابًا، ثُمَّ سُمِّيَ الْمَكْتُوبُ فِيهِ كِتَابًا، وَالكِتَابُ اسْمٌ لِلصَّحِيفَةِ مَعَ الْمَكْتُوبِ فِيهِ. أَنْزَلَ: الْإِنزَالُ يَقْتَضِي الْإِنْتِقَالَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَالْإِنزَالُ حَطُّ الشَّيْءِ مِنَ الْعُلُوِّ، وَالْفَاعِلُ مَنْزِلٌ، وَالْمَفْعُولُ مَنْزَلٌ.

صَدْرِكَ: الصَدْرُ: الْجَارِحَةُ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِقُدَمِ الشَّيْءِ.

حَرَجٌ: حرج: كلمة تدلُّ على تجمُّع الشَّيْءِ وَضِيقُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الْحَرْجُ الْإِثْمُ، وَالْحَرْجُ الضِّيقُ. وَأَصْلُ الْحَرْجِ مُجْتَمَعُ الشَّيْئَيْنِ، وَتَصَوُّرٌ مِنْهُ ضِيقٌ مَا بَيْنَهُمَا، فَقِيلَ لِلضِّيقِ: حَرَجٌ، وَلِلْإِثْمِ حَرَجٌ. وَذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْحَرْجَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: الضِّيقُ، وَالشُّكُّ، وَالْإِثْمُ. لِتُنذِرَ: الْإِنذَارُ الْإِعْلَامُ الْمَقْتَرَنُ بِتَخْوِيفٍ وَتَهْدِيدٍ، فَكُلُّ إِنذَارٍ إِعْلَامٌ، وَلَيْسَ كُلُّ إِعْلَامٍ إِنذَارًا، وَالْإِنذَارُ شَرْعًا: إِخْبَارٌ فِيهِ تَخْوِيفٌ، كَمَا أَنَّ التَّبَشِيرَ إِخْبَارٌ فِيهِ سُرُورٌ. وَذِكْرَى: الْوَاوُ حَرْفٌ لِمَطْلُوقِ الْجَمْعِ، مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ، وَذِكْرَى: أَيُّ: تَذَكِيرٌ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية:

قال الله مخبراً نبيه (ﷺ) بأنَّ هذا القرآن كتابٌ ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي: لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه، مخافة أن يكذبوك، أو أن تقصر في القيام بحقه، فإنَّه (ﷺ) كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء، ولا ينبسط له، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم، ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: بالكتاب المنزل المشركين

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٥٠/٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٧٧، ٢٢٦، ٦٩٩، ٧٩٧)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧/١٤)، واللباب في علوم الكتاب: ابن عادل الحنبلي (٦/٩)، ونزهة الأعين الناظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي (ص: ١٢٧، ٢٣٩)، والدُّر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٢٦/٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٧، ٦٦١)، وشرح ابن عقيل (٤٧٠/٢)، وشرح قطر الندى وبل الصدى: ابن هشام (ص: ٣٣٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٣/٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٣/٣).

ليؤمنوا، ﴿وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عظة لهم، فالقرآن كتاب كريم أنزله الله إليك يا محمد فيه هداية النفلين، فبلغ تعاليمه للناس، ولا تحزن أو تضجر إذا وجدت من بعضهم صدوداً عنه، فأنت عليك البلاغ وعلى الله الحساب، والمقصود بهذه الآية تقوية قلب النبي وتثبيت فؤاده، وتسليته عما يتقوله المشركون من أكاذيب وأباطيل، وإفهام الداعي إلى الله في كل زمان ومكان أن من الواجب عليه أن يكون قوي القلب في تحمل مهمته، مطمئن البال على حسن عاقبته، لا يتأثر بالمخالفة، ولا يضيق صدره بالإنكار، مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات^(١).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

وجه الارتباط أن الدليل الذي دل على صحة نبوة محمد (ﷺ) هو أن الله خصه بإنزال هذا القرآن عليه، ونحن نعلم أن هذه السورة كتاب أنزل إليه من عند الله، والدليل عليه أنه (ﷺ) ما تلمذ لأستاذ، ولا تعلم من معلم، ولا طالع كتاباً، ولم يخالط العلماء والشعراء وأهل الأخبار، وانقضى من عمره أربعون سنة، ولم يتفق له شيء من هذه الأحوال، ثم بعد انقضاء الأربعين ظهر عليه هذا الكتاب المشتمل على علوم الأولين والآخرين، وصريح العقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا بطريق الوحي، فثبت بهذا الدليل أن ﴿المص﴾ كتاب أنزل على محمد (ﷺ) من عند رب العالمين.

رابعاً: لطائف بلاغية و لمسات بيانية في الآية^(٣):

اللطفية الأولى: وقع الابتداء بالنكرة في قوله: ﴿كِتَابٌ﴾؛ إمّا لأنها أريد بها النوع لا الفرد، وفائدة إرادة النوع الرد على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله، واستبعادهم ذلك، فذكرهم الله بأنه كتاب من نوع الكتب المنزلة على الأنبياء، فكما نزلت صحف إبراهيم، وكتاب موسى كذلك نزل هذا القرآن، فيكون تنكير النوعية لدفع الاستبعاد، فالتنكير للنوعية، وإمّا لأن التنكير أريد به التعظيم، أي: هو كتاب عظيم تنويهاً بشأنه، فصار التنكير في معنى التوصيف، وإمّا لأنه أريد بالتنكير التعجيب من شأن هذا الكتاب في جميع ما حف به من البلاغة والفصاحة والإعجاز والإرشاد، وكونه نازلاً على رجل أمي، والكل محتمل.

اللطفية الثانية: صيغ فعل ﴿أُنزِلَ﴾ بصيغة النائب عن الفاعل اختصاراً، للعلم بفاعل الإنزال؛ لأن الذي ينزل الكتب على الرسل هو الله، ولما في مادة الإنزال من الإشعار بأنه من الوحي، وتمسك السلف بهذه الآية في إثبات أن الله في السماء (العلو)؛ لأن (من) لابتداء الغاية وكلمة

(١) تفسير الإمام مجاهد (ص: ٣٣٣)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥/٧)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن

بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٦)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٣/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٧/١٤).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٠، ١٢).

(إلى) لانتهاه الغاية، فقله ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يقتضي حصول مسافة مبدؤها هو الله وغايتها محمد(ﷺ)

وذلك يدلُّ على أنَّ الله مختصُّ بجهة فوق؛ لأنَّ النزول هو الانتقال من فوق إلى أسفل^(١).

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ جاء في نفي الحرج بصيغة نهي الحرج عن أن

يحصل في صدر النبي(ﷺ) ليكون النهي نهي تكوين، والمنعى فلا يكن في صدرك حرج منه من

جهة ما جرَّه نزوله إليك من تكذيب قومك وإنكارهم نزوله، فلا يكن في صدرك حرج منه من

عظم أمره وجلالته، ولا يكن في صدرك حرج منه فإنه سبب شرح صدرك بمعانيه وبلاغته. أي:

أنَّ الله أنزله إليك لا ليكون في صدرك حرج، بل لينشرح صدرك به^(٢).

اللطيفة الرابعة: الحرج: الشجر المُلْتَف لا تصل إليه الشمس، كذلك قلب الكافر ضيق لا يصل

إليه شيء من الخير^(٣).

اللطيفة الخامسة: حُذِفَ متعلِّق ﴿لِتُنذِرَ﴾، وصرح بمتعلِّق ﴿ذِكْرِي﴾ لظهور تقدير المحذوف من

ذكر مقابله المذكور، والتقدير: لتنذر به الكافرين، وصرح بمتعلِّق ﴿ذِكْرِي﴾ دون متعلِّق ﴿لِتُنذِرَ﴾،

تنويهاً بشأن المؤمنين، وتعريضاً بتحقيق الكافرين تجاه ذكر المؤمنين، ولم يبيِّن في الآية المفعول

به لقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ ولكنه بينه في مواضع آخر كقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

اللطيفة السادسة: تخصيص الذكرى بالمؤمنين للإيدان باختصاص الإنذار بالمشركين، وتقديم

الإنذار؛ لأنه أهم بحسب المقام.

اللطيفة السابعة: النفوس البشرية قسمان: نفوس جاهلةٌ بعيدة عن عالم الغيب، ونفوس شريفةٌ

مشرقةٌ، فبعثت الأنبياء والرسل في حق القسم الأول للإنذار والتخويف، وأمَّا في حق القسم الثاني

فتذكيرٌ وتنبيهٌ، فثبت أنَّ الله إنما أنزل الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حق طائفة، وذكرى في

حق أخرى^(٤).

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٨/١٤).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٣/٨).

(٣) مناهج اللغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٧٢٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٩/١٤)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٦٨/٤)، واللباب في علوم الكتاب: ابن عادل

الحنبلي (٩/٩)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥/٧)، وأصواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٣١٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٤/٨).

خامساً: تحقيق المقصد من الآية^(١):

القرآن كتاب أنزل إلى محمدٍ (ﷺ) للإنذار به والتذكير، كتاب للصدع بما فيه من الحق، ولمواجهة الناس بما لا يحبون، ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات، ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات، فالحرج في طريقه كثير، والمشقة في الإنذار به قائمة، لا يدرك ذلك إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف، فإن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً، وقع مرة، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه!، إن الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة، لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم، وليقيم عالماً آخر، يقر فيه سلطان الله وحدّه، فقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إخبار المقصود منه تذكير المنكرين والمكابرين؛ لأن النبي (ﷺ)، والمؤمنين يعلمون أنه أنزل من عند الله، فلا يحتاجون إلى الإخبار به، فالخبر مستعمل في التعريض بتغليظ المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرسول (ﷺ) بالإعراض، ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتتان والتذكير بالنعمة، فيكون الخبر مستعملاً في الامتتان، ويجوز أن يجعل الخبر هو قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مع ما انضم إليه من التفريع والتعليل، أي: هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصدر به، فإنه أنزل إليك لتتذر به الكافرين وتذكر المؤمنين، والمقصود تسكين نفس النبي (ﷺ)، وإغاظة الكافرين، وتأنيس المؤمنين، أي: هو كتاب أنزل لفائدة، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صدرك حرج إن كذبوا، وبهذه الاعتبارات وبعدم منافاة بعضها لبعض يحمل الكلام على إرادة جميعها وذلك من مطالع السور العجيبة البيان، وقد جمع الله في هذه الآية بين الإنذار والذكرى، فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، وبدل ذلك قوله: ﴿فَاتِمَّا يَسَّرْنَا بِهِ لِسَانَكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ولا ينافي هذا من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم، في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الدُّكْرَى﴾ [يس: ١١]؛ لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم؛ لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم، ومن أساليب العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء، وحاصل تحرير المقام في الآية: أن الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين: أحدهما: عام لجميع الناس، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١٠] وهذا الإنذار العام: هو الذي قصر على المؤمنين قصراً إضافياً في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الدُّكْرَى﴾ [يس: ١١]؛ لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم، والثاني: إنذار خاص بالكفار؛ لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبيناً أنه خاص بالكفار دون المؤمنين، كقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٧)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٥٤/٣)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١١/٨).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أن القرآن يشتمل على أنواع من القواعد الأصلية والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية، فمن ذلك عدم المؤاخذه قبل الإنذار؛ فإن الله لا يواخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرُّسل.
٢. أن هذا الكتاب أنزله الله عليك وإذا علمت أنه تنزِيلُ الله تعالى فاعلم أن عناية الله معك، وإذا علمت هذا فلا يكن في صدرك حرج؛ لأن من كان الله حافظاً له وناصراً لم يخف أحداً وإذا زال الخوف والضيق عن القلب فاشتغل بالإنذار والتبليغ والتذكير اشتغال الرجال الأبطال، ولا تبال بأحدٍ من أهل الزيف والضلال والإبطال.
٣. القرآن الكريم كتابٌ هدايةٍ فيه تفصيل ما تحتاج إليه البشرية؛ رحمةً من الله.
٤. أشار الله في هذه الآية إلى أن هذا القرآن العظيم تخويفٌ وتهديدٌ للكافرين، وبشارةً للمؤمنين المنقين.

المقصد الثالث: الشرعُ المنزَلُ اتباعٌ لا ابتداءً

وبدلاً على هذا المقصد قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا

مَا تَدَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(٢):

اتَّبِعُوا: تبع يقال تبعه وتبعه: قفا أثره، والاتباع حقيقته المشي وراء ماشٍ، فمعناه يقتضي ذاتين: تابعاً ومتبوعاً.

أُنزِلَ: أي: هذا القرآن، والنزولُ في الأصل هو انحطاطٌ من علوٍ، ونزل كلمةٌ تدلُّ على هبوطٍ شيءٍ ووقوعه، فالنزولُ هبوطٌ من علوٍّ إلى سفلى، هذا أصله، وهو عكسُ تعالٍ، فإن أصله أن تدعو مَنْ هو أسفلُ أن يرتفع إليك، وإنزالُ الله تعالى نِعَمَهُ على خلقه كثيرةٌ، منها إنزالُ القرآن، ومنها إنزالُ الحديد واللباس ونحو ذلك، وقد اتفق السلف على أن كلام الله منزلٌ غير مخلوقٍ. رَبُّكُمْ: الربُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاءُ الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام، ولا يُقالُ الربُّ مُطلقاً إلا لله المتكفَّلُ بمصلحة الموجوداتِ والمُتَوَلَّى لمصالح العباد.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٩/١٤)، والموافقات: الشاطبي (٢٠٠/٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٦٦١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

(٢) مقاييس اللغة: ابن فارس (٤١٧/٥)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٣٣٦، ٧٩٩، ١٦٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٦٣/٤)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٢٦/٣)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٣٣/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٦، ١٥/٨).

أَوْلِيَاءَ: جمع ولي، وهو المُوالي، أي: الملازم والمعاون، فيطلق على النَّاصر، والحليف، والصاحب الصَّادق المودَّة، واستعير هنا للمعبود ولإله؛ لأنَّ العبادة أقوى أحوال الموالاة. تَدَكَّرُونَ: التذكر مصدر الذَّكر وهو حضور الصورة في الذَّهن.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(١):

إنَّ أمر الرسالة إنَّما يتم بالمرسل وهو الله والمرسل وهو الرسول والمرسل إليه وهو الأمة فلما أمر في الآية الأولى الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلبٍ قويٍّ وعزم صحيح أمر المرسل إليه وهم الأمة بمتابعة الرسول فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. فهذا الآية بيان لجملة: ﴿لَتُنذِرَ بِهِ﴾ بقرينة تذييلها بقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَدَكَّرُونَ﴾ فالخطاب موجَّه للمشركين ويندرج فيه المسلمون بالأولى، فبعد أن نوه الله بالكتاب المنزَّل إلى الرُّسول، وبيَّن أنَّ حكمة إنزاله للإنذار والذِّكرى، أمر النَّاس أن يتبعوا ما أنزل إليهم، كلُّ يتبع ما هو به أعلق، والمشركون أنزل إليهم الزَّجر عن الشُّرك، والاحتجاج على ضلالهم، والمسلمون أنزل إليهم الأمر والنَّهي والتكليف، فكلُّ مأمورٍ باتِّباع ما أنزل إليه، والمقصود الأجدَر هم المشركون تعريضاً بأنَّهم كفروا بنعمة ربِّهم.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

في هذه الآية وجَّه القرآن الكريم نداءه إلى النَّاس أمراً إياهم باتِّباع تعاليم الإسلام التي جاء بها النبي (ﷺ) فقال: اتبعوا أيها النَّاس ملةَ الإسلام، وأحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، وامتنلوا وأوامره واجتنبوا نواهيه؛ لأنَّ الذي أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربُّكم الذي هو خالفكم ومريكم ومدبِّر أموركم، والعليم بما فيه مصلحتكم، فقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تتبعوا أولياء غيره تعالى، من الجنِّ والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، وحادار من أن تتركوا شريعة الإسلام التي تدعوكم إلى إفراد الله بالعبودية، وتتخذوا معه شركاء يُزيئون لكم الأباطيل، ويصرفونكم عن دينه القويم، إنكم قلماً تتعظون حين تتركون دينَ الله، وتتبعون غيره، مع أنَّ العبرَ في ذلك كثيرة، ﴿قَلِيلًا مَا تَدَكَّرُونَ﴾ أي: ما تتعظون إلا قليلاً، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه، وتتركون دينه تعالى، وتتبعون غيره، ثم حذرهم الله بأسه، إن لم يتبعوا المنزل إليهم. ولقد نصَّ رسول الله (ﷺ) على أنَّ الاتِّباع في الشريعة والحكم هو العبادة، التي صار بها اليهود والنصارى مشركين مخالفين لما أمروا به من عبادة الله وحده.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٢٠/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٤/٨).

(٢) محاسن التأويل: القاسمي (٦/٧)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٤٣٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو

حسان (٦٤/٣).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: تنبيه: استدل بالآية بعض العلماء على أن المباح مأمور به؛ لأنه من جملة ما أنزل الله، وقد أمرنا الله باتباعه، وهذا غلو في الاستنباط، وتعمق بارد.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وصف الرب في الآية دون اسم الجلالة للتذكير بوجوب اتباع أمره؛ لأن وصف الربوبية يقتضي الامتثال لأوامره.

اللطيفة الثالثة: لفظة ﴿قَلِيلًا﴾ يحمل على حقيقته؛ لأنهم قد يتذكرون ثم يعرضون عن التذكُّر في أكثر أحوالهم فهم في غفلة معرضون، ويجوز أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ مُستعاراً لمعنى النفي والعدم على وجه التلميح، فلفظ قليل مستعمل في عدم على طريقة التَّهْكُم بالمضيق للأمر النافع.

اللطيفة الرابعة: إن كلمة (من) لا ابتداء الغاية، وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية، فقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقتضي حصول مسافة مبدؤها هو الله وغايتها هو محمد (ﷺ) وذلك يدل على أن الله مختصُّ بجهة فوق؛ لأنَّ النزول هو الانتقال من فوق إلى أسفل.

اللطيفة الخامسة: إنَّ المعصية أهون شراً من البدعة؛ لأنَّ العاصي ترجى توبته، خلافاً لأهل البدع الذين تتجارى بهم الأهواء، فلا ترجى توبتهم، ولذلك قال سفيان الثوري^(٢): "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأنَّ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها"، وقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: "إنَّ البدع شرُّ من المعاصي"^(٣).

اللطيفة السادسة: في الخطاب للرسول (ﷺ) كان الكتاب منزلاً إليه بشخصه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾، وفي الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلاً إليهم من ربهم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فأما الرسول (ﷺ) فالكتاب منزلٌ إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر، وأما البشر فالكتاب منزلٌ إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه، ولا يتبعوا أمر أحدٍ غيره، والإسنادُ في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٨/١٤)، واللباب في علوم الكتاب: ابن عادل الحنبلي (٦/٩)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٦/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٧، ١٥/٨)، وسلسلة ليدبروا آياته: مركز تدبير للاستشارات التربوية والتعليمية (ص: ١٣).

(٢) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الإمام، الحافظ، المجتهد، الجامع للمحاسن والشيم، أجمعوا على أمانته وورعه وضبطه ورُدهه وتقدمه حتى استغني عن تركيته، ولد سنة (٩٧هـ)، طلب العلم منذ حداثة، وساد العلماء العاملين في زمانه، تُوفي سنة (١٢٦هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي (٢٢٩/٧)، تهذيب التهذيب: ابن حجر (٥٦/٢).

(٣) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ١٦٤)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٤٨١).

والتحضيض والاستجاشة، فالذي ينزل له ربه كتاباً، ويختاره لهذا الأمر، ويتفضل عليه بهذا الخير، جدير بأن يذكّر وأن يشكر وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر^(١).

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ خطابٌ من الله تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتِّباع ما أنزل، وهو القرآن والسنة، وقوفاً مع عمومته^(٢).

اللطيفة الثامنة: إن قيل: لماذا قال: ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ وإنما أنزل على الرسول؛ لأنه منزلٌ على الكلِّ بمعنى أنه خطابٌ للكلِّ^(٣).

اللطيفة التاسعة: قال الشافعي^(٤): "القرآن وعاءٌ والسنة غطاءٌ"^(٥).

اللطيفة العاشرة: عن أبي بركة أنه قال: "إن الله نَعَشَكُم بالإسلام وبمحمدٍ (ﷺ). أي: رفعكم"^(٦)، فينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفُتيا أن يكون عالماً بالسنن، عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة^(٧).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٨):

أ- **الدين المنزل اتباع لا ابتداع:** إنَّ العبادات في الإسلام مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فإنَّ الإسلام مبني على أصليين: أحدهما: أن يُعبد الله وحده لا شريك له، والثاني: أن يُعبده بما شرعه على لسان رسوله (ﷺ) لا يُعبد بالأهواء والبدع، فليس لأحدٍ أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله (ﷺ) من واجبٍ ومستحبٍ، لا يعبد بالأمور المبتدعة؛ لأنَّ العبادات لا تتمُّ إلا بالإخلاص لله، وبالمتابعة للنبي (ﷺ)، والمتابعة لا تتحقَّق إلا إذا كانت العبادة موافقةً للشرع في سببٍ أمور: السبب، والجنس، والقدر،

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٥٩).

(٢) محاسن التأويل: القاسمي (٦/٧).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٢٠).

(٤) هو: محمد بن إدريس الشافعي، أبو عبد الله القرشي، نسيب رسول الله (ﷺ)، الإمام، الحجّة، المجتهد، صاحب المذهب الشافعي، وإليه المرجع في تدوينه، مع سبقه في تدوين علم أصول الفقه، ولد سنة (١٥٠هـ) بغزة، نشأ يتيماً، أقبل على العربية، وحُبب إليه الفقه، فساد أهل زمانه، وكان من أفصح الناس مع عذوبة منطوق، وحسن بلاغة، وفرط ذكاء، وسيلان ذهن، وحضور حجّة، من كتبه: الأم، والرسالة، تُوفي بمصر سنة (٢٠٤هـ). ينظر:

سير أعلام النبلاء: الذهبي (٥/١٠)، وتهذيب التهذيب: ابن حجر (٣/٤٩٧).

(٥) صناعة الثقافة: طارق السويدان، وفيصل باشرا حيل (١/٥١).

(٦) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، حديث رقم: (٧٢٧١)، (ص: ٨٥٥).

(٧) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن قيم الجوزية (٢/٨٧).

(٨) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١/٨٠).

والكيفية، والزَّمان، والمكان^(١) قال صاحب الظلال: "إنَّ القضيةَ في صميمها هي قضيةُ الاتباع، من يتبع البشر في حياتهم؟ يتبعون أمرَ الله، فهم مسلمون، أم يتبعون أمرَ غيره، فهم مشركون؟ إنَّهما موقفانِ مختلفانِ لا يجتمعانِ، هذه هي قضيةُ هذا الدينِ الأساسية، إنَّه إمَّا اتبَعَ لما أنزل اللهُ فهو الإسلامُ اللهُ، والاعترافُ له بالربوبية، وإفراؤه بالحاكمية التي تأمرُ فتطاع، ويتبع أمرها ونهيتها دون سواه. وإمَّا اتبَعَ للأولياءِ من دون الله، فهو الشرك"^(٢).

وعن النبيِّ (ﷺ) أنه قال: "تركْتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتابَ الله، وسنتي"^(٣). وقد قال بعض السلف: "اتبِعوا ولا تبتدِعوا؛ فقد كُفيتُم، عليكم بالأمر العتيق"، وذلك لما عُرف عنهم من الحرص على الاتباع، ونهيهم الشديد عن الابتداع في الدين^(٤)؛ لذلك كان من منهج أهل الأهواء والبدع الإعراض عن الحُجة والدليل الصحيح عند مخالفة المذهب، ورحم الله ابن مسعود (رضي الله عنه) حيث قال: "اقتصادٌ في سنَّةٍ خيرٌ من اجتهادٍ في بدعة"^(٥).

وليس كلُّ ما يفعله المبتدعة من عملٍ نحنُ مأمورون بمخالفته به، حتى يشمل أفعالهم الموافقة للسنَّة، بل يُستحب ترك موافقتهم فيما ابتدَعوه وصار شعاراً لهم، والحاصل أنَّ مخالفة المبتدعة في الأمر المباح يستحسن، زجراً لهم، ورجوعاً إلى الصلاح^(٦)، لذلك كان من البدع الإحداث في الدين، وقد عدَّ العلماءُ في الكبائر "مَن دعا إلى ضلالةٍ، أو سنَّ سنَّةً سيئةً"، وهذا معنى الإحداث في الدين، فمَن أَمَرَ السنَّةَ على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومَن أَمَرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة؛ ولهذا قيل لمن خالف السنَّةَ مُبتدِعٌ؛ لأنَّه أحدث في الإسلام ما لم يسبقه إليه السلف^(٧)، وفي الآية زجرٌ عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمرٌ بجهادهم ومناذرتهم، وفيها دليلٌ على ترك اتباع الآراء مع وجود النصِّ، فإنَّ الشرع المنزل من عند الله، هو الكتاب والسنَّة الذي بعث اللهُ به رسوله، وهذا الشرع ليس لأحدٍ من الخلق الخروجُ عنه، ولا يخرجُ عنه إلا كافرٌ، فلفظ الشرع إذا أُريد به الكتابُ والسنَّةُ لم يكن لأحدٍ من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومَن ظنَّ أن لأحدٍ من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد (ﷺ) باطنياً وظاهراً فهو كافرٌ.

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح العثيمين (١/٤١٠).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٥٩).

(٣) السلسلة الصحيحة: الألباني (٤/٣٥٥)، حديث رقم (١٧٦١).

(٤) أصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١/٦٢٤، ٣/٨٩٠).

(٥) أخرجه الدارمي في السنن (١/٧٢)، ينظر: مناهج اللغويين في تقرير العقيدة محمد الشيخ (ص: ١٦٩).

(٦) الكبائر: الذهبي (ص: ٤١٩) أصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٣/٩٤٥، ٤٤٣).

(٧) تهذيب اللُّغة: الأزهرى (٢/٢٤٠)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٤/١١٤)، والفرقان بين أولياء الرحمن

وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٩٩، ١٩٣، ١٨٧)، ومناهج اللغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ (ص: ٤٠٨).

ب- السنة النبوية وحي^(١) من عند الله:

قال رسول الله (ﷺ): "أَلَا وَآتِي أُوْتِيْتُ الْكِتَابَ وَمَثَلَهُ مَعَهُ"^(٢)، وقال التابعي الجليل حسان بن عطية^(٣): "كان جبريل (عليه السلام) ينزل على النبي (ﷺ) بالسنة كما ينزل بالقرآن، فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن"^(٤). فقله: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعم القرآن والسنة، قال الفخر الرازي: "الآية تتناول القرآن والسنة"^(٥). ونصر هذا القول ابن تيمية، فقله: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يشمل القرآن والسنة^(٦). ولهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام، والله بعث محمداً (ﷺ) بالكتاب والسنة، وبهما أتم على أمته المنة، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. فقد قال غير واحد من العلماء: الحكمة هي السنة؛ لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، والكتاب: القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة^(٧)، فإن السنة النبوية هي الأصل الثاني من أصول الأحكام الشرعية التي أجمع المسلمون على اعتبارها أصلاً قائماً بذاته، فهي والقرآن متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالقرآن كلّي هذه الشريعة، والرسول (ﷺ) مبين بسنته لجزئياتها، فما ورد في القرآن من الآيات مجملاً أو مطلقاً أو عاماً، فإن السنة النبوية القولية منها أو الفعلية تقوم ببيانها، فتفقد مطلقها، وتخصص عامها، وتفسر مجملها، ولذا كان أثرها عظيماً في إظهار المراد من الكتاب، وفي إزالة ما قد يقع في فهمه من خلاف أو شبهة؛ فإن الله بعث محمداً (ﷺ) بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه، فيه الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله الدال على ما أراد من

(١) الوحي في اللغة: الإعلام في خفاء. وشرعاً: الإعلام بالشرع. وهو كلام الله المنزل على النبي (ﷺ). لذلك كان الوحي لبيان الأعمال الشرعية. ينظر: فتح الباري: ابن حجر (١/٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة. باب في لزوم السنة (١٠/٥) برقم (٤٦٠٤)، والترمذي في كتاب العلم. باب ما نهى عنه أن يقال عن حديث النبي (ﷺ) (٣٧/٥) برقم (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة. باب تعظيم حديث رسول الله (ﷺ) (١:٦) برقم (١٣)، وأورده الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٤٣)، وفي صحيح سنن ابن ماجه (٧/١) برقم (١٢).

(٣) حسان بن عطية المحاربي، أبو بكر الدمشقي، ثقة فقيه عابد مات سنة (١٢٢هـ). تقريب التهذيب: ابن حجر (١/١٩٩)، ترجمة رقم (١٢٠٨).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣/٣٦٦) و (٧/٤٠)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣٣/٨٠).

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٣١)، والتفسير الكبير: الرازي (٤/٢٠)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٥٦١).

(٦) البحر المحيط: أبو حيان (٤/٢٦٨).

(٧) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١/٨٠٩)، ودراسات في الفكر العربي الإسلامي: إبراهيم زيد الكيلاني (ص: ٨٧).

ظاهره وباطنه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب؛ فكان رسول الله (ﷺ) هو المعبر عن كتاب الله، الدال على معانيه، وقد تظاهرت الآيات القرآنية في وجوب العمل بالسنة النبوية، والاعتماد عليها، والإذعان لها، وتحكيمها في كل شأن من شؤون الحياة^(١). وأجمع أهل الإسلام كلهم إنسهم وجنهم في كل زمان وكل مكان على أن السنة واجب اتباعها، وأنها ما سنه رسول الله (ﷺ)، ومن اتبع ما صح برواية الثقات مسنداً إلى رسول الله (ﷺ) فقد اتبع السنة يقيناً، ولزوم الجماعة، وهم أصحاب رسول الله (ﷺ)، والتابعون لهم بإحسان، ومن أتى بعدهم من الأئمة، وأن من اتبع أحداً غير رسول الله (ﷺ) فلم يتبع السنة ولا الجماعة^(٢). وفي الصحيح عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: صنع النبي (ﷺ) شيئاً ترخص فيه، وتتره عنه قوم، فبلغ ذلك النبي (ﷺ)، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنع، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية"^(٣).

ومنهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم كلهم متفق على وجوب التمسك بالسنة، والرجوع إليها، وترك كل قول يخالفها، مهما كان القائل عظيماً؛ فإن شأنه (ﷺ) أعظم، وسبيله أقوم^(٤)، ولذلك فإن على المسلم أن يعرف عقائد أهل السنة والجماعة، وأن يتمسك بالكتاب والسنة فهماً صحيحاً، وعملاً مستقيماً، فإن الله بعث رسوله محمداً (ﷺ) بأفضل المناهج والشرائع، وأحبط به أصناف الكفر والبدع، وأنه لا سعادة للعباد ولا نجاة في المعاد إلا باتباع الرسول (ﷺ)^(٥). والأصل في أفعاله (ﷺ) التشريع، وأن الأمور الشرعية تثبت إمّا بقوله (ﷺ)، أو بفعله، أو بتقريره، وليس من الضروري أن تجتمع هذه الأمور الثلاثة في إثبات أمر واحد اتفاقاً، وإن الذي أنزل إلينا من ربنا هو كتاب الله الفرقان، وسنة النبي العدنان كما دلت عليه هذه الآية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية وحيان كريمان من عند الله؛ وإن كان للقرآن مزيته وخصائصه وللسنة فضلها فهما من مشكاة واحدة من عند الله، وهما في العمل سواء، فلا يجوز لأحد أن يكتفي بالقرآن ويُعرض عن السنة النبوية؛ بل الإيمان بهما واجب، يترتب عليه الفوز بالجنة والنجاة من النار^(٦). فالسنة النبوية راجعة في معناها إلى الكتاب؛ فهي تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره، وهي مبينة لما أجمل في كتاب الله.

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول: ابن الأثير الجزي (١/١١).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم (٤/٥٣٨)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣/١٣).

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع، حديث رقم (٧٣٠١)، (ص: ٨٥٨).

(٤) الأساس في التفسير: سعيد حوى (٢/٧٠٩)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١/٣٧، ٢٣).

(٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١/٧٠٦، ٢٨/٦٤)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢/٤٣٥)، (٣/٩١١).

(٦) الموافقات: الشاطبي (٤/٣١٤)، ونثر الورود على حائية ابن أبي داود: زيد المدخلي (ص: ٢٥، ٣٤، ٢٢).

ومن أصول الاستدلال عند الأصوليين الاحتجاج بالسنة النبوية؛ لأنها وحى من الله؛ فما صحَّ عن رسول الله (ﷺ) وجب علينا أخذه واتباعه والعمل به. ومن المعلوم والمقرر أنَّ العمل بالسنة من العمل بالقرآن؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فمن عطلَّ السنة فقد ترك العمل بالقرآن؛ فإنَّ السنة النبوية لها ارتباط وثيق بالقرآن؛ لأنها بيان له وتوضيح، وهي تفصيلٌ لمُجمِله، وتقييدٌ لمُطلقه، وبهذا يُعلم منزلة السنة النبوية من القرآن ومكانتها في الإسلام^(١). والحجة كتاب الله وسنة رسوله واتفاق الأئمة، وكلام النبي (ﷺ) وحى^(٢) وقد كان السلف الطيب يشند نكيرهم وغضبهم على مَنْ عارض حديث رسول الله (ﷺ) برأيٍ أو قياسٍ أو استحسانٍ أو قول أحد من النَّاس كائناً من كان، وينكرون على من يضرب له الأمثال، ولا يسوغون غير الانقياد له (ﷺ)، والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقف في قبوله حتى يشهد له عملٌ أو قياسٌ أو يوافق قول فلان، بل كانوا عاملين بما ثبت أنه حق^(٣).

ج . الإيمان بجميع المنزل واجب .

الاختلاف نوعان: اختلاف في تنزيل الكتاب، واختلاف في تأويل القرآن، والمختلفون الذين ذمَّهم الله هم المختلفون في الحقَّ بأن ينكر هؤلاء الحقَّ الذي مع هؤلاء، أو بالعكس؛ فإنَّ الواجب على العبد الإيمان بجميع الحقَّ المنزل، فأما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين والاختلاف في تنزيل الكتاب أعظم وهو المراد في الآية، فالاختلاف في تنزيل الكتاب هو بين المؤمنين والكافرين؛ فإنَّ المؤمنين يؤمنون بما أنزل، والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله، فالمؤمنون بجنس الكتاب والرُّسل من المسلمين يؤمنون بذلك، والكافرون بجنس الكتاب والرُّسل من المشركين يكفرون بذلك، وذلك أنَّ الله أرسل الرُّسل إلى النَّاس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم، فمن آمن بالرُّسل آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرُّسل كذب بذلك، فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده، فهذا أصل عظيم، ولهذا كان من يكفر بالرُّسل تارة يكفر بأنَّ الله له كلام أنزله على بشرٍ كما أنَّه قد يكفر بربِّ العالمين، وفي هذه الآية تقرير قواعد؛ ولهذا كان أصل الإيمان الإيمان بما أنزل الله، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهكذا في أغلب سور القرآن،

(١) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن القيم (٣٢/١)، وآداب الزفاف في السنة المطهرة: الألباني (ص: ٢٤٢).

أثر الاختلاف في القواعد الأصولية: مصطفى الخن (ص: ٧)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ٥٩).

(٢) الإحكام: ابن حزم (٧١/٢)، وآداب الزفاف في السنة المطهرة: الألباني (ص: ٢٤٠).

(٣) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن القيم (٤٦٤/٣) وآداب الزفاف في السنة المطهرة: الألباني (ص: ٢٦٧).

ولهذا عظم تقرير هذا الأصل في القرآن^(١)، والكفار بالرُّسل من قوم نوحٍ وعادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وشعيبٍ وقوم إبراهيمٍ وموسى ومشركي العرب يتبعون ظنونهم وأهواءهم، ويعرضون عن ذكر الله. سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. الآية نداءً على إضاعتهم النظر والاستدلال في صفات الله، وفي نقائص أوليائهم المزعومين.

٢. في الآية ذمُّ الابتداع في دين الله مالم يأمر به الله، والاتباع خيرٌ من الابتداع.

٣. الآية دليلٌ على أن الله في السماء (العلو).

٤. لا عصمة لأحدٍ إلا في الكتاب والسنة والإجماع.

٥. من أعظم الحدث تعطيل كتاب الله، وسنة رسوله (ﷺ)، وإحداث ما خالفهما، ونصر من أحدث ذلك، والذب عنه، ومعادة من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

٦. في الآية وجوب اتباع السنن واجتناب البدع، والتحذير عن المعاصي والبدع؛ لأنها مظنة السخط، فإن العاقل لا يجد مُبتدعاً إلا وهو مُتَنَقِصٌ للرسول (ﷺ)، وإن زعم أنه مُعَظَّمٌ له بتلك البدعة؛ فإنه يزعم أنها خيرٌ من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مُقلِّداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاق لله ورسوله.

٧. دلت الآية على أنه يجب على المسلم أن يتبع كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) في كلِّ أمرٍ، وأن يستسلم لحكم الله ورسوله (ﷺ) في كلِّ شأنٍ، فعلى كلِّ مسلمٍ أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه، هذا هو الصراط المستقيم.

٨. وجوب الإعراض عن المشركين؛ لأنهم يدعون إلى ما يخالف الكتاب والسنة.

٩. في الآية دليل على أن سنة رسول الله لا يسعُ أحداً تركها لقولٍ أحدٍ كائناً من كان.

١٠. أن الحلال ما في كتاب الله، وسنة رسوله تحليته، والحرام ما في كتاب الله وسنة رسوله تحريمه^(٣).

١١. لا يجوز للمسلم أن يفهم آيةً من الكتاب في معزلٍ عن السنة النبوية^(٤).

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦/١٢ - ١٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٦/١١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤/٣١٥)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (١/١٢٣)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (١٢/٣٣)، والكبائر: الذهبي (ص: ٤٢٥)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٧/٤٩٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٨)، ونزل الأبرار: صديق حسن خان (ص: ٨٤)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢/٦٤٩) والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٣٩١).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (٢/١٠٨، ٩٨).

(٤) التحقيقات والتفتيحات السلفيات على متن الورقات: مشهور بن حسن آل سلمان (ص: ١١٢، ٧١).

١٢. الإيمان بالرُّسل يجب أن يكون جامعاً عاماً مؤتلفاً لا تفريق فيه ولا تبعض ولا اختلاف؛ فلا بدُّ أن يؤمن بجميع الرُّسل وبجميع ما أنزل إليهم، فمن آمن ببعض الرُّسل وكفر ببعض أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعضٍ فهو كافرٌ، وهذا حال من بدّل وكفر من اليهود والنصارى؛ فإنّه لم يؤمن بجميع المنزل، وكذلك من كان من أهل الأهواء والبدع يؤمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعضٍ، وكان اليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله، ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمدٍ^(١).

١٣. أصل الإيمان الإقرار بما أنزل الله على رسله.

المطلب الثاني: زوال الظالمين حتمية قرآنية

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأول: الظلم مؤذنٌ بخراب العمران.

ويدلُّ على هذا المقصد القرآني قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ

قَائِلُونَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤، ٥٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

وَكَمْ: اسم حال على عدد كثير، وهو هنا خبر عن الكثرة.

قَرْيَةٍ: من قرى والقرية اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وللناس جميعاً، ولفظ القرية يراد به

السكان من غير إضمارٍ ولا حذفٍ، إذ المكان لا يُسمّى قريةً إلا إذا عمُر بالسكنى.

أَهْلَكْنَاهَا: الهلاك بطلانُ الشيء من العالم. والإهلاك: الافناء والاستئصال.

بَأْسُنَا: البأس والبأساء: الشدة والمكروه، والبأس والبأساء يكون في النكاية، والبأس: ما يحصل به

الألم. وأكثر إطلاقه على شدة الحرب، والمراد به في الآية عذابُ الدنيا.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/١٢ . ١٩).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٤/١٤)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ١٥٣، ٨٤٤، ٦٦٩)،

والبرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٠٩/٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/١١٣). ومحاسن التأويل:

القاسمي (٧/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢١، ٢٢)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٣/٣)،

والتحقيقات والتفحيات السلفيات على متن الورقات: مشهور آل سلمان (ص: ١١٨)، وياقوتة الصراط في تفسير

غريب القرآن: أبو عمر الزاهد (ص: ٢٢٧).

بَيَّاتًا: التَّبْيِيتُ: قصد العدو ليلاً، يُقال لكل فَعَلٍ دُبِرَ فيه بالليل: بُيِتَ، أي: جاءهم ليلاً بانئتين وهم نائمون، كقوم لوطٍ، ويطلق البيات على ضربٍ من الغارة تقع ليلاً، وهي أشدُّ على المغزوّ. أو: حرف عطفٍ، وتقسيم، وهو في الآية لتقسيم القرى المهلكة: إلى مهلكة في الليل، ومهلكة في النهار، والمقصود من هذا التقسيم تهديد أهل مكة حتّى يكونوا على وجلٍ في كلّ وقتٍ لا يدرون متى يحلُّ بهم العذاب، بحيث لا يأمنون في وقتٍ مآ، وحرف (أو) يقع في الخبر والطلب، فأماً في الخبر فله فيه معان، منها: الشك، والإبهام، والتتويج، والتفصيل، والإضراب. وأماً في الطلب فله معان، منها: الإباحة، والتخيير.

قَائِلُونَ: أي: كانوا في وقت القيلولة، وهي اسمٌ للوقت المبتدئ من نصف النهار المنتهي بالعصر، أي: وقت النوم، قائلين مُستريحين نصف النهار، كقوم شعيب، والمقيل: الراحة في ذلك الوقت، والقيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرُّ، وإن لم يكن مع ذلك نومٌ. دَعَاؤُهُمْ: أي: دَعَاؤُهُمْ وتضرُّعهم، فالدعوى اسمٌ بمعنى الدُّعاء والتضرع، والدُّعاء في الآية لرفع العذاب، أي: الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب، وذلك أنّ شأن النَّاسِ إذا حلَّ بهم العذاب أن يجأروا إلى الله بالاستغاثة، ويجوز أن تكون الدعوى بمعنى الادِّعاء، أي: انقطعت كلّ الدَّعاوي التي كانوا يدعونها من تحقيق تعدد الآلهة وأن دينهم حقٌّ، فلم تبق لهم دعوى، بل اعترفوا بأنهم مبطلون^(١). والمعنى: فما كان تضرعهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا: إنّنا كنّا ظالمين فأقروا على أنفسهم بالشرك، أي: فما كان قولهم إلا الاعتراف بالظلم والإساءة. ظَالِمِينَ: الظلم وضعُ الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه^(٢).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٣):

وجه ارتباط الآية لما قبلها أنّ الله لما أمر الرسول بالإنذار والتبليغ، وأمر القوم بالقبول والمتابعة ذكر في هذه الآية ما في ترك المتابعة والإعراض عنها من الوعيد، فإنّ مصارع الغابرين من المكذّبين في الدنيا، ومصائرهم في الآخرة خيرٌ مذكر، وخيرٌ منذر، والقرآن يستصحب هذه الحقائق، فيجعلها مؤثرات موحية، ومطارق موقظة، للقلوب البشرية، إنّها كثيرةٌ تلك القرى التي أهلكت بسبب تكذيبها، فهذه الآية خيرٌ مُستعمل في التهديد للمشركين الذين وجه إليهم التّعريض في الآية الأولى والذين فُصدوا من العموم، وقد تلت هنا بتمحيص التّوجه إليهم.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣/٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٣/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٤/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٩/٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٢٢/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد

قطب (١٢٦٠/٣).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

ساق الله تعالى للمشركين على سبيل الإنذار والتخويف جانباً من العذاب الذي نزل بمن سبقهم بسبب ظلمهم وفسادهم، فجاءت الآية لتقول: وكم من أهل قرية مشركين أهلكتناهم جزاءً على شركهم، فكونوا يا معشر أهل مكة على حذرٍ أن نصيبكم مثل ما أصابهم فإنكم وإياهم سواء، فقد خوَّف الله في هذه الآية الكفار الذين كذبوه (ﷺ) بأنه أهلك كثيراً من القرى بسبب تكذيبهم الرُّسل، فمنهم من أهلكها بيئاتاً، أي: ليلاً، ومنهم من أهلكها وهم قائلون، والقيلولة: الاستراحة وسط النهار، وقد أهلك الله قُرَى متعدِّدة بسبب عبادة أهلها غير الله، وسلوكهم غير طريقه بأن جاءهم عذابه في وقت غفلتهم واطمئنأنهم ليلاً وهم نائمون، كما حدث لقوم لوط، أو نهاراً وهم مُستريحون وقت القيلولة كما حدث لقوم شعيب، ثم بيَّن الله في هذه الآية أن تلك القرى الكثيرة التي أهلكها في حال البيات، أو في حال القيلولة، لم يكن لهم من الدعوى إلا اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين، فقد بيَّن الله في هذه الآية حال الأمم المهلكة وقت أن جاءها الأمر الإلهي بالعذاب، وهو الاعتراف بذنبهم الذي كان سبب نكبتهم، فما كان منهم عندما رأوا عذاب الله إلا أن قالوا حيث لا يَنفَعهم ذلك: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا بالمعصية، ولم يَظلمنا الله بعذابه.

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: حُصَّ بالذكر إهلاك القرى، دون ذكر الأمم كما في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥٥]؛ لأنَّ المواجهين بالتعريض هم أهل مكة، وهي أمُّ القرى، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها، ولأنَّ تعليق فعل "أهلكنا" بالقرى دون أهلها لقصد الإحاطة والشمول، فهو مغنٍ عن أدوات الشمول، فالسامع يعلم أن المراد من القرية أهلها؛ لأنَّ العبرة والموعظة إنما هي بما حصل لأهل القرية، وهذا من الإيجاز البديع.

اللطيفة الثانية: في الآية إخبارٌ عن كيفية إهلاكهم بعد الخبر بالإهلاك، وهذا الترتيب هو في الغالب تفصيلاً بعد إجمال، فيكون من عطف المفصل على المجمل.

اللطيفة الثالثة: هناك فرقٌ بين كلمة: ﴿الْقَرْيَةِ﴾، وكلمة: ﴿الْمَدِينَةِ﴾ في القرآن وفي اللُّغة: فإذا اتَّسعت القرية تُسمى مدينة، والقرية قد تكون صغيرة وقد تكون كبيرة، ففي سورة يس وردت الكلمتان: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣] و﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠]

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٢٦/٣)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٣١٧)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٤/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣/٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٤/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٣/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤٩٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢١، ٢٥، ١٩/٨)، ولمسات بيانية: فاضل بن صالح السامرائي (ص: ٥٨).

فالمراد بالقرية: المدينة، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى النَّاس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف أنَّ أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل بواديههم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي.

اللطيفة الرابعة: قال قومٌ: في الآية ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ محذوفٌ، والتقدير: وكم من أهل قريةٍ، والصحيحُ أنَّه لا محذوف في الآية، والمراد إهلاك نفس القرية؛ لأنَّ في إهلاكها بهدمٍ أو خسفٍ أو غيرهما إهلاك من فيها.

اللطيفة الخامسة: الفاء في قوله: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنًا﴾ فاء التعقيب، وهو يوجب المغايرة؛ لأنَّ الإهلاك غير البأس.

الثالثة السادسة: قوله: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ استعارة، حيث استعير المجيء لحدوث الشيء وحصوله بعد أن لم يكن، تشبيهاً لحلول الشيء بوصول القادم من مكان إلى مكان بتقلُّ خطواته.

اللطيفة السابعة: التخصيص؛ حيثُ حُصَّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنهار بمجيء البأس؛ لأنَّهما اللذان يطلب فيهما النَّاسُ الراحةَ والدعةَ والسكون، ولأنَّهما وقتا الغفلة، فوقع العذاب فيهما أشد على النَّاسِ وأفظع، ولأنَّ التذكير بالعذاب فيهما يُنغص على المكذِّبين تخيلاً نعيمَ الوقتين^(١). يقول سيد قطب: "وكلتاها البيات والقيلولة ساعة غرّة واسترخاء وأمان! والأخذُ فيهما أشدُّ ترويعاً وأعنفُ وقعاً، وأدعى كذلك إلى التذكري والحذر والتوقي والاحتياط".

اللطيفة الثامنة: كلمة ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنًا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ للتنويع، أي: جاء مرةً ليلاً كقوم لوطٍ، ومرةً نهاراً وقت القيلولة كقوم شعيبٍ، وهذا فيه نشرٌ لما لف.

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿بَيَاتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال، بمعنى بائتين، وقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿بَيَاتًا﴾ كأنَّه قيل: فجاءها بأسنا بائتين أو قائلين، ومعنى الآية أنَّهم جاءهم بأسنا وهم غير متوقعين له إمَّا ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم قائلون.

اللطيفة العاشرة: التوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ لتحقيق الخبر للنفس أو المخاطبين أو يكون قولهم ذلك في أنفسهم، أو بينهم، جارياً مجرى التعليل لنزول البأس بهم والاعتراف بأنَّهم جديرون به، ولذلك أطلقوا على الشرك حينئذٍ الاسم المشعر بمذمته الذي لم يكونوا يطلقونه على دينهم من قبل.

اللطيفة الحادية عشر: قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ هو اعتراف بالذنب، وإقرار بالشرك؛ لأنَّ الظلم الذي يعنونه هنا هو الشرك، فهذا هو المدلول الغالب على هذا التعبير في القرآن^(٢).

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: للنسفي (١/٥٠٢)، والبحر المحيط: أبو حيان (٤/٢٦٩)، والتحرير والتنوير:

ابن عاشور (٨/٢٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٦٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٢٤، ٢٣)، والبحر المحيط: أبو حيان (٤/٢٦٩).

خامساً: بيان المقصد من الآية^(١):

أخبر الله عن أهل القرى المهلكة أنهم قالوا لما حلَّ بهم الهلاك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: أنهم ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرُّسل، والإعراض عن الآيات، وصمَّ الأذان عن الوعيد والوعظ، وأنَّ الله لم يظلمهم، وهو يحتمل أنهم علموا ذلك بمشاهدة العذاب وإلهايمهم أنَّ مثل ذلك العذاب لا ينزل إلا بالظالمين، أو بوجدانهم إياه على الصِّفة الموعود بها على ألسنة رسلهم، فيكون الكلام إقراراً محضاً أقروا به في أنفسهم، ويحتمل أنهم كانوا يعلمون أنهم ظالمون، من قبل نزول العذاب، وكانوا مصرين عليه ومكابرين، فلما رأوا العذابَ ندموا وأنصفوا من أنفسهم، فيكون الكلامُ إقراراً مشوباً بحسرةٍ وندامةٍ.

فإنَّ من سنة الله القدرية والكونية أن ينجي أوليائه المؤمنين، ويهلك أعداءه الكافرين، فمنذ أنَّ خلق الله الخلائق، والتدافع بين الحقِّ والباطل على أشده مستمرٌّ، فكانت إرادة الله بإهلاك الكافرين، وانجاء المؤمنين في كل صولة وجولة مع الكفر وأهله، فنوحٌ (عليه السلام) لبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله فكذبوه وكفروا به وبما جاء به من عند ربِّه، وما آمن معه إلا قليلٌ، فنجاه الله ومن معه وأهلك قومه الكافرين المكذِّبين، وكذلك قوم عاد وقبيلة ثمود دمرهم الله، وأهلكهم لما كذبوا الرُّسل، وأشركوا بالله، وكذلك قوم شعيب لما كذبوا رسولهم أهلكتهم الله، فهذه سنة الله القدرية الكونية في إهلاك المكذِّبين^(٢)، فكلُّ الأمم السابقة تولى الله فيها إهلاك المشركين والكافرين المكذِّبين بنفسه، فإنَّ سنة الله التي مضت في الأوَّلِين ماضيه في الآخرين، وهي عذاب وهلاك للمكذِّبين، ونجاة وخلص للرُّسل ومن معهم من المؤمنين، حقاً كتبه الله على نفسه، وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد^(٣)، فإنَّ مصارع المكذِّبين كما يعرضها القصص القرآني تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسولٍ، استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لربِّ العالمين، اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة، ثم المصراع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ، وإنَّ أخذ الذين كفروا بالمهانة والعذاب، سنة ماضية لا تتخلف ولا تتبدل فهذا هو المصير المحتوم الذي جرت به السنة الإلهية من قديم الزمان، والله تعالى لا يكلِّ الناس إلى فلتاتٍ عابرةٍ، ولا إلى جزافٍ لا ضابط له، إنَّما هي سنُّه يمضي بها قدره، وما يصيبُ المشركين في كلِّ وقتٍ، لم يعجزوه سبحانه ولم يتخلف عنهم عقابه، ولقد آتاهم الله من نعمته، ورزقهم من فضله، ومكَّن لهم في الأرض، وجعلهم

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤/٨).

(٢) مبشرات النصر والتمكين: ياسين طاهر الأغا (ص: ٤٨).

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٦، ١٨١٩).

خلائف فيها، وهذا كله إنما يعطيه الله للناس ابتلاءً منه وامتحاناً؛ لينظر أيشكرون أم يكفرون، ولكنهم كفروا ولم يشكروا وطغوا وبغوا بما أعطوا، وغيرتهم النعمة والقوة فصاروا جبابرةً وطواغيت كفرةً فجرةً. وجاءتهم آيات الله فكفروا بها، وعندئذٍ حقت عليهم سنة الله في أخذ الكافرين بعد أن تبلغهم آياته فيكذبوا بها، وعندئذٍ غير الله النعمة، وأخذهم بالعذاب، ودمر عليهم تدميراً، لقد أهلكهم الله بعد التكذيب بآياته، ولم يهلكهم قبلها؛ لأن هذه سنته ورحمته^(١).

ومن أيام الله المشهودة يوم عاشوراء فهو يوم صالح، فيه رُفِعَ الظلم، ونُصِرَ الإيمان، وفيه ظهرت قدرة رب العالمين، ولا شك أن يوم هلكة الظالمين يوم عيد وفرح، فالظلم مقيت، وإن الظالمين لا بُدَّ لهم من رحيل، وأنه مهما طالَّت فترات حكمهم وطغيانهم، فإنهم إلى زوال، إن سنة إهلاك الظالمين ليست حدثاً فريداً حدث أيام موسى عندما هلك الطاغية المتكبر فرعون، بل حدثاً متكرراً بشكل كثيف في أحداث الدنيا؛ فإن الصورة التي ذكرها الله لفرعون في كتابه ليست مجرد تأريخ لأحداث الماضي، وإنما هي وصف دقيق لنمط الفراعنة المتكبرين، وشرح مفصل لسيرة حياتهم، وطريقة تفكيرهم، ووسائل طغيانهم، ومواقف المؤمنين منهم، ثم هي في النهاية توضيح جلي لخاتمهم مهما تكبروا، ولنهائيتهم مهما ظلموا، وإن الأمل لا ينبغي أبداً أن يموت في قلوبنا، فمهما مرَّ على المؤمنين من أزمات، فإنهم يخرجون منها بفضل الله وقوته^(٢).

فالظلم مرتع وخيم، لذلك قال ابن تيمية: "فإنَّ النَّاسَ لم يتنازَعوا في أنَّ عاقبةَ الظلم وخيمةٌ وعاقبة العدل كريمةٌ، ولهذا يروى: "إنَّ الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"^(٣)، فإنَّ الظلم مؤذن بخراب العمران؛ وإنَّ الملك لا يتمُّ عزُّه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته والتَّصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشرعية إلا بالملك ولا عزُّ للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الربُّ وجعل له قِيماً وهو الملك، والظلم مخرب للعمران وإنَّ عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض، هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصص^(٤). وهذه الأمم الموجودة آثارها إلى

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٦)

(٢) صحيفة الرسالة، غزة (العدد: ١١٨٧، ص: ١٦)، تاريخ ٧ محرم ١٤٣٥ هـ.

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨/٦٣).

(٤) المقدمة: ابن خلدون (١/٣٥٣)، وشرح العقيدة الطحاوية: سفر بن عبد الرحمن الحوالي (ص: ٢٢).

اليوم، كالفراعنة، والروم، وقوم هود، وقوم صالح؛ كلُّها كان هلاكها ودمارها بسبب تكذيبها بما جاء به الأنبياء، والوحي الذي جاء من عند الله، وما أهلك الله قوماً وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق، فمن قام بهما معاً كان مصحوباً بالسلامة، موصوفاً بالكرامة في الدارين، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال في الدارين، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير، حيثُ فاتته الحزم والتشمير، فإذا ندم لم ينفعه الندم، حيث زلت به القدم، فالبدارَ البدارَ إلى التوبة والانكسار، والتمسك بشريعة النبي المختار، والتحقق بمعرفة الواحد القهار، وصحبة الصالحين الأبرار، والريانيين الكبار، قبل أن يصير العبد إلى قبر فيجده إمَّا روضةً من رياض الجنة، أو حفرةً من حُفرِ النَّارِ^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. أن الكشف عن آثار الظالمين فيه موعظةٌ للنَّاسِ بالمنظر الشاخص أن: إِيَّاكُمْ أَنْ تَظْلَمُوا، وفي سجن الظلمة تذكيرٌ بمصير الجبروت، وفي جنة فرعون آيةً رادعةً ودليلٌ إعجازي.
٢. في الآية دليل على إنَّ إهلاك الظالمين المكذِّبين سُنَّةٌ إلهيةٌ ثابتةٌ.
٣. المقصود من الآية أنَّهم جاءهم العذابُ على حين غفلةٍ منهم من غير تقدم أمانةٍ تدلهم على نزول ذلك العذاب، فكأنَّه قيل: للكفار لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة والفراغ، فإنَّ عذاب الله إذا وقع وقع دفعةً من غير سبق أمانةٍ فلا تغتروا بأحوالكم.
٤. الحسرةُ والندامةُ لا تنفع عند فوات الأوان، ولا تُجدي معرفة ولا اعتراف، ولا يكف بأس الله عنهم ندمٌ ولا توبةٌ، فإنَّ الندمَ قد فات موعده، والتوبةُ قد انقطعت طريقها بحلول العذاب.
٥. أنَّ كلَّ ما نهى الله عنه راجع إلى الظلم، وكلَّ ما أمر الله به راجع إلى العدل.
٦. أنَّ الآية تبين أنَّ الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنبٍ.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: ابن عجيبة (١٩٨/٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٤/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٦٠/٣)، وصناعة الحياة: محمد أحمد الراشد (ص: ٥٢)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٥٧/١٨)، وقواعد قرآنية: عمر بن عبد الله المقبل (ص: ٢٥٤).

المقصد الثاني: السؤال أسلوب تربية وتعليم

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

فَلَنَسْأَلَنَّ: السؤال: استِدْعَاءُ مَعْرِفَةٍ، أو ما يُؤدِّي إلى المَعْرِفَةِ، واستِدْعَاءُ مَالٍ، أو ما يُؤدِّي إلى

المال. والمقصود من السؤال أن يخبر المسؤول عن كيفية أعماله.

الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ: هم الأمة.

الْمُرْسَلِينَ: المرسلون هم الرُّسل والأنبياء.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

علاقة هذا الآية بما قبلها هو انتقال من خبرٍ إلى خبرٍ، وهو انتقالٌ من الخبر عن حالتهم الدنيويَّة إلى الخبر عن أحوالهم في الآخرة، وأكَّد الخبر بلا القسم ونون التوكيد لإزالة الشكِّ في ذلك، وبناء عليه ففي تقرير وجه النظم وجهان: الأوَّل: أن الله لما أمر الرُّسل في الآية المتقدمة بالتبليغ، وأمر الأمة بالقبول والمتابعة وذكر التهديد على ترك القبول والمتابعة بذكر نزول العذاب في الدنيا أتبعه بنوع آخر من التهديد، وهو أنه تعالى يسأل الكلَّ عن كيفية أعمالهم يوم القيامة، الثاني: أن الله لما قال: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أتبعه بأنه لا يقع يوم القيامة الاقتصار على ما يكون منهم من الاعتراف، بل ينضاف إليه أنه تعالى يسأل الكلَّ عن كيفية أعمالهم وبيَّن أن هذا السؤال لا يختص بأهل العقاب، بل هو عامٌّ في أهل العقاب وأهل الثواب، يقول صاحب الظلال مبيناً وجه المناسبة بين الآيتين: "بينما المشهد هكذا معروضاً في الدنيا إذا السياق ينتقل، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة، بلا توقُّفٍ ولا فاصلٍ، فالشريطُ المعروضُ موصولُ المشاهدِ، والنقلة تتخطى الزمان والمكان، وتصل الدنيا بالآخرة، وتلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة وإذا الموقف هناك في لمحَّة خاطفة، إنَّ التعبير القرآني على هذا النحو المصور الموحى، خاصيةٌ من خواص القرآن، إنَّ الرحلة في الأرض كلها تطوى في لمحَّة، وفي سطرٍ من كتابٍ، لتلتحم الدنيا بالآخرة ويتصل البدء بالختام، فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء، فإنَّه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذي أخذهم وهم غارون.

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني(ص: ٤٣٧)، والتفسير الكبير: الرازي(٢٥/١٤)، والبحر المحيط:

أبو حيان(٢٧٠/٤)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي(١٢٦/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي(٢٥/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(٢٦/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد

قطب(١٢٦٠/٣).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

بعد أن بيّن القرآن الكريم ما أصاب الظالمين من عذابٍ دُنِيويٍّ، أعقب ذلك ببيان ما سيحلُّ بهم من عذابٍ أُخرويٍّ، حيثُ سيكون حساب الله يوم القيامة دقيقاً عادلاً، فلنَسألَنَّ النَّاسَ الذين أُرْسِلَتْ إليهم الرُّسُل هل بلغتهم الرِّسالةُ؟ وبماذا أجابوا المُرسِلين؟ ولنَسألَنَّ المرسلين أيضاً: هل بلغتم ما أنزل إليكم من ربِّكم؟ وبماذا أجابكم أقوامكم؟.

رابعاً: اللطائف البيانية في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الغرض من السؤال في قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ وهو سؤال الذين أرسل إليهم سؤالٌ عن بلوغ الرِّسالة، وهو سؤال تقريع وتوبيخ و تقرير في ذلك المحشر، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرِّسالة سؤال إرهاب لأممهم، لأنَّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنَّهم مسوقون إلى العذاب.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ هم أمم الرُّسُل، وعبر عنهم بالموصول لما تدلُّ عليه الصِّلة من التعليل، فإنَّ فائدة الإرسال هي إجابة الرُّسُل، فلا جرم أن يسأل عن ذلك المُرسَل إليهم.

اللطيفة الثالثة: المقصود من السؤال أن يخبر المسؤول عن كيفية أعماله، فلما أخبر الله عنهم في الآية المتقدمة أنَّهم يقرون بأنَّهم كانوا ظالمين، والفائدة في ذكر هذا السؤال بعده؛ وأيضاً قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ فإذا كان يقصه عليهم بعلمٍ فما معنى هذا السؤال، معناه أنَّهم لما أقروا بأنَّهم كانوا ظالمين مقصرين، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير، والمقصود منه التقريع والتوبيخ.

اللطيفة الرابعة: فائدة سؤال الرُّسُل مع العلم بأنَّه لم يصدر عنهم تقصير ألبيته، أنَّهم إذا أثبتوا أنَّه لم يصدر عنهم تقصير ألبيته التحق التقصير بكلية بالأُمَّة فيتضاعف إكرام الله في حقِّ الرُّسُل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حقِّ الكفار لما ثبت أنَّ كلَّ التقصير كان منهم.

اللطيفة الخامسة: في الآية تقديم وتأخير؛ لما كان المقصود الأهمُّ من السؤال هو الأُمم، لإقامة الحجَّة عليهم في استحقاق العقاب، فُدِّم ذكرهم على ذكر الرُّسُل.

(١) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٤/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٥/١٤)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفي (٥٠٣/١)، والتحرير والتتوير: ابن

عاشور (٢٧، ٢٦/٨).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنه السؤال الجديد، والتشهير بهم على الملأ الحاشد في ذلك اليوم المشهود ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهو السؤال الدقيق الوافي، يشمل المرسل إليهم ويشمل المرسلين، وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الحاشد وتفصل فيه الخفايا والدقائق، يسأل الذين جاءهم الرُّسل فيعترفون، ويسأل الرُّسل فيجيبون، ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم (ﷺ) بعلم، فقد كان حاضراً كل شيء، وما كان الله غائباً عن شيء، وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير، وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة عذاباً، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء ثواباً وكرامة. وقد جاء السؤال منفياً ومثبتاً بحسب المواطن، أو بحسب الكيفيات كسؤال التوبيخ والتأنيس، وسؤال الاستعلام البحت منفي عن الله تعالى، إذ أحاط بكل شيء علماً، لكن في السؤال آداب، فلو رام المسلم أن يسأل غيره في أمور الدنيا والآخرة، فعليه بآداب السؤال، ومن آداب السؤال التلطف حتى عند السؤال عن الاسم، وسؤال الأكابر وأهل الفضل والعلم لا بد منه سواء من الأقران أو ممن هم دونهم في الفضل أو السن عن أمر مجهول، أو رفع أشكال، أو تذكر ما يخشى عليه من النسيان، أو شبه ذلك مما هو معتبر شرعاً، ويكون السؤال بلطف واحترام، وتواضع واجلال، دون اكثار واملال، ودون متابعة للسؤال بالأبحاث النظرية، أو التفرع المذموم عليه، كما أن الإكثار من الأسئلة مذموم، لقوله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَلْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وكره رسول الله (ﷺ) المسائل وعابها، ونهى عن كثرة السؤال، وكان (ﷺ) يكره السؤال فيما لم ينزل فيه حكم وفي الصحيح: "إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُزْماً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِ؛ فَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ"^(٢)، وقال أيضاً: "دعوني ما تركتكم؛ فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم"^(٣)، وهذا كافٍ في كراهية كثرة السؤال، ويتبين من هذا أن لكراهية السؤال مواضع، أذكر منها عشرة مواضع:

١. السؤال عما لا ينفع في الدين؛ كسؤال عبد الله بن خذافة: "من أبي؟"^(٤).
٢. أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته؛ مثاله سؤال بني إسرائيل في شأن البقرة.
٣. السؤال من غير احتياج إليه في الوقت، وهذا خاص بما لم ينزل فيه حكم.
٤. أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها؛ كما جاء في النهي عن الأغلوطات.
٥. أن يسأل عن علة الحكم، وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل لها معنى.

(١) البحر المحيط: أبو حيان (٤/٢٧٠)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٦١).

(٢) البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة. باب ما يكره من كثرة السؤال، رقم حديث (٧٢٨٩)، (ص: ٨٥٦).

(٣) أخرجه البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة. باب الاقتداء بسُنن رسول الله، حديث رقم (٧٢٨٨)، (ص: ٨٥٦).

(٤) أخرجه البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة. باب الاقتداء بسُنن رسول الله، حديث رقم (٧٢٩٤)، (ص: ٨٥٦).

٦. أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق.
٧. أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي.
٨. السؤال عن المتشابهات.
٩. السؤال عما شجر بين السلف الصالح.
١٠. سؤال التعتُّت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام، وفي القرآن في ذم ذلك، فهذه جملة من المواضع التي يُكره السؤال فيها، يُقاس عليها ما سواها، وليس النهي فيها واحداً، بل فيها ما تشد كراهيته، ومنها ما يخف، ومنها ما يحرم، ومنها ما يكون محل اجتهاد، وعلى جملة منها يقع النهي عن الجدل في الدين^(١).
- ولم يبيِّن الله في هذه الآية الشيء المسئول عنه المرسلون، ولا الشيء المسئول عنه الذين أرسل إليهم، وبيِّن في مواضع آخر أنه يسأل المرسلين عما أجابتم به أممهم، ويسأل الأمم عما أجابوا به رسلهم. قال في الأول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقال في الثاني: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ الرُّسُلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وبيِّن الله في موضع آخر أنه يسأل جميع الخلق عما كانوا يعملون، وهو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. وهنا إشكال معروف، وهو أن الله قال: ﴿فَلَنَسَأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، هذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، مع أن الله قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] والجواب أولاً: أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة، أخص من السؤال المثبت فيها؛ لأنَّ السؤال المنفي فيها مقيدٌ بكونه سؤالاً عن ذنوب خاصة، والسؤال عن الذنوب المنفي في الآيات: المراد به سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأنَّ الله محيطٌ علمه بكلِّ شيءٍ، ولا ينافي نفي هذا النوع من السؤال ثبوت نوع آخر منه هو سؤال التوبيخ والتقريع؛ لأنَّه نوع من أنواع العذاب، وبدلٌ لهذا أنَّ سؤال الله للكفار في القرآن توبيخٌ وتقريعٌ، وفي الجمع وجوه: أحدها: إنَّ القوم لا يسألون عن الأعمال؛ لأنَّ الكتب مشتملة عليها، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال وعن الصوارف التي صرفتهم عنها. وثانيها: إنَّ السؤال قد يكون لأجل الاسترشاد والاستفادة، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة، والله لا يسأل أحداً لأجل الاستفادة والاسترشاد، وإنما يسألهم لأجل توبيخ الكفار

(١) التفسير الكبير: الرازي (٢٦/١٤)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٢٦/٣)، والموافقات: الشاطبي (٣٨٧ - ٣٩٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٨)، ومسافر في قطار الدعوة: عادل عبدالله الشويخ (ص: ١٦٥، ١٦٤).

وإهانتهم. والثالث: إنَّ يوم القيامة يومٌ طويلٌ ومواقفها كثيرةٌ فأخبر عن بعض الأوقات بحصول السؤال، وعن بعضها بعدم السؤال.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(١):

١. الآية تدلُّ على أنَّ الله يحاسب كلَّ عباده؛ لأنَّهم لا يخرجون عن أن يكونوا رسلاً أو مرسلًا إليهم، ويبطل قول من يزعم أنه لا حساب على الأنبياء والكفار.

٢. السؤال من الله تعالى يكون على جهة التقرير.

٣. أنَّ السؤال في القرآن نوعان: أحدهما سؤال توبيخ وتقريع، وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال استخبار واستعلام، وهو المنفي في الآية؛ لأنَّ الله أعلم بأفعالهم منهم.

٤. أنَّ المراد من سؤال الرُّسل توبيخ من كذبهم وتقريعه مع إقامة الحُجَّة بأنَّ الرُّسل قد بلغته.

المقصد الثالث: إنَّ الله غيبٌ، وليس بغائبٍ.

ويدلُّ على هذا المقصد الأسمى قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(٢):

فَلَنَقُصَّنَّ: القَصُّ: تَنَبُّعُ الأَثَرِ، والقَصَصُ: الأَخْبَارُ المُتَنَبِّعَةُ.

بِعِلْمٍ: أي: عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة.

غَائِبِينَ: الغيب ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بدائة العقول، وإنما يُعلمُ بخبر الأنبياء، والغيب: ما غاب عن مشاهدة الخلق، وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب، فيدخل فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، والقائل في الآية هو الله تعالى.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية الكريمة^(٣):

بيَّن الله في هذه الآية الكريمة أنه يقصُّ على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه لم يكن غائباً عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيطُ علمه بكلِّ ما فعلوه من صغيرٍ وكبيرٍ، وجليلٍ وحقيقٍ، والمعنى: ولنُخبرنَّ الجميعَ إخباراً صادقاً بجميع ما كان منهم؛ لأننا أحصينا عليهم وما كنا غائبين عنهم.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٢٦/١٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٨٢٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦١٦، ٦٧١)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن

تيمية (٢/٢٨٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٧/٨). الدر المنثور في

التفسير المأثور: السيوطي (٣/١٢٦)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٢).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٨) والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٤/٣).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: تنكير علم في قوله: ﴿بِعِلْمٍ﴾ للتعظيم، أي: علم عظيم، فإنّ تنوين (علم) للتعظيم، وكمال العلم إنّما يظهر في العلم بالأمر الكثيرة.

اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿بِعِلْمٍ﴾ إثبات صفة العلم لله، وإبطال لقول من قال: لا علم لله.

رابعاً: بيان المقصد من الآية^(٢):

نفى الله في هذا الموضع عن نفسه أن يكون غائباً، وفي موضع جعل نفسه غيباً، في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] فقال طائفة من السلف: الغيب هو الله، أو من الإيمان بالغيب الإيمان بالله، ولهذا اختلف الناس في هذه المسألة، فطائفة من المفسرين يقولون: بقياس الغائب على الشاهد، ويريدون بالغائب الله، وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم فقال: لا يُسَمَّى الله غائباً، واستدل بالآية، وفصل الخطاب بين الطائفتين أنّ اسم الغيب، والغائب من الأمور الإضافية يراد به ما غاب عن حواس العبد فلم يدركه، ويراد به ما غاب فلم يدركنا، والله شهيدٌ على العباد، رقيبٌ عليهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فليس هو غائباً، وإنّما لما لم يره العباد كان غيباً؛ ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب، فإنّ الغائب اسم فاعل، والله شاهد غير غائب، وأمّا الغيب فالمعني في كونه غيباً هو انتفاء شهود الناس له، وهذه تسمية قرآنية صحيحة، فلو قالوا: قياس الغيب على الشهادة لكانت العبارة موافقة. قال الحافظ ابن حجر: "إنّ أصل ما ذكره قياس الغائب على الشاهد، هو أصل كلّ خبط؛ ولأنّ المحققون اتفقوا على أنّ حقيقة الله مخالفة لسائر الحقائق"، فقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: نسرد عليهم أعمالهم قصة قصة بعلم منّا لذلك وإطلاع عليه و﴿مَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عن شيء منه، بل علمنا محيطٌ بجميع أعمالهم، ظاهرها وباطنها، وهذا من أعظم التوبيخ والتقريع، حيث يقرون بالظلم وتشهد عليهم أنبياءهم، ويقص الله عليهم أعمالهم، والمراد أنّ الله يكرر ويبين للقوم ما أعلنوه وأسروه من أعمالهم، وأنّ يقص الوجوه التي لأجلها أقدموا على تلك الأعمال، ثم بين الله أنّه إنّما يصحّ منه أن يقص تلك الأحوال عليهم؛ لأنّه ما كان غائباً عن أحوالهم، بل كان عالماً بها، وما خرج عن علمه شيء منها، وذلك يدلّ على أنّ الإلهية لا تكمل إلا إذا كان الإله عالماً بجميع الجزئيات حتى يمكنه أن يميز المطيع عن المعاصي، والمحسن عن المسيء فظهر أنّ كلّ من أنكر كونه تعالى عالماً بالجزئيات امتنع منه الاعتراف بكونه تعالى أمراً ناهياً مثبهاً

(١) التفسير الكبير: الرازي (٢٦/١٤)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٧٠/٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٧/٨).

(٢) التفسير الكبير: ابن تيمية (١٥، ١٦/٣)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤١/١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥١/١٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٤٩/١٧).

معاقباً؛ ولهذا السبب فإنَّ الله أينما ذكر أحوال البعث والقيامة بيّن كونه عالماً بجميع المعلومات^(١). ومن الأدلة العقلية على إثبات صفة العلم لله إيجاده تعالى الأشياء؛ لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل، يقول سيد قطب: "ثمَّ يقصُّ عليهم العليمُ الخبيرُ كلَّ شيءٍ أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم (ﷺ) بعلمٍ، فقد كان حاضراً كل شيءٍ، وما كان الله غائباً عن شيءٍ، وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير".

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. الآية دليل على إثبات صفة العلم لله تعالى.
٢. دلت الآية على بطلان مذهب المعتزلة النافين للصفات الإلهية.
٣. أنّ المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل بها؛ لأنَّ الفعل المُحكّم المُتقن يمتنع صدوره عن غير عالم.
٤. العلم صفة كمالٍ، ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق، إذ كلُّ كمالٍ في المخلوق فهو من الخالق، فيجب أن يكون الخالق عالماً.

المقصد الرابع: الميزانُ في الآخرةِ واحدٌ، وهو حقيقيٌّ يرى ويحسُّ

ويدلُّ على هذا المعنى العقدي قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(٣):

وَالْوَزْنُ: الْوَزْنُ: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشَّيْءِ، وَالْمُتَعَارِفُ فِي الْوَزْنِ عِنْدَ الْعَامَّةِ: مَا يُقَدَّرُ بِالْقِسْطِ وَالْقَبَانِ. وَالْوَزْنُ حَقِيقَتُهُ مَعَادِلَةُ جِسْمٍ بِآخَرَ لِمَعْرِفَةِ ثِقَلِ أَحَدِ الْجَسْمَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا فِي تَعَادُلِهِمَا أَوْ تَفَاوُتِهِمَا فِي الْمِقْدَارِ، فَهُوَ آلَةٌ تَوْضَعُ فِيهَا الْأَشْيَاءَ، وَالْوَزْنُ الْحَقُّ أَيُّ: الْعَدْلُ يَوْمَ يَسْأَلُ اللَّهُ الْأُمَّمَ وَالرُّسُلَ. فَمَنْ: الْفَاءُ اسْتِنْتِافِيَّةٌ، وَ﴿مَنْ﴾ اسْمٌ شَرْطٌ جَازِمٌ، وَأَسْمَاءُ الشَّرْطِ تُفِيدُ الْعُمُومَ.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٢٦/١٤)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٧٠/٤)، ولوامع الأنوار البهية:

السفاريني (١٤٨/١)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٦١/٣).

(٢) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٤٩/١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٨).

(٣) تهذيب اللغة: الأزهري (٣٨٨٦/٤)، ومقاييس اللغة: ابن فارس (١٠٧/٦)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب

الأصفهاني (ص: ١٧٣، ٨٦٨)، والتفسير الكبير: الرازي (٢٧/١٤)، والإحكام في أصول الأحكام: ابن

حزم (١٠١/٨)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦٢٦/١٣)، ولوامع الأنوار البهية:

السفاريني (١٨٤/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٩/٨)، والشرح الممتع: ابن العثيمين (٣٤٥/١)، وإعراب

القرآن وبيانه: محيي الدين أحمد مصطفى درويش (٣٠٥/٣)، ونظرية المقاصد عند الشاطبي: أحمد

الريسوني (ص: ١٥)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشائع (ص: ٥٤١).

تُقَلَّتْ: الثِقَلُ والخِفَّةُ متقابلان، فكل ما يترجح على ما يُوزن به أو يُقَدَّر به يقال: هو ثقيل، وأصله في الأجسام ثم يقال في المعاني.

مَوَازِينُهُ: جمع ميزان، وهو ما يدلُّ على تعديلٍ واستقامةٍ، والميزان: الآلة التي يوزن بها الأشياء، فهو آلة يُعرف بها تباين مقادير الأجرام. والميزان شرعاً: هو ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي له لسان وكفتان لا يعلم قدره إلا الله. والميزان واحد، والجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص، ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم، كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحد، والذي يترجح أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأنَّ أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا.

المُفْلِحُونَ: الفلاح: الظفر وإدراك بُغْيَةٍ، وذلك ضربان: دُنْيَوِيٌّ وأُخْرَوِيٌّ؛ فالدُنْيَوِيُّ: الظفر بالسعادات التي تَطْيِبُ بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز، وفلاح أُخْرَوِيٌّ، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، والمُفْلِحُ الذي ينال المَطْلُوبَ وَيَنجُو مِنَ المَرْهُوبِ، وهو حُصُولُ الخَيْرِ وإدراك المطلوب، فقوله: ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون.

حَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ: هذا الخسران لا ينجو منه إنسان إلا بأربعة أمور هي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

يَظْلِمُونَ: الظلم ضدُّ العدل، أي: يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقها من الصدق، قال أكثر المفسرين المراد من الآية الكافر؛ فإنه لا معنى لكون الإنسان ظالماً بآيات الله إلا كونه كافراً بها منكرًا لها، فدلَّ هذا على أنَّ المراد من هذه الآية أهل الكفر^(١).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

مناسبة هذا الآية لما سبقتها ما تضمَّنته الآية السابقة من العلم بحسنات النَّاسِ وسيئاتهم، فلا جرم أشعرت هذه الآية بأنَّ الله مظهر ذلك العلم وأثره وهو الثواب والعقاب، فكأنَّه قيل: فلنقصنَّ عليهم بعلمٍ ولنُجازينَّهُم على أعمالهم جزاءً لا غبن فيه على أحد. فإنَّ الله لما بيَّن في الآية الأولى أنَّ من جملة أحوال القيامة السؤال والحساب بيَّن في هذه الآية أنَّ من جملة أحوال القيامة أيضاً وزن الأعمال.

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٤٤)، والتفسير الكبير: الرازي (٤/٢٧، ٢٩)، والفتاوى الكبرى: ابن تيمية (١/٦١)، وأصواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٩٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٣٢، ٣١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٤/٢٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٨).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآيات^(١):

ذكرت الآيات حال المؤمنين الصالحين، وحال المكذبين المشركين؛ إذ كان الناس يوم نزول الآيات فريقين: فريق المؤمنين، وهم كلهم عاملون بالصالحات، مستكثرون منها، وفريق المشركين، وهم أخصاء من الصالحات، وبقي بين ذلك فريق من المؤمنين الذين يخلطون عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، وذلك لم تتعرض له هذه الآيات، إذ ليس من غرض المقام، وقد بين الله في أن وزنه للأعمال يوم القيامة حق أي: لا جور فيه، ولا ظلم، فلا يزداد في سيئات مسيء، ولا ينقص من حسنات محسن، ثم بين الله أن من ثقلت موازينهم أفلحوا، ومن خفت موازينهم خسروا بسبب ظلمهم، ولم يفصل الفلاح والخسران في هذه الآية، وقد جاء ما يدل على أن المراد بالفلاح هنا كونه في عيشة راضية في الجنة، وأن المراد بالخسران كونه في الهاوية من النار، والمعنى: ويوم نسأل الناس ونخبرهم يوم القيامة سيكون تقدير الأعمال للجزاء تقديراً عادلاً.

رابعاً: لطائف تفسيرية بيانية في الآية^(٢):

اللطفية الأولى: في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾، بينهما طباق.

اللطفية الثانية: التضمن، حيث ضمن قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ معنى يُكذِّبون، فلذلك عدِّي بالباء، فكأنه قيل: بما كانوا يظلمون فيكذبون بآياتنا. وإنما جعل تكذيبهم ظلماً؛ لأنه تكذيب ما قامت الأدلة على صدقه، فتكذيبه ظلماً للأدلة بدحضها وعدم إعمالها.

اللطفية الثالثة: في صيغة المضارع ﴿يَظْلِمُونَ﴾ إخبار عن حالهم في تجدد الظلم فيما مضى.

اللطفية الرابعة: تقديم المجرور في: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ على عامله، وهو ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للاهتمام بالآيات.

اللطفية الخامسة: لا يمتنع في قدرة الله أن يجري سبباً يعرف الخلق في لحظة واحدة مقادير الأعمال، بالإضافة إلى تأثيراتها في التقريب والإبعاد، وحد الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان، فالميزان حقيقي، والتصديق به واجب.

اللطفية السادسة: إن الله يعلم مقادير أعمال العباد، والحكمة في وزنها هي: إظهار العدل، وإن الله لا يظلم عباده. ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وإقامة الحجة عليهم في العقبى. ومنها: تعريف العباد ما لهم من خيرٍ وشرٍ وحسنةٍ وسيئةٍ. ومنها: إظهار علامة السعادة والشقاوة، ونظيره؛ أن الله أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم، من غير جواز النسيان عليه؛ فإن الله حكيمٌ منزّهٌ عن النقص والجور.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٢/٨)،

والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٥/٣).

(٢) محاسن التأويل: القاسمي (١٤، ٨/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٢/٨)، والتفسير المنير:

الزحيلي (١٤٢/٨)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٢٩/٣).

خامساً: بيان المقصد من الآية^(١):

الوزن في الآية إشارة إلى العدل في مُحاسبة النَّاسِ، وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ إشارة إلى كثرة الخيرات، و﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ إشارة إلى قلة الخيرات، قاله الراغب^(٢)، وعن مجاهد قال: "الموازين العدل". والراجح ما ذهب إليه الجمهور أنه ميزان حقيقي حسي له كِفَتَانِ^(٣). قال شيخ المفسرين الطبري^(٤): "والصواب من القول في ذلك أن ذلك هو الميزان المعروف الذي يُوزَنُ به، وأنَّ الله يَزِنُ أعمالَ خَلْقِهِ الحسنات منها والسيئات، كما قال: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موازين عمله الصالح ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الذين ظفروا بالنجاح، وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات، ولتظاهر الأخبار عن رسول الله (ﷺ) التي تحقق أن ذلك ميزان حقيقي يُوزَنُ به الأعمال، على ما وصفت بأنه الذي يعرفه النَّاسُ، له لسانٌ وكِفَتَانِ^(٥). وإنما جمع الله الموازين في الآية فقال: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ولم يقل: (ميزانه) لوجهين: الأول: إنَّ العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد، والثاني: إنَّ المراد من الموازين جمع موزون لا جمع ميزان، وأراد بالموازين الأعمال الموزونة، والوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقادير ما تستحقه الأعمال من الثواب والعقاب تعييناً لا إجحافَ فيه، وثقل الميزان في المعنى الحقيقي رجحان الميزان بالشيء الموزون^(٦). والميزان: هو ما توزن به أعمال العباد يوم القيامة، وهو غير العدل كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، ففي الصحيح عن النبي (ﷺ) أنه قال: "كلمتان حبيبتان إلى

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ١٧٤، ٨٦٨).

(٢) الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، المعروف بـ"الراغب" أديب وعالم باللغة والتفسير والأخلاق، اشتهر حتى كان يُقرن بالغازلي، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، توفي سنة (٥٠٢هـ)،

من مؤلفاته: مفردات ألفاظ القرآن. ينظر: بغية الوعاة: للسيوطي (٢/٢٩٧)، والسير: الذهبي (١٣/٣٤١).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٧: ٦٢٨)، والشرح الممتع على زاد المستنقع: ابن عثيمين (٥/٣٣٢).

(٤) محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، ولد في آمل سنة (٢٢٤هـ) طلب العلم مبكراً، وأكثر من الترحال، وكان من أئمة الاجتهاد في زمانه، إماماً في الفقه، ورأساً في التفسير، وعالماً في التاريخ والأخبار، عارفاً بالقراءات واللغة، يُحكَمُ بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، تُوفي في بغداد سنة (٣١٠هـ)، هو أشهر من وضع تفسيراً متكاملًا للقرآن وفق ترتيب آياته، سماه (جامع البيان في تأويل أي القرآن). ينظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي (١٤/٢٦٧)، ولسان الميزان: ابن حجر (٧/٢٥)، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان (ص: ١٢).

(٥) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٣/٤٠٥)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (٣/١٢٩).

(٦) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٢٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٣١، ٢٨).

الرَّحْمَنُ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ" (١)، وهذا وأمثاله مما يُبَيِّنُ أَنَّ الأَعْمَالَ تُوَزَنُ بِمَوَازِينٍ تَبِينُ بِهَا رَجْحَانَ الحَسَنَاتِ عَلَى السَّيِّئَاتِ وبالعكس، فهو ما به تبين العدل، وأمَّا كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب، ولا ندخل في كيفية الوزن وحقيقة الميزان، فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل، فالله ليس كمثل شيء، وحسب المسلم تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق من أن الحساب يومئذٍ بالحق، وأنه لا يظلم أحدٌ مثقال ذرة، وأنَّ عملاً لا يبخر ولا يغفل ولا يضيع، فكيفية هذا الوزن مردّه إلى الله (٢)؛ لأنَّه شيءٌ استأثَّرَ اللهُ بعلمه، فهو أمرٌ غيبيٌّ.

القول في الموزون على ثلاثة أوجه، أي ما الذي يُوضع في الميزان يوم القيامة:

الأوّل: أنَّه الأَعْمَالُ نَفْسُهَا هِيَ الَّتِي تُوَزَنُ، وَأَنَّ أَعْمَالَ العِبَادِ تَجَسَّمُ فَيُوضَعُ فِي المِيزَانِ، فالأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَعْرَاضاً إِلَّا أَنَّ اللهَ يَقْلِبُهَا يَوْمَ القِيَامَةِ أَجْسَاماً (٣). ففي الصحيح قال رسول الله (ﷺ): "اقرأوا القرآن؛ فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران؛ فإنَّهما تأتيان يوم القيامة كأنَّهما غمامتان أو كأنَّهما فرقان من طير صَوَّافٍ، تحاجَّانِ عن أصحابهما" (٤). وأيضاً قوله (ﷺ): "يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران" (٥). ومعنى هذا الحديث أنَّه يجيء ثواب قراءة القرآن، وفي الحديث ما يدلُّ على ما فسروا، إذ قال النبي (ﷺ): "وأهله الذين يعملون به في الدنيا" ففي هذا دلالة أنَّه يجيء ثواب العمل، وأنَّ الموزون ثواب العمل (٦)، ولا مانع من كون الآتي هو العمل نفسه كما هو ظاهر الحديث، فأما أن يقال: إنَّ الآتي هو كلام الله نفسه فحاشا وكلا؛ لأنَّ كلام الله صفته ليس بمخلوق، والذي يوضع في الميزان هو فعل العبد وعمله.

والقول الثاني: أنَّ صحائف الأعمال هي التي تُوزَنُ، ويؤيده حديث البطاقة؛ أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: "إنَّ الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كلُّ سجلٍّ مدُّ البصرِ ثم يقول: أتتكرُّ من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب قال: أفلك عذرٌ أو حسنة؟ قال: فيهِت الرجلُ، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إنَّ

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد . باب قول الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] حديث

رقم: (٧٥٦٣)، (ص: ٨٩٠)، والفتح (١٧/٦٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٠٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٦١)، والشرح الممتع على زاد

المستقنع: محمد بن العثيمين (٥/٣٣٢)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/٦٥).

(٣) محاسن التأويل: الفاسمي (٧/٩٠١).

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين . باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم (٨٠٤)، (ص: ٣١٤).

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين . باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم (٨٠٥)، (ص: ٣١٥).

(٦) الشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح العثيمين (٥/٣٣٤).

لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيُخْرَجُ له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسولُ الله. فيقول: أحضره، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقول: إنَّكَ لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كِفَّةٍ وِالبِطَاقَةُ في كِفَّةٍ، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقلُ شيءٌ مع اسم الله^(١). ويجب أن يحمل هذا على أنه أتى بالشهادتين بحقهما من العبادات؛ لأنَّه لو لم يعتبر ذلك لكان من أتى بالشهادتين يعلم أن المعاصي لا تضره، وذلك إغراء بمعصية الله^(٢).

والقول الثالث: أن الموزون هو العامل نفسه، ويدلُّ لذلك في الصحيح أن رسول الله (ﷺ) قال: "إنَّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرعوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]^(٣) والذي يظهر من النصوص أن العامل وعمله وصحيفة عمله، كل ذلك يُوزن؛ لأنَّ الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولا منافاة بينها، فمجموع الأحاديث الصحيحة تدلُّ على أن العبد يُوضع هو وحسناته وصحيفتها في كِفَّةٍ، وسينأته مع صحيفتها في الكِفَّةِ الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ويمكن الجمع بين هذه الآثار أيضاً بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارةً توزن الأعمال، وتارةً يوزن محالها، وتارةً يوزن فاعلها^(٤).

ولم يرد الله بالميزان إلا المعقول منه المتعارف عليه فيما بين النَّاسِ، دون العدل وغيره على ما يقوله بعض النَّاسِ^(٥)؛ لأنَّ الميزان وإن ورد بمعنى العدل في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] فدلَّ ذلك على طريق التوسع والمجاز، وكلام الله مهما أمكن حمله على الحقيقة لا يجوز أن يعدل به عنه إلى المجاز، يبيِّن ذلك ويوضحه أنَّه لو كان الميزان إنما العدل، لكان لا يثبت للتقل والخفة فيه معنى، فدلَّ على أن المراد به الميزان المعروف الذي يشتمل على ما تشتمل عليه الموازين فيما بين النَّاسِ^(٦). وأجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأنَّ أعمال العباد تُوزن يوم القيامة، وأنَّ الميزان له لسان وكفتان، ويميل بالأعمال، فالوزن

(١) الترمذي في الإيمان . باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٦٣٩)، (٢٤/٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٣٠/١٤).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير . باب قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٥]، حديث رقم (٤٧٢٩)، (ص: ٥٦٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٢/٢)، ومعارج القبول شرح سلم الوصول: حافظ الحكمي (٨٤٤/٢).

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦٢٨/١٧)، والتفسير الكبير: الرازي (٢٨/١٤).

(٦) شرح الأصول الخمسة: عبد الجبار الهمداني (ص: ٧٣٥)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد

الشايع (ص: ٥٤٥) وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦٢٨/١٧)، والتفسير الكبير: الرازي (٢٨/١٤).

لأعمال العباد بالقسط العدل فلا ظلم على أحد يوم القيامة؛ لأنَّ الحاكم فيه هو الله العدل الحكيم الذي حرم الظلم على نفسه، وجعله على عباده محرماً، فلا يهضم أحدٌ من حسناته ولا يُؤخذُ عبدٌ بسوى ما عمل^(١). وظاهر الآية التعميم، لكن خصَّ منه طائفتان فمن الكفار من لا ذنب له إلا الكفر، ولم يعمل حسنةً، فإنَّه يقع في النَّار من غير حسابٍ ولا ميزانٍ، ومن المؤمنين من لا سيئة له، وله حسنات كثيرة زائدة على محض الإيمان، فهذا يدخل الجنَّة بغير حسابٍ، كما في قصة السبعين ألفاً، ومن شاء الله أن يلحقه بهم، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح وكأجويد الخيل، ومن عدا هذين من الكفار والمؤمنين يحاسبون وتعرض أعمالهم على الموازين، ونُقل عن بعض العلماء أنَّه قال: الكافر لا ثواب له وعمله مقابل بالعذاب فلا حسنة له توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النَّار، واستدل بقوله: ﴿فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وحكى في صفة وزن عمل الكافر وجهين: أحدهما: أن كفره يوضع في الكفة ولا يجد له حسنة يضعها في الأخرى فتطيش التي لا شيء فيها، قال: وهذا ظاهر الآية؛ لأنَّه وصف الميزان بالخفة لا الموزون. ثانيهما: قد يقع من الكافر العتق والبر والصلة وسائر أنواع الخير المالية مما لو فعلها المسلم لكانت له حسنات، فمن كانت له حسنات جمعت ووضعت، غير أنَّ الكفر إذا قابلها رجح بها، ويحتمل أن يجازى بها عما يقع منه من ظلم العباد مثلاً، فإن استوت عذب بكفره، وإلا زيد عذابه بكفره أو خفف عنه كما في قصة أبي طالب، والصحيح أنَّ الوزن لا يشمل الكافر وأعماله؛ لأنَّه ليس له من الأعمال الصالحة ما يوزن، وإنَّما يجازى عليها في الدنيا، ولعموم الأدلة الدالة على بطلان عمله، وعدم وزنه، كقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنَّه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم، وتحصى فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويجزون بها"^(٢).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٣):

١. من الواجب على المسلم أن يؤمن بأنَّ في الآخرة وزناً للأعمال، وأنَّه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء، وأنَّه وزنٌ أو ميزانٌ يليق بما يجري في ذلك اليوم الهائل الشديد.

(١) معارج القبول شرح سلم الوصول: حافظ الحكمي (٢/٨٤٤. ٨٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣/١٤٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٧/٦٢٧)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ٥٤٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٢٧، ٢٩)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ١٦٥)، والتفسير

المنهجي: جمال أبو حسان (٣/٦٥)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ٥٤٤).

٢. أن الله ينصب ميزاناً له لسان وكِفَتان يوم القيامة؛ يوزن به أعمال العباد خيرا وشرا، وأن الميزان يوم القيامة هو ميزانٌ حقيقيٌّ، له كِفَتان، توضع الحسنات في كِفَةٍ، والسيئات في كِفَةٍ، فأيهما رجح فإن الإنسان يأخذُ جزاءَه بموجب ذلك من رُجحان الحسنات أو رُجحان السيئات، وهذا من عدل الله أنه لا يظلمُ أحداً، بل يُجازي الإنسانَ بعمله.
٣. في هذه الآية ذكر الميزان، ويجبُ الإيمان به، وأنَّ وزن الأعمال يوم القيامة وسؤال النَّاس أمورٌ حتميةٌ لا شكَّ فيها.
٤. أن الميزان واحدٌ، وهو قول الجمهور، فأكثر المفسرين على أنه ميزان واحدٌ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، فالأصح أنه ليس إلا ميزان واحد، والجمع إمَّا لتعظيم شأنها وتفخيمه أو باعتبار الموزونات.
٥. الفائدة في وضع ذلك الميزان أن يظهر ذلك الرجحان لأهل القيامة، فإنَّ كان ظهور الرجحان في طرف الحسنات ازداد فرحه وسروره بسبب ظهور فضله وكمال درجته لأهل القيامة، وإن كان بالضد فيزداد غمه وحزنه وخوفه وفضيحته في موقف القيامة.
٦. دلت الآية على أن الكافرين لا يحاسبون محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات؛ لأنَّه لا حسنات لهم؛ بل يوقفون على أعمالهم، ويقررون بها.
٧. أن العمل كلما كان أشرف وأعلى درجة وجب أن يكون أكثر ثواباً، ومعلوم أن الإيمان بالله ومحبته أعلى شأنًا وأعظم درجةً من سائر الأعمال فوجب أن يكون أوفى ثواباً وأعلى درجةً من سائر الأعمال.
٨. أن أصحاب الطاعات والحسنات هم الفائزون يوم القيامة، وأمَّا الظالمون فلا تتفعهم الأعداءُ التي يقدمونها.
٩. أن الفلاح هو كثرةُ الخيرِ ونيلُ السعادة^(١).

(١) التفسير الكبير: الرازي(٣٠/١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان(٦٥/٣)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان(ص:٥٦)، والعقيدة الميسرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي(ص:٦٤).

المقصد الخامس: التمكين في الأرض تكريمًا وامتنانًا بأن الإنسان سيد العالم

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠]

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

مَكَّنَّاكُمْ: من مكن، والمكان عند أهل اللغة: الموضع الحاوي للشيء، والتمكين جعل الشيء في مكان، وهو يطلق على الإقذار على التصرف، على سبيل الكناية، والمعنى: أي: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً وأقدرناكم على التصرف فيها، والتمكُّن زوالُ المانع. والتمكين شرعاً: هو الإقذار على التصرف الموصل إلى تحقيق المطالب.

الأرض: الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، ولا تجيء مجموعة في القرآن، ويُعبَّر بها عن أسفل الشيء، كما يُعبَّر بالسماء عن أعلاه.

وَجَعَلْنَا: تأتي جعل لمعانٍ كثيرة، فتأتي بمعنى عمِلَ وهَيَّأَ وصَيَّرَ وأَخَذَ وَخَلَقَ وَبَيَّنَّ وَحَكَمَ وَشَرَعَ وابتدأ، وأكثر تصرفها بمعنى صَيَّرَ.

مَعَايِشَ: جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحيُّ من الطَّعامِ والشَّرابِ، مشتقة من العيش، وهو الحياة، أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع. فالمراد من ﴿مَعَايِشَ﴾ وجوه المنافع، وهي على قسمين: الأول: ما يحصل بخلق الله ابتداءً، مثل خلق السماء وغيرها. والثاني: ما يحصل بالاكتساب، وكلاهما في الحقيقة إنّما حصل بفضل الله وإقذاره وتمكينه، فيكون الكلُّ إنعاماً من الله تعالى، وكثرة الإنعام لا شكَّ أنّها توجب الطاعة والانقياد.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

لما أمر الله أهل مكة باتِّباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتِّباع غيره، وبيَّن لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ذكرهم فنون نعمه ترغيباً في اتِّباع أمره ونهييه. أي: أنّ الله لما أمر الخلق بمتابعة الأنبياء وبقبول دعوتهم، ثم خوفهم بعذاب الدنيا وهو قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ثمَّ خوفهم بعذاب الآخرة من وجهين: أحدهما: السؤال وهو قوله: ﴿فَلْتَسألَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، والثاني: بوزن الأعمال وهو قوله: ﴿وَالْوِزْنَ يُؤمِّنِدِ الْحَقُّ﴾

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٧٣، ٧٧٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٣١/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٠٥/٤)، ومطالع الأنوار على صحاح الآثار: ابن فرُّوق (١٥٨/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (١٥/٧)، والمنهاج شرح صحيح مسلم: النووي (٣٥/١٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٤، ٣٣/٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٧/٣)، ومعارض التفكير ودقائق التدبير: عبد الرحمن حسن حبّكة الميداني (١٠١/٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٣١/١٤) ومحاسن التأويل: القاسمي (١٥/٧) والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٤/٨).

رغبتهم في قبول دعوة الأنبياء في هذه الآية بطريق آخر، وهو أنه كثرت نعم الله عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه الآية الكريمة تذكير لهم بأن الله هو ولي الخلق؛ لأنه خالقهم على وجه الأرض، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم، وهو توبيخ على قلة شكرها، كما دل عليه تذييل الآية بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فإن النفوس التي لا يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية الكريمة^(١):

بعد أن بيّن الله جزاء المحسنين وجزاء المسيئين، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله على عباده، فقال: ولقد جعلنا لكم يا بني آدم مكاناً وقراراً في الأرض، وأقدركم على التصرف فيها، وأنشأنا لكم فيها أنواعاً شتى من المطاعم والمشارب التي تعيشون بها عيشة راضية، لكن كثيراً منكم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والكفران، وستلقون جزاء ذلك.

رابعاً: اللطائف البلاغية في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: التأكيد في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ حيث أكد الخبر ب (لام القسم) و (قد) المفيد للتحقيق، تنزيل للذين هم المقصود من الخطاب منزلة من ينكر مضمون الخبر؛ لأنهم لما عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أن الله هو الذي مكّنه من الأرض، ونظراً إلى أن أذهان الناس مُنصرفَةً عن ملاحظة النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهم في هذه الحياة الدنيا.

اللطيفة الثانية: التخصيص، فالخطاب في الآية للمشركين خاصة؛ لأنهم الذين قلّ شكرهم لله تعالى إذ اتخذوا معه آلهة.

اللطيفة الثالثة: الكناية، حيث إن وصف ﴿قَلِيلًا﴾ يستعمل في معنى المعدوم، ويجوز أن يكون على حقيقته، أي: إن شكركم الله قليل؛ لأنهم لما عرفوا أنه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره، ويجوز أن تكون القلة كناية عن العدم على طريقة الكلام المقتصد استنزالاً لتذكيرهم.

اللطيفة الرابعة: لم يبيّن الله في هذه الآية كيفية هذه المعايير التي جعل لنا في الأرض، ولكنّه بيّن ذلك في مواضع أخرى، كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَبْيَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَرَيْثُونًا وَنَحْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

(١) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٦٨/٣).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٣، ٣٥/٨).

ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (١٠١/٤).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

المعنى: أي: جعل الله للعباد قدرةً، أي: أقدَرناكم على أمور الأرض وحوَّلناكم النَّصْرَفَ في مخلوقاتِها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوَّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتغلُّب على مصاعبه، وليس المراد من التَّمكين هنا القوَّة والحكم، كالمُراد في قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤]، لأنَّ ذلك ليس حاصلًا لجميع البشر إلا على تأويل، وليس المراد بالتمكين أيضاً معناه الحقيقي، وهو جعل المكان في الأرض، لأنَّ قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يمنع من ذلك، لأنَّه لو كان كذلك لقال: ولقد مكناكم الأرض، وقد قال تعالى عن عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيهَا إِنَّ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، أي: جعلنا ما أقرنناهم عليه أعظم ممَّا أقدَرناكم عليه، أي: في آثارهم في الأرض. وفي هذا التَّمكين تكريمٌ للإنسان وإعلاءً لقيمته التي تميزه عن الحيوان، وهو خليفة في الأرض، وسيدٌ على كلِّ المخلوقات الأخرى، فسخرت لمصالحه وجعلت تابعة له. وفيه أيضاً التمكن نعمة وابتلاء، وفي الآية مقصد آخر، وهو أنَّ الكون صديق الإنسان وليس بعدوٍ، فالكون متناسق غير متصارع؛ فإنَّ الله خالق الأرض وخالق النَّاس، هو الذي مكَّن لهذا الجنس البشري في الأرض، هو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس، وهو الذي جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها على محورها، وسرعة دورتها إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس عليها، وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وينمو هذه الحياة، وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض، قادراً على تطويعها واستخدامها بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته، فإنَّ التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصلٍ شاملٍ متناسقٍ، فإنَّ الله هو الذي خلق الكون، وهو الذي خلق الإنسان، وقد قضى الله بحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان، وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه، ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة، وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة، يعيش مطمئن القلب، مستروح النفس، ثابت الخطو، ينهض بالخلافة في الأرض في اطمئنان الواثق بأنَّه معانٌ على الخلافة ويتعامل مع الكون بروح المودة والصدقة ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٦٢٣، ١٢٦٢). التحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٣/٨)، وصناعة الثقافة:

طارق السويديان، وفيصل باشرا حيل (ص: ٦٧).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. الآية بيان نعمة الله على عباده بتمكينهم في الأرض، وجعلها موضع اعتياشٍ لهم.
٢. أنّ الرحلة الكبرى للإنسان تبدأ بتمهيدٍ عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض، كحقيقة مطلقة، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً.

المقصد السادس: الشكر من شعب الإيمان

ويدلُّ على هذا المقصد العالي قال الله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

قَلِيلًا: القِلَّة والكثرة من الأسماء المُقابلة.

تَشْكُرُونَ: الشُّكْرُ: تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وإظهارها، ويضادُّه الكُفْرُ، وهو نسيانُ النِّعْمَةِ وستْرُها، والشُّكْرُ ثلاثة أضرُبٍ: شُكْرُ القَلْبِ، وهو تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ، وشُكْرُ اللِّسَانِ، وهو الثَّنَاءُ على المُنْعِمِ. وشُكْرُ سائرِ الجوارحِ، وهو مُكَافَأَةُ النِّعْمَةِ بِقَدْرِ اسْتِحْقَاقِها، والشُّكْرُ عُرْفًا: صرفُ العبدِ جميع ما أنعم الله به عليه في ما خلق لأجله، وهذا يكون لمن حفته العناية الربانية، وأصل الشكر في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيئاً من أثر العلف، وكذلك حقيقة الشكر في العبودية وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافاً وعلى قلبه: شهوداً ومحبةً وعلى جوارحه: انقياداً وطاعةً، والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له واعترافه بنعمته، وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبنائه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة.

ثانياً: مناسبة هذه الفاصلة القرآنية لما قبلها^(٣):

بيّن الله في أوّل الآية أنّه أنعم على الخلق بالتمكين في الأرض، وكثرة النعم توجب الطاعة، وأنّه مع هذا الإفضال والإنعام عالمٌ بأنّهم لا يقومون بشكره كما ينبغي، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

(١) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٧٠/٣).

(٢) المبسوط: السرخسي (١٦/١٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٦١)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٣٧/١)، ومُغْنِي المحتاج: الخطيب الشربيني (٢٩/١)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٥٧٥/٢).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٣١/١٤).

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: في التّعقيب بهذه الآية لآية: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ إيماءً إلى أنّ إهمال شكر النّعمة يعرّض صاحبها لزوالها، وهو ما دلّ عليه قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.

اللطيفة الثانية: تذييل الآية بقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ مسوقاً لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم، أي: ما منّا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم، وترك متابعة من دوننا، فتحصلوا معاش السعادات الأبدية.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ يدلّ على أنّهم قد يشكرون، والأمر كذلك؛ وذلك لأنّ الإقرار بوجود الصانع كالأمر الضروري اللازم لجبلة عقل كلّ عاقلٍ، ونعم الله على الإنسان كثيرة، فلا إنسان إلا ويشكر الله في بعض الأوقات على نعمه، إنّما التفاوت في أنّ بعضهم قد يكون كثير الشكر، وبعضهم يكون قليل الشكر.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: (قليلًا ما تؤمنون)؛ لأنّ العاقل ينظر إلى ما عليه من النّعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكرًا مبهمًا، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المُنعم آمن به، ثم شكر شكرًا متصلًا فكان الشكر متقدمًا على الإيمان؛ وكأنه أصل التكليف ومداره. وقيل: لأنّ الإيمان من الشكر، وحُصّ بالذكر لشرفه.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

إنّ القرآن قد احتوى آيات كثيرة فيها أمر بالشكر لله، والحث عليه والوعد بزيادة نعمة الله للشاكرين والدعاء لله بأنّ يوفق الداعي إلى شكره واعتبار عدم الشكر جحوداً لله وفضله وعنواناً للكفر به، وتقرير كون الله شاكراً من شكره مُسبغاً عليه نعمته ورعايته مجزيه عليه بأحسن الجزاء. والإيذان مع ذلك بأنّ الله غنيّ عن النَّاس وعن شكرهم وأنّ الشاكر إنّما يشكر لنفسه من حيث إنّ في الشكر اعترافاً بالله وفضله ونعمته وتقرباً إليه للزيادة من هذا الفضل والنّعمة، فالشكر: اسمٌ لمعرفة النّعمة؛ لأنّها السبيل إلى معرفة المُنعم، ولهذا سمّى الله الإسلامَ والإيمانَ في القرآن: شكراً. ولكن النَّاس قليلاً ما يشكرون؛ ذلك أنّهم في جاهليتهم لا يعلمون، وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر، لولا أنّ الله يقبل منهم ما يطيقون، وهؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾، إنّ كلمة الشكر من جوامع

(١) التفسير الكبير: الرازي (٣١/١٤)، والبرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٤٨/٣)، ومحاسن التأويل:

القاسمي (١٥/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٥/٨).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٥٨٠/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد

قطب (١٢٦٣/٣).

الكلم تنتظم كل خيرٍ وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه، وإن الشكر لله على ما أنعم به على الإنسان من مالٍ أو علمٍ يطهر النفوس ويقربها من الله، ويوجّه إرادتها إلى الوجهة الصالحة في إنفاق النعم في وجوهها المشروعة، ويبث فيها الأمل والرجاء والطمأنينة إلى وعد الله بالزيادة والرعاية وحسن الجزاء، فلا بُدَّ للمسلم من أن يشكر الله على نعمه وأفضاله؛ لأنَّ الشكر واجبٌ على العبد نحو المعبود^(١)، ولقد وعدَ الله الشاكرين بمزيد الإنعام كما توعد الجاحدين بمزيد الخسران.

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنَّ الشكر هو القيام بطاعة الله والتقرب إليه بأنواع محابته ظاهراً وباطناً.
٢. أنَّ غاية الخلق والأمر أن يُذكر الله فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكرٌ لمن ذكره شاكرٌ لمن شكره.
٣. تدلُّ الآية على ما أعاره القرآن لموضوع الشكر لله من عنايةٍ ورعايةٍ واهتمامٍ.
٤. أنَّ المعاصي كلّها من نوع الكفر الأصغر؛ فإنَّها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة.
٥. كلما عظمت نعمة الله على العبد عظُم ما يجب عليه من الشكر.
٦. يُستحبُّ لمن تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه نعمة ظاهرة أن يسجد شكراً لله.

(١) التفسير الحديث: محمد عزة دروزة (٣٧٠/٢)، وماذا يعني انتمائي للإسلام: فتحي يكن (ص: ٨).

(٢) الأذكار: النووي (ص: ٣٦١)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ١٧٠)، والتفسير

الحديث: محمد عزة دروزة (٣٧٠/٢)، والمختصر في التفسير: مركز التفسير للدراسات القرآنية (ص: ٩).

المبحث الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١١-١٨)

قصة البشرية

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: نشأة الحياة دليل على وجود الخالق.

المطلب الثاني: الأصل في الوجود التفاضل.

المبحث الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١١-١٨)

(قصة البشرية)

توطئة وتمهيد:

من هذه الآيات الكريمات تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة، تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفالٍ مهيبٍ، في رحاب الملائكة الأعلى، الملائكة الكرام، يعلنه الله الملك العزيز الجليل العظيم زيادة في الحفاوة والتكريم، وتحشد له الملائكة الكرام، وتشهده السموات والأرض وما خلق الله من شيء، إنه أمر هائل، وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود، فآدم أبو البشر صور وأعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه^(١).

ولقد ذكر الله تعالى قصة آدم مع قصة إبليس في القرآن الكريم في سبعة مواضع: في سورة البقرة، وفي هذه السورة، الأعراف، وسورة الحجر، وسورة بني إسرائيل، وسورة الكهف، و سورة طه، وسورة ص، ومضمون القصة هنا: التنبيه على تكريم آدم، وبيان عداوة إبليس لذريته، وحسده لهم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، وليشكروا الله على نعمه العظيمة^(٢). إن آدم نبيٌّ مكلّمٌ كلمه الله قبلاً^(٣)، ولم يرد أنه أنزل عليه شيئاً مكتوباً فليس في القصة ما يدلُّ على أن الله أنزل على آدم صحيفةً ولا كتاباً، ولا هذا معروف عند أهل الكتاب^(٤). مناسبة هذا المقطع القرآني لما قبله^(٥):

الآيات السابقة فيها تنديدٌ بقلّة شكر بني آدم لله، وفي هذا المقطع القرآني تنديد وإعلامٌ بقول إبليس من أنه سوف يوسوس لبني آدم حتى يمنع أكثرهم عن شكر الله^(٦). وقد رغّب الله في الآيات السابقة بقبول دعوة الأنبياء، بالتخويف أولاً، ثم بالترغيب ثانياً بالتنبيه على كثرة نعم الله على الخلق، ثم أتبعه ببيان أنه خلق أبانا آدم وكرّمه بأمر الملائكة بالسجود له، والإنعام على الأب إنعام على الابن، لكن قد يتعرض الناس لوسوسة الشيطان وإغوائه، ولا يليق بهم مع هذه النعم العظيمة التمرد والجحود.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٦٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٣٢)، والتفسير المنير: الزحيلي (٨/١٥٣).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢/٣٢٠)، ومسنند أحمد (٥/٢٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٥٨).

(٥) التفسير المنير: الزحيلي (٨/١٥٢).

(٦) التفسير الحديث: محمد عزة دروزة (٢/٣٦٩).

المطلب الأول: نشأة الحياة دليل على وجود الخالق

وفيه أربعة مقاصد:

المقصد الأول: الوجود أشرف من العدم

ويدل على هذا المقصد قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَلَقَدْ: قد: حرف تحقيق وهو معنى التأكيد، وهي من مؤكدات الجمل الفعلية، ولا يؤتى بها في شيء إلا إذا كان السامع متشوقاً إلى سماعه.

خَلَقْنَاكُمْ: الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء. والخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وخلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع، قدر، فالخلق يأتي بمعنيين: الأول: التقدير، أي: تحديد مقادير كل شيء يراد إيجادها، الثاني: الإبداع على غير مثال سبق، إيجاداً من العدم الكلي، ومعنى الآية: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناكم أي صورنا آدم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم؛ وذلك لأن أمر الملائكة بالسجود لآدم تأخر عن خلق آدم وتصويره، ولم يتأخر عن خلقنا وتصويرنا، ويحسن جعل خلقنا وتصويرنا كناية عن خلق آدم وتصويره؛ لأن آدم أصل البشر. وفي الصحيح عن النبي (ﷺ) قال: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً"^(٢).

ثم: حرف عطف للترتيب والترخي في الأخبار، أي: التأخير في الإخبار، والترتيب الزمني^(٣).

صَوَّرْنَاكُمْ: الصورة: ما ينتقش به الأعيان، ويتميز بها عن غيرها. فالصورة أراد ما خص الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة، وبها فضله على كثير من خلقه. والتصوير جعل الشيء في صورة وهيئة خاصة يتميز بها عن غيره، وهذه الصورة تدرك بالحس الظاهر، والصورة

(١) التفسير الكبير: الرازي (٣٣/١٤)، والكشاف: الزمخشري (٦٨/٢)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفي (٥٠٤/١)، والبرهان في علوم القرآن: الزركشي (٤١٧/٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٢٩٦)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٩٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٦/٨)، ومعارج الفكر ودقائق التدبر: الميداني (١٠٨/٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان. باب بدء السلام، حديث رقم: (٦٢٢٧)، (ص: ٧٤١).

(٣) شرح قطر الندى وبل الصدى: ابن هشام (ص: ٣٣٩)، والتفسير الكبير: الرازي (٣٢/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٣/١)، وجامع البيان في تفسير القرآن: الإيجي (٦٠٤/١)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٥٨/٢).

الشَّكْلَ الَّذِي يُشَكَّلُ بِهِ الْجِسْمَ كَمَا يَشَكَّلُ الطِّينَ بِصُورَةٍ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ، فَإِنَّ الْخَلْقَ مَعْنَاهُ: الْإِنْسَاءَ، وَالتَّصْوِيرَ مَعْنَاهُ: إِعْطَاءَ الصُّورَةِ وَالْخِصَائِصَ^(١).
ثَانِيًا: مَنَاسِبَةَ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا^(٢):

لَمَّا تَقَدَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَى تَقْسِيمِ الْمَكْلُفِينَ إِلَى طَائِعٍ وَعَاصٍ، فَالطَّائِعُ مِمْتَلِّئٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مَجْتَنِبٌ مَا نَهَى عَنْهُ، وَالْعَاصِي بَضْدُهُ، أَخَذَ يُبْنِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ كَانَ فِي الْبَدءِ الْأَوَّلِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ، فَامْتَلَأُوا وَامْتَنَعَ إِبْلِيسَ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ آدَمَ وَنَهَى فَأَخْبَرَ عَنْهُ مَا أَتَى خَبْرَهُ فَنَبَّهَ أَوَّلًا عَلَى مَوْضِعِ الْإِعْتِبَارِ وَإِبْرَازِ الشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ الصَّرْفِ إِلَى الْوُجُودِ، وَالتَّصْوِيرِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْغَرِيبَةِ الشَّكْلَ الْمَتَمَكِّنَةَ مِنْ بَدَائِعِ الصَّانِعِ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ نِعْمَةَ الْإِمْدَادِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَتْبَعَهُ بِنِعْمَةِ الْإِبْجَادِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَى آدَمَ الَّتِي سَرَّتْ إِلَى بَنِيهِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ وَمَا انطوى عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِأَبِيهِمْ، لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرِيقَهُ.

ثَالِثًا: الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةَ لِلآيَةِ^(٣):

هَذِهِ ذَكَرَ نِعْمَةَ أُخْرَى عَظِيمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ خَلَقَ اللَّهُ الْبَشَرَ نَظْفًا ثُمَّ صَوَّرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّخْطِيطِ وَشَقَّ الْحَوَاسِ، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ خَلَقْنَا أَيُّهَا النَّاسُ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ اللَّازِبِ، ثُمَّ صَوَّرْنَاهُ بَشَرًا سَوِيًّا، وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا، ثُمَّ أَمَرْنَا الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ سَجُودَ تَحِيَّةٍ.

رَابِعًا: لَطَائِفَ التَّفْسِيرِ فِي الْآيَةِ^(٤):

اللطيفة الأولى: تصدير الآية بالقسم وحرف التحقيق ﴿وَلَقَدْ﴾ إعلامًا بكمال العناية بمضمونها.
اللطيفة الثانية: إنَّما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ مع أنَّ المراد بهما خلق آدم وتصويره حتمًا، توفية وإعطاءً لمقام الامتنان حقه، وتأكيداً لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أنَّ لهم حظاً من خلق أبيهم وتصويره، لما أنَّهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه، بل من الأمور السارية إلى الذرية جميعاً، إذ الكلُّ مخلوقٌ في ضمن

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٩٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٦/٨)، ومعارج

التفكير ودقائق التدبر: الميداني (١٠٨/٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٦٤/٣).

(٢) البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (٢٧٢/٤)، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد: ابن عجيبة

الفاسي (٢٠٠/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (١٥/٧).

(٣) معالم التنزيل: البيهقي (٩١/٢)، والنكت والعيون: الماوردي (٢٠٢/٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٦٨/٢)، وفتح

البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٠٨/٤)، والتفسير المنير: الزحيلي (١٥٣/٨).

(٤) محاسن التأويل: القاسمي (١٦/٧).

خلقه على نمطه، ومصنوعٌ على شاكلته، فكأنَّهم الذي تعلق به خلقه وتصويره، أي: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصورٍ، ثم صورناه أبداعَ تصويرٍ، وأحسنَ تقويمٍ، سار إليكم جميعاً^(١).

اللطفية الثالثة: قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم؛ ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له؛ لأنَّه أبو البشر، فقد نزل خلق آدم وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره؛ لأنَّه أبو البشر، ففي خلقه خلق من يخرج من صلبه؛ فإنَّ العرب تخاطب العظيم الواحد بخطاب الجمع، فالخطاب عامٌ لجميع بني آدم^(٢).

والمعنى: ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأنَّ خلقنا آدم ثم صورناه؛ حيثُ تم تعديّة فعلي الخلق والتصوير إلى ضمير المخاطبين، لما كان على معنى خلق النَّوع الذي هم من أفراد تعيّن أن يكون المعنى: خلقنا أصلكم ثمَّ صورناه، وهو آدم، فنزل خلق أصل نوعهم منزلة خلق أفراد النَّوع الذين منهم المخاطبون؛ لأنَّ المقصود التذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم^(٣).

اللطفية الرابعة: التخصيص، فالخطاب في الآية للنَّاس كلَّهم، والمقصود بالخصوص منه المشركون؛ لأنَّهم الغرض في هذه السورة، فهم الذين سؤل لهم الشيطان كفران هذه النِّعم^(٤).

اللطفية الخامسة: العطف بحرف ﴿ثُمَّ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرتبي، أي: تراخي رتبة النَّصوير عن رتبة الخلق؛ لأنَّ النَّصوير حالة كمال في الخلق، بأنَّ كان الإنسان على الصورة المتقنة حسناً وشرافاً، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير ف﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الأخبار لا في الزمان^(٥).

اللطفية السادسة: قال بعض المفسرين حاكياً عن بعض أهل العلم أن معنى الآية: خلقناكم يا بني آدم في ظهر آدم ثم صورناكم في أرحام أمهاتكم، أو صورناكم في ظهر آدم، أو يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر، أو: خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النِّساء، أو: خلقناكم نطفاً في أصلاب الرِّجال، وترائب النِّساء، ثم صورناكم عند اجتماع النطف في الأرحام، أو: خلقناكم في بطون أمهاتكم، ثم صورناكم فيها بعد الخلق بشقِّ السمع والبصر^(٦).

اللطفية السابعة: دلَّ قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ على أنَّ المخلوق والمصور هو آدم،

(١) محاسن التأويل: القاسمي (١٦/٧)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٥٨/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٠٩/٤).

(٢) معالم التنزيل: البغوي (٩١/٢)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٦٨/٧)، وجامع البيان في تفسير القرآن: الإيجي (٦٠٣/١)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٧٢/٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٦٩/٢)، وصفوة التفاسير: الصابوني (٤٣٨/١).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٢/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٧/٨).

(٤) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٥، ٣٧/٨).

(٥) البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (٢٧٢/٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٦/٨).

(٦) النكت والعيون: الماوردي (٢٠٢/٢)، ومعالم التنزيل: البغوي (٩١/٢)، والبحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (٢٧٢/٤)، وجامع البيان في تفسير القرآن: الإيجي (٦٠٣/١).

فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم، ومعنى الكلام خلقنا أصلكم وصورناه فبرز موجوداً معيناً مسمى بآدم، فإن التسمية طريقاً لتعيين المسمى، ثم أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه، فقلنا للملائكة اسجدوا له، فوقع إيجازٌ بدیع في نسج الكلام^(١).

الطيفة الثامنة: تعريف ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ للاستغراق، فإن الأمر عامٌ لجميع الملائكة، وهذا هو مذهب السلف، والملائكة خلقٌ من خلق الله من عالم الغيب، لهم خصائصهم، ووظائفهم^(٢).

الطيفة التاسعة: ظاهر الآية يقتضي أن آدم قد خلق في العالم الذي فيه الملائكة، أي: خلق في السموات أو أنه خلق في الجنة التي هي دار الثواب، وبهذا أخذ جمهور أهل السنة^(٣).

الطيفة العاشرة: سجود الملائكة لآدم سجود حقيقي، ومن بدع التفاسير تأويل سجود الملائكة لآدم بتسخير قوى الأرض للإنسان، وهو شذوذ في التفسير^(٤).

الطيفة الحادية عشر: الآية دليلٌ على وجود الملائكة والجن، فالقول بوجودهما مما انعقد عليه الإجماع، ونطق به كلام الله وكلام الأنبياء، وحكى مشاهدة الجن عن كثيرٍ من العقلاء^(٥).

الطيفة الثانية عشر: آدم نبيٌّ، معلمٌ، مكلّمٌ^(٦).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٧):

هذه الآية العظيمة هي تذكيرٌ بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية؛ لأنّ الوجود أشرفُ من العدم، بقطع النظر عما قد يعرض للموجود من الأقدار والمتاعب، وبنعمة تفضيله على النوع بأن أمر الملائكة بالسجود لأصله، وأدمج في هذا الامتتان تنبيهاً وإيقاظاً إلى عداوة الشيطان لنوع الإنسان من القدم، ليكون ذلك تمهيداً للتحذير من وسوسه وتضليله، إغراءً بالإقلاع عمّا أوقع فيه الناس من الشرك والضلالة، وهو غرض السورة. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ خطابٌ للناس أجمعين بضمير المتكلم العظيم للإشعار بأنّ خلق الناس مظهرٌ من مظاهر ربوبيّة الخالق العظيم، فهذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجيب من غريب الصنعة وإسداء النعمة،

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/٢٦٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٣٧).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٦٥)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٧١١).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٣٨).

(٤) منهج البحث والفتوى: مصطفى الطرابلسي (ص: ٢٥٩).

(٥) شرح المقاصد: التفتازاني (٢/٤٩٩).

(٦) البداية والنهاية: ابن كثير (١/١٠١).

(٧) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٣٥)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٤/١٠٧).

فبدأً بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصصة للبشر، وإلا فلم يُعَرَّ المخلوق قطُّ من صورة^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ:

١. الحياة أشرف من الموت^(٢)، فالحياة في سبيل الله أصعب من الموت في سبيل الله.
٢. الآية تذكير لنعمة عظيمة على آدم، سارية إلى ذريته موجبة لشكرها^(٣).
٣. الإيمان بالغيب نقلةً نوعيةً في التصور الإسلامي.
٤. إن سرَّ الحياة ونشأتها غيبٌ من غيب الله، كنشأة الكون.
٥. من مقصود الآية بيان أنَّ الواقع الذي تضمن الوحيَّ الإخباريَّ عنه ينقسم إلى غيبٍ وشهادة، فإنَّ الرُّسل قسموا الموجودات إلى غيبٍ وشهادة، وأمروا الإنسانَ بالإيمان بما أخبروا به من الغيب^(٤).
٦. أنَّ حقائق الغيب هي أمورٌ موجودةٌ ثابتةٌ أكمل وأعظم مما نشهده في الدنيا^(٥).
٧. أنَّ علم الغيبات أشرف من المشاهدات^(٦).
٨. تدلُّ الآية على أنَّ الملائكة محجوبون عن المشاهدة؛ فهم عالمٌ غيبيٌّ، لا يقعون تحت مدارك الحواس الإنسانية في الحياة الدنيا إلا لمن شاء الله، وإنما يرون في الآخرة، لكن الله أعطاهم القدرة على التحول والتشكل على هيئة الآدميين^(٧).
٩. جميعُ الملائكة الكرام امتثلوا وسجدوا لآدم وهو سجد تقدير واحترام وتكريم^(٨).
١٠. أنَّ المَلَك معصومٌ، والتأسي بالمعصوم مشروع^(٩).
١١. أنَّ الملائكة غير الجن.
١٢. أنَّ أصل الأمر بالسجود متقدِّمٌ على خلق آدم معلق عليه^(١٠).

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٤٣٨/٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٦/١٤).

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٥٨/٢).

(٤) درة تعارض العقل والنقل: ابن تيمية (١٥٧/٣).

(٥) التأسيس الشرعي لمفهوم فقه الواقع: سعيد بن محمد بيهي (ص: ٣٣٢).

(٦) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٥٣/٣).

(٧) العقيدة الميسرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٤٧).

(٨) المختصر في التفسير: مركز التفسير للدراسات القرآنية (ص: ٦).

(٩) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٥٣٦/١٥ - ٥٣٨).

(١٠) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٧١١).

المقصد الثاني: إِنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ حَقِيقَةً بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ يُسْمَعُ مِنْهُ.

ويدلُّ على هذا المعنى القويم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

قُلْنَا: صفة الكلام لله وهي حقٌّ على حقيقتها، فيجب إجراؤها على ظاهرها، دون تحريفٍ ولا تمثيلٍ ولا تكييفٍ ولا تعطيلٍ، وهي صفة ذاتيةٌ وفعليةٌ، فهي ذاتية باعتبار أصل الصفة، وفعلية باعتبار آحادها وأفرادها، أو يقال: قديم النوع، حادث الآحاد.

لِلْمَلَائِكَةِ: قال ابنُ فارس^(٢): (الْك) الهمزة واللام والكاف أصلٌ واحدٌ، وهو تحمُّلُ الرِّسَالَةِ، والألوكُ الرِّسَالَةُ، وهي المألُكَةُ على مفعلةً، وإنَّما سمَّيت الرِّسَالَةُ أُلُوكًا؛ لأنَّها تؤلِّكُ في الفمِّ، والملائكةُ شرعاً: هم عبادٌ مكرمون، بررةٌ مقربون، خاضعون لله، مشفقون، ليس لهم من خصائص الربوبية والإلهية شيءٌ، مخلوقون من نورٍ، أولو أجنحةٍ متعددةٍ، على هيئاتٍ عظيمةٍ متنوعةٍ، فالملائكةُ أجسامٌ علويةٌ لطيفةٌ تتشكل أي شكلٍ أرادوا^(٣).

اسْجُدُوا: إِنَّ السُّجُودَ يُطْلَقُ عَلَى وَضْعِ الْجَبْهَةِ بِالْأَرْضِ، وَعَلَى الْخُشُوعِ^(٤). السُّجُودُ أَصْلُهُ: بِالْأَرْضِ، وَعَلَى النَّظَامُنُ وَالتَّنَدُّلُ، وَجُعِلَ ذَلِكَ عِبَارَةً عَنِ التَّنَدُّلِ لِلَّهِ وَعِبَادَتِهِ، وَهُوَ عَامٌّ فِي الْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْجَمَادَاتِ، وَمَسْمَى السُّجُودِ يَحْصُلُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ وَالْأَنْفِ بِالْأَرْضِ بِتَمَكُّنٍ وَاسْتِقْرَارٍ، فَانَّ الْمَسْجِدَ هُوَ مَوْضِعُ السُّجُودِ^(٥).

لِآدَمَ: آدم أبو البشر وهو أوَّل ما علَّمه الله الأسماء كلها، وآدم نبيٌّ على الراجح؛ لأنَّ الله أوحى إليه بشره وأمره ونهاه، فأدُمُ أوَّل الأنبياء الموحى إليهم، وأمَّا أوَّل الرُّسُل فنوح^(٦). وآدم اسمٌ عربيٌّ، وهو من الأديم؛ لأنَّه خلق من أديم الأرض، وامتنع صرفه للوزن والعلمية^(٧).

(١) العقيدة الميسرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٣٩).

(٢) هو: أحمد بن فارس القزويني، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، كان فقيهاً شافعيًا، نحوياً على طريقة الكوفيين، من تلاميذه: بديع الزمان الهمداني، والصاحب ابن عباد، من كتبه: معجم مقاييس اللغة، والصاحبي، توفي سنة (٣٩٥هـ). ينظر: إنباء الرواة على أنباء النحاة: القفطي (١/١٣١).

(٣) مقاييس اللغة: ابن فارس (١/١٣٢)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١/٥١)، والعقيدة الميسرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٤٥).

(٤) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٣/٢٥٠)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٣٩٦).

(٥) أصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢/٧٣٢)، والعقيدة الميسرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٣٤).

(٦) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٥٤)، وشرح العقيدة الواسطية: ابن العثيمين (ص: ٥٢٨).

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٧/٦٠٦).

فَسَجَدُوا: الفاء حرف عطفٍ للترتيب والتعقيب، وهي تدلُّ على أنَّ السجود كان عقب الأمر الإلهي مباشرةً دون مُهلةٍ أو تريثٍ. وقد ثبت أنَّ بين تصوير آدمَ طيناً، ونفخ الروح فيه كان مدة أربعين سنة^(١)، أي: أنَّ آدمَ أقام في طينته أربعين سنةً. ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

إنَّ الله رغب الأمم في قبول دعوة الأنبياء بالتحذير أولاً ثم بالترغيب ثانياً، والترغيب إنّما كان لأجل التنبيه على كثرة نعم الله على الخلق فبدأ في شرح تلك النعم بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ثم أتبعه بذكر أنَّه خلق أبانا آدم وجعله مسجوداً للملائكة، والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات، والمقصود من الكلِّ تقرير أنَّ مع هذه النعم العظيمة لا يليق بهم التمرد والجحود فكذا في هذه السورة ذكر الله عينَ هذا المعنى بغير هذا الترتيب، فهذا بيان وجه النظم.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: الاسم المجموع المعرف بالألف واللام يوجب استيعاب الجنس قال تعالى: ﴿ثُمَّ قُنَّا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١] فسجودُ الملائكة يقتضي جميع الملائكة هذا مقتضى اللسان الذي نزل به القرآن، ومذهب المسلمين ما أخبر الله به في القرآن، أنَّه لم يخرج من السجود لآدم أحدٌ من الملائكة، لا جبريل ولا ميكائيل ولا غيرهما.

اللطيفة الثانية: اختلف العلماء في القيام والسجود: أيهما أفضل؟ فذهب الحنفية، والشافعية وغيرهم إلى أن القيام أفضل، وخالفهم آخرون؛ فقالوا: السجود أفضل؛ وتوسط قوم، فقالوا: بالأول ليلاً، وبالثاني نهاراً. وهو الأوفق بفعله (ﷺ). قال ابن القيم بعد أن ساق الأقوال الثلاثة وأدلتها: "والصواب أنَّهما سواء، والقيام أفضل بذكره، وهو القراءة، والسجود، أفضل بهيئته؛ فهية السجود أفضل من هية القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود، وهكذا كان هدي رسول الله (ﷺ)؛ فإنه كان إذا أطال القيام؛ أطال الركوع والسجود، وكان إذا خفف القيام؛ خفف الركوع والسجود"^(٤).

(١) شرح قطر الندى وبل الصدى: ابن هشام (ص: ٣٣٨)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٣٦/١٥)، والقصص القرآني إبحاؤه ونفحاته: فضل حسن عباس (ص: ٣٧٩).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٢٢/١٤).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٦٤، ٣٦٢، ٣٤٥)، والفرقان: ابن تيمية (ص: ٢٥٧).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٨٤/١)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٤٠٧/١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

ذهب قومٌ من الأشاعرة في قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعاني، وصرّفه في كثيرٍ من القرآن إلى المجاز، وقالوا: في قوله للملائكة: ﴿سَجُدُوا لِأَدَمَ﴾ هو إلهامٌ منه للملائكة، كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] أي: ألهمها، فإنّ الجهمية أنكرت أن يكون الله يتكلم، وهذا قول شنيعٌ مردود، وباطلٌ مخالفٌ للأدلة العقلية والسمعية، ومذهب السلف إثبات صفة الكلام لله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٨] فقد عاب العجل بذلك، وهذا دليلٌ على أنّ الله يتكلم، ولم يزل متكلماً^(٢)؛ لأنّه لا يكون هو بصفة ما عاب، فإنّ الله يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، وأنّ الكلام صفة أزلية قديمة ثابتة لله، وأنّ نوع الكلام قديم، وآحاده حادث يتعلّق بمشيئة الله وإرادته، ذلك هو مذهب أهل السنة والجماعة^(٣). ويجب الجزم بأنّ الله متكلّمٌ بكلامٍ بلا كيفٍ على ما يليق بكماله وجلاله. والكلام صفة كمال، لا صفة نقص، ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته، فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق؟! وقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ لا شكّ أن قائل هذا القول هو الله؛ لأنّ قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا يليق إلا بالله، وأمّا قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ فلا شكّ أنّ قائل هذا القول هو إبليس، وأمّا قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ فلا شكّ أنّ قائل هذا القول هو الله، ومثّل هذه المناظرة بين الله وبين إبليس مذکور في سورة (ص) على سبيل الاستقصاء، فإنّ الله تكلم مع إبليس بلا واسطة، ولكن على وجه الإهانة بدليل أنّه تعالى قال له: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] وتكلم مع موسى ومع سائر الأنبياء على سبيل الإكرام؛ لأنّ الله قال لموسى: ﴿وَأَنَا اخْرُتُّكَ﴾ [طه: ١٣] وقال له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] وهذا نهاية الإكرام، ولقد اتفقت الرُّسل على أنّ الله متكلّمٌ حقيقةً، والقرآن مملوءٌ بإثبات ذلك، وفي هذا ردٌّ على الأشعرية الذين قالوا: إنّ الحروف والأصوات ليست من حقيقة الكلام، بل دالّةٌ عليه، وهذا مما يقول جمهور العقلاء إنّهم معلوم الفساد بالضرورة.

وأما السلف فقالوا: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، وأنّ الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممّن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً لذاته ليس له عليه قدرة

(١) تأويل مشكل القرآن: ابن قُتيبة (ص: ١٠٦)، ينظر: مناهج اللغويين في تقرير العقيدة (ص: ٢٧٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي (ص: ١٣٠).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٣٨/١٤)، وياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: محمد بن عبد الواحد

الزاهد (ص: ٢٣١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦/٢١٩، ١٢/٥١، ٣٤، ٢٩)، ولوامع الأنوار البهية:

السفاري (١/١٣١)، ومناهج اللغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٢٥٩).

ولا له فيه مشيئة، والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمر المباينة له، ولا يكون الموصوف متكلماً عالمياً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة، وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفاً بصفات الكمال أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفاً بها، فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال؛ ومن أجلها الكلام، فلم يزل متكلماً إذا شاء، ولا يزال كذلك، وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلاً عنه، فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة؛ لأن الله تكلم بها، فالقرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وإن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يُسمع^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. في الآية ردٌّ على الجهمية الذين لم يؤمنوا أن الله كلاماً، أو يتكلم ويقول، أو أنه ينزل من عنده كلاماً وذكرًا على أحدٍ من البشر أو أنه يكلم أحداً من البشر، وحقيقة قولهم: أن الله ليس بمتكلم، وهذا قول من يقول: إن القرآن مخلوق، فقد أنكروا أن يكون الله متكلماً على الوجه الذي دلت عليه الكتب الإلهية، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة.
٢. أن الله هو المتكلم بالقرآن، فإن القرآن كلام الله تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه.
٣. أن الله تعالى يتكلم بحرفٍ وصوتٍ.
٤. أن الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص.
٥. أن الله أمر الملائكة الكرام بالسجود لآدم (عليه السلام) تعظيماً لشأن الله، وتكريماً لآدم وذريته.
٦. أن الله أمر الملائكة بالسجود فامتثلوا الأمر، وفعلوا السجود بعد الأمر، وقبل دخول الجنة.
٧. أن الله أسجد لآدم جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن؛ فإن قوله: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ يقتضي جميع الملائكة؛ فإن اسم الجمع المعروف بالآلف واللام يقتضي العموم.
٨. الملائكة خلقٌ حقيقي، وهم خلقٌ كثير، لا يحصيهم كثرة إلا الله خالقهم، وأنهم صافون مسبحون، ألهمهم الله تسبيحه، وامتثال أمره، ومنحهم القوة على تنفيذه^(٣).

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٥٢، ٥٤)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/١٩، ٤٠، ٣٠، ٢٧)، والجهمية مشتقة من الصابئة. فأهل الكلام المبتدع في الإسلام هم من فروع الصابئين، ينظر: مجموع الفتاوى (١٢/٣١، ٦)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٣٠)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/١٣٨، ١٣٣)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٢)، وصفوة التفاسير: الصابوني (١/٤٣٨)..

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٤/٣٠٩)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٧١١)، والعقيدة الميسرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٤٧).

المقصد الثالث: ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي

لقوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

لِآدَمَ: آدم أبو البشر؛ سُمِّيَ بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل: لسمره في لونه.

إِلَّا: حرف استثناء، والاستثناء في الآية منقطع؛ لأنه استثناء من غير الجنس.

إِبْلِيسَ: الإيلاس: الحزن المعترض من شدة البأس، يُقال: أبلس، ومنه اشتق إبليس. وإبليس أبو الجنّ كلّهم، فإبليس أول خليفة الجنّ وأبوهم، كما أنّ آدم أول خليفة الإنس وأبوهم، وإبليس كفر؛ لأنه سمع أمر الله له فلم يكذب رسولاً، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافراً.

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ: هذه الجملة القرآنية مبنية لما فهم من معنى الاستثناء، فالراجح أنّ الاستثناء منقطع، فليس إبليس من جنس الملائكة، والمعنى: لكن إبليس لم يكن من الساجدين لآدم.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ جملة لا موضع لها من الإعراب، مؤكدة لمعنى ما أخرج الاستثناء من نفي سجود إبليس كقوله: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] بعد قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾.

اللطيفة الثانية: ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ استفهامية تدلّ على التوبيخ، والمعنى: أنّ الله وبخه وقرعه على امتناعه من السجود، وإن كان الله تعالى عالماً بما منعه من السجود.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مسوق مساق التعليل للامتناع، ويبيّن مانعه من السجود بأنّه رأى نفسه خيراً من آدم، فلم يمتثل لأمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم، وهذا معصية صريحة.

اللطيفة الرابعة: حصل لإبليس العلم بكونه مخلوقاً من نارٍ، بإخبار من الملائكة الذين شهدوا خلقه، أو بإخبار من الله تعالى.

اللطيفة الخامسة: الجنّ أجسام لطيفة قابلة للتشكّل، مخلوقون من نارٍ، مكلفون، منهم المؤمنون، ومنهم دون ذلك.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٣٤/١٤). مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٧٠، ٤٣)، والصارم المسلول: ابن تيميّة (ص: ٥١٩)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٤٢٨)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦١٤/٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٠٩/٤)، وصفوة التفسير: الصابوني (٤٣٨/١).

(٢) البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (٢٧٣، ٢٧٢/٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٤١/٨)، ومعارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (١١٠/٤).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

استثناء إبليس من الساجدين يدلُّ على أنَّه لم يكن في عداد الملائكة؛ لأنَّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، وفي الآية إشارة إلى أنَّ الله خلق في نفس إبليس جبلةً تدفعه إلى العصيان عندما لا يوافق الأمر هواه، وجعل له هوىً ورأياً، فكانت جبلةً مخالفةً لجبلة الملائكة؛ إذ إنَّ الله خلق إبليس أصلاً للجنِّ ليجعل منه صنفاً مُتميّزاً عن بقية الملائكة بقبوله للمعصية، وهذا هو ظاهر القرآن، وإليه ذهب كثيرٌ من الفقهاء، وهو الصحيح عند أهل السنة، وقد قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] كما أنَّ الملائكة خُلِقوا من النُّور، وأنَّ الجنَّ خُلِقوا من النَّار، ففي الصحيح قال رسول الله ﷺ: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجنَّ من مارجٍ من نارٍ، وخلق آدمُ مما وصف لكم"^(٢). فإنَّ إبليس هو الجان الذي هو أبو الجنِّ، وقد خلق من نارٍ، فلم يكن إبليس من الملائكة طرفةً عينٍ، وكان أبا الجنِّ، كما أنَّ آدمَ أبو الإنس^(٣). وذهب ابنُ تيمية إلى أنَّه لم يكن في الأمورين بالسجود أحدٌ من الشياطين؛ لكن أبوهم إبليس هو كان مأموراً فامتنع وعصى، وجعله بعضُ النَّاس من الملائكة لدخوله في الأمر بالسجود، وبعضهم من الجنِّ؛ لأنَّ له قبيلاً وذريةً، وكونه خلق من نارٍ، والملائكة خُلِقوا من نورٍ، والتحقيق أنَّه كان منهم باعتبار صورته، وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله، فإبليس هو خلقٌ غيرُ الملائكة، لقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] والجنُّ خلقٌ غيرُ الملائكة، فإنَّ إبليس خلق من نارٍ، فهو من غير الملائكة قطعاً، وإن كان قد أمر بالسجود لآدم^(٤).

وما ذهب إليه بعضُ المفسرين من أنَّ إبليس من الملائكة بدليل الاستثناء في الآية ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فهذا القول ضعيفٌ أمام التحقيق العلمي الدقيق، للدلَّة الآتية:

١. لو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله؛ لأنَّ الملائكة منزهون عن المعصية.
٢. الملائكة خُلقت من نورٍ، وإبليس خُلِق من نارٍ، فطبيعتهما مختلفة، وإبليس يقول عن نفسه بصريح لفظ القرآن: خلقتني من نار، فلو كان من الملائكة لقال: خلقتني من نور.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٣٩/٨، ٤١).

(٢) مسلم في كتاب الزهد والرقائق. باب في أحاديث متفرقة، حديث رقم (٢٩٩٦)، (ص: ١١٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٤٦/٤)، والعظمة: أبو الشيخ الأصبهاني (ص: ٤٣٣)، والتفسير الكبير:

الرازي (٣٤/١٤)، والبداية والنهاية: ابن كثير (٧٣/١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٣١٩، ١٨٢٠)، وعالم الملائكة: عمر سليمان الأشقر (ص: ٣٢)، وصفوة التفسير:

الصابوني (٤٣٨/١).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٦٥).

٣. الملائكة لا ذرية لهم، ولا تتناكح ولا تتناسل؛ لأنهم لا يُوصفون بذكورة ولا أنوثة، بخلاف الجن؛ فإنهم يتناكحون ويتناسلون كالإنس ولهم ذرية.

٤. هناك نصٌ صريح واضح في سورة الكهف على أن إبليس من الجن، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. وكفى به حجةً وبرهاناً^(١).

قال التفتازاني^(٢): "إنَّ إبليس من الجنِّ، وعدَّ من الملائكة تغليياً، أي: إنّما أدرج في الملائكة على سبيل التغليب؛ لكونه جنياً واحداً مغموراً فيما بينهم، ولا يقال معنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كان من طائفة من الملائكة مسماه بالجنِّ، شأنهم الاستكبار"^(٣). فلم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين، هذا هو الصحيح الذي دلَّ عليه التحقيق، فإنَّ إبليس لم يكن من نوع الساجدين في أصل خلقه وطبيعته، وتكوينه، بل كان من نوع الجنِّ^(٤).

وبناء عليه فإنَّ الآية تدلُّ على أنَّ ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأنَّ آدم نُهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه. وفي هذه الآية مسألة عظيمة لها شأن وهي أنَّ ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، وذلك من وجوه عديدة^(٥):

١. أنَّ ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ويدخلها من مات على التوحيد وإن زنى وسرق.

٢. أنَّ فعل المأمور أحبُّ إلى الله من ترك المنهي كما دلَّ على ذلك النصوص الشرعية، وترك المناهي عملٌ، فإنَّه كف النفس عن الفعل، ولهذا علق الله المحبة بفعل الأوامر، كقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وأمَّا في جانب المناهي كأكثر ما جاء النفي للمحبة، كقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ونظائره، وأخبر في موضع آخر أنه يكرها ويسخطها كقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]. إذا عرف هذا ففعل ما يُحبه الله مقصود بالذات، ولهذا يُقدَّر الله ما

(١) قيس من نور القرآن الكريم: الصابوني (٢٧/١، ٢٨).

(٢) التفتازاني: مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، سعد الدين، ولد بـ"تغازان" من بلاد خراسان سنة (٧١٢هـ)، وتوفي بـ"سمرقند" سنة (٧٩٣هـ)، ودفن في "سرخس"، من أئمة العربية والبيان والمنطق، من كتبه: شرح العقائد الفقهية، مقاصد الطالبين في الكلام، شرح المقاصد. ينظر: مفتاح السعادة (١/١٦٥)، وبغية الوعاة (٢/٢٨٥).

(٣) شرح المقاصد: مسعود بن عمر التفتازاني (٣/٣١٨).

(٤) معارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٤/١١١).

(٥) الفوائد: ابن قيم الجوزية (ص: ١٤٨).

- يكرهه ويسخطه لإفضائه إلى ما يُحِبُّ، كما قَدَّرَ المعاصي والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء وحصول التوبة من العبد والتضرع إليه وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه وحصول المولاة والمعادة لأجله.
٣. أنَّ فعل المأمور مقصودٌ لذاته، وترك المنهي مقصودٌ لتكميل فعل المأمور فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه كما نبّه الله على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، فالمنهيات قواطع وموانع صادرة عن فعل المأمورات أو عن كمالها، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه^(١).
٤. أنَّ فعل المأمورات من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها، وترك المنهيات من باب الحماية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال، وحفظ القوة مقدّم على الحماية.
٥. أنَّ فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرّة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئاً من ذلك، فإنّه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً في النَّار.
٦. أنَّ من فعل المأمورات والمنهيات فهو إمّا ناجٍ مطلقاً إن غلبت حسناته سيئاته وإمّا ناجٍ بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته، فمآله إلى النجاة، وذلك بفعل المأمور، ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالكٌ غيرُ ناجٍ، ولا ينجو إلا بفعل المأمور، وهو التوحيد، فإن قيل: فهو إنّما هلك بارتكاب المحظور، وهو الشرك، قيل: يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به، وإن لم يأتِ بصد وجودي من الشرك، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأساً فلم يوحد الله فهو هالكٌ وإن لم يعبد معه غيره، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به وفعل الشرك المنهي عنه.
٧. أنَّ الطاعة والمعصية إنّما تتعلق بالأمر أصلاً وبالنهى تبعاً، فالمطيعٌ ممثّل المأمور، والعاصي تارك المأمور، والمقصود من إرسال الرُّسل طاعة المرسل، ولا تحصل إلا بامتنال أوامره، واجتناب المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه، ولهذا لو اجتنب المناهي ولم يفعل ما أمر به لم يكن مطيعاً وكان عاصياً، بخلاف ما لو أتى بالمأمورات، وارتكب المناهي، فإنّه وإن عد عاصياً مذنباً، فإنّه مطيعٌ بامتنال الأمر، عاصٍ بارتكاب النهي بخلاف تارك الأمر، فإنّه لا يعد مطيعاً باجتناب المنهيات خاصة.
٨. أنَّ امتثال الأمر عبوديةً وتقربٌ وخدمةً وتلك العبادة التي خلق لأجلها الخلق فأخبر الله أنّه إنّما خلق العباد للعبادة، وكذلك إنّما أرسل إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه،

(١) الفوائد: ابن قيم الجوزية(ص:١٤٦).

فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها، ولم يخلقوا لمجرد الترك؛ فإنه أمرٌ عديمٌ لا كمال فيه من حيث هو عدمٌ، بخلاف امتثال لمأمور؛ فإنه أمرٌ وجوديٌ مطلوبٌ الحصول.

٩. أن الله جعل جزاء المأمورات عشرة أمثال فعلها، وجزاء المنهيات مثل واحد، وهذا يدلُّ على أن فعل ما أمر به أحب إليه من ترك ما نهى عنه ولو كان الأمر بالعكس لكانت السيئة بعشرة والحسنة بواحدة أو تساويًا.

١٠. أن ما يحبه من المأمورات فهو متعلق بصفاته، وما يكرهه من المنهيات فمتعلق بمفعولاته، فالمنهيات شرور وتفضي الي شرور، والمأمورات خيرٌ وتفضي إلى الخيرات، وأن المأمور محبوبه، والمنهي مكروهه، ووقوع محبوبه أحبُّ إليه من فوات مكروهه^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآيات من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أن إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً، أنه لم يكن من الملائكة، بل هو أبو الجن.
٢. الكبائر رأس المعاصي، وأساس كلِّ بلاءٍ ينزل بالخلق وهو أول معصية عصي الله بها.
٣. أن ترك المأمور أشدُّ من فعل المحذور، ويتأيد ذلك من وجوه عديدة، أوصلها ابن تيمية إلى أربعين تحت عنوان: أن جنس فعل المأمور أعظم من جنس ترك المنهي عنه^(٣).
٤. أن جنس فعل المأمورات أفضل من جنس ترك المحظورات، كما إذا فضل الذكر على الأنثى، والإنسي على الملك، فالمراد الجنس لا عموم الأعيان.
٥. أن المعاصي وإن اتحد جنسها فهي ليست على وزنٍ واحدٍ، ولذا بوب البخاري في صحيحه: (ظلمٌ دون ظلمٍ) و(حرامٌ دون حرامٍ).
٦. أن أداء الواجب أعظم من ترك المحرم، وأن الطاعات الوجودية أعظم من الطاعات العدمية فيكون جنس الظلم بترك الحقوق الواجبة أعظم من جنس الظلم بتعدي الحدود.
٧. أن فعل المأمور في الشرع مُقدَّم على ترك المحذور؛ ولذلك كان أفضل الصبر عند الله وأحبُّه له الصبر على فعل الطاعات، وكان عقابُ إبليس بسبب تركه أمرَ السجود أشدَّ وأعظم من عقاب آدم في فعله للمحذور، وهو الأكل من الشجرة.
٨. أن من أفاظ الحرام سؤال الله عن علَّة الفعل^(٤)، نحو ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

(١) الفوائد: ابن قيم الجوزية(ص: ١٤٨).

(٢) صفوة التفاسير: الصابوني(١/٤٣٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص: ٦).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية(١١/٦٧١، ٢٨/١٢٩، ٢٩/٢٧٩)، والكبائر: الذهبي(ص: ٣١).

(٤) التحقيقات والتتقيقات السلفيات على متن الورقات: مشهور بن حسن آل سلمان(ص: ٨٣، ٨١).

المقصد الرابع: ترك الاعتراض على الكبراء محمود

وبدل على ذلك المفهوم التربوي قول الله إخباراً عن إبليس قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ

إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

مَا: حرف استفهام، وهو استفهام ظاهره حقيقي، ومشوب بتوبيخ، والمقصود من الاستفهام إظهار

مقصد إبليس للملائكة، وهو للتقريع والتوبيخ وإلا فالله تعالى عالمٌ بذلك.

إِذْ أَمَرْتُكَ: أي: وقت أمري إياك بالسجود مع مَنْ أَمَرْتُ مِنَ الملائكة.

خَيْرٌ: الخير ما يرغَبُ فيه كلُّ أحدٍ كالعقل والعدل والفضل والنفع. والخير يقابل بالشر.

مَنَّكَ: المنع يقالُ في ضِدِّ العَطِيَةِ. ومعناه في الآية: ما صدك وكفأك عن السجود.

مَنْ: حرف جرٌّ يجيء في العربية للتبعيض، ولبيان الجنس، ولابتداء الغاية في الزمان والمكان.

أَمَرْتُكَ: الأمر: عند الأصوليين: "قولٌ طالبٌ للفعل".

طِينٌ: الطين هو الترابُ المُختلطُ بالماء.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قال جمعٌ من المفسرين: حرف ﴿لا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا تَسْجُدَ﴾ مزيدةٌ وصلَةٌ للتبنيه

على أَنَّ الموبَّخَ عليه ترك السجود، ولتوكيدٍ لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه، وذهب قومٌ

من أهل التفسير إلى أَنَّ حرف النفي ﴿لا﴾ في الآية مفيدةٌ، وليست لغواً، وهذا هو الصحيح؛

لأنَّ الحُكْمَ بأنَّ كلمةً من كتاب الله لغوٌ لا فائدةٌ فيها مشكلاً صعباً، وعلى هذا القول ففي تأويل

الآية وجهان: الأول: أن يكون التقدير: أي شيءٍ منعك عن ترك السجود؟ ويكون هذا الاستفهام

على سبيل الإنكار ومعناه: أنه ما منعك عن ترك السجود؟ الثاني: أن الله ذكر المنع وأراد

الداعي، فكأنه قال: ما دعاك الله إلى أن لا تسجد؟ لأنَّ مخالفة أمر الله حالة عظيمة يتعجب

منها ويسأل عن الداعي إليها، وهذا الرأي هو الصواب؛ لأنَّه جارٍ على قاعدة التضمين القرآنية،

فقد ضُمَّنْ فعل (منع) معنى فعل (حمل) فعدي تعديته، فأغنت الجملة عن جملتين، وأصل الكلام:

(١) نهاية السؤل في شرح منهاج الوصول: الإسنوي (٣٧٥/١)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الحلي (٥٤٥/١)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٩، ٥٣٣)، وشرح ابن عقيل (٣٣٠/٢)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٤٢، ٣٩/٨)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٠/٤)،

ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (١١٣/٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٣٤/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (١٦/٧)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن

بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٩).

ما منعك أن تسجد، وما حملك على أن لا تسجد؟، وبالتضمين الإيجازي البديع جاءت الآية، واختصاراً في التقدير، وبهذه الآية أبان الله أنه سأل إبليس عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السجود، واعتبار ﴿لا﴾ زائدة لا يستقيم مع كمال الإعجاز القرآني^(١).

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ محمولٌ على (ما حملك وما دعاك) توسعاً أو تضميناً، والمعنى ما حماك عن عدم السجود، ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود، مع علمه به، للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم.

اللطيفة الثالثة: إنما قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، ولم يقل: منعني كذا مطابقة للسؤال؛ لأنَّ في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة، ما يدلُّ على المانع، وهو اعتقاده أنه أفضل منه، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول، مع ما في طيِّها من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله، وقد علل ما ادعاه من الخيرية أنَّ عنصر النَّار أفضل من عنصر الطين؛ لأنَّها جوهر نورانيٌّ، وهو ظلمانيٌّ، ولقد أخطأ إبليس حيثُ خصَّ الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، وباعتبار الصورة، وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بيَّن لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأنَّ له خواصَّ ليست لغيره، وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته، يشرف بفاعله وغايته وصورته، والثلاثة في آدم دونه، فاستبان غلظه.

اللطيفة الرابعة: قال السلف: يجوز التكليف لمن قدر علم الله فيه أنه لا يفعله، والدليل عليه قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فأمر، وقد سبق من علمه أنه لا يقع منه فعله، فكان الأمر متوجهاً إلى ما قد سبق من علم الله أنه لا يطيقه، مع سلامة الآلة، لكن عدم الطاقة لعدم التوفيق والقبول، وذلك يجوز^(٢).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

إنَّ من أقوى الأدلة على هذا المقصد الجليل ما جاء في اعتراض إبليس عن السجود لآدم، حين أمره الله بذلك، فقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فاعتراض إبليس بقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ هو الذي كُتب له به الشقاء إلى يوم الدين لاعتراضه على الحكيم الخبير، وهو دليل في بيان المقصد، وقصة أصحاب البقرة مع موسى من هذا القبيل أيضاً، عندما أخبرهم بأمر الله ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾

(١) محاسن التأويل: القاسمي (١٧/٧)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (١١٢/٤).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٩٧/٨).

(٣) الموافقات: أبو إسحاق الشاطبي (٣٩٣/٥).

[البقرة: ٦٧] حيث تعنتوا في السؤال فشدد الله عليهم، فقالوا: ﴿أَتَّخِذُنَا هُرُورًا﴾، فإنه استبعاد لما قاله وإنكار، أي أين ما سألنا عنه من بيان القاتل من الأمر بذبح البقر؟ فهو اعتراض على الكبراء. وأخرج البخاري عن سعيد بن المسيب أن جده حزناً فدم على النبي (ﷺ) فقال: "ما اسمك؟" قال: اسمي حزن، قال: "بل أنت سهل"، قال: لا أُغَيِّرُ اسماً سَمَانِيَهُ أَبِي. قال ابن المسيب: فَمَا زَلَّتْ فِيْنَا الْحُزُونََ بَعْدُ^(١). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وما عهد بالتجربة من أن الاعتراض على الكبراء قاضٍ بامتناع الفائدة مبعد بين الشيخ والتلميذ.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. احتج العلماء بالآية على أن صيغة الأمر تفيد الوجوب لأن الله ذم إبليس بهذه الآية على ترك ما أمر به، ولو لم يفد الأمر الوجوب لما كان مجرد ترك الأمور به موجباً للذم.
٢. الآية دليل لمن قال: إن الأمر يفيد الفور؛ وذلك لأن الله ذم إبليس على ترك السجود في الحال، ولو كان الأمر لا يفيد الفور لما استوجب هذا الذم بترك السجود في الحال.
٣. إن إبليس أصر على عناده واستكباره، وأعلن بهذا الإصرار أنه غير مؤمن بالهيبة الله له، وأنه معترض على أمر الله له بالسجود لآدم، ولهذا الاعتراض لوازم كفرية متعدّدة.

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب . باب اسم الحزن، حديث رقم (٦١٩٠، ٦١٩٣)، (ص: ٧٣٧).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٣٥/١٤)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٠/٤)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (١١٣/٤).

المطلب الثاني: الأصل في الوجود التفاضل

وفيه سبع مقاصد:

المقصد الأول: الإنس أشرف وأفضل من الجن

ويدل على هذا قوله عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

خَيْرٌ: أصل الخير العطف والميل، فالخير خلاف الشر؛ لأن كلَّ أحدٍ يميل إليه ويعطف على

صاحبه. ثم يُصرف الكلام، فيقال: رجلٌ خيرٌ، وامرأةٌ خيرٌ: فاضلة. وقومٌ خيارٌ وأخيار.

نارٍ: ذكر الله في هذه الآية: أن إبليس خلق من نارٍ، وقد زاد في مواضع أخر أوصافاً للنار التي

خلقه منها، من ذلك أنها نار السموم، ومن ذلك أنها خصوص المارج، والمارج أخص من مطلق

النار؛ لأنه اللهب الذي لا دخان فيه، وسميت نار السموم؛ لأنها تنفذ في مسام البدن لشدة حرها.

طينٍ: الطين هو عجن التراب بالماء.

ثانياً: مناسبة آخر الآية لأولها^(٢):

إن قوله في أول الآية: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ طلب الداعي الذي دعا إبليس

إلى ترك السجود، فأخبر الله في آخر الآية عن إبليس ذكر ذلك الداعي وهو أنه قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ

مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ومعناه: إن إبليس قال: إنَّما لم أسجد لآدم لأني خيرٌ منه

ومن كان خيراً من غيره؛ فإنه لا يجوز أمر ذلك الأكمل بالسجود لذلك الأدون! ثم بين المقدمة

الأولى وهو قوله: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ بأن قال: ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ والنار أفضل من

الطين، والمخلوق من الأفضل أفضل، فوجب كون إبليس خيراً من آدم.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قول إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ.. ﴾ هذا ليس بجوابٍ مطابق للسؤال، لكنَّه يتضمن

الجواب، إذ معناه منعني فضلي عليه، لشرف عنصري على عنصره، وهذا يقتضي عنده أن النار

خيرٌ من الطين، وإذا كان كذلك فالناشيء من الأفضل لا يسجد للمفضول.

اللطيفة الثانية: إنَّ عدو الله إبليس جهل وجه الحق، وأخطأ طريق الصواب؛ لأنَّ من المعلوم أنَّ

من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب، وهذا الذي حملة، مع سابقة شقائه، على

الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربِّه، فأورده ذلك العطب والهلاك. ومن جوهر

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢/٢٣٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٩، ١٨٢٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٣٥).

(٣) البحر المحيط: أبو حيان (٤/٢٧٣، ٢٧٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/١٨).

الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت، وهذا كان الداعي لآدم، مع سابقة سعادته، إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة.

اللطيفة الثالثة: استدلل بقوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ على أن مطلق الأمر يدل على الوجوب، ويدل على الفور لزم إبليس على امتناعه من السجود في الحال، ولو لم يدل على الوجوب ولا على الفور لم يستوجب الذم في الحال ولا مطلقاً.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

قول إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ هذا يقتضي عنده أن النار خير من الطين، وإذا كان كذلك فالناشئ من الأفضل لا يسجد للمفضول، قال المفسرون: وذلك أن النار جسم مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السموات ملاصق لها، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السموات، و أيضاً فالنار قوية التأثير والفعل، والطين ليس له إلا القبول والانفعال، والفعل أشرف من الانفعال وأيضاً فالنار مناسبة للحرارة الغريزية، وهي مادة الحياة، والطين ببرده وببسه مناسب للموت، والحياة أشرف من الموت، وإذا تقرر هذا فالمخلوق من الأفضل أفضل؛ لأن شرف الأصول يوجب شرف الفروع، وأن الأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى؛ فهذا هو تقرير لشبهة إبليس، ثم قال أهل التفسير: أخطأ إبليس من حيث فضل النار على الطين، وهما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق، والطين أفضل من النار من وجوه: منها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة والحلم والحياء والصبر وذلك هو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبقت له في التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتناب والهداية، ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك واللعة والعذاب. ثم ذكروا وجوهاً عشرة يظهر بها فضل التراب على النار، ثم قالوا: لا يدل من كانت مادته أفضل على أنه تكون صورته أفضل، إذ الفضيلة عطية من الله ابتداءً؛ فلا يلزم من فضيلة المادة فضيلة الصورة؛ لأن الله يخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، والنور من الظلمة والظلمة من النور، وذلك يدل على أن الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله لا بسبب فضيلة الأصل والجوهر، وأيضاً التكليف إنما يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال العقل، فالمعتبر بما انتهى إليه لا بما خلق منه، وأيضاً فالفضل إنما يكون بالأعمال وما يتصل بها لا بسبب المادة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٣٦/١٤)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٧٣/٤).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أنّ هذا الادعاء من إبليس قائمٌ على الافتراء، وقاعدته التوهم الباطل، ودافعه الكبرُ وحُبُّ الاستعلاء ولو بغير حقٍّ، وإنَّ الادعاء الكاذب لا يزيد الحق إلا وضوحاً.
٢. من أشبه إبليس . إذا صدر منه الذنب بالإصرار والعناد . فإنَّه لا يزداد من الله إلا بُعداً.

المقصد الثاني: ذمُّ القياس بالرأي الفاسد

لقوله: ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

خَيْرٌ: الخَيْرُ: ما يَرغَبُ فيه كلُّ أحدٍ كالعقل والعدل والفضل والنفع، والخيرُ ضربان: ضربٌ مطلقٌ، وهو أن يرغبُ فيه كلُّ أحدٍ بكلِّ حالٍ، وضربٌ خيرٌ مقيدٌ، وهو أن يكون خيرُ الواحدِ شراً لآخر، كالمال مثلاً، فإنَّه خيرٌ لمن عملَ فيه صالحاً، وشرٌّ لمن اكتسبه من حرام.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطفية الأولى: احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص عموم النص بالقياس؛ بأنَّه لو كان تخصيص عموم النص بالقياس جائزاً لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد والتوبيخ العظيم، ولما حصل ذلك دلٌّ على أن تخصيص عموم النص بالقياس لا يجوز.

اللطفية الثانية: استدلال نفاة القياس على إبطاله بقصة إبليس، ولا حجة فيها؛ لأنَّه قياسٌ في مورد النص، فهو فاسدٌ، فلا يدلُّ على بطلان القياس حيث لا نصٌّ؛ لأنَّ رسول الله (ﷺ) قد علم الأمة كيفية القياس والاستنباط في مسائل لها أصول ومعاني في كتاب الله ومشروع سنته، ليربهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه النصوص، إذ قد علم أنَّ الله لا بُدَّ أن يكمل له الدين، والقياس هو تشبيه ما لا حكم فيه بما فيه حكم في المعنى.

اللطفية الثالثة: قاس إبليس، وهو أولُّ من قاس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وقال بعض العلماء: أخطأ قياسه وذهب علمه أن الروح الذي نفخ في آدم ليس من طين.

اللطفية الرابعة: عن ابن عباس أن امرأةً جاءت إلى النبي (ﷺ)، فقالت: إنَّ أمِّي نذرتُ أن تحجَّ، فماتت قبل أن تحجَّ، أفأحجَّ عنها؟ قال: "نعم، حُجِّي عنها، أُرَيْتِ لو كان على أمك دينٌ أكنْتِ

(١) معارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (١١٣/٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٢).

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٥٤٥).

(٣) البحر المحيط: أبو حيان (٤/٢٧٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/١٨)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣٣/٧٣).

قاصِبِيَّتِهِ؟"، قالت: نعم، فقال: "فأفضُوا الله الذي له، فإنَّ الله أحقُّ بالوفاءِ"^(١). فقد شبَّه رسولُ الله ﷺ، دين الله بدين العباد في اللزوم، وهذا صريح في العمل بالقياس الصحيح، وما ذمَّه الشرع إنَّما هو القياس الباطل^(٢).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

إنَّ قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ خطابٌ عامٌّ يتناول جميع الملائكة، ثم إنَّ إبليس أخرج نفسه من هذا العموم بالقياس، وهو أنَّه مخلوق من النَّار، والنَّار أشرف من الطين، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف، فيلزم كون إبليس أشرف من آدم، ومن كان أشرف من غيره؛ فإنَّه لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدون الأدنى، والدليل عليه أنَّ هذا الحكم ثابت في جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك، فثبت أنَّ إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذمَّ، وما ذاك إلا لعدم جوازهِ، وأيضاً ففي الآية دلالة على ذلك من وجه آخر: وذلك لأنَّ إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ فوصف الله تعالى إبليس بكونه متكبراً، بعد أن أخبر عنه ذلك القياس الذي يوجب تخصيص النص، وهذا يقتضي أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبَّر على الله، ودلت هذه الآية على أنَّ التكبر على الله يوجب العقاب الشديد، والإخراج من زمرة الأولياء، فثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز، وهذا هو المراد ممن قال: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربَّه وقاس، وأوَّل من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشيءٍ من رأيه، قرنه الله مع إبليس، وقد روي عن السلف آثار كثيرة في ذمَّ القياس الفاسد وإنكاره، وسائر الفقهاء قالوا في هذه الآثار وما كان مثلها في ذمَّ القياس: إنَّه القياس على غير أصلٍ، أو القياس الذي يُردُّ به الأصل، والقول في دين الله بالظنِّ؛ لأنَّ قول من قال منهم: أوَّل من قاس إبليس، فإنَّ إبليس ردَّ أصلَ العلم بالرأي الفاسد، والقياس لا يجوز عند أحدٍ ممن قال به إلا في رد الفروع إلى أصولها، لا في رد الأصول بالرأي والظنِّ، وإذا صحَّ النص من الكتاب والأثر بطل القياس، وأيُّ أصلٍ أقوى من أمر الله لإبليس بالسجود، وهو العالم بما خُلِق منه آدم، وما خُلِق منه إبليس، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلَّة ليست بمانعةٍ من أن يأمره الله بما يشاء، فهذا ومثله لا يحلُّ ولا يجوز، وأمَّا القياس على الأصول، والحكم للشيءٍ بحكم نظيره، فهذا ما لا يختلف فيه أحدٌ من السلف، بل كلُّ من روي

(١) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب مَنْ أَشْبَهَ أَصْلًا مَعْلُومًا بِأَصْلٍ مُبَيَّنٍّ قَدْ بَيَّنَّ اللهُ حَكْمَهُمَا لِيُفْهَمَ السَّائِلُ، حديث رقم: (٧٣١٥)، (ص: ٨٦٠).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣٣/٧١).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٣٧/١٤)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣٣/٦٨، ٧٠)، ونهاية السؤل في شرح منهاج الأصول: الإسنوي (٢/٨٠٨).

عنه ذمّ القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً، لا يدفع هذا إلا جاهلاً أو متجاهلاً، مخالفٌ للسلف في الأحكام، وقد جاء في ذم القول في دين الله بالرأي والقياس على غير أصلٍ مقالاتٍ سابعةٍ جديدةٍ بالمراجعة^(١)، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه روى عن عليٍّ وزيدٍ أنّهما احتجا بقياس، فمن ادعى إجماع الصحابة على ترك العمل بالرأي والقياس مطلقاً فقد غلط، ومن ادعى أنه من المسائل ما لم يتكلم فيها أحدٌ منهم إلا بالرأي والقياس، فقد غلط، بل كان كلٌّ منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها، والصحابة الكرام كانوا يحتجون في عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهورٌ عنهم، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأي، ويحتجون بالقياس الصحيح.

والقياسُ الصحيحُ نوعان: أحدهما: أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل، كما ثبت في الصحيح عن ميمونة قالت: سئل النبي (ﷺ) عن فأرة سقطت في سمن، فقال: ألقوها وما حوّلها، وكُلوا سمنكم^(٢)، وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن، ولهذا قال جماهير العلماء: إنّه أي نجاسة وقعت في دهن من الأدهان كالفأرة التي تقع في الزيت، وكالهر الذي يقع في السمن، فحكمها حكم تلك الفأرة التي وقعت في السمن بالإجماع^(٣).

والنوع الآخر من القياس الصحيح: أن ينص على حكم لمعنى من المعاني، ويكون ذلك المعنى موجوداً في غيره، فإذا قام دليلٌ من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوى بينهما، وكان هذا قياساً صحيحاً، فهذان النوعان كان الصحابة الكرام والتابعون لهم بإحسان، يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، فالكتاب هو النص، والميزان هو العدل، والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين، وتفريق بين المختلفين، ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص، فكلُّ قياسٍ خالف دلالة النص فهو قياسٌ فاسدٌ، ولا يوجد نصٌ يخالف قياساً صحيحاً، كما لا يوجد معقولٌ صريحٌ يخالف المنقولَ الصحيح، ومن كان متبحراً في الأدلة الشرعية، أمكنه أن يستدلَّ على غالبِ الأحكام بالنصوص وبالأقيسة، فثبت أن كلَّ واحدٍ من النصِّ والقياسِ دلٌّ على هذا الحكم^(٤)، والكلام في القياس الصحيح وإثباته، والقياس الفاسد ونفيه يطول استقصاؤه.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (٩٧/٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد. باب إذا وقعت فأرة في السمن، حديث رقم (٥٥٤٠)، (ص: ٦٧٤).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٦٢/١١).

(٤) محاسن التأويل: القاسمي (١٨/٧ - ٢٦).

رابعاً: ما تومئ إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أنه إذا كان الرأي والقياس على أصلٍ من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة فهو محمودٌ، وهو الاجتهاد الذي أباحه الله للعلماء، وأمّا الرأي المذموم والقياس المُتكلف فهو ما لم يكن على هذه الأصول؛ لأنّه ظنٌّ ونزغٌ من الشيطان.
٢. تخصيص عموم النصّ بالقياس غير جائزٍ، ولا بُدُّ في القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به.
٣. الآية دليل على إثبات القياس الصحيح، وقد أنكر القياس طائفةً من النَّاسِ، والجَمُّ الغفير على خلافه، وأهل السنة والجماعة هم الحجة، ولا يلتفت إلى من شدَّ عنها.
٤. أنّ كلّ من سَوَّى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسدٌ.
٥. أنّ القياس على غير أصلٍ شرعيٍّ، والكلام في الدين بالخَرَصِ والظنِّ مذمومٌ.
٦. أنّ ما يؤخذ من التنصيص مقدّم على ما يؤخذ بالاجتهاد والاستنباط.
٧. أنّ القياس الفاسد هو الذي يستلزم ردّاً لما جاءت به السنة النبوية.

المقصد الثالث: إنّ صالحى بني آدم أفضل من الملائكة:

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: ١١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

لِلْمَلَائِكَةِ: ملك أصله: مَأْلَك، والمَأْلَك والألوك: الرسالة، والمَأْلَكَة: الرسالة؛ لأنها تُؤلِّك في الفم. وظاهر الكتاب والسنة أنّ الملائكة أجسامٌ لطيفةٌ نورانيةٌ قادرةٌ على التشكلات بأشكال مختلفة كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقة، شأنها الطاعات، ومسكنها السموات، وهم رسل الله إلى أنبيائه، وأمنائه على وجهه، لا يعصون الله ما أمرهم. اسْجُدُوا: أصل السجود الخضوع والتذلُّل، وخصّ ذلك شرعاً بعبادة الله؛ فلا يجوزُ السُّجودُ لغير الله، والسجود نوعان: سجودٌ على سبيل العبادة، فلا يجوز لغير الله، وسجود على سبيل التعظيم والتكريم كسجود الملائكة لآدم، وسجود إخوة يوسف لأخيهم، ثم السجود عامٌّ في الأناسي والحيوانات والجمادات.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٣٧/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٨/١٢)، (٨٠٣١١/٢)، والتوضيح لشرح

الجامع الصحيح: ابن الملقن (٧١، ٦٦/٣٣)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (٩٨، ١١١/٢).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٨٢)، والعين: الخليل الفراهيدي (٤٠٩/٥)، وشرح المقاصد:

مسعود بن عمر التفتازاني (٥٠٠/٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٧٢/٢).

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: جمهور المسلمين على أنّ الملائكة أجسامٌ لطيفةٌ تظهر في صور مختلفة، وتقوى على أفعال شاقة، هم عباد مكرمون يواظبون على الطاعة والعبادة، ولا يوصفون بالذكر والآنوثة، ولا أب لهم ولا أم، معصومون من المعصية.

اللطيفة الثانية: إنّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، والحكيم لا يأمر بسجود الأفضل للأدنى، وإبائ إبليس، واستكباره، والتعليل بأنّه خيرٌ من آدم لكونه من نارٍ وآدم من طين، يدلُّ على أنّ الأمور به كان سجود تكريمٍ وتعظيمٍ، لا سجود تحيةٍ وزيارةٍ، ولا سجود الأعلى للأدنى إعظاماً له، ورفعاً لمنزلته، وهضماً لنفوس الساجدين.

اللطيفة الثالثة: سجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له، وقرية يتقربون بها إلى الله، والسجود لآدم تشريفٌ وتكريمٌ، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام، فالسجود على ضربين: الأول: سجود عبادة محضة، والآخر: سجود تشريف، فأما الأول فلا يكون إلا لله، وأما الآخر فيجوز لغيره.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

هذه الآية نصٌّ في أنّ صالح بني آدم أفضل من الملائكة وهي مما استدلَّ به أهل السنة والجماعة على أنّ آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة؛ لأنّ الله أمر الملائكة بالسجود له إكراماً له؛ ولهذا قال إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] فدلَّ على أنّ آدم كرم على من سجد له، والمعروف عن جمهور أهل السنة أنّ صالح بني آدم أفضل من سائر الأجناس، والذين ذهبوا إلى تفضيل الملائكة هم المعتزلة، فمنهم من فاضل بين الجنسين، فقالوا: حقيقة الملك أفضل من حقيقة الإنسان؛ لأنّها نورانيةٌ وخيرةٌ ولطيفةٌ مع سعة العلم والقوة وصفاء الجوهر، وهذا لا يستلزم تفضيل كلّ فردٍ على كلّ فردٍ لجواز أن يكون في بعض الأناسي ما في ذلك وزيادة، ومن أقوى أدلة تفضيل النبيّ على الملك أنّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم على سبيل التكريم له حتّى قال إبليس: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ومنها قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، لما فيه من الإشارة إلى العناية به، ولم يثبت ذلك للملائكة، ومنها قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، الذين من جملتهم الملائكة، ومنها قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحجّ: ١٣]، فدخل في عموم الملائكة، والمسخر له أفضل من المسخر، ولأنّ طاعة الملائكة بأصل الخلق وطاعة البشر غالباً مع المجاهدة للنفس لما طبعت عليه من الشهوة والحرص

(١) شرح المقاصد: التفتازاني (٣/٣١٩، ٣٢١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٦١، ٣٦٠).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٤٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٧/٣٥٦).

والهوى والغضب؛ فكانت عبادتهم أشق، وأيضاً فطاعة الملائكة بالأمر الوارد عليهم وطاعة البشر بالنص تارةً وبالاجتهاد تارةً والاستنباط تارةً، فكانت أشق، ولأنَّ الملائكة سلمت من وسوسة الشياطين وإلقاء الشبه والإغواء الجائزة على البشر، ولأنَّ الملائكة تشاهد حقائق الملكوت، والبشر لا يعرفون ذلك إلا بالإعلام، ولا يتم ذلك إلا بمشقة شديدة ومجاهدات كثيرة، ولا شك أنَّ السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار أفضل من الملائكة، ومحمدٌ (ﷺ) خير جميع الخلق من الإنس والجنِّ والملائكة، فهو سيدُّ العالم وصفوة بني آدم، وأفضل خلق الله، وخير مخلوقات الله (١)، وقد جمع ابنُ تيمية بين الأدلة فقال: "إنَّ صالحِي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإنَّ الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الربِّ تعالى، ولا ريب أنَّ هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر. وأمَّا يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة"، وبهذا التفصيل يتبيَّن سرُّ التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، فإنَّ في السجود تعظيم وتشريف وتكريم. ومذهب الجمهور على تفضيل البشر، ومن قال الملائكة أفضل، فهذه نزعة اعتزالية، فأشرف المخلوقات بنو آدم الذين جعل الله خيرته منهم، فلو كان غيرهم أشرف لصيره منهم، وقد نقل شارح الطحاوية عن أهل السنة تفضيل صالحِي البشر والأنبياء على الملائكة (٢).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ (٣):

١. إنَّ النوع الإنساني أفضل من النوع المَلَكِي عند أهل السنة، فهم خيرُ البرية.
٢. أنَّ الله تعالى كَرَّمَ آدم فأسجد له الملائكة.
٣. أنَّ الله أمر العباد بالطاعة باطناً وظاهراً، ونهاهم عن المعصية باطناً وظاهراً، وقدَّر ما يكون في الكون من طاعةٍ ومعصيةٍ باطناً وظاهراً.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٦٤، ٣٤٣/٤)، وبدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية (١٦٣/٣)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٥٧/١٧)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٢٥٠/٣٣)، وشرح المقاصد: التفتازاني (٣١٨/٣)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٧٤/١)، وفي ظلال سورة التوبة: عبدالله عزام (ص: ٧).

(٢) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (٢٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٢٢/٢)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ٢١٠)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٥٤).

المقصد الرابع: يُعاقب العاصي بنقيض قصده شرعاً وقدرًا

لقوله: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

فَاهْبِطْ: قَالَ اللهُ مَخَاطَبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرٍ قَدْرِي كَوْنِي: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أَي: بِسَبَبِ عَصِيَانِكَ لِأَمْرِي، وَخُرُوجِكَ عَن طَاعَتِي.

تَتَّكَبَرُ: التَّكَبُّرُ إِعْجَابٌ بِالنَّفْسِ، وَالتَّكْبِيرُ عَلَى اللهِ الْاِمْتِنَاعُ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَالْإِذْعَانِ لَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَالْكَبْرِيَاءُ التَّرَفُّعُ عَنِ الْاِنْقِيَادِ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُ اللهِ لِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الجن: ٣٧] فَقَوْلُهُ: ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكَبَرَ فِيهَا ﴾ أَي: فَمَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ، فَإِنَّهَا مَكَانُ الْمَطِيعِينَ الْخَاشِعِينَ وَالْاِسْتِكْبَارِ طَلَبُ التَّرَفُّعِ بِالْبَاطِلِ وَهَذَا اللَّفْظُ فِي حَقِّ الْبَشَرِ يَدُلُّ عَلَى الذَّمِّ.

الصَّاغِرِينَ: الصَّاغِرُ: الْمُنْصَفُ بِالصَّغَارِ، وَهُوَ الذَّلُّ وَالْحَقَارَةُ، وَالرَّاضِي بِالْمَنْزِلَةِ الدُّنْيَا.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: أكثر المفسرين على أن الضمير في قوله: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ عائدٌ إلى الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها. قال السلف: "يريد من الجنة، وكانوا في جنة عدن، وفيها خلق آدم، وقال بعض المعتزلة: "إنه إنما أمر بالهبوط من السماء".

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿ فَاخْرُجْ ﴾ تأكيدٌ للأمر بالهبوط، متفرّع على علته ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أَي: مِنَ الْأَذْلَاءِ وَأَهْلِ الْهَوَانِ عَلَى اللهِ وَعَلَى أَوْلِيَائِهِ.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

بيّن الله في هذه الآية أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده؛ حيث كان قصده التعاضم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣]، والصغار: أشد الذل والهوان، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك، وصرح الله بهذا المعنى في قوله: ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]، وبيّن الله في مواضع أخر كثيراً

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٨٥، ٦٩٧)، والتفسير الكبير: الرازي (٨٠/١٤)، وتفسير

القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٣)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٢٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٤٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٣٨)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٤)، ومحاسن التأويل:

القاسمي (٧/٢٦، ٢٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٧).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/٦٢٨)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٤)، وأضواء البيان في إيضاح

القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣١٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٤٤).

من العواقب السيئة التي تنتشأ عن الكبر، فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله، والاهتداء بها كما في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار كما في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبُّه الله كما في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، ومن ذلك أن موسى (عليه السلام) استعاذ من المتصف به ولا يستعاذ إلا مما هو شرٌّ، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ [غافر: ٢٧] إلى غير ذلك من نتائج السيئة، وعواقبه الوخيمة، فقوله: ﴿فَأَخْرَجَٰنَكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين، معاملةً له بنقيض قصده، ومكافأةً لمراده بضده، وفي الآية بيان أن التكبر علةٌ للأمر بالهبوط، وهو عقوبةٌ خاصةٌ عقوبةً إبعاداً عن المكان المقدس، لأنه قد صار خُلُقُه غير ملائم لما جعل الله ذلك المكان له، وذلك خُلُقُ التكبر، وقد علم أن التكبر معصيةٌ لا تليق بأهل العالم العلوي، ولأنَّ المكان كان مكاناً مقدساً فاضلاً لا يكون إلا مطهراً من كلِّ ما له وصف ينافيه، وهذه الآية أصلٌ في ثبوت الحقِّ لأهل المحلَّة أن يخرجوا من محلَّتهم من يخشى من سيرته فشو الفساد بينهم، وفي الآية إظهار ما فيه إبليس من الصغار والحقارة التي غفل عنها فذهبت به الغفلة عنها إلى التَّكْبَرِ، وقد عاقبه الله على عصيانه بإخراجه من المكان الذي كان فيه في اعتلاء وهو الجنَّة، ولما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وذلك أن المستكبر عن الحقِّ يُبتلى بالانتقيا للباطل، ولما كان أصل دين النصارى الإِشْرَاق لتعدد الطرق إلى الله أضلهم عنه؛ فعوقب كلُّ من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده، فكان من قدر الله الكوني والشرعي أن يعاقب الكافرين بنقيض قصدهم، ويخزيهم غاية الخزي، ويجعل كيدهم في تباب، فإنَّ إبليس طلب التكبر فابتلاه الله بالذلة والصغار تنبيهاً على صحة التواضع، وقال بعضُ العلماء: لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار (١). وأخرج البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) يقول: قال النبي (ﷺ): " تأتي الإبلُ على صاحبها على خيرٍ ما كانت، إذا هو لم يُعْطِ فيها حقَّها، تطوُّه بأخفافها" (٢). ففي الحديث أن الله يحيي البهائم ليعاقب بها مانع الزكاة، وفي ذلك معاملةٌ له بنقيض قصده؛ لأنه قصد منع حقِّ الله منها، وهو الارتفاق والانتفاع بما يمنعه منها، فكان ما قصد الانتفاع به أضر الأشياء عليه (٣).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٣٨/١٤)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٥٧٥).

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة. باب إثم مانع الزكاة، حديث رقم (١٤٠٢)، (ص: ١٦٩).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٢١٤/٤).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. في الآية إشارة إلى أنّ الجزاء من جنس العمل، وذلك أنّ الله عاقب إبليس بصد مقصوده، وهو الإذلال والإهانة لما تكبر؛ حيثُ حكم عليه بصد المعصية التي عصى بها، وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأمله.
٢. ويُفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أنّ المتواضع لله يرفعه الله تعالى.
٣. كذلك من فرط في اتباع القرآن والافتداء بهديه، عوقب بالضلال والحيرة.

المقصد الخامس: إنّ الله تعالى يُمهّل^(٢) ولا يمهّل

ويدلُّ على هذا قوله: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤، ١٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

أَنْظِرْنِي: معناه: أخرجني، وأمهلني ولا تُمتني، قال ذلك عندما أهبط، ثم استدرك، وسأل النظره. **يُبْعَثُونَ**: أي: آدم وذريته من القبور.

إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ: أي: من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية، والصحيح: من المؤجلين إلى وقت النفخة الأولى حيثُ تصعق الخلائق، أي: إنّ إبليس يموت عقب النفخة الأولى.

ثانياً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: أجاب الله تعالى إبليس إلى ما سأل، لما له تعالى في ذلك من الحكمة والإرادة والمشئنة التي لا تخالف ولا تمنع، ولا مُعقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

اللطيفة الثانية: إذا قيل: ما وجه سؤال إبليس مع أنه مطرودٌ وملعونٌ؟ فالجواب: علم إبليس بإحسان الله إلى خلقه، من أطاع ومن عصى، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية.

اللطيفة الثالثة: إنّ أنظار إبليس ليس إغراءً بالمعصية؛ لأنّه لم يعلم ما الوقت المعلوم، فلا يكون إغراءً مع تجويزه هجوم الموت عليه، ولأنّ الله لما أعلمه أنّه يدخله النار، ولعنه، علم أنّه لا يختار الإيمان أبداً.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٢٠)، وتفسير جزء تبارك: عبد الرحمن البراك (ص: ٧٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٣)، وشرح العقيدة الطحاوية: سفر الحوالي (ص: ٣٠).

(٢) الإمهال: الرفق، ومنه المهلة، وهي الانتظار والتأخير. ينظر: عمدة الحفاظ: السمين الحلبي (٤/ ١٢٠).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/ ٤٤٣)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/ ٢٠٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/ ٢٧)، والتفسير المنير: الزحيلي (٨/ ١٥٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/ ٢٠٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/ ٣٠، ٢٨).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ إبليسَ سألَ ربَّه أنَّ يؤخِّره إلى يومِ البعثِ، طمعَ ألا يموتَ إذ علمَ أنَّ الموتَ ينقطعُ بعدَ البعثِ، فأعطاه اللهُ النَّظْرَةَ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ، وقد أمهلَ اللهُ إبليسَ بالحياةِ إلى يومِ البعثِ فهو يحشرُ حينئذٍ أو يموتُ وبعثُ، ولا يعلمُ ذلكَ إلا اللهُ تعالى، فإنَّ إبليسَ طلبَ الإنظارَ من اللهُ إلى وقتِ البعثِ وهو وقتُ النفخةِ الثانيةِ حينَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ، ومقصوده أنَّه لا يذوقُ الموتَ، فلم يعطه اللهُ ذلكَ، بل قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾^(٢) فأنَّ اللهُ أنظره إلى النفخةِ الأولى؛ لأنَّ اللهُ قال في آيةٍ أخرى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨] والمرادُ منه اليومَ الذي يموتُ فيه الأحياءُ كلُّهم. وفي سؤالِ إبليسَ أن ينظرَ ليومِ البعثِ مكرٌ منه، وخداعٌ وجهلٌ بربِّ العالمينَ؛ فإنَّه إنَّما حاولَ أن لا يذوقَ الموتَ؛ لأنَّ يومَ البعثِ ليس بيومِ موتٍ، وإنَّما هو يومُ بعثٍ ونشورٍ وإحياءٍ وبعثرةٍ لمن في القبورِ، فإذا كان الأمرُ كذلكَ فكيف يقبضُ إذ ذاكَ إبليسُ أو غيره، وإنَّما ذلكَ يومُ الجزاءِ، فأجابه العليمُ الحكيمُ بأنَّه منظرٌ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ^(٣). وهذا أصحُّ من قولِ بعضِ العلماء: بأنَّ إبليسَ إنَّما يذوقُ الموتَ يومَ الحشرِ؛ فاللهُ يُملي للظالمِ، حتى يزدادَ طغيانه، ويتزادَ كفرانه، ثم يأخذه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فليحذرِ الظالمونَ من الإمهالِ، ولا يظنوا أن يفوتوا اللهُ، وكان اليهود يقولون: لو كان محمدٌ نبياً لما أمهلنا اللهُ بسببه والاستخفافَ به، وجهلوا أنَّ اللهُ حلِيمٌ لا يُعاجلُ من سبَّه، فكيف من سبَّ نبيه، وفي هذا كشفٌ لسرائرهم، وفضحٌ لبواطنهم، معجزةٌ لرسوله (ﷺ)^(٤)، لذلك فإنَّ اللهُ إذا أنظرَ الظالمينَ وأجلهم فإنَّه ليس بغافلٍ عنهم مهملٍ لهم لا يُعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلكَ عليهم ويعدُّ عليهم عداءً، وهذا من مكرِ اللهِ؛ فإنَّ من المكرِ إمهالُ اللهِ العبدِ، وتمكيُّه من الأعراضِ الدنيويةِ استدراجاً له^(٥).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٦):

١. أنَّ إبليسَ استمهلَ الزمانَ الطويلَ فأمهله اللهُ ثم بيَّن أنَّه إنَّما استمهله لإغواءِ الخلقِ وإضلالهم والقائه الوسواسَ في قلوبهم.
٢. أنَّ إبليسَ سوف يموتُ وله أجلٌ.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٤٤٣/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (٣٩/١٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٤٨/٢)، والتفسير المنير: الزحيلي (١٥٨/٨)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ١٤٢).

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢٩٢/١٧)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٢٥١).

(٤) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٠٤/٤) وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٥٤١/٢).

(٥) التفسير الكبير: الرازي (٤٢/١٤)، والموافقات: الشاطبي (٢٠٠/٤)، والتفسير المنير: الزحيلي (١٥٨/٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٣، ١٠).

٣. ترك الأخذ من أول مرة بالذنب، والحلم عن تعجيل المعاندين بالعذاب، مع تماديهم على الإبابة والجحود بعد وضوح البرهان.
٤. إنظار الله تعالى إبليس إلى يوم القيامة لا يقتضي إغراءه بالقبيح؛ لأنَّ الله كان يعلم منه أنَّه يموت على أقبح أنواع الكفر والفسق، سواء أعلمه بوقت موته أو لم يعلمه بذلك، فلم يكن ذلك الإعلام موجباً إغراءه بالقبيح.
٥. أنَّ إمهال الله للظالمين المكذِّبين لم يكن عن غفلةٍ أو عجزٍ عنهم؛ بل ليزدادوا إثماً، فتكون عقوبتهم أعظم.
٦. قد يُعجِّلُ الله العقوبة على بعض المعاصي في الدنيا قبل الآخرة؛ لتكون تذكراً يتعظُّ بها النَّاسُ فيحذروا مخالفة أمر الله.

المقصد السادس: إغواء إبليس لبني آدم مقدرٌ

يدلُّ على هذا المقصد القرآني قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧-١٦]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَغْوَيْتَنِي: الغيُّ: جهلٌ من اعتقادٍ فاسدٍ، والإغواء إيقاع الغيِّ في القلب، وذلك يدلُّ على أنَّ إبليس كان يعتقد أنَّ الحقَّ والباطلَ إنَّما يقع في القلب من الله، والمراد من الإغواء الإضلال.

لَأَقْعُدَنَّ: القُعودُ: يُقابلُ به القيامُ، والقَعْدَةُ للمرَّة، والقَعْدَةُ للحال التي يكونُ عليها القاعدُ، ويُعبرُ عن التَّرصِدِ للشيءِ بالقُعودِ له، والمعنى: لأقعدن لآدم وبنيه ترصداً بهم، كما يقعد القُطَّاع للطريق على السابِلة، فإنَّ الشيطان يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها.

صِرَاطَكَ: الصِّراطُ: الطريقُ المُستقيمُ السويُّ، والطريقُ المُستسهلُ، قال مجاهد: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: الحقَّ. وقيل: طريق مكة، والصحيحُ أنَّ الصراط المستقيم أعمُّ من ذلك كلِّه.

وَعَنْ: كلمة تفيد البعد والمباينة.

شَاكِرِينَ: معنى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدون.

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٨٣، ٤٠٧، ٦٢٠، ٦٧٨)، والتفسير الكبير: الرازي (٤٥، ٤٠/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣١/٧)، والتفسير المنير: الزحيلي (١٥٩/٨).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

يخبر الله أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَى يَوْمٍ يُعْتَدُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أضللتني عن الهدى لأقعدن لعبادك . الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه . على ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي، ومعناه لا أفتقر عن إفسادهم، ثم يبين الله أن إبليس توعد بني آدم بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه، بإتيان العدو من الجهات الأربع التي يعتاد هجومه منها، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت، ثم قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: مستعملين لقواهم وجوارحهم، وما أنعم الله به عليهم في طريق الطاعة والتقرب إلى الله، وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن، فقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي، وقيل: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فمن قبل دنياهم، وأما: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ فأمر آخرتهم وأما: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ فمن قبل حسناتهم، وأما: ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ فمن قبل سيئاتهم، وقيل: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ فالمراد منه الترغيب في ترك المأمورات، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الترغيب في فعل المنهيات، ولا تجد أكثرهم شاكرين لك نعمتك، ولا مطيعين أوامرك، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، وأصاب ما هو حاصل.

ثالثاً: لطائف تفسيرية في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الباء في قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ بمعنى لام التعليل، أي: لأجل إغوائك إياي، وقال بعض النحاة: الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك إياي، والأول أولى، والمعنى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم، والمراد أنك لما أغويتني فأنا أيضاً أسعى في إغوائهم.

اللطيفة الثانية: اللام في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لام القسم، قصد تأكيد حصول ذلك وتحقيق العزم عليه، والقعود كناية عن الملازمة، ووجه الكناية هو أن ملازمة المكان تستلزم الاعياء من

(١) الكشف: الزمخشري (٧١/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٤٤/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٤/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٢، ٣١/٧)، والتفسير المنير: الزحيلي (١٥٦/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٤١/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٤/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣١/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٤٨، ٤٧/٨).

الوقوف عنده، فيقعد الملازم طلباً للراحة، فالقعود على الطريق فيه حرص على الإغواء، فذكر القعود؛ لأنَّ من أراد أنَّ يبالغ في تكميل أمرٍ من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود، والمراد من الآية أنَّ إبليس يواظب على الإفساد مواظبةً لا يفتر عنها.

اللطيفة الثالثة: الضمير في قوله: ﴿هُمُ﴾ ضمير الإنس الذين دلَّ عليهم مقام المحاورة، التي اختصرت هنا اختصاراً دعا إليه الاقتصار على المقصود منها، هو الامتتان بنعمة الخلق، والتحذير من كيد عدوِّ الجنس البشري.

اللطيفة الرابعة: إضافة الصَّراطِ إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿صِرَاطَكَ﴾؛ لأنَّ الله دعا إليه، وأراد من النَّاس سلوكه، والصراط المستقيم: هو طريق الله، وهو العمل الذي يحصل به ما يرضي الله بامتثال أمره، وهو فعل الخيرات، وترك السيئات.

اللطيفة الخامسة: لا خلاف بين العلماء أنَّ حرف (على) مقدرٌ في الآية، والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك المستقيم، وإلقاء كلمة (على) جائزٌ؛ لأنَّ الصراط ظرف في المعنى.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الدنيا ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ الآخرة، وقيل: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ حيثُ يُبصرون، ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ حيثُ لا يُبصرون، واختار الطبري أنَّ المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحسنه لهم.

اللطيفة السابعة: لم يقل إبليس: من فوقهم؛ لأنَّ الرحمة تنزل من فوقهم، فلم يذكر مع الجهات الأربع من فوقهم ومن تحتهم؛ لأنَّ القوى التي يتولد منها ما يوجب تقويت السعادات الإيمانية فهي موضوعة في هذه الجوانب الأربعة من البدن، وبقي للإنسان جهتان: الفوق والتحت، فإذا رفع يديه إلى فوق في الدعاء على سبيل الخضوع، أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخشوع عُفِّر له؛ فالسبب في تعيين هذه الجهات الأربع أنَّها أحوال توجب زوال السعادات الإيمانية^(١).

اللطيفة الثامنة: في الآية كنايةٌ حيثُ كني بنفي الشُّكر عن الكفر، إذ لا واسطة بينهما كما قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ووجهُ هذه الكناية، إن كانت من كلام إبليس، أنَّه أراد الأدب مع الله فلم يصرِّح بين يديه بكفر أتباعه المقتضي أنَّه يأمرهم بالكفر، وإن كانت من كلام الله ففيها تنبيهٌ على أنَّ المشركين بالله قد أتوا أمراً شنيعاً إذ لم يشكروا نعمة الجمَّة عليهم.

اللطيفة التاسعة: قول إبليس: ﴿وَلَا تَحِدُّ أَعْيُنُهُمْ شَاكِرِينَ﴾؛ إنَّما هو ظنُّ منه وتوهمٌ؛ لأنَّ هذا من باب الغيب، وقد وافق في هذا الواقع؛ لأنَّه كان عازماً على المبالغة في تزيين الشهوات وتحسين الطيبات، وعلم أنَّها أشياء يرغب فيها، غلب على ظنِّه أنَّهم يقبلون قوله فيها على سبيل الأكثر

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٤١، ٤٥، ٤٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٤).

والأغلب ويؤكد هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] والعجب أن إبليس قال لله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فقال الله ما يطابق ذلك: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]^(١). وقيل: سمعه من الملائكة بإخبار الله لهم. فقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ زيادة في بيان قوة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حباله إلا القليل من النَّاسِ، وقد عَلِمَ ذلك بعلم الحدس وترتيب المسببات^(٢).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

دلّ مضمون الآية على أن الله خلق في نفس إبليس مقدرةً على إغواء النَّاسِ، وأنه جعله باقياً متصرفاً بقواه الشريرة إلى يوم البعث، فأحسَّ إبليس أنه سيكون داعيةً إلى الضلال والكفر، وأنه فاعل ذلك لا محالة مع علمه بأن ما يصدر عنه هو ضلال وفساد فصدور ذلك منه كصدور النهش من الحية، وهذا الكلام الذي صدر في الآية من إبليس يدلُّ على أن إبليس عَلِمَ أن الله خلق النَّاسَ للصَّلاح والنَّفع، وأنه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سُمِّيت أعمال الخير في حكاية كلام إبليس، صراطاً مستقيماً، وبهذا الاعتبار كان إبليس عدواً لبني آدم، لأنه يطلب منهم ما لم يُخلقوا لأجله، وهو منافٍ للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصلةً وجبليَّةً بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السَّالمة من التَّغيير، وذلك ما أفصح عنه الجعل الإلهي المشار إليه بقوله: ﴿قَالَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤] وبه سيَتَّضح كيف انقلبت العداوة ولايةً بين الشياطين وبين البشر الذين استحبوا الضلال والكفر على الإيمان والصَّلاح، ذلك لأنَّ الشيطان لا بُدَّ وأنَّ يزين القبائح في قلب الكافر ويحسنها إليه ويذكره ما في القبائح من أنواع اللذات والطيبات، فالشيطان حريصٌ كلَّ الحرصِ على الإضلال والغواية، ومن ثمَّ الوقوع في المحرمات وفعل المنكرات، والشيطان له دورٌ في إغواء بعض النَّاسِ من طريق الوسوسة لهم والإغواء، ومحاولات إغواء الشيطان لا تقتصر على وجهٍ واحدٍ، وإنما تأتي من كلِّ أوجه الحياة، فينبغي الحذر من الشيطان، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني أشكهم في صحة البعث والقيامة، أو أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ألقى إليهم أن الدُّنيا أزلية، وأقوي رغبتهم في لذات الدُّنيا وطيباتها وأحسنها في أعينهم، وعلى هذا الوجه فالمراد من قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة؛ لأنهم يردون عليها ويصلون إليها فهي بين أيديهم، وإذا كانت

(١) التفسير الكبير: الرازي (٤٦/١٤) والكشاف: الزمخشري (٧١/٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٤/٢).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٠/٨).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٤٣، ٤٢/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٤٨/٨) والتفسير المنير:

الزحيلي (١٥٩/٨)

الآخرة بين أيديهم كانت الدنيا خلفهم؛ لأنهم يخلفونها، فمعنى ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني الدنيا ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ الآخرة، وإنما فُسر قوله: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالدنيا؛ لأنها بين يدي الإنسان يسعى فيها ويشاهدها، وأمّا الآخرة فهي تأتي بعد ذلك، وأمّا قوله: ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ في الترغيب في الباطل، أو أقوى دواعيهم في السيئات، وقول من قال: الأيمان كنايةً عن الحسنات، والشمائل عن السيئات، قولٌ حسنٌ، فهذا تلخيص ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الجهات الأربع، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها مختص بنوع من الآفة في الدين، ففي هذه الآية أن الله أخبر عن الشيطان ذكر هذه الوجوه الأربعة، والغرض منه أنه يبالغ في إلقاء الوسوسة، وإحاطة الضرر، ولا يقصر في وجه من الوجوه الممكنة البتة، وتقدير الآية: ثم لآتينهم من جميع الجهات الممكنة بجميع الاعتبارات الممكنة، ولهذا ورد في الحديث الصحيح الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. تدلُّ الآية أنَّ إبليس سأل الإنظار، وأنَّ الله أنظره، وتدلُّ على شدة عداوة إبليس لبني آدم وحرصه على إضلالهم.
٢. تدلُّ الآية على أنَّ إبليس كان عالماً بالدين الحق والمنهج الصحيح؛ لأنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وصرط الله المستقيم هو دينه الحق.
٣. وتدلُّ على أنَّ إبليس كان عالماً بأنَّ الذي هو عليه من المذهب والاعتقاد هو محض الغواية والضلال؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، ولذلك كان كفر إبليس كفر عنادٍ لا كفر جهلٍ.
٤. تدلُّ الآية على أنَّ الشيطان لا يترك جهةً من جهات الوسوسة إلا ويلقيها في القلب، ولا جهة من جهات الإضرار إلا ويؤذي بها الإنسان.
٥. وفي الآية دلالة على أنَّ الشيطان يدخل في بدن ابن آدم ويخالطه.
٦. تدلُّ الآية على أنَّ أكثر بني آدم غير شاكرين.
٧. في الآية دلالة على أنَّ الاعتصام بالكتاب والسنة واجبٌ، وأنَّ الاستمسك بهديهما أعظم وسيلة للثبات على الحق، والعصمة من الضلال.

(١) التفسير الكبير: الرازي(٤٥/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٢/٢٠٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي(٤٦،٤١/١٤)، والتفسير المنير: الزحيلي(١٥٩/٨)، ومحاسن التأويل:

القاسمي(٣٣،٣١/٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص:٦٣).

المقصد السابع : إبليس مطرود من الجنة

لقوله: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

مَذْذُومًا: ومذعوم اسم مفعول من ذأَمَهُ إذا عابه وحقره وذمه، أي: محقور، والذام الاحتقار.
مَدْحُورًا: مدحور مفعول من دَحَرَه إذا أبعد وأقصاه أي: اخرج خروج مذموم مقصي مطرود، فالذم لما اتَّصف به من الرذائل، والطرد لتنزيه عالم القدس عن مخالطته، والدحر الطرد والتبعيد.
جَهَنَّمَ: وهي النار، وهي دار إهانة أعدها الله جزاءً للكافرين، فيها من صنوف العذاب الحسي والمعنوي، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

مناسبة الآية لما قبلها أن الله تعالى أعاد أمره لإبليس بالخروج من الجنة تأكيداً للأمرين الأول والثاني في الآيات السابقة: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ وقوله: ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾، فإن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكره خاطبه الله بما يدل على الزجر والإهانة فقال: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ اخرج منها أي: من الجنة إلى الأرض.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

أي: اخرج من الجنة معيياً ممقوتاً، مبعداً مطروداً من رحمة الله؛ فقد أكد الله تعالى على إبليس اللعنة والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملاء الأعلى بهذه الآية.
رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: اللام في قوله: ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ موطنة للقسم، و﴿ مِنْهُمْ ﴾ "من" شرطية، واللام في ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ لام جواب القسم، والجواب ساد مسد جواب الشرط، والتقدير: أقسم من تبعك منهم لأملأن جهنم منهم ومنك، أي: لمن أطاعك من الجن والإنس، لأملأن جهنم من كفاركم.

(١) الكشاف: الزمخشري (٧١/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٤٧/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٤/٧)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥١/٨)، والعقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: القاضي (ص: ٦٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٤٧/١٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٥/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٣/٧)، والتفسير المنير:

الزحيلي (١٥٦/٨).

(٤) الكشاف: الزمخشري (٧١/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٤٧/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٤، ٣٣/٧)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٢، ٥١/٨).

اللطيفة الثانية: غُلِبَ في الضمير حال الخطاب (المخاطب) في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ لأنَّ الفرد الموجود من هذا العموم هو المخاطب، وهو إبليس، ولأنَّه المقصودُ ابتداءً من هذا الوعيد؛ لأنَّه وعيدٌ على فعله، وأمَّا وعيدُ اتباعه فبالتبع له، بخلاف الضمير في آية الحجر، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]، لأنَّه جاء بعد الإعراض عن وعيدِ بفعله والاهتمام ببيان مرتبة عباد الله المُخْلِصين الذين ليس لإبليس عليهم سلطانٌ، ثم الاهتمام بوعيد الغاوين.

اللطيفة الثالثة: الكناية في قوله: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ عائد على ولد آدم؛ لأنَّه حين قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ كان مخاطباً لولد آدم، فرجعت الكناية إليهم.

اللطيفة الرابعة: التأكيد في الآية بـ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ للتخصيص على العموم، لئلاَّ يحمل على التغليب، وذلك أنَّ الكلام جرى على أمة بعنوان كونهم أتباعاً لواحدٍ، والعربُ قد تجري العموم في مثل هذا على المجموع دون الجمع، كما يقولون: قتلتم فلاناً، وإنَّما قتله بعضهم.

اللطيفة الخامسة: إنَّما قال الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأنَّه لا يكون في جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين، وكفار الإنس الذين انقادوا له وتركوا أمر الله لأمره، فجمعهم في الخطاب، وعصاة الموحدين لا يخلدون في النَّار، بل يخرجون بما معهم من توحيد.

اللطيفة السادسة: قيل: ضيق جهنم ووسع الجنة؛ لأنَّ جهنم حبس، والجنة دار ملك، قلت: هذه نزعة اعتزالية؛ فإنَّ الجنة عند أهل السنة دارُ فضل ورحمة، وليست بدار ملك.

اللطيفة السابعة: فائدة قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللطفُ ليكون المكلفُ تبعاً للأنبياء دون الشياطين، ولطفاً لإبليس وحزبه؛ لأنَّه غايةً في الزجر والنهي.

اللطيفة الثامنة: دلت الآية على أنَّ التابع والمتبوع معنيان في أنَّ جهنم تملأ منها ثم إنَّ الكافر تبعه، وكذلك الفاسق تبعه فيجب القطع بدخول الفاسق النَّار، وجوابه أنَّ المذكور في الآية أنَّ الله يملأ جهنم ممن تبعه، وليس في الآية أنَّ كلَّ من تبعه فإنَّه يدخل جهنم فسقط هذا الاستدلال.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. تدلُّ الآية على الوعيد لمن تبع إبليس، وأنَّه يملأ جهنم منهم، ولا بدُّ فيه من شرطٍ، وهو أن لا يتوب، أو لا يكون معه طاعةٌ أعظم.

٢. تدلُّ على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه، تحذيراً عن مثل حاله.

٣. تدلُّ هذه الآية على أنَّ جميع أصحاب البدع والضلالات يدخلون جهنم؛ لأنَّ كلهم متابعون لإبليس.

٤. وتدلُّ الآية على أنَّ النَّار مخلوقةٌ، وأنَّ النَّاس كالأبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٤٧/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٤/٧).

المبحث الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١٩ - ٢٥)

آدم نبيّ مُكَلَّم

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الجنّة مخلوقة.

المطلب الثاني: الإسلام حضارةً وتقدّم.

المبحث الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١٩ - ٢٥)

آدم (عليه السلام) نبيّ مكلّم

مناسبة هذا المقطع القرآني لما قبله من الآيات^(١):

إنَّ آدم هو أوَّل مَنْ بنى الكعبة، وأوَّل من أسس المسجد الأقصى، فأدم هو الذي أسس كلاً من المسجدين، فإنَّ النصوص الشرعية لا تدلُّ على أنَّ إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتداءً وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما، فما كان من آدم أصلاً وتأسيساً، وما كان من غيره رفعاً و تجديداً.

ونوح هو أوَّل الرُّسل إلى أهل الأرض، فأدم آدم فقد كان نبياً وبالضرورة يُعلم أنَّه كان على شريعةٍ من العبادة، وأنَّ أولاده أخذوا ذلك عنه؛ فعلى هذا فهو رسول إليهم فيكون هو أوَّل رسولٍ، فيحتمل أن تكون الأولوية في قول أهل الموقف لنوح: "يا نوح أنت أوَّل الرُّسل إلى أهل الأرض"^(٢) مقيدةً بقولهم: إلى أهل الأرض؛ لأنَّه في زمن آدم لم يكن للأرض أهلٌ، أو لأنَّ رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، ويحتمل أن يكون المراد أنَّه رسولٌ أرسل إلى بنيه وغيرهم من الأمم الذين أرسل إليهم مع تفرقهم في عدة بلاد، وأدم إنما أرسل إلى بنيه فقط وكانوا مجتمعين في بلدة واحدة^(٣).

وفي هذا المقطع القرآني بيان حول قضية خلق الإنسان متمثلاً بالشخص الأوَّل من نوعه، وهو أبوهم آدم ومعه زوجته حواء، ولقطاتٍ مما رافق خلقه من أحداثٍ، ما جرى لهما بعد إدخالهما الجنَّة إدخال امتحانٍ واختبارٍ، لا إدخال خلودٍ ودوامٍ واستقرارٍ، من إغواء الشيطان لهما حتى عصيا ربَّهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما عن أن يقرباها، فكان السبب في إخراجهما من الجنَّة، وكان ما جرى لهما مثلاً من أمثلة الجزاء الرباني بالعقاب على معصية أوامر الله ونواهيه، وهذا المقطع القرآني استمرارٌ في الكلام عن النشأة الأولى للبشر، ودور شياطين الجنِّ في إغواء النَّاس، والقصدُ من القصة إرشاد النَّاس إلى طرق الهداية، وتحذيرهم من وساوس الشياطين؛ فإنَّ الشيطان بسبب حسده لآدم وحواء سعى في المكر والوسوسة والخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النِّعمة واللباس الحسن. وقد ذكرت هذه القصة في القرآن في سبعة مواضع^(٤).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني(٧/٦٧٤، ٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء . باب قول الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود:٢٥] حديث رقم (٣٣٤٠)، (ص:٣٩٦).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني(٧/٦١٩).

(٤) معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني(٤/٤٢)، التفسير المنير: الزحيلي(٨/١٦١).

المطلب الأول: الجنة مخلوقة

وفيه خمسة مقاصد:

المقصد الأول: آدم وحواء في جنة الخلد حقيقة

ويدل على هذا المفهوم الإيماني قوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ

سِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

آدَمُ: آدم أبو البشر، سمي بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل لسمره في لونه.

اسْكُنْ: السكون: ثبوت الشيء بعد تحريكه، ويُستعمل في الاستيطان نحو: سكن فلان مكان كذا،

أي: استوطنه، واسم المكان مسكن، والجمع مساكن.

وَزَوْجُكَ: يُقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، لكل ما

يقترب باخر مماثلاً له أو مضاداً زوج، وزوجه في الآية هي حواء، سُميت بذلك؛ لأنها أم كل حي

أو لأنها خلقت من شيء حي.

الجنة: أصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية، ومنه سُمي البستان جنة؛ لأنه يستر داخله

بالأشجار ويغطيه، فلا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع، وأصل

الجن: ستر الشيء عن الحاسة، والجنان: القلب؛ لكونه مستوراً عن الحاسة، والجنة: كل بستان

ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، والجنة شرعاً: هي الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت

عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرّة الأعين.

فكلاً: الفاء حرف عطف يفيد الجمع على سبيل التعقيب.

حيثُ: حيثُ ظرف مكان، أي: فكل من ثمارها في أي مكانٍ شئتما الأكل فيه.

تقرباً: القرب والبعد يتقابلان، ويُستعمل ذلك في المكان، و في الزمان، و في النسبة، وفي

الخطوة، في الرعاية، والفدوة.

الشجرة: الشجر من النبات: ما له ساق^(٢).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٤٨/١٤)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤١٧، ٣٨٤، ٢٠٣، ٧٠)،

وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦١٢/٧)، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم

الجوزية (ص: ٩٣)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٧/٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٦٦، ٦٦٣).

الظَّالِمِينَ: الظُّلْمَةُ عَدَمُ الثُّورِ، وَجَمْعُهَا: ظُلُمَاتٌ، وَالظُّلْمُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ: وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الْمُخْتَصَّ بِهِ؛ إِمَّا بِنَقْصَانٍ أَوْ ب_zِيَادَةٍ؛ وَإِمَّا بِعُدُولٍ عَن وَقْتِهِ أَوْ مَكَانِهِ^(١)، وَالْمُرَادُ بِ﴿الظَّالِمِينَ﴾ هُنَا: الَّذِينَ يَحِقُّ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الظُّلْمِ، إِمَّا لِظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِلْقَائِهِمَا فِي الْعَوَاقِبِ السَّيِّئَةِ، وَإِمَّا لِاعْتِدَائِهِمْ عَلَى حَقِّ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ الْعَصِيَانَ ظَلَمُوا لِحَقِّ الرَّبِّ الْوَاجِبِ طَاعَتَهُ^(٢).
ثَانِيًا: مَنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا^(٣):

جاء هذا القول مُسْتَقْطَعًا مِّنَ الْحَدِيثِ الْمَاضِي لِلْقِصَّةِ؛ كَأَنَّ الْحَدِيثَ يَجْرِي الْآنَ، وَهَذَا مِنْ أَدْبَعِ أَسَالِيْبِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ، يُعَلِّمُنَا اللهُ فِيهِ فَنَاءً مِنْ فُنُونِ الْبَيَانِ الرَّفِيعِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالْفَائِدَةُ فِي إِعَادَتِهَا أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِي بَعْضِ وَعْشْرِينَ سَنَةً، وَالْعَوَارِضُ تَعْرُضُ، وَالْوَفُودُ تَقْدَمُ، فَكَانَتِ الْقِصَّةُ تُعَادُ، لِيَسْمَعَ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ، رَحْمَةً وَلِطْفًا؛ لِأَنَّ فِي إِعَادَةِ قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ، فِي مَوَاضِعَ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي نِهَآيَةِ الْحُسْنِ، مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

ثَالِثًا: الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ لِلآيَةِ^(٤):

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إِنَّهُ أَبَاحَ لِأَدَمَ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَاءَ الْجَنَّةِ يَسْكُنَانِ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، وَيَأْكُلَانِ مِنْ جَمِيعِ ثَمَارِهَا مَا شَاءَا رِغْدًا، أَي: هَنِيئًا وَاسْعًا طَيِّبًا إِلَّا شَجَرَةً وَاحِدَةً، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَانَ، وَسَعَى فِي الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْوَسْوَسَةِ لِيَسْلُبَهُمَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ.
رَابِعًا: لَطَائِفُ التَّفْسِيرِ فِي الْآيَةِ^(٥):

اللُّطِيفَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿وَيَا آدَمُ﴾ النَّدَاءُ لِلإِقْبَالِ عَلَى آدَمَ وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِ فِي ذَلِكَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى. وَأَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿وَيَا آدَمُ﴾ هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ، أَي: وَقَلْنَا يَا آدَمَ، قَالَ لَهُ هَذَا الْقَوْلُ بَعْدَ إِخْرَاجِ إِبْلِيسَ مِنَ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ.

اللُّطِيفَةُ الثَّانِيَّةُ: تَخْصِيصُ الْخَطَابِ بِ﴿آدَمُ﴾ لِلإِذْنِ بِأَصَالَتِهِ فِي تَلْقَى الْوَحْيِ وَتَعَاطِي الْمَأْمُورِ.
اللُّطِيفَةُ الثَّلَاثَةُ: الإِتْيَانُ بِالضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ بَعْدَ الْأَمْرِ فِي ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ﴾ لِقَصْدِ زِيَادَةِ التَّنْكِيلِ بِإِبْلِيسَ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ ضَمِيرِهِ فِي مَقَامِ الْعَطْفِ يَذْكَرُ غَيْرَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ، إِذِ الضَّمِيرُ وَإِنْ كَانَ مِنْ

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٥٣٧).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٦/٨).

(٣) محاسن التأويل: الفاسمي (٣٥/٧)، ومعارج الفكر ودقائق التدبر: عبد الرحمن حبنكة الميداني (١٢٩/٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٥/٧٨، ٢/١).

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٢٧٣/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٧/٤)، والتحرير

والتنوير: ابن عاشور (٥٣/٨).

قبيل اللقب وليس له مفهومٌ مخالفٌ فأنه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض، فما اختير الفصل بالضمير المنفصل إلا لما يفيد من التعريض بغيره^(١).
اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿الْجَنَّةُ﴾ أي: جنّة الخلد، وهو الصحيح، خلافاً لمن قال: إنها جنّة في الأرض^(٢).

اللطيفة الخامسة: التنبيه على قاعدة سد الذرائع في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فإنّ النهي عن قربان الشجرة أشدّ في التحذير من أن يُنهي عن الأكل منها، وفي النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها^(٣).

اللطيفة السادسة: فائدة النهي، إنّ النهي عن قربان شجرة خاصة من شجر الجنّة إنّما هو إخبارٌ من الله، وهو نهى ابتلاء وامتحان لآدم، وما ذُكر من أنّ ما في طبع تلك الشجرة أن تُثير في النّفس علم الخير والشر، وأنّ الله نهاه عن أكل شجرة معرفة الخير والشر، فهذا بعيدٌ، وهو أشبه بالإسرائيليات، وليس في الظاهر الآية ما يدلُّ على التعيين فلا حاجة إلى بيانه؛ لأنّه ليس المقصود من هذا الكلام أنّ يعرفنا عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصوداً في الكلام لا يجب على الحكيم أن يبينه بل ربما كان بيانه عبثاً، وليس لأحدٍ أن يظنّ أنّه وقع تقصير في البيان^(٤).

اللطيفة السابعة: قال الإمام الطبري: "والصواب في ذلك أن يُقال: إنّ الله نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنّة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأنّ الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنّة الصحيحة^(٥)".

اللطيفة الثامنة: في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فائدة حسنة وهو أنّ الله علم أنّهما يُصيبان ما يُصيبان فلفقتهما الاعتذار، فمن ثمّ قالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]^(٦).

اللطيفة التاسعة: للجنّة عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسامها واحدٌ باعتبار الذات، فهي مترادفةٌ من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينةٌ من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرّب تعالى، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار^(٧)، وكثرة الأسماء عند العرب

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٣/٨).

(٢) محاسن التأويل: القاسمي (٣٥/٧).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٤/٨).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٤٥٤/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٥/٨).

(٥) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥٢٠/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٧٩/١).

(٦) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٠/٣).

(٧) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية (ص: ٩٣).

دليلٌ على شرف المسمّى^(١). وقد لَمَحَ البخاري بأسماء الجنّة، وهي عشرةٌ أو يزيد: الفردوس وهو أعلاها، ودار السّلام، ودار الخلد، ودار المُقامة، وجنة المأوي، والنّعيم، والمقام الأمين، وعَدَن، ومقعد صدقٍ، والحُسنَى، وكلّها في القرآن^(٢). ودار الحيوان، ودار المنقنين.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

الآية نداءً وأمرٌ لآدم وحواء، وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة؛ لأنّ إعطاء النّعم لمرضي عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب، وإظهاراً للتفاوت بين مستحق الإنعام ومستحق العقوبة. ثمّ إن كان آدم خُلِق في الجنّة، فكان مستقراً بها من قبل، فالأمر في قوله: ﴿اسْكُنْ﴾ إنّما هو أمر تقرير، أي: ابق في الجنّة، وإن كان آدم قد خُلِق خارج الجنّة، فالأمر للإذن تكريماً له، وأيّاً ما كان ففي هذا الأمر بمسمعٍ من إبليس مقمعةٌ لإبليس؛ لأنّه إن كان إبليس مستقراً في الجنّة من قبل فالقمع ظاهرٌ إذ أطرده الله وأسكن الذي تكبّر هو عن السجود إليه في المكان المشرف الذي كان له قبل تكبّره، وإن لم يكن إبليس ساكناً في الجنّة قبل فإكرام الذي احتقره وترفع عليه قمعٌ له، كما أنّ الآية أفادت أنّ الله أذن لآدم بأن يتمتّع بثمار الجنّة عقب أمره بسكنى الجنّة، وتلك منّة عاجلة تُؤذن بتمام الإكرام، ولما كان ذلك حاصلًا في تلك الحضرة، وكان فيه زيادة تنغيص لإبليس، الذي تكبّر وفضل نفسه عليه، كان الحال مقتضياً إعلام السّامعين به في المقام الذي أخبر فيه الغضب على إبليس وطرده، فحصل من معنى الآية عدة مكارم لآدم، كما أنّ الغرض الأهم من القصص في القرآن إنّما هو العبرة والموعظة والتأسي، وقد اختلفت في الجنّة التي أسكنها آدم، أهي في السماء أم في الأرض؟ والأكثر من المفسرين على أنّ تلك الجنّة هي جنة الخلد، وهو قول أهل السنة، وحكى عن المعتزلة القول: بأنّها في الأرض، وهو ضعيفٌ.

وأهل السنة مجمعون ومتفقون على أنّ الله خلق الجنّة ثواباً للطائعين الصالحين، وخلق النّار عقاباً للعاصيين المذنبين، وأنّ الجنّة والنّار مخلوقتان الآن، وأنّهما باقيتان لا تفنيان أبداً، وأنّ أهل الجنّة مُنعمون فيها خالدون، لا يخرجون منها أبداً، وكذلك أهل النّار الذين هم أهلها خُلِقوا لها، مُعذبون فيها خالدون، لا يخرجون أبداً، وسياق الآية يقتضي أيضاً أنّ حواء خلقت قبل دخول آدم الجنّة، ويقال: إنّ خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنّة.

(١) هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك: ابن جماعة الكنايني (٣/٨٩١).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٥/٨٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١/٧٨، ٧٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٥٣، ٥٤)، والتفسير المنير: الزحيلي (٨/١٦٢)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٤١٣)، وشرح لمعة الاعتقاد: محمد بن صالح العثيمين (ص: ١٣١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أرشدت الآية إلى اعتقاد المنتقين في كلام الله وبيان أنه صفة من صفاته، وأن الله لم يزل متكلماً متى شاء ويكلم من شاء بما شاء؛ فكلم الله آدم في وقت، وكلم موسى في وقت.
٢. دللت هذه الآية عن طريق اللزوم الذهني على أن الله خلق لآدم زوجة، وهي أمنا حواء، ولا شك أنها أول امرأة خلقت، وهي زوجة أبي البشر آدم.
٣. في خلق حواء دليل على أن المرأة مكرمة في الإسلام.
٤. في الآية رد على من زعم من المعتزلة أن الجنة لا توجد إلا يوم القيامة.
٥. الآية دليل على أن الجنة مخلوقة موجودة الآن.
٦. أن أهل الجنة هم أهل الإيمان، وأهل النار هم أهل الكفر.

المقصد الثاني: في الجنة طعام وشراب حقيقة

ويدل على هذا المفهوم الإيماني قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

فَكُلَا: الأكل تناول المطعم.

اسْكُنْ: كان هذا الإسكان الأول إسكان امتحان واختبار، لا إسكان خلود واستقرار.

الجنة: الجنة: اسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمسكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

الآية تخبر أن أباح الله لآدم وزوجه حواء المخلوقة منه سكنى الجنة، وأن يأكلا من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، فالأمر هنا أمر إباحة لا أمر تكليف، وهذا دليل على أن سكنى آدم في الجنة كانت في مبدأ حياتهما، ثم أمرا بالنزول إلى الأرض، بسبب كيد الشيطان وحسده ووسوسته، وكان أخطر سلاح استخدمه هو تغريهما بالحلف المؤكد بالله، فانخدعا.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥/٢)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٥٣٦/٧)، والجنة والنار: عمر الأشقر (ص: ١٣)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حبنكة الميداني (١٢٩/٤)، ونثر الورود على حاتية ابن أبي داود: زيد بن محمد المدخلي (ص: ٣٥).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٢٠)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٣٠/٤)، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية (ص: ٩٨).

(٣) التفسير المنير: الزحيلي (١٦٥، ١٦٢/٨).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطفية الأولى: قول الله لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ هو أمرٌ تعبدٌ، أو أمرٌ بإباحةٍ وإطلاقٍ، من حيثُ إنَّه لا مشقة فيه، فليس هو أمراً تكليفاً، ولا يتعلق به تكليفٌ.

اللطفية الثانية: يستدل من الآية على أنَّ الله تعالى تولى بنفسه عقدَ تزويجٍ بين آدم وحواء.

اللطفية الثالثة: قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هو إخبارٌ من الله تعالى، وامتحانٌ لآدم.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

الأكلُ والشربُ في الجنة ثابتٌ بكتابِ الله وسنةِ رسوله، وإجماعِ المسلمين، وهو معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، وكذلك الطيور والقصور في الجنة بلا ريب، كما وصف ذلك في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي (ﷺ) وكذلك إنَّ أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون، لم يخالف من المؤمنين بالله ورسوله أحدٌ، وإنَّما المخالف في ذلك أحد رجلين: إمَّا كافرٌ، وإمَّا منافقٌ، أمَّا الكافرُ فإنَّ اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة، يزعمون أنَّ أهل الجنة إنَّما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونعيمها وعذابها، ثم إنَّ محمداً (ﷺ) قد بيَّن ذلك بياناً شافياً قاطعاً للعدر، تواتر ذلك عند أمته خاصة وعامها، وقد ناظره بعضُ اليهود في جنس هذه المسألة، وقال: "يا محمد أنت تقول: إنَّ أهل الجنة يأكلون ويشربون، ومن يأكل ويشرب لا بدُّ له من خلاء، فقال النبي (ﷺ): "رَشْحُ كَرَشِحِ الْمِسْكِ"^(٣). فأهل الجنة يأكلون، ويشربون، وينكحون، متنعمين بذلك بإجماع المسلمين، وكما نطق به الكتاب والسنة. وفي صحيح البخاري أنَّ اليهود كذبوا محمداً، وأنَّ النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب^(٤).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٥):

١. الآية ردٌّ على اليهود والنصارى الذين كفروا بالجنة، وقالوا: ليس في الجنة طعام ولا شراب.

٢. الآية دليلٌ على أنَّ الجنة مخلوقة الآن.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٧٩/١)، والتفسير المنير: الزحيلي (١٦٥/٨)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٣٠/٤).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣١٦.٣١٣/٤)، والاعتصام: الشاطبي (٨٣/١).

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق. باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، حديث رقم (٣٢٤٦)، (ص: ٣٨٧).

(٤) صحيح البخاري كتاب التفسير. باب قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] حديث

رقم (٤٧٢٨)، (ص: ٥٦٨).

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٤٢/١٠)، وشرح لمعة الاعتقاد: ابن عثيمين (ص: ١٣١).

المقصد الثالث: قاعدة سد الذرائع حجةً دينيةً.

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ: أي: من الظالمين لأنفسكما؛ إذ تُسبَّبُ لكما معصيتكما الإخراج من الجنة، والإهباط إلى الأرض، وتحمل الكدح والكدِّ والعناء والمتاعب فيها.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

أباح الله لآدم وحواء الأكل من مختلف ثمار الجنة، ونهاهما عن الأكل من شجرة خاصة لم يعينها لنا في كتابه، وقد علل النهي بأنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين لأنفسهما، بفعلهما ما يعاقبان عليه، وهذا امتحانٌ من الله في إباحة الكثير وتحريم القليل.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: التنبيه على قاعدة سد الذرائع^(٤)، في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فَإِنَّ النَّهْيَ عن قربان الشجرة أشدُّ في التحذير من أن يُنهي عن الأكل منها، وفي النهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها؛ لأنَّ الغرض من النهي عن الاقتراب النهي عن الأكل منها^(٥).

اللطيفة الثانية: الذريعة: عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع. وقال الشاطبي: "حقيقتها التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة".

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ النهي نهى تحريم؛ بدليل ترتب العقاب على الأكل.

رابعاً: بيان للمقصد في الآية^(٦):

في هذه الآية دليلٌ على التمسك بسدِّ الذرائع، وحمائتها، وهو مذهب الجمهور، وقد دلَّ على هذا الأصل الكتاب والسنة، أمَّا الكتاب فهذه الآية، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] ووجه الدلالة بها أنَّ اليهود كانوا يقولون ذلك، وهي سبُّ بلغتهم، فلمَّا علم الله

(١) معارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٣١/٤).

(٢) التفسير المنير: الزحيلي (١٦٢/٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٥٧/٢)، والموافقات: الشاطبي (١٨٣/٥).

(٤) الذرائع جمع الذريعة، وهي لغة: الوسيلة والسبب إلى الشيء. والذريعة: ما كان وسيلةً وطريقاً إلى الشيء، وسد الذرائع: هو منع المباح متى كان يؤدي إلى مفسدة. ينظر: إعلام الموقعين: ابن القيم (٥٥٣/٤).

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٤/٨)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن الميداني (١٣١/٤).

(٦) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٣٠٤، ٥٧/٢) وإعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن قيم الجوزية (١٦٦/٥، ٥٥٣/٤) والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٢٥٤) والواضح في أصول الفقه: محمد سليمان الأشقر (ص: ١٦٠).

ذلك منهم؛ منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسب، وقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فمنع من سب آلهتهم، ونهى عن سب الأصنام، وهو في الأصل قرينة إلى الله؛ لئلا يُفضي ذلك إلى سب الله. وقال بعض الحذاق: إنَّ الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه العرب، وهو القرب، وهذا مثالٌ بيِّن في سدِّ الذرائع، وباب سدِّ الذرائع أحد أرباع التكليف؛ فإنَّه أمر ونهي، والأمر نوعان؛ أحدهما: مقصودٌ لنفسه، والثاني: وسيلةٌ إلى المقصود، والنهي نوعان؛ أحدهما: ما يكون المنهي عنه مفسدة في نفسه، والثاني: ما يكون وسيلةً إلى المفسدة؛ فصار سدِّ الذرائع المُفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين، ولما كانت المقاصد لا يُتوصَّل إليها إلا بأسباب وطُرُق تُفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها مُعتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقُرَبَات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها؛ فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصودٌ، لكنه مقصودٌ قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل؛ فإذا حَرَّمَ الربُّ شيئاً وله طرق ووسائل تُفضي إليه فإنَّه يحرّمها ويمنع منها، تحقيقاً لتحريمه، وتثبيتاً له، ومنعاً أن يقرب حِمَاه، ولو أباح الوسائل والذرائع المُفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم، وإغراءً للنفوس به، وحكمة الله وعلمه يأبى ذلك.

وقد ذكر الشاطبي الخلاف بين العلماء من اعتبار سدِّ الذرائع من عدمه، وخرج من عرض الخلاف في المسألة برأي موحد للفقهاء، فقال: "فقد ظهر أنَّ قاعدة الذرائع متفقٌ على اعتبارها في الجملة، وإنَّما الخلاف في أمر آخر"^(١).

والباحث يميل إلى أنَّ العلماء جميعاً يأخذون بأصل الذرائع، وإنَّ لم يُسموه بذلك الاسم.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. هذا الآية ينبنى عليها قاعدة دينية، وهي قاعدة الذرائع التي حكَّها الفقهاء في أكثر أبواب الفقه.
٢. شريعة القرآن كاملة، وهي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال، ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أنَّ الله ورسوله سدِّ الذرائع المُفضية إلى المحارم بأنَّ حرَّمها ونهى عنها.

(١) الموافقات: الشاطبي (١٨٥/٥)، والإمام مالك: محمد أبو زهرة (ص: ٢١٦).

(٢) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن قيم الجوزية (٥٥٣/٤)، والموافقات: الشاطبي (١٨٢/٥).

المقصد الرابع: الستر فضيلة، والتعري رذيلة

ويدل على هذا المقصد الأخلاقي قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

سَوَاتِمِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] وقوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

فَوَسْوَسَ: الوسوسة: الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس، وهو صوت الخلي، والهمس الخفي. والوسوسة الكلام الخفي المكرر الذي لا يسمعه إلا المداني للمتكلم، والوسوسة شرعاً: الدلالة على الشر والقاؤه في النفس، فقوله في هذه الآية: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: كلمها كلاماً خفياً فسمعه منه آدم وفهمه، والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسر الوسوسة في الآية بأنها قول، فقال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] ثم وبين أنه وسوس إلى حواء مع آدم، وفي ذلك دليل واضح على أن الوسوسة المذكورة كلام مسموع. الشيطان: يطلق لفظ "شيطان" على كل عاتٍ متمردٍ من الجن والإنس والدواب.

مَا نَهَاكُمَا: النهي: الزجر عن الشيء، والانتهاء: الانزجار عما نهى عنه، والنهي عند علماء الأصول: قول طالب للترك.

لِيُبْدِيَ: الإبداء ضد الإخفاء، فالإبداء كشف الشيء وإظهاره. فقوله: ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾: أي: حجب عنهما وأخفى وستر وغطى، مشتقاً من المواراة، وهي التغطية والإخفاء والستر، وتطلق المواراة توسعاً على صرف المرء عن علم شيءٍ بالكتمان أو التلبيس. سَوَاتِمِهِمَا: السوات جمع سواة، وهي اسم لما يسوء ويتغير به من النقائص، ويكنى بالسواة عن العورة، والسواة فرج الرجل والمرأة؛ وذلك لأن ظهوره يسوء الإنسان، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: إبليس بأكل الشجرة مخيلاً لهما النفع ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي: يظهر لهما ﴿مَا وُورِيَ﴾ أي: ستر ﴿عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا﴾ أي: عوراتهما^(٢).

(١) الكشاف: الزمخشري (٧٢/٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٨٦٩، ٨٢٦)، والتفسير الكبير: الرازي (٤٨/١٤)، وغاية الأمان في تفسير الكلام الرباني: أحمد الكوراني (ص: ٤٦٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨، ٣١٧/٤)، ونهاية السؤل في شرح منهاج الوصول: الإسنوي (٤٣٣/١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٨٨٩)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٣٢/٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٨، ٥٧/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٥٠/١٤) ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٥/٧) والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٧/٨).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

وسوس لهما إبليس بأكل الشجرة مخيلاً لهما النفع ليُظهِر لهما ما سُتِرَ عنهما من عوراتهما، وأما كيف وسوس الشيطانُ لآدمَ وزوجه في الجنة فقضية من قضايا الغيب التي لم يرد في النصوص الإسلامية الصحيحة بيانُ عنها، ولما كان إسكان آدم وزوجه الجنة إسكان امتحان واختبار، لا إسكان خلودٍ واستقرارٍ، كان تمكين الله تعالى لإبليس من أن يُوسوس لهما بوسيلةٍ ما، ولو بدخول الجنة دخول غير ساكنٍ ولا مُستمتعٍ أمراً منسجماً مع الحكمة الربانية، ولا يتنافى مع قضية من حقائق صفات الجنة. والذي يقوله بعض الناس: إن إبليس دخل في جوف الحية، وهي دخلت به إلى الجنة، فهو قصةٌ ركيكةٌ.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: اللام في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ للتعليل والغرض، أي: جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره، وأن لا يطلع عليه مكشوفاً، وهو الأصل فيها، بناءً على حدسه أو علمه بطريقٍ ما. فهي لام العلة الباعثة إذ كان الشيطانُ يعلم ذلك بالإلهام أو بالنظر، فالشيطان وسوس لآدم وزوجه لغرض إيقاعهما في المعصية ابتداءً؛ لأن ذلك طبعه الذي جُبل على عمله، ثم لغرض الإضرار بهما، إذ كان يعلم أنَّهما يعصيان الله بالأكل من الشجرة، ولما كان عدواً لهما كان يسعى إلى ما يؤذيهما، ويحسدهما على رضى الله عنهما، ويعلم أن العصيان يُقضي بهما إلى سوء الحال على الإجمال، فكان مظهر ذلك السوء إبداء السوات.

اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ أسند إبداء السوات إلى الشيطان؛ لأنه هو المتسبب فيه على طريقة التوسع في الكلام.

اللطيفة الثالثة: إن في وسوسة الشيطان إلى آدم إشكالاً، وهو أن يقال: إبليس قد أخرج من الجنة صاغراً مذموماً مدحوراً، فكيف أمكنه الرجوع إلى الجنة حتى وسوس لآدم وحواء؟ والواقع أنه لا إشكال؛ لإمكان أن يقف إبليس خارج الجنة قريباً من طرفها بحيثُ يسمع آدمُ كلامه وهو في الجنة، وإمكان أن يدخله الله إياها لامتحان آدم وزوجه، لا لكرامة إبليس، فلا محال عقلاً في شيءٍ من ذلك، والقرآنُ قد جاء بأن إبليس كَلَّمَ آدمَ، وحلف له حتى غره وزوجه بذلك.

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٣٥/٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨/٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٢)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٣٣/٤).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٢/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٤٩/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٥/٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨/٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٧/٨).

اللطيفة الرابعة: في الآية سؤالٌ وهو أن آدم (عليه السلام) كان يعرف ما بينه وبين إبليس من العداوة، فكيف قبل قوله؟ الجواب: لا يعبد أن يقال: إن إبليس لقي آدم مراراً كثيرةً ورغبه في أكل الشجرة بطرق كثيرةٍ فلأجل المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلامه في آدم^(١).
رابعاً: بيان المقصد من الآية^(٢):

هذا هو هدف الشيطان أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسية والمعنوية. والأصل في الإنسان الستر؛ لأنه مكرمٌ، والأصل في البهائم التعري؛ لأنها مسخرةٌ. وقد أوهم إبليس آدمَ وزوجه أنهما متمكنان أن يصيرا ملكين من الملائكة، إذا أكلا من الشجرة، وهذا من تدجيله وتلييسه، وهذه أول وسوسة صدرت عن الشيطان، وأول تضليلٍ منه للإنسان، وتعليل إبليس بأن الأكل من الشجرة ارتقاء إلى الملكية تمويهً منه وتخيلٌ أن ما يشاهد في الملك من حسن الصورة، وعظم الخلق، وكمال القوة يحصل بأكل الشجرة، ودلت هذه الآية على أن كشف العورة من المنكرات المحرمات، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مُستقبحاً في العقول.
خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. في الآية دليلٌ على أن كشف العورة في الخلوة، وعند الزوج من غير حاجةٍ من عظام الأمور، وأنه قبيحٌ مُستهجنٌ في الطباع، ولذلك سُميت سوءاً؛ لأنه يسوء صاحبها.
٢. استدلل قومٌ بالآية على وجوب ستر العورة، وأنه كان في شريعة آدم. قيل: لا دليلٌ في الآية على الوجوب؛ لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك.
٣. في الآية دليلٌ على أنهما كرها التعري، وإن لم يكن لهما ثالثٌ، ففي ذلك دليلٌ على فُبح التعري، وإن لم يكن مع المُتعري أحدٌ، إلا لحاجةٍ.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٤٩/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٧٩/١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٨٩٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٥٠/١٤)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨/٤)، وشرح المقاصد: التفتازاني (٣٢٤/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٥٩/٨ . ٦٢)، وصفوة التفسير: الصابوني (٤٤١/١).

(٣) الكشاف: الزمخشري (٧٢/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٤/١)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٥/٧).

المقصد الخامس: القسم معظم في الشرع

ويدل على هذه الحقيقة القرآنية قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا

مَلَكَئِنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَقَالَ: أي: قال الشيطان لآدم وحواء.

نَهَاكُمَا: النهي الزجر عن الشيء، وهو طلب كَفٍّ، وقد يكون بلفظة لا تفعل كذا، وهو نهي من

حيث اللفظ والمعنى جميعاً.

وَقَاسَمَهُمَا: أي: حلف لهما بالله، وأقسم به.

النَّاصِحِينَ: المعنى: أن إبليس قال: أقسم لكما إنني لكما لمن الناصحين؛ لأنني خلقت قبلكما، وأنا

أعلم أحوالاً كثيرة من المصالح والمفاسد لا تعرفانها فامتثلاً قولني أرشدكما.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يذكر الله أن إبليس قال كذباً وافتراءً لآدم وحواء: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه

الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين، أو كراهة أن تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون في

الجنة ساكنين مخلدين، فلو أنكما أكلتما من الشجرة لحصل لكما ذلكما^(٣)، والمأمول من آدم

وحواء أنهما ما صدقا إبليس فيما قال قطعاً، والمحققون أنكروا حصول هذا التصديق قطعاً وظناً،

بل الصواب إنهما أقدا على الأكل لغلبة الشهوة، لا أنهما صدقاها علماً أو ظناً.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ترغيب وتطميع من إبليس، وقد

وقع الترغيب في مجموع الأمرين؛ لأنه أدخل في الترغيب أو على ظاهره على طريقة التخيير.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة للمبالغة؛ لأنه اجتهد فيه،

والمراد بها المبالغة في صدور الإقسام لهما من إبليس.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٢/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢٢٦/٤)، وفتح

البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨/٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٥/٢)، ومحاسن

التأويل: القاسمي (٣٧/٧).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٥٢/١٤)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨/٤).

(٣) الكشاف: الزمخشري (٧٢/٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٥/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٣٤/١)، محاسن التأويل: القاسمي (٣٦/٧)، والمختصر في التفسير (ص: ١٥٢).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٥٢/١٤)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٩/٤).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

قد استدل بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء، لارتكابهما ذلك طمعاً في نيل ما ذكر، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تتقلب، وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً، وأجاب من لم ير هذا من أهل السنة أيضاً باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم، ولئن كانت بعدها، فلعل آدم رغب في الملكية للقوة والشدة والقدرة، وقال جمهور المفسرين: والعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء، والكلام الذي فيها إخبار من الله عن قول إبليس في معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والنزور والتدليس، وإنما يستدل من كلام الله، أو من كلام أخبر به عن بعض أنبيائه، وإن لم يكن ذلك، فكلام حكاه راضياً به مقرراً له، فليس في الآية حجة ولا دليل على أفضلية الملائكة، ولا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله؛ لأن إبليس قد أخبر أن الله منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين، وهو في ذلك كاذب مبطل، فلا دليل فيه إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك، ولا تصديقه فيه، بل حُتمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وغرهما، إذ قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فعمل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره، فالآية أشارت إلى أسلوب الخديعة والتغريب الذي اصطنعه إبليس مع آدم وحواء، وما كان له من نتائج أليمة للتنبيه إلى وجوب التروّي في الإصغاء إلى الوسوسة والإغواء وأساليب الغواية وعدم الاندفاع بما فيها من تزويق وبهرجة، هذا ما نبهت إليه الآية، فقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقد حلف إبليس بالله لهما إنني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعان أرسدكما. وما حسب آدم وحواء أن أحداً من الخلق يحلف بالله كاذباً.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهداف وهدايات^(٢):

١. القسم وسيلة من وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية أمام القضاء، وأنها مشروعة لتأكيد جانب الصدق على جانب الكذب في إثبات الحقوق أو نفيها.
٢. القسم معظم عند جميع البشر.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: الطبري (٣٥٢/١٢) الكشاف: الزمخشري (٧٣/٢، ٧٢)، والإنصاف: ابن المنير الإسكندري (هامش الكشاف ٧٢/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٤/١)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٢، ٥١/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٧/٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣١٨، ٣١٩/٤)، والقرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٦/٢)، والتفسير الحديث: محمد عزة دروزة (٣٦٨/٢).
(٢) وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: محمد مصطفى الزحيلي (٣٢٤/١، ٣١٦).

المطلب الثاني الإسلام حضارة وتقدم

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأول: ستر العورات متأصل في الفطرة السوية، وهو أول مظاهر الحضارة ويدلُّ على هذا المقصد الفطري قوله: ﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَدَلَاهُمَا: أي: أطعمهما ومناهما، فوضعت التديئة موضع الإطماع فيما لا يُجدي نفعاً، وفيه إشعارٌ بأنه أهبطه ما بذلك من درجةٍ عاليةٍ، إلى رتبةٍ سافلةٍ، فإنَّ التديئة والإدلاء: إرسالُ الشيء من أعلى إلى أسفل، والمعنى يدور حول الخديعة والإيقاع في الهلاك والمعصية. بَغُرُورٍ: أي: بما غرَّهما به من القسم؛ فإنَّهما ظناً أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً. ذَاقَا: الذوق إدراك طعم المأكول أو المشروب باللسان، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشرب. وذلك يدلُّ على أنَّهما تناولا اليسير قصداً إلى معرفة طعمه، ولولا أنَّ الله ذكر في آيةٍ أخرى أنَّهما أكلا منها، لكان ما في هذه الآية لا يدلُّ على الأكل؛ لأنَّ الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل. الشَّجَرَةَ: الشَّجَر من النبات: ما له ساقٌ. بَدَتْ لَهُمَا: أي: ظهرت عوراتهما لكلِّ منهما.

سَوْآتُهُمَا: السوء: كلُّ ما يَغْمُ الإنسان من الأمور الدنيوية، والأخروية، ومن الأحوال النفسية، والبدنية، والخارجية، مِنْ فَوَاتِ مَالٍ، وَجَاهٍ، وَفَقْدِ حَمِيمٍ، وَكُتَيْ عَنِ الْفَرْجِ وَعَنِ الْعُورَةِ بِالسَّوَاةِ. يَخْصِفَانِ: أي: يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل للذي يرقع النعل: خصاف، والخصف حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقةٍ أخرى لتشدِّد، فمعنى يخصفان يُؤلفان ويضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعضٍ، كفعل الخصف، وضِعاً مُلْزِقاً مَتَمَكِّناً، فمعنى ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أي: أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من ورق الجنة على عوراتهما ليستترا به. الْجَنَّةُ: الجنة: كلُّ بُسْتَانٍ ذِي شَجَرٍ يَسْتُرُ بِأَشْجَارِهِ الْأَرْضَ.

(١) الكشاف: الزمخشري (٧٣/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، والتفسير الكبير:

الرازي (٥٣، ٥٢/١٤)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٢٠٣، ٤٤٦، ٤٤١)، وفتح الباري بشرح

صحيح البخاري: ابن حجر (١٣١/١٠)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٨، ٣٧/٧)، وزاد المسير في علم التفسير:

ابن الجوزي (١٨٠/٣)، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة: محمود الطناحي (٦٥٠/٢)، وفتح البيان في مقاصد

القرآن: صديق حسن خان (٣٢٠/٤)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (٦٤، ٦١/٨).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

فحطَّهما وأنزلهما من المنزلة التي كانا فيها بخداعٍ منه وغرور، فلما أكلا من الشجرة التي نُهيَا عن الأكل منها ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ ليسترا عوراتهما.

ثالثاً: اللطائف البيانية في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الكناية فكلمة: ﴿سَوَاتِمَهُمَا﴾ السوأة : كناية عن الفرج، لا أصل له في تسميته.

اللطيفة الثانية: أفادت كلمة " لما " في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾، توقيت بدو سواتهما بوقت ذوقهما الشجرة، لأنَّ "لما" حرفٌ يدل على وجود شيءٍ عند وجود غيره، فهي لمجرد توقيت مضمون جوابها بزمان وجود شرطها، وهذا معنى قولهم: حرفٌ وجودٌ لوجودٍ، وهي ظرفٌ بمعنى حين.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمَهُمَا﴾ استدل بهذه الآية بعضهم على أنَّ من ذاق الخمر عصى، وهذا وقوف مع الظاهر؛ فإنَّ الذوق وجود الطعم بالفم، وظاهر أنَّه قد يعبر به عن الأكل اليسير، وهو المراد هنا، لأنَّه وقع في آيةٍ أخرى مصرحاً بالأكل فيها.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمَهُمْ﴾ أي: أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما.

رابعاً: بيان المقصد من الآية^(٣):

الآية دليلٌ على أنَّ إظهار السوأة (كشف العورة) قبيحٌ من لدن آدم؛ لقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَا وَوَرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا﴾ فإنَّهما بادرا يستتران لقبح التكشف، وإنَّما سُمِّيت السوأة سوأة؛ لأنَّ كشفها يسوء صاحبها، ودلت هذه الآية على أنَّ بدو سواتهما حصل عند أول إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتب الأمر المحذور عند أول المخالفة، أي: أن حصول ظهور السوات عند ذوق الشجرة، فإنَّ الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت، ولكن هذا التقارن هو لكون الأمرين مسببين عن سببٍ واحدٍ، وهو خاطر السوء الذي نفثه الشيطان فيهما، فسبب الإقدام على المخالفة للتعاليم الصالحة، والشعور بالنقيصة، وفي قوله: ﴿وَطَفَقَا يَخِصِّفَانِ عَلَيَّهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ إخبارٌ لابتناء عمل الإنسان لستر نقائصه، وتحيلته على تجنُّب ما يكرهه، وعلى تحسين حاله بحسب ما يُخيَّل

(١) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٢).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٣/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، ومحاسن التأويل:

القاسمي (٣٨/٧)، وزاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي (١٨٠/٣). التحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٢/٨).

(٣) زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي (١٨٠/٣)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٣/١٤)، وفتح البيان في

مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢١/٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٢/٨).

إليه خياله، وهذا أول مظهر من مظاهر الحضارة أنشأه الله في عقلي أصلي البشر، فإنهما لما شعرا بسواتهما بكلا المعنيين، عرفا بعض جزئياتها، وهي العورة وحدث في نفوسهما الشعور بقبح بروزها، فشرعا يخفيانها عن أنظارهما استنبشاً وكراهيةً، وإذ قد شعرا بذلك بالإلهام الفطري، حيث لا ملقن يلقنهما ذلك، ولا تعليم يعلمهما، تقرّر في نفوس الناس أن كشف العورة قبيح في الفطرة، وأن سترها متعيّن، فدلّ على أن ستر العورة فطري متأصل، فلذلك جاء دين الفطرة بتقرير ستر العورة، مشايعةً لما استقرّ في نفوس البشر^(١).

خامساً: ما ترشد إلي الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. في الآية دلالة على أن للعري الباطن من التقوى أثراً في اللباس الظاهر.
٢. تدلّ الآية على أن ستر العورة كان من شريعة آدم، وقد استدلّ بالآية على وجوب الستر.
٣. تدلّ على أن الستر من خلق آدم وحوّاء، وأنهما كرها العري وإن لم يكن لهما ثالث، ففي ذلك دليل على فُجح التعري إلا عند الحاجة.

المقصد الثاني: نداء الربّ تعالى عتاباً وتربيةً، ودليل على أن الله متكلم

لقوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

وَنَادَاهُمَا: النداء حقيقته ارتفاع الصّوت، وهو مشتق من النّدي وهو بعد الصّوت، وهو يدلّ على طلب الإقبال، فمعنى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي: يذكرهما النّهي السابق، والأمر والتجنب عن الشيطان وفيه دليل على أن الله متكلم متى شاء بصوتٍ وحرفٍ.

رَبُّهُمَا: لفظ الربّ ينبئ عن التربية والحفظ والرعاية.

الشَّيْطَانُ: الشيطان النون فيه أصليّة، وهو فيعالٍ من: شَطَنَ أي: تباعد، فالشيطان مخلوق من النَّار، والشيطان في الشرع: اسمٌ لكلّ عارٍ من الجنّ والإنس والحيوانات.

عَدُوٌّ: العَدُوُّ: التّجاوزُ ومُنافاةُ الائتِئام، والاعتداء: مُجاوزةُ الحقِّ، والمعنى: مظهر للعداوة بترك السجود حسداً وبغياً.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٤، ٦٢/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٨٩)، ومحاسن التّأويل: القاسمي (٣٨/٧).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٥٥٣، ٤٥٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣١٠/٢)، ومحاسن التّأويل: القاسمي (٣٨/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٥/٨)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٣٨/١)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٤٣٢)، وروائع البيان تفسير آيات الأحكام: الصابوني (٢٩١/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢١/٤).

مُبينٌ: من بانَ، والبيان الكشف عن الشيء، والبيّنة: الدلالة الواضحة، والمُبين أصله المظهر، أي: للعداوة بحيث لا تخفى على من يتتبع آثار وسوسته وتغريه، وما عامل به آدم من حين خلقه إلى حين غروره به، ففي ذلك كلّه إبانة عن عداوته^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

لما أكل آدم وحواء من الشجرة ظهرت لهما عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة، وجَعَلَا يَخِصْفَانِ عَلَى عَوْرَاتِهِمَا مِنْ أَوْراقِ شَجَرِ الجَنَّةِ، لِيَسْتَتِرَا بِذَلِكَ، وَهُمَا بِتِلْكَ الحَالِ ناداهما الله معاتباً قائلاً: أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنِ الأَكْلِ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَقَلَّ لَكُمَا مَحْذَرًا لَكُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ: إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَكُمَا بَيِّنَ العَدَاوَةِ، فَلَمْ اقْتَرَفْتُمَا المَنْهِي، وَأَطَعْتُمَا عَدُوَّكُمَا؟
ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطفة الأولى: الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا﴾ للتقرير والتوبيخ؛ لأنّ النهي كان مشفوعاً بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما قد أضاعا وصيتين.

اللطفة الثانية: في قوله: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا﴾ دليل على أنّ مطلق النهي للتحريم.

اللطفة الثالثة: إسناد النداء إلى الربّ في قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ دليل على أنّ الله ناداهما بكلام بدون واسطة ملكٍ مرسلٍ، مثل الكلام الذي كَلَّمَ اللهُ به موسى (عليه السلام)، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض، فلا ينافي ما ورد من أنّ موسى هو أوّل نبيّ كَلَّمَهُ اللهُ بلا واسطة.
اللطفة الرابعة: النداء في الآية رفع الصّوت، ويكون لأغراض، ومحمّله في الآية على أنّه صوتٌ غضبٍ وتوبيخٍ.

اللطفة الخامسة: قد تأخّر نداء الربّ إياهما إلى أنّ بدت لهما سواتهما، وتحيّلا لستر عوراتهما ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاصد عصيانهما، فيعلم أنّ الخير في طاعة الله، وأنّ في عصيانه ضرراً.

اللطفة السادسة: طوى القرآن هنا ذكر التوبة على آدم؛ لأنّ المقصود من القصّة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان وتحذير النّاس من اتّباعه، وإظهار ما يُعقبه اتّباعه من الخسران

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ١٥٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٧/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٨٩)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٢).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٤٦٤/٥)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٣٥/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٨، ٦٦/٨)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢١/٤).

والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة، وقد ذكرت التوبة في البقرة المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربّه، ولكل مقام مقال.
ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

الآية عتابٌ من الله تعالى لآدم وحواء، وتوبيخٌ وتنبيةٌ على الخطأ، حيث لم يحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، أكدّ هذا المعنى القاضي البيضاوي بقوله: "الآية عتابٌ على مخالفة النهي، وتوبيخٌ على الاغترار بقول العدو". وهذه الآية هي العمدة في العداوة بين آدم وإبليس، والمقصود منها إخبار الله هذا القول في الآية تكبير الأمة بعبادة الشيطان لأصل البشر، فيعلموا أنّها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كلّ ما هو منسوب إلى الشيطان ومعدود من وسوسته، فإنّه لما جُبل على الخبث والخري كان يدعو إلى ذلك بطبعه وكان لا يهناً له بال ما دام عدوّه ومحسوده في حالة حسنة. ووجه تلك العداوة أنّ طبعه يُنافي ما في الإنسان من الكمال الفطري المؤيد بالتوفيق والإرشاد الإلهي، فلا يحب أنّ يكون الإنسان إلا في حالة الضلال والفساد.
رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. تدلّ الآية على أصل تاريخي وجودي وهو عداوة الشيطان الأبدية للجنس البشري.
٢. أشارت الآية إلى ما توطد من عداوة بين آدم وإبليس للتنبيه إلى ما في متابعة إبليس من جرم مضاعف؛ لأنّه عدوّ.

المقصد الثالث: اعتراف آدم بالذنب توبة وفضيلة

دلّ عليه قوله: ﴿قَالَ رَبِّنا ظَلَمنا أَنْفُسنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

ظَلَمْنَا: الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إمّا بنقصان أو بزيادة؛ إمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه، والظلم يُقال في مجاوزة الحق، ولذلك قيل لآدم في تعديّه ظالمٌ، وفي إبليس ظالمٌ، وإن كان بين الظلمين بؤنٌ بعيدٌ.
تَغْفِرُ: العَفْرُ: لباس الشيء ما يصونه عن الدنس، والعَفْرانُ والمَغْفِرَةُ من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب، والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفعال.
الْخاسِرِينَ: الخُسْرُ والخُسْرانُ: انتقاص رأس المال.

(١) الكشاف: الزمخشري (٧٣/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢١/٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٦/٢)، والتفسير الحديث: محمد عزة دروزة (٣٦٨/٢).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٧/٨).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٠٩، ٥٣٧، ٢٨١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

قال آدم وحواء: يا ربنا ظلمنا أنفسنا بارتكاب ما نهيتنا عنه من الأكل من الشجرة، وإن لم تغفر لنا ذنوبنا بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا لنكوننَّ من الخاسرين بإضاعتنا حظنا في الدنيا والآخرة، فغفر الله لهما ذلك.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطفة الأولى: قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ معناه: أضررناها بالمعصية، والتعريض للإخراج من الجنة، والآية جملة مستأنفة مبنية على تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قالوا.

اللطفة الثانية: سمى آدم وحواء ذنبهما، وإن كان صغيراً مغفوراً ظمناً لأنفسهما، وقالوا: ﴿لَنُكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات، وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر.

اللطفة الثالثة: في قوله: ﴿وإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أنَّ الصغائر معاقب عليها إن لم تُغفر.

اللطفة الرابعة: التوكيد في قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فقد أكد جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد؛ إظهاراً لتحقيق الخسران استرحاماً واستغفاراً من الله تعالى.

اللطفة الخامسة: آدم (عليه السلام) وإن كان أكل من الشجرة، فقد تاب الله عليه واجتباها وهداه.

اللطفة السادسة: يُقال إنَّ آدم (عليه السلام) سعد بخمسة أشياء: اعترف بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وسارع إلى التوبة، ولم يقنط من الرحمة، وشقي إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، فلم يتب، وقنط من الرحمة.

اللطفة السابعة: آدم تاب واستغفر، وأمَّا إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النظرة، فأعطي كل واحدٍ منهما الذي سأله.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٨٩)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٢) الكشف: الزمخشري (٧٣/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٢٥/٢)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٤١٣/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢١/٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٦/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٣٩/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٧/٨).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

هذا اعتراف من آدم (عليه السلام) بالذنب وطلب للمغفرة والرحمة، وتلك هي الكلمات التي تاب الله عليه بها. فالآية اعتراف من آدم وحواء بالعصيان والمخالفة، وبأنهما علما أن ضر المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين لأنفسهما إذ جرّاً على أنفسهما الدخول في طور ظهور السوات، ومشقة اتخاذ ما يستر عورتهما، وبأنهما جرّاً على أنفسهما غضب الله، فهما في توقع حقوق العذاب، وقد جزما بأنهما يكونان من الخاسرين، أي: الهالكين إن لم يغفر الله لهما، إمّا بطريق الإلهام أو نوع من الوحي، وإمّا بالاستدلال على العواقب بالمبادئ، فإنّهما رأيا من العصيان بوادئ الضر والشر، فعلمتا أنه من غضب الله ومن مخالفة وصايته، قال الرازي: "إنّ هذه الآية مفسرة في سورة البقرة، وهي تدلّ على صدور الذنب العظيم من آدم إلا أنّ هذا الذنب إنّما صدر عنه قبل النبوة"، وقد استدلت بالآية على صدور الذنب من الأنبياء، ثم إنّ المحرمات في الشريعة ترجع إلى الظلم، والظلم إمّا في حقّ الله، وإمّا في حقّ العبد، وإمّا في حقوق العباد، وكلّ ما كان ظلماً في حقّ العباد فهو ظلم العبد لنفسه؛ ولا ينعكس، فجميع الذنوب تدخل في ظلم العبد نفسه، وأوّل من اعترف بهذا آدم أبو البشر لما تلقى من ربه الكلمات فقال: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فكان في هذه الكلمات اعترافه بذنبه، وطلبه ربه على وجه الافتقار والمغفرة والرحمة، فالمغفرة إزالة السيئات، والرحمة إنزال الخيرات، فهذا ظلم لنفسه ليس فيه ظلم لغيره، وفي الصحيح الدعاء الذي علمه النبي (صلى الله عليه وآله) أبا بكر (رضي الله عنه) أن يدعو به في صلاته، قال: "قل: اللهمّ إنّني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي"^(٢). فهذا الدعاء مطابق لدعاء آدم في الاعتراف بظلم النفس، ومسألة المغفرة والرحمة، وإذا كان كذلك فالظلم نوعان: تقريظ في الحق، وتعدّد للحد؛ فإنّ ترك الواجب ظلم، كما أنّ فعل المحرم ظلم.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهداف وهدايات^(٣):

١. عند الذنوب المعاصي يؤمر الإنسان بشهود إساءته على نفسه وظلمه لها بما يدفعه إلى التوبة والإنابة عسى أن يتجاوز الله عنه كما تجاوز عن أبويه.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزّي الكلبّي (٢٩٨/١)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٣/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٧٧/٢٩ - ٢٨٠)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٧/٨)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢١/٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب الأذان. باب الدعاء قبل السلام، حديث رقم (٨٣٤)، (ص: ١٠٦).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية (١/د)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (٨١/٨)، ودراسات في السيرة: سالم أحمد سلامة وآخرون (ص: ٦٢).

٢. أنّ ثمرة المِحنة المحمودة، أنّها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكلِّ حالٍ فهي بما كسبت أديننا، ويعفو الله عن كثيرٍ.

٣. أنّ المؤمن إذا امتحن صبراً واتعظ واستغفر، ولم يتشاغل بدمٍ من انتقم منه، فالله حكّم مُقسِطاً، ثم يحمّد الله على سلامة دينه، ويعلم أنّ عقوبة الدنيا أهونٌ وخيرٌ له.

المقصد الرابع: الأصل في بني آدم الظلم والجهل

ويدلُّ على هذا المقصد النبيل قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

اهْبِطُوا: الهبوط: الانحدارُ على سبيل القهْرِ، وإذا استُعْمِلَ في الإنسانِ الهبوطُ فعلى سبيل الاستخفافِ بخلاف الإنزالِ؛ فإنَّ الإنزالَ ذكره اللهُ في الأشياءِ التي نَبَّهَ على شرفها، كإنزالِ الملائكةِ والقرآنِ والمطرِ وغير ذلك، والهبوطُ ذكره حيثُ نَبَّهَ على الغَضِّ كما في الآية.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

قال اللهُ تعالى لآدمَ وحواءَ وإبليسَ: اهبطوا من الجنةِ إلى الأرضِ، وسيكون بعضكم عدواً لبعضٍ، ولكم في الأرضِ مكانٌ استقرارٌ إلى وقتٍ معلومٍ، وتمنَّعَ بما فيها إلى أجلٍ مسمى.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: الخطاب الإلهي في قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ هو لآدمَ وزوجه حواءَ وذريتهما، وإبليسَ، والأمر في الآية تكويني، وبه صار آدمَ وزوجه وإبليسُ من سكان الأرضِ. وفي الآية تقدم ذكر آدمَ وحواءَ وإبليسَ وإذا كان كذلك فقوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ أي: انزلوا من الجنةِ إلى الأرضِ.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنّهم قرناء أبداً، وأخبر اللهُ عما قال لهم متفرقاً.

اللطيفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال، أي: متعادين يعاديهما إبليسَ ويعاديانه، فالعداوة ثابتة بين الجنِّ والإنس لا تزول البتة.

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٨٣٢).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٣) الكشف: الزمخشري (٧٣/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، التفسير الكبير:

الرازي (٥٤/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٢١/٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٦/٢)، ومحاسن

التأويل: القاسمي (٣٩/٧)، والتحرير والتوير: ابن عاشور (٦٨/٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير

لِلدراسات القرآنية (ص: ٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢٢/٤).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وأما قول من يقول: الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل؛ بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومجرد التكلم بالشهادتين لا يُوجب انتقال الإنسان عن الظلم والجهل إلى العدل، فقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال من ضمير: ﴿أهبطوا﴾ المرفوع بالأمر التكويني فهذه الحال أيضاً تفيد معنى تكوينياً وهو مقارنة العداوة بينهم لوجودهما في الأرض، وهذا التكوين تأكّد به العداوة الجبلية السابقة فرسخت وزادت، والمراد بـ: ﴿لِبَعْضٍ﴾ البعض المخالف في الجنس، فأحد البعضين هو آدم وزوجه، والبعض الآخر هو إبليس، وإذ قد كانت هذه العداوة تكوينية بين أصلي الجنسين، كانت موروثاً في نسليهما، والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم ليتّهموا كل وسوسة تأتيهم من قبله، وقد نشأت هذه العداوة عن حسد إبليس، ثم سرّت وتشجرت فصارت عداوة تامة في سائر نواحي الوجود، فهي منبئة في التّفكير والجسد، ومقتضية تمام التّفافر بين النوعين، وإذ قد كانت نفوس الشياطين داعية إلى الشرّ بالجبلّة تعيّن أنّ عقل الإنسان منصرفٌ بجبلته إلى الخير، ولكنّه معرضٌ لوسوسة الشياطين، فيقع في شذوذ عن أصل فطرته، وفي هذا ما يكون مفتاحاً لمعنى كون النّاس يولدون على الفطرة، وكون الإسلام دين الفطرة، وكون الأصل في النّاس الخير، أمّا كون الأصل في النّاس العدالة أو الجرح فذلك منظورٌ فيه إلى خشية الوقوع في الشذوذ، من حيث لا يدري الحاكم ولا الراوي؛ لأنّ أحوال الوقوع في ذلك الشذوذ مبهمّة فوجب التّبصّر في جميع الأحوال.

المقصد الخامس: الدّنيا متاعٌ مشوبٌ بابتلاءٍ

ويدلّ على هذا المقصد الكريم قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

أولاً: معاني الكلمات في الآية^(٢):

الأرض: الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، ولا تجيء مجموعة في القرآن، ويعبر بها عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه.
مُسْتَقَرٌّ: قَرَّ في مكانه يَقَرُّ قراراً، إذا ثَبِتَ ثَبُوتاً جامداً، وأصله من القَرَّ، وهو البردُ، وهو يَقْتَضِي السُّكُونَ، والحر يَقْتَضِي الحَرَكَةَ، والاستقرار هو المكث، والإقرار: إثبات الشيء.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٥٧/١٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٨/٨).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٦٢، ٧٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٩/٨).

مَتَاعٌ: مادة الكلمة تدلُّ على الطول والامتداد والارتفاع، والمَتَاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقتِ، وكلُّ ما يُنتَفَعُ به من الأشياءِ على وجهِ ما، والتَّمَتُّعُ: نيل المَلذَّاتِ والمرغوباتِ غير الدَّائمة، والآية تنبيهٌ على أنَّ لكلِّ إنسانٍ في الدُّنيا تَمَتُّعاً مُدَّةً مَعْلُومَةً، وانتفاعاً بَعِيشٍ إلى انقضاء الأَجالِ^(١). إلى: حرف يحدُّ به النهاية من الجوانب الست.

حِينَ: الحِينُ: وقتٌ بُلُوغِ الشَّيْءِ وحُصُولِهِ، وهو مُبْهَمُ المعنى وَيَتَخَصَّصُ بالمُضَافِ إليه. والحِينُ عند العربِ من ساعةٍ إلى ما لا يُحصى عدده، وهو هنا يعني إلى انقضاء الدُّنيا، أي: إلى يوم القيامة، ويدلُّ لفظُ الحِينِ على الزمان، قليله وكثيره، وإن كان موضوعاً في الأغلب للتكثير، فالحِينُ اسمٌ كالوقتِ يصلحُ لجميع الأزمان كُلِّها، والحِينُ في الآية بمعنى الموتِ ومنتهى الأَجالِ. ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

خلاصة المعنى أنَّ الله قال لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا جميعاً من الجَنَّةِ إلى الأرضِ متعادين، ولكم في الأرضِ موضع استقرار تتمتعون وتنتفعون إلى حين انقضاء آجالكم. فقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: قرارٌ وأعمارٌ مضروبةٌ إلى آجالٍ معلومةٍ، قد جرى بها القلمُ، وأحصاها القدرُ، وسطرت في الكتابِ الأوَّلِ.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ المراد به: الوجود، أي: وجود نوع الإنسان وبخصائصه، وليس المراد به الدفن؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَتَاعٌ﴾ يُصد عن ذلك، ولأنَّ الشَّيَاطِينَ والجنَّ لا يُدفنون في الأرضِ. اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿حِينٍ﴾ تكثير؛ وقد نكر ولم يحدد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد، والمراد به زمن الحياة التي تخول صاحبها إدراك اللذات، وفيه يحصل بقاء الذات غير متفرقة ولا متلاشية ولا معدومة، وهذا الزَّمَنُ المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمَّى بالأجل، أي المدة التي يبلغ إليها الحيُّ بحياته في علم الله وتكوينه، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقرُّ والمتاع، وهذا إعلامٌ من الله بما قدره للنوعين، وليس فيه امتنانٌ ولا تكبيرٌ بهم.

(١) الكشاف: الزمخشري (٧٤/٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٢٦٧، ٨٣، ٧٥٧)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٦٥/٤)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦٠٣/٧)، والنكت والعيون: الماوردي (٢١٢/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٩/٨)، ومن أسرار اللُّغة في الكتاب والسنة: محمود محمد الطناحي (٤٧٠/٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٧/٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٢٨٩).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٦٩/٨).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ الدُّنْيَا وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإنَّ هذا نعيم قليل محشو بالآفات، منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] فأهل الجنة آمنون من الموت والنوم والنصب، واللُّغُوب، وانقطاع شيءٍ من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن، والهم والغم، والخوف، وسائر المكدرات والآفات، فإنَّ تقييم المصلحة إنَّما يكون بقدرٍ ما فيها من لذةٍ وراحةٍ ومنفعةٍ من حيث الكم والكيف، ويقدر دوامها للإنسان، ولا شكَّ أن مصلحة الآخرة أعظم من مصلحة الدنيا، ذلك أنَّ ما في الدنيا من لذائذ ومنافع وراحة لا يقاس بما في الآخرة كمًّا ولا كيفًا، فإنَّ لذائذ الدنيا مشوبةٌ بالمنغصات، وتافهةٌ من حيث الكيف والكم، أمَّا الآخرة فلذائذها خالصة من المنغصات والمكدرات، وفريدة من حيث نوعها وكيفيةها، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، وفيها رضوان الله ورؤية وجهه الكريم، والقرب منه في جنات النعيم، وكلُّ هذه الأمور العظام لا يساوي اليسير منها كلُّ نعيم الدنيا، وأمَّا من حيث الدوام فإنَّ سعادة الآخرة ولذائذها دائمة غير منقطعة، بينما نعيم الدنيا ولذائذها منقطعة قطعًا، فهي لا تتجاوز عمر الإنسان، إذا فرضنا أنَّه يتنعم في عمره كله، وأية نسبة بين سعادة مقدرة بعمر الإنسان المتناهي، وسعادة الآخرة الدائمة لمدة غير متناهية.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنَّ الدُّنْيَا وما فيها من اللذات والمشتهيات، فإنَّ هذا نعيم قليل زائل، محشو بالآفات، منقطع، بخلاف نعيم الآخرة.
٢. كلُّ ما يحدث في الوجود فهو مقدرٌ.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٦٦، ٤٥٨)، وأصول الدعوة: عبدالكريم زيدان (ص: ٢٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٢٤/٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٦٦).

المقصد السادس: الموت حقٌّ، وهو انتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فِيهَا تَحْيَوْنَ: الكناية عائدة إلى الأرض في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد في الأرض تعيشون

وفيهما تموتون ومنها تخرجون إلى البعث والقيامة.

تُخْرَجُونَ: ومنها تخرجون يوم القيامة للجزاء.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يخبر الله أنَّه جعل الأرض داراً لبنى آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم ومعاشهم وفيها مماتهم

وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلاً بعمله.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

لما أهبط الله تعالى آدم وزوجته إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم

فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله،

وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا، بعثهم الله وأخرجهم منها

إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة، وبناءً عليه فأصل الموت في لسان

العرب السكون، كما أن أصل الحياة الحركة، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد

الجنين في رحم أمه، والموت انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال،

وانتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ، والموت ليس بعدمٍ محض، ولا فناء صِرْف، وإنما هو انقطاع تعلق

الروح بالبدن و مفارقته و حيلولة بينهما، وتبدُّل حال، وانتقالٌ من دارٍ إلى دارٍ، وهو من أعظم

المصائب، وقد سماه الله مصيبة في قوله: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦] فالموت هو

المصيبة العظمى والرزية الكبرى، هو الخُطب الأفضع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره

وأبشع، وأنه الحارث الأهدم للذات، والأفطع للراحات، والأجلب للكريهات، فإنَّ أمراً يقطع

أوصالك، ويفرق أعضائك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وإنَّ يومه لهو

اليوم العظيم؛ لذلك فإنَّ ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجُّه في

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٤/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٥/١)، ومحاسن التأويل:

القاسمي (٤٠/٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٧/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٠/٧).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: القرطبي (ص: ١١ - ٢٧)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام

المنان: السعدي (ص: ٤٦٦)، والقيامة الصغرى: عمر سليمان الأشقر (ص: ١٧)، ورحلة إلى الدار الآخرة: محمود

المصري (ص: ١٠٣).

كلّ لحظةٍ إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إنّ الإنسان لا ينفكُّ عن حالتي ضيق وسعة ونعمة ومحنة؛ فإن كان في حال ضيق ومحنة، فذكر الموت يسهّل عليه بعض ما هو فيه؛ فإنّه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة، فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها. وأجمعت الأمة على أنّ الموت ليس له سنّ معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم؛ وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعداً لذلك، وأعظم من الموت الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلة التفكير فيه، وترك العمل له وإنّ فيه وحدهً لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر.

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. تدلّ الآية على أنّ الموتَ حتمٌ لازمٌ، لا مناص منه لكلّ حيٍّ من المخلوقات، ولا تمنع منه حصانة القلاع، ولا يحول دونه الحجاب، ولا تردّه الأبواب. وأنّه لا بُدَّ من استقرار هذه الحقيقة في النفس البشرية، حقيقة أنّ الحياة على هذه الأرض موقوتةٌ محدودةٌ بأجلٍ، فالموت حقٌّ على الإنس والجنّ.
٢. الموت هو مفارقة الروح البدن.
٣. أنّ الذي يتفكر في حال الموتى يتعظ؛ فهو صائرٌ إلى ما صاروا إليه.
٤. في الآية إثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

(١) القيامة الصغرى: عمر سليمان الأشقر (ص: ١٧)، وصحيح القصص النبوي: عمر سليمان الأشقر (ص: ١٨٦)، ورحلة إلى الدار الآخرة: محمود المصري (ص: ١٠٣).

المبحث الرابع

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٢٦-٣٠)

التدافع بين الصلاح والفساد سنةً كونيةً

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: نعمُ الله كثيرة لا تُحصى

المطلب الثاني: تقليد الآباء في القبيح صدُّ عن شرع الأنبياء الصريح

المبحث الرابع

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٢٦-٣٠)

التدافع بين بني آدم وإبليس مؤبداً مستمر

تمهيد وتوطئة:

يشتمل هذا المقطع القرآني على قصة الدين الذي كان هدى الله لبني آدم الأولين، وقد تضمن بيان الأسس العامة للدين الذي جاء به جميع رسل الله، آدم فمن أرسله الله من بعد آدم إلى أمهم، وهو الدين الذي بلغه كل رسول لأمته، وقد ختم الله تعالى ببعثة محمد (ﷺ) وبما أنزل عليه رسالاته للناس أجمعين.

وقد جاء هذا المقطع القرآني مُبتدئاً ببيان بدء رحلات امتحان بني آدم بمنة الهداية لصناعة الألبسة الساترة للسوءات وسائر الأجساد، وصناعة الرياش، وهو الأثاث الفاخر وكل ما فيه رفاهة للعيش، والهداية لما بقي من عذاب الله يوم الدين، من اعتقاد أو خلق أو عمل ظاهر أو باطن، وهذا الواقي شبيهة بالأكسية والدروع الواقية، والألبسة الساترة للعورات، وهو في الحقيقة خير وأعظم نفعاً للإنسان من الألبسة الساترة للأجساد، والواقية لها من ضرر الحر والبرد، وقبح انكشاف السوءات الجسدية، ذات المناظر المستكرهه التي يدعو كشفها إلى إشاعة الفاحشة، وتسافد الناس كالبهائم المهملة.

ثم حذر الله بني آدم من أن يفتتهم الشيطان، فيصدّهم أو يحولهم عن صراط الله، حتى لا يكونوا من أهل الجنة، بعد رحلة الامتحان في الحياة الدنيا على الأرض، كما فعل بأبويهم، إذ أوقعهما بحيله ووساوسه، حتى وقعا في معصية ربهما، فكان السبب في إخراجهما من الجنة. وخاطب الله في هذه الآيات الكريمات بني آدم بكثير من الشرائع والأحكام الدينية، إشعاراً بأن هذه التعليمات والبيانات الربانية قد تلقاها بنو آدم الأولون، ممّا أوحى الله به إلى آدم من هدى، باعتبار أن آدم هداه الله واجتباها، فهو أول نبي للناس يُبلغ هدى ربه وشرائعه وأوامره ونواهيهِ لعباده^(١).

مناسبة هذا المقطع القرآني لما قبله:

بعد أن أمر الله تعالى آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض مستقراً لهما، أبان أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في شؤون الدين والدنيا، ومن جملتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا، وذلك يقتضي شكر الله على نعمه العظيمة وعبادته بحق^(٢).

(١) معارج التفكير ودقائق التدبير: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (٤٣/٤).

(٢) التفسير المنير: الزحيلي (١٦٩/٨).

المطلب الأول: نعم الله كثيرة لا تُحصى

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأول: اللباس منزلٌ وفطرةٌ وزينةٌ وجمالٌ

يدلُّ عليه قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

أَنْزَلْنَا: النزولُ حقيقته انحطاطٌ من علوٍ إلى سفلى، فأنزل الله مع آدمَ وحواءَ شيئاً من اللباسِ مثلاً لغيره ثم توسع بنوهما في الصنعة استنباطاً من ذلك المثال، وقيل: أنزل من السماء أصل كلِّ شيءٍ عند هبوطهما.

لِبَاسًا: اللباس: يعم جميع ما يلبس ويستتر، يعني ما يلبس من الثياب وغيره.

يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ: أي: يستر عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها من أبيكم حتى اضطرأ إلى خصف الأوراق، واللباس الذي يؤاري السوءة هو كلُّ ما ستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح. رِيشًا: الريش: عبارة عن سعة الرزق ورفاهية العيش ووجود اللبس والتمتع، وأكثر أهل اللُّغة على أنَّ الريش ما يستتر من لباسٍ أو معيشةٍ وكلُّ شيءٍ يعيش به الإنسان من متاعٍ أو مالٍ أو مأكولٍ فهو ريش ورياش، لكن الرياش مختصٌّ بالثياب والأثاث، والريش قد يطلق على سائر الأموال. ثانيًا: سبب نزول الآية^(٢):

روي أنَّ العرب كانوا يطوفون بالبيت عراةً، ويقولون: لا نطوف في ثيابٍ عصينا الله فيها، وتفاوؤاً بالتعري من الذنوب، ويرون أنَّ ذلك أبلغ في الطاعة، وأعظم في القرية، فنزلت الآية؛ ولعله ذكر قصة آدمٍ مقدمةً لذلك حتى يُعلم أنَّ انكشاف العورة أوَّلُ سوءٍ أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبيهم.

ثالثًا: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

يتمن الله على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات، وهي السوات، والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهراً، فالأوَّلُ من الضروريات، والثاني: وهو الريش

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٥/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٨٨/١١)، والبحر المحيط: أبو حيان

الأندلسي (٢٨٣/٤، ٢٨٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤١/٧، ٤٠).

(٢) النكت والعيون: الماوردي (٢/٢١٣)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٣٥)، والانحرافات العقدية والعلمية: علي الزهراني (٣١/١).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٠/٧، ١٢٩/٦٠٢)، والتفسير المنير: الزحيلي (٨/١٦٩).

من التكملات والتحسينات والزيادات، والرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب، والرياش: المال، اللباس، والعيش، والنعيم، والرياش الزينة والجمال^(١).
 رابعاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

في نظم الآية وعلاقتها بما قبلها من الآيات، وجهان: الأول: أن الله لما بيّن أنه أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض، وجعل الأرض لهما مستقراً بيّن بعده أنه تعالى أنزل كل ما يحتاجون إليه في الدّين والدُّنيا ومن جعلتها اللباس الذي يحتاج إليه في الدّين والدُّنيا. والوجه الثاني: أن الله لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها، أتبعه بأن بيّن أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عورتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر، فالله تعالى لما ذكر قصة آدم، وفيها ستر السوءات وجعل له في الأرض مستقراً ومتاعاً ذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يوارى السوءات والرياش الذي يمكن به استقرارهم في الأرض، واستمتاعهم بما حولهم، فهذا الآية واردة على وجه الاستطراد عقيب ما ذكر من ظهور السوءات وخصف الورق عليها، ليبين إنعامه على ما خلق من اللباس، فالله ذكرهم بنعمته في تبوئة الدار والمستقر في الأرض، وكسوتهم لباساً يسترهم به سوءاتهم، بعد ما نزع عنهما لباس الجنّة، وذلك لما هم بعد الإهباط، من الحاجة إلى اللباس والمعاش.

خامساً: لطائف التفسير ونكات التأويل^(٣):

اللطفية الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ خطابٌ موجّهٌ لجميع بني آدم المؤهلين للخطاب منذ بدء وجودهم في الأرض حتى آخر كائنٍ منهم، وقد دلّ السياق في النصّ على أنّ هذا الخطاب قد أنزل على آدم من ضمن ما أنزل عليه من هدى.

اللطفية الثانية: قوله: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي: جعلناه لكم بتدبيرات سماوية، وأسباب نازلة؛ فلما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر، والمطر ينزل، جعل ما هو المسبب بمنزلة السبب، ولا حاجة إلى إخراج لفظ النزول عن معناه المعروف لغةً، فإنّ اللباس ينزل من ظهور الأنعام، فامتّن الله سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث، وهذا معنى إنزاله، فإنّه ينزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأوبار والأشعار، وينتفع به بنو آدم في اللباس

(١) النكت والعيون: الماوردي (٢/٢١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٧).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٤/٥٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبى (١/٢٩٩)، والبحر المحيط: أبو

حيان الأندلسي (٤/٢٨٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٤٠).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٣٥)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٤٠)، ومعارج التفكير ودقائق

التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (٤/١٥٥).

والرياش، فقد أنزلها عليهم، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب، فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان.

اللطيفة الثالثة: العطف في قوله: ﴿لِيَأْسَا﴾ و﴿رِيشًا﴾ حيث عطف الريش على اللباس، والعطف يقتضي المغايرة، وأن الريش قسيم للباس لا قسم منه.

اللطيفة الرابعة: استدلال بعض الفقهاء بهذه الآية على وجوب ستر العورة.

اللطيفة الخامسة: في قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ استعارة؛ وذلك لأن الريش لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة، هو مستعار من ريش الطير؛ لأنه زينته، ويقال للباس الزينة ريش.

اللطيفة السادسة: في الآية إشارة تؤذن بعظيم النعمة، وهي أن اللباس آية من آيات الله تدل على علمه ولطفه، وتدل على وجوده، وفيها آية أخرى، وهي الدلالة على علم الله تعالى بأنه ستكون أمة يغلب عليها الضلال فيكونون في حجب عراة، فلذلك أكد الوصاية به.

اللطيفة السابعة: ضمير الغيبة في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ التفتت، أي: جعل الله ذلك آية لعلمك تتذكرون عظيم قدرة الله وانفراده بالخلق والتقدير واللفظ، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكر من بني آدم، فكأنه غائب عن حضرة الخطاب، على أن ضمائر الغيبة في مثل هذا المقام في القرآن كثيراً ما يقصد بها مشركو العرب^(١).

سادساً: بيان المقصد من الآية^(٢):

هذا إخبار من الله أنه أنزل على بني آدم لباسين لباساً يستر عوراتهم، ولباساً يزينهم ويتجلون به، والريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين، لباساً يوارى سوءاتكم، ولباساً يزينكم؛ لأن الزينة غرض صحيح، كما قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]. فوصف اللباس بشيئين: مواراة السوءة، والزينة، فالريش بمعنى الزينة؛ لأنه زينة الطير فاستعير منه، أي: أنزلنا لباسين: لباس مواراة ولباس زينة، ومعنى إنزال اللباس أن الله أنزل المطر، وبالمطر تتكون الأشياء التي منها يحصل اللباس، فصار كأنه تعالى أنزل اللباس، وتحقيق القول أن الأشياء التي تحدث في الأرض لما كانت معلقة بالأمور النازلة من السماء صار كأنه تعالى أنزلها من السماء.

وهذه الآية تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع منذ نزوله إلى الأرض، وفي هذا تعريض بالمشركين إذ جعلوا من

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبى (٢٩٨/١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥٧/١٢)، والبحر المحيط:

أبو حيان الأندلسي (٢٨٣/٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٦، ٧٥/٨).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٤/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٥/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤١/٧).

قرباتهم نزع لباسهم بأنَّ يحجُّوا عُرَاءً، كما أخبر الله عنهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]؛ فخالفوا الفِطْرَةَ، وقد كان الأمم يحتفلون في أعياد أديانهم بأحسن اللباس، كما أخبر الله عن موسى (عليه السلام) وأهل مصر: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. وقد كان ذلك اللباس الذي نزل به آدم هو أصل اللباس الذي يستعمله البشر، وتيسير اللباس لبني آدم، وبأنته منزلٌ على النَّاس من عند الله هو أوَّل مظاهر الحضارة^(١). ففي هذه الآية خاطب الله جميع بني آدم، مُمتنّاً عليهم بأنَّه قد أنزل عليهم لباسين: اللباس الأوَّل: هو اللباس المادي الذي يسترون به أجسادهم مما يؤذيها، ويستتر سواتهم تجميلاً لهم وتزييناً وتحسيناً، وحماية لهم مما يشينهم في عيون الناظرين إليهم من النَّاس، وتكريماً لهم عن أن يكونوا كالدُّواب والأنعام بادي السَّوءات، وأنزل عليهم ريشاً وهو الفاخر من الثياب والأثاث لمنازلهم ومحلات إقاماتهم، وحلَّهم وترحالهم، وما يكون وسيلة رفاهيتهم في يقظتهم و في منامهم، واللباس الثاني: هو اللباس المعنوي الذي يقبهم بهديه وصراطه ومنهاجه شقاء الحياة الدُّنيا، وعقاب الله فيها، ويقبهم عذاب الله يوم الدِّين إذا عملوا به واتبعوه مؤمنين مسلمين. وهذا اللباس هو الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده، وهو الإسلام، فإذا لبسوه وقاهم شقاء الدُّنيا وعذاب الآخرة، فكان لهم لباس تقوى^(٢).

سابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٣):

١. تدلُّ الآية على عظيم نِعَم الله تعالى بهذه النعم التي عدَّها.
٢. أنَّها تدلُّ على وجوب ستر العورة.
٣. تدلُّ الآية على أنَّ الله كما أنعم بنِعَم الدُّنيا، أنعم بنِعَم الدِّين، فإنَّ الأقرب أنَّ لباس التقوى العلم النافع والعمل الصالح، فكأنَّه ضم إلى نِعَم الدُّنيا نِعَم الدِّين التي بها يحصل الفوز بالثواب، فتحصل نِعمة الدارين.

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٤/٨).

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبير: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٥٤/٤).

(٣) محاسن التأويل: القاسمي (٤٤/٧).

المقصد الثاني: أعمال القلوب خير من أعمال الجوارح

ويدل عليه قول: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ذَلِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ: كلُّ شيءٍ سترٍ شيئاً فهو لباسٌ، واستعارَ للتقوى لباساً توسعاً، ولباس التقوى أي:

خشية الله، أو الإيمان، أو السمات الحسن، والكل متقارب.

خَيْرٌ: أصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم.

آيَاتِ: الآية: هي العلامة الظاهرة، وأصل الآية أنها مشتقة من التأبي الذي هو التثبت والإقامة

على الشيء، ويقال لكل جملة من القرآن دالة على حكم آية، ومعنى هذه الفاصلة: ﴿ذَلِكَ﴾ أي:

إنزال اللباس: ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ من آيات الله الدالة على فضله ورحمته على عباده ﴿لَعَلَّهُمْ

يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

لَعَلَّهُمْ: لفظة لعل: تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

لما بين الله تعالى ساتر الظاهر وزينته، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته، وهو لباس

التقوى، فهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوات، وخصف الأوراق عليها،

إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري، وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً

بأن التستر بابٌ عظيمٌ من أبواب التقوى.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

معنى الآية: ولباس التقوى خيرٌ لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله، مما خلق من

اللباس والرياش الذي يتجمل به؛ لأنَّ الظاهر محلُّ نظر الخلق، والباطن محلُّ نظر الرب تعالى،

والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة؛ فلباس التقوى التي هي امتثال ما أمر الله به،

واجتتاب ما نهى عنه خيرٌ من هذا اللباس الحسي؛ ذلك المذكور من اللباس من آيات الله الدالة

على قدرته، لعلكم تتذكرون نعمه عليكم فتشكرونها، والمراد أنَّ اللباس الذي أنزله الله ليوارى

(١) الكشاف: الزمخشري (٧٤/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: الفيضاي (٣٣٥/١)، والتفسير الكبير:

الرازي (٥٦/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٣، ٤٤/٧)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الحلي (٩/٤)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (١٧٠/٢). ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب

الأصفهاني (ص: ١٠١)، والبحر المحيط: أبو حيان الأندلسي (٢٨٢/٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٦٦٤).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٤/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٣/٧).

(٣) محاسن التأويل: القاسمي (٤٤/٧).

سوّانكم هو لباس التقوى، وعلى هذا التقدير فلباس التقوى هو اللباس الأول وإثما أعاده الله لأجل أن يخبر عنه بأنه خير؛ لأنّ جماعة من أهل الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت^(١).

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٢):

اللطيفة الأولى: قول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ مرفوع بالابتداء، وخبره جملة: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خيرٌ، وذلك صفته، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خيرٌ.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ اسم الإشارة في الآية لتعظيم المشار إليه، وهو تقوى الله وخشيته، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسوء؛ لأنّ مواراة السوء من التقوى، تفضيلاً له على لباس الزينة، ولباس التقوى خيرٌ لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ تشبيهٌ؛ حيث أُطلق على التقوى اللباس؛ إمّا بتشبيهه التقوى بلباس يُلبس، وإمّا بتشبيهه ملازمة تقوى الله بملازمة اللباس للباسه، كقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ويكون المراد بالتقوى: تقوى الله وخشيته، وهذا المعنى أليق بالآية، ويكون استطراداً للتحرّيز على تقوى الله، فإنّها خيرٌ للناس من منافع الزينة، فقد شُبّه العمل بأحكام الدين بارتداء الألبسة على الأجساد بجامع الوقاية في كلّ منهما.

اللطيفة الرابعة: أضيف اللباس إلى التقوى في قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ كما أضيف إلى الجوع في قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] أي: هو استعارة مكنية بأنّ يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس، تشتمل على جميع بدنه، بحسب الورع والخشية من الله، اشتمال اللباس على اللباس؛ فقد أُطلق على أحكام الدين الذي اصطفاه الله لعباده لفظ: ﴿لِبَاسٌ﴾ على سبيل الاستعارة، وأضيف لفظ ﴿لِبَاسٌ﴾ إلى ﴿التَّقْوَى﴾ المراد بها اتقاء عذاب الله بالعمل بأوامر الله ونواهيه ووصاياهم لتمييزه عن اللباس الذي يوارى السوءات الجسدية، والذي يقي من أذى الحر والبرد، واللباس الذي يقي من بأس المقاتلين، كالدرّوع والمغافر.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٥/١٤).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٤/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٦/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٣، ٤٤/٧).

التحرير والتتوير: الطاهر ابن عاشور (٧٥/٨)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة

الميداني (١٥٥/٤).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري: "وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ استشعارُ النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمت الحسن؛ لأنَّ مَنْ اتقى الله كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يُرى عنه ما يكرهه من عبادته مستحيباً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديته، ورُئيت عليه بهجة الإيمان ونوره". فقوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: ولباس الورع والخشية من الله خير ما يتزين به المرء؛ فإنَّ طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر؛ فإنَّ الإسلام دين الطهارة، وطهارة الظاهر فرع، وطهارة الباطن أصل، وطهارة الظاهر جزء من طهارة الباطن^(٢)، وكما أنَّ طهارة الظاهر شرطٌ لصحة الصلوة، فكذلك طهارة الباطن شرطٌ لدخول الجنَّة.

وقد عاتب الفخر الرازي^(٣) الفقهاء في ذلك فقال: "إنَّ الفقهاء ظنوا أنَّ الذي ذكره هو بيان التكاليف، وليس الأمر كذلك؛ فإنَّ أعمال المكلفين قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وكتب الفقه مشتملةً على شرح أقسام التكاليف المتعلقة بأعمال الجوارح، فأما التكاليف المتعلقة بأعمال القلوب فلم يبحثوا عنها البتة، ولم يصنفوا لها كتباً وأبواباً وفصولاً، ولم يبحثوا عن دقائقها، ولا شكَّ أنَّ البحث عنها أهم والمبالغة في الكشف عن حقائقها أولى؛ لأنَّ أعمال الجوارح إنما تُراد لأجل تحصيل أعمال القلوب، والآيات الكثيرة في كتاب الله ناطقةٌ بذلك^(٤). وقد صرح أيضاً بأنَّ المقصود من جميع الأعمال تنوير القلب بمعرفة الله وتطهيره عما سوى الله، والنية صفة القلب، والفعل ليس صفة القلب، وتأثير صفة القلب أقوى من تأثير صفة الجوارح في القلب، وأنَّه لا معنى للنية إلا القصد إلى إيقاع تلك الأعمال طاعةً للمعبود وانقياداً له، وإنَّما يراد الأعمال ليستحفظ التذكر بالتكرير، فيكون الذكر والقصد الذي في القلب بالنسبة إلى العمل كالمقصود بالنسبة إلى الوسيلة، ولا شكَّ أنَّ المقصود أشرف من الوسيلة، وأنَّ القلب أشرف من الجسد،

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٣٧١/١٢)، والنكت والعيون: الماوردي (٢١٤/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٦/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٧/٢)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٤١/٣)، وصفوة التفسير: الصابوني (٤٤٠/١).

(٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام: الصابوني (٣٨٩/١، ١٥٧/٢).

(٣) هو: محمَّد بن عمر بن الحسين الرازي، ولد في "الري" سنة (٥٤٤هـ)، وتوفي في "هراة" سنة (٦٠٦هـ)، مفسر، وأصولي، وفقه شافعي، من أئمة الأشاعرة، وكان من البارعين في علم الكلام، من كتبه: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. ينظر: وفيات الأعيان (٢٤٨/٤)، وشذرات الذهب (٢١/٥)، وطبقات الشافعية (٨١/٨).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٢١٢/١٦).

ففعله أشرف من فعل الجسد^(١)، فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بُدَّ أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي تصديق لما في القلب، ودليل عليه وشاهد له، وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له؛ لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح، فإنَّ علم الباطن، الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها، هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة^(٢). فالمقصود تقوى القلوب لله، وهو عبادتها له وحدَه دون ما سواه بغاية العبودية له، والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص، وهذه ملة إبراهيم الخليل، وهذا كلُّه مما يُبين أنَّ عبادة القلوب هي الأصل^(٣). وأكَّد ابنُ القيم^(٤) هذا المعنى بقوله: "والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح"^(٥). وفي الصحيح أن رسولَ الله (ﷺ) قال: "ألا وإنَّ في الجسد مُضغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"^(٦). وفي الحديث إشارة إلى أنَّ صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه المحرمات واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإذا كان قلبه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوق للشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلبُ فاسداً، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب، ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، والأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإنَّ كان الملكُ صالحاً كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم، وهو السالم من الآفات والمكروهات كلها، وهو القلب الذي ليس

(١) التفسير الكبير: الفخر الرازي (٦/٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٤٤/٧).

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٨٥/١٧).

(٤) ابن القيم: محمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي، المعروف بـ"ابن قيم الجوزية" ولد بدمشق سنة (٦٩١هـ)، عالم في الفقه والحديث والتفسير والملل والنحل، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره. مات بدمشق سنة (٧٥١هـ)، من مؤلفاته: زاد المعاد في هدي خير العباد، والصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. ينظر: ابن قيم الجوزية: بكر أبو زيد (ص: ١٧)، والوافي بالوفيات: الصفدي (٢/٢٧٠)، وذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب (٤٤٧/٢).

(٥) مفتاح دار السعادة: ابن قيم الجوزية (١/٥٤٠).

(٦) صحيح البخاري كتاب الإيمان. باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: (٥٢)، (ص: ١٧).

فيه سوى محبة الله وما يحبه الله، وخشية الله؛ لذلك لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، والمراد باستقامة إيمانه استقامة أعمال جوارحه؛ فإن أعمال جوارحه لا تستقيم إلا باستقامة القلب، واستقامة القلب أن يكون ممثلاً من محبة الله، ومحبة طاعته، وكراهة معصيته، ولا صلاح للقلوب حتى يستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلى من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى قول: (لا إله إلا الله) فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تأله وتعرفه وتحبه وتخشاه هو الله وحده لا شريك له، فإنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها كلها لله، وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله، فسد، وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب، ومعنى هذا أنه يلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريد لم تتبع الجوارح إلا فيما يريد الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكفت عما يكرهه^(١)، وخص القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه، والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه^(٢). وبناءً عليه فإن أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع^(٣). ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله، وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضوع؛ فإنها الدين كله^(٤).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهداف وهدايات^(٥):

١. أن اللباس نوعان: ظاهري يستر به العبد عورته، ولباس باطني وهو التقوى الذي يستمر مع العبد، وهو جمال القلب والروح.
٢. يؤخذ من الآية أن الأصل في الاتقاء والوقوع هو ما كان بالقلب؛ لأنه عماد البدن، فالتقوى محلها القلب، وصلاح القلب أصل صلاح الجسد.
٣. أن التقوى شعور في الضمير، وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة، وتصل الإنسان بالله في سره وجهره.
٤. أن التقوى هي مناط الاعتقاد والعمل، وهي التي تقيء بالقلوب إلى السبيل الصالح.

(١) جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي (ص: ٩٩، ٩٨).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١/٢٣١).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٢٩٧).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٠/٦٥٩).

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١/٢٣٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية (ص: ١٥٣) والعقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٢٧).

٥. الأصل في خطاب القرآن أنه موجهٌ إلى القلب؛ فأول جارحةٍ تخاطب بالقرآن هي القلب؛ فإن أنصت القلب أنصت تبعاً له بقية الجوارح، وإن أعرض كانت كالرعية بلا راعي.
٦. أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدون القلب.
٧. أن المقصود بالدعوة الإسلامية وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة الله وحدَه، والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح؛ فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده^(١).
٨. أن القلب هو المضغة الذي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد.

المقصد الثالث: التحذير الإلهي من فتنة الشيطان

لقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِيَاسَهُمَا...﴾ [الأعراف: ٢٧]

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(٢):

لَا يَفْتِنَنَّكُمُ: الفتنة: الاختبار والمحنة، وفتون الشيطان حصول آثار وسوسته، وأصل الفتون عرض الذهب على النار وتخليصه من الغش، ثم أتى في القرآن بمعنى المحنة، وأصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور وغير ذلك، والمعنى: لا يمتحنكم بأن يمنعكم دخول الجنة باغوائكم، كما امتحن أبويكم بأن أخرجهما منها.

الشَّيْطَانُ: الشيطان: اسم لكل متمرّد عاتٍ؛ سُمّي شيطانا لِسُطُونِهِ عن الخير؛ أي: تباعده.

مِنَ الْجَنَّةِ: في هذه الآية حجة لأهل السنة في أن الجنة التي أُخرج منها آدم هي جنة الخلد التي وعد المتقون، ويدخلونها في الآخرة، خلافاً لمن قال: إنّها جنة أخرى.

يَنْزِعُ: النزع أخذ الشيء بسرعة وقوة، وفيه إشارة إلى أن من اتبع الشيطان تزول نعمه بسرعة وقوة لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِمَهُمَا: يرى آدم سوءة حواء، وترى حواء سوءة آدم^(٣).

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١/٣، ٤١/٤١، ١٢٣٤)، وفن التدبير في القرآن الكريم: عصام بن صالح العويد (ص: ٣١).

(أ) الكشاف: الزمخشري (٢/٧٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل البيضاوي (١/٣٣٦)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/٥٦)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/١٨٦)، وياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن (ص: ١٧٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٦/٤٣٢)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٧٧)، والمجموع شرح المهذب: النووي (٣/٣٢٣)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١/٢٧٠).

(ب) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٥٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٥/٢٤٢)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٢/٦٦٦).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

لما كان المقصود من ذكر قصص الأنبياء حصول العبرة لمن يسمعها، فكأن الله لما ذكر قصة آدم، وبيّن فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان؛ وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيدته، ولطف وسوسته، وشدة اهتمامه، إلى أن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة، فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى، فبهذا الطريق حذر الله بني آدم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان، فقال: ﴿لَا يَتَمَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ فيترتب عليه أن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم فترتب عليه خروجها منها. والآيات الثلاث من قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾، وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾، وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ متصلة تمام الاتصال بقصة فتنة الشيطان لآدم وزوجه، وهذا الخطاب يشمل المؤمنين والمؤمنين، ولكن الحظ الأوفر منه للمؤمنين؛ لأن حظ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنهم موافقون في شؤونهم لمرضاة ربهم، وأمّا حظ المشركين فهو الإنذار، بأنهم كافرون بنعمة ربهم، معرضون لسخطه وعقابه، وفي هذه الآية أعيد خطاب بني آدم، فهذا النداء تكلمة للآي قبله، بُني على التحذير من متابعة الشيطان إلى إظهار كيدته للناس من ابتداء خلقهم، إذ كاد لأصلهم.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يحذر الله بني آدم من إبليس وقبيله، ومبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، فقال: يا بني آدم لا يُغرنكم الشيطان بتزيين المعصية بترك اللباس الحسي لستر العورة، أو ترك لباس التقوى؛ فقد خدع أبويكم بتزيين الأكل من الشجرة حتى كان مآل ما زينته لهما أن أخرجهما من الجنة، وبدت لهما عوراتهما، والآية خطاباً إلهياً توجه إلى من كان من العرب يطوف بالبيت عرياناً، فقيل لهم: لا يفتنكم الشيطان بغروره كما فتن أبويكم من قبل حتى أخرجهما من الجنة، ليكون إشعارهم بذلك أبلغ في الزجر من مجرد النهي، أي: لا يخذعنكم عن دخول الجنة، بنزع لباس الشريعة والتقوى عنكم.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٦/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٧)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٦/٨).

(٢) النكت والعيون: الماوردي (٢١٥/٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٨/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٤/٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: ابتدئ الخطاب بالنداء: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ ليقع إقبالهم على ما بعده بشرائش قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجباً، بعد الفراغ من ذكر قصة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان؛ وذلك أن شأن الذرية أن تتأثر لأبائها، وتعادي عدوهم، وتحترس من الوقوع في شركه. ولما كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنة منة عليه، وقد تقلدها بنوه، خوطب الناس بشمول هذه المنة لهم بعنوان يدل على أنها منة موروثه، وهي أوقع وأدعى للشكر، فالنداء بعنوان بني آدم فيه زيادة التثويه بمنة اللباس توكيداً للتعريض بحماقة الذين يحجون عُراة، وقد نهوا عن أن يفتنهم الشيطان.

اللطيفة الثانية: النهي في قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ معناه: أي: لا تمكّنوا الشيطان من أن يفتنكم، أي: النهي عن طاعته واتباعه والافتتان به، وهذا من مبالغة النهي، فالمعنى: لا تطيعوا الشيطان في فتنه فيفتنكم، ومثل هذا كناية عن النهي عن فعل والنهي عن التعرض لأسبابه.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبُوئِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ نعت لمصدرٍ مقدر، أي: لا يفتنكم فتنةً مثل إخراج أبويكم من الجنة.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في موضع نصب على الحال، والمقصود من هذه الحال تفضيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سواتهما؛ لأنّ انكشاف السوءة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف الناس، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن ينزع عنهما لباسهما أي: الظاهر بسبب نزع لباس التقوى ليريهما سواتهما الظاهرة الدالة على السوءة الباطنة، فأضاف نزع اللباس إلى الشيطان، وإن لم يتول ذلك؛ لأنّه كان بسبب منه فأسند إليه فلما كان نزع لباسهما بوسوسة الشيطان وغروره أسند إليه.

اللطيفة الخامسة: التعبير عمّا مضى بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ لاستحضار الصورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين، فأتى بالمضارع حكاية للحال الماضية استحضاراً للصورة العجيبة.

اللطيفة السادسة: إسناد الإخراج والنزع والإراءة إلى الشيطان مجاز عقلي، مبني على التسامح في الإسناد بتنزيل السبب منزلة الفاعل، فإسناد النزع إلى الشيطان للتسبب.

اللطيفة السابعة: اللام في قوله: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِمَهُمَا﴾ لام التعليل الادّعائي؛ لأنّه لما أسند الإخراج والنزع والإراءة إليه على جهة الاتساع، فجعل كأنه فاعل الإخراج ونزع لباسهما وإراءةهما

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٦/١)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٧٨/٢)، ومحاسن التأويل:

القاسمي (٤٥/٧)، والتحرير والتتوير: الطاهر ابن عاشور (٧٧، ٧٦/٨).

سوّاتهما، ناسب أن يجعل له غرض من تلك الأفعال، وهو أن يُريهما سوّاتهما ليتم ادّعاء كونه فاعل تلك الأفعال المضرة، وكونه قاصداً من ذلك الشناعة والفضاعة، كشأن الفاعلين أن تكون لهم عللٌ غائيةٌ من أفعالهم إتماماً للكيد، وإنما الشيطان في الواقع سببٌ لرؤيتهما سوّاتهما، فانتظم الإسناد الادّعائي مع التعليل الادّعائي، فكانت لامُ العلة تقويةً للإسناد المجازي، وترشيحاً له.

اللطيفة الثامنة: تأكيد الخبر بحرف التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن

الحذر من الشيطان وفتنته منزلة من يترددون في أن الشيطان يراهم، وفي أنهم لا يرونه.

اللطيفة التاسعة: ظاهر الآية يدلُّ على أن الله إنما أخرج آدمَ وحواءَ من الجنة عقوبةً لهما على تلك الزلة، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يدلُّ على أن الله خلقهما لخلافة الأرض، وأنزلهما من الجنة إلى الأرض لهذا المقصود والجمع بينهما، أنه ربما حصل لمجموع الأمرين^(١).

اللطيفة العاشرة: استدلالٌ بهذه الآية على وجوب ستر العورة، واستدلالٌ بالآيتين أيضاً من قال: إنَّ

العورة هي السوأتان خاصة.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

في الآية شبه الفتون الصّادر من الشيطان للنّاس بفتنه آدمَ وزوجّه، إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه، فأخرجهما من نعيم كانا فيه، تذكيراً للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم، وشملت كل أحدٍ من النّوع، إذ حُرّم من النّعيم الذي كان يتحقق له لو بقي أبواه في الجنة وتناسلا فيها، وفي ذلك تذكيرٌ بأنّ عداوة البشر للشيطان موروثَةٌ، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيدِهِ، واللباس الذي نزع منهما هو من ثياب الجنة؛ لأنّ إطلاق اللباس يقتضيه، والمقصود من هذا الكلام تأكيدُ التحذيرِ لبني آدمَ؛ لأنّه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حقّ آدمَ مع جلالة قدره إلى هذا الحدِّ، فكيف يكون حال آحاد الخلق، وفي الآية إشارة إلى أنّ الشيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدمَ؛ لأنّه يسرّه أن يراه في حالة سوءٍ وفضاعةٍ. وتحريش الشيطان بين النّاس، وكون إبليس يضع عرشه على البحر، ويبعث سرايا فيفتنون النّاس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة، كلُّ ذلك معروف ثابت في الشرع، فالآية تحذير لبني آدمَ أنّ يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم بأنّ يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتتقادون له.

(١) الكشف: الزمخشري (٧٤/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٧/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٦/١)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٧٨/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٧٩، ٧٨/٨)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٦/٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٥٧/١٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٧١٣)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٨، ٧٧/٨).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. في الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة.
٢. أن في الآية تحذيراً من زوال النعمة، كما نزل بآدم (عليه السلام).
٣. أن شرع آدم (عليه السلام) يلزمنا؛ فشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ أو معارض.
٤. أن كثيراً من أعوان الشيطان يدعون إلى نزع اللباس الظاهري؛ لتتكشف العورات، فيهون على الناس فعل المنكرات، وارتكاب الفواحش.
٥. أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المادة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، وقد أقسم للوالد آدم أنه له لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا.

المقصد الرابع: رؤية الجن في الدنيا ممكنة جائزة

يدل على ذلك الملحظ العقدي قوله: ﴿إِنَّه يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية:

إِنَّه: يعني إبليس.

قَبِيلُهُ: القبيل هو بمعنى القبيلة، للدلالة على أن له أنصاراً ينصرونه على حين غفلة من الناس، وفي هذا المعنى تقريب حال عداوة الشياطين بما يعهده العرب من شدة أخذ العدو عدوه على غرة، والقبيل: الجماعة يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى، والقبيل اصطلاحاً: اسم لما اجتمع من شتات الخلق؛ ولذلك فُسر بالجنود، والقبيلة: الجماعة من أب واحد^(٢). فقوله: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أي: إبليس ومن كان من نسله وجيله، وأصحابه وأعوانه من الشياطين وجنوده، وعن مجاهد قال: "وقبيلُهُ: الجنُّ والشياطين". والجنُّ عالم مستقل، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك، ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر، ويخالفون الإنسان في أمورٍ أهمها التكريم الإلهي وأن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان، وإنما سمِّي الجنُّ جنًّا لاجتنائهم واستتارهم عن العيون، والجنُّ أجسامٌ لطيفةٌ، تتشكل بأشكال مختلفة،

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٦/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١٣/١)، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة: الجيزاني (ص: ٢٣٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٩/٨).

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٦/٢).

وتظهر منها أفعال عجيبة، مكلفون، منهم المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي. وكان النَّاسُ قبل الإسلام يعظمون أمرَ الجنِّ، ويرون كلَّ ما وقع من الخوارق من فعلهم وتصرفهم^(١).
لَا تَرَوْنَهُمْ: أي: من مكان لا ترونهم فيه.

ثانياً: مناسبة هذا المقطع من الآية لما قبله^(٢):

الآية واقع موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده؛ لأنَّ شأن الحذر أن يرصد الشيء المخوف بنظره ليحترس منه إذا رأى بوادره، فأخبر الله النَّاسَ بأنَّ الشياطين ترى البشر، وأنَّ البشر لا يرونها حال الفتنة، إظهاراً للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النَّاسِ منهم، فإنَّ جانب كيدهم قويٌّ متمكِّنٌ وجانب حذر النَّاسِ منهم ضعيفٌ، لأنَّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري، فالآية تعليلٌ لما قبلها مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذيرهم من الشيطان؛ لأنَّ من كان بهذه المثابة كان عظيم الكيد، وكان حقيقاً بأنَّ يحترس منه أبلغ احتراس.
ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

إنَّ الشيطان وذريته يرونكم وبشاهدونكم، وأنتم لا ترونهم، ولا تشاهدونهم فيلزمكم الحذر منه ومن ذريته.

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٤):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ جملة استئناف لتعليل النهي، وتأكيد للتحذير من فتنته، بأنَّه بمنزلة العدوِّ المداجي، يكيذكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون.
اللطيفة الثانية: قال بعض السلف: "إنَّ عدواً يراك ولا تراه، لشديد المؤنة، إلا من عصم الله؛ كأنَّ في الكلام حذفاً تقديره: جدير بأنَّ يحذر وينتقى.
اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أعاد الكناية ليحسن العطف.

(١) تفسير الإمام مجاهد بن جبر (ص: ٣٣٥)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٧/١٤)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٦/٧)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٦/١)، وشرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني (٥٠٠/٢)، والمنهاج شرح صحيح مسلم: النووي (٢٩/٥)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦١٠، ٦٥١/٧)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٧)، وعالم الجنِّ والشياطين: عمر سليمان الأشقر (ص: ٩).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢٧٨/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢٥/٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٩/٨).

(٣) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٥٧/١٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥٧٤/٧)، والدر الثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٤٢/٣)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٧)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢٦/٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٧).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

استدل بالآية بعض المعتزلة على أن الجن لا يرون، وأن من قال: إنهم يرون فهو كافر. ولذا قال الزمخشري: "فيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة"، وقال الرازي: "الآية تدل على أن الإنس لا يرون الجن؛ لأن قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص". وقال ابن عاشور: "الآية ابتداء مكان مبهم تنتفي فيه رؤية البشر، أي: من كل مكان لا ترونهم فيه، فيفيد: إنه يراكم وقبيلُه وأنتم لا ترونه قريباً كانوا أو بعيداً، فكانت الشياطين محجوبين عن أبصار البشر، فكان ذلك هو المعتاد من الجنسين، فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محال". قلت: هذه دعوى مجردة؛ ولم يصح لها مستند؛ فهي مردودة، وقد استدل أيضاً جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبداً، فإن انتفاء الرؤية ممناً له في وقت رؤيته لنا، لا يستلزم انتفاءها مطلقاً، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها، فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض، وأجاب أهل السنة أيضاً بأنه قد ثبتت رؤيتهم، بالأحاديث الصحيحة المشهورة، وهي لا تعارض ما في الآية؛ لأن المنفي فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا، وقد أوضح العلماء رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة، وذلك أن الملائكة والجن والشياطين أجسام قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافاً يكون بين الأنواع، ويمكن أن تشاهد هذه الأجسام، وإن كانت غير محسوسة، وهذه المشاهدة على ضربين: الأول: إما على سبيل التمثيل، كقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مریم: ١٧]، وكما كان النبي (ﷺ) يرى جبريل في صورة الصحابي الجليل يحيى بن خليفة الكلبى. والقسم الآخر: أن يكون للملائكة بدن مخصوص، كما أن نفوسنا غير محسوسة، ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها، فكذلك الملائكة، وكذا في الجن والشياطين، قال البيضاوي: "ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا"^(٢). وبناءً على دلالة الآية فإن الإنس يمكن أن يرون الجن؛ لأن الله إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى، وقد جاء في رؤيتهم أخباراً صحيحة، فقد خرج البخاري عن أبي هريرة

(١) الكشف: الزمخشري (٧٥/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٥٨/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٧٨/٢)، وفتح

البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢٦/٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٧)، والتحريير

والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٠/٨)

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٦/١).

(ﷺ) يقول: قال رسول الله (ﷺ): "إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنْ الْجَنِّ تَقَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ، لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَكَّنِي مِنْهُ فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرِيظَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْتَظِرُونَ إِلَيْهِ كَلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص:٣٥]، فرده الله خاسئاً"^(١). وأيضاً عن أبي الدرداء (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (ﷺ): "إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إبليسَ، جاء بشهابٍ من نارٍ ليجعله في وجهي، فقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بَلْعَنَةَ اللَّهِ التَّامَّةَ، فلم يستأخر، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللَّهِ، لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لِأَصْبَحَ مُوتَقًا يَلْعَبُ بِهِ وَلِدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ"^(٢). في الحديث دليلٌ على أَنَّ الْجَنِّ موجودون، وأنهم قد يراهم بعضُ الآدميين، وأمَّا قول الله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾؛ فمحمولٌ على الغالب، فلو كانت رؤيتهم محالاً؛ لما قال النبي (ﷺ) ما قال من رؤيته إياه، ومن أنه كان يربطه لينظروا كلهم إليه، ويلعب به ولدانُ أهل المدينة"^(٣).

واستدل بهذا الحديث على أَنَّ أصحاب سليمان كانوا يرون الجنَّ في أشكالهم وهيئتهم حال تصرفهم، وأمَّا قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فالمراد الأكثر الأغلب من أحوال بني آدم، وتُعقب بأن نفي رؤية الإنس للجنِّ على هيئتهم ليس بقاطعٍ من الآية، بل ظاهراً أنه ممكنٌ؛ فإن نفي رؤيتنا إياهم مقيدٌ بحال رؤيتهم لنا، ولا ينفي إمكان رؤيتنا لهم في غير تلك الحالة"^(٤). قال ابن تيمية: "في القرآن أَنَّ الْجَنِّ يرون الإنس من حيث لا يراهم الإنس، وهذا حقٌ يقتضي أَنهم يرون الإنس في حالٍ لا يراهم الإنس فيها، وليس فيه أَنَّ الْجَنِّ لا يراهم أحدٌ من الإنس بحالٍ؛ بل قد يراهم الصالحون وغير الصالحين؛ لكن لا يرونهم في كلِّ حالٍ"^(٥).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ"^(٦):

١. تدلُّ الآية على صحة قول أهل السنة إنَّ الشيطان يتصور لنا ونراه.

٢. في الآية ردٌّ على الذين لا يؤمنون بعالم الجنِّ المذكور في القرآن والسنة.

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء . باب قول الله: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، حديث رقم: (٣٤٢٣)، (ص:٤٠٩).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة . باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، حديث رقم (٥٤٢)، (ص:٢١٨).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم: النووي (٢٩/٥)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١٢٣/١).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٣٥/٨).

(٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/١٥).

(٦) وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١٢٣/١).

المقصد الخامس: الشياطين هم أشرار الجن والإنس والحيوان.

دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

جَعَلْنَا: قال الرازي: "يجب حمل الجعل على التأثير والتحصيل، لا على مجرد الحكم".

الشَّيَاطِينَ: الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وعليه يدلُّ كلام العرب، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل من تمرّد من جنّي وإنسيّ وحيوانٍ شيطاناً. والشياطين شرعاً: أجسامٌ ناريةٌ شأنها إلقاء النفس في الفساد والغواية بتذكير أسباب المعاصي واللذات، وإنساء منافع الطاعات.

أَوْلِيَاءَ: الولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد، والولي: القريب، يقال: هذا يلي هذا، أي: يقرب منه، والولاية: هي الإيمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل، والعبد له من ولاية الله بحسب ما كان عليه من الإيمان والتقوى.

لَا يُؤْمِنُونَ: لا بُدَّ في الإيمان من أن يؤمن العبد بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، ويؤمن بكلِّ رسولٍ أرسله الله، وكلِّ كتابٍ أنزله الله، ولا بُدَّ في الإيمان من أن يؤمن العبد أنّ محمداً (ﷺ) خاتم النبيين، لا نبيَّ بعده، وأنَّ الله أرسله إلى جميع الثقليين: الجنّ والإنس. فكلُّ من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمنٍ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين، ومَنْ آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعضٍ، فهو كافرٌ ليس بمؤمنٍ.

ثانياً: مناسبة فاصلة الآية لسياقها^(٢):

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استئناف ابتدائي، فُصد منه

الانتقال إلى أحوال المشركين في ائتمارهم بأمر الشيطان، تحذيراً للمؤمنين من الانتظام في سلوكهم، وتنفيراً من أحوالهم، والمناسبة هي التحذير.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

أخبر الله سبحانه بأنَّه صير الشياطين أولياء، أي: أعواناً وقرناء للذين لا يؤمنون به من عباده، وهم الكفار^(٤)، وأمَّا المؤمنون الذين يعملون الصالحات فلا سبيل لهم عليهم.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٨/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٤٠/١٠)، وشرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني (٥٠١/٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١٥/١)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٣٠، ١١).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٠/٨).

(٣) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٢٧٨/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢٦/٤).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: زيادة في عقوبتهم وسوينا بينهم في الذهاب عن الحق.

اللطفة الثانية: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين أولياء أي: تولوهم بالطاعة فيما أمرهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين دون الله، وقد أجمع العلماء على أن التوفيق هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك بين نفسك، فالعباد منقلبون بين توفيقه وخذلانه.

اللطفة الثالثة: عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود؟ فقال: " الكلب الأسود شيطان"^(٢)، فالكلب الأسود شيطان الكلاب^(٣).

خامساً: تحقيق المقصد من الآية:

دلت الآية على أن الله جبل أنواع المخلوقات وأجناسها على طبائع لا تنتقل عنها، ولا تقدر على التصرف بتغييرها، كالاقتراس في الأسد، واللسع في العقرب، وخلق للإنسان العقل والفكر فجعله قادراً على اكتساب ما يختار، ولما كان من جبلة الشياطين حب ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنه قد يتطلب الأمر العائد بالفساد، إذا كان له فيه عاجل شهوة أو كان يشبه الأشياء الصالحة في بادئ النظرة الحمقاء، كان الإنسان في هذه الحالة موافقاً لطبع الشياطين، ومؤتمراً بما تسوله إليه، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغلوا فيه وتدرجوا إليه، حتى صار المالك لإراداتهم، وتلك مرتبة المشركين، وتتفاوت مراتب هذه الولاية، فلا جرم نشأت بينهم وبين الشياطين ولاية وفاق لتقارب الدواعي، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة التي أثبتها قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]، فصارت ولاية ومحبة عند بلوغ ابن آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك وما فيه، فصار هذا جعلاً جديداً ناسخاً للجعل الذي في قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فما في هذه الآية مقيد للإطلاق الذي في الآية الأخرى تنبيهاً على أن من حق المؤمن أن لا يوالي الشيطان، والمراد بالذين لا يؤمنون المشركون؛ لأنهم المضادون للمؤمنين في مكة^(٤). واحتج أهل التفسير

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٧/٧)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ١٩٥).

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة. باب قدر ما يستر المصلي، حديث رقم (٥١٠)، (ص: ٢٠٧)، وينظر: السلسلة الصحيحة: الألباني، حديث رقم (٣٣٢٣)، (٩/٩٥٩).

(٣) عالم الجن والشياطين: عمر سليمان الأشقر (ص: ٣٨).

(٤) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٨٠).

بهذا النصّ على أنّ الله هو الذي سلطَ الشيطانَ الرجيمَ عليهم حتى أضلهم وأغواهم، ويتأكد هذا النصُّ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزَّاءً﴾ [مريم: ٨٣] فلفظ الإرسال إنّما يصدق إذا كان تسليط بعضهم على البعض بسببٍ من جهته^(١).

والجعل المضاف إلى الله نوعان: الأول: يُراد به الجعل الذي يُحبه ويرضاه، والثاني: الجعل الذي قدره وقضاه، قال الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ...﴾ [المائدة: ١٠٣] فهذا نفي لجعله الشرعي الديني، أي: ما شرعَ ذلك ولا أمر به ولا أحبه ورضيه، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] فهذا جعل كوني قدري، أي: قدرنا ذلك وقضيناه، وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل، والجعل المضاف إلى الله كذلك أيضاً لفظ مجمل يُراد به أنّه جبره وأكرهه عليه، واضطره إليه، وهذا محالٌ في حقِّ الربِّ تعالى وكمالهِ المقدس يَأبَى ذلك وصفات كماله تمنع منه، وجعلٌ يُراد به أنّه مكّنه من ذلك، وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره، فهذا حقٌّ^(٢).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. أنّ الشياطين هم مَرَدَةُ الإنس والجن.
٢. أنّ جميع الجنّ وُلد إبليس.
٣. عدم الإيمان موجبٌ لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان.
٤. أنّ الشيطان مرجومٌ مطرودٌ عن الخير كلّهِ.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٨/١٤).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن القيم (٨١٦/٢).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/١٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١٦/١)، وتفسير الكريم الرحمن في

تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠).

المقصد السادس: أخرج آدم من جنة الخلد ابتلاءً، وأن الجنة مخلوقة حقيقة

دل على هذا المعنى القرآني قول الله: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

بني آدم: المراد جنس أولاد آدم، فيدخل فيه الرجال والنساء.

آدم: ثبت الصحيح: أن آخر المخلوقات كان آدم (ﷺ) خلق يوم الجمعة.

أبويكم: الأبوان تثنية الأب، والمراد بهما الأب والأم على التعليل، وهو تغليب شائع.

الجنة: إن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفاواكه، والطعام والشراب والحدائق والعيون، والأنهار والقصور، بل الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله، وسماع كلامه، وقرّة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً فاليسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها^(٢) وقد دخلها النبي (ﷺ) ليلة المعراج، حيث قال: "ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ثرابها المسك"^(٣)، وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية وهذا النسل العظيم، ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء، ولم يخرج منها طرداً كما كان خروج إبليس وإنما كان خروجه مسافراً لقضاء أوطار ثم يعود إليها^(٤). والجنة حق، وهي دار أعداها الله جزاء لعباده المتقين، فيها من صنوف النعيم الحسي والمعنوي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية:

اللطيفة الأولى: عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: "في الجنة ثمانية أبواب"^(٥). وفي رواية أخرى عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: "فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام وباب الريان"^(٦). معنى

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٣٥/١٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٤٨٨/٥)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٧٧/٨)، والعقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد القاضي (ص: ٦٤).

(٢) مدارج السالكين: ابن القيم (٢٩٤/٢)، والتوهم. رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة: الحارث المحاسبي (ص: ٨٠).

(٣) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء. باب ذكر إدريس، حديث رقم (٣٣٤٢)، (ص: ٣٩٧).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم: النووي (١٤٢/٦)، وتحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: المباركفوري (٦٣١/٢).

(٥) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق. باب صفة أبواب الجنة، حديث رقم (٣٢٥٧)، (ص: ٣٨٨).

(٦) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة. باب قول النبي (ﷺ): "لو كنتم متخذاً خليلاً"، حديث

رقم (٣٦٦٦)، (ص: ٤٣٥).

الحديث أن كلَّ عاملٍ يدعى من باب ذلك العمل، وفائدته زيادة ترغيب السامع في طلب الدخول من ذلك الباب، ووقع في الحديث ذكر أربعة أبواب من أبواب الجنة، وبقي من الأركان الحجُّ فله بابٌ بلا شك، وأمَّا الثلاثة الأخرى فمنها باب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. فإنَّ الله باباً في الجنة لا يدخله إلا من عفا عن مظلمة، ومنها الباب الأيمن وهو باب المتوكلين الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب، وأمَّا الثالث فلعله باب الذكر، ويحتمل أن يكون باب العلم^(١).

اللطفة الثانية: قال ابن عباس: " ليس في الدنيا شيءٌ مما في الجنة إلا الأسماء"^(٢).

اللطفة الثالثة: إخراج آدم وحواء من الجنة كان يوم الجمعة لما ثبت عن النبي (ﷺ) قال: "خير يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة"^(٣).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٤):

أ- آدم (ﷺ) أبو البشر

أخرج البخاري عن أنس بن مالك، عن رسول الله (ﷺ) قال: " يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا. فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس؛ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا"، وفي رواية: " فيقول بعض الناس: أبوكم آدم. فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر"^(٥). هذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، وقول جامع على أن آدم (ﷺ) أبو البشر جميعهم، وليس كما شكك في ذلك بعض المفسرين^(٦)، حيث كان يدندن حول هذه الفرية والخرافة؛ فجعل آدم أول إنسان، وليس أبا البشر، وأخذ يخوض في هذا الغيب بلا علم شرعي، قال الله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]. أشهد هؤلاء خلق آدم حتى يفرقوا بين البشر والإنسان، ويقولون: آدم من البشر، وليس أبا البشر، ولكنه أول إنسان، إنَّ هذه الضلالة المليئة بالجهالة ترويحٌ لفكر داروين المنحرف، وأنصاره: أن أصل الإنسان قرود^(٧).

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٣٥١/٨)، (٥٥١/٧)

(٢) شرح الرسالة التدمرية: عبدالرحمن البراك (ص: ١٥٧)، وصححه الألباني في (صحيح الجامع: رقم: ٥٤١٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة. باب فضل يوم الجمعة، حديث رقم (٨٥٤)، (ص: ٣٣١).

(٤) البداية والنهاية: ابن كثير (١/١٠٠).

(٥) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] حديث رقم

(٤٤٧٦، ٣٣٤٠)، (ص: ٥٢٧).

(٦) تفسير المنار: محمد رشيد رضا (٤/٣٢٣).

(٧) قصص الأنبياء: ابن كثير (ص: ١٤).

ب- أخرج آدم من جنة الخلد ابتلاءً^(١):

يقول صاحب الظلال عن حكمة ابتلاء آدم (ﷺ): "وكان الابتلاء الأول لآدم في الجنة تمهيداً وإعداداً لخلافته في الأرض، وأنَّ الله جعل هذا الكون عوناً له في هذه الخلافة، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه". وفي الآية بيان أنَّ الجنة مخلوقة موجودة، وهو مذهب أهل السنة، وهي التي أهبط منها آدم وهي التي ينعم فيها المؤمنون في الآخرة، هذا إجماع أهل السنة، وقالت المعتزلة: إنها ليست موجودة، وإنما توجد بعد البعث في القيامة، قالوا: والجنة التي أخرج منها آدم غيرها، وظواهر القرآن والسنة تدلُّ لمذهب أهل الحق. وقال ابن تيمية: "والجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة، وأهل السنة هي جنة الخلد، ومن قال: إنها جنة في الأرض، فإنَّ هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة، والكتاب والسنة يردان هذا القول، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول"، ولقوله: ﴿وَبَا أَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩] فالألف واللام ليست للعموم، ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى. وقوله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤] فقد أخبر الله أنَّه أمرهم بالهبوط وأنَّ بعضهم عدو لبعض ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]. وهذا يبيِّن أنَّهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أهبطوا إلى الأرض؛ فإنَّهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرض أخرى لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده؛ وكذلك قوله: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يبيِّن اختصاص السماء بالجنة بهذا الحكم؛ فإنَّ الضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ عائدٌ إلى معلوم غير مذكور في اللفظ، والهبوط يكون من علو إلى سفلى، ولفظ النزول كلفظ الهبوط، فلا يستعمل هبط إلا إذا كان من علو إلى سفلى. وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] دليلٌ على أنَّهم لم يكونوا قبل ذلك بمكانٍ فيه يحيون وفيه يموتون، ومنه يخرجون، وإنما صاروا إليه لما أهبطوا من الجنة^(٢). وعن رسول الله (ﷺ) قال: "إني رأيت الجنة، فتناولت عُقُوداً، ولو أصبته لأكلتُ منه ما بقيت الدنيا"^(٣)، فقوله: "إني رأيت الجنة"^(٤). ظاهره أنَّها رؤية عين، على أنَّ الحجب كشفت له دونها فرآها على حقيقتها وطويت المسافة بينهما حتى أمكنه أن يتناول منها، ويؤيده حديث:

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٤٧. ٣٤٩)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١/٧٥)، والمنهاج شرح صحيح

مسلم: النووي (٣/٣١)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٢٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٤٧. ٣٤٩).

(٣) صحيح البخاري كتاب الكسوف. باب صلاة الكسوف جماعة، حديث رقم (١٠٥٢)، (ص: ١٣١).

(٤) صحيح البخاري في كتاب النكاح. باب كُفران العشير، حديث رقم (٥١٩٧)، (ص: ٦٣٧).

دَنَتْ مَنِّي الْجَنَّةُ حَتَّى لَوْ اجْتَرَأْتُ عَلَيْهَا لَجِئْتُكُمْ بِقِطَافٍ مِنْ قِطَافِهَا"^(١). ولا إحالة في إبقاء هذه الأمور على ظواهرها لا سيما على مذهب أهل السنة في أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَدْ خُلِقَتَا وَوُجِدَتَا^(٢)، وقد ورد في متن الطحاوية: "والجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ، لَا تَقْنِيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الْخَلْقِ، وَخَلَقَ لِهَمَا أَهْلًا، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَضَلًّا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ". فقد اتفق أهل السنة على أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى ذَلِكَ^(٣). وقد عقد البخاري في الصحيح "باب ما جاء في صفة الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ". وقد أشار بذلك إلى الرد على من زعم من المعتزلة أَنَّهَا لَا تَوْجِدُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسَاقَ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ مَوْجُودَةٌ الْآنَ^(٤).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٥):

١. في هذه الآية ردُّ على من قال: إِنَّ دَارَ الْآخِرَةِ لَا حَقَائِقَ لَهَا وَإِنَّمَا هِيَ أَمْثَالٌ.
٢. في الآية دليلٌ على أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ مَوْجُودَةٌ الْيَوْمَ.
٣. الآية ردُّ على المعتزلة التي أنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئها الله يومَ القيامة، فإنَّ خلقَ الْجَنَّةِ قَبْلَ الْجَزَاءِ عِبْتُ؛ لِأَنَّهَا تَصِيرُ مَعْطَلَةً مَدَدًا مَتَطَوَّلَةً، زَعَمُوا.
٤. آدم أبو البشر.
٥. أَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْرُضٌ لِلخَطَا، وَالزَّلَلِ.

(١) صحيح البخاري في كتاب الأذان، حديث رقم (٧٤٥)، (ص: ٩٦).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٤٢٤/٣)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية (ص: ٥٦٣).

(٣) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٤١٣)، والجنَّة والنَّار: عمر سليمان الأشقر (ص: ١٣).

(٤) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق (ص: ٣٨٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥٣٦/٧).

(٥) فتح الباري: ابن حجر (٤٢٦/٣)، وشرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٤١٣)، وفتح القدير:

الشوكاني (٥٥٤/١)، والجنَّة والنَّار: عمر سليمان الأشقر (ص: ١٣)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد

الشايح (ص: ٥٦٣).

المطلب الثاني: تقليد الآباء في القبيح صدُّ عن شرع الأنبياء الصريح

وفيه تسعة مقاصد:

المقصد الأول: ذمُّ التقليد

يدلُّ عليه قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَاحِشَةٌ: الفاحشة اسمٌ للعمل الذميمة، وهي مشتقةٌ من الفحش وهو الكثرة والقوَّة في الشيء المذموم والمكروه، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضررٌ وفسادٌ بحيثُ ياباها أهل العقول الرَّاجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويستحيي فاعلها من النَّاس، ويتستر من فعلها، مثل: البغاء والزنى والوَأد والسرقة، وقد روي أنَّ المراد بالفاحشة في الآية التَّعَرِّي في الحجِّ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يقول الله مبيناً لقبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسيون الله أنَّه أمرهم بها، فإذا ارتكب المشركون فاحشةً وهي: كلُّ ما يستفحش ويستقبح، ومن ذلك طوافهم بالبيتِ عُرَاءً اعتذروا بأنهم وجدوا آباءهم يرتكبونها، وأنَّ الله أمرهم بذلك، والآية ذمُّ للتقليد، وذمُّ كثير من جهالاتهم.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: جاء الشرط في الآية بحرف: ﴿إِذَا﴾ الذي من شأنه إفادة اليقين بوقوع الشرط ليشير إلى أنَّ هذا حاصلٌ منهم لا محالة.

اللطيفة الثانية: أسند الفعل والقول إلى ضمير الذين لا يؤمنون في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا﴾ على معنى الإسناد إلى ضمير المجموع، وقد يكون القائل غير الفاعل، والفاعل غير قائل، اعتداداً بأنهم لما صدق بعضهم بعضاً في ذلك فكأنهم فعلوه كلهم واعتذروا عنه كلهم.

اللطيفة الثالثة: ردَّ الله على المشركين بأنَّ أمر نبيه (ﷺ) أن يقول لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فكيف تدعون ذلك على الله، ثم أنكروا عليهم ما أضافوه إليه، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهو من تمام ما أمر النبي (ﷺ) بأن يقول لهم، وما أكرم الله عبداً قطُّ على معصيته

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٢/٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/١٨٧)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٢٩٠)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٢/٨، ٨٣).

ولا رضىها له ولا أمره بها، ولكن رضى لهم الطاعة ونهاكم عن المعصية، والحاصل أن الأمرين باطلان؛ لأن الأول تقليد للرجال، والآخر افتراءً على ذي الجلال.

اللطيفة الرابعة: ردَّ الله عليهم في المقالة الثانية، ولم يتعرض لردِّ الأولى لوضوح فسادها لما هو معلوم أن تقليد مثل الآباء ليس بحجة.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه من التقرُّع والتوبيخ أمرٌ عظيم، فإنَّ القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كلِّ شيءٍ، فكيف إذا كان في القول على الله (١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية (٢):

إنَّ الله أخبر عن المشركين أنَّهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين: أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا، والثاني: إنَّ الله أمرنا بها. فأما الحجَّة الأولى: فما ذكر الله عنها جواباً؛ لأنَّها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كلِّ أحدٍ أنَّه طريقةٌ فاسدةٌ؛ ولما كان فساد هذا الطريق ظاهراً جلياً لكلِّ أحدٍ لم يذكر الله الجواب عنه، وإنَّ في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق؛ فإنَّ ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنَّهم القائلون: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنَّه الذي أمر الله به، وأنَّه الحق، لم يبق عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهوديُّ على اليهودية، والنصرانيُّ على النصرانية، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية، وأحسنوا الظنَّ بهم بأنَّ ما هم عليه هو الحقُّ الذي أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحقَّ كما يجب، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فأخبر الله في الآية أنَّ أئمةَ الشرك قد أعدوا لأتباعهم معاذيرَ عن تلك الأعمال ولقنوها إياهم، وجماعها أن ينسبوا إلى آباءهم السالفين الذين هم قدوة لخلفهم، واعتقدوا أنَّ آباءهم أعلم بما في طي تلك الأعمال من مصالح لو اطلع عليها المنكرون لعرفوا ما أنكروا، ثمَّ عطفوا على ذلك أنَّ الله أمر بذلك يعنون أنَّ آباءهم ما رسموها من تلقاء أنفسهم، ولكنهم رسموها بأمرٍ من الله، ففهم منه أنَّهم اعتذروا لأنفسهم واعتذروا لآبائهم، فمعنى قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، ليس ادعاءً بلوغاً أمر من الله إليهم ولكنهم أرادوا أنَّ الله أمر آباءهم الذين رسموا تلك الرسوم وسنوها فكان أمر الله آباءهم أمراً لهم، لأنَّه أراد بقاء ذلك في ذريَّاتهم، فهذا معنى استدلالهم، وقد أجمله إيجاز القرآن اعتماداً على فطنة المخاطبين، والمفهوم

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٤٣/٣)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٧٩/٢)، وفتح البيان في

مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٢٧/٤)، وحاشية الصاوي على الجلالين (٦٦٧/٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٥٩/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٠.٢٧٩/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن:

صديق حسن خان (٣٢٧/٤). (٣٢٨.

من الآية أنهم إذا فعلوا فاحشةً فأُنكِرتْ عليهم أو نُهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا، وليس المرادُ بالإنكار والنَّهي خصوص نهي الإسلام إياهم عن ضلالهم، ولكن المراد نهي أي ناهٍ وإنكار أي منكرٍ، فقد كان ينكر عليهم الفواحش من لا يوافقونهم عليها من القبائل، فإنَّ دين المشركين كان أشتاتاً مختلفاً، ثم جاء الإسلام فنعى عليهم أعمالهم الفاسدة، وأسمعهم قوارع القرآن فحينئذٍ تصدوا للاعتذار، وقد عُلم من السياق تشنيع معذرتهم وفساد حجَّتهم، ودلت الآية على إنكار ما كان مماثلاً لهذا الاستدلال وهو كلُّ دليلٍ توكأ على اتباع الآباء في الأمور الظاهر فسادها وفحشها، وكلُّ دليلٍ استند إلى ما لا قبل للمستدل بعلمه، فإنَّ قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ دعوى باطلة إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطة مبلِّغ، فإنَّهم كانوا ينكرون النبوة، فمن أين لهم تلقي مراد الله. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ نقضٌ لدعواهم أنَّ الله أمرهم بها أي بتلك الفواحش، وهو ردُّ عليهم، وتعليمٌ لهم، وإفاقة لهم من غرورهم؛ لأنَّ الله متَّصفٌ بالكمال فلا يأمر بما هو نقصٌ، فكون الفعل فاحشةً كافٍ في الدلالة على أنَّ الله لا يأمر به؛ لأنَّ الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأنَّ الله أمرَ بذلك إلا عن جهلٍ، ولذلك وبخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما لا تعلمون أنَّ الله أمر به، فحذف المفعول لدلالة ما تقدم عليه، لأنَّهم لم يعلموا أنَّ الله أمرهم بذلك إذ لا مستند لهم فيه، وإنَّما قالوه عن مجرد التَّوهم، لأنَّهم لم يعلموا أنَّ الله لا يليق بجلاله وكماله أنَّ يأمر بمثل تلك الرذائل. كما ولا تجوزُ الفتوى بالتقليد؛ لأنَّه ليس بعلمٍ، والفتوى بغير علمٍ حرامٌ، ولا خلاف بين النَّاس أنَّ التقليد ليس بعلمٍ، وأنَّ المقلد لا يُطلق عليه اسم عالم^(١). وقد أُبيح للمسلم اجتهاد الرأي فيما لم يُؤثَّر عن رسول الله (ﷺ) فيه شيءٌ، ولم يأت له في الكتاب شيءٌ كاشفٌ.

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات:

١. التقليد مذمومٌ، والإبداع محمودٌ؛ فالإبداع وصفٌ يستعصى على الوصف، وإنَّما يوفَّق له الذكي، ويميزه الخبير؛ فإنَّ لمعة الفكر الأصيل هي التي تقود للعمل، والفكر المقلد لا يقود، بل يشطح أو يضل أو تصل حلوله متأخرة وناقصة، وإنَّما الفكر الاجتهادي الإبداعي هو الذي يقود ويبني ويدق باب المستقبل، وهذا الفكر الاجتهادي الإبداعي إنَّما يؤسسُه وقوف مع آي القرآن الكريم، ولبث مع سيرة النبي (ﷺ) وقوله، وفحصٌ لمذاهب المسلمين السالفين والمُحدِّثين، ومعرفةٌ بأخبار التاريخ والحضارات.

(١) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن قيم الجوزية (٨٦/٢)، وإرشاد الفحول: الشوكاني (ص: ١٢٦)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٢، ٨٤/٨)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢٣/١)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (٢٨٧/٢)، ومناهج اللُّغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٢٨١).

٢. في الآية ردُّ على الذين يقولون: إنَّ الوصول إلى مرتبة الاجتهاد أمرٌ صعبُ المنال؛ بل باب الجهاد والاجتهاد مفتوحٌ فلا يجوز إغلاقه إلا بنصٍّ شرعيٍّ من الكتاب والسنة.
٣. إنَّما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله؛ فإنَّه لا يجد في تركها مشقةً إلا في أول وهلةٍ، ليمتحن صادقاً هو في تركها أم كاذب، فإنَّ صبر على تلك المشقة قليلاً استحالت لذةً.
٤. أنَّ ما جاء به الرُّسولُ هو الحقُّ الموافق للعقل والحكمة، والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع، فأقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال فهي أصول سعادة العبد.
٥. أنَّ الله تعالى ذمَّ التقليد في غير موضع من كتابه؛ فقد ذم تقليد الآباء والرؤساء.
٦. أنَّ الآية بيَّنت أنَّ من منهج المشركين الإعراض عمَّا أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاءً بتقليد الآباء، ولذلك فقد احتجَّ العلماء بهذه الآية في إبطال التقليد؛ فإنَّ المانع من قبول الاهتداء الاقتداء بالآباء؛ فالقرآن ذمَّ من أعرض عمَّا أنزله الله، وقنع بتقليد الآباء.
٧. أنه إذا بطل التقليد وجبَّ التسليم للأصول التي يجبُّ التسليم لها، وهي الكتاب والسنة، وما كان في معناها دليل جامع؛ فإنَّ التقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم، كما أنَّ التقليد ليس اتباعاً؛ بل هو مخالف للاتباع.
٨. أنَّ من أسباب تأخر المسلمين اليوم هو الاقتناع بالعرف الخاطيء الموروث عن الآباء والأجداد، لذا فإنَّ سد باب الاجتهاد كان سبباً مهماً في انحطاط المسلمين.
٩. أمر الله تعالى في هذه الآية باتباع المنزَّل خاصةً، والآية نصٌّ في بطلان التقليد^(١).

(١) الفوائد: ابن قيم الجوزية(ص:١٠٨،١٠٧)، وإعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن القيم(٣/٤٤٧ . ٤٦٥)، والاستهزاء بالدين: أحمد بن محمد القرشي(ص:١١٤)، وصناعة الحياة: محمد أحمد الراشد(ص:١٠٢،٧٨)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي(ص:٢٨٦،٥٥٦).

المقصد الثاني: لا قبيح في الفعل الإلهي، والتحسين والتقبيح شرعيان وعقليان

ويدل على هذا المعنى الأصولي قول الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ

أَمْرًا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

بِالْفَحْشَاءِ: الفحشاء عبارة عن كل معصية كبيرة، فيدخل فيه جميع الكبائر. والفحشاء هي ما ظهر قبحها لكل أحد، واستفحشه كل ذي عقل سليم، ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله: ﴿فَاحِشَةً﴾ لتناهي قبحها، وكذلك القبيح من القول يُسمى فحشاً، وهو ما ظهر قبحه جداً من السب القبيح، والقذف ونحوه، فالفحشاء: ما تزايد فحشه واشتد نكره، فقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ هي كل ما نهى الله عنه، والفواحش عند العرب كل ما قُبِح.

الله: عَلَّمَ على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد، لم يتسم به سواه، تسمى به قبل أن يُسمى، وأنزله على آدم في جملة الأسماء، وأصله إله، ك (إمام)، و (الإله) في الأصل يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، وهو مشتق، وأنه أصل بنفسه غير مأخوذ من شيء، بل وضع علماً ابتداءً، فكما أن ذاته تعالى لا يحيط بها شيء، ولا ترجع إلى شيء فكذلك اسمه تعالى، وهو عربي، وعند المحققين أنه اسم الله الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع صفات الكمال، و (الإله) هو الذي يأله العباد حباً وذللاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعةً له، بمعنى (مألوه) وهو الذي تأله القلوب، أي: تحبه وتذل له.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يخبر الله تعالى قبح حال المشركين إذا ارتكبوا فاحشةً اعتذروا بأنهم وجدوا آباءهم يرتكبونها، وأن الله أمرهم بذلك. قل لهم يا محمد رداً عليهم: إن الله لا يأمر بالمعاصي، بل ينهى عنها، فكيف تدعون ذلك عليه؟ فلا يليق بكماله وحكمته أن يأمر عباده بتعاطي الفواحش، أتقولون أيها المشركون على الله ما لا تعلمون كذباً وافتراءً.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٩/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢٠٥/٣)، وتفسير

القرآن العظيم: ابن كثير (١٩/١)، ومغني المحتاج: الخطيب الشربيني (٢٧، ٢٨/١)، والاستهزاء بالدين: أحمد

القرشي (ص: ٤٠)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ١٨٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠)، والمختصر في التفسير (ص: ١٥٣).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في معرض الذم والسخرية.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿بِالْفَحْشَاءِ﴾ صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة، وهي الفعلة الفحشاء، والخصلة الفحشاء.

اللطيفة الثالثة: ليس المراد من الفحشاء أنّ القوم كانوا يسلّمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أنّ الله أمرهم بها؛ فإنّ ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد: أنّ تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنّها طاعات، وأنّ الله أمرهم بها. وقد أجاب عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والمعنى أنّه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة، فكيف يمكن القول: بأنّ الله أمرنا بها؟

اللطيفة الرابعة: التضمين، حيثُ ضمن قوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾، معنى تكذبون، أو معنى تتقولون، فلذلك عدّي بـ ﴿عَلَى﴾ وكان حقه أن يعدى بـ (عن) لو كان قولاً صحيح النّسبة، وإذ كان التّوبيخُ وارداً على أن يقولوا على الله ما لا يعلمون كان القول على الله بما يتحقق عدمُ وروده من الله أحرى.

اللطيفة الخامسة: الاستفهام في قوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ إنكارياً وتوبيخياً، وفيه معنى النّهي.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

يرى الأشاعرة أنّ التحسين والتقبيح شرعيّان لا عقليّان، وزعموا أنّ الحسن والقبح صفتان إضافيتان في الأفعال، فلا تُدرك بالعقل، وإنّما بالشرع، وعليه فلا يحكم بهما إلا بعد ورود الشرع، إذ لا يستقل العقل بإدراك حسن ولا قبيح. وذهب جمهور المعتزلة إلى أنّ التحسين والتقبيح عقليّان لا شرعيّان، وزعموا أنّ الحسن والقبح صفتان ذاتيتان للأفعال، والعقل يستقل بإدراكهما، والشرع إنّما هو كاشف ومبيّن لتلك الصفات، وهدى الله أهل السنة والجماعة، فقالوا: بأنّ التحسين والتقبيح شرعيّان وعقليّان، والأفعال من حيثُ هي قد يدرك حسنها وقبحها قبل ورود الشرع، وقد لا يدرك ذلك، قال الرازي: "أقول للمعتزلة الذين يحتجوا بهذه الآية على أنّ الشيء إنّما يقبح لوجه عائد إليه، ثم إنّ الله نهى عنه لكونه مشتملاً على ذلك الوجه؛ لأنّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إشارة إلى أنّه لما كان ذلك موصوفاً في نفسه بكونه من الفحشاء امتنع أن يأمر

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦٠، ٥٩)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ١٨٦)،

وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٢/٦٦٧)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٨/٩٠، ٤٢٨)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٢٨٤)، وآراء ابن حجر

الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايح (ص: ٦٠٢).

الله به، وهذا يقتضي أن يكون كونه في نفسه من الفحشاء مغايراً لتعلق الأمر والنهي به وذلك يفيد المطلوب^(١). وبناءً عليه فالأفعال في نفسها حسنة وقيحة، كما أنها نافعة وضارة، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشروبات والمرئيات، ولكن لا يترتب عليهما ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، وقد دلّ القرآن أنه لا عقاب إلا بإرسال الرُّسل، وأنَّ الفعل نفسه حسن وقبيح، وبيان دلالة الأمرين، فأما الأول: ففي قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأما الأصل الثاني: وهو دلالاته على أنَّ الفعل في نفسه حسن وقبيح فقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ لَمْ يَأْمُرِ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فأخبر الله أنَّ فعلهم فاحشة قبل نهيها عنه، وأمر باجتنابه بأخذ الزينة، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنَّما علم كونه فاحشة بالنهي، وأنَّه لا معنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به، لصار معنى الكلام: إنَّ الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا يُصان عن التكلّم به أحاد العقلاء فضلاً عن كلام العزيز الحكيم. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ دلَّ على أنَّه طيبٌ قبل التحريم، وأنَّ وصف الطيب فيه مانع من تحريمه منافٍ للحكمة، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ﴾ ولو كان كونها فواحش إنَّما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك، لكان حاصل الكلام: قل إنَّما حرّم ربي ما حرّم. وكذلك تحريم الإثم والبعي، فكون ذلك فاحشة وإثماً وبعياً بمنزلة كون الشرك شركاً، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده^(٢). وقوله: ﴿قُلْ إِنْ لَمْ يَأْمُرِ بِالْفَحْشَاءِ﴾ نقض لدعواهم أنَّ الله أمرهم بها أي بتلك الفواحش، وهو ردُّ عليهم، وتعليمٌ لهم، وإفاقةٌ لهم من غرورهم؛ لأنَّ الله متّصفٌ بالكمال فلا يأمر بما هو نقصٌ لم يرضه العقلاء وأنكره، فكون الفعل فاحشة كافٍ في الدلالة على أنَّ الله لا يأمر به؛ لأنَّ الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأنَّ الله أمر بذلك إلا عن جهلٍ، ولذلك وبخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما لا تعلمون أنَّ الله أمر به؛ لأنَّهم لم يعلموا أنَّ الله أمرهم بذلك إذ لا مستند لهم فيه، وإنَّما قالوه عن مجرد التوهم؛ لأنَّهم لم يعلموا أنَّ الله لا يليق بجلاله وكماله أنَّ يأمر بمثل تلك الرذائل، فإنَّ الربَّ تعالى لا يفعل سيئةً قطُّ، بل فعله كله حسنٌ وخيرٌ؛ ولهذا كان النبيُّ (ﷺ)

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٩/١٤).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٢٣١/١)، والتحرير والتنوير: الطاهر

ابن عاشور (٨٤/٨).

يقول: "والخير كله بيدك، والشر ليس إليك"^(١). أي: فإنك لا تخلق شرًا محضاً، بل كل ما تخلقه، ففيه حكمة، وهو باعتبارها خيراً، ولكن قد يكون فيه شرٌ لبعض الناس، فهذا شرٌّ جزئيٌّ إضافيٌّ، فأما شرٌّ كليٌّ أو شرٌّ مطلقٌ؛ فالربُّ سبحانه مُنزّهٌ عنه، وهذا هو الشرُّ الذي ليس إليه، ولهذا لا يُضافُ الشرُّ إليه مفرداً قطُّ، بل يدخل في عموم المخلوقات، كقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرُّم: ٦٢]^(٢). وقد علم المسلمون أنَّ الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمةٍ؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره، ولا يكون في المخلوقات شرٌّ محضٌ لا خير فيه، ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه. وقد تكون مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد^(٣). ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى اسمٌ يتضمن الشر؛ فإنَّ الشر لا يدخل في شيءٍ من صفات الله، ولا أفعاله، ولا يلحق ذاته تعالى نقصٌ ولا شرٌّ، فله الكمال المطلق والجلال التام، والحقُّ أنَّ الله لم يخلق شرّاً محضاً من جميع الوجوه؛ فإنَّ حكمته سبحانه تأبى ذلك، فلا يمكن أن يريد الله شيئاً يكون فساداً من كلِّ وجهٍ، ولا مصلحة في خلقه بوجهٍ ما، فإنَّه تعالى بيده الخير كله، والشرُّ ليس إليه. لذلك قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] أي: إنَّ الله على عدلٍ، وقسطٍ، حكمةٍ، وحمدٍ في قضائه قدره، وشرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه، وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويثني عليه بها؛ فإنَّ الله حميدٌ في صفاته؛ لأنَّ صفاته صفات كمالٍ، حميد الأفعال؛ لأنَّ أفعاله إحسانٌ، وجودٌ، وبرٌّ، وحكمةٌ، وعدلٌ، وقسطٌ^(٤). فلا ينسب الشرُّ إلى الله؛ لأنَّه ليس في فعله تعالى شرٌّ؛ بل أفعاله كلها خير؛ لأنَّها دائرة بين العدل والفضل والحكمة، وهو كله خير لا شر فيه، والشرُّ إنَّما صار شرّاً لانقطاع نسبته وإضافته إليه تعالى، هو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير محله، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرّاً، فعلم أنَّ الشر ليس إليه؛ فإنَّ فعله سبحانه كله خيرٌ، وتعالى أن يفعل شرّاً بوجهٍ من الوجوه؛ فالشرُّ ليس إليه والخير هو الذي إليه، ولا يفعل إلا خيراً، ولا يريد إلا خيراً، ولو شاء لفعل غير ذلك، ولكنَّه تعالى تنزه عن فعل ما لا ينبغي وإرادته ومشيئته، كما هو منزّه عن الوصف به والتسمية باسمه^(٥).

(١) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧١)، (ص: ٣٠٥)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢٤٨/١).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٨/١٤، ٥١١/٢٦٦)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٣٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢١/١٤)، (٩٦/٨)، والإيمان: محمد نعيم ياسين (ص: ١١٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المئان: السعدي (ص: ٤٠٤، ٤٠٦).

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية (٨١٧/٢).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أن الله تعالى قد يشاء ما لا يحب، ويحب ما لا يشاء، لحكمةٍ بالغةٍ، وغايةٍ محكمةٍ.
٢. أفعالُ الله حميدةٌ، فإنَّ الخلق والفعل قائم به تعالى، والشرُّ يستحيل قيامه واتصافه به.
٣. أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون مصلحةً للعباد، ولا ينهى إلا عما يكون مفسدةً لهم.
٤. أن الفحشاء هي الزيادة على ما يتعارفه النَّاسُ حتى يخرج إلى حدِّ الإنكار.
٥. أن الأوامر والنواهي الشرعية تستند إلى الحكمة التامة، وتتضمن مصلحةً للبشر، حيث ذكر الله أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص.
٦. الآية تبيِّن سمة المشركين والكافرين في أنهم يُسندون كفرهم وضلالهم إلى أمر الله ورضاه، ومشيتته.
٧. أن الله لا يُطاع إلا بإذنه، ولا يُعصى إلا بعلمه.
٨. أن العصاة والمذنبين أسرى للعادات والتقاليد، مقيدون بالواقع الذي وجدوه وعاشوه.
٩. أن الشيطان هو الذي أمر العصاة والكافرين بالفواحش والمعاصي والكفر والضلال.

المقصد الثالث: العدلُ أساسُ الملِكِ وميزانُ الشرع

ويدلُّ على هذا المقصد السياسي الأسمى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

أَمَرَ: الأمر نقيض النهي، والأمر يفيد الجوب، والله أمر الخلق على ألسن رسله بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم.

بِالْقِسْطِ: أي: العدل، وهو جميعُ الطاعات والقربات التي طلبها الله، فإنَّ جميعَ الحسنات تدخل في العدل، وجميع السيئات تدخل في الظلم، فقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وبما ظهر في المعقول كونه حسناً صواباً.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٥٩، ٦٠/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢٠٥/٣)، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية (١٧٨/١ . ٢٠٦)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢٤٨/١)، والعقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٦٨)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١)، وتصويبات في فهم بعض الآيات: صلاح الخالدي (ص: ١٥٥)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٢) مقاييس اللغة: ابن فارس (١٣٧/١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٨٤/٢٨)، والتفسير الكبير: الرازي (٦١/١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٧٥/٣)، والتحقيقات والتتقيقات السلفيات على متن الورقات: مشهور آل سلمان (ص: ١٣١)، وتقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية: خالد حمزة (١١٠٢/٢).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

بعد أن أبطل زعمهم أن الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش إبطالاً عاماً بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ استأنف استئنافاً استطرادياً بما فيه جماع مقومات الدين الحق الذي يجمعه معنى القسط أي: العدل تعليماً لهم بنقيض جهلهم، وتوبيهاً بجلال الله بأن يعلموا ما شأنه أن يأمر الله به، ولأهمية هذا الغرض، ولمضادته لمدعاهم المنفي في آية: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فُصلت هذه الآية عن التي قبلها، ولم يُعطف القول على القول ولا المقول على المقول؛ لأن في إعادة فعل القول وفي ترك عطفه على نظيره لفتناً للأذهان إليه، فإن الله لما بين أمر الأمر بالفحشاء بين تعالى أنه يأمر بالقسط والعدل.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

ذكر الله في هذه الآية ما يأمر به، فقال: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله أمر بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطفية الأولى: قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ فيه اقتضاء؛ أي: أمر ربي بالعدل فأطيعوه.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٤):

إن الله أمر بالفضائل وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض وأنه حسن مستقيم، نظير قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فالتوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل، وأمر الله بالإحسان، وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائماً للصلاح عاجلاً وأجلاً، أي: سالماً من عواقب الفساد، وقد نُقل عن بعض السلف أن ﴿الْقِسْطِ﴾ قول: (لا إله إلا الله) وإنما يعني بذلك أن التوحيد من أعظم القسط، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أن الله أمرهم بها؛ لأن شيئاً من تلك الفواحش ليس بقسط، وكذلك اللباس فإن التعري تقريظ، والمبالغة في وضع اللباس إفراط، والعدل هو اللباس الذي يستتر العورة ويدفع أذى القر أو الحر، وكذلك الطعام فتحريم بعضه غلو، والاسترسال فيه نهامة، والوسط هو الاعتدال، فقوله:

(١) التفسير الكبير: الرازي (٦٠/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٦/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٨/٧).

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية (ص: ٧)، وفي ظلال سورة التوبة:

عبدالله عزام (ص: ٩٥، ٩٦)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٧/٨).

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ كَلَامٌ جَامِعٌ لِإِبْطَالِ كُلِّ مَا يَزْعَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِهِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ قِبَلِ الْقِسْطِ، فَالْعَدْلُ قِيَامُ الْمَلِكِ، وَالْحِكْمَةُ مَظْهَرُ الْحَمْدِ، وَالتَّوْحِيدُ مُتَضَمِّنٌ لِنَهَايَةِ الْحِكْمَةِ وَكَمَالِ النِّعْمَةِ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ جَاءَ لِإِقْرَارِ مَصَالِحِ عَامَةٍ، وَمَقَاصِدِ كِبْرِيٍّ، وَعَلَى رَأْسِهَا إِقْرَارُ الْعَدْلِ وَرَفْعُ الظُّلْمِ، فَإِقْرَارُ الْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ هُوَ وَظِيفَةُ هَذَا الدِّينِ، وَرَفْعُ الظُّلْمِ عَنِ الْمَظْلُومِينَ مِنْ وَاجِبَاتِ الْمُسْلِمِ، وَجَمِيعِ الْوَلَايَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِنَّمَا مَقْصُودُهَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعَدْلُ، مِثْلُ الْأَمِيرِ وَالْحَاكِمِ وَالْمَحْتَسِبِ، وَبِالْصِّدْقِ فِي كُلِّ الْأَخْبَارِ، وَالْعَدْلُ فِي الْإِنْشَاءِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ تَصْلُحُ جَمِيعَ الْأَحْوَالِ، فَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ وَليٍّ أَمْرٌ أَنْ يَسْتَعِينُ بِأَهْلِ الصِّدْقِ وَالْعَدْلِ، وَقَدْ كَانَ يُوسُفُ نَائِبًا لِفِرْعَوْنَ مِصْرَ، وَهُوَ وَقَوْمُهُ مُشْرِكُونَ، وَفَعَلَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْخَيْرِ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَجَمِيعَ هَذِهِ الْوَلَايَاتِ هِيَ فِي الْأَصْلِ وَلايَةٌ شَرْعِيَّةٌ وَمَنَاصِبٌ دِينِيَّةٌ، فَأَيُّ مَنْ عَدَلَ فِي وَلايَةٍ مِنْ هَذِهِ الْوَلَايَاتِ فَسَاسَهَا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ وَأَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ فَهُوَ مِنَ الْأَبْرَارِ الصَّالِحِينَ، وَأَيُّ مَنْ ظَلَمَ وَعَمَلَ فِيهَا بِجَهْلٍ فَهُوَ مِنَ الْفَجَّارِ الظَّالِمِينَ^(١). فَالْعَدْلُ أَسَاسُ الْمَلِكِ وَأَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ؛ لِأَنَّهُ شَرِيعَةٌ وَدَوْلَةٌ وَدِينٌ وَدُنْيَا، فَالْعَدْلُ وَاجِبٌ عَلَى الْحُكَّامِ وَالْوَلَاةِ حَتَّى تَصِلَ الْحَقُوقُ لِأَرْبَابِهَا كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، وَلِذَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَإِقَامَةُ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ مَقَاصِدِ الْحُكْمِ فِي الْإِسْلَامِ، فَأَوَّلُ مَظْهَرٍ لِسِيَاسَةِ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِتِّزَامِ بِالْعَدْلِ فِي إِدَارَةِ شُؤُونِ النَّاسِ وَعَدَمِ الْحِيَدَةِ عَنْهُ مَطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي لَا قِيَامَ لِدَوْلَةٍ بِدُونِهِ، وَلَا بَقَاءَ لِأُمَّةٍ بِفَقْدِهِ، وَالْعَدْلُ يَتَضَمَّنُ إِعْطَاءَ كُلِّ إِنْسَانٍ حَقَّهُ وَعَدَمَ ظُلْمِهِ فِي شَيْءٍ، فَمَنْ ظَلَمَ تَكْلِيفَهُ بِمَا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَرْعًا، أَوْ أَخَذَ مَالَهُ بِغَيْرِ وَجْهِ، أَوْ مَنَعَهُ مَا يَسْتَحِقُّ، وَكُلُّ مَنْ أَخَذَ مَلِكًا أَحَدًا، أَوْ غَضِبَهُ فِي عَمَلِهِ، أَوْ طَالَبَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ فَرَضَ عَلَيْهِ حَقًّا لَمْ يَفْرِضْهُ الشَّرْعُ فَقَدْ ظَلَمَهُ، فَجَبَايَةُ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ظُلْمَةٌ، وَالْمُنْتَهَبُونَ لَهَا ظُلْمَةٌ، وَالْمَانِعُونَ لِحَقُوقِ النَّاسِ ظُلْمَةٌ، وَبِإِذْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ عَائِدٌ عَلَى الدَّوْلَةِ بِخَرَابِ الْعِمْرَانِ، وَعَلَى هَذَا يَجِبُ عَلَى الْخَلِيفَةِ أَنْ يَقُومَ بِمَا يَلْزِمُ لِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ وَمَنْعِ الظُّلْمِ، وَأَوَّلُ مَا يَلْزِمُهُ فِي هَذَا الْبَابِ اخْتِيَارُ الْمَوْظُفِّينَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَمْنَاءِ، وَالثَّانِي: مَرَاقِبَتُهُمْ^(٢). وَالْعَدْلُ مِيزَانُ الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ مِيزَانَ الشَّرِيعَةِ هُوَ الْعَدْلُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، فَبِالْعَدْلِ قَامَتِ الدُّنْيَا، وَلِأَجْلِ الْعَدْلِ أَنْزَلَتِ الشَّرَائِعَ لِيقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ مِنَ الْعَدْلِ إِلَى الْجَوْرِ، أَوْ مِنَ الْحِكْمَةِ إِلَى الْعَبْثِ، أَوْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، فَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَحِكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنَ الْعَدْلِ النَّظَرُ إِلَى مَا يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْبِرِّ وَالْفَجْرِ،

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨/٦٩، ٦٦)، والأحكام السلطانية: أبو يعلى الحنبلي (ص: ٩)، والأحكام

السلطانية: الماوردي (ص: ١٨)، والتفسير الواضح: محمد محمود حجازي (١/٣٩٠).

(٢) المقدمة: ابن خلدون (ص: ٢٢٣)، وأصول الدعوة: عبدالكريم زيدان (ص: ٢٢٤).

والحسنة والسيئات، وأن لا يبخس النَّاسُ أشياءهم؛ لأنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان، وكلُّ مؤمنٍ لا يخلو من الخير الكثير؛ لذلك فإنَّ ما به تصلح الدُّنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة أشياء في قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دينٌ متبعٌ، وسلطانٌ قاهرٌ، وعدلٌ شاملٌ، وأمنٌ عامٌ، وخصبٌ دائمٌ، وأملٌ فسيحٌ^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. أنَّ العدلَ الشاملَ يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر به النسل، ويأمن به السلطان.
٢. أنَّه بإقامة العدل تصلح الأحوال في الدُّنيا، ويأمن الإنسان على نفسه وعرضه وماله، ويسود السلام والوئام بين النَّاسِ في حياتهم، ويتجهوا إلى أعمالهم باطمئنان وأمانٍ.
٣. ما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير.
٤. أنَّ أقدار الرجال تقاس بمقدار الاقتراب أو الابتعاد عن قواعد الشريعة ومبادئ التوحيد.
٥. أنَّ القسطَ هو العدل والحقُّ والصواب، وأنَّه العبادة والطاعة والإخلاص والتضرع إليه.
٦. العدلَ مطلبٌ مُلحٌّ في المثلِّ والقيم، وهو مطلوبٌ في الأحكام؛ فإنَّ الدينَ بُني على الصدق والعدل^(٣).

المقصد الرابع: الإسلام دين الوسطية^(٤)

يدلُّ على هذا المقصد التربوي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(٥):

أَمَرَ: الأمر يقتضي الفور، وهو الذي عليه جمهور الأصوليين، وفيه التنبيه على وجوب المبادرة في امتثال أمر الله.
بِالْقِسْطِ: العدل والاستقامة، وهو في الآية العدل بمعناه الأعم، أي: الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء، وهو الفضيلة من كلِّ فعلٍ.

(١) أدب الدُّنيا والدين: الماوردي (ص: ١٣٥) ومسافر في قطار الدعوة: عادل عبدالله الشويخ (ص: ١٥١، ١٥٢)، والقواعد التأصيلية: أحمد العتيبي (ص: ١٢٦).

(٢) أصول المحاكمات الشرعية: أحمد داود (ص: ٧)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم العزي (ص: ٢٢٤)، ومسافر في قطار الدعوة: عادل الشويخ (ص: ١٥١، ١٥٢)، والقواعد التأصيلية: أحمد العتيبي (ص: ١٢٦).

(٣) تصويبات في فهم بعض الآيات: صلاح الخالدي (ص: ١٥٧)، ولا تحزن: عائض عبد الله القرني (ص: ٩٦).

(٤) الوسط كلمة تدل على العدل والنصف. ينظر: مقاييس اللغة: ابن فارس (١٠٨/٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٠٨)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٤٠١)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٦/٨).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: (لا إله إلا الله) أي: بالتوحيد وهو يشتمل على معرفة الله بذاته وأفعاله وأحكامه، ثم على معرفة أنه واحد لا شريك له.

ثالثاً: بيان المقصد من الآية^(٢):

إنَّ المسلمين هم عدلٌ متوسطون لا ينحرفون إلى غلوٍ ولا إلى تقصيرٍ، وأمَّا اليهودُ والنصارى فهم على طرفي نقيض، هؤلاء ينحرفون إلى جهةٍ وهؤلاء إلى الجهة التي تقابلها مثل: تقابلهم في النسخ، وكذلك تقابلهم في التحريم، والتحليل، والطهارة، والنجاسة، فإنَّ اليهودَ حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون في اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يُؤاكلونها، ولا يُساكنونها، ولا يجامعونها، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها، ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الأصار والأغلال التي كانت عليهم، وأمَّا النصارى ففي مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئاً حراماً، ولا نجساً إلا ما كرهه الإنسان بطبعه، ويصلون مع الجنابة، والحدث، وحمل النجاسات، ويأكلون الخبائث، كالدّم والميتة ولحم الخنزير، إلا من كره منهم شيئاً فتركه، والمسلمون وسطٌ كما قال الله فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: عدلاً خياراً. إنَّ المبالغة في الشيء إفراط لا ينسجم مع قواعد العدل، بل قد يدعو لتجاوز العدل والإنصاف، ثم التعصب والانحياز، فكما أنَّ الشريعة قد نهت عن التفريط في الذمِّ، فقد نهت عن الإفراط في المدح، والشريعة الغراء تنهى عن التطرف في كلِّ أمرٍ، وأنَّ أمر الله عدلٌ وقسطٌ بين الإفراط والتفريط، وما ضاعت الشريعة، أو ظهرت البدع إلا بالتقصير في بعض المسائل أو الغلو في بعضها الآخر، فالسعادة الدنيوية لا تتم إلا بعدل المسلم مع غيره، إذ لا بُدَّ أن يحمل نفسه على المصالح ويكفها عن القبائح، ويقف مع النَّاسِ دونما تجاوز أو تقصير، فإنَّ التجاوز جورٌ، والتقصير ظلمٌ، وهذا العدل لا يتم إلا بقلة الطمع، وزيادة الورع^(٣).

فالمفتي البالغ زروة الدرجة هو الذي يحمل النَّاسَ على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور؛ فلا يذهب بهم مذهب الشدَّة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا أنَّه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة؛ فإنَّ مقصد الشارع من المكلف الحملُ على التوسط من غير إفراطٍ ولا تفريطٍ، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين؛ خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين، وأيضاً؛ فإنَّ هذا المذهب

(١) التفسير الكبير: الرازي (٦١/١٤).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢/١٣٥). (١٤٠).

(٣) مسافر في قطار الدعوة: عادل عبدالله الشويخ (ص: ١٤٩).

كان المفهوم من شأن رسول الله (ﷺ) وأصحابه الأكرمين، وقد ردَّ النبي (ﷺ) التبتل^(١)، وقال لمعاذ (رضي الله عنه) لما أطال بالنَّاس في الصلاة: "أفتان أنت يا معاذ"^(٢)، وقال: "سدِّدوا، وقاربوا، واغدُوا ورُوحوا وشيء من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تَبَلُّغُوا"^(٣). وأيضاً؛ فإنَّ الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق، أمَّا في طرف التشديد؛ فإنَّه مهلكة، وأمَّا في طرف الانحلال؛ فكذلك أيضاً؛ لأنَّ المستفتي إذا ذهب به مذهب العنت والحرج بَعْضُ إليه الدِّين، وأدَّى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة، وهو مشاهد؛ وأمَّا إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مَظِنَّة للمشي مع الهوى والشهوة، والشرعُ إنَّما جاء بالنهاي عن الهوى، واتباع الهوى مُهلك، فعلى هذا يكون الميلُ إلى الرخص في الفُتيا بإطلاق مصادراً للمشي على التوسط؛ كما أنَّ الميل إلى التشديد مصادراً له أيضاً، وربما فهم بعض النَّاس أن ترك الترخص تشديداً؛ فلا يجعل بينهما وسطاً، وهذا غلطٌ، والوسط هو معظم الشريعة وأمُّ الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء التأم عرف ذلك، وأكثر من هذا شأنه من أهل الانتماء إلى العلم يتعلق بالخلاف الوارد في المسائل العلمية، بحيثُ يتحرى الفتوى بالقول الذي يوافق هوى المستفتي، بناءً منه على أن الفتوى بالقول المخالف لهواه تشديد عليه وحرج في حقه، وأنَّ الخلاف إنَّما كان رحمةً لهذا المعنى، وليس بين التشديد والتخفيف واسطة، وهذا قلبٌ للمعنى المقصود في الشريعة، وقد تقدم أن اتباع الهوى ليس من المشقات التي يُترخَّصُ بسببها، وأنَّ الخلاف إنَّما هو رحمة من جهة أخرى، وأنَّ الشريعة حملت على التوسط لا على مطلق التخفيف، وإلا؛ لزم ارتفاع مطلق التكليف من حيثُ هو حرجٌ ومخالفٌ للهوى، ولا على مطلق التشديد؛ فليأخذ الموفق في هذا الموضوع حذرهُ؛ فإنَّه مزلةٌ قدم على وضوح الأمر فيه^(٤). فأهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية المتمسكون بالكتاب، المتبعون للسنة الخالصة، هم وسطٌ بين طرفين، وعدلٌ بين عوجين، وهدىٌ بين ضلالتين: بين المشبهة والمعطلة في باب الصفات الإلهية، وبين الجبرية والقدرية في باب أفعال الله، وبين المرجئة والوعيدية في باب وعيد الله، وأسماء الإيمان والدِّين، وبين الخوارج والرافضة في باب أصحاب رسول الله (ﷺ)، وهم برآء من هذه المذاهب الرديئة، والطرائق الغويَّة، مغتبطون بمنة الله عليهم أنَّ حُبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم^(٥). والعدل يحمل العبد على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحملة على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو توسط بين الذل والقحة،

(١) صحيح البخاري في كتاب النكاح . باب ما يُكره من التبتل والخِصاء، حديث رقم (٥٠٧٣)، (ص: ٦٢٢).

(٢) صحيح البخاري في كتاب الأذان . باب من شكا إمامه إذا طوَّل، حديث رقم (٧٠٠)، (ص: ٩٢).

(٣) صحيح البخاري في كتاب الرقاق . باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٤٦٣)، (ص: ٧٦٦).

(٤) الموافقات: الشاطبي (٥/٢٧٦، ٢٧٨)، والثقافة الإسلامية: محمود عجور (ص: ٤١).

(٥) العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي (ص: ٨٩).

وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أن الإسلام هو الوسط، وهو العدل في كل شيء، فهذه الأمة الإسلامية وسط بين الأمم.
٢. الأمر بالعدل، وهو الوسط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط.
٣. الآية دليل على إثبات صفة الكلام لله، فإن الله يتكلم كلاماً يليق بجلاله وكماله، كسائر صفاته، يتكلم متى شاء بما شاء إذا شاء، وأن كلامه قديم النوع حادث الأحاد؛ لأن الذي لا يتكلم لا يصلح للربوبية والإلهية؛ لأنه ناقص، كيف يأمر، وكيف ينهى وهو لا يتكلم.
٤. أن الوسطية اتباع الوحي الإلهي مهما كانت منزلة صاحبها بين الناس.
٥. على المسلم أن يكون وسطاً عدلاً في كل شيء، لا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء.
٦. أن التطرف آفة قاتلة مخالفة لمنهج الإسلام العظيم، وهو لا يختص بالغل والتشدد والإفراط، وإنما الغلو والتشدد والإفراط تطرف، والتقصير والتهاون والتفريط تطرف أيضاً، وكلاهما مهلكة للفرد والمجتمع.

٧. جواز مدح المرء في وجهه، ومحله إذا أمن عليه الافتتان والاعتزاز.

٨. أن الله أمر العباد بما يصلحهم، ولم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به^(٣).

المقصد الخامس: تعظيم المساجد أمر واجب.

ويدل على هذا المقصد العظيم قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٤):

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾: أي توجهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة، في أي مسجد كنتم، فالمراد بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ هو استقبال القبلة.

﴿مَسْجِدٍ﴾: المسجد اسم منقول في الإسلام للمكان المعين المحدود المتخذ للصلاة، ومعلوم أن المساجد بيوت الصلاة والذكر وقراءة القرآن.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٣/٦٦. ١٠٧).

(٢) التفسير المظهر (٣/٣٣٩)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٨/٣٤٧)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ١٥٢، ٦٩)، ومجموع رسائل ومقالات: عبد الله بن حسن قعود (ص: ١٠٨).

(٣) تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية: خالد فوزي حمزة (٢/١١٠٤).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦١)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/١٨٨)، والفتاوى الكبرى: ابن

تيمية (١/٥١)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٨٨).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

هذه الآية عطفٌ على قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، أي: قل يا محمد لأولئك المخاطبين أقيموا وجوهكم، والقصد الأول منه إبطال بعضٍ مما زعموا أن الله أمرهم به بطريق أمرهم بضدٍّ ما زعموه ليحصل أمرهم بما يرضي الله بالتصريح، وإبطال شيء زعموا أن الله أمرهم به بالالتزام؛ لأنَّ الأمر بالشَّيء نهيٌّ عن ضده، فالشعائر التي يوقعون فيها أعمالاً من الحجِّ كلها مساجد، ولم يكن لهم مساجد غير شعائر الحجِّ، فذكر المساجد في الآية يعيَّن أن المراد إقامة الوجوه عند التوجه إلى الله في الحجِّ بأن لا يشركوا مع الله في ذلك غيره من أصنامهم بالنَّية، فالأمر بإقامة الوجوه عند المساجد كلها أمرٌ بالتزام التوحيد وكمال الحال في شعائر الحجِّ كلها، فهذه مناسبة عطف قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عقب إنكار أن يأمر الله بالفحشاء من أحوالهم، وإثبات أنه أمر بالقسط مما يضادها.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنَّ الله أمر بالاستقامة في عبادته في محالها، وعلى وجه الخصوص في المساجد، فتوجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً الصلاة أقيموها، ظاهراً وباطناً، ونقوها من كلِّ نقصٍ ومفسدٍ.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية:

اللطيفة الأولى: إقامة الوجوه تمثيلاً لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى، في مواضع عبادته، بحال المنتهئ لمشاهدة أمرٍ مهم حين يُوجه وجهه إلى صوبه، لا يلتفت يمنةً ولا يسرةً، فذلك التَّوجه المحض يطلق عليه إقامة؛ لأنَّه جعل الوجه قائماً، أي غير متغاضٍ ولا متوانٍ في التَّوجه، وهو في إطلاق القيام على القوة في الفعل كما يقال: قامت السُّوق، وقامت الصَّلَاة.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: أخلصوا له سجودكم، أي: صلاتكم، وفيه تسمية الكل باسم أشرف أجزائه؛ لأنَّ أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد^(٣).

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٧/٨، ٨٨/٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٨/٢) وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٢٩٠)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٢٦٧/٢)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٧/٨).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

المعنى أن الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد؛ لأن ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة، ولم يأمر بتعظيمه ولا تعظيم مساجده بما سوى ذلك مثل التّعري، وإشراك الله بغيره في العبادة منافٍ لها أيضاً، فالنهي عن التّعري مقصودٌ في الآية لشمول اللفظ إياه، ولدلالة السياق عليه بتكرير الامتتان والأمر باللباس، وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين؛ لأنهم المنصّفون بضده، فللمؤمنين منه حظُّ الدوام عليه، كما كان للمشركين حظُّ الإعراض عنه والتفريط فيه، والمقصد من الآية إبطال الشرك في عبادة الله، وفي إبطاله تحقيقاً لمعنى القسط المأمور به شرعاً. وأهل الأهواء والبدع يُعطلون المساجد ويُعظمون المشاهد، يدعون بيوت الله التي أمر الله أن يذكر فيه اسمه، ويعبد وحده لا شريك له، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها ويكذب ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً، فإن الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ولم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور، وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه؛ مقصودهم تبديل دين الإسلام، وصنف أهل الفرية والهوى الأحاديث في زيارة المشاهد والصلاة عندها والدعاء عندها وما يشبه ذلك، فصار هؤلاء وأهل البدع المتبعون لهم يعظمون المشاهد ويهينون المساجد، وذلك ضد دين المسلمين ويستترون بحب آل البيت، ومما يبيّن ذلك أن الله لم يذكر المشاهد ولا أمر بالصلاة فيها وإنما أمر بالمساجد فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤] ولم يقل: مشاهد الله، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ولم يقل عند كل مشهد، فإن المساجد هي بيوت الله في الأرض التي يُذكر فيها اسم الله كثيراً، هي أشرف البقاع.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. أن الله تعالى أمر في هذه الآية بالصلاة.
٢. لفظ الآية يدل على وجوب إقامة الوجه في كل مسجد.
٣. أن المساجد بيوت الله، ومحل ذكره، وعبادته، وماوى ملائكته؛ ولذلك مكره أن يتخذ المسجد طريقاً إلا لحاجة؛ فإن المساجد إنما بُيئت للذكر، والصلاة، والقراءة.
٤. أن المسجد صلة للعبد بربه؛ فإذا انقطعت الصلة بالله حدث للقلب قسوة، وغفلة.

(١) قاعدة في الوسيلة: ابن تيمية(ص:١٦٢)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية(٢٧/١٩١، ١٦٧)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية(٢/٢١٨)، وكتاب: دعة على التوحيد: مجلة البيان(ص٢٠١٦)، والانحرافات العقديّة والعلمية: علي الزهراني(١/٥٣)، والتحرير والتتوير: الطاهر ابن عاشور(٨/٨٨).
(٢) التفسير الكبير: الرازي(١٤/٦٢، ٦١)، والشرح الممتع على زاد المستنقع: محمد بن صالح العثيمين(١/٣٧٣، ٣٥١)، والانحرافات العقديّة والعلمية: علي الزهراني(١/٥٣).

٥. الآية ردُّ على أهل البدع والأهواء الذين يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فلا يقيمون فيها جمعة ولا جماعة، ويبنون على القبور المكذوبة مساجد يتخذونها مشاهد ما أمر الشرع بها.

المقصد السادس: الإخلاص أس قبول العمل

ويبدلُ على هذا المقصد الإيماني قول الله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

ادْعُوهُ: الدُّعاء بمعنى العبادة، أي: اعبدوه، والدُّعاء عبارة عن توجه القلب إلى طلب شيء معين من الله، والدُّعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تريدوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه.

مُخْلِصِينَ: الإخلاص تمحيص الشيء من مخالطة غيره، وتدلُّ مادة (خلص) في لسان العرب على معنى واحدٍ، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، وقد سُميت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص؛ لأنها خالصة في صفة الله خاصة، أو لأنَّ القارئ بها قد أخلص التوحيد لله، والخلوص أصله التقصِّي من الشيء وعدمُ الشركة فيه، والخالص الصافي. والإخلاص شرعاً: إفراد الله في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد العبد بطاعته التقرب إلى الله.

الدِّين: الدين بمعنى الطَّاعة، من قولهم: دنت لفلانٍ، أي: أطعته.

ثانياً: المعنى العام للآية^(٢):

بيِّن لهم يا محمد ما أمر الله تعالى به، وقل لهم أمركم الله أن تخصُّوه وحدَه بالعبادة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأن تكونوا مُخلصين له فيها.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣٤/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٥٢٠)، والتبيان في آداب حملة القرآن: النووي (ص: ٢٧)، وتفسير الجلالين: المحلي والسيوطي (٢/٦٦٧)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٨٨)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣)، ومن أسرار اللُّغة في الكتاب والسُّنة: محمود الطناحي (٢/٥٤٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/١٨٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/٧٧).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ الله لما أمر في الآية الأولى بالتوجه إلى القبلة أمر بعده بالدُّعاء، والأظهر في الآية أنَّ المراد بها أعمال الصَّلَاة، وسماها دعاءً؛ لأنَّ الصَّلَاة في أصل اللُّغة عبارة عن الدُّعاء؛ ولأنَّ أشرف أجزاء الصلاة هو الدُّعاء والذكر، وبينَ أنَّه يجب أن يؤتى بذلك الدُّعاء مع الإخلاص. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فيه إنذارٌ بأنَّهم مؤاخذون على عدم الإخلاص في العبادة. والإخلاص أمرٌ قلبيٌّ لا يطلع عليه إلا الله، وإنَّما أمانة ذلك اتباع رسول الله (ﷺ)، والتقييد بما شرع الله في الظاهر والباطن؛ لأنَّ الظاهر على الباطن دليلٌ، فإنَّ أصل الدِّين هو حُسن النية وإخلاصُ القصد، فكم في النفوس من عللٍ وأغراضٍ وحظوظٍ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصةً، وأن تصل إليه، وإنَّ العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشرٌ ألبته، وهو غير خالصٍ لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر. فإنَّ هذا الدِّين له قواعده المحددة، وأهدافه المرسومة، فهو منذ اليوم الأوَّل، وهو يخاطب العالمين، إنَّما يخاطبهم بقاعدة واحدة ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد، هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد، لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين. فالإخلاص: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقات، وهو استواء أفعال العبد ظاهراً، وباطنه.

رابعاً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. ضرورة الإخلاص لله في سائر الأعمال؛ لأنَّ العبادة لا تجوز إلا بالإخلاص.
٢. أنَّ ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة، لذلك فلا بُدَّ من صونها عن الرياء المبطل لحقيقة الإخلاص.
٣. أنَّ اليسير من الحسنات إذا كان خالصاً لله كَفَّر كثيراً من السيئات.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٦٢/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥٨/١٥)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ٢١١)، والتبيان في آداب حملة القرآن: النووي (ص: ٢٧)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/٤٣٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٨٩)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٥٢١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٣٥/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٥٩/١٠)، والفقهاء النافع: أبو القاسم السمرقندي (١/٣٢٧)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥/٥٣٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/٧٨).

المقصد السابع: البعث^(١): إعادة الإنسان روحاً وجسداً كما كان في الدنيا.

وبدلٌ على هذا المقصد العقدي قول الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

بَدَأَكُمْ: أي: بدأ خلقكم من عدم أول مرة، ولم تكونوا شيئاً.

تَعُودُونَ: أي: للبعث، فالقادر على بدء خلقكم، قادرٌ على إعادته، بل الإعادة أهون من البدء.

فقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً كذلك ﴿تَعُودُونَ﴾ أحياء.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

إنَّ الله أمر في الآية أولاً ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وهي كلمة (لا إله إلا الله) ثم أمر بالصلاة ثانياً ثم

بيَّن أنَّ الفائدة في الإتيان بهذه الأعمال إنما تظهر في الدار الآخرة.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٤):

بيَّن لهم يا محمد ما أمر الله به، وقل لهم: كلُّكم بعد الموت راجعون إليه، وكما بدأ خلقكم

ببُسرٍ، وكنتم لا تملكون إذ ذاك شيئاً، ستعودون إليه تاركين ما خوَّلكم من النعم وراء ظهوركم.

والمعنى: كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم، فيكون المقصود الاحتجاج على منكري البعث،

فبجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقيل: كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه

كذلك ليس معكم شيء، وقيل: كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٥):

اللطفة الأولى: الكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ في موضع نصبٍ؛ أي: تعودون كما بدأكم، أي:

كما خلقكم أول مرة يعيدكم، وهو متعلق بما قبله، أي: ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون، فالكاف

في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ لتشبيهه عود خلقهم ببده، و﴿مَا﴾ مصدرية، والتقدير: تعودون عوداً جديداً

كبدئه إياكم فقدم المتعلق الدال على التشبيه على فعله وهو ﴿تَعُودُونَ﴾ للاهتمام به.

(١) البعث في اللغة: وهو الإثارة، والمراد به في الشرع: إحياء الأموات، وخرجهم من قبورهم ونحوها؛ للجزاء يوم

القيامة. ينظر: مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٦٦/١)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٥٧/٢)، وآراء ابن حجر

الاعتقادية (ص: ٥٣٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٦٢/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٨/٢)، والمختصر في التفسير: مركز

تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٦٢/١٤).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٢٨٠/٢)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٧٧/٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٨/٧)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٤٤/٣)، والتحرير

والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٩/٨)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٧/٢).

اللطفة الثانية: قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ للردِّ على منكري البعث، أي: يعيدكم أحياء بالأرواح والأجساد بعينها.

اللطفة الثالثة: قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: خلقهم من التُّرابِ وإلى التُّرابِ يعودون، والحكمة في ذلك أنه ما فخر من خلق من التُّرابِ وإلى التُّرابِ يعود وما تكبر من هو اليوم حيٌّ وغداً يموت وأن الله وعد المتكبرين أن يضعهم ويرفع المُستضعفين.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

المقصود من هذه الآية تذكيرٌ لهم بإمكان البعث الذي أحالوه، فكان هذا إنذاراً لهم بأنهم عائدون إلى الله فمُجازون عن إشراكهم في عبادته، وهو أيضاً احتجاجٌ عليهم على عدم جدوى عبادتهم غير الله، وإثباتٌ للبعث الذي أنكروه بدفعٍ موجبٍ استبعادهم إياه؛ لأنَّ ذلك البعث ليس بأعجب من خلقهم الأول كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم: ٢٧]، أي: بنقيض تقدير استبعادهم الخلق الثاني، وتذكير لهم بأنَّ الله منفردٌ بخلقهم الثاني، كما انفرد بخلقهم الأول، فهو منفردٌ بالجزاء فلا يغني عنهم آلهتهم شيئاً. فالبعث هو إخراج الله العباد من قبورهم أحياء حفاةً غراءً غرلاً بهماً بعد النفخة الثانية في الصور، فمن قال: إنه لا يوجد بعث، وإنما هي الحياة الدنيا فحسب! فهذا كافر؛ لأنه مُكذِّبٌ لله ولرسوله وإجماع المسلمين، ولما هو معلومٌ من الدين بالضرورة، والقرآن مملوءٌ من الردِّ على منكري البعث، فالذي خلقهم في أول الأمر قادرٌ من باب أولى على إعادتهم، ولو لم يوجد بعثٌ وجزاءٌ على الأعمال لكان خلقُ الخلق عبثاً، كيف يخلقهم ويعلمون الأعمال الصالحة أو الأعمال الكفريَّة ثم يموتون ويتركون، هذا لا يليقُ بعدلِ الله، فالله تعالى لا يُبدِّ أن يبعث النَّاسَ ويميز المؤمنين من الكفار ويُجازي المؤمنَ بإيمانه، ويُجازي الكافر بكفره، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ هَدَى الْكُفَّارَ وَالْمَشْرِكِينَ وَالْعَصَاةَ بِأَنَّهُمْ سِيرَجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَيُحَاسِبُونَ وَيُجَازُونَ، فدلَّ على أنَّ البعث لا بُدَّ منه، وأنه كائنٌ لا محالة، والدنيا دارٌ عملٍ، والأخرة دارٌ جزاءٍ، هذه حكمةُ الله؛ فإنَّ القرآن قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، ومن ذلك الاستدلال على المعاد الجسماني بضروب منها:

١. قياس الإعادة على الابتداء قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢. قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى نحو: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨٩/٨)، والعقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد الفاضلي (ص: ٦٢)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ١٥٨).

٣. قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات نحو: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا... فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [الأعراف: ٥٧].
٤. قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فلم سبحانه كيفية الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلّة الحدوث ثم زاد في الحجاج بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠] وهذا في غاية البيان في ردّ الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيثُ تبديل الأعراض عليهما^(١). وقد عنى القرآنُ أيّما عناية بأهمية الإيمان باليوم الآخر، وسرّ العناية باليوم الآخر أنّ الإيمان به يعدُّ الدِّعامة الأولى في بناء الدِّين كله، وإذا انهار هذا الأساس انهار الدِّين، فلم يعد له من بقاء، فعقيدة المرء في الحساب وأنّه مجزى بعمله على الخير والشر، هي التي تدفعه إلى التفكير السليم، كي يصل إلى العقيدة الصحيحة التي يؤمن بها، وإلى العمل الصالح واجتتاب مساوئ الأمور، كي يجزى على الخير بالحسنى، ويتقى أليم العذاب، ولو أنّ عقيدة البعث قد انمحت، ما كان للفضيلة سلطان على نفوس النَّاس يقودها، رهبة ورغبة، وقد دلل القرآن على أنّ اليوم الآخر آتٍ لا ريب فيه، يبرهن على ذلك بقدرة الله على خلق هذا العالم وما فيه، بل يؤيد مقدرته على البعث بما هو معروف لدينا، من أنّ إعادة ما عمل العامل أسهل عليه من بدء العمل، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم: ٢٧] ففي مستطاعه أن يعيد ما بدأ خلقه، أو ليس من خلق السموات والأرض وهي بهذه الفخامة والإحكام قادراً على أن يخلق مثل هذا الإنسان الحقيّر الضئيل، ويقرب القرآن أمر البعث إلى نفوسهم، فيوجه أنظارهم إلى الأرض الميتة ينزل عليها الماء، فتنبت فيها الحياة، وتنبت من كل زوج بهيج، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ... كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [الأعراف: ٥٧] وإذا كانوا يرون هذه الظاهرة في كلِّ حين، فمن المعقول أن يكون لها شديد التأثير في نفوسهم، لقربها منهم، وقوة دلالتها على قدرة الله على بعث الحياة في الجماد الميت^(٢). لذلك فإنّ أهل السُنّة قد أجمعوا على أنّ الأجساد تعاد كما كانت في الدنيا بأعيانها وألوانها وأعراضها وأوصافها، وأنّ البعث يشمل الحيوان والآدميين والجان، فاعتقاد السلف الصالح أنّ المعاد الجسماني حقٌّ واقعٌ وصدقٌ صادقٌ

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٤/٢ . ٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨٤/٤)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٥٧/٢)، ومن بلاغة القرآن: أحمد البدوي (ص ٢١٩ . ٢٢١)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ٥٢٩، ٥٢٨).

دلَّ عليه النقل الصحيح، ولم يمنعه العقل الصريح فوجب الإيمان به، والتصديق بموجبه؛ لأنَّه جاء في السماع الصحيح المنقول، ودلَّ عليه صريح المعقول، وهو أنَّ يبعث الله الموتى من القبور بأنَّ يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها، فالبعث ثابت بالأدلة النقلية والعقلية، بأوجه متعددة، وطرق متنوعة، توجب القطع به، والإيمان بحصوله، ولهذا أجمع أهل الملل عن آخرهم على جوازه ووقوعه، فإذا كان يوم القيامة الكبرى أُعيدت الأرواح إلى أجسادها، وقاموا من قبورهم لربِّ العالمين، فمعاد الأبدان متفقٌ عليه عند المسلمين ومذهب أهل السنة هو إثبات معاد الأرواح والأبدان جميعاً، وأنَّ الإنسان إذا مات كانت روحه منعمةً أو معذبةً، ثم تعاد روحه إلى بدنه عند القيامة الكبرى، ولهذا يذكر الله في كثير من السور أمر القيامتين: القيامة الصغرى بالموت، والقيامة الكبرى حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلى أبدانهم^(١). وعليه فالحقُّ أنَّ البعث جسماني روحاني، وأنَّ تعلق الروح بالجسد يوم البعث هو أكمل أنواع تعلقها؛ إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً، ولا فساداً، والقول باستحالة الأجساد بعد موتها تراباً كما كانت إلا عجب الذنب، هو ما عليه أهل السنة الجماعة، ويشهد له قول رسول الله (ﷺ): "كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجَبَ الذَّنْبِ؛ منه خلق ومنه يُرْكَبُ الخلقُ يوم القيامة"^(٢). ويستنتى من هذا الأنبياء والشهداء، فعند أهل السنة أنَّ تلك الأجساد الدُّنياوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلافٍ بينهم، والإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون، وهي التي يدلُّ عليها لفظ الإعادة، والمعاد هو الأول بعينه، وهي تقتضي إعادة المخلوق من المادة التي استحال منها بعد فنائه، ولو كان المراد بها إعادة جسم آخر لم يكن هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب منه وإنكاره؛ لأنَّهم يرون خلق البشر يوماً بعد يومٍ ماثلاً للعيان، ولما صح تسميته بعثاً، بل يسمى حينئذٍ خلقاً جديداً^(٣).

سابعاً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٤):

١. إنكار البعثِ يلزم من إنكار الإيمان بالله تعالى.
٢. أنَّ إنكار المعاد الجسماني فيه تكذيبٌ للنقل الصريح، والعقل الصحيح، والفتنة السليمة.

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٧/٦)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير . باب يوم ينفخ في الصور، حديث رقم (٤٩٣٥)، (ص: ٦٠٥).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٥٥/١٧)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ٥٣٣).

(٤) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٥٧/٢)، وشرح العقيدة الواسطية: ابن عثيمين (ص: ٤٩١)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ١٥٩)، والإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه: عبدالقادر عودة (ص: ١١).

٣. أن البعث إعادة، وليس تجديداً، فهو إعادة لما زال وتحول؛ فإنَّ الجسد يتحول إلى ترابٍ، والعظام تكون رميمًا؛ ويجمع الله هذا المتفرق حتى يتكون الجسد، فتعاد الأرواح إلى أجسادها وأمّا من زعم بأنَّ الأجساد تخلق من جديد، فإنَّه زعمٌ باطلٌ يردّه الكتاب والسُّنة.

٤. أنَّ الدُّنيا دار ابتلاءٍ وفناءٍ، وأنَّ الآخرة دار بقاءٍ وجزاءٍ، وأنَّ الإنسان مسؤولٌ عن أعماله في الدُّنيا، مجزيٌّ عنها في الآخرة، فإن فعل خيراً فلنفسه، وإن أساء فعليها والجزاء الدُّنيوي لا يمنع من الجزاء الأخروي، ولا يسقطه إلا إذا تاب الإنسان وأناب.

المقصد الثامن: الدِّين ترغيبٌ في الهداية وترهيبٌ من الضلالة.

ويدلُّ على هذا المقصد الجليل قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

فَرِيقًا: الفِرقة الطائفةُ من النَّاسِ، والجمعُ فرِقٌ، والفريق كالأمير والجمع أفرقاء وأفرقة وفروق.

هَدَى: هدي كلمة تدلُّ على معنيين أحدهما: التقدم للإرشاد، والآخر بعثة لطف، والهدى خلاف الضلالة، والهدى من الله بيان طريق الصواب بإعانةٍ، ومعنى: هَدَى اللهُ، أي: وفقهم للهداية، ويسر لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها.

الضَّلَالَةُ: كلمةٌ تدلُّ على ضياع الشيء وذهابه في غير حَقِّه، وكلُّ جائرٍ عن القصد ضالٌّ، ومعنى: حَقَّ عليهم الضلالة: وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم، وعملوا بأسباب الغواية.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

هذه الآية وثيقة الصِّلة بالآية التي قبلها، والمعنى أي: ادعوه مخلصين حال كونكم فريقين: فريقاً هداه الله للإخلاصِ ونبذ الشُّرك، وفريقاً دام على الضلال ولزم الشُّرك.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

إنَّ الله جعل النَّاسَ فريقين: فريقاً منهم هداه، ويسر له أسباب الهداية، وصرف عنه موانعها، وفريقاً آخر وجبت عليهم الضلالة عن طريق الحقِّ، ذلك أنَّهم صيِّروا الشياطين أولياء

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٤٢/٦)، (٣٥٦/٣)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٣٠/٤)، وتقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية: خالد فوزي حمزة (١٠٩٧/٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٠).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩٠/٨).

(٣) الكشاف: الزمخشري (٧٥/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٧/٧)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٠/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٣٠/٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣).

من دون الله، فانقادوا لهم جهلاً، والفريق الذي هداه الله هم المؤمنون بالله، والفريق الذي حقت عليه الضلالة هم الكفار، وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله، والآية تحذير بليغ. رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿فَرِيقًا﴾ نصب على الحال من المضمرة في: ﴿تَعُوذُونَ﴾ أي: تعودون فريقين: سعداء، وأشقياء، وقيل: ﴿فَرِيقًا﴾ نصب بـ ﴿هَدَى﴾ و﴿فَرِيقًا﴾ الثاني نصب بإضمار فعل، أي: وأضل فريقاً، ثم بين الله أن الذي لأجله حقت على هذه الفرقة الضلالة هو إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله فقبلوا ما دعواهم إليه، ولم يتأملوا في التمييز بين الحق والباطل. **اللطيفة الثانية:** التقديم، حيث قدم ﴿فَرِيقًا﴾ الأول والثاني على عاملها للاهتمام بالتفصيل. **اللطيفة الثالثة:** جُرد فعل ﴿حَقَّ﴾ عن علامة التأنيث؛ لأنَّ فاعله غير حقيقي التأنيث.

اللطيفة الرابعة: من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة، وإن عمل بأعمال الهدى، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى، وإن عمل بأعمال الضلالة.

اللطيفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ استئناف مراد به التعليل لقوله: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله.

اللطيفة السادسة: المراد ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ إلى الجنة والثواب ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: العذاب والصرف عن طريق الثواب، وهذا ضعيف؛ لأنَّ قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ إشارة إلى الماضي وعلى هذا التأويل يصير المعنى أن الله سيهديهم في المستقبل، ولو كان المراد أن الله حكم في الماضي بأنَّه سيهديهم إلى الجنة كان هذا عدولاً عن الظاهر؛ لأنَّ الهدى والضلال من الله.

اللطيفة السابعة: إنَّ الفريق الذي حقَّ عليهم الضلالة ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تولوهم بالطاعة فيما أمرهم به، وهذا دليل على أنَّ علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنَّهم هم الضالون باختيارهم، وتوليهم الشياطين دون الله. ومذهب السلف أنَّ علم الله سابق وليس بسائق، ولا تأثير له في إرادة العبد، فإنَّ العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير.

(١) الكشاف: الزمخشري (٧٦/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٣/١٤)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٨/٧)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (١٤٤/٣)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٠/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٣١/٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٤٧/٧)، وحاشية الصاوي على تفسير الجالين (٦٦٧/٢)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩١/٨)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٦٩/١٣)، وشرح أصول العقيدة الإسلامية: نسيم شحدة ياسين (ص: ٢٣٨).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ المقام في الآية مقام ترغيب وترهيب، ومعنى: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ أَنْ فَرِيقًا هَدَاهُمْ اللهُ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ التَّعْلِيلُ ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾. وَهَذَا كُلُّهُ إِذَارٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الضَّلَالَةِ، وَتَحذِيرٌ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ، وَتَحْرِيزٌ عَلَى تَوْخِي الْإِهْتِدَاءِ الَّذِي هُوَ مِنَ اللهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ إِسْنَادُهُ إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُدَى﴾ فَيَعْلَمُ السَّامِعُونَ أَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ فَرِيقَيْنِ كَانَ الْفَرِيقُ الْمَفْلُحُ هُوَ الْفَرِيقُ الَّذِي هَدَاهُمْ اللهُ، وَأَنَّ الْفَرِيقَ الْخَاسِرَ هُمُ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ وَاتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَمَعْنَى: حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ثَبَتَتْ لَهُمُ الضَّلَالَةُ وَلِزْمِهَا، وَلَمْ يَقْلَعُوا عَنْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَخَاطِبِينَ كَانُوا مُشْرِكِينَ كُلَّهُمْ، فَلَمَّا أَمَرُوا بِأَنْ يَعْبُدُوا اللهُ مُخْلِصِينَ افْتَرَقُوا فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا هَدَاهُ اللهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَفَرِيقًا لَازِمَ الشَّرْكَ وَالضَّلَالَةَ، فَلَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِمْ حَالٌ جَدِيدٌ. وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الْفَرِيقَ الَّذِي حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ، لَمَّا سَمِعُوا الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ، لَمْ يَطْلُبُوا النَّجَاةَ وَلَمْ يَتَقَرَّرُوا فِي ضَلَالِ الشَّرْكَ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَوْحُوا شَيَاطِينَهُمْ، وَطَابَتْ نَفُوسُهُمْ بِوَسْوَاسَتِهِمْ، وَاتَّعَمَرُوا بِأَمْرِهِمْ، وَاتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، فَلَا جَرَمَ أَنْ يَدُومُوا عَلَى ضَلَالِهِمْ لِأَجْلِ اتِّخَاذِهِمُ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. الآية دليل على أن الهدى والضلال من الله تعالى.
٢. الآية حجة على أهل الاعتزال في كون الهداية والإضلال إلى الله ذي الجلال.
٣. أن الهداية بفضل الله ومثته، وأن الضلالة بخذلان الله للعبد إذا تولَّى بجهله الشيطان.
٤. النَّاسُ فَرِيقَانِ: مُهْتَدُونَ وَضَالُونَ، وَكُلٌّ حَسَبَ تَوَجُّهِهِ وَاخْتِيَارِهِ.

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/٩٠، ٩٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٤/٣٣١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/٧٨).

المقصد التاسع: لله تعالى أولياء، وللشيطان أولياء.

دلَّ على هذا التقسيم الشرعي قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا

الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَوْلِيَاءَ: الولي: مشتق من الولاء، وهو القرب، فولِّي اللهُ من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضىياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته هو الموافق المتابع له فيما يُحِبُّه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له.

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ: الحسبان الظنُّ، وهو في الآية ظنُّ مجردٌ عن دليلٍ. أي: يظنون أنهم على هدى، وحقٌ فيما اعتقدوا، والحال أنه ليسوا كذلك؛ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقاً والحق باطلاً.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

إنَّ الله عطف آية: ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ على آية: ﴿اتَّخَذُوا﴾ فكان ضلالهم ضلالاً مركباً، إذ هم قد ضلُّوا في الائتثار بأمر أئمة الكفر وأولياء الشياطين، ولما سمعوا داعي الهدى لم يتفكروا؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون لا يتطرق إليهم شكٌّ في أنهم مهتدون، فذلك لم تخطر ببالهم الحاجة إلى النظر في صدق الرسول (ﷺ) وعطف هذه الآية على التي قبلها، واعتبارهما سواء في الإخبار عن الفريق الذين حقَّت عليهم الضلالة، لقصد الدلالة على أن ضلالهم حاصلٌ في كلِّ واحدٍ من الخبرين، فولاية الشياطين ضلالةٌ، وحسبانهم ضلالهم هدى ضلالة أيضاً، سواء كان ذلك كله عن خطأ أو عن عنادٍ، إذ لا عذر للضالِّ في ضلاله بالخطأ، لأنَّ الله نصب الأدلة على الحقِّ وعلى التمييز بين الحقِّ والباطل.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

بيَّنت الآية أنَّ النَّاسَ سيكونون يوم القيامة فريقين: فريقاً هداهُ اللهُ؛ لأنَّه اختار طريقَ الحقِّ فأمن وعمل عملاً صالحاً، وفريقاً آخر أضلَّهُ اللهُ على علمٍ؛ لأنَّه اختار طريقَ الباطل، وهو الكفر والعصيان، وهؤلاء الضالون قد اتخذوا الشياطين أولياءً من دون الله فاتبعوهم، وهم يظنون أنهم موقفون لا غترارهم بخداع الشياطين.

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٢)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٢/١١)،
والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩١/٨)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٧/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥٢/٧)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩٢/٨).

(٣) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٧٧/٣).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: إذا كان الشخصُ مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات، ويتوجه إليها، أو يلبس الكلاب أو النيران، أو يأوي إلى المزابل، أو إلى المقابر، أو يكره سماع القرآن، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، فهذه علامات أولياء الشيطان، لا علامات أولياء الرحمن.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي: لم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

قد بيّن الله في كتابه وسنة رسوله (ﷺ) أنّ الله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، وفرّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فمن شهد له محمد (ﷺ) بأنّه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنّه من أعداء الله فهو من أعداء الله وأولياء الشيطان، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطناً وظاهراً، ومن خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان. وإذا عرف أنّ الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرّق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرّق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وأولياء الله هم الذين آمنوا به ووالّوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورزوا بما يرضى، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع، وأفضل أولياء الله هم أنبيأؤه، ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، ولا بدّ في الايمان من أن يؤمن العبد أنّ محمداً (ﷺ) خاتم النبيين، وأنّ الله أرسله إلى الجنّ والإنس، فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين، ومن الايمان به الايمان بأنّه هو الوساطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله، والدّين ما شرعه الله ورسوله (ﷺ)، فمن اعتقد أنّ لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمداً (ﷺ) فهو كافر من أولياء الشيطان، فمن لم يؤمن بجميع ما جاء به محمداً (ﷺ) فليس بمؤمن، ولا ولي لله، ومن كانت هذه صفته لم يكن من المتبعين للرسل، فلا بدّ أن يكذبوا وتكذّبهم شياطينهم، ولا بدّ أن

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١١٠)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٢٨١)، وفتح

البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٤/٣٣١).

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٤، ٣٠، ١٥، ٣٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن

كثير (٢/٢٠٩)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٣٦)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٥٢).

يكون في أعمالهم ما هو إنهم وفجور، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين، واقتربت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الرُحْف:٣٦] وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسول الله مثل القرآن، فمن لم يؤمن بالقرآن، ويصدق خبره، ويعتقد وجوب أمره، فقد أعرض عنه، فيقيض له الشيطان فيقترب به. وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يُعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لرئيه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل، وهو يحسب أنه مهتد، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية، ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة، فطافوا عراً، وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهداف وهدايات^(١):

١. الآية دليل على أن الكافر المخطئ، والجاحد والمعاند سواء في استحقاق الذم.
٢. دلت هذه الآية على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين؛ لأن الله عاب وذم الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين، ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك.
٣. أن ولاية الشيطان طريق الهواية والغواية، وأن المعصية شوم وعذاب.
٤. دلت الآية على أن كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم والعذاب سواء حسب كونه هدى وحقاً أو لم يحسب ذلك.
٥. أن أولياء الله هم المؤمنون المتقون، وبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق.
٦. أن المشركين حين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، واكلوا إلى أنفسهم فحسروا أشد الخسران.
٧. أن من حسب أنه مهتد وهو ضال، فإنه لا عذر له؛ لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦٣)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص:٤٢)، وفتح

البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٤/٣٣١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص:٢٩٠).

الفصل الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٦-٣١).

الإسلام هو الدين السماوي المنزل

ويتكون ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٣٧-٣١).

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٢-٣٨).

المبحث الثالث: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٦-٤٣).

المبحث الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣١-٣٧)

الغلو والإسراف انحرافاً عن منهج الله

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الإسلام يحثُ على الجمال

المطلب الثاني: إيجاب التَّوْحِيد وتَحْرِيم الشُّرْكَ

المبحث الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣١-٣٧)

الغلو والإسراف انحراف عن منهج الله

تمهيد وتوطئة:

يتضمن هذا المبحث قصة الدين الذي كان هدى لبني آدم الأولين، وقد اشتمل على الأس العامة للدين الذي جاء به جميع رسل الله من بعد آدم لأممهم، وبلغه كل رسول لأمتة، وأخيراً ختم الله به رسالاته للناس أجمعين بما أنزل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين برسالة عامة شاملة تامة، وقد خاطب الله تعالى في هذا المقطع القرآني بني آدم بكثير من الشرائع والأحكام الدينية على سبيل الإخبار المقتطع مما خاطب به بني آدم الأولين منذ عهد آدم (عليه السلام) أو إشعاراً بأن هذه التعليمات والتوجيهات الربانية قد تلقاها بنو آدم الأولون، مما أوحى الله تعالى به إليه من هدى، باعتبار أن آدم بعد أن تاب الله عليه هداً واجتباؤه، فهو أول نبي للناس يبلغ هدى ربه وشرائعه وأوامره ونواهيه لعباده.

وترشد آيات هذا المبحث إلى دُورسٍ وعبرٍ كثيرة، منها^(١):

١. وجوب أخذ الزينة عند مواضع الصلاة وعند أدائها.
٢. تحريم القول على الله تعالى بغير علم ولا هدى.
٣. تحريم الفواحش وكل ما يقود إلى المعصية، والشرك بالله من أعظم المحرمات.
٤. الآجال والأعمار محددة عند الله تعالى.
٥. المفترون على الله الكذب والمكذبون بآيات الله هم أظلم الناس.
٦. براءة المشركين من شركائهم يوم القيامة، ومصيرهم جميعاً إلى النار، وسينالون جزاءهم العادل.
٧. خروج الكفار من نار جهنم أمر ميثوس منه، ولا رجاء فيه.
٨. الكفر والطغيان والفساد سبب إدخال الناس نار جهنم.

مناسبة هذا المقطع القرآني لما قبله:

إن المقطع القرآني السابق قد انتهى ببيان أن آدم وحواء أهبطا من الجنة عاريين جسياً بسبب خطيئتهما التي تعريا بها نفسياً وسلوكياً عما يقيهما من عقاب الله إذ سقطت عنهما بالمعصية وقايتهما، وبدت لهما سوءات إثمهما تأثراً بوساوس إبليس الشيطان وتسويلاته، الذي هو عدو لهما ولذريتهما، فكانت مكاييد إبليس الشيطان هي السبب في ارتكاب المعصية، طمعاً في أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين، كما وسوس لهما الشيطان، وقد تسبب ارتكبهما

(١) معارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (١٥٣/٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٨١، ٨٥/٣).

المعصية بالأكل من الشجرة المحرمة في نزع أكسبتيهما المادية عنهما، وكان هذا النزع ظاهرة من ظواهر العقاب المعجل لهما، قبل توبتهما، وكان مُمَثِّلاً لنزع لباس التقوى عنهما، وكان سبباً في إخراجهما من الجنة إلى الأرض، ليستكْمِلا رحلة امتحانها عليها، ولتبدأ ذُرِّيَّاتهما رحلات امتحانهم وابتلائهم عليها، وقد جاء هذا المقطع القرآني مُبْتَدئاً ببيان بدء رحلات امتحان بني آدم بمنة الهداية لصناعة الألبسة الساترة للسوءات وسائر الأجساد، وصناعة الرياش، وهو الأثاث الفاخر، وكل ما فيه رفاهية للعيش، والهداية لما يقي من عذاب الله يوم الدين، من اعتقادٍ وخلقٍ أو عمل ظاهر أو باطن، وهذا الواقي شبيهة بالأكسية والدروع الواقية، والألبسة الساترة للعورات، وهو في الحقيقة خيرٌ وأعظمُ نفعاً للإنسان من الألبسة الساترة للأجساد، والواقية لها من ضرر الحرِّ والبرد، وقُبِحَ انكشاف السوءات الجسدية، ذات المناظر المستكرهة التي يدعو كشفها إلى إشاعة الفاحشة، وتساؤد الناس كالبهائم المهملة.

ولذلك وبعد المنة بهذين السّترين الواقيين المادّي والمعنوي حذر الله تعالى بني آدم من أن يَفْتِنَهُم الشيطان، فيُصِدَّهُم أو يحوّلهم عن صراط الله حتى لا يكون من أهل الجنة، بل من أهل النار بعد رحلة الامتحان والابتلاء في الحياة الدنيا على الأرض، كما فعل بأبويهم إذ أوقعهما بحيله ووساوسه وتسويلاته في الفتنة، حتى وقعا في معصية ربهما، فكان السبب في إخراجهما من الجنة عقوبةً لهما وابتلاءً^(١).

فالمناسبة هي أن الله بعد أن أمر عباده بالقسط، وهو العدل والاستقامة في كل الأمور، طلب إلينا أخذ الزينة في كل مجتمعٍ للعبادة، صلاةً أو طوافاً، وأباح لنا الأكل والشرب من غير إسرافٍ؛ فإن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراةً، الرّجال بالنهار، والنساء بالليل^(٢).

فبعد ما أنزل الله على بني آدم لباساً يوارى سوءاتهم وريشاً قال: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً، ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس^(٣).

(١) معارج التفكير ودقائق التدبير: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١٥٢/٤).

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي (١٨٢/٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١).

المطلب الأول: الإسلام يحثُ على الجمال

وفيه عشرة مقاصد:

المقصد الأول: التجمل في الصلاة أدب مع الله

ويدلُّ على هذا الهدي الرباني قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

آدَمَ: آدم أبو البشر، سمي بذلك لكون جسده من أديم الأرض، وقيل: لسمرته في لونه.

خُذُوا: الأخذ: حوز الشيء وتحصيله، والأخذ: تحصيل الشيء، وهو حقيقة في التناول.

زِينَتَكُمْ: الزينة: اسم جامع لكل شيء يُتزين به، والزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو

هيئة، والزينة الحقيقة: ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

مَسْجِدٍ: أي: بيت بُني للعبادة، على أنه اسم مكان، أو مصدر بمعنى السجود، مراداً به الصلاة

والعبادة؛ فإنَّ العبادة أولى أوقات التزين.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

إنَّ الله لما أمر بالقسط في الآية الأولى، وكان من جملة القسط أمر اللباس وأمر

المأكل والمشروب، لا جرم أتبعه بذكرهما، ولما أمر بإقامة الصلاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ

عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وكان ستر العورة شرطاً لصحة الصلاة، لا جرم أتبعه بذكر اللباس.

ثالثاً: سبب نزول الآية:

أخرج مسلمٌ عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كانت المرأة تطوفُ بالبيتِ وهي عُرْيَانَةٌ^(٣) وتقول:

مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوَّافاً^(٤) تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وتقول: اليوم يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ... وما بدأ منه فلا أحلُّهُ.

فنزلت هذه الآية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]^(٥). وقد أبطل النبي (ﷺ)

التعري في الطواف إذ أمر أبا بكر (رضي الله عنه) عام حجته سنة تسع، أن يُنادي في الموسم: "أَنْ لَا يَحْجَّ

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٧، ٧٠)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الكلبي (٧١/١)، ومحاسن لتأويل: القاسمي (٧/٥٥، ٥٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦٤).

(٣) هذه المرأة هي ضباعة بنت عامر بن فُرط . ينظر: تفسير القرطبي (٧/١٨٩).

(٤) قال النووي في "المنهاج شرح صحيح مسلم" (١٨/١٦٢): هو ثوبٌ تلبسه المرأة تطوفُ به، وكان أهلُ الجاهلية

يطوفون عُراً، ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاةً على الأرض، ولا يأخذونها أبداً، ويتركونها تداسُ بالأرجل حتى

تتلى، حتى جاء الإسلام فأمر الله بستر العورة.

(٥) مسلم في كتاب التفسير . باب قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، حديث رقم (٣٠٢٨)، (ص: ١٢١١).

ينظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول، حديث رقم (٦٢٥)، (١/٥٤٠).

بعد العام مُشْرِكٌ، ولا يَطُوفَ بالبيتِ عُرْيَانٌ^(١). فالآية نزلت في المنع من الطواف حال العري، لما كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً، ويقولون: ثياب عصينا الله فيها لا نطوف فيها^(٢).
رابعاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

هذه الآية ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراةً، فأمرهم الله باللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البرِّ والمتاع، فقال الله: يا بني آدم البسوا ما يستر عوراتكم، وما تتجملون به من اللباس النظيف الطاهر عند الصلاة والطواف.
خامساً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: هذا الآية خطابٌ لجميع بني آدم، وإن كان وارداً على سببٍ خاصٍ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

اللطيفة الثانية: إعادة النداء في صدر هذه الآية للاهتمام.

اللطيفة الثالثة: الأمر في قوله: ﴿خُذُوا﴾ للوجوب، والمقصود من توجيه الأمر أو إبطال التحريم الذي جعله أهل الجاهلية بأنهم نقضوا به ما تقرر في أصل الفطرة مما أمر الله به بني آدم كلهم، وامتن به عليهم، إذ خلق لهم ما في الأرض جميعاً، وهو شبيه بالأمر الوارد بعد الحظر.
اللطيفة الرابعة: الظاهر عند أهل التفسير أن الأمر في الآية للندب؛ لأنَّ خارج من ذلك لأنَّه أمرٌ بالزينة لا بستر العورة؛ لكنه يستلزم الستر من باب أخرى.

اللطيفة الخامسة: قول القائل: خذ زينتك أبلغ من قوله: تزين، وإضافة الزينة إشارة إلى أن كل واحدٍ منا يأخذ زينته اللاتفة بحاله.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ تعميمٌ، أي: لا تخصوا بعض المساجد بالنعري.

اللطيفة السابعة: قيل: لكل شيء زينة، وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي، ومن الزينة الصلاة في النعلين^(٥).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير. باب قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] حديث رقم (٤٦٥٦)، (ص: ٥٥٤)، والفتح (١٠/١٦٤).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٦/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٥/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٨٨/١١)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٩/٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٤٩/١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٠/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥٤/٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٦٥/١٤)، وتفسير ابن عرفة (٢٢١/٢)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩١/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٠/٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨١/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٢، ٩٤/٨).

(٥) ينظر: صحيح البخاري في كتاب الصلاة. باب الصلاة في النعال، حديث رقم (٣٨٦)، (ص: ٥٨).

سادساً: بيان المقصد في الآية^(١):

الأدب لفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، فالأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً، وعبر بعضهم عنه: بأنه الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوف مع المستحسّنات، وقيل: هو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك، وهو مأخوذ من المأدبة، وهي: الدعوة إلى الطعام، سمي بذلك؛ لأنه يدعى إليه، والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله، وأدب مع رسوله (ﷺ) وشرعه، وأدب مع خلقه، فالأدب مع الله ثلاثة أنواع: أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة، والثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره، والأخير: صيانة إرادته أن تتعلق بما يفتنك عليه، ومن تأمل أحوال الرسل مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به، والأدب هو الدين كله؛ فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب حتى يقف بين يدي الله طاهراً؛ ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه، قال ابن القيم: "وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "أمر الله تعالى بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة، فقال: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة؛ إيداناً بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة". وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي. وحقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل. ومعلوم أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لاسيما إذا وقف بين يديه؛ فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً وباطناً^(٢)، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره الآية: "ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة، والسواك؛ لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض، فالزينة زيادة على ستر العورة كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب والسواك والطيب، وقد حاول بعض المفسرين استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال: لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة في الصلاة، فهم منها في الجملة، حسن التزين بلبس ما فيه حسن وجمال فيها. وظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذي يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف، واستدل بالآية على كراهية الصلاة

(١) الاختيارات: ابن تيمية (٢٤/٤)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم (٣٨١/٢)،

وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٠/٢)، والتسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبى (٢٩٩/١)، وفتح الباري

بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٤٩١/١٣)، والثمر المستطاب: الألباني (٢٨٤/١)، والتحرير

والتنوير: ابن عاشور (٩٤/٨)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٢٤٢).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٢٠٠/٣).

في مساجد القبائل بغير أردية. واستدلَّ بها قومٌ من السلف على أنَّه لا يجوزُ للمرأة أن تصلي بغير قلادة أو قرطين، والأخير من الغلوِّ في النزع^(١)، وعن أبي هريرة^(٢) أن رسول الله^(ﷺ) قال: "لا يصلي أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقيه منه شيء"^(٣). الحكمة في ذلك أن لا يخلو العاتق من شيء؛ لأنه أقرب إلى الأدب، وأنسب إلى الحياء من الربِّ، وأكمل في أخذ الزينة عند المطلب، وسداً لذريعة ألا تتكشف العورة^(٤). وفي الحديث الصحيح قال رسول الله^(ﷺ): "إذا صلى أحدكم؛ فليلبس ثوبيه؛ فإنَّ الله أحقُّ من يُزيَّن له"^(٥).

سابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٥):

١. أن من السنة أن يأخذ الرجلُ أحسنَ هيئةٍ للصلاة.
٢. في الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة في الصلاة.
٣. المقصد أيضاً من هذه الآية إبطالُ ما زعمه المشركون من لزوم التعرِّي في الحجِّ في أحوال خاصَّة، وعند مساجد معيَّنة.
٤. العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالذي ينبغي للأمة التجميل عند حضور مشاهد الخير مع القدرة^(٦)، فقد كان السلف إذا تزاوروا تجمَّلوا.
٥. قد ظهر من السِّياق والسِّباق في هذه الآيات أن كشفَ العورة من الفواحش، فلا جرم يكون اللباسُ في الحجِّ منه واجبٌ، وهو ما يستر العورة، وما زاد على ذلك مباحٌّ مأذونٌ فيه إبطالاً لتحريمه^(٧).
٦. المؤمن مأمور بتعظيم شعائر الله من خلال ستر العورة والتجميل في أثناء صلاته وخاصة عند التوجه للمسجد.
٧. هذه الآية أصلٌ في اللباس.

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٥٧،٥٨/٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب الصلاة. باب إذا صلى في الثوب الواحد فليجعل على عاتقيه، رقم الحديث (٣٥٩)، (ص: ٥٥).

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد الحفيد (٢٨٥/١)، ومرقاة المصابيح: علي القاري (٤٧٩/١)، وصفة صلاة النبي^(ﷺ): الألباني (١٥٩/١).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٣/١)، ينظر: صفة صلاة النبي^(ﷺ): الألباني (١٤٦/١).

(٥) الكشف: الزمخشري (٧٦/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/١)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩٢/٨).

(٦) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: الصاوي (٦٦٨/٢)، ومن أدب الإسلام: عبد الفتاح أبو غدة (ص: ٧٢).

(٧) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩٤/٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية (ص: ١٥٤)، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد الحفيد (٢٨٥/١).

المقصد الثاني: ترك المأمور معصيةً، توجب العقاب.

ويدل على هذا المقصد قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

زِينَتَكُمْ: أجمع المفسرون على أن المراد بـ ﴿الزِينَةَ﴾ لبس الثياب التي تستر العورة، والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات، ولذلك صار التزيين بأجود الثياب في الجمع والأعياد سنةً.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

أمير المسلمون بالتزيين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف، والزينة: ما يتزين به الناس من الملبوس، وقد استدل بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة، وإليه ذهب جمهور أهل العلم، بل سترها واجب في كل حال من الأحوال، وإن كان الرجل خالياً.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانياً؛ فإنه عام في كل مسجد للصلاة؛ لأن العبرة للعموم لا للسبب، ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف؛ لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد، والذي يعم كل مسجد هو الصلاة، وهذا قول من خفي عليه مقاصد الشريعة.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أمرٌ، وظاهر الأمر للوجوب، فهذا يدل على وجوب ستر العورة عنه إقامة كل صلاة.

اللطيفة الثالثة: إن الألف واللام في قوله: ﴿الصَّلَاةَ﴾ ينصرفان إلى المعهود السابق، وذلك هو عمل الرسول ﷺ.

اللطيفة الرابعة: دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف؛ لأنه سبب النزول، واللفظ شامل للصلاة؛ لأنها مفعولة في المسجد.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٤):

الآية تقتضي وجوب اللبس التام عند كل صلاة؛ لأن اللبس التام هو الزينة، ترك العمل به في القدر الذي لا يجب ستره من الأعضاء إجماعاً، فبقي الباقي داخلاً تحت اللفظ، وإذا ثبت أن ستر العورة واجب في الصلاة، وجب أن تفسد الصلاة عند تركه؛ لأن تركه يوجب ترك

(١) التفسير الكبير: الرازي (٦٤/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥٥/٧).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢٨١/٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٨٩/٧)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٥/١٤)، ومحاسن التأويل:

القاسمي (٥٧/٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٦٥/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٣/٧).

المأمور به، وترك المأمور به معصيةً، والمعصية توجب العقاب، ودلت الآية على وجوب ستر العورة، وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة، وهي فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها، فإن ستر العورة شرط من شروط الصلاة^(١)، فإذا ظهرت بطلت الصلاة، ولما ثبت عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) قال: كان رجال يصلون مع النبي (ﷺ) عاقدي أزرهم على أعناقهم من ضيق الأزر في الصلاة كهيئة الصبيان، ويقال للنساء: لا ترفعن رؤوسكن حتى يستوي الرجال جلوساً^(٢)، ثم إنه قد عُرِفَ بالاستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمر ضرورية أو حاجية أو تحسينية، فالأولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها، وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، وهذه الضروريات هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، أمّا الحاجيات: فهي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر والسعة في عيشتهم، إذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة، ولكن يصيب الناس ضيق وحرَج، وأمّا التحسينات: فهي التي ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق، وإذا فاتت خرجت حياة الناس عن النهج القويم السليم الذي تقضي به الفطر السليمة والعادات الكريمة. وأحكام الشريعة كلها تحقق وتحفظ مصالح الناس المتعلقة بالضروريات والحاجيات والتحسينات، وأخذ الزينة عند كل مسجد من التحسينات^(٣)، فاستقراء نصوص الشريعة الغراء يدل على أن الإسلام ما قصد بتشريع الأحكام للناس إلا لحفظ هذه الضروريات والحاجيات والتحسينات، وهذه هي مصالحهم في الدنيا والآخرة، وإذا تعارضت المفاصد والمصالح رجح أعظمها مصلحة أو أقلها مفسدة.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. يؤخذ من الآية أن ترك الطاعات معصيةً، وأن ترك الفرائض المأمور بها، وهي واجبة على الفور كبيرة.
٢. أن الشريعة الإسلامية كلها مصالح، إمّا درء مفاصد أو جلب مصالح.
٣. أن الله لا يعاقب على ما أباح، وإنما يعاقب على ترك مأمور، وفعل محظور.

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد الحفيد (٢٨١/١).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة. باب إذا كان الثوب ضيقاً، حديث رقم (٣٦٢)، (ص: ٥٥)، وينظر: الجامع

لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٠/٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٤٩/١٣).

(٣) أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان (ص: ٥٨).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٣/٧)، والكبائر: الذهبي (ص: ٤١)، وأصول الدعوة: عبد الكريم زيدان (ص: ٥٧)،

وسلسلة ليدبروا آياته: مركز تدبير للدراسات والاستشارات التربوية والتعليمية (١٥٢/٥).

المقصد الثالث: الصَّلَاةُ^(١) خيرُ موضوعٍ في الأرضِ

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(٢):

مَسْجِدٌ: إنَّ السجود لله هو وضعُ الرأس بين يدي الله خضوعاً لعظمته، وتذلاً لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية^(٣)؛ لذلك كان أوَّل ما قام به الرسول (ﷺ) بالمدينة النبوية بناءً المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء بربِّ العالمين وتتقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدُّنيا.

ثانياً: لطائف التفسير في النص القرآني^(٤):

اللطفية الأولى: قوله: ﴿مَسْجِدٍ﴾ المسجد في الأصل موضع السجود، ثم أُطلق وأريد منه نفس الصلاة والطواف، من باب تسمية الحال باسم المحل.

اللطفية الثانية: الصلاة اسمٌ جامعٌ للتكبير والقراءة والركوع، والسجود والدعاء والتشهد والتسليم.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٥):

إنَّ الصَّلَاةَ في الدِّين هي أعرف المعروف من الأعمال الصالحة، وهي عمود الإسلام وأعظم شرائعه، وهي قرينة الشهادتين، وإنَّما فرضها الله ليلة المعراج وخاطب بها الرسول (ﷺ) بلا واسطة، ولم يبعث بها رسولاً من الملائكة، وهي آخر ما وصى به النبي (ﷺ) أمته، وهي المخصوصة بالذكر في كتاب الله تخصيصاً بعد تعميم، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وهي المقرونة بالصبر والزكاة وبالنسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله، كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وأمرها أعظم من أن يُحاط به، فاعتناء ولاة الأمر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الأعمال، ثمَّ إنَّ الصلاة قد اشتملت على جُلِّ أنواع العبادة من الاعتقاد بالقلب، والانقياد والإخلاص والمحبة والخشوع والخضوع والمشاهدة والمراقبة والإقبال على الله وإسلام الوجه له والصمود إليه، وعلى أقوال اللسان وأعماله من الشهادتين، وتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتقدیس والتمجيد والتهليل والتكبير والأدعية والتعوذ والاستغفار والاستغاثة والاستعانة والافتقار إلى الله، والثناء عليه والاعتذار من الذنب إليه والإقرار بالنعم له

(١) الصلاة في اللُّغة: عبارة عن الدعاء والثناء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي: دعاءك. ينظر: المبسوط: السرخسي (٤/١).

(٢) السيرة النبوية: علي محمد الصلابي (٣٦٥/١).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (١٤٦/٤).

(٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٨/٢)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢٤٦/١).

(٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧٠/٢٨)، والإيمان: أبو بكر ابن أبي شيبة (ص: ٢٣، ٤١).

وسائر أنواع الذكر، وعلى عمل الجوارح من الركوع والسجود والقيام والاعتدال والخفض والرفع وغير ذلك، هذا مع ما تضمنته من الشرائط والفضائل، منها الطهارة الحسية من الأحداث والأنجاس الحسية، والمعنوية من الإشراك والفحشاء والمنكر وسائر الأرجاس، وإسباغ الوضوء على المكاره ونقل الخطأ إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة وغير ذلك مما لم يجتمع في غيرها من العبادات؛ ولاشتمالها على معاني الإيمان سماها الله إيماناً في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] وهي ثمانية أركان الإسلام في الفرضية؛ فإنها فرضت في ليلة المعراج بعد عشر من البعثة لم يدع الرسول (ﷺ) قبلها إلى شيء غير التوحيد الذي هو الركن الأول^(١).

وقد ذكر الله الصلاة في عشرات الآيات في القرآن، وجاءت الأحاديث النبوية مؤكدة وجوبها وأهميتها، ومبيّنة أنها الفارق بين المسلم والكافر، وأنها من صفات المؤمنين المتقين، وأنه لا يجوز التفريط بها لا في الإقامة ولا في السفر، ولا في حالة السلم ولا في حالة الحرب، ولا في حالة الصحة ولا في حالة المرض، وإن تركها والتكاسل عنها من صفات المنافقين، وكانت الوصية بها من آخر ما أوصى به رسول الله (ﷺ) وهي أول ما يسأل عنه العبد يوم قدومه على ربه، والصلاة بعد هذا تزكية للنفس، وصلة للعبد بربه، وتذكير مستمر له بعبوديته لله وبمعاني كلمة التوحيد، وهي صقل لنفسه، وغسل لأدرانها وأوساخها، وهي قرّة عين المسلم، إليها يفزع إذا ضاق الصدر وادلهمت الخطوب، كما كان يفعل رسول الله (ﷺ) وهي التي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ لما فيها من قراءة القرآن وتسبيح الله وذكره وتمجيده، وما لهذا كله من تذكير للعبد ووقاية له من المخالفة والعصيان، كما وإن للصلاة أسراراً وحكماً ليس هذا مجال تفصيلها، يدركها المسلم إذا أقبل عليها بخشوعٍ وتدبيرٍ وفهمٍ ووعيٍ وحضورٍ ذهنٍ؛ لما يتلوه من قرآن، وما يذكره من أذكارٍ، فهو يفتح الصلاة ب(الله أكبر) فإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ، ومن كل ذي سلطانٍ وقوةٍ وجبروتٍ، وما دام العبد موصولاً بالله الذي هو أكبر من كل شيء، وأعز من كل شيء، فلن يرهب المسلم أحداً غير الله، وهكذا بقية الأذكار تربي في المسلم معاني العبودية لله، وتحرره من عبودية غير الله، وتنزع من قلبه كل معاني الطغيان والتعلق بغير الله، ففي الصلاة إظهارٌ لعبودية المسلم لله بصورة عملية^(٢)، فالصلاة لها فضائل عظيمة، وآثار حميدة، ونتائج جميلة، من ذلك: أن الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرجة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مُبعدة عن الشيطان، مقربة من الرحمن، وبالجملة: فلها تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ صحة البدن والقلب، وقواهما ودفع المواد الرديئة

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: حافظ بن أحمد الحكمي (٢/٦٢٢).

(٢) أصول الدعوة: عبدالكريم زيدان (ص: ٤١) والوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز: عبد العظيم بدوي (ص: ٦٣)

عنهما، وما ابتلي رجلاً بعاهةٍ أو داءٍ أو مِحنةٍ أو بليّةٍ إلا كان حظُّ المصلي منهما أقلَّ، وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثيرٌ عجيبٌ في دفع شُرور الدنيا، ولا سيما إذا أُعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً، فما استُدْفِعَتْ شُرورُ الدنيا والآخرة، ولا استُجلبت مصالحُهما بمثل الصلاة، وسرُّ ذلك أنَّ الصلاة صلةٌ بالله، وعلى قدر صلة العبد بربه تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه، والعافية والصحة، والغنمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه^(١). ثم إنَّ الصلاة من أقوى الأركان بعد الإيمان بالله، فالصلاة عمادُ الدين فمن أراد نصب خيمةً بدأ بنصب العماد، والصلاة من أعلى معالم الدين ما خلت عنها شريعة المرسلين، وقد قال بعض أهل العلم في تأويل قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أي: لأني ذكرتها في كلِّ كتابٍ منزل على لسان كلِّ نبيٍّ مرسل، وفي قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المذثر: ٤٢، ٤٣] ما يدلُّ على وكادتها، فحين وقعت بها البداية، دلَّ على أنَّها في القوة بأعلى النهاية، فالدلائل من الكتاب والسنة على فرضيتها مشهورة، والصلاة أفضل العبادات، فعن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: قلت للنبي (ﷺ) أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها^(٢). وثبت أيضاً عنه (رضي الله عنه) أنه جعل أفضل الأعمال إيمان بالله^(٣). ولا منافاة بينهما؛ فإنَّ الصلاة داخلةٌ في مسمى الإيمان بالله كما دخلت في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]: أي صلاتكم إلى بيت المقدس^(٤). ولهذا كانت الصلاة كالإيمان لا تدخلها النيابة بحالٍ، فلا يصلي أحدٌ عن أحدٍ الفرض لا لعذرٍ ولا لغير عذرٍ، كما لا يؤمن أحدٌ عنه، ولا تسقط بحالٍ كما لا يسقط الإيمان؛ بل عليه الصلاة ما دام عقله حاضراً، وهو متمكّنٌ من فعل بعض أفعالها، وقد لفت العلماء الانتباه إلى أنَّ الصلاة من العبادات البدنية المحضة التي لا يتعلق بها أغراض دفعية ولا نفعية، أي لا يظهر فيها درء مفسدة ولا جلب مصلحة، وأنَّ هذه العبادات، يمكن تعليلها تعليلاً إجمالياً، وهو أنَّها تمرن العباد على الانقياد لله، وتجديد العهد بذكره، مما ينتج النهي عن الفحشاء والمنكر، ويخفف من المغالاة في اتباع مطالب الدنيا، ويذكر بالاستعداد للآخرة، وهي أمورٌ كليةٌ، لا تُنكر على الجملة في أنَّها غرض الشارع في التعبد بالعبادات البدنية. وترك الصلاة يضر بجميع المسلمين؛ لأنَّ المصلي يقول: اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات، ولا بدَّ أن يقول في التشهد: "السلام علينا وعلى عباد

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٤/٣٠٤)، والمبسوط: السرخسي (٤/١)، ولا تحزن: عائض عبد الله القرني (ص: ٣١٢).

(٢) البخاري في مواقيت الصلاة. باب فضل الصلاة لوقتها، حديث رقم (٥٢٧)، (ص: ٧٤).

(٣) البخاري في الإيمان. باب من قال: إنَّ الإيمان هو العمل، حديث رقم (٢٦)، (ص: ١٣).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٣٩/١٠)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١/١٩٢).

الله الصالحين". فيكون مقصراً بحق الله، وفي حق رسوله، وفي حق نفسه، وفي حق كافة المسلمين؛ ولذلك عظمت المعصية بتركها، واستتبط منه بعض العلماء أن في الصلاة حقاً للعباد مع حق الله، وأن من تركها أخل بحق جميع المؤمنين من مضى ومن يجيء إلى يوم القيامة، والصلاة عامل هام من عوامل تربية الشخصية المسلمة، فالقلب الذي يسجد لله حقاً، ويتصل به على مدار الليل والنهار، يستشعر أنه موصول بالسبب بالله، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحس أنه أقوى من المخاليق^(١)؛ لأنه موصول بخالق المخاليق، وهذا كله مصدر قوة للضمير.

رابعاً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. دلت الآية على أن أشرف العبودية عبودية الصلاة، وهي صلة بين العبد والرب.
٢. أن سبب الصلاة الحقيقي هو ترادف نعم الله تعالى على العبد.
٣. تومئ الآية إلى أن الله قد فرض الصلاة على عباده، وأمرهم بإقامتها وحسن أدائها، وعلق النجاح والفلاح بالخشوع فيها، وجعلها فرقاناً بين الإيمان والكفر، ونهاية عن الفحشاء والمنكر، مع بيان أهمية الصلاة وعظيم أثرها، وكثرة منافعتها ورفع شأنها
٤. بينت الآية أن للصلاة منزلة ومكانة في الإسلام عظيمة، ولمن أقامها أحسن أداءها وحافظ عليها من الأجر، والفضل، والإكرام.
٥. أن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي؛ ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه.
٦. أن أهم أمور المسلمين الصلاة، فيجب على كل مسلم الاعتناء بها، والمحافظة على أدائها، وإقامة شعائرها، وفيها أمور مَجْمَعٌ عليها؛ لا مندوحة عن الإتيان بها، وأمر مختلف العلماء فيها، وطريق الرشاد في ذلك أن ينظر ما صحَّ عن النبي^(ﷺ)؛ فيتمسك به.
٧. في الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.
٨. الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفسد الدنيا.

(١) البرهان: الجويني (٩٥٨/٢، ٩٢٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦١/٣)، في ظلال القرآن: سيد قطب (٤٠/١)، وأصل صفة صلاة النبي^(ﷺ): الألباني (٨٧٦/٣)، ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني (ص: ٣٥).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (١٤٧/٤)، وحاشية ابن عابدين (٣٥٦/١). وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٤١/١)، وصفة صلاة النبي^(ﷺ): الألباني (١٣، ٢١/١)، وفقه السيرة النبوية: محمد سعيد رمضان البوطي (ص: ٤٣)، والسيرة النبوية: علي محمد الصلابي (٣٧٢/١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٥٧)، ولا تحزن: عائض عبد الله القرني (ص: ٣١٢).

المقصد الرابع: حفظ الصَّحَّة من الإيمان

ويدلُّ على هذا المقصد الطبي الجليل قوله: ﴿وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(١):

وَاشْرَبُوا: الشَّرْبُ: تناولُ كلِّ مائعٍ بالفم من ماءٍ وغيره، والشَّرَابُ: ما يُشْرَبُ.

وَلَا تُسْرِفُوا: الإسراف هو تجاوز الحد المتعارف في الشيء، أي: ولا تسرفوا في بكثرة الأكل؛ لأنَّ ذلك يعود بأضرارٍ على البدن وتنتشأ منه أمراض معضلة والإسراف شرعاً: مجاوزة الحدِّ في كلِّ فعلٍ أو قولٍ، وهو في الإنفاق أشهر، ومن الإسراف: الأكل لا حاجةٍ وفي وقتٍ شبع.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

أمر الله عباده بالأكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعمٍ ولا مشربٍ، وتاركه بالمرة قاتلٌ لنفسه، وهو من أهل النَّار، والمُقلِّد منه على وجهٍ يضعف به بدنه، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعةٍ أو سعي على نفسه، وعلى من يعول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير مخالفاً لما شرعه الله لعباده، واقعٌ في النهي القرآني، وهكذا من حرم حلالاً أو حلل حراماً؛ فإنَّه يدخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة، بالأمر بالأكل والشرب في قوله: ﴿وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا﴾ ما روي أنَّ بعض العرب كانوا لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتاً، ولا يأكلون دَسماً، يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: نحن أحقُّ أن نفعل ذلك، فقال الله: ﴿وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا﴾ لبيان فساد تلك الطريقة.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطفة الأولى: قوله: ﴿وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا﴾ أمرٌ بإباحة لبني آدم الماضين والحاضرين، إبطالاً للتحريم، وليس يجب على أحدٍ أكل اللحم، ويحتمل أن يكون هذا أمرٌ بالتوسع في الأعياد. اللطفة الثانية: خصَّ الأكل من بين الاحتياجات لكونه أهمها ومعظمها.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢/٢٥٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٣/٢٥٠)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٢٨٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٩٥).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/٢٨٢).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٤/٦٦)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١٠)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٥٨).

(٤) النُّكت والعيون: الماوردي (٢/٢١٨)، والتفسير الكبير: الرازي (٤/٦٥)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥/٥٢٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٩٤).

اللطيفة الثالثة: النهي في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ نهْيٌ عن السرف، وهو نهْيٌ إرشادٍ لا نهْيٍ تحريم، بقريئة الإباحة اللاحقة في قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ ولأنَّ مقدار الإسراف لا ينضب، فلا يتعلَّق به التَّكليف، ولكن يوكل إلى تدبير النَّاسِ مصالحهم، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقاً: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ فَإِنَّ تَرْكَ السَّرْفِ من معنى العدل^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

تناقل المفسرون أنَّ قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ جَمَعَ الطَّبَّ كُلَّهُ، وقد أثر عن رسول الله ﷺ من بدائع الطبِّ وأصناف العلاج ما لم يؤثر عن نبيِّ قطُّ، وهذه الآية جمعت أصول حفظ الصَّحَّةِ من جانب الغذاء؛ فإنَّ الله جمع الطبَّ كُلَّهُ فيها، فعن عبدالله بن جعفر قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يأكلُ الرُّطْبَ بالِقِتَاءِ^(٣). يؤخذ من الحديث جواز مراعاة صفات الأطعمة وطبائعها واستعمالها على الوجه اللائق بها على قاعدة الطب؛ لأنَّ في الرُّطْبِ حرارة وفي القِتَاءِ برودة، فإذا أكلَ معاً اعتدلاً، وهذا أصلٌ كبيرٌ في المركبات من الأدوية، ولما كان اعتدالُ البدنِ وصحته وبقاؤه، إنّما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة، فالرطوبة مادته، والحرارة تُنضِجُها، وتدفع فضلاتها، وتصلحها، وكذلك الرطوبة هي غذاء الحرارة، فقوامُ كلِّ واحدةٍ منهما بصاحبتهما، وقوامُ البدنِ بهما جميعاً، ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى، حصل لمزاج البدن الانحرافُ، فحصلت الأمراضُ المتنوعةُ، وهذا كُلُّهُ مستفادٌ من قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فأرشدَ عباده إلى إدخالِ ما يُقيمُ البدنَ من الطعام والشرابِ عَوْضَ ما تحلَّلَ منه، وأن يكون بقدر ما ينتفعُ به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانعٌ من الصحة، جالبٌ للمرض، فحفظُ الصحةِ كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين، كما أنَّ غاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسةُ البدنِ، بأنَّ يحمي الرطوبةَ والحرارةَ، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير الذي به قام بدنُ الإنسان، ومن تأمل هدي النبي ﷺ وجدَّه أفضلَ هديٍ يُمكن حفظُ الصَّحَّةِ به، فإنَّ حفظها موقوفٌ على حُسنِ تدبيرِ المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والنوم، واليقظة والحركة والسكون، والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق للملائم للبدن والبلد والسُنَّ والعادة، كان أقربَ إلى دوام الصَّحَّةِ أو غلبتها إلى انقضاء الأجل، ولما كانت الصَّحَّةُ والعافية من أجلِّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٥/٨).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٦/٢)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٢/٧)، وروح المعاني: الألوسي (١٦٣/٨)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٦١/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٠/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٥/٨)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٧٥/١٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب الأطعمة. باب جمع اللّونين أو الطّعامين بمرة، حديث رقم (٥٤٤٩)، (ص: ٦٦٥).

أجلُ النَّعَمِ على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها، قال رسول الله (ﷺ): "نِعْمَتَانِ مَغْبُورُونَ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاحُ"^(١). ومن هنا قال بعض السلف في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال: عن الصحَّة والأمن، ولا يتِمُّ صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه، وإذا كان هذا شأن العافية والصحة، يتبين لمن نظر في هدي النبوة أنه أكمل هدي على الإطلاق ينال به حفظ صحَّة البدن والقلب، وحياة الدنيا والآخرة^(٢)، وقواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحَّة، والحماية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، فذكر الله هذه الأصول الثلاثة في القرآن، لیسر بديع يبيِّن لك عظمة القرآن، والاستغناء به، فقد أرشد الله عباده إلى أصول الطب ومجامع قواعده، فأما طبُّ القلوب، فمسلم إلى الرُّسل، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم، فإنَّ صلاح القلوب أن تكون عارفةً برَّبِّها وأن تكون مؤثرةً لمرضاة ومحبَّته، متجنِّبةً لمناهيه ومساخطه، ولا صحَّة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، وأما طب الأبدان: فجاء من تكميل شريعتهم ومقصوداً لغيره، بحيث إنَّما يُستعمل عند الحاجة إليه فإذا قدر على الاستغناء عنه، كان صرفُ الهمم والقوى إلى علاج القلوب، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحِميتها مما يُفسدُها، هو المقصودُ بالقصدِ الأوَّل، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة، وهي مضرَّة زائلةٌ تعقبها المنفعة الدائمة، كما أنَّ العرب كان لها اعتناءٌ بعلم ذكرها النَّاسُ، وكان لعقلائهم اعتناءٌ بمكارم الأخلاق، واتصافٌ بمحاسن الشَّيم، فصحت الشريعة منها ما هو صحيحٌ وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطلٌ، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه، فمن هذه العلوم علم الطب، فقد كان في العرب منه شيءٌ لا على ما عند الأوائل، بل مأخوذاً من تجارِب الأميين وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة، لكن على وجه جامعٍ شافٍ قليلٍ يُطلَعُ منه على كثيرٍ منه قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. في الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.
٢. الآية دلالة لما كان يفعله النبيُّ من تحذير أُمَّته من الإسراف في الماء أثناء الوضوء.
٣. أن من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النَّار.

(١) صحيح البخاري كتاب الرِّقاق . باب ما جاء في الرقاق، حديث رقم (٦٤١٢)، (ص: ٧٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٥٤٧/٤)، وزاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم (٢٢/٤، ١٩٧، ١٩٥)، والموافقات: أبو إسحاق الشاطبي (١٢٠، ١١٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٥/٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١)، وزاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (١٨٤/١)، وتهذيب مدارج السالكين لابن القيم: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ٧٥).

المقصد الخامس: الأصل في الأشياء الإباحة

ويدلُّ على هذا المقصد الأصولي القويم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية:

﴿وَكُلُوا﴾ أي: كلوا من الحلال، فإنه رأس التقوى^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية:

كلوا واشربوا ما شئتم من الطيبات التي أحلها الله، ولا تتجاوزوا حدَّ الاعتدال في ذلك^(٢).

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قد جمعت هذه الآية أصول الأحكام، الأمر والإباحة، والنهي والخبر.

اللطيفة الثانية: قال رسول الله (ﷺ): "إنَّ المسلم يأكلُ في معيِّ واحدٍ، والكافر يأكلُ في سبعة أمعاء"^(٤). وهذا حضُّ على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغَة، وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتندم بكثرتة.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٥):

قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مطلقٌ يتناول الأوقات والأحوال، ويتناول جميع المطاعم والمشروبات؛ فوجب أن يكون الأصل فيها هو الحلُّ في كلِّ الأوقات، وفي كلِّ المطاعم والمشروبات إلا ما خصَّه الدليل المنفصل، لأنَّ الأصل في المنافع الحلُّ والإباحة، وتدلُّ الآية على أنَّ الأشياء على الإباحة، والعقل يدلُّ على ذلك؛ لأنَّ الله خلقه لمنافعهم، لذلك قال: ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾ مطالباً بدليلٍ سمعيٍّ، فإنَّ الأشياء على الإباحة حتى تحرم، والقول بالوقف تعدُّ لما فيه من الإضرار، وهو المنع من التصرف فيها بالأكل وغيره. ومن القواعد الأصولية أنَّ الأصل في الأشياء من جهة الانتفاع بها هي الإباحة، أي: إباحة الانتفاع بها، وتناولها على الوجه الملائم للانتفاع بها، ويتخرج على هذا الأصل الشرعي حلُّ وإباحة كثير من الأطعمة والأشربة من النباتات والفاوكة التي ترد إلى المسلمين من مختلف البلدان، ولا تُعرف أسماؤها، ولم يثبت ضررها، وفيها نفع من تناولها، وأيضاً الحيوان المشكل أمره من جهة معرفة حكمه من حيث

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٨/٢).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٥/٧، ١٩٣)، وروح المعاني: الألويسي (١٦٤/٨).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة. باب المؤمن يأكل في معيِّ واحدٍ، حديث رقم (٥٣٩٦)، (ص: ٣١٢).

والمعني في هذا الحديث هي المصارين. ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣١٢/١٢).

(٥) التفسير الكبير: الرازي (٦٦/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥٩/٧).

الجِل والحُرْمَة، يعدُّ حلالاً أكله كالزرافة مثلاً، والنبات المجهولة تسميته ولا ضرر في استعماله يحمل على الحل والإباحة^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. في الآية دليلٌ على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة؛ لأن الاستفهام في ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾ لإنكار تحريمها على أبلغ وجهٍ.

٢. في الآية دليلٌ على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة، حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضررٍ.

٣. من تمام عناية الله بخلقه أن أباح لهم الطيبات؛ لتكون عوناً لهم على الطاعات.

المقصد السادس: النهي عن الإسراف؛ فالإسراف في المباحات حرامٌ

ويدل على هذا المقصد الجليل قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

وَلَا تُسْرِفُوا: فُسر الإسراف: بمجاوزة الحدِّ فيما أحلَّ، وذلك بتحريمه، والمعنى: لا تسرفوا بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشهه عليه، فيأكل ويشرب بحيث لا يتعدى إلى الحرام، ولا يكثر الإنفاق المستنبح، ولا يتناول مقداراً كثيراً يضره ولا يحتاج إليه، فالإسراف: تعدي الحد، ومجاوزة القصد، ومن الإسراف الذي يغضب الله فيعاقب بأكثر مما أمر الله.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٤):

أحلَّ الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلةً، فقال: كلوا واشربوا ما شئتم من الطيبات التي أحلها الله، ولا تتجاوزوا حدَّ الاعتدال في ذلك، ولا تتجاوزوا الحلال إلى الحرام؛ إنَّ الله لا يحبُّ المتجاوزين لحدود الاعتدال.

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣٣/٤٤، ٥٠) والوجيز في شرح القواعد الفقهية: عبدالكريم زيدان (ص: ١٧٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/١)، وروح المعاني: الألوسي (١٦٤/٨)، وفتح القدير: الشوكاني (١٥٢/١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤، ٥).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/١)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٦/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٥٩/٧)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٩٣/١١).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٤٩/١٣)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(١):

اللطيفة الأولى: إنَّ المراد من الإسراف في الآية إنَّهم حرموا على أنفسهم في وقت الحجَّ أشياءً أحلها الله لهم، وذلك إسراف، وحمل لفظ الإسراف على الاستكثار مما لا ينبغي أولى من حمله على المنع مما لا يجوز وينبغي.

اللطيفة الثانية: في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ لمن أسرف في هذه الأشياء؛ لأنَّ من لم يحبه الله لم يرض عنه.

اللطيفة الثالثة: عن ابن عباس قال: "كُلُّ مَا شِئْتَ، وَالْبَسَ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأْتُكَ خَصْلَتَانِ: سَرْفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ"^(٢).

اللطيفة الرابعة: يقال إنَّ معالجة المريض نصفان: نصفٌ دواءً، ونصفٌ حِمِيَّةً، فإن اجتمعَا فكأنك بالمريض قد برأ وصَحَّ، وإلا فالحِمِيَّةُ به أولى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمِيَّة، ولقد تنفع الحِمِيَّة مع ترك الدواء.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: في كثرة الأكل، وعنه يكون كثرة الشرب، وذلك يثقل المعدة، ويثبِّط الإنسان عن حقِّ ربِّه، والأخذ بحظه من نوافل الخير، فإنَّ تعدَّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حُرْم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

أحلَّ الله في هذه الآية الأكلَ والشربَ ما لم يكن سَرْفاً أو مَخِيلَةً، فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سدَّ الجَوْعة وسكَّن الظَّمأ، فمندوبٌ إليه عقلاً وشرعاً، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس، ولذلك ورد الشرعُ بالنَّهي عن الوصال؛ لأنَّه يُضعف الجسد، ويُميت النفس، ويُضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع وتدفعه العقل، وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظُّ من بَرٍّ ولا نصيبٍ من زهدٍ؛ لأنَّ ما حرَّمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجراً. وقد اختلف في الزائد على قدر الحاجة والصحيح أنَّ قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطعمان، وفي قلة الأكل منافع كثيرة، منها أنَّ يكون الرجلُ أصحَّ جسماً وأجودَ حفظاً، وأزكى فهماً وأقلَّ نوماً وأخف نفساً، وفي كثرة الأكل كظُّ المعدة وبتنُّ التُّخمة، ويتولد

(١) التفسير الكبير: الرازي(٦٦/١٤)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي(١٩٥/٧، ١٩٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي(٦٠/٧).

(٢) صحيح البخاري في اللباس . باب قول الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] (ص: ٦٩٩)، (الفتح ١٣/٢٤٩)، وروح المعاني: الألوسي(١٦٣/٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي(١٩٢/٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٤٩/١٣)، (٢٩٨/١٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي(٥٩/٧)، وتيسير الكريم الرحمن: السعدي(ص: ٢٩١).

منه الأمراض المختلفة، وأكبر الدواء تقديرُ الغذاءِ، لكنَّ الشبع وإن كان مباحاً، فإنَّ له حداً ينتهي إليه، وما زاد على ذلك فهو سرفٌ، والمطلق منه ما أعان الأكل على طاعة ربِّه، ولم يشغله ثقله عن أداء ما وجب عليه، وفي الآية دليل على جواز الشبع، وما جاء من النهي عنه محمول على الشبع الذي يثقل المعدة ويثبط صاحبه عن القيام للعبادة ويفضي إلى البطر والاشتر والنوم والكسل، وقد تنتهي كراهته إلى التحريم بحسب ما يترتب عليه من المفسدة، والأدلة متظافرة في ذمَّ الشبع وكثرة الأكل، وفي ذلك إرشاد للأمة إلى كلِّ حكمةٍ، وتدلُّ الآية على المنع من الإسراف، وذلك على وجهين: أولهما: إنفاق في معصية، كالفخار واللعب والزنى والخمر ونحوها، وثانيهما: أن يتعدى الحدود، وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار؛ لأنَّ من له قدر يسير، لو أنفقه في ضيافة أو طيب أو ثياب خز، وهو وعياله يحتاجون إليه، فهو سرف محرّم، ومثله في الموسرين لا يقبح ولا يكون سرفاً، والإسراف إمَّا أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، ولشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإمَّا أن يكون بزيادة الترفه والتتوق في المآكل، والمشارب، واللباس، وإمَّا بتجاوز الحلال إلى الحرام، وفي الصحيح أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: "كُلُوا واشربُوا، والبسُوا وتصدَّقُوا في غير إسرافٍ ومخيلةٍ"^(١) هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة؛ فإنَّ السرف في كلِّ شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة، فيؤدي إلى الإلتلاف، ويضر بالنفس إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال، والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العُجب، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم، وبالذُّنيا حيث تكسب المقت من النَّاس^(٢).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. إنَّ من ملك النفس عن الإسراف في المباح، أكبر دليلٍ على ملكها عن الحرام.
٢. النهي عن الإسراف في المباحات؛ فإنَّ السرف يُبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشتة، حتى إنَّه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات.
٣. أنَّ من القواعد المقررة في الشرع أنَّ تحريم المباح حرامٌ.
٤. اجتناب كثرة المباحات من الطعام والشراب يؤدي إلى انشراح الصدر واتساع القلب.
٥. أنَّ الإسراف هو مجاوزة الحدِّ في المعاصي كالكفر؛ ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار.

(١) البخاري في كتاب اللباس، باب قول الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] (ص: ٦٩٩).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٢٥٠/١٣).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٢٦/٢)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٨/٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٩٠٤)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٨٤٥/٣)، ولا تحزن: عائض القرني (ص: ٢٣٩).

المقصد السابع: ترك التجمل والترين ليس بزهد ولا ورع^(١).

ويبدل عليه قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

حَرَّمَ: حرم كلمة تدلُّ على المنع والتشديد، فالحرَامُ ضِدُّ الحلال، والحَرَمَانِ: مكة والمدينة، سُمِّيَا بذلك لحرمتهما، وأَنَّهُ حَرَّمَ أَنْ يُحَدَّثَ فِيهِمَا أَوْ يُؤْوَى مُحَدَّثٌ.

الله: اسم علم على الربِّ تعالى، وأصله: الإله، لكن حُذفت الهمزة تخفيفاً؛ لكثرة الاستعمال، و"إله" بمعنى: مألوه، والمألوه هو المعبود محبةً وتعظيماً.

وَالطَّيِّبَاتِ: المستلذات من المأكَل والمشارب والطيبات شرعاً: اسمٌ عامٌّ لما طاب كَسْباً ومَطْعماً. الرِّزْقُ: ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ. والرزق العطاء، والرزق شرعاً: اسمٌ لكلِّ ما يَغْتَذَى بِهِ الإنسان، وذلك يعمُّ رزق الدنيا ورزق الآخرة، وقد ذكر أهل التفسير أَنَّ الرزق في القرآن على عشرة أوجه، وهي: العطاء، والطعام، والغذاء والعشاء، والمطر، والنفقة، والفاكهة، والثواب، والجنَّة، والحزْبُ والأنعام، والشكر.

حَاكِصَةً: معنى خلاصها صفاؤها، وكونه في يوم القيامة: هو أَنَّ يوم القيامة مظهر صفائها، أي: خلوصها من التَّبَعَاتِ المنجَرَّةِ منها، وهي تبعات تحريمها، وتبعات تناول بعضها مع الكفر بالمنعم بها، فالمؤمنون لما تناولوها في الدنيا تناولوها بإذن ربِّهم، بخلاف المشركين فإنَّهم يُسألون عنها فيعاقبون على ما تناولوه منها في الدنيا؛ لأنَّهم كفروا نعمة المنعم بها، فأشركوا به غيره^(٣).
ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٤):

هذه الآية استئناف لما سبق من إرشادات، وهو موضع إبطال مزاعم أهل الجاهلية فيما حرَّموه من اللباس والطعام وهي زيادة تأكيد لإباحة التستر في المساجد، فابتدئ الكلام السابق بأنَّ اللباس نعمة من الله، وثني بالأمر بإيجاب التستر عند كلِّ مسجد، وتلث بإنكاران يوجد تحريم اللباس، لذا فقد ردَّ الله في هذه الآية على من حرَّم شيئاً من المأكَل والمشارب والملابس، من تلقاء نفسه من غيرِ شرع من الله، تأكيداً لما سبق.

(١) قال ابن القيم: الزهد: ترك ما لا يَنْفَعُ في الآخرة، والورع: ترك ما يُخشى ضررُهُ في الآخرة، والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع. ينظر: الفوائد: ابن قيم الجوزية (ص: ١١٨).

(٢) مقاييس اللغة: ابن فارس (٤٥/٢)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٨/٧)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٢/٢)، والشرح الممتع على زاد المستنقع: محمد بن صالح العثيمين (٥٦/٣).

(٣) نُزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي (ص: ٣٢٤) ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥٢/١٦)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٤١/١)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٩٧/٨).

(٤) محاسن التأويل: الفاسمي (٦٦/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٥/٨).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

قل أيها الرسول رداً على المشركين الذين يُحَرِّمون ما أحلَّ الله من اللباس والطيبات من المأكولات وغيرها: من الذي حرَّم عليكم اللباس الذي هو زينة لكم؟ ومن الذي حرَّم عليكم الطيبات من المأكولات والمشروبات وغيرها مما رزقكم الله؟ فالمشركون يحرمون بأرائهم الفاسدة من الثياب وسائر ما يتجمل به مما أخرج الله من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن، كالدرع.

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٢):

اللطيفة الأولى: افتتاح الآية بـ ﴿قُلْ﴾ دلالة على أنه كلامٌ مسوقٌ للردِّ والإنكار والمحاورة.

اللطيفة الثانية: الاستفهام في الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتوبيخيٌّ، قصد به التَّهْكُمُ، إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يطلب منهم البيان والإفادة، وقرينة التَّهْكُمُ إضافة الزينة إلى اسم الله المعظم، وتعريفها بأنها أخرجها الله لعباده، ووصفُ الرِّزْقِ بالطيبات، وذلك يقتضي عدم التَّحريم، فالاستفهام يؤول أيضاً إلى إنكار تحريمها^(٣).

اللطيفة الثالثة: السؤال في الآية سؤال عالم لا سؤال طالب علم.

اللطيفة الرابعة: يكره لبس الفوط والمرفعات لأربعة أوجه: أحدها: أنه ليس من لبس السلف، والثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه. والثالث: إظهار التزهد، وقد أمرنا بستره. والرابع: أنه تشبه بالمتزحزين عن الشريعة، وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيير الأجود عندهم قبيحاً، وأمَّا اللباس الذي يزرى بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد والفقر، وكأنه لسان شكوى من الله، ويوجب احتقار اللباس، وكلُّ ذلك مكروهٌ منهِّي عنه.

اللطيفة الخامسة: فإن قال قائل: تجويد اللباس هوَى النفس وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزيين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق. فالجواب: ليس كلُّ ما تهواه النفس يُدَمِّم، وليس كلُّ ما يُزَيِّن به للناس يُكره، وإنما يُنهَى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدين؛ فإنَّ الإنسان يجب أن يُرى جميلاً، وذلك حظ للنفس لا يلام فيه، ولهذا يسرح شعره وينظر في المرأة ويلبس الثوب الحسن وليس في شيء من هذا ما يُكره ولا يُدَمِّم.

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٦٦/٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٦٧/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٥/٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٧/٧)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٨/٢)، والتحرير

والتنوير: ابن عاشور (٩٦/٨).

اللطيفة السادسة: عن ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرٍ"، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنةً. قال: " إن الله جميلٌ يحب الجمالَ، الكبر بطر الحق وغمط الناس" (١). فيه دلالة على النظافة وحسن الهيئة.

اللطيفة السابعة: اللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لام الاختصاص، وهو يدلُّ على الإباحة، فالمعنى: ما هي بحرامٍ ولكنها مباحةٌ للذين آمنوا، وحرَم بعضُ المشركين أنفسهم من أشياء في أوقات من الحياة الدنيا ممَّا حرَّموه على أنفسهم من اللباس في الطواف، ومن أكل الطيبات، فكان الفوزُ للمؤمنين إذ اتبعوا أمر الله بتحليل ذلك كله في جميع أوقات الحياة الدنيا.

اللطيفة الثامنة: إنَّ كلَّ ما لم يحمِّه الدليل على حرمة داخل في هذه الزينة لا توقف في استعماله ما لم يكن فيه نحو مخيلةٍ أو سرفٍ، وقد نصَّ الفقهاء على أنه يستحبُّ التجلُّل (٢).

اللطيفة التاسعة: في قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ يفيد أنه لا بدُّ لكلِّ مخلوقٍ من الرزق، حتى إنَّ ما يتناوله العبدُ من الحرام هو داخل في هذا الرزق، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة، ويرزقون رزقاً حسناً، وقد لا يرزقون إلا بتكلفٍ، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة، ولا يكون خبيثاً، والنَّفْي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنَّما يُحمى من فضول الدنيا رحمةً به وإحساناً إليه؛ فإنَّ توسيع الرزق قد يكون مضرَّةً على صاحبه، وتقديره يكون رحمةً لصاحبه، فليس كلُّ من وسع عليه رزقه يكون مكرماً، ولا كلُّ من قدر عليه رزقه يكون مهاناً؛ بل قد يوسع عليه رزقه إملاءً واستدراجاً، وقد يقدر عليه رزقه حمايةً وصيانةً له وضيق الرزق على عبدٍ من أهل الدِّين قد يكون لما له من ذنوبٍ وخطايا، كما قال بعض السلف: إنَّ العبد ليُحرَم الرزق بالذنوب يصيبه، وقد أخبر الله أنَّ الحسنات يُذهبن السيئات، والاستغفار سببٌ للرزق والنَّعمة، وأنَّ المعاصي سببٌ للمصائب والشدة، وأنَّه يبتلي عباده بالحسنات والسيئات؛ فالحسنات هي النعم، والسيئات هي المصائب؛ ليكون العبد صباراً شكوراً (٣).

خامساً: بيان المقصد في الآية (٤):

لفظة الزينة في هذه الآية تتناول جميع أنواع التزيين، فيدخل تحت الزينة جميع أنواع التزيين ويدخل تحتها تنظيف البدن من جميع الوجوه، ويدخل تحتها المركوب، ويدخل تحتها أيضاً أنواع الحلْي؛ لأنَّ كلَّ ذلك زينةٌ، ولولا النصُّ الوارد في تحريم الذهب والفضة والحريز على

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم (١٤٧)، (٩٣/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٨/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٦/٨)، وروح المعاني: الألويسي (١٦٥/٨)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٦٨/٧).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥٣/١٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٦/٧)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٧/١٤).

الرَّجَالِ لَكَانَ ذَلِكَ دَاخِلًا تَحْتَ هَذَا الْعَمُومِ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ كُلِّ مَا يَسْتَلْذُ وَيَسْتَهْيِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ، وَيَدْخُلُ أَيْضًا تَحْتَهُ التَّمَتُّعُ بِالنِّسَاءِ وَبِالطَّيِّبِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْكَامِلَةَ وَعَلَى أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ مَبَاحٌ مَأْدُونٌ فِيهِ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ. وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى لِبَاسِ الرَّفِيعِ مِنَ الثِّيَابِ، وَالتَّجَمُّلِ بِهَا فِي الْجَمْعِ وَالْأَعْيَادِ، وَعِنْدَ لِقَاءِ النَّاسِ وَمِزَاجَةِ الْإِخْوَانِ، فَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا تَرَاوَرُوا تَجَمَّلُوا، وَهُمْ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَوْلُو الْمَعْرِفَةِ وَالنُّهْيِ، وَغَيْرِهِمْ أَهْلُ دَعْوَى، وَقُلُوبُهُمْ خَالِيَةٌ مِنَ التَّقْوَى، وَالزَّيْنَةُ فِي الْآيَةِ: مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ مَلْبُوسٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُبَاحَةِ كَالْمَعَادِنِ الَّتِي لَمْ يَرِدْ نَهْيٌ عَنِ التَّزَيَّنِ بِهَا، وَالْجَوَاهِرِ وَنَحْوِهَا، فَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ لَبَسَ الثِّيَابَ الْجَيِّدَةَ الْغَالِيَةَ الْقِيَمَةَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَلَا حَرَجَ عَلَى مَنْ تَزَيَّنَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَهَا مَدْخَلٌ فِي الزَّيْنَةِ وَلَمْ يَمْنَعْ مِنْهَا مَنَعٌ شَرْعِيٌّ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَخَالِفُ الزَّهْدَ فَقَدْ غَلَطَ^(١). وَهَكَذَا الطَّيِّبَاتُ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَنَحْوِهَا مِمَّا يَأْكُلُهُ النَّاسُ، فَإِنَّهُ لَا زَهْدَ فِي تَرْكِ الطَّيِّبِ مِنْهَا، وَلِهَذَا جَاءَتْ الْآيَةُ هَذِهِ مَعْنُونَةً بِالِاسْتِفْهَامِ الْمَتَضَمِّنِ لِلْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ حَرَّمَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَقَدْ أَخْطَأَ مَنْ آثَرَ لِبَاسَ الشَّعْرِ وَالصُّوفِ عَلَى لِبَاسِ الْقَطْنِ وَالْكَتَّانِ مَعَ وَجُودِ السَّبِيلِ إِلَيْهِ مِنْ جِلَّةٍ، وَمَنْ أَكَلَ الْبَقُولَ وَالْعَدَسَ وَاخْتَارَهُ عَلَى خَبْزِ الْبُرِّ، وَمَنْ تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ خَوْفًا مِنْ عَارِضِ شَهْوَةِ النَّسَاءِ، وَفِي الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ مَنَعَ اسْتِعْمَالَ الْحَلَالِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَالْمَلَابِسِ، وَآثَرَ غَلِيظَ الثِّيَابِ وَخَشَنَ الْمَأْكُلَ، وَالْحَقُّ أَنَّ مَلَازِمَةَ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبَاتِ تَفْضِي إِلَى التَّرْفِهِ وَالْبَطْرِ وَلَا يَأْمَنُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّبَهَاتِ؛ لِأَنَّ مَنْ اعْتَادَ ذَلِكَ قَدْ لَا يَجِدُهُ أَحْيَانًا فَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْتِقَالَ عَنْهُ فَيَقَعُ فِي الْمَحْظُورِ، كَمَا أَنَّ مَنْ تَنَاوَلَ ذَلِكَ أَحْيَانًا يُفْضِي إِلَى التَّنَطُّعِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، كَمَا أَنَّ الْأَخْذَ بِالتَّشْدِيدِ فِي الْعِبَادَةِ يُفْضِي إِلَى الْمَلَلِ الْقَاطِعِ لِأَصْلِهَا وَمَلَازِمَةَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى الْفَرَائِضِ مِثْلًا، وَتَرَكَ التَّنَفُّلَ يُفْضِي إِلَى إِيثارِ الْبَطَالَةِ، وَعَدَمِ النِّشَاطِ إِلَى الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسْطُ^(٢). وَتَرَكَ الطَّيِّبَاتِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ اللَّذَاتِ لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْبَاتِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) أَنَّهُ امْتَنَعَ مِنْ طَعَامٍ لِأَجْلِ طَيِّبِهِ قَطُّ، بَلْ كَانَ يَأْكُلُ الْحَلْوَى وَالْعَسَلَ وَالْبَطِيخَ وَالرُّطْبَ، وَإِنَّمَا يَكْرَهُ التَّكَلُّفَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنَشَاغِلِ بِشَهْوَاتِ الدُّنْيَا عَنْ مَهْمَاتِ الْآخِرَةِ، فَعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ^(٣). وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ أَكْلِ لَذِيذِ الْأَطْعَمَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَنَافِي الزَّهْدَ وَالْمِرَاقِبَةَ لَا سِيْمَا إِنْ حَصَلَ اتِّفَاقًا^(٤). وَفِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اتِّخَاذِ الْحَلَاوَاتِ وَالْأَطْعَمَةِ مِنْ أَخْلَاطِ شَتَى، وَالْحَلْوَى وَالْعَسَلَ مِنْ جَمَلَةِ الطَّيِّبَاتِ

(١) بعض الصوفية يزعم أن ذلك يخالف الزهد. ينظر: الاعتصام: الشاطبي (١/٤٤٢، ٢٥٨).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١/٣١٧)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٢٨٢).

(٣) صحيح البخاري في كتاب الأشربة. باب شراب الحلواء والعسل، حديث رقم (٥٦١٤)، (ص: ٦٨٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/١٩٩)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر:

العسقلاني (١٢/٦٧٠، ٣٧٥، ٣٤٧)، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٣٣/٤٣، ٣١).

المذكورة في قوله: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] وفيه تقوية لقول من قال: المراد به المستنذ من المباحات، ودخل في معنى هذا الحديث كلُّ ما يشابه الحلوى والعسل من أنواع المأكَل اللذيذة، لم يكن حبُّه (ﷺ) لها على معنى كثرة التشهي لها وشدة نزاع النفس إليها وإنَّما كان ينال منها إذا أحضرت إليه نيلاً صالحاً، فيعلم بذلك أنَّها تُعجبه. ويؤخذ منه جواز اتخاذ الأطعمة من أنواع شتى، وكان بعض أهل الورع يكره ذلك ولا يُرخص أن يأكل من الحلاوة إلا ما كان حلوه بطبعه كالتمر والعسل، وهذا الحديث يرد عليه، وقد كان (ﷺ) ينهى أصحابه الكرام عن التشدد، ويأمرهم بالرفق؛ خشية الانقطاع، وفي هذا تنبيهاً لهم على ترك الغلو في العبادة وركوب القصد فيها؛ خشية الانقطاع والعجز عن الإتيان بالفعل، فقد كان (ﷺ) رؤوفاً بالمؤمنين رقيقاً بهم، وفي الحديث جواز أكل الشينئين من الفاكهة وغيرها معاً، وجواز أكل طعامين معاً، ويؤخذ منه جواز التوسع في المطاعم، ولا خلاف بين العلماء في جواز ذلك، وما نقل عن السلف من خلاف هذا محمول على الكراهة منعاً لاعتیاد التوسع والترفة والإكثار لغير مصلحة دينية.

ثامناً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. هذه الآية ترد على من أثر أكل الخشن من الطعام، وكره أكل الطيبات.
٢. أنَّ الاقتصار على البشيع من المأكول من غير عذرٍ تنطُّع، والاقتصار في الملبس على الخشن من غير ضرورة؛ فإنَّه من قبيل التشديد والتتبع المذموم، وفيه قصد الشهرة.
٣. أنَّ الله لم يطالب العباد بترك الملذذات؛ وإنَّما طالبهم بالشكر عليها إذا تناولوها، فالمتحرِّي للامتناع من تناول ما أباحه الله من غير موجبٍ شرعيٍّ مفتاتٍ على الشارع.
٤. أنَّ كلُّ ما جاء عن المتقدمين من الامتناع عن بعض المتناولات، وإنَّما امتنعوا منه لعارضٍ شرعيٍّ يشهد الدليل باعتباره؛ كالامتناع من التوسع لضيق الحال في يده، أو لأنَّ المتناول ذريعة إلى ما يكره أو يمنع، أو لأنَّ في المتناول وجه شبهة تفتن إليه التارك ولم يتفطن إليه غيره.
٥. أنَّ الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة؛ لأنَّ الاستفهام في الآية لإنكار تحريمها على أبلغ وجه؛ لأنَّ إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه.
٦. في الآية ردٌّ على من تورَّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة؛ لأنَّه لا زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرَّم ذلك على نفسه، أو حرَّمه على غيره.

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٩/٧)، والاعتصام: الشاطبي (٤٤٣/١، ٤٤٢)، وروح المعاني: الألويسي (١٦٤/٨)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٣٢٧/١١)، ومحاسن التأويل: الفاسمي (٦٧/٧)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٨/٨)، وجلباب المرأة المسلمة: الألباني (ص: ١٧).

٧. الإنكار الشديد على من يحرم ما أحل الله من الطيبات كبعض المتنتهين.
٨. يؤخذ من الآية أن حظوظ النفوس والشهوات لا تتقدم على أحكام الشرع، بل هي دائرة معها، وأن التشريك في العبادة لا يقدر فيها بخلاف الرياء.
٩. في الآية تنكير بأن التشدد في الدين والتتبع فيه لا يأتي بخير، ولا يمكن أن يخرج جيلاً من المسلمين يحملوا الإسلام علماً وتطبيقاً بتوسط واعتدال، لا إفراط فيه ولا تفريط.
١٠. هذه الآية رد على من زعم أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذي هو العبادة، فيحرمان معها، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة، وكذلك الطيبات التي خلقها لتطيب قلوب عباده ليشكروه، والشكر عبادة، فلا ينافي التلذذ العبادة، بل قد يكون داعية إليها.

المقصد الثامن: القرآن وافٍ ببيان جميع الوقائع أصالةً

ويدل على هذا المعنى الشرعي قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

حَرَّمَ: الحرم: المنع، وهذا المنع إما بتسخير إلهي، وإما بمنع من جهة الشرع، وإما بمنع من جهة العقل، وإما من جهة من يرتسم أمره، وإما بمنع بشري، وهذا الأخير هو المراد هنا بالآية. الله: هذا الاسم أكبر أسمائه وأجمعها، حتى قال السلف: إنه اسم الله الأعظم، ولم يتسم به غيره، لذلك لم يثن ولم يجمع، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي، المستحق أن يُعبد، وهو واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال.

ثانياً: بيان المقصد في الآية^(٢):

إن مقتضى هذه الآية أن كل ما تزين الإنسان به، وجب أن يكون حلالاً وكذلك كل ما يستطاب وجب أن يكون حلالاً فهذه الآية تقتضي جل كل المنافع، وهذا أصل معتبر في كل الشريعة؛ لأن كل واقعة تقع فإما أن يكون النفع فيها خالصاً أو راجحاً أو الضرر يكون خالصاً أو راجحاً، أو يتساوى الضرر والنفع، أو يرتفع، أما القسمان الأخيران وهو أن يتعادل الضرر والنفع أو لم يوجد قط في هاتين الصورتين وجب الحكم ببقاء ما كان على ما كان، وإن كان النفع خالصاً وجب الإطلاق بمقتضى هذه الآية، وإن كان النفع راجحاً والضرر مرجوحاً يقابل المثل بالمثل، ويبقى القدر الزائد نفعاً خالصاً، فيلتحق بالقسم الذي يكون النفع فيه خالصاً، وإن كان الضرر خالصاً كان تركه خالص النفع، فيلتحق بالقسم المتقدم، وإن كان الضرر راجحاً بقي

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٣٩٧)، والجامع لأحكام القرآن:

القرطبي (١/١٠٢)، والمختصر المفيد في بيان دلائل أقسام التوحيد: عبدالرزاق البدر (ص: ٥٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦٨، ٦٧).

القدر الزائد ضرراً خالصاً، فكان تركه نفعاً خالصاً، فبهذا الطريق صارت هذه الآية دالة على الأحكام التي لا نهاية لها في الحل والحُرمة، ثم إن وجد نصّ خالص في الواقعة فُضي في النفع بالحل، وفي الضرر بالحُرمة، وبهذا الطريق صار جميع الأحكام التي لا نهاية لها داخلاً تحت النص، وبهذا الطريق يكون القرآن وحده وافيّاً ببيان كلِّ أحكام الشريعة، ولا حاجة معه إلى طريق آخر فهذا تقرير قول من يقول: القرآن وافيٌّ ببيان جميع الوقائع.

والآية تدلُّ على أن الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل، ولمّا كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله، فكذلك في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] فإنَّ هذه الآية تدلُّ على أن الأصل في المضار والآلام، الحُرمة، وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله داخلاً تحت عموم هذه الآية، وتلك الآية دالة على أن الأصل في المنافع الحل، وهذه الآية دالة على أن الأصل في جميع المضار الحُرمة، وكلُّ واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها، وتدلُّ على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات، وبهذا الطريق البيّن الواضح ثبت أن القرآن وافيٌّ ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها^(١)، فإنَّ القرآن متضمّنٌ لأدوية القلب، وعلاجه من جميع أمراضه، فإن جماع أمراض القلب هي أمراض الشهوات والشهوات، والقرآن شفاءٌ للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبيّن الحقّ من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المُفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن؛ فإنّه كفيّل بذلك كلّهُ، متضمّنٌ له على أتمّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأصحها بياناً؛ فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشُّبه والشكوك، ولكن ذلك موقوفٌ على فهمه ومعرفة المراد منه، فمن رزقه الله ذلك أبصر الحقّ والباطل عياناً بقلبه، وعلم أن أحسن ما عند الآخرين فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عند الخصم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، فمن المُحال أن لا يحصل الشفاء والهدى، والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله؛ فإنَّ القرآن يوصل إلى اليقين في هذه المطالب الإلهية التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم بها وجعله شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وأمّا شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والترهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومَعاده ويرغب عما يضره، فيصير القلب مُحباً للرشد، مُبغضاً للغي، فالقرآن مزيلٌ للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، ويعود

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤٠/١٤).

إلى فطرته التي فُطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويُفرحه، ويسره ويُنشّطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه^(١).
ثالثاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. هذه الآية تدلُّ على أنَّ الأصل في المنافع واللذات الإباحة والحل.
٢. أنَّ الله جمع في كتابه العزيز جميع ما يُحتاجُ إليه من أخبار الأولين والآخرين، والمواعظ والأمثال، والآداب، وضروب الأحكام، والحجج القاطعات الظاهرات في الدلالة على وحدانيته، وإلهيته وغير ذلك ممَّا جاءت به رسلُهُ الدامغات لأهل الإلحاد الضلال الطغام، وضاعف الأجر في تلاوته، وأمرنا بالاعتناء به والإعظام، ومُلازمة الآداب معه، وبذل الوُسع في الاحترام.
٣. تدبر القرآن الكريم يورث اليقين بأنَّه تنزيلٌ من الله؛ لسلامته من الاضطراب، ويظهر عظيم ما تضمنه من الأحكام.
٤. أنَّ الله جمع في القرآن جميع ما في الكتب المنزلة، فالقرآن إمامٌ^(٣).

المقصد التاسع: إنَّ الله موصوفٌ بالكمال والجمال

يدلُّ على هذا المقصد الإيماني قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

بيان المقصد في الآية^(٤):

إنَّ الله جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال، وعنصرُ الجمال في هذا الكون مقصوداً قصداً، جمالٌ مقصودٌ وكمالٌ بلا حدودٍ، فرويةُ الجمالِ على حقيقته لا تكون إلا حينما ينظرُ القلبُ بنورِ الله، فتتكشف له الأشياء عن جوهرها الجميلة وروائعها البديعة، ويتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسه على شيءٍ بديعٍ، أو منظرٍ حسنٍ، فيحسن بالصلة ويشعر بالترابط بين المبدع وما أبدع والجميل وما جمّل والمحسن وما أحسن، ويرى من وراء هذا الجمال جمال الله الخالق وجلاله وكماله، والقرآن يوقظ القلوب لتتبع مواضع الحسن وآيات الجمال في هذا الكون البديع ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق: ٦] فالآية استفهامٌ استنكاري لأولئك الذين لهم أعينٌ لا يبصرون بها، وقلوبٌ لا

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (١/٩٧.٩٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٣٩).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن: النووي (ص: ٦)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٤٥٣، ١٥٤٦)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٩١).

(٤) الإيمان بالله: علي الصلابي (ص: ١٠)، والتوهم رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة: الحارث المحاسبي (ص: ٨٠).

يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَا يَرُونَ ذَلِكَ الْجَمَالَ السَّاحِرَ، وَالْإِبْدَاعَ الْأَخَاذَ وَالْحَسْنَ الْجَذَابَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى رَبِّ الْعِبَادِ، وَلِذَلِكَ يَكْتَثُرُ فِي الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ لِأَخْذِ الْعِبْرَةِ، وَلِلْإِحْسَاسِ بِالْجَمَالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] فَأَيُّنَ الْأَعْيُنُ النَّاطِرَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمَبْصُرَةُ، وَالْأَذْهَانُ الْمَتَوَقِّدَةُ، وَالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَالْمَشَاعِرُ الْحَيَّةُ، وَالْأَحَاسِيْسُ الْمَرْهَفَةُ؟ مَا أَرُوعَ هَذَا الْكُونِ وَمَا أَجْمَلَ هَذَا الْوُجُودِ، إِنَّ الْمَتَأَمَّلَ فِيهِ يَبْهَرُ بِجَمَالِهِ، وَرُوعَةَ نِظَامِهِ وَعِظْمَةَ إِحْكَامِهِ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ؛ جَمِيلٌ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ، أَرْضُهُ وَسَمَاوُهُ، بَدْرُهُ وَشَمْسُهُ، غَيْمُهُ وَصَحْوُهُ، أَخْضَرُهُ وَأَغْبَرُهُ، جِبَالُهُ وَتَلَالُهُ، سَهْلُهُ وَوُدْيَانُهُ، بَرُّهُ وَبَحْرُهُ، كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ بَدِيعٌ وَكُلُّ شَيْءٍ مُتَقَنَّ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُتَنَاسِقٌ وَكُلُّ شَيْءٍ مُنْتَظَمٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِإِحْكَامٍ، مِنَ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ إِلَى الْجَرْمِ الْكَبِيرِ، وَمِنَ الْخَلِيَّةِ السَّادِجَةِ إِلَى أَعْقَدِ الْأَجْسَامِ. فَالنَّظَرُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَرُوعَةَ خَلْقِهِ، وَتَبَايُنِ أَجْنَاسِهِ وَتَعَدُّدِ لُغَاتِهِ وَاخْتِلَافِ نِعَمَاتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَخْلُوقَاتِهِ وَأَجْمَلَهَا الْإِنْسَانَ، وَالنَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَهَيْبَتِهَا وَالنَّجْمِ وَفَتْنَتِهَا، وَالشَّمْسِ وَحُسْنِهَا، وَالْكَوَاكِبِ وَرُوعَتِهَا، وَالْبَدْرِ وَإِشْرَاقِهِ، وَالْفِضَاءِ وَرِحَابَتِهِ، وَتَأَمَّلْ فِي السَّمَاءِ فِي لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ وَقَدْ انْتَشَرَتْ فِيهَا الْكَوَاكِبُ وَبَثَّتْ فِيهَا النُّجُومَ، وَالنَّظَرَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ دَحَاهَا، وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا، هَذِهِ الْبِحَارُ، هَذِهِ الْأَنْهَارُ، هَذَا اللَّيْلُ، هَذَا الصَّبْحُ، هَذَا الضِّيَاءُ، هَذِهِ الظُّلَالُ، هَذِهِ السَّحْبُ، هَذَا التَّنَاقُمُ السَّارِي فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، هَذَا التَّنَاسُقُ هَذِهِ الزَّهْرَةُ، هَذِهِ الْوَرْدَةُ هَذِهِ الثَّمَرَةُ الْيَانِعَةُ، هَذَا اللَّبَنُ السَّائِعُ، هَذَا الشَّهْدُ الْمَذَابِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْخَالِقِ، كُلُّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ الْمُبْدِعِ، فَاللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، وَلَيْسَ لَهُ مِثْلٌ فِي ذَاتِهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَعْمَالِهِ، كُلُّ مَا فِي الْكُونِ مِنْ إِبْدَاعٍ وَنِظَامٍ وَانْسِجَامٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَبْدِعَهُ وَمُدَبِّرَهُ وَاحِدٌ وَلَوْ كَانَ وَرَاءَ هَذَا الْكُونِ أَكْثَرُ مِنْ مُدَبِّرٍ وَأَكْثَرُ مِنْ مَنْظِمٍ لِأَخْتَلَّ نِظَامُهُ، وَاضْطَرَبَتْ سُنَنُهُ.

المقصد العاشر: النعم في الدنيا مشوبةً بابتلاءٍ، وكدرٍ.

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَّصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَالطَّيِّبَاتِ: الطيبات جمع طيبة، وهي تطلق على المستلذ مما لا ضرر فيه، وعلى النظيف،

وعلى ما لا أذى فيه، وعلى الحلال.

خَالِصَةٌ: خالصة من مائثم أو مضرّة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٦٩/١٤)، وتفسير القرآن: العز ابن عبدالسلام (ص: ١٧١)، وفتح الباري بشرح صحيح

البخاري: ابن حجر العسقلاني (٢٨٢/١٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٩، ٩٨/٨).

الآيات: المراد بها الدلائل الدالة على عظيم قدرة الله، وانفراده بالإلهية، والدالة على صدق رسوله، إذ بين فساد دين أهل الجاهلية، وعلم أهل الإسلام علماً كاملاً لا يختلط معه الصالح والفاقد من الأعمال.

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ: المراد بهم الثناء على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها، التعريضُ بجهل وضلال عقول المشركين الذين استمروا على عنادهم وضلالهم، رُغم ما فصل لهم من الآيات^(١). والمعنى أي: لقوم يمكنهم النظر به والاستدلال حتى يتوصلوا به إلى تحصيل العلوم النظرية.
ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

قل أيها الرسول: إن تلك الطيبات من المأكولات والمشروبات والملبوسات وغيرها للمؤمنين في الحياة الدنيا، فهي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدَه في الحياة الدنيا، وإن شركهم غيرهم فيها في الدنيا فهي خاصة بهم يوم لقيامة، لا يشركهم فيها كافر؛ لأنَّ الجنة محرمة على الكافرين، فانه يُخلص الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء كما كان لهم في الدنيا من الاشتراك فيها، فهي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا مع غيرهم، وهي للمؤمنين خالصة يوم القيامة، ثم إنَّ مثل هذا التفصيل والبيان الذي بيناه وفصلناه في هذه الآيات وما زلنا نفضل ونبين ما نزل من آيات القرآن لقوم يتدبرون؛ لأنَّهم الذين ينتفعون بها، ويعلمون أنَّها من عند الله، فيعقلونها، ويعلمون الحكمة في خلق الأشياء، واستعمال الأشياء على نهج ينفع ولا يضر، أمَّا غيرهم من أهل الجهل والضلال فإنَّهم لا ينتفعون بذلك؛ لأنَّهم محجوبون بظلمة الكفر والشرك ودخان الأهواء والشهوات والشبهات.

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٣):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معنى الخلاص التَّمَحُّض، وهو في الآية التَّمَحُّض عن مشاركة غيرهم من أهل يوم القيامة، والمقصود أنَّ المشركين وغيرهم من الكافرين لا زينة لهم ولا طيبات من الرزق يوم القيامة، أي: أنَّها في الدنيا كانت لهم مع مشاركة المشركين إياهم فيها،

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢٠٠/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١١/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٦٩، ٦٦/٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٩١، ١٥٤)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٧/٨).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٧٦/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٨/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/١)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٢/٢)، وروح المعاني: الألوسي (١٦٥/٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٧/٨).

فهي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة لهم؛ لأنَّ المشركين شركائهم فيها خالصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحدٌ.

اللطيفة الثانية: فإن قيل: هلا قيل: للذين آمنوا ولغيرهم؟ فالجواب: فهم منه التنبية على أنَّها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة لمزيد كرامتهم على الله تعالى، وأنَّ الكفرة تبع لهم ما داموا في الدنيا والحاصل: إن ذلك تنبيه على أنَّ هذه النعم إنما تصفوا عن شوائب الرحمة يوم القيامة، أمَّا في الدنيا فإنها تكون مكدرة مشوبة.

اللطيفة الثالثة: قدم الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لتأكيد الخلو والاختصاص.

اللطيفة الرابعة: الكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ﴾ للتشبيه.

اللطيفة الخامسة: اللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لام العلة، أي: تفصيل الآيات لا يفهمه إلاَّ قوم يعلمون؛ فإنَّ الله لما فصل الآيات يعلم أنَّ تفصيلها لقوم يعلمون، فإنَّ غير الذين لا يعلمون لا تكون آيات لهم إذ لا يفقهونها^(١).

اللطيفة السادسة: حذف المعمول يفيد العموم في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ومنه، قال الصاوي^(٢):
"أي: يعلمون أنَّ الله مستحق للعبادة"^(٣).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٤):

أ- الدنيا ابتلاءً:

إنَّ الزينة والطيبات هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصة من الهموم والأحزان والمشقة، وهي خالصة يوم القيامة من ذلك، إنَّما كانت خالصة للمؤمنين يوم القيامة؛ لأنَّ رحمة الله تنفرد بالمؤمنين، وغضبه ينفرد بالكافرين، فالزينة من الثياب والطيبات من الرزق هي للمؤمنين في الدنيا بالاستحقاق الأصلي، وأمَّا مشاركة غيرهم لهم فهو بطريق التبع، وهذا جواب عما يقال: إنَّ المشاهد أنَّ الكافر يستمتع بالزينة والمستلذات أكثر من المسلم، فكيف يقال إنَّها ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ﴾ فأجاب بما ذكر، ويؤيد هذا المعنى قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦] ولذا لا يعاقبون عليها؛ لأنَّ الله خلقها لهم بطريق الأصالة

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٨/٨).

(٢) هو أحمد بن محمد المصري الخلوتي، الشهير بالصاوي. فقيه مالكي، أخذ عن الدردير والدسوقي، نسبته إلى (صاء الحجر) في إقليم الغربية بمصر، ولد بها سنة (١١٥٧هـ) وتوفي بالمدينة النبوية سنة (١٢٤١هـ)، من مؤلفاته: حاشية على تفسير الجلالين. ينظر: الأعلام: الزركلي (٢٣٣/١).

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٩/٢).

(٤) روح المعاني: الألويسي (١٦٥/٨)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٨/٢)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٧/٨).

ليستعينوا بها على طاعته، ولذا إذا عدم المؤمنون في آخر الزمان تقوم القيامة، إذ لم يبق مستحق للنعم، وهي للمؤمنين بالأصالة؛ لأنَّ المؤمنين علماء فيحسنون العمل والإنتاج والصناعة، والكفار تبع لهم في ذلك؛ لجهلهم وكسلهم وعدم بصيرتهم، وهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة لا يشاركون فيها الكفار؛ لأنَّهم في دار الشقاء النَّار، وإنَّما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذات الآخرة، فيرغبوا فيها مزيد رغبة، لكن شاركهم الكفرة فيها لنلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان، فإذا ذهب هذا المعنى، تصير خالصة لهم يوم القيامة، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين، وهو خلاف مقتضى الحكمة، وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الإيمان، وهو العبادة والتقوى، ولكن من غير انهماك في الشهوات. فإن قيل: أمم الكفر وأوروبا وأمريكا هي التي تقدمت صناعياً، وتمتعت بما يتمتع به المؤمنون؟ فالجواب: أنَّ المسلمين صرفوا عن العلم والعمل وأعدوا عن الإنتاج والاختراع بإفساد أعدائهم لهم عقولهم وعقائدهم، فعوقبهم عن العمل مكرماً بهم وخداعاً لهم. والدليل أنَّ المؤمنين لما كانوا كاملين في إيمانهم كانوا أرقى الأمم وأكملها حضارةً وطهارةً وقوةً وإنتاجاً مع أنَّ الآية تقول: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإذا حلَّ الجهل محل العلم فلا إنتاج ولا اختراع ولا حضارة^(١).

ب- القرآن خطاب للعقلاء:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أُولِي بَالٍ﴾ أي: مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة، ويتدبرون ما فيها، فإنَّهم المنتفعون بها، وغيرهم لا يعباً به ولا يخاطب^(٢). وفي الآية ردُّ على الزنادقة والملاحدة الذين أرادوا أن يظهر الإسلام بمظهر الدِّين الخرافي الذي ينافي العلم، والسُّنن الكونية^(٣)؛ فإنَّهم وضعوا أحاديث مخالفة لمقتضى العقل، ونسبوها إلى الرسول تفتيراً للعقلاء عن شريعته الغراء^(٤).

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٦٨/٧)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٨/٨).

(٢) روح المعاني: الألوسي (١٦٥/٨)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٩/٢).

(٣) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد بن محمد أبو شهبة (ص: ٢٩٢).

(٤) نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول: الإسنوي (٦٨٢/٢).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. المستلذات من الطعام والشراب، والمزينات من الثياب وغيرها المؤمنون أولى بها من غيرهم؛ لأنهم يُحسنون العمل، ويبدلون الجهد لاستخراجها والانتفاع بها.
٢. أن الله تعالى خلق الدنيا وما فيها للاستعانة على طاعته، فمن خالفه فقد عصاه وسبيله الردُّ إلى من يطيعه، ومنه سُمِّيَ الفيء^(٢)؛ فقد استعمل في المال الراجع من الكفار إلى المسلمين.
٣. أن هذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، فلا تبعة عليهم فيها.
٤. مفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنَّها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها، ويُسأل عن النعيم يوم القيامة^(٣).
٥. ليس العبرة بتكالب الكفار على المسلمين، وإنما العبرة كيف حال المسلمين مع الله.
٦. أن القرآن خطاب الله للعُقلاء والنبلاء.
٧. في الآية دليلٌ على الامتناع عن مناظرة أهل السفسةطة^(٤)، والحمقى والمجانين؛ لأنَّه إنَّما يُناظر من يُقر بضرورة أو يعترف بأمرٍ، فيُجعل ما يُقر سبباً إلى تصحيح ما يجده، فأما من لا يُقر بذلك، فمجادلته مطروحةً، إذ مقصود المناظرة ردُّ الخصم إلى الصواب بطريقٍ يعرفه^(٥).

(١) مُغني المحتاج: الخطيب الشربيني (١١٢/٣)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٨/٨).

(٢) الفيء لغةً: مصدر فاء يفيء إذا رجع، وشرعاً: مالٌ حصل من كفارٍ بلا قتالٍ وإيجابِ خيلٍ وركابٍ. ينظر: مغني المحتاج: الخطيب الشربيني (١١٢/٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١).

(٤) قال ابنُ الجوزي: هم قومٌ ينسبون إلى رجلٍ يقال: له سو فسطا، زعموا أن الأشياء لا حقيقة لها، فالسفسطائية تنكر حقائق الأشياء، ويزعمون أنَّها أوهام. ينظر: تلبيس إبليس: ابن الجوزي (ص: ٥٢).

(٥) تلبيس إبليس: ابن الجوزي (ص: ٥٣)، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد: عثمان على حسن (٦٩٨/٢).

المطلب الثاني: إيجاب التوحيد وتحريم الشرك

وفيه عشرة مقاصد:

المقصد الأول: المعاصي كلها جاهليّة.

دلُّ عليه قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣].
أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

إنَّما: أسلوب قصر يدلُّ على بساطة في الأمور، كأنَّما القضية من المسلمات، والبدهيّات.
الْفَوَاحِشُ: جمع فاحشة، وهي: ما فحش وشنع، وأصله من الفُحج في المنظر، ثم استعمل فيما ساء من الخُلُق وألفاظ الحرج والرفث، ومنه في الصحيح: "ليس بفاحشٍ"^(٢) في صفة النبيّ (ﷺ)، وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس، والفُحج والحُسن في المعاني إنَّما يُتلقى من جهة الشرع والطبع، والفواحش هي إشارة إلى ما نصَّ الشرع على تحريمه، فكلُّ ما حرَّمه الشرع فهو فاحشٌ، وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه، والفواحش: ما تزايد قبحه من المعاصي، والفواحشُ شرعاً: الأعمالُ المُفْرِطَةُ في الفُحج^(٣).

مَا ظَهَرَ: هو ما يظهره النَّاسُ بين قرنائهم وخاصتهم مثل البغاء والمخادنة، والزَّنا، واللواط^(٤).
وَمَا بَطَنَ: هو ما لا يظهره النَّاسُ، فقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك.
الْإِثْمُ: الإثم هو كلُّ ذنبٍ، فهو أعمُّ من الفواحش، والإثم: يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم، وحقيقته أنَّه جميع المعاصي، والبغي: الاستطالة على النَّاسِ^(٥). والإثم: هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به، والإثم ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك، والإثم: اسمٌ للأفعال البطيئة عن الخيرات لتضمُّنه معنى البطء^(٦).

(١) القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته: فضل حسن عباس (ص: ٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ عن عبدالله بن عمرو قال: لم يكن النبيُّ (ﷺ) فاحشاً ولا مُتَفَحِّشاً في كتاب المناقب . باب صفة النبيِّ (ﷺ) حديث رقم (٣٥٥٩)، (ص: ٤٢٣)، (الفتح ٨/٢٠٢).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٤٨٧)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/٢٠٠)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٦٦).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٧٠)، والتفسير الكبير: الرازي (٤/٧٠). التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٠٠)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٧/٢٠١)، تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١١)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٢٨٣)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم (١/٦٣٨).

(٦) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٦٣).

وَالْبَغْيَ: هو الاعتداء على حق الغير بسلب أموالهم أو بأذاهم، وقد كان البغي شائعاً في الجاهليّة، فكان القوي يأكل الضعيف، ومادة (بغى) تدلُّ في اللُّغة على معنيين اثنين: أحدهما: طلبُ الشيء، والآخر: تجاوز الحدِّ المُفضي إلى فسادٍ، وكلُّ تجاوزٍ للحدِّ: بَغْيٌ. ويأتي البغي في القرآن بمعنى الاستطالة على النَّاس والكبر والفساد والظلم والفجور والزُّنا والحسد والمعصية. والبغْيُ شرعاً: إمَّا تضييعُ للحقِّ، وإمَّا تعدُّ للحدِّ؛ فهو إمَّا تركٌ واجبٍ، وإمَّا فعلٌ مُحرمٌ^(١).
ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تضمنت الآية بيان أصول المحرمات التي حرّمها الله في كلّ شريعةٍ، وأمّهات الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وهي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم: وهو سائر المعاصي بترك الواجب أو فعل الحرام، والبغي وهو الاستطالة على النَّاس والاعتداء عليهم بهضم حقوقهم وأخذ أموالهم وضرب أجسامهم وذلك بغير حقٍّ، والشرك بالله بعبادة غيره، والقول على الله بدون علمٍ، وذلك كشرع ما لم يشرع، بتحريم ما لم يحرم، وإيجاب ما لم يوجب.
ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٣):

إنَّ الله لما بيّن في الآية الأولى أنَّ الذي حرّمه ليس بحرامٍ بيّن في هذه الآية أنواع المحرمات فحرم أولاً الفواحش، وثانياً الإثم. أي: لما تقدم إنكار ما حرّمه الكفار بآرائهم، أتبعه ذكر ما حرّم الله. فلما أنبأ قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ بأنَّ أهلَ الجاهليّة حرّموا من الزينة والطيبات من الرزق، وأنبأ قوله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ بأنَّ أهلَ الجاهليّة يَعْزُونَ ضلالهم في الدّين إلى الله، فأنّج ذلك أنّهم ادّعوا أنَّ ما حرّمه من الزّينة والطّيبات قد حرّمه الله عليهم، أعقب مجادلتهم ببيان ما حرّمه الله حقاً وهم ملتبسون به وعاكفون على فعله.
رابعاً: نظير هذه الآية الكريمة:

قول رسول الله (ﷺ): " لا أَحَدَ أَغْيُرُ من الله، ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن"^(٤).

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٤/١)، ومن أسرار اللُّغة في الكتاب والسنة: محمود الطناحي (١٦١/١)، وتزّهة الأعيان النواظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي (ص: ١٩٢)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢٠١/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٠/٨).

(٢) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٧/٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٤٨٦/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (٦٩/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٩٩/٨).

(٤) صحيح البخاري في كتاب التفسير. باب قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ١٥١] حديث رقم: (٤٦٣٤)، (ص: ٥٥٠)، وفتح الباري: ابن حجر (١٢٦/١٠).

خامساً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿قُلْ﴾ أمر من الله للرسول (ﷺ)، والأمر بالقول له أهمية كبيرة، ولو حذف الفعل لاختل المعنى المقصود، فـ ﴿قُلْ﴾ للإفصاح عن ضعفه والتجائه إلى ربه، فكلمة: ﴿قُلْ﴾ هي من باب الإفصاح والإعلان عن حاجة الإنسان إلى ربه، وهو يفصح عن حاجته هذه بنفسه وينطقها بلسانه، وفيها قتل للغرور؛ لأنَّ الكبر والغرور يمنعان المرء أحياناً من طلب الإعانة، وهو في حاجة شديدة إليها، ولأنَّ الذي يطلب المعونة من غيره يمتنع عن الغرور، ولا يكتفي الإنسان بالشعور بالحاجة إلى ربه، لكن ينبغي أن يعلن حاجته لربه.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ قصر إضافي مفاده أنَّ الله حرَّم الفواحش وما ذكر معها لا ما حرَّمتموه من الزينة والطيبات، فأفاد إبطال اعتقادهم، ثم هو يفيد بطريق التعريض أنَّ ما عدَّه الله من المحرَّمات الثابت تحريمها قد تلبَّسوا بها؛ لأنَّه لما عدَّ أشياء، وقد علم النَّاس أنَّ المحرَّمات ليست محصورةً فيها، علم السَّامع أنَّ ما عيَّنه مقصود به تعيين ما تلبَّسوا به فحصل بصيغة القصر ردُّ عليهم من جانبي ما في صيغة ﴿إِنَّمَا﴾ من إثبات ونفي.

اللطيفة الثالثة: كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، والمحرَّمات غير محصورة في هذه الأشياء. والجواب: أنَّ الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر، والإثم على مطلق الذنب، فدخل كلُّ الذنوب فيه، فلما كانت أصول المعاصي هي هذه الأشياء، وكانت البواقي كالفروع والتوابع، لا جرم جعل الله تعالى ذكرها جارياً مجرى ذكر الكلِّ.

اللطيفة الرابعة: في الآية عطف العام على الخاص، وعطف الخاص على العام؛ فالإثم في الآية: هو كلُّ ذنبٍ، فهو أعمُّ من الفواحش؛ لأنَّه يشمل الصغائر والكبائر بخلاف الفواحش، فيكون ذكر الفواحش قبله للاهتمام بالتحذير منها قبل التحذير من عموم الذنوب، فهو من ذكر الخاص قبل العام للاهتمام، كذكر الخاص بعد العام، حيثُ إنَّ البغي أخصُّ من الإثم. فإنَّ الاهتمام الحاصل بالتخصيص مع التقديم أقوى؛ لأنَّ فيه اهتماماً من جهتين.

اللطيفة الخامسة: قد يُسمَّى الخمر إثمًا، وليس في إطلاق الإثم على الخمر ما يدلُّ على اختصاصه به، فهو أحد المعاصي التي يصدق عليها.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الظلم المجاوز للحدِّ، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله للمبالغة، ولكونه ذنباً عظيماً^(٢). قال علماء التفسير: وأخرج الإثم والبغي من الفواحش،

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧١/١٤)، وتفسير ابن عرفة (٢٢٢/٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٣/٢)، والتحرير

والتنوير: ابن عاشور (١٠٠، ٩٩/٨)، ولمسات بيانية: فاضل بن صالح السامرائي (ص: ٤٤٥).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/١)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٣/٢).

وهما منه؛ لعظمتها وفحشهما، فنصَّ على ذكرهما تأكيداً لأمرهما وقصداً للزجرِ عنهما، وذلك لأنَّ تخصيصه بالذكر يقتضي أنَّه تَمَيَّزَ من بينها حتى عُدَّ نوعاً مستقلاً^(١).

اللطيفة السابعة: إِنَّ الفاحشة اسمٌ للكبيرة، والإثم اسمٌ لمطلق الذنب، والفائدة في ذكرهما معاً أنَّ الله لما حرم الكبيرة أَرَدَها بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم أن التحريم مقصود على الكبيرة.

اللطيفة الثامنة: الإثم والبغي في الآية هما الإثم والعدوان المذكوران في سورة المائدة^(٢)، مع أنَّ البغي غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم، وعلى هذا فإذا قرن البغي بالعدوان كان البغي ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والابتداء بالأذى، والعدوان تعدي الحق في استيفائه إلى أكبر منه، فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله، وأمَّا الإثم والعدوان فهما قرينان، وكلُّ منهما إذا أُفرد تضمن الآخر، فكلُّ إثمٍ عدوانٌ، إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به، فهو عدوانٌ على أمره ونهيه، وكلُّ عدوانٍ إثمٌ، فإنَّه يَأْتِمُّ به صاحبه، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، ونحو ذلك، والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة. فالعدوان: تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، وهذا العدوان نوعان: عدوان في حقِّ الله، وعدوان في حقِّ العبد^(٣).

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ صفةٌ كاشفةٌ للبغي، مثل العشاء الآخرة؛ لأنَّ البغي لا يكون إلا بغيرِ حقٍّ، وجُوزَ أن يكون حالاً مؤكدة، وجيء به ليخرج البغي على الغير في مقابلة بغيه، فإنَّه يُسَمَّى بغيًّا في الجملة، لكنه بحقٍّ، والبغي لا يستعمل إلا في الإقدام على الغير، نفساً أو مالاً أو عرضاً، وأيضاً قد يراد بالبغي الخروج على سلطان الوقت.

اللطيفة العاشرة: إِنَّ البغي لا يكون إلا بغيرِ الحقِّ، والفائدة من ذكر هذا الشرط أنَّه مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣] والمعنى: لا تقدموا على إيذاء النَّاسِ بالقتل والقهر، إلا أن يكون لكم فيه حقٌّ، فحينئذٍ يخرج من أن يكون بغيًّا.

اللطيفة الحادي عشر: في قوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عطف البغي على الإثم من باب عطف الخاص على العام للاهتمام به؛ لأنَّ البغي كان دأبهم في الجاهليَّة^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢٠١/٧)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٠/٧).

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (١/٦٣٨-٦٤٣).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٦٩، ٧٠)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٦٧)، وحاشية الصاوي على تفسير

الجلالين (٢/٦٦٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٠١).

سادساً: بيان المقصد في الآية^(١):

بَوَّبَ الْبَخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: بَابُ الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَالَ: "وَلَا يُكْفَرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشَّرْكِ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ (ﷺ) لِأَبِي ذَرٍّ: "إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ"^(٢).

والجاهلية ما قبل الإسلام، والمراد بالشرك: أن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم، فهي من أخلاق الجاهلية والشرك أكبر المعاصي، ولهذا استنتاه البخاري، ومحصل قول البخاري أنه لما قدم أن المعاصي يطلق عليها الكفر توسعاً على إرادة كفر النعمة لا كفر الجحد، أراد أن يبين أنه كفر لا يخرج عن الملة، خلافاً للخارج الذين يكفرون بالذنوب، ونص القرآن يرد عليهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فصير ما دون الشرك تحت إمكان المغفرة، والمراد بالشرك في هذه الآية الكفر؛ لأن من جحد نبوة محمد (ﷺ) مثلاً كان كافراً ولو لم يجعل مع الله إلهاً آخر، والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف. فالمعاصي فواحش، وقد كانوا في الجاهلية يستحلون هذه الفواحش، وهي مفسد قبيحة لا يشك، أن الله لا يرضى بها، وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهلية فيما تلبسوا به من الفواحش والآثام، وهم يزعمون أنهم يتورعون عن الطواف في الثياب، وعن أكل بعض الطيبات في الحج^(٣)، فالله إنما حرم على عباده الفواحش، وهي قبائح الذنوب، ظاهرة كانت أو باطنة، وحرم المعاصي كلها، والاعتداء ظلماً على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وتدل الآية على تحريم جميع الذنوب؛ لأن قوله: ﴿الْفَوَاحِشَ وَالْإِثْمَ﴾ يشتمل على الصغير والكبير، والأفعال القبيحة، والعقود المخالفة للشرع، والأقارب الفاسدة، والاعتقادات الباطلة، ودخل في قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ أفعال الجوارح، وأفعال القلوب والخينات، والمكر، والخديعة، ودخل تحت قوله: ﴿وَالْبَغْيَ﴾ كل ظلم يتعدى على الغير، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج، والأمراء إذا انتصروا بغير حق، ودخل تحت قوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ تحريم كل شرك وعبادة لغير الله، ودخل تحت قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق، وشهادة زور، فالآية جامعة

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٥٨/١).

(٢) قوله (ﷺ) لِأَبِي ذَرٍّ: "فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ" أَي: خَصْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، مَعَ أَنَّ مَنزِلَةَ أَبِي ذَرٍّ مِنَ الْإِيمَانِ فِي الذَّرْوَةِ الْعَالِيَةِ، وَإِنَّمَا وَيْخُهُ بِذَلِكَ . عَلَى عَظِيمِ مَنزِلَتِهِ عِنْدَهُ . تَحْذِيرًا لَهُ عَنِ مَعَاوِدَةِ مِثْلِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مَعْذُورًا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ الْعِذْرِ، لَكِنْ وَقُوعِ ذَلِكَ مِنْ مِثْلِهِ يُسْتَعْظَمُ أَكْثَرَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ . وَسَبَبُ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ أَبَا ذَرٍّ عَيَّرَ بِلَالًا بِأَمْرِهِ . وَالتَّعْيِيرُ سَبٌّ وَشْتَمٌّ وَهُوَ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْجَاهِلِيَّةِ . يَنْظُرُ: فَتَحَ الْبَارِي: ابْنُ حَجْرٍ (١٦٠/١).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٢/٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

في المحرمات، كما أنّ ما قبلها جامعة في المباحات، وفيه تعليم للأدب، ديناً ودُنياً، وتدلُّ على بطلان التقليد؛ لأنّه أوجب اتباع الحُجّة، لقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ والسُلْطَانُ الحُجّة^(١).

سابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. بيان أصول المفسد وهي الفواحش، والإثم والبغي والشرك والافتراء على الله.
٢. ذكرت الآية هذه المفسد بطريق التذلي آخرها أخطرها، وهكذا أخفها أولها.
٣. أنّ الفواحش تقطع على العبد طريق الربِّ، وتمنعه عن سلوك مقامات الصالحين.
٤. تفيد الآية أنّ البغي منقصةٌ وشؤمٌ.
٥. أنّ الله حرّم على العباد الخبائث لما لها من آثار سيئة في الدنيا والآخرة.
٦. الآية دلت أيضاً على أنّ الشارع نهى عن الفواحش لحقٍّ مختصٍّ بالله.
٧. أنّ الشريعة الإسلامية تقوم على تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحريم الإثم والبغي بغير الحقِّ، وهذه المبادئ التي تقوم عليها الشريعة الغراء هي المثل العليا التي ينتزع إليها البشر، وتحلم بها الإنسانية.

المقصد الثاني: من منهج القرآن التّهمك بالمشركين؛ فالشّرك باطلٌ وقبيحٌ وظلمٌ.

وبدلٌ على هذا المقصد العقدي قوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(٣):

تُشْرِكُوا: الشرك: كلمة تدلُّ على مقارنةٍ وخلافٍ انفرادي، والشّرك: هو أنّ يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، وقد حرّم الله الشرك على لسان جميع الأنبياء منذ خلق البشر، والشرك شرعاً: العمل لغير الله، هذا هو الشرك؛ فإنّ الإنسان حارث هُمَام لا بُدَّ له من عملٍ ولا بُدَّ له من مقصودٍ يعمل لأجله، وإن عمل لله ولغيره فهو شركٌ، والذنوب من الشرك؛ فإنّها طاعة للشيطان، وأصل الشّرك المحرّم اعتقاد شريك لله في الإلهية، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله في الفعل، وهو قول من قال: إنّ موجوداً ما غير الله يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهاً. والشّرك ضربان: ضربٌ يُجعلُ الله فيه شريكاً، وهذا وصفه الله بأنّه ظلّمٌ عظيمٌ، والآخر: الشّرك الأصغر، وهو مراعاة غير الله في بعض الأمور، كالرياء.

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٧٠/٧).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨٣/٢٩)، روح البيان: البروسوي (١٦٦/٣)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٨/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٤٥٥/٣)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤)، والإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه: عبدالقادر عودة (ص: ٥٥).

(٣) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٦٥/٣)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٤١/١٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠١/٨).

سُلْطَانًا: السلطانُ البرهان والحُجَّةُ، ومعنى نفي تنزيل الحُجَّةِ على الشركاء نفي الحُجَّةِ الدَّالَّةِ على إثبات صفة الشَّرْكَةِ مع الله في الإلهيَّةِ، لأنَّ دليل الوحدانية لله أبطل الشرك لغيره، فهو من تعليق الحكم بالذات والمراد وصفها، مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣] أي: أكلها^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إنَّ الله حَرَّمَ عليكم أن تشركوا مع الله غيره مما ليس لكم حجةٌ فيه، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد.

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٣):

اللطيفة الأولى: التذكير في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ﴾ (ما) نكرةٌ بمعنى شيء، أي: شيئاً سواه تعالى. اللطيفة الثانية: الصلَّة في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ هذه الصلَّة مؤذنةٌ بتخطئة المشركين، ونفي معذرتهم في الإشراك، بأنَّه لا دليل يشتبه على النَّاسِ في عدم استحقاق الأصنام العبادة، فعَرَفَ الشركاء المزعومين تعريفاً لطريق الرسم بأنَّ خاصتهم: أنَّ لا سلطان على شركتهم لله في الإلهيَّةِ، فكلُّ صنمٍ من أصنامهم واضحةٌ فيه هذه الخاصة.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حُجَّةٌ وبرهاناً، والمعنى على نفي الإنزال والسلطان معاً على أبلغ وجهٍ.

اللطيفة الرابعة: قد يوهم الآية أنَّ في الشرك بالله ما قد أنزل به سلطاناً، وجوابه: المرادُ منه أنَّ الإقرار بالشيء الذي ليس على ثبوته حجةٌ ولا سلطانٌ ممتنعٌ، فلما امتنع حصول الحُجَّةِ والتنبية على صحة القول بالشرك فوجب أن يكون القولُ به باطلاً على الإطلاق.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٤):

معنى الآية: وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حُجَّةٌ، وتسووا به في العبادة، والمراد التهكم بالمشركين؛ لأنَّ الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له. فالآية تهكم

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢٦٦/٢)، والمختصر المفيد في بيان دلائل أقسام التوحيد: عبدالرزاق البدر (ص: ٥٥)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٩/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠١/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٧٠/١٤)، وروح المعاني: الألوسي (١٦٧/٨)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٦٩/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠١/٨).

(٤) الكشاف: الزمخشري (٧٧/٢)، وروح المعاني: الألوسي (١٦٧/٨)، وفتح القدير: الشوكاني (٢٨٣/٢)، وفتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان (٣٣٧/٤).

بالمشركين؛ لأنه إذا لم يجز إنزال البرهان بالإشراك كان ذكر ذلك تهكماً بهم، واستهزاءً، ومعلوم أنه لا برهان عليه حتى ينزل^(١). ثم إنَّ أساس دين الإسلام ومبناه يقوم على قاعدتين عظيمتين (التعظيم والمحبة) فما لم يكن المسلم معظماً ومحباً لله ولدينه ورسله، فقد نقض هاتين القاعدتين من أساسها، فالواقع أنَّ الشُّرك فيه استهزاء وسخرية وتقص بالخالق ودينه ورسله؛ فإنَّ المشركين وصفوا الله بما هو منزّه عنه من النقص والعيب؛ حيثُ نسبوا له الصاحبة والولد والشريك له، ووصفوه بما لا يليق به من الكمال والعظمة والإجلال، ومن صور الشُّرك بالله ما ظهر في تاريخ البشرية على يد قوم نوح من الشرك بالله على شكل عبادة الأصنام التي لا تتفع ولا تضر، وقد دخلت الشُّبهة على قوم نوح في عبادة تلك الأصنام أنَّ قولهم: ﴿وَلَا تَدْرُرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَسَخَّ العلمُ عُبدت^(٢). فعبدت هذه الأصنام من دون الله، واتخذ المشركون من قوم نوح الله وتوحيده سُخْرِيًّا؛ بعبادة تلك الأصنام، وذلك أنَّ هؤلاء الضالين مستخفون بتوحيد الله، يعظمون دعاء غيره من الأمور، وإذا أمرُوا بالتوحيد ونُهِوا عن الشرك استخفوا به، فاستهزأوا بالرسول لمَّا نهاهم عن الشرك^(٣)؛ والمقصود: أنَّ الشُّرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله وأكْرهها له، وأشدّها مقتاً لديه، ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبهُ على ذنْبٍ سواه، وأخبر أنَّه لا يغفره، وأنَّ أهله نجس، وحرَّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التَّوحيد أموالهم ونساءهم وأبنائهم، وهذا لأنَّ الشُّرك هَضَمَ لحقَّ الربوبية، وتنقيصَ لعظمة الإلهية، وسوءَ ظنِّ بربِّ العالمين، فالشرك مبنيٌّ على سوء الظنِّ بالله؛ ولذلك لم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك، فإنَّهم ظنوا به ظنَّ السَّوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظنَّ لوحدوه حقَّ توحيدِهِ، ولهذا أخبر الله عن المشركين أنَّهم ما قدره حقَّ قدره، وكيف يقدره حقَّ قدره من جعل له عدلاً ونِدَاءً، يُحبه، ويخافه، ويرجوه، وبذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته، فإنَّ المُشرك إمَّا أن يظن أنَّ الله يحتاج إلى من يُدبِّر أمر العالم معه من وزيرٍ، أو ظهيرٍ، أو عونٍ، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كلِّ ما سواه بذاته، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بذاته، وهذا أصل شرك الخلق، وكلُّ هذا

(١) روح البيان: البروسوي (١٦٧/٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير. باب قوله: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]

رقم (٤٩٢٠)، (ص: ٦٢٠)، والفتح (٢٤/١١).

(٣) الاستهزاء بالدِّين: أحمد القرشي (ص: ٣٠٢).

تنقص للربوبية، وهضم لحقها، فالشرك ملزوم لتنقص الرب، والتنقص لازم له ضرورة، ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية. فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله^(١). وقد رتب الله تعالى على الشرك؛ لعظم بشاعته وشناعته أحكاماً دنيوية وأخروية، منها:

١. عدم الغفران، لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].
 ٢. تحريم دخول الجنة.
 ٣. الخلود في النار، قال الله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].
 ٤. حبوط جميع الأعمال، لقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].
 ٥. سقوط عصمة الدم والمال، قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]^(٢).
- خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٣):

١. النهي عن الشرك؛ لأنه تنقص للخالق تعالى، وأنه أعظم السيئات والمنكرات.
٢. أن الشرك في عبادة الله هو أظلم الظلم، وأكبر الكبائر، وأعظم الذنوب، وانتكاس في الفطرة، وترد في الضلالة؛ لأنه صرف خالص حق الله لغيره، وعدل غيره به^(٤).
٣. هذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل.
٤. في الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان^(٥).
٥. الآية تنديد بضلال من يدعو من دون الله، وإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون، ولا يستند إلى حق من القول، ولا مأثور من العلم.
٦. أن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين^(٦).
٧. أن الإسلام دين التوحيد، وعدو الشرك، وليس في الإسلام ذنب أعظم من الشرك^(٧).
٨. أن الشرك بالله هو أعظم صورة يذل بها العبد نفسه، ويدسها في دركات الهوان^(٨).
٩. أن الله لا عدل له معادل، ولا مثل له مماثل، ولا شريك له مظاهر، ولا ولد له ولا والد.

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (١/١٢٠-١٢٣).

(٢) العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد بن عبدالرحمن القاضي (ص: ٣١).

(٣) الاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٣٠١).

(٤) العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد بن عبدالرحمن القاضي (ص: ٣٠٠).

(٥) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٧٠)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٣٧)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٧٠)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٦/٣٢٥٢).

(٦) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٣/١)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن القيم (١/١٢٠).

(٧) روائع البيان تفسير آيات الأحكام: الصابوني (٢/٢٩٢).

(٨) قواعد قرآنية: عمر بن عبد الله المقبل (ص: ١٢٨).

المقصد الثالث: تحريم الافتاء في دين الله بغير علم، فالقول على الله بلا علم حرام

ويدل على هذا المقصد الأصولي قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

وَأَنْ تَقُولُوا: القول يُستعمل على أنحاء، منها: أن يُقصد به حكاية الجمل المفيدة، وهذا غالب أحواله، والقول لا حقيقة له إلا بالغم.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إن الله حرم عليكم القول عليه بغير علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد ولما فيها من الظلم والتجروء على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

إن الله قد حرم القول عليه بغير علم في الفُتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منها وهو الشرك به، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] فالآية بيان من الله أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ إلا بما علم أن الله أحله وحرمه، فالقول على الله بلا علم هو أشد هذه المحرمات تحريماً، وأعظمها إثماً، ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولا تُباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يُباح في حالٍ دون حالٍ، فإن المحرمات نوعان: محرمة لذاته لا يُباح بحالٍ، ومحرمة تحريماً عارضاً في وقتٍ دون وقتٍ، قال الله في المحرم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣/٤٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (٢/٣٧٣، ٤٣٩).

يُنزَّلُ بِهِ سُلْطَانًا ﴿٣١﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدّها إثماً، فإنّه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبتته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله من القول على الله بلا علم، ولا أشدّ إثماً، وهو أصلُ الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكلُّ بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم؛ فأصلُ الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم؛ فإنَّ المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله، يقربه إلى الله، ويشفع له عنده، فكلُّ مشركٍ قائلٌ على الله بلا علم، دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله، فهو أعمُّ من الشرك، والشرك فرد من أفرادهِ، ولهذا كان الكذب على رسول الله (ﷺ) موجِباً لدخول النَّار؛ لأنَّه متضمن للقول على الله بلا علم^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. تدلُّ الآية على تحريم الخوض في الأمور الغيبية مع عدم الدليل، ويدخل في ذلك جميع مسائل الدين، ومنها القول في أسماء الله وصفاته وأفعاله باعتبارها من الأمور المغيبة التي لا تعرف إلا عن طريق الوحي، فتأويل نصوص الصفات الإلهية بأنَّ ظاهرها غير مراد من القول على الله بلا علم، وهو محرّم.
٢. تحريم الكهانة والعرافة وما أُلقِيَ بهما من الطيرة والتنجيم؛ لأنَّ الملحظ في الكلِّ واحدٌ، وهو ادعاء علم الغيب، والعراف: اسمٌ عامٌّ للكاهن والمُنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور الغيبية^(٣)، وهو اعتداء على حقِّ الخالق الذي استأثر بعلم الغيب.
٣. أنَّ الله يحبُّ الكلام بعلمٍ وعدلٍ، ويكره الكلام بجهلٍ وظلمٍ؛ فمن أجل ذلك حرّم الله الكلام بلا علمٍ مطلقاً، وخصَّ القول عليه بلا علمٍ بالنهاي^(٤).
٤. يدخل في الآية المفتي بالكذب؛ فالإفتاء إعلام وتوقيع عن ربِّ العالمين.
٥. حرمة التحليل والتحريم بالرأي المجرد، بلا برهانٍ من الله ورسوله.
٦. أنكر الله على من نسب إلى دينه تحليل شيءٍ أو تحريمه من عنده، بلا برهانٍ من الله.
٧. أنَّ القول على الله بلا علمٍ كذبٌ وافتراءٌ صريحٌ على الوحي^(٥).

(١) مدارج السالكين بين منازل إيساك عبدي وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (١/٦٤٤، ٦٤٨).

(٢) آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ٢٩٧، ٢٨٠).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٥/١٧٣)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشايع (ص: ١٨٠).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٦/٩٦)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين: الصاوي (٢/٦٦٩).

(٥) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٩٨).

المقصد الرابع: للدول والأمم أعمار

دلُّ عليه قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَلِكُلِّ: كل: حرف من حروف العموم، إلا أنَّ عمومها بحسب ما تضاف إليه.

أُمَّةٌ: أي: فرقة وجماعة، وقرن وجيل، وهي لفظة تستعمل في الكثير من النَّاس، والمراد بالأُمَّة في الآية الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإِشراك أو في تكذيب الرُّسل، كما يدلُّ عليه السياق، والأُمَّة أيضاً الجماعة التي يجمعها نسبٌ أو لغة.

أَجَلٌ: الأجل في الآية: يُطلق على مدَّة الإمهال، ويُطلق على الوقت المحدد به انتهاء الإمهال،

والواقع في هذه الآية يصحُّ للاستعمالين بأنَّ يكون المراد بالأجل الأوَّل: المدَّة، وبالتالي: الوقت

المحدد لفعلٍ مَّا. والأجلُ: المدَّة المضروبة، ويقالُ للمدة المضروبة لحياة الإنسان: أجلٌ.

سَاعَةً: ساعةً لفظٌ عُنِّيَ به الجزء القليل من الزمن، والمراد جميع أجزائه أي لا يستأخرون ساعة

ولا أقل منها ولا أكثر، هي عبارةٌ يقام الجزء فيها مقام الكلِّ.

فَإِذَا: ظرف زمان للمستقبل في الغالب، وتتضمن معنى الشرط غالباً.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

ولكل جيلٍ وقرنٍ مدَّةٌ وميقاتٌ محدد لآجالهم، فإذا جاء ميقاتهم المُقدَّر لا يتأخرون عنه

زمناً، وإن قل، ولا يتقدمون عليه، فلا تتقدم أُمَّةٌ من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا

الأمم المجتمعة ولا أفرادها، فالمعنى أنَّ الله أمهل كلَّ أُمَّةٍ كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو

تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا

جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات:

اتَّصال الآية بما قبلها من حيث التَّهديد، والإنذار بمجيء الأجل، ودفعه لكي يُبادروه إلى

ما فيه الفلاح والنَّجاة، فلمَّا نعى الله على المشركين ضلالهم، بعد أن دعاهم إلى الإيمان،

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي(٣٣٧/١)، والمحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن

عطية(٤٩٠/٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٢١١/٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الحلبي(٦٧/١)، والمحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٤٩٠/٥)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور(١٠٥،١٠٣/٨)، ونثر الورود على حائبة ابن أبي داود: زيد بن محمد المدخلي(ص:٣٦).

(٢) التفسير الكبير: الرازي(٧٢/١٤)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي(ص:٢٩٢)،

والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص:١٥٤).

وإعراضهم عنه، بالمجادلة والتوبيخ وإظهار نقائصهم بالحجة، وكان حالهم حال من لا يقلع عما هم فيه، أعقب ذلك بإنذارهم ووعيدهم إقامة للحجة عليهم وإعذاراً لهم قبل حلول العذاب بهم^(١).

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ تقدير، أي: لكل أمة مكذبة إمهال، فحذف وصف أمة أي: مكذبة، وجعل لذلك الزمان نهايةً وهي الوقت المضروب لانقضاء الإمهال.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى ولكل أمة أي: فرقة وجماعة، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيها الأمة كذلك.

اللطيفة الثالثة: ليس المراد في الآية، بأجل الأمة، أجل أفرادها، وهو مدة حياة كل واحد منها؛ لأنه لا علاقة له بالسياق، ولأن إسناده إلى الأمة يعين أنه أجل مجموعها لا أفرادها.

اللطيفة الرابعة: في الآية قدم الظرف على عامله للاهتمام به ليتأكد بذلك التقديم معنى التعليق. والمجيء مجاز في الحلول المقدر له كقولهم: جاء الشتاء.

اللطيفة الخامسة: أظهر لفظ ﴿أَجَلٌ﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ ولم يكتفِ بضميره لزيادة تقرير الحكم عليه، ولتكون هذه الآية مستقلة بنفسها غير متوقفة على سماع غيرها؛ لأنها بحيث تجرى مجرى المثل، وإرسال الكلام الصالح لأن يكون مثلاً طريقاً من طرق البلاغة.

اللطيفة السادسة: إفراد الأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾، ولم يقل: آجالهم مراعى فيه الجنس، الصادق بالكثير، بقرينة إضافته إلى ضمير الجمع.

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً..﴾ أي: يتأخرون ويتقدمون، فالسئين والتأء فيهما للتأكيد، والمعنى: إنهم لا يتجاوزونه بتأخير ولا يتعجلونه بتقديم. والمقصود أنهم لا يؤخرون عنه، فعطف ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لبيان أن ما علمه الله وقدره على وفق علمه لا يقدر أحد على تغييره.

اللطيفة الثامنة: ذكر عموم الأمم في الآية مع أن المقصود هم المشركون من العرب، إنما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ في قياس الحاضر على الماضي فيكون الوعيد خبراً معضوداً بالدليل والحجة.

اللطيفة التاسعة: ذكر الأجل في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾، دون أن يقول لكل أمة عذاب أو استئصال، إيقاظاً لعقولهم من أن يغرهم الإمهال فيحسبوا أن الله غير مؤاخذهم على تكذيبهم، وطمأننة للرسول (ﷺ) بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو جري على عادة الله في إمهال الظالمين.

(١) دُرُجُ الدُّرِّ في تفسیر الآی والسُّور: الجرجاني (٦٥١/١) والتحرير والتتوير: ابن عاشور (١٠٢/٨).

(٢) المحرر الوجيز: ابن عطية (٤٩٠/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (٧٢/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٣٧/١)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (١٠٣/٨، ١٠٥)، والتفسير المنير: وهبة الزحيلي (١٩٤/٨).

اللطفية العاشرة: إنَّ الله ذكر الساعة في قوله: ﴿سَاعَةً﴾ لَأَنَّ هذه اللفظة أقلُّ أسماءِ الأوقاتِ.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ آجالَ الأممِ والجماعاتِ والأفرادِ مؤقتةٌ محددةٌ بوقتٍ معينٍ، فإذا جاء أجلُ الموتِ، لم يتأخَّر ولم يتقدَّم لحظةً. وأجلُ الموتِ: هو وقتُ الموتِ، وأجلُ الإنسانِ: هو الوقتُ الذي يعلمُ اللهُ أنَّه يموتُ الحي فيه لا محالةً، وهو وقت لا يجوزُ تأخيرُ موته عنه، لا من حيثُ إنَّه ليس مقدوراً تأخيره، فليس المراد منه أنَّ الله لا يقدر على تبيته أزيد من ذلك ولا أنقص، ولا يقدر على أنَّ يميته في ذلك الوقت، لأنَّ هذا يقتضي خروجه تعالى عن كونه قادراً مختاراً، وفي هذا دليل على أنَّ المقتول إنَّما يقتل بأجله، أمَّا الأجلُ المعنويُّ فلألمُّ دوراتٍ في التاريخ، فقد تكون عزيزةً سعيدةً، وقد تصبح ذليلةً شقيةً، وفي المقياس الشرعي عزَّةُ الأُمَّةِ وسعادتها بامتثال الشرع، والالتزام بالدين، والنَّمسك بالأخلاق والفضائل، وذلك لأجلٍ معينٍ، وشقاءُ الأُمَّةِ بإعراضها عن الدين، وابتعادها عن الفضائل، وانتشار الرذائل والمنكرات والمفاسد والمظالم في أوساطها، وذلك يجعل دمارها، ولها فيه أجلٌ معيَّن، وقد تفضَّل اللهُ على الأممِ بعد بعثة النبي (ﷺ) فرفع عنها عذاب الاستئصال والإبادة الجماعية، لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وهذا ينطبق على الأُمَّة الإسلامية وغيرها، فإنَّ الله قد أوضح أنَّ لكلَّ أُمَّةٍ أجلاً، بدايةً ونهايةً، فلكلِّ ظالمٍ وطاغيةٍ نهايةً، وفي التاريخ بعض الدول أخذت في عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتي السيطرة عليها من الضعاف؛ لأنَّ هذا هو الأجل، إنَّ الحقَّ يعمي بصائرهم في تصرف، يظنون أنَّه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم، وإذا جاء الأجل فلا أحدٌ يستطيع تأخيره؛ لأنَّ التوقيت في يد قيوم الكون، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل، وهذه الآية تؤكد الغرض من السورة، وتحتل معنيين: أحدهما: أنَّ يكون المقصودُ بهذا الخبر المشركين؛ لأنَّ هذا الخطابُ خطابٌ وعيدٌ وإنذارٌ. والمعنى الآخر: أنَّ يكون المقصودُ بالخبر النبي (ﷺ)، فيكون وعداً له بالنصر على مكذبيه، وإعلاماً له بأنَّ سنته سنَّةٌ غيره من الرُّسل بطريقة جعل سنَّة أُمَّته كسنَّة غيرها من الأمم، والمعنى أنَّ لكلَّ أُمَّةٍ، أي: قرنٌ وجيلٌ، ولكلِّ فردٍ وشيءٍ في الوجود أجلٌ معلومٌ وهو الوقتُ المحددُ لانقضاء المهلة، وهو يشمل الوقت المحدد للحياة الدنيا، ومدَّة العزَّة والسَّعادة، أو الدُّل والشقاوة بين الأمم^(٢).

(١) التفسير المنير: وهبة الزحيلي (١٩٥/٨)، وتفسير الشعراوي (٤١٢٣/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٢/٨).

(٢) التفسير المنير: وهبة الزحيلي (١٩٤/٨).

سابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. الآية تقتضي أن يكون لكلِّ أمةٍ من الأمم المكذبة وقت معين في نزول عذاب الاستئصال عليهم.
 ٢. أن الحياة الدنيا تكون أولاً شابّةً، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنّه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير.
 ٣. قضاء الله نافذ لا يرد؛ فإن الله يمهّل ولا يمهّل فالظالم له يوم.
 ٤. أن تعيين وقت الموت ليس لأحدٍ فيه اختيار ومدخل.
 ٥. أن الله كتب على الخلق كلهم الموت، فلا يسلم منه أحد، ولا حيلة في ذلك؛ وإنما على العاقل أن يجتهد في الاستعداد له.
 ٦. الآية تهديدٌ ووعيدٌ بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله، لكل من يخالف أمر الله، ويسير في الضلالة على غير هدى.
- المقصد الخامس: الأدمي المقتول مات بأجله.**

دلُّ عليه قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

أَجَلٌ: الأجل هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المهلة، وقيل: الأجل هنا أجل الدنيا، والتقدير: للأمة كلها أجل، أي: يقدمون فيه على ما قدموا من عمل، وقيل: الأجل مدة العمر، وهو الوقت الذي يعيش المرء إليه، والتقدير: ولكل واحدٍ من الأمة عمر ينتهي إليه بقاؤه في الدنيا، وإذا مات علم ما كان عليه من حقٍّ أو باطلٍ، ويحتمل أن المراد بالأجل في الآية العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل، وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧٢/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣١٣/٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٨٨/٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٧٤)، والتفسير المنير: وهبة الزحيلي (١٩٥/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٧٢/١٤)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٩٥/٤)، وتنزيه القرآن عن المطاعن: القاضي عبد الجبار الهمداني (ص: ١٨٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١١/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧١/٧) وتفسير الشعراوي (٤١٢٤/٧).

أَجَلُهُمْ: أي: ميفاتهم المقدر لهم.

سَاعَةً: كلمة ساعة لها اصطلاح عصري الآن من حيث إنها معيارٌ زمنيٌّ لضبط المواقيت، فإنَّ اليوم مقسَّمٌ إلى أربع وعشرين ساعة، والأقل من الساعة الدقيقة، والأقل من الدقيقة الثانية، والأكبر من الساعة هو اليوم، والساعة مثلٌ في غاية القلة من الزمان.
ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

بعد أن بيَّن الله الحلال والحرام وأحوال التَّكْلِيف، فأوضح مباحات الرِّينَة وطبَّيات الرِّزْق من غير إسرافٍ، وأعقبه بذكر أصول المحرَّمات لما فيها من الضَّرر والفساد، ذكر في هذه الآية أنَّ لكلِّ فردٍ أو جماعةٍ أجلاً معيَّناً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فإذا جاء الأجل مات كلُّ واحدٍ حتماً لا محالة، وفي أثناء الحياة يعرف مدى اتِّباع منهج الله في الحلال والحرام، والغرض منه التَّخْوِيف، ليتشدَّد المرءُ في القيام بالتكاليف كما يلزم وينبغي.

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٢):

اللطفة الأولى: قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ولم يقل: (ولكلِّ أحدٍ أجلٌ)؛ لأنَّ الأُمَّة هي الجماعة في كلِّ زمانٍ، ومعلومٌ من حالها النَّقَّارِب في الأجل؛ لأنَّ ذكر الأُمَّة فيما يجري مجرى الوعيد أفحم.
اللطفة الثانية: فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإنَّ عند حضور الأجل امتنع عقلاً ووقوع ذلك الأجل في الوقت المتقدم عليه. الجواب: يحمل قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ على قرب حضور الأجل، ومع مقارنة الأجل يصح التقدم على ذلك تارةً والتأخر عنه أخرى.
اللطفة الثالثة: قوله: ﴿فَإِذَا﴾ إنّما يترتب عليها الأمور المستقبلية لا الماضية، والاستخدام حينئذٍ بالنسبة إلى مَجَلِّ الأجل متقدم، والمراد بالمجيء الدنو، بحيثُ يمكن التقدم في الجملة، كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة فيه. فقوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عطف على ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدم، بل للمبالغة في انتفاء التأخر، يعني أن التأخر مساوٍ للتقدم في الاستحالة.
اللطفة الرابعة: تقديم بيان انتفاء الاستخار لما أنَّ المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب.

اللطفة الخامسة: صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك، مع طلبهم له.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧١/١٤)، والتفسير المنير: وهبة الزحيلي (١٩٤/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٧٢/١٤)، والبحر المحيط: أبو حيان (٢٩٥/٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧١/٧).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

ذهب أهل السنة إلى أنّ لكلّ أحدٍ من النَّاسِ أجلاً واحداً لا يتأخّر عنه ولا يتقدّم، وقوم نوحٍ كان منهم من سبق في علم الله أنّه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنهم من يؤمن فيتأخّر إلى أجله المحتوم، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين، فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أنّ الطائفة إنّما تعاجل أو تؤخّر بأجلها، فكأنّه يقول: فإن آمنتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجل المؤخر، وإنّ كفرتم علمنا أنكم ممن قضى له بالأجل المعجل والكفر. وعلى هذا الحد هو دعاء محمد(ﷺ) العالم إلى طريق الجنّة، وقد علم أنّ منهم من يكفر فيدخل النار. وإذا حملت الآية على أنّ الأجل هو العمر لزم أنّ يكون لكلّ أحدٍ أجلاً، لا يقع فيه التقديم والتأخير، فيكون المقتول ميتاً بأجله، وليس المراد منه أنّ الله لا يقدر على تبقّيته أزيد من ذلك ولا أنقص، ولا يقدر على أنّ يميتّه في ذلك الوقت؛ لأنّ هذا يقتضي خروجه تعالى عن كونه قادراً مختاراً، وصيرورته كالموجب لذاته، وذلك في حقّ الله ممتنع، بل المراد أنّ الله أخبر أنّ الأمر يقع على هذا الوجه، إنّ الموت محتّم على من كان في الدنيا من أهل السموات والأرض وإنّ كلاً له أجلٌ محدودٌ وأمدٌ ممدودٌ ينتهي إليه لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، وقد علم الله جميع ذلك بعلمه الذي هو صفته، وجرى به القلم بأمره يوم خلقه، ثم كتبه الملك على كلّ أحدٍ في بطن أمه بأمر ربّه عند تخليق النطفة، في أي مكان يكون وفي أي زمانٍ فلا يزداد فيه ولا ينقص منه ولا يغير ولا يبدل عما سبق به علم الله وجرى به قضاؤه وقدره، وأنّ كلّ إنسانٍ مات أو قتل أو حرق أو غرق أو بأيّ حتفٍ هلك بأجله لم يستأخر عنه ولم يستقدم طرفه عينٍ وأنّ ذلك السبب الذي كان فيه حتفه هو الذي قدره الله عليه وقضاه عليه وأمضاه فيه ولم يكن له بُدٌّ منه ولا محيصٌ عنه ولا مفرٌّ له ولا مهربٌ ولا فكاكٌ ولا خلاصٌ، وأنى وكيف وإلى أين ولات حين مناص، وفي شرح العقيدة الطحاوية: "إنّ الله خَلَقَ الخَلْقَ بعلمه، وقَدَّرَ لهم أقداراً، وضربَ لهم آجالاً" يعني أنّ الله قدّر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون، فالمقتول ميّتٌ بأجله، فعلم الله وقدر وقضى أنّ هذا يموتُ بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب الحرّ، وهذا بالغرّ، إلى غير ذلك من الأسباب، والله خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة. وعند المعتزلة: المقتول مقطوعٌ عليه أجله، ولو لم يُقتل لعاش إلى أجله، فكأن له أجلان، وهذا باطل؛ لأنّه لا يليق أن يُنسب إلى الله أنّه جعل له أجلاً يعلم أنّه لا يعيش إليه ألبته، أو يجعلُ أجله أحدَ الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، وعلى هذا يُخرّج قوله(ﷺ): "من سرّه أن

(١) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٤٩١/٥)، والتفسير الكبير: الرازي(٧٢/١٤)، ومعارج

القبول بشرح سلم الوصول: حافظ الحكمي(٧٠٤/٢).

يُيسط له في رزقه أو يُنسأ له في أثره فليصل رحمه^(١). أي: هي سبب طول العمر، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، فعلم أن الأعمار مقدر، فإن المسلم يؤمن بأن لكل أجل كتاباً، وأن من مات مات بأجله؛ فإن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر^(٢). والأجل قد ينتهي بالهلاك الحسي، هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية، وقد ينتهي بالهلاك المعنوي، هلاك الهزيمة والضياع، وهو ما يقع للأمم، إما لفترة تعود بعدها للحياة، وإما دائماً فتضمحل وتنمحي شخصيتها وتنتهي إلى اندثارها كأمة، وإن بقيت كأفراد، وكل أولئك وفق سنة الله التي لا تتبدل، لا مصادفة ولا جزافاً ولا ظلاماً ولا محاباةً، فالأمم التي تأخذ بأسباب الحياة تحيا، والأمم التي تتحرف عنها تضعف أو تضمحل أو تموت بحسب انحرافها، والأمة الإسلامية منصوص على أن حياتها في اتباع رسولها، والرسول يدعوها لما يحييها، لا بمجرد الاعتقاد، ولكن بالعمل الذي تنص عليه العقيدة في شتى مرافق الحياة، وبالحياة وفق المنهج الذي شرعه الله لها، والشريعة التي أنزلها وإلا جاءها الأجل وفق سنة الله.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٣):

١. تدل الآية على أن لكل أحد وقت حياة، ووقت موت، لا يجوز فيه التقديم والتأخير، فيبطل قول من يقول من المعتزلة: المقتول مات قبل أجله.
٢. أن الموت مصير كل مخلوق.
٣. أن الموت لكل إنسان قادم، يأتيه فجأة بدون سابق إنذار أو وعدٍ أو تهيئة^(٤).

(١) صحيح البخاري في كتاب الأدب . من بسط له في الرزق بصلة الرحم، حديث رقم (٥٩٨٥)، (ص: ٧١٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٩٦، ٩٥)، ونثر الورود على حائية ابن أبي داود: زيد بن محمد المدخلي (ص: ٨٦)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٧٩٧).

(٣) محاسن التأويل: القاسمي (٧/٧١)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ١٦٥).

(٤) تصويبات في فهم بعض الآيات: صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص: ٩٨).

المقصد السادس: إرسال الرُّسل أمرٌ جائزٌ وليس بواجبٍ

ويدلُّ على هذا قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمِ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأعراف: ٣٥]

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(١):

إِنَّمَا: حرفٌ مركَّبٌ من (إن) الشَّرطيَّة و (ما) المؤكِّدة لمعنى الشَّرطيَّة، وهي تفيد مع التَّأكيد عموم الشَّرط، ولأنَّها لما وقعت توكيداً للشَّرط تنزَّلت من حرف الشَّرط منزلة جزء الكلمة. مِنْكُمْ: أي: من بني آدم، وهذا تنبيهٌ لبني آدم بأنَّهم لا يتربُّون أن تجيئهم رسلُ الله من الملائكة؛ لأنَّ المرسل يكون من جنس من أرسل إليهم، وفي هذا تعريضٌ بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرُّسل لأنَّهم من جنسهم.

يَقُصُّونَ: من قصَّ، وهو أن أصل القصص إتياع الحديد من اقتصاص أثر الأرجل واتباعه لتعرف جهة الماشي، فمعنى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يتلونها ويحكونها، ويجوز أن يكون بمعنى يتبعون الآية بأخرى، ويجوز أن يكون بمعنى يظهرون وكلُّها معانٍ محتلمةٌ صحيحةٌ. عَلَيْكُمْ: على حرف جرٍّ، يفيد الاستعلاء، وهو المقارنة و الملازمة، أي: لا خوف ينالهم.

آيَاتِي: جمع آية، وأصلها العلامة الدَّالة على شيءٍ من قولٍ أو فعلٍ، وآياتُ الله: الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، ومنه: آياتُ القرآن التي جعلها الله دلالةً على مراده للنَّاس، للتَّعريض بالمشركين من العرب، الذين أنكروا رسالة محمد (ﷺ). ومعنى قوله: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ الآيات هي القرآن، والدلائل، والأحكام والشرائع، والأولى دخول الكلِّ في معنى الآيات؛ لأنَّ جميع هذه الأشياء آيات الله.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يا بني آدم إذا جاءكم رسلٌ مني من أقوامكم تعرفونهم، ويمكنكم الحكم على أعمالهم يتلون عليكم ما أنزلت عليهم من كتابي فأطيعوهم، واتبعوا ما جاؤوا به، فالذين يتقون الله بامتنال وأوامره واجتتاب نواهيه، ويصلحون أعمالهم لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدُّنيا.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧٣/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٨/٨)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٦٩/٨).

(٢) التفسير الواضح: محمد محمود حجازي (٧١١/٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

هذه الآية، والتي بعدها متّصلنا المعنى بمضمون قوله في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ اتّصال التّفصيل بإجماله؛ حيثُ أكّد به تحذيرهم من كيد الشّيطان وفتونه، وأراهم به مناهج الرّشد التي تُعين على تجنّب كيده، بدعوة الرّسل إليهم إلى التّقوى والإصلاح، كما أشار إليه بقوله، في الخطاب السابق: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ وأنبأهم بأنّ الشّيطان توعدّ نوع الإنسان فيما أخبر الله من قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فذلك حذر الله بني آدم من كيد الشّيطان، وأشعرهم بقوة الشّيطان بقوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾ عسى أن يتخذوا العدة للنّجاة من مخالف فتنته، وأردف ذلك بالتحذير من حربه ودعائه الذين يفتنون المؤمنين، ثمّ عزّز ذلك بإعلامه إيّاهم أنّه أعانهم على الاحتراز من الشّيطان، بأنّ يبعث إليهم قوماً من حزب الله يبلغونهم عن الله ما فيه منجاة لهم من كيد الشّياطين، بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتِيَكُمُ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية، فأوصاهم بتصديقهم والامتثال لهم. حيثُ ينادي الحقّ أبناء آدم، بعد أن ذكرهم أنّه أحلّ لهم الطيبات والزينة وحرّم عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغي والإثم والشرك، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع، وطمأنهم بأنّه مُنتقم من أيّ أمة ظالمة بأنّ جعل للظلم نهايةً وأجلاً.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية الكريمة^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى كافة النّاس، اهتماماً بشأن ما في حيزه، وهذا النداء جائزٌ أن يكون نداءً عاماً لكلّ بني آدم كما هو ظاهر اللفظ، وأنّ البشرية كلها تُوديت به على ألسنة رسلها، وجائزٌ أن يكون خاصاً بمشركي العرب، وأن يكون المراد من الرّسل محمد (ﷺ) ذكر بصيغة الجمع تعظيماً وتكريماً له.

اللطيفة الثانية: صيغة الجمع في قوله: ﴿رُسُلٌ - يَقُصُونَ﴾ تقتضي توقّع مجيء عدّة رسل، وذلك مُنتفٍ بعد بعثة الرّسول الخاتم للرّسل الحاشر العاقب (ﷺ)، فذلك يتأكّد أن يكون هذا الخطاب لبني آدم الحاضرين وقت نزول القرآن، ويرجح أن يكون هذا النداء إخباراً لقولٍ موجّه إلى بني آدم الأوّلين الذي أوّله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. قال ابن عطية: "وكان هذا خطاب لجميع الأمم، قديمها وحديثها، هو متمكّن لهم، ومتحصّل منه لحاضري محمد (ﷺ) أنّ هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه" يريد أنّ الله أبلغ النّاس هذا الخطاب على لسان

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٧/٨)، وتفسير الشعراوي (٤١٢٥/٧).

(٢) إرشاد العقل السليم: أبو السعود (١٧٩/٣)، وروح المعاني: الألوسي (١٦٩/٨)، وأيسر التفاسير: أبو بكر

الجزائري (١٦٩/٨).

كلّ نبيٍّ، من آدمَ إلى هلم جراً، فما من نبيٍّ أو رسولٍ إلا ويبلغه أمّته، وأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب، حتى نزل في القرآن على محمدٍ (ﷺ) فعلمت أمّته أنّها مشمولةٌ في عموم بني آدم، وأمّا إذا جعل الخطاب في هذه الآية موجهاً إلى المشركين في زمن النّزول، بعنوان كونهم من بني آدم، فهناك يتعين صرف معنى الشرط إلى ما يأتي من الزّمان بعد نزول الآية؛ لأنّ الشرط يقتضي الاستقبال غالباً، كأنه قيل إن فاتكم اتباع ما أنزل إليكم فيما مضى لا يفنكم فيما بقي، ويتعيّن تأويل يأتيئكم بمعنى يدعوتكم، ويتعيّن جعل جمع الرّسل على إرادة رسول واحد، تعظيماً له، كما في قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧] أي: كذبوا رسوله نوحاً.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ الجار متعلق بمقدّر هو صفة لرسول، أي: كائنون من جنسكم، وقوله: ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ﴾ صفة أخرى لرسول، أي: يبيّنون لكم أحكامي وشراعي ويخبرونكم بها^(١).

اللطيفة الرابعة: إنّما قال: ﴿مِنْكُمْ﴾؛ لأنّ كون الرّسول منهم أقطع لعذرهم، وأبين للحجّة عليهم من جهات: أحدها: أنّ معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة. وثانيها: أنّ معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة، فلا جرم لا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شكٌ وشبهةٌ في أنّها حصلت بقدره الله فهذا السبب قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. وثالثها: ما يحصل من الألفة

وسكون القلب إلى أبناء الجنس، بخلاف ما لا يكون من الجنس؛ فإنّه لا يحصل معه الألفة.

اللطيفة الخامسة: وجه دلالة آيات القرآن التي جعلها الله دلالةً على مراده للنّاس، والتي منها صدق الرسول، أنّها جاءت على نظم يعجز البشر عن تأليف مثله، وذلك من خصائص القرآن، وإمّا لأنّها تشتمل على أحكام ومعانٍ لا قبل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها، أو لأنّها تدعو إلى صلاح لم يعهده النّاس، فيدلّ ما اشتملت عليه على أنّه مما أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ، مثل بقیة الكتب التي جاءت بها الرّسل، وإمّا لأنّها قارنتها أمور خارقة للعادة تحدّى بها الرّسول المرسلُ بتلك الأقوال أمّته، فهذا معنى تسميتها آيات، ومعنى إضافتها إلى الله، ومن الآيات ما يشمل المعجزات غير القولية، مثل: نبع الماء من بين أصابع محمد (ﷺ)، ومثل قلب العصا حية لموسى، وإبراء الأكمه لعيسى، ومعنى التّكذيب بها العناد بإنكارها وجحدها.

اللطيفة السادسة: فإن قيل: إتيان الرّسل محققٌ فهلا عبر ب(إذا)؟ قيل: عادتهم يجيبون بأنّه إشارة إلى مذهب أهل السنّة في أصل بعثه الرّسل أنّها محض تفضلٍ من الله، فإنّ ذلك ممكنٌ جائزٌ وليس بواجبٍ، وزيادة، فأشار إلى وقوع ذلك وتحققه^(٢).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧٣/١٤)، إرشاد العقل السليم: أبو السعود (١٧٩/٣)، روح المعاني:

الألوسي (١٧٠/٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٦، ١٠٩/٨).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢٢٣/٢)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٥٨/١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ شرطٌ ذُكِرَ بحرف الشك؛ للتنبيه على أن إتيان الرُّسُل أمرٌ جائزٌ غير واجبٍ، هو الذي ذهب إليه أهل السنة، لا كما ظنَّه أهل التعليم، حيث قالت المعتزلة: "إنَّ إرسال الرُّسُل واجبٌ على الله". والمراد بـ ﴿بَنِي آدَمَ﴾ جميع الأمم، وهو إخبارٌ لما وقع مع كلِّ قومٍ، وليس المراد بالرُّسُل نبيينا (ﷺ) وبنبي آدم أمته، فإنَّه خلاف الظاهر، ولمَّا كان إتيان الرُّسُل فائدته لإصلاح النَّاس، لا لنفع الرُّسُل، عُذِلَ عن جعل جواب الشرط "النَّبَاغَ الرُّسُل" إلى جعله النَّقْوَى والصَّلَاح، إيماءً إلى حكمة إرسال الرُّسُل، وتحريضاً على اتباعهم بأنَّ فائدته للأُمَّم لا للرُّسُل، كما قال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨]. وقوله: ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأعراف:٣٥] فالآية تطلق في القرآن إطلاقين الأول: على الآية الكونية القدرية، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، أي علامات كونية قدرية، يعرف بها أصحاب العقول السليمة أنَّ خالقها هو الربُّ المعبود وحده، وأمَّا إطلاقها الثاني في القرآن فهو إطلاقها على الآية الشرعية الدِّينية، كقوله: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطَّلَق:١١] أي: الآيات الشرعية الدِّينية؛ لأنَّها علامات على صدق من جاء بها.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. الآية تنبيهٌ على أنَّ إرسال الرُّسُل أمرٌ جائزٌ لا واجبٌ عقلاً.
٢. تدلُّ الآية على وجوب اتباع الرُّسُل، وقبول ما يؤدون، وتدلُّ على أنَّ الصلاح في الرُّسُل أن تكون من جملة من بعث إليهم؛ لأنَّهم يكونون بطريقته أعراف، ومن النفار عنه أبعد، وإلى السكون إليه أقرب، وتدلُّ على أنَّ الغرض بالرسول ما يؤدي من الأدلة.
٣. من أعمال الرسل أنَّهم مبشرين ومنذرين داعين إلى الفضيلة ناهين عن الرذيلة.
٤. أنَّ إرسال الرُّسُل متضمن للإتيان بالآيات^(٣).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/١)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٣/٧)، وروح المعاني: الألويسي (١٧٠/٨)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص:٦٧٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٩/٨).

(٢) إرشاد العقل السليم: أبو السعود (١٧٩/٣)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٣/٧)، والتفسير الواضح: محمد محمود حجازي (٧١١/٨).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص:٩٠٣).

المقصد السابع: لا حزن ولا خوف في الآخرة للمسلمين

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَمَنْ: مَنْ: موصولُ الأجوابِ الأشرطية؛ لأنها لا تقتضي وقوع الشيء، بل إمكان وقوعه.
اتَّقَى: أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات، فالتقوى راجعةٌ إلى اجتناب المنهيات، والاصطلاح
لامتنال المأمورات.

يَحْزَنُونَ: الحزنُ والحزنُ: وهو خشونةٌ في النفس لما يلحقها من الغمِّ، ويضادُّه السَّهْلُ والفرح.
والحزونة غلظ الوجه، وشيء من القساوة.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

إنَّ الله لما بيَّن أحوالَ التكليف، وبيَّن أنَّ لكلِّ أحدٍ أجلاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر، بيَّن أنَّهم
بعد الموت كانوا مطيعين فلا خوف عليهم ولا حزن، وإن كانوا متمردين وقعوا في أشدِّ العذاب.
ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٣):

اللطفية الأولى: قوله: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ جملةٌ شرطيةٌ، جوابها: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ أي: فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم من عقوبة الله في
الدُّنيا والآخرة ولا هم يحزنون من شيءٍ من ذلك، فالخوف والحزن المنفيان هما ما يوجبهما العقاب،
وقد ينتفي عنهم الخوف والحزن مطلقاً بمقدار قوَّةِ التقوى والصَّلاح.

اللطفية الثانية: إيرادُ الاتقاء في قوله: ﴿فَمَنْ اتَّقَى﴾ للإيدان بأنَّ مدارَ الفلاح ليس مجردَ عدم
التكذيب، بل هو الاتقاء والاجتنابُ عنه، وفي ذلك ردُّ على المرجئة.

اللطفية الثالثة: في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، عدل عن عطف المفرد، بأنَّ يقال: ولا حزنٌ، إلى
الجملة؛ ليتأتى بذلك بناء المسند الفعلي على ضميرهم، فيدلُّ على أنَّ الحزن واقعٌ بغيرهم، وهم
الذين كفروا، فإنَّ بناءَ الخبر الفعلي على المسند إليه المتقدِّم عليه يفيد تخصيص المسند إليه
بذلك الخبر، فيفيد أنَّ الذين كفروا يحزنون إفادةً بطريق المفهوم، ليكون كالمقدِّمة للخبر عنهم بعد
ذلك بأنَّهم أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٣)، والأذكار: النووي (ص: ٣٥٣)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الحلبي (١/٣٩٩)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٧٣).

(٣) إرشاد العقل السليم: أبو السعود (٣/١٧٩)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٧٠)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٨/١٠٩).

اللطيفة الرابعة: نفي الخوف بالاسم، والحزن بالفعل؛ لأنَّ متعلق الحزن ماضٍ، ومتعلق الخوف مستقبل، والأمورُ المستقبلُ أكثر من الأمور الماضية فأشبهت غير المتناهي، فإنَّ الإنسان يخاف العذاب في الدنيا وفي الآخرة، وأمر الآخرة غير متناه؛ لأنَّه بدخول الجنة يذهب عنه الخوف دائماً. ثم إنَّ سبب الخوف يمكن دفعه والتحرُّر منه؛ لأنَّ متعلقه مستقبل، وسبب الحزن لا يمكن رفعه، والماضي لا يرتفع^(١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

قوله: ﴿فَمَنْ آتَى وَأَصْلَحَ﴾ جمع هاتين الحالتين مما يوجب الثواب؛ لأنَّ المتقي هو الذي يتقي كلَّ ما نهى الله عنه، ودخل في قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أنَّه أتى بكلِّ ما أمر الله به، ثم قال تعالى في صفة المتقي المصلح: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بسبب الأحوال المستقبلية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: بسبب الأحوال الماضية؛ لأنَّ الإنسان إذا جوز وصول المضرة إليه في الزمان المستقبل خاف، وإذا تفكر فعلم أنَّه وصل إليه بعض ما لا ينبغي في الزمان الماضي، حصل الحزن في قلبه، لهذا السبب والأولى في نفي الحزن أن يكون المراد أن لا يحزن على ما فاته في الدنيا؛ لأنَّ حزنه على عقاب الآخرة يجب أن يرتفع بما حصل له من زوال الخوف، فيكون كالمعاد، وحمله على الفائدة الزائدة أولى فبين الله أنَّ حاله في الآخرة تفارق حاله في الدنيا، فإنَّه في الآخرة لا يحصل في قلبه خوف ولا حزن البتة. واختلف المفسرون في أنَّ المؤمنين من أهل الطاعات هل يلحقهم خوفٌ وحزنٌ عند أهوال يوم القيامة، فذهب بعضهم إلا أنَّه لا يلحقهم ذلك، والدليل عليه هذه الآية، وذهب بعضهم إلى أنَّه يلحقهم فزع لقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ [الحج: ٢٠] أي: من شدة الخوف. وأجاب هؤلاء عن هذه الآية: بأنَّ معناه أنَّ أمرهم يؤل إلى الأمن والسرور، أي: وإذا لحقهم رعبٌ وفزعٌ فمآلهم الأمن.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. تدلُّ الآية على أنَّ الجنة تنال بشيئين: بالأعمال الصالحة، واتباع المعاصي.
٢. أنَّ المؤمن يوم القيامة لا يخاف ولا يحزن، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.
٣. تدلُّ على الوعيد للمكذِّبين، كما تدلُّ على الوعد للمطيعين، ترغيباً وترهيباً.
٤. تدلُّ الآية على أنَّ التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد.

(١) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١١٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٧٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٣) محاسن التأويل: الفاسمي (٧/٧٤، ٧٣)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٢).

المقصد الثامن: الفاسق الملي لا يُخلد في النار

دل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

استكبروا: الاستكبار مبالغة في التكبر، فالسَّيِّئ والتَّاء للمبالغة، وهو أن يعد المرء نفسه كبيراً، أي: عظيماً وما هو به، فالسَّيِّئ والتَّاء للعد والحسبان، وكلا الأمرين يؤذن بإفراطهم في ذلك وأنهم عدواً قدرهم، والمعنى: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها، والكبر لا ينبغي على حكم الإسلام أن يكون هذا مستعملاً إلا عن الله؛ لأنَّه ذو الكبرياء، وكلُّ صفاتِ الله أعلى الصفات وأجلُّها، فما استعمل في المخلوقين على تلك الألفاظ فعيب ونقص، وذلك لمخالفة هذه الصفة الواقع، ولأنَّها للخالق البارئ، ولا يليق ذلك بمن تكسره الجوع، وتطغيه الشبعة، وتنقصه اللحظة، وهو في كلِّ أمره مُدبِّر.

خَالِدُونَ: أي: ماكتون فيها مكتاً مُخلداً مؤبداً، والخلد هو المكث الطويل الذي لا نهاية له.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تخبر الآية أنَّ الكافرين الذين كذبوا بآيات الله، ولم يؤمنوا بها وترفَعوا تكبراً عن العمل بما جاءتهم به رسلم؛ فإنَّهم أصحاب النار الملائمون لها الماكثون فيها أبداً.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

لما أخرج الله بني آدم من الجنة ابتلاهم بإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله، ويبينون لهم أحكامه، ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم.

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ فيه تضمين؛ حيثُ ضمن الاستكبار معنى الإعراض، فعلق به ضمير الآيات، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٥١٩/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن

كثير (٢١١/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١١١/٨)، ومناهج اللُّغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٦٨٨).

(٢) التفسير الواضح: محمد حجازي (٧١١/٨) والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤)

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٢).

(٤) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١١١/٨).

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فيه قصرٌ، حيثُ أفاد تحقيق أنَّهم صائرون إلى النار بطريق قصر ملازمة النار عليهم؛ لأنَّ لفظ أصحاب مؤننٌ بالملازمة، ويدلُّ عليه أيضاً الجملة الإسمية بما تدلُّ عليه من الدوام والثبات في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

اللطيفة الثالثة: إدخال الفاء في الخبر الأول في الآية: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ دون الثاني: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ﴾ للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

بيَّن الله أنَّ الذين كذبوا بهذه الآيات التي يجيء بها الرُّسل، فلم تؤمن قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، وأنفوا من قبولها وتمردوا عن التزامها فإنَّهم أصحاب النار الملازمون لها الماكثون فيها أبداً، فكما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

وقد تمسك أهل السنة بهذه الآية على أنَّ الفاسق من أهل الصلوة، لا يبقى مخلداً في النار؛ لأنَّ الله بيَّن أنَّ المكذِّبين بآيات الله، والمستكبرين عن قبولها هم الذين يبقون مخلدين في النار، وكلمة ﴿هُمْ﴾ تفيدُ الحصر، فذلك يقتضي أنَّ من لا يكون موصوفاً بذلك التكذيب والاستكبار لا يبقى مخلداً في النار^(٣).

المقصد التاسع: التآلي على الله ظلماً وجُرمٌ

ويدلُّ عليه قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٧].

أولاً: التحليل اللفظي للآية^(٤):

أَظْلَمُ: الظلم اعتداءً على حقٍّ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله، وأعظم الاعتداء على حقِّ الله، الاعتداء عليه بالاستخفاف بصاحبه العظيم، وذلك بأنَّ يكذب بما جاءه من قبله، أو بأنَّ يكذب عليه فيبلغ عنه ما لم يأمر به فإنَّ جمع بين الأمرين فقد عطَّل مراد الله من جهتين: جهة إبطال ما يدلُّ على مراده، وجهة إيهام النَّاس بأنَّ الله أراد منهم ما لا يريدُه الله.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٧/٣)، وإرشاد العقل السليم: أبو السعود (١٧٩/٣)، وروح المعاني:

الألوسي (١٧٠/٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٠٩/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٧٤/١٤)، والتحقيقات والتنقيحات السلفيات على متن الورقات: مشهور بن حسن آل سلمان (ص: ٦٤).

(٤) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١١٢/٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٤).

ومعنى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: فمن أعظم ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله. والأول: هو الحكم بوجود ما لم يوجد. والثاني: هو الحكم بإنكار ما وجد، والأول دخل فيه قول من أثبت الشريك لله، ويدخل فيه قول من أثبت البنات والبنين لله، ويدخل فيه قول من أضاف الأحكام الباطلة إلى الله، والثاني: يدخل فيه قول من أنكر كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله، وقول من أنكر نبوة محمد (ﷺ).

يَأْتُهُمْ: أصل التَّيْلُ إصابة الإنسان شيئاً لنفسه بيده^(١).

كَذَّبَ: الكذب: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه، فالكذب مخالفة الخبر للواقع^(٢). نَصِيبُهُمُ: النصيب: الحظُّ الصَّائِرُ لأحد المتقاسمين من الشيء المقسوم، فالنَّصِيبُ: ما ينالهم من الرِّزْقِ والإمهال في الدنيا قبل نزول العذاب بهم.

الكِتَابِ: أي: حظهم ممَّا كتب لهم في اللوح المحفوظ، وما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون، فالمراد بالكتاب ما تضمَّنه الكتاب، فإنَّ كان الكتابُ مستعملاً حقيقةً فهو القرآن، ونصيبهم منه هو نصيبهم من وعيده، وإنَّ كان الكتابُ توسعاً في الأمر الذي قضاه الله وقدره، فنصيبهم منه هو ما أخبر الله بأنَّه قدره لهم من الخلود في العذاب، وأنَّه لا يغفر لهم، ويشمل ذلك ما سبق تقديره لهم من الإمهال وذلك هو تأجيلهم إلى أجل أراده ثم استئصالهم حتَّى: ابتدائية؛ لأنَّ الواقع بعدها جملةٌ فنفي السببية، ولها صدرُ الكلام.

رُسُلَنَا: الرُّسُلُ هم الملائكة، أي: ملائكة الموت تقبض أرواحهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]. يعني: ملك الموت وأعوانه.

يَتَوَفَّوْنَهُمْ: التَّوَفَّى نزع الرُّوح من الجسد، وهو المراد في الآية.

ضَلُّوا عَنَّا: أي: أتلَّفوا مواقعنا وأضاعونا فلم يحضروا، وغابوا عنَّا فلم يخلَّصونا من شيء، وهذا يقتضي أنَّهم لمَّا يعلموا أنَّهم لا يُغنون عنهم شيئاً من النَّفْعِ، فظنُّوا أنَّهم أذهبهم ما أذهبهم وأبعدهم عنهم ما أبعدهم، ولم يعلموا سببه، لأنَّ ذلك إنَّما يتبيَّن لهم يوم الحشر حين يرون إهانة أصنامهم وتعذيب كبرائهم، ولذلك لم ينكروا في جوابهم أنَّهم كانوا يدعونهم من دون الله^(٣).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧٥/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١١٤/٨).

(٢) الأنوار الكاشفة: عبدالرحمن المُعلِّمي (ص: ٧٤)، وأضواء البيان: الشنقيطي (ص: ٦٦٣).

(٣) معالم التنزيل: البغوي (١٠٢/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٨/١)، والتفسير الكبير:

الرازي (٧٥/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٥/٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١١٦/٨، ١١٧).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

يخبر الله أنه لا أحد أظلم من الذي يفترى على الله الكذب، واخترق زوراً وبهتاناً، بأن حرم حلالاً أو حلل حراماً، أو نسب إليه ولداً أو شريكاً، أو كذب بآياته المنزلة، واستكبر عنها واستهزأ بها، أولئك المتصفون بذلك ينالهم حظهم المكتوب لهم في الوح المحفوظ من ملذات الدنيا، والقدر المقدر في الرزق والعمر والمتاع والحظ في الدنيا، حتى إذا جاءهم ملك الموت وأعوانه من الملائكة لقبض أرواحهم، قالوا لهم تأنيباً وتوبيخاً لهم: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله من الشركاء والشفعاء؟ ادعوا لتنفعكم، قال المشركون: لقد ذهب عنا الآلهة التي كنا نعبد وغبنا، ولا ندري مكانهم، ولا نرى أثرهم، فنحن لا نرجو منهم خيراً ولا نفعاً، وأقروا على أنفسهم، واعترفوا عليها بأنهم كانوا بعبادتهم ودعائهم لهم كافرين، لكن إقرارهم في ذلك الحين حجة عليهم، ولن ينفعهم. وهذا تحذير للكافرين الموجودين من عواقب الكفر والضلال.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

هذه الآية متصلة بما قبلها، فالفاء للاستئناف، وعلى الأول في الآية التفات بالخروج من التكلم إلى الغيبة؛ وهذا إن أريد أنه أظلم من غيره على سبيل العموم فيكون مخصوصاً بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَّ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]. فهذه الآية كالفلكة لما تقدم من السورة، لتبين أن صفات الضلال، التي أبهم أصحابها، هي حافة بالمشركين المكذبين برسالة محمد؛ فإن الله ذكر أولياء الشياطين بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وذكر أن الله عهد لبني آدم بأن يتبعوا من يجيئهم من الرسل ليتقوا ويصلحوا، ووعدهم على اتباع ما جاءهم بنفي الخوف والحزن وأوعدهم على التكذيب والاستكبار النار، فقد أعذر إليهم وبصرهم بالعواقب، فتفرع على ذلك أن من كذب على الله فزعم أن الله أمره بالفواحش، أو كذب بآيات الله التي جاء بها رسوله، فقد ظلم نفسه ظملاً عظيماً، حتى يسأل عن من هو أظلم منه، ولهذه الآية اتصال بآية: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: ٤]، من حيث ما فيها من التهديد بوعيد عذاب الآخرة وتفضيع أهواله. وعلاقة آية ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا﴾ بما قبلها، أنها تفصيل لمضمون آية: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيحُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فالوقت الذي أفاده قوله: ﴿إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ﴾ هو مبدأ وصف نصيبهم من الكتاب حين ينقطع عنهم الإمهال الذي لقوه في الدنيا.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧٦/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١١)، وفي رحاب التفسير: عبد

الحميد كشك (٦/١٣٢١)، والتفسير الواضح: محمد محمود حجازي (٨/٧١٢)، والمختصر في

التفسير (ص: ١٥٤)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٥٧).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١١٢، ١١٦).

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام للإنكار، وهو وعيدٌ واستفهامٌ على جهة التقرير، أي: لا أحدَ أظلم ممن اختلق على الله الكذب، بأنَّ أوجب ما لم يُوجبه، أو حرَّم ما لم يحزِّمه، أو نسب إلى دينه حكماً لم ينزله، أو نسب إلى الله ولداً أو شريكاً، أو كذَّبَ بآيات الله المنزلة، فأنكر القرآن، أو لم يؤمن بالنبي محمد (ﷺ)، أو استهزأ بالآيات أو تركها مفضلاً عليها غيرها.

اللطيفة الثانية: (مَنْ) الثانية في الآية موصولة، وهي عامة لكلِّ من تتحقق فيه الصلَّة، وجوز فيها التبيين والتبويض.

اللطيفة الثالثة: ﴿أَوْ﴾ في الآية ظاهرها التقسيم، فيكون الأظلم وهم المشركون فريقين: فريق افتروا على الله الكذب، وهم سادة أهل الشرك وكبرائهم، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله وهم يعلمون، وفريقٌ كذَّبوا بآياتٍ ولم يفتروا على الله وهم عامة المشركين، وعلى هذا فكلُّ واحدٍ من الفريقين لا أظلم منه، فأما من جمع بين الأمرين ممَّن لعلمهم أن يكونوا قد شرعوا للمشركين أموراً من الضلالات، وكذَّبوا محمداً فهم أشدُّ ظلماً، ولكنهم لما كانوا لا يخلون عن الانتساب إلى كلا الفريقين وجامعين للخصلتين لم يخرجوا من كونهم من الفريق الذين هم أظلم النَّاس، فلا شك أن الجامع بين الخصلتين هو أظلم من كلِّ من انفرد بخصلةٍ منها، وذلك يُوجب له زيادة في الأظلمية، لأنَّ كلَّ شدة وصف قابلة للزيادة.

اللطيفة الرابعة: اسم الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيحُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يدلُّ على أنَّ المشار إليهم أحرىء بأنَّ يصيبهم العذاب بناءً على ما دلَّ عليه التفرُّع بالفاء.

اللطيفة الخامسة: في قوله: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيحُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ استعارةٌ مبنيةٌ على عكس التشبيه بأنَّ شبه النَّصيب بشخصٍ طالبٍ طلبه فنالها، وإنما يُصار إلى هذا للتَّنبية على أنَّ الذي ينالهم شيءٌ يكرهونه، وهو يطلبهم وهم يفرُّون منه، كما يطلب العدوُّ عدوّه.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمع باعتبار المعنى كما أنَّ الأفراد في الضمير المستكن في الفعلين باعتبار اللفظ، وما فيه من معنى البعد للإيدان بتماديهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب: ﴿يَنَالُهُمْ﴾ أي: يصيبهم حظهم ممَّا كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال مع ظلمهم وافتراءهم لا يجرمون ما قدر لهم من ذلك إلى انقضاء أجلهم، فسر الكتاب بالمكتوب فيه وهو اللوح المحفوظ.

(١) روح المعاني: الألويسي (١٧٠، ١٧١/٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١١٢، ١١٣)، والتفسير الوسيط:

وهبة الزحيلي (٦٥٧/١).

اللطيفة السابعة: دلت الآية على أن من أخبر بالشيء على خلاف ما هو عليه ناسياً فهو كاذب، وإن كان عامداً فهو افتراءً، فهناك فرق بين مطلق الكذب، وافتراء الكذب^(١).

اللطيفة الثامنة: ﴿حَتَّى﴾ في الآية ابتدائية، وهي تدلُّ على أن مضمون الكلام الذي بعدها أهمُّ بالاعتناء للإلقاء عند المتكلم؛ لأنه أجدى في الغرض المسوق له الكلام، والكلام الواقع بعد ﴿حَتَّى﴾ فيه تهويلٌ ما يصيبهم عند قبض أرواحهم، وهو أدخل في تهديدهم وترويعهم، من الوعيد المتعارف، وقد هدّد القرآن المشركين بشدائد الموت عليهم؛ لأنهم كانوا يرهّبونه.

اللطيفة التاسعة: الاستفهام في قوله: ﴿أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مستعملٌ في التّهكُّم والتقريع والتوبيخ، والتأيسس، وعليه فلا جواب، والمعنى: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء، وتزعمون أنهم ينفعونكم عند الشدائد ويردّون عنكم العذاب فإنهم لم يحضروكم، ولا نراهم يخلصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد، وذلك حين يشهدون العذاب عند قبض أرواحهم. وفائدة السؤال وجهان: توبيخٌ وتبكيّتٌ لهم يزيدهم غمّاً إلى غمٍّ، ولطفٌ بالمكلف؛ لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التّكذيب.

اللطيفة العاشرة: هذه الآية خطاب للأرواح التي بها الإدراك، وهو قبل فتنة القبر، وهذا الحوار عند قبض الأرواح زجرٌ للكفار عن كفرهم، ودفعٌ لهم إلى النظر والتأمل في عواقب أمورهم.

اللطيفة الحادية عشر: قوله: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: حال كونهم متوفين لأرواحهم، وحتى غاية نيلهم، وهي حرف ابتداء^(٢).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

معنى الآية إما أن كل واحدٍ من المشركين سيصيبه ما توعدهم الله به من الوعيد على قدر عتوه في تكذيبه وإعراضه، فنصيبه هو ما يناسب حاله عند الله من مقدار عذابه، وإما أن مجموع المشركين سيصيبهم ما قدر لأمثالهم من الأمم المكذّبين للرسل المعرضين عن الآيات من عذاب الدنيا، فلا يغرنهم تأخير ذلك؛ لأنه مصيبهم لا محالة عند حلول أجله، فنصيبهم هو صفة عذابهم من بين صفات العذاب التي عدّبت بها الأمم. أولئك الكفرة جميعاً ينالهم نصيبهم من الكتاب المقدّر، وهو الشقاء والسعادة التي كتبت له أو عليه، بحسب علم الله وعمل هذا

(١) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٤)، وروح المعاني: الألويسي (٨/١٧١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١١٤، ١١٦).

(٢) معالم التنزيل: البغوي (٢/١٠٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٧٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١١٨، ١١٧)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٥٧)، وروح المعاني: الألويسي (٨/١٧١).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٧٦، ٧٥)، وروح المعاني: الألويسي (٨/١٧١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١١٥)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٥٧).

المخلوق. فقلوه: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَي: ما سبق لهم في حكم الله وفي مشيئته من الشقاوة والسعادة؛ فَإِنَّ قَضَى اللهُ لَهُمْ بِالْخْتِمِ عَلَى الشَّقَاوَةِ أَبْقَاهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَإِنْ قَضَى لَهُمْ بِالْخْتِمِ عَلَى السَّعَادَةِ نَقَلَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَمَا كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَعْمَارِ، فَإِذَا فَنِيَتْ وَانْقَرَضَتْ وَفَرَّغُوا مِنْهَا ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾. فَإِنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ وَإِنْ بَلَّغُوا فِي الْكُفْرِ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ الْعَظِيمَ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَانِعٍ مِنْ أَنْ يَنَالَهُمْ مَا كَتَبَ لَهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَعَمْرٍ تَفْصِلاً مِنْ اللَّهِ لِكَيْ يَصْلَحُوا وَيَتَوَبَّوْا، وَأَيْضاً فَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَجِيءَ الرُّسُلِ لِلتَّوْفِي كَالْغَايَةِ لِحُصُولِ ذَلِكَ النَّصِيبِ فَوْجِبَ أَنْ يَكُونَ حُصُولُ ذَلِكَ النَّصِيبِ مُتَقَدِّماً عَلَى حُصُولِ الْوَفَاةِ، وَالتَّوْفِي عَلَى حُصُولِ الْوَفَاةِ لَيْسَ إِلَّا الْعَمْرُ وَالرِّزْقُ، إِنَّ هَذَا السُّؤَالَ وَالْجَوَابَ فِي الْآيَةِ وَكَذَا مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِمَا مِمَّا سَيَأْتِي إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُحَالَةً، وَلَعَلَّهُ عَلَى الظَّاهِرِ أُرِيدَ بِوَقْتِ مَجِيءِ الرُّسُلِ، وَحَالِ التَّوْفِي الزَّمَانَ الْمَمْتَدَّ مِنْ ابْتِدَاءِ الْمَجِيءِ وَالتَّوْفِي إِلَى نِهَايَةِ يَوْمِ الْجَزَاءِ بِنَاءً عَلَى تَحْقِيقِ الْمَجِيءِ وَالتَّوْفِي فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بَقَاءً، وَإِنْ كَانَ حَدُوثُهُمَا فِي أَوَّلِهِ فَقَطُّ أَوْ قَصِدَ بَيَانِ غَايَةِ سُرْعَةِ وَقُوعِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، كَأَنَّهُمَا حَاصِلَانِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ التَّوْفِي. الْمَوْتُ قِيَامَةُ الْكَافِرِ؛ فَالْمَلَائِكَةُ يَطْلُبُونَهُمْ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ عَلَى سَبِيلِ الزَّجْرِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّهْدِيدِ، وَالمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ زَجْرُ الْكَافِرِ عَنِ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ التَّهْوِيلَ يَذْكَرُ هَذِهِ الْأَحْوَالَ مِمَّا يَحْمِلُ الْعَاقِلُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالَ وَالتَّسَدُّدِ فِي الْإِحْتِرَازِ عَنِ التَّقْلِيدِ.

سادساً: ما ترشد إلي الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. تدلُّ الآيَةُ عَلَى عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْكَافِرَ وَالمُشْرِكِينَ مَعَ ظَلْمِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، لَا يُحْرَمُونَ مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنَ الْعَمْرِ وَالرِّزْقِ إِلَى انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ.
٢. أَنَّ الْمَوْتَ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ.
٣. فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ تَذْهَبُ عَنْهُمْ، فَلَا يَجِدُونَ لَهَا أَثْرًا بِخِلَافِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.
٤. تَفِيدُ الْآيَةُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَنْبًا فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَضُرُّ بِهِ خُصُوصَ نَفْسِهِ لَا غَيْرَهَا^(٢).

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٧٤/٧).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢٢٤/٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٩١).

المقصد العاشر: الشهادة أعظم وسائل الإثبات

يدلُّ على هذه القاعدة قوله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَشَهِدُوا: شهد: كلمة تدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلامٍ، من ذلك الشهادة، والشهادة الإخبار بما قد شوهد. والمعنى: أقروا واعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي هي لتحقيق الخبر^(٢)، وعرفت الشهادة بأنها خبرٌ قاطعٌ؛ سُميت بذلك من المشاهدة؛ لأنَّ الشاهد يخبر عما شاهده. وشرعاً: الشهادة هي إخبارٌ صدقٌ لإثبات حقٍّ في مجلس القاضي^(٣). وعُرفت أيضاً بأنها إخبارٌ عن أمرٍ واقعٍ يقيناً^(٤). كافرٍين: الكفر شرعاً: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُبغضه الله وينهى عنه. والكفر أيضاً: رفض ما شرع الله، والحكم بغير ما أنزل الله، والتحاكم إلى غير شرع الله.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٥):

أقر المشركون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين أي: عابدين لما لا يستحق العبادة، فاعترفوا عند معاينة الموت بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه، وبأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يحمده في العاقبة، وأنهم مستحقين للعذاب المهين الدائم، لكن إقرارهم في ذلك الحين حجة عليهم، ولن ينفعهم.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٦):

إن أريد في الآية شهادة بعضهم على بعضٍ، فهذه شهادة حقيقية، وإن أريد واحداً منهم يشهد على نفسه، فهو إقرارٌ وليس بشهادة؛ لاستلزامه العقوبة، فقولهم: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: اعترفوا على أنفسهم، فالشهادة مجازٌ عن الاعتراف ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ عابدين لما لا يستحق العبادة أصلاً، حيثُ اتضح لهم حاله، والآية يحتمل أن تكون استئناف إخبار من الله باعترافهم على أنفسهم بالكفر، ويحتمل أن تكون عطفاً على ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ والاستفهام غيرٌ حقيقي، بل للتوبيخ والتقريع، وعليه فلا جواب، وما ذكر إنما هو للتحسر

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٢١/٣)، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: محمد الزحيلي (١٠١/١).

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفي (٥١٣/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٢/٢).

(٣) وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: محمد الزحيلي (١٠١/١).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨٣/١٥)، ومنحة العلام في شرح بلوغ المرام: عبدالله بن صالح

الفرزان (٤٨١/٩)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٥٢٠/٣).

(٥) معالم التنزيل: البغوي (١٠٢/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٧٦/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٣٨/١)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٥/٧).

(٦) تفسير ابن عرفة (٢٢٤/٢)

والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران، ولا تعارض بين ما في الآية وقوله: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] لأنَّ الطوائف مختلفة، أو المواقف عديدة، أو الأحوال شتى^(١).

والحكمة من مشروعية الشهادة أنَّها طريقٌ من طرق الإثبات؛ بها تحفظ الأموال والدماء والأعراض، وبها تنفذ الأحكام، وهي تلي الإقرار في القوة الظاهرة، وتحمل الشهادة وأداؤها فرض كفاية، ووجه كون ذلك فرضاً أنَّه لو لم يكن فرضاً لامتنع النَّاسُ من التحمل والأداء فيؤدي إلى ضياع حقوق النَّاسِ، ولأنَّه يُعمل بالظاهر، وأما الباطن فهو الله المطلع على النيات، والصحيح قبول شهادة كلِّ من يصلح للشهادة، فمن أظهر الخير والاستقامة قبلت منه شهادته، ومن أظهر غير ذلك من المعاصي والخيانات ونحو ذلك مما يدلُّ على ضعف إيمانه وقلة أمانته فإنَّه لا يوثق بشهادته^(٢).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ:

١. أنَّ الشهادة أهم وسيلة من وسائل الإثبات، وأعظمها مكانةً، وأقدمها استعمالاً.
٢. الشهادة هي: إخبارٌ بحقٍّ للغير على الغير عن يقين ومشاهدة وعيانٍ لا عن ظنٍّ وحسبان وتخمين، والحقُّ الذي يثبت يشمل حق الله وحق العبد^(٣).
٣. أنَّ الشهادة تصحُّ بكلِّ لفظٍ دلَّ على اليقين، وهي من طرق حفظ الحقوق.
٤. من معنى الآية النهي عن أن يقول الإنسان ما لا يعلم، أو يعمل بما لا علم له، وعلى هذا فلا تجوز الشهادة بلا علم^(٤).
٥. أنَّ الكفر اعتداءً وفساداً في القوة العقلية الإنسانية، فإنَّ الخلق خلقهم الله لعبادته؛ فالكفر فساد المقصود الذي له خُلُقوا، كما أنَّ الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد^(٥).

(١) روح المعاني: الألويسي (١٧٢/٨، ١٧١).

(٢) منحة العلام في شرح بلوغ المرام: عبدالله بن صالح الفوزان (٤٥٩/٩، ٤٧٦).

(٣) وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: محمد الزحيلي (١٠٠/١).

(٤) منحة العلام في شرح بلوغ المرام: عبدالله بن صالح الفوزان (٤٨٩/٩، ٤٨١).

(٥) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٢٨/١٥ . ٤٣١).

المبحث الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٢-٣٨)

الثواب والعقاب بيد الله تعالى

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان.

المطلب الثاني: الجنة سلعة الله غالية.

المبحث الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣٨-٤٢)

الثواب والعقاب بيد الله تعالى

توطئة وتمهيد^(١):

في هذا المقطع القرآني يقول الله مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين الكذب عليه والمكذبين بآياته: ادخلوا النَّارَ مع أمم أمثالكم وعلى صفاتكم، من فئة الجنِّ والإنس. وكلما دخلت جماعةٌ منهم النَّارَ، ورأت العذابَ والخزيَّ والنكالَ، لعنت أختها في الملةِ والدين التي ضلَّتْ بالافتدَاءِ بها، كما قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] حتى إذا أدرك بعضهم بعضاً، وتلاحقوا في النَّارِ، واجتمعوا فيها كلُّهم، قالت الفئةُ الأخريرةُ دخولاً، وهم الأتباع والسفلة، للفئة المتقدِّمة دخولاً، وهم المتبوعون والقادة لأنهم أشدَّ جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة: يا ربِّنا هؤلاء السادة سنؤا لينا الضلال، ودعوا إليه، فافتدينا بهم فأضلُّونا عن الحقِّ، فأعطهم عذاباً مضاعفاً من النَّارِ، فأجابهم الله تعالى: لكلِّ منكم ومنهم عذابٌ مضاعفٌ، وقد فعلنا ذلك، أمّا مضاعفةُ العذابِ للسادة فبسببِ إضلالِ غيرهم وحملهم الآخرين على اتِّباعهم والأخذ بأرائهم، وأمّا مضاعفةُ العذابِ للأتباع فبسببِ ترويجهم أضاليلِ السادة وإهمالِ عقولهم وأفكارهم، فالعذابُ مشدَّدٌ على الأوَّل والآخر من الفئتين، ولكن لا تعلمون المقادير وصور التضعيف. وقالت فئةُ السادة المتبوعين للأتباع: إذا كنَّا قد أضللناكم، فليس لكم فضلٌ علينا، في ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم، فقد ضللتكم كما ضللنا فنحن وأنتم سواءٌ في الضلال، واستحقاق العذاب المضاعف أو المشدَّد، فإنَّكم كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فلا تستحقون تخفيفاً من العذاب، فذوقوا وتلقَّوا العذاب بما تسببتُم به من الكفر والضلال، وهذه الحال كما أخبر الله عنهم في حال محشرهم. وذلك إذا وافى أهلُ السموات السبع والأرضين السبع ازدحمت الأممُ كلُّها من الجنِّ والإنسِ عراً حفاةً، قد نُزِعَ الْمُلْكُ من ملوك الأرض، ولزمتهم الذلَّة والصغار، فهم أذلُّ أهل الجمع وأصغرهم خلقاً وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله في أرضه.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٧٦)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٥٨)، والتوهم. رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة: الحارث المحاسبي (ص: ١١).

المطلب الأول: ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأول: الجنُّ حقٌّ، وهم مُكلفون تكليف الإنس

يدلُّ عليه قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

قال: أي: قال الله لأولئك الكاذبين المكذِّبين في الآخرة.

قَدْ خَلَتْ: معناه: قد مضت وانقرضت قبلكم، يعني: أن حالهم كحال الأمم المكذِّبين قبلهم، وهذا تذكير لهم بما حاق بأولئك الأمم من عذاب الدنيا، وتعريضٌ بالوعيد بأنَّ يحل بهم مثل ذلك، وتصريحٌ بأنَّهم في عذاب النَّار سواءً، أي: مضت قبلكم منتحلة ما انتحلتم، مكذبة ما كذبتكم من الحقِّ والآيات، كاذبة على الله وغير مصدقة لآياته، ومستكبرة عنها.

الجنُّ: جن: كلمة تدلُّ السُّنَّ والتسُّنُّ، والجنُّ سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم متسترُّون عن أعينِ الخلق.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يقولُ اللهُ يومَ القيامة للكافرين: ادخلوا النَّارَ معَ أُمَّمٍ من كَفَّارِ الجنِّ والانس قد مَضَتْ من قبلكم، كلِّما دخلت أمة النَّار لعنت الأمة التي كفرت مثلها والتي اتخذتها قُدوةً، حتى إذا تتابعوا فيها مُجتمعين قال التَّابِعون يُدْمُون المَتَّبِعِينَ: ربنا هؤلاء أضلُّونا فقلدناهم واتَّبَعناهم بِحُكم تقدُّمهم علينا، أو بِحُكم سُلْطَانِهِمْ فَصَرَفُونَا عن طريقِ الحقِّ، فعاقبهُم يا ربنا عِقَاباً مُضَاعَفاً يَحْمِلُونَ فِيهِ جِزَاءَ عِصْيَانِهِمْ وَعِصْيَانِنَا فِيرُدُّ اللهُ عَلَيْهِمْ: لكلِّ منكم عذابٌ مُضَاعَفٌ لا يَنجُو مِنْهُ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ، يُضَاعَفُ عَذَابُ التَّابِعِينَ لِكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَلَا قِنْدَانَهُمْ بِغَيْرِهِمْ دُونَ تَدَبُّرٍ وَتَفَكُّرٍ، وَيُضَاعَفُ عِقَابُ المَتَّبِعِينَ لِكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَتَكْفِيرِهِمْ وَاضْلَالِهِمْ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ مَدَى مَا لِكُلِّ مِنْكُمْ مِنَ العَذَابِ، وَهنا تَنْتَصِرُ الطَّائِفَةُ المُضِلَّةُ لِنَفْسِهَا مُعْلَنَةً بِرَأْيِهَا مِنَ التَّابِعِينَ، ثم يقولُ الرُّعْمَاءُ لِأَتْبَاعِهِمْ بَعْدَ أَنْ سَمِعُوا رَدَّ اللهِ عَلَيْهِمْ: إِنَّا وَإِيَّاكُمْ مُتَسَاوُونَ فِي اسْتِحْقَاقِ العَذَابِ، وَكُلُّنَا فِيهِ سَوَاءٌ، لِأَنَّنا لَمْ نُجْبِرْكُمْ على الكفر، وَلَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ بِاخْتِيَارِكُمْ وَضَلَلْتُمْ بِسَبَبِ جَهْلِكُمْ، فَذوقوا العَذَابَ المُضَاعَفَ مِثْلَنَا بِسَبَبِ مَا اكْتَسَبْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ قَبَائِحَ وَمُنْكَرَاتٍ، ثم قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي دخلت معها، أو التي سبقتها، وذلك يدلُّ على النفرة التي تكون بينهما، فإنَّ من أشدَّ العقوبات النفرة النفسية بين المجتمعين في واحدٍ، ويدلُّ على أنَّ الاتحاد في عقيدة ضالةٍ جعل

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٤٢١/١)، وروح المعاني: الألويسي (١٧٢/٨)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٥/٧)،

وزهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٢٨٣٣/٥)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١١٩/٨).

(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسَّان (٨٤/٣).

واحداً من المتحدين يلغيها ويلعن من يعتقها؛ لأنه يحسب أنه هو الذي سهل دخولها عليه، ثم يلعن الأتباع المتبوعين^(١). فكلما دخلت أمة من الأمم تابعة أو متبوعة في النار لعنت أختها أي: دعت على نظيرها في الدن فتلعن التابعة المتبوعة التي أضلتها وتلعن المتبوعة التابعة التي زادت في ضلالها، فيلعن الاتباع القادة يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله. ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

هذه الآية استئناف كلام نشأ بمناسبة إخبار حال المشركين حين أول قدومهم على الحياة الآخرة، وهي حالة وفاة الواحد منهم فيكون خطاباً صدر من الله عقوبة لهم، فذكر عقب إخبار حال قبض أرواحهم إكمالاً لذكر حال مصيرهم، وتخلصاً إلى وصف ما ينتظرهم من العذاب، ولذكر أحوال غيرهم، فهذه الآية من بقية شرح أحوال الكفار، وهو أن الله يدخلهم النار. رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٣):

اللطيفة الأولى: ضمير ﴿قَالَ﴾ في الآية عائد إلى الله بقريظة المقام؛ لأن مثل هذا القول لا يصدر من أحد غير الله، فهو استئناف كلام نشأ بمناسبة إخبار حال المشركين حين أول قدومهم على الحياة الآخرة، وهي حالة وفاة الواحد منهم فيكون خطاباً صدر من الله، فالقائل هو الله، ولم يُصرح به بجوار الفعل؛ لأنه مذكور دائماً في الأفهام وفي القلوب فلا حاجة إلى ذكره. **اللطيفة الثانية:** الإتيان بفعل القول بصيغة الماضي ﴿قَالَ﴾ للتنبية على تحقيق وقوعه. **اللطيفة الثالثة:** الأمر في قوله: ﴿ادْخُلُوا﴾ مستعمل للوعيد، فيتأخر تنجيذه إلى يوم القيامة.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ معناه: ادخلوا في أمم في النار، ومعنى الدخول في الأمم الدخول فيما بينهم، وهو الظاهر من الآية، وأنه لا إضمار فيها ولا مجاز، وأن "في" على بابها، ومعناها الظرفية كأصل وصفها، وإدخالها في هذه الأمم فيه إشارة إلى أنها وليست غيرها عنها، والمعية قد تُوهم المغايرة، ولا مغايرة بل هم أمم في ذواتهم، وهم أمة واحدة في كفرهم، فإن فرقتهم الأجيال فقد جمعهم الضلال، وجمعهم العقاب، والتكذيب لآيات الله، والمعاندة لأحكامه. والجار والمجرور في موضع الحال، أي: مصاحبين للأمم قد خلت.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ من: بيانية لبيان شمولها الضالين من الجنسين، الجنُّ أتباع إبليس، والإنس الذين أضلهم، وفي هذا المجتمع النَّاري يكون التابع والمتبوع سواء.

(١) روح المعاني: الألوسي (١٧٢/٨)، وزهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٢٨٣٤/٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٧٧/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١١٨/٨).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٧٧/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١١٨/٨)، وزهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٢٨٣٣/٥).

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني كفار الأمم من النوعين، وقدّم الجنّ على الإنس لمزيد شرهم.

اللطيفة السابعة: جمهور العلماء على أنّ الرُّسلَ مِنَ الْإِنْسِ، ولم يُبعثَ مِنَ الْجِنَّ رَسُولٌ، ولكن منهم النَّذْرُ، فالرُّسلُ من بني آدم، ومن الجنّ نُذْرٌ، وفي الجنّ رجالٌ كما أنّ في الإنس رجالاً^(١).
خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

خلق الله الجنّ للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فالجنّ على ذلك مكفون بأوامر ونواهٍ، فمن أطاع رضي الله عنه، وأدخله الجنة، ومن عصى وتمرد، فله النَّارُ، ففي يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجنّ والإنس موبخاً مبيكاً: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام:١٣٠]. ففي هذه الآية دليلٌ على بلوغ شرع الله الجنّ، وأنّه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم. وقوله: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] دليلٌ على أنّهم سيعذبون في النَّارِ، وأمّا الدليل على أنّ المؤمنين من الجنّ يدخلون الجنة قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن:٤٦] والخطاب في الآية للجنّ والإنس؛ لأنّ الحديث في مطلع السورة معهما، وفي الآية السابقة امتتان من الله على مؤمني الجنّ بأنّهم سيدخلون الجنة، ولولا أنّهم ينالون ذلك لما امتن عليهم به، فالجنّ مكفون في الجملة إجماعاً يدخل كافرهم النَّارَ إجماعاً، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقاً لا أنّهم يصيرون تراباً كالبهائم، وأنّ ثواب مؤمنهم النّجاة من النَّارِ، وظاهر الآية أنّهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم، خلافاً لمن قال: لا يأكلون ولا يشربون فيها، أو أنّهم في رضى حول الجنة، فالجنّ كالإنس في التكليف والعبادات، والجنّ عند أهل السنة مكفون مخاطبون لقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ [الأنعام:١٣٠] وأطبق الكلّ على أنّ الجنّ كلّهم مكفون، فلا خلاف بين أهل النظر أنّ الجنّ مكفون، يقول ابن تيميّة: "وكفّار الجنّ يدخلون النَّارَ بالنصّ والإجماع، وأمّا مؤمنوهم فجمهور العلماء على أنّهم يدخلون الجنة"^(٣). وقال أيضاً: "الجنّ مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنّهم ليسوا مماثلين للإنس في الحدّ والحقيقة؛ فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحدّ، لكنهم مشاركون للإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي،

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيميّة (ص: ٢٦٦، ٢٤٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٢٦)، وروح المعاني: الألويسي (١٧٢/٨).

(٢) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (٢/٢٢٢)، وعالم الجنّ والشياطين: عمر سليمان الأشقر (ص: ٥١).

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيميّة (ص: ٢٦٦).

والتحليل والتحریم، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين^(١). بناءً عليه فإنَّ الجنَّ مكلفون، ولهذا يدخل كافرهم النَّار بالنصِّ والإجماع كما قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] ويدخل مؤمنهم الجنَّة على قول جمهور أهل العلم.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنَّ الجنَّ مكلفون بالإيمان، مخاطبون بالشرعية المحمدية.
٢. الآية فيها إخبارٌ وإثباتٌ عن وجود الجنِّ، وأنَّ منهم المؤمن والكافر.
٣. الإقرار بوجود الجنِّ جزءٌ من الإيمان بالغيب.
٤. في الآية دليلٌ على أنَّ الله تعالى يتكلم مع الكفار.

المقصد الثاني: اللعن أسلوبٌ متأصلٌ على السنة الكافرين

ويدلُّ على هذا المفهوم الشرعي قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

أُمَّةٌ: إنَّ الأمة في التصور الإيماني هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كلِّ جنسٍ ومن كلِّ أرضٍ، وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنسٍ واحدٍ، أو أرضٍ واحدةٍ. لَعَنَتْ: اللعن: الطرد والإبعاد من الخير؛ لأنَّ اللعنة في الحقيقة إبعاد الله من يعصيه عن الخير، وفي الشرع: الطرد والإبعاد عن رحمة الله. أُخْتَهَا: إشارةٌ إلى مشاركتهم في الولاية، فالأخوة إذا كانت في غير الولادة كانت للمشاكله والاجتماع في الفعل.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٤):

تخبر الآية أنَّ الله قال لهم: ادخلوا أيها المشركون في جملة أممٍ قد مضت من قبلكم على الكفر والضلال من الجنِّ والإنس في النَّار، كلما دخلت أمةٌ من الأمم العاتية لعنت أختها التي سبقتها إلى النَّار.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٣٣/٤)، وشرح العقيدة الواسطية: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٥١٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٨٢٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٧٧/١٤)، وعالم الجنِّ والشياطين: عمر الأشقر (ص: ٥٣)، وشرح أصول العقيدة الإسلامية: نسيم ياسين (ص: ١٠٩).

(٣) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: أبو عمر الزاهد (ص: ١٧٦)، ودُرَّة التنزيل وغرَّة التأويل: الإسكافي (١/١٩١)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٧٤/١)، ومعجم المناهي اللفظية: بكر أبو زيد (ص: ٤٧١)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١/١١٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٢)، والمختصر في التفسير (ص: ١٥٥).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية:

اللطفية الأولى: عن أنس (رضي الله عنه) قال: لم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشاً ولا لعاناً ولا سباً^(١).
اللطفية الثانية: كان عبدالله بن المبارك يقول على رؤوس الناس: "دعوا حديث عمرو بن ثابت؛ فإنه كان يسب السلف"^(٢).

رابعاً: تحقيق الهدف والمقصد من الآية^(٣):

هذه الآية تشعر بأن الله لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعةً واحدة، بل يدخل الفوج بعد الفوج، فيكون فيهم سابقٌ ومسبقٌ، ليصح هذا القول، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقها، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ المقصود أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً فيتبرأ بعضهم من بعض، والمراد بقوله: ﴿أُخْتَهَا﴾ أي: في الدين والمعنى: أن المشركين يلعنون المشركين، وكذلك اليهود تلعن اليهود، والنصارى اللعنة، وكذا القول في سائر أديان الضلالة. والأصل الشرعي تحريم اللعن، والزجر عن جريانه على اللسان، وأن المسلم ليس بالطعان ولا اللعان، ولا يجوز التلاعن بين المسلمين، ولا بين المؤمنين، وليس اللعن من أخلاق المسلمين ولا أوصاف الصديقين، واللعان قد جرت عليه نصوص الوعيد الشديد؛ بأنه لا يكون شهيداً، ولا شفيعاً يوم القيامة، ويُنهي عن صحبته، ولذا كان أكثر أهل النار النساء؛ لأنهن يُكثرن اللعن، ويكفرن العشير، وأن اللعان ترجع إليه اللعنة، إذا لم تجد إلى من وجهت إليه سبيلاً، ومن العقوبات المالية لللعان أنه إذا لعن دابة تركت، وقد بالغت الشريعة الإسلامية في سد باب اللعن عن من لم يستحقه، فنهى الشرع عن لعن البهائم؛ لذلك يحرم لعن الدابة، واللعان للدواب ترد شهادته؛ لأن هذا جرحه له، فعلى المسلم الناصح لنفسه حفظ لسانه عن اللعن، وعن التلاعن، والوقوف عند حدود الشرع في ذلك، فلا يُلعن إلا من استحق اللعنة بنص من كتاب أو سنة.

خامساً: يمكن استنباط بعض الهدايات من الآية القرآنية^(٤):

١. التدرج سنة كونية قدرية ودينية شرعية.
٢. يؤخذ من الآية المبالغة في ذم السب واللعن لما فيه من احتقار وازدراء.
٣. أن اللعن هو الإبعاد عن رحمة الله تعالى.

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب . باب ما يُنهى من السباب واللعن، حديث رقم: (٦٠٤٦)، (ص: ٧٢٢).

(٢) صحيح مسلم المقدمة، حديث رقم: (١٦).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٧٧/١٤)، والأذكار: النووي (ص: ٤٢٩)، ومعجم المناهي اللفظية: بكر أبو زيد (ص: ٤٧١).

(٤) الأذكار: النووي (ص: ٤٢٩)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦٠٤/١٣).

المقصد الثالث: الكفر ملءً واحدةً في الضلال

ويدلُّ على هذا المقصود قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأْتِمِّمْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].
أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

حَتَّى: حرف يفيد انتهاء الغاية، وهو الغالب، ويفيد التعليل، وتأتي حرف عطف، وهو قليل.
 وقد أجمع النُّحاة على أنَّ الحروف لا محل لها من الإعراب.
 إذا: ظرف، والظروف أسماء.

ادَّارَكُوا: أي: تلاحقوا في النَّار جيلاً وراءه جيلٌ، وسلفاً وراءه خلفٌ وآباءٌ وراءهم أبناء.
 وأصلُ ﴿ادَّارَكُوا﴾ تداركوا، والمعنى: أي: تلاحقوا، واجتمعوا في النَّار، وأدراك بعضهم بعضاً، واستقر معه.

قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ: في تفسير الأولى والأخرى قولان: الأول: أخراهم يعني آخرهم دخولاً في النَّار، ولأولاهم دخولاً فيها، والآخر: أخراهم منزلةً وهم الأتباع والسفلة، ولأولاهم منزلةً وهم القادة والرؤساء.

ضِعْفًا: الضعف: هو مثل الشيء مرة واحدة، والضعف في كلام العرب وإليه يرد كلام الله: المثل إلى ما زاد ولا يقتصر على مثلين، بل هو غير محصور. وضعف الشيء هو الذي يثنيه ومتى أضيف إلى عدد اقتضى ذلك العدد مثله نحو أن يقال ضعف عشرة وضعف مائة فذلك عشرون ومائتان بلا خلافٍ.

لِكُلِّ ضِعْفٍ: أي: عذاب مضاعف، أمَّا القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال، وأمَّا الأتباع والسفلة، فبالضلال، وتقليد أهل الضلال، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة.
ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

بيَّن الله في هذه الآية الكريمة أنَّ الأتباع يسألون الله يوم القيامة أنَّ يضاعف العذاب للمتبوعين، وبيَّن في مواضع آخر أنَّ مضاعفة العذاب للمتبوعين لا تنفع الأتباع، ولا تخفف عنهم من العذاب، ثم قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أي: لكل منكم ومنهم عذابٌ ضعف من النَّار، أمَّا

(١) مغنى اللبيب: ابن هشام (ص: ١٣٢، ١٠٢)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/٧٨)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٧٢)، وزهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٥/٢٨٣٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٧٦)، وأحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين: سليمان الديخي (ص: ٢٣١).
 (٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٢٢).

القادة فاضلالهم وإضلالهم وذلك سبب الدُّعاء السابق، وأمَّا الاتِّباعُ فلكونهم ضالين، وأمَّا كونهم مضلين، فلأنَّ اتخاذهم إياهم رؤساء يصدر عن أمرهم يزيد في طغيانهم، فإنَّ ضعف الاتِّباع لإعراضهم عن الحقِّ الواضح وتولي الرؤساء لينالوا عرض الدُّنيا اتِّباعاً للهوى، ونقل عن بعض المفسرين في الآية أنَّ المعنى لكلِّ منكم ومنهم ضعف ما يرى الآخر، فإنَّ من العذاب ظاهراً وباطناً، وكلُّ يدرك من الآخر الظاهر دون الباطن فيقدر أن ليس له العذاب الباطن، والمختار أنَّ المعنى لكن منهم ضعف ما لكم من العذاب. وقوله: ﴿فَدُوقُوا الْعَذَابَ﴾ المضاعف ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب كسبكم أو الذي تكسبون، والظاهر أنَّ هذا من كلام القادة قالوه لهم على سبيل التشفي، وجوِّز أنَّ يكون من كلام الله للفريقين على سبيل التوبيخ^(١).

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٢):

اللطفية الأولى: قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ غاية لما قبله، أي: يدخلون فوجاً فوجاً لا عنأ بعضهم بعضاً إلى انتهاء تلاحقهم باجتماعهم في النَّار.

اللطفية الثانية: اللام في قوله: ﴿لِأُولَآئِهِمْ﴾ للتعليل لا للتبليغ؛ لأنَّ خطابهم مع الله لا معهم كما يدلُّ عليه قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: دعونا إلى الضلال وأمرونا به حيث سنوه فاقندينا بهم ﴿فَأَتَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفاً.

اللطفية الثالثة: اللام في قوله: ﴿لِأَخْرَاهُمْ﴾ لام أجل والمعنى: لأجلهم وإضلالهم إياهم قالوا: ربنا هؤلاء أضلونا وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم؛ لأنهم ما خاطبوا أولاهم وإنما خاطبوا الله تعالى بهذا الكلام.

اللطفية الرابعة: قوله: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ المعنى: أن الاتِّباع يقولون: إنَّ المتقدمين أضلونا. وهذا الإضلال يقع من المتقدمين للمتأخرين على وجهين: أحدهما: بالدعوة إلى الباطل، وتزيينه في أعينهم، والسعي في إخفاء الدلائل المبطله لتلك الأباطيل، والوجه الآخر: بأنَّ يكون المتأخرون معظمين لأولئك المتقدمين، فيقلدونهم في تلك الأباطيل والأضاليل التي لفقوها ويتأسون بهم، فيصير ذلك تشبيهاً بإقدام أولئك المتقدمين على الإضلال.

اللطفية الخامسة: (من) في قوله: ﴿مِنْ فَضْلِ﴾ للاستغراق، أي: ليس لكم علينا أيُّ فضلٍ يخفف العذاب، أو يوجب أن يتقل العذاب علينا فوق عذابكم؛ فأنتم ضللتكم كما ضللنا والعذاب للضلال

(١) روح المعاني: الألوسي (١٧٥/٨، ١٧٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٧٨/١٤)، وروح المعاني: الألوسي (١٧٥/٨، ١٧٣) وزهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٢٨٣٦/٥، ٢٨٣٥).

والعناد أو الكفر وقد شاركتُمونا في ذلك، وإذا كنا قد أضللناكم واتبعتمونا في ضلالنا، فقد أضللتم غيركم، واتبعوكم في ضلالكم كما اتبعتمونا^(١).

اللطيفة السادسة: الفاء في قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ الفصيحة؛ تفصح عن شرطٍ مقدرٍ تقديره: فإذا كنتم قد ضللتم مثلنا، فما لكم علينا أيُّ فضلٍ يخفف لكم أو يزيد علينا.

اللطيفة السابعة: الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ عاطفة، لعطف ما بعدها على ما قبلها.

اللطيفة الثامنة: عبر عن العذاب بالذوق في قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ للإشارة إلى شدة آلامه، ومتاعبه، والمعنى: ادخلوا في النَّارِ ذاتقين لها محسين بآلامها.

اللطيفة التاسعة: الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ سَبِيئَةً﴾ أي: بسبب ما كنتم تكسبون من ظلم وعبث وفساد، فهذا هو الأصل في سبب العقاب، لا فرق في ذلك بين ضالٍ، ومضلٍ، ما دام قد وقع كلانا في الضلال مختاراً، ما دام له عقلٌ يدرك، وما دام قد أُنذرتَه الرُّسُلُ، وقامت بين يديه البيّنات، فإذا كان قد اتبع من قبله فعلية إنمته، وقد جاءه الهادي الرشيد، فلم يتبعه.

اللطيفة العاشرة: الخطاب في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريقٍ، فلذا تكلمتم بما يشعر باعتقادكم استحقاق الرؤساء الضعف دونكم، فالخطابُ على التقديرين للاتباع وقيل: للفريقين بتغليب المخاطبين الذين هم الاتباع على الغيب الذين هم القادة^(٢).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

هذا النصُّ القرآني يفيد أولاً: أنَّ الكفرَ كلُّه ملءٌ واحدةٌ، لا تفريق بينها، فالباطل قد جمعها، والعقاب قد وحدها، ويفيد ثانياً: أنَّه يتسلسل في الأجيال جيلاً بعد جيلٍ، وبعد تفرقهم في الأجيال تجدهم قد التقوا في النَّارِ جميعاً، وإن تنظر إلى تاريخ الملل والديانات الإنسانية تجدها أحياناً تتلاقى في نوعٍ واحدٍ من الكفر، فإذا كانت هذه الأجيال والأمم من الإنسان والجنِّ فإنَّها تدخل النَّارَ جميعاً، يلحق التابع المتبوع، وقد جمعهم الشرك بالله ووجد بينهم العقاب، ولذا يقول الله يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: مضت من الإنس والجنِّ، والنَّارُ منسعةٌ للجميع، ثم ذكر الله تلاحق هذه الأمم التي ضلت، وكان ضلالها واحداً، أو متقارباً مختلفاً في شكله، متحداً في معناه؛ إذ كلُّه وثنيةٌ وإشراكٌ بالله، وكفرٌ بالحقيقة الإلهية، وضلالٌ أيُّ ضلالٍ في فهم حقيقة خالق الوجود ومنشئه، فبين الله في هذه الآيات أنه كلما دخلت أمةٌ من الأمم لعنت أختها التي سبقتها إلى النَّارِ، حتى إذا تلاحقوا فيها، واجتمعوا كلهم قالت أحرهم دخولاً، وهم السَّقَلَةُ

(١) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٢٨٣٥/٥)

(٢) روح المعاني: الألوسي (١٧٥/٨).

(٣) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة (٢٨٣٤/٥).

والاتباع لأولاهم، وهم الكُبراء والسادة: يا ربِّنا هؤلاء الكُبراء هم الذين أضلونا عن طريق الهداية، فعاقبهم عقاباً مضاعفاً لتزيينهم الضلال لنا، قال الله رداً عليهم: لكلِّ طائفةٍ منكم نصيبٌ من العذاب مضاعف، ولكنكم تجهلون ذلك ولا تدركونه. قال السادة المتبوعون لأتباعهم: ليس لكم أيها الاتباع علينا من فضلٍ تستحقون به تخفيف العذاب عنكم، فالعبرة بما كسبتم من الأعمال، ولا عذر لكم في اتباع الباطل فذوقوا أيها الاتباع العذاب مثلما ذقناه بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والمعاصي؛ لذلك فإنَّ الكفر ملّةٌ واحدةٌ وإن اختلفت أجناس أهله وأماكنهم، فهم يتشابهون في كفرهم وقولهم^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآيات من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. تدلُّ الآيةُ على أنَّ الكفار والضلال والمبتدعة، وإنَّ تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم، وتوادوا في الدنيا، فإنَّهم في الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم.
٢. تدلُّ الآيةُ على فساد التقليد، والاعتزاز بقول علماء السوء.
٣. تدلُّ على أنَّ الداعي إلى الضلال مُضلٌّ، وأنَّ إضلال غيره إياه ليس بعذرٍ له، وتدلُّ على أنَّ اشتراكهم في العذاب لا يُوجب لهم راحةً، بخلاف الاشتراك في محن الدنيا.
٤. أنَّ ذلك الإضلال فعل العبد، فيبطل قول المُجبرة في المخلوق، والهدى والضلال.
٥. في الآية دليل على أنَّه لا يمكن الجبر على الكفر؛ لتعلقه بالقلب.
٦. براءة المشركين من شركائهم يوم القيامة، ومصيرهم جميعاً إلى النَّار، وسينالون جزاءهم العادل.
٧. أنَّ مَنْ دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ آثام مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً.
٨. أنَّ يحذر المسلم أن يكون من دُعاة الضلال؛ لأنَّه لا يُختصُّ بإثم نفسه فحسب، وإنَّما يتحمَّل آثام مَنْ اتبعوه؛ لأنَّه غرهم وخدعهم وفتح لهم باب الشرِّ، وصار قُدوةً لهم في الشرِّ.
٩. الآية تُؤكِّد على المسلم أن يكون قُدوةً في الخير، وأن يدعو إلى الخير، ويتجنَّب أن يكون داعيةً إلى الشرِّ.
١٠. جواز كذب الكفار يوم القيامة وذلك جائزٌ، مثل قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

(١) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٥، ١٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٧٩/١٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٧/٧)، وحاشية الصاوي على تفسير الجالين (٦٧٢/٢)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ١٠٧)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسَّان (٨٥/٣).

١١. أن القادة والأتباع سواءً في تغليظ العذاب الأخروي.
١٢. أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع.
١٣. دلت الآية على أن سائر أنواع المكذّبين بآيات الله مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم.
١٤. يخطئ الإنسان كثيراً حينما لا يقدر عواقب الأمور، ولا يدرك حقيقة ما عليه حاله من انحرافٍ أو ضلالٍ حتى وإن تأثر بالتقليد أو عمل بتوجيه بعض المعلمين، لأنّ مراجعة الحساب أمرٌ مطلوبٌ لكلّ عاقلٍ، وليس كلُّ ما يقوله المعلمُ صواباً أو صحيحاً، فبعض المعلمين يتأثرون بأفكارٍ دخيلةٍ مغشوشةٍ، ويخطئون في فهم الأمور، ثم ينقلون الخطأ إلى التلاميذ، وهذا يتطلب الحذر من تناقل الأفكار، وتوارث الآراء عن طريق المعلمين^(١).
١٥. أنّ المودة التي كانت بين المكذّبين في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة.
١٦. أنّ الكفر ملة واحدة، وإن اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم^(٢).

المقصد الرابع: أفعال العباد هي خلق الله، وكسب من العباد

ويدلُّ على هذا المقصود القرآني قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ: أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب جزاءً على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله.

ثانياً: بيان المقصد في الآية^(٤):

قال السادة المتبوعون لأتباعهم: ليس لكم أيها الاتباع علينا من فضلٍ تستحقون به تخفيف العذاب عنكم، فالعبرة بما كسبتم من الأعمال، ولا عذر لكم في اتباع الباطل، فذوقوا أيها الاتباع العذاب مثلما ذقناه بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والمعاصي. والمقصود من هذا الكلام التخويف والزجر؛ لأنّ الله لما أخبر عن الرؤساء والأتباع أنّ بعضهم يتبرأ عن بعض، ويلعن بعضهم بعضاً كان ذلك سبباً لوقوع الخوف الشديد في القلب، وبناءً عليه فقد اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية، فزعمت الجبرية أنّ التدبير في أفعال الخلق كلّها لله، وهي

(١) التفسير الوسيط: وهبة الزحيلي(١/٦٥٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي(ص:٢٩٣)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص:١٥٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٢/٤٠٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي(١٤/٨٠)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص:١٥٥).

كلُّها اضطرارية، كحركات المرتعش، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجازاً، وقابلتهم المعتزلة فقالوا: إنَّ جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات لا تعلق لها بخلق الله، وقال أهل السنة أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاةً، وهي مخلوقة لله، مقدورة له، واقعة بمشيئته وإذنه تعالى، والله مُنفردٌ بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه^(١)، فالجبرية غلواً في إثبات القدر، الإلهية فشبهوا، والقدرية نفاةً القدر جعلوا العباد خالقين مع الله، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فإنَّ الله خالق كلِّ شيءٍ، وإنَّ أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يدلُّ على أنَّ العبد ليس بفاعلٍ في الحقيقة ولا مُريدٍ ولا مختارٍ، وأنَّ حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار، إنَّ العبد فاعلٌ لفعله حقيقةً، وأنَّه مُريدٌ له مختارٌ له حقيقةً، وأنَّ إضافته ونسبته إليه إضافة حقٍّ، ولا يدلُّ على أنَّه غيرُ مقدورٍ لله، وأنَّه واقعٌ بغير مشيئته وقدرته، دلَّ عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأنَّ العباد فاعلون لأفعالهم حقيقةً، وأنَّهم يستوجبون عليها المدح والذم، فإنَّ أدلة الحق لا تتعارض، والحق يُصدِّق بعضه بعضاً، ويضيق هذا الموضوع عن ذكر الأدلة ولكن أذكر شيئاً مما استدل به مما له تعلق بالآية، فمما استدلت به الجبرية، على أنَّه لا صنْع للعبد. قالوا: الجزاء غير مرتبٍ على الأعمال، بدليل قوله (ﷺ): "لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّديني الله برحمته منه وفضلٍ"^(٢). ومما استدل به القدرية على أنَّ العبد يحدث فعله، قالوا: الجزاء مرتبٌ على الأعمال ترتيب العوض، كما قال: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الرُّحُوف: ٧٢] والحق أن ترتب الجزاء على الأعمال، فإنَّ الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله (ﷺ): "لن يدخل الجنة أحدٌ بعمله" بقاء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أنَّ العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] بقاء السبب، أي: بسبب عملكم، والله هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكلُّ إلى محض فضل الله ورحمته، فإنَّه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله^(٣). ومن شبه المخالفين أنَّهم قالوا: كيف يستقيم الحكم بأنَّ الله يُعَدِّبُ المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟ والجواب أن يقال: إنَّ ما يُبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقاً لله، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يُكسب الذنب،

(١) لوامع الأنوار البهية: السفاريني(١/١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضى. باب تمئي المريض الموت، حديث رقم(٥٦٧٣)،(ص:٦٨٨).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي(ص:٤٢٩:٤٣٧).

ومن عقاب السيئة السيئة بعدها، فالذنوب كالأضرار التي يُورثُ بعضها بعضاً، يبقى أن يقال: فالكلام في الذنب الأوّل الجالب لما بَعَدَه من الذنوب، يقال: هو عُقوبَةٌ أيضاً على عدم فعل ما خُلِقَ له وفُطِرَ عليه، فإنَّ الله خلقه لعبادته وحده، وفطره على محبته، وتألّفه والإِنابة إليه، فلما لم يفعل ما خُلِقَ له وفُطِرَ عليه، من محبة الله وعبوديته، والإِنابة إليه، عُقِبَ على ذلك بأنَّ زَيْنَ له الشَّيْطَانُ ما يفعلُه من الشرك والمعاصي، فإنَّه صادف قلباً خالياً قابلاً للخير والشرِّ، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضِدَّه لم يتمكن منه الشرُّ، كما قال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢] والإِخْلَاصُ: خلوصُ القلب من تأليه ما سوى الله وإرادته ومحبته، فخلص الله، فلم يَتَمَكَّنْ منه الشَّيْطَانُ. وأمَّا إذا صادفه فارغاً من ذلك، تمكَّن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبةً له على عدم هذا الإِخْلَاصِ، وهي مَحْضُ العَدْلِ، وقد أخبر الله أنَّ تسليطَ الشَّيْطَانِ إنَّما هو على الذين يتولَّونه والذين هم به مشركون، فلما تولَّوه دونَ الله وأشركوا به معه عُوقِبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الوِلايَةُ والإِشْرَاقُ عقوبةً خُلُوَ القلب وفراغه من الإِخْلَاصِ، فالهَامُ البِرِّ والتَّقْوَى ثمرَةٌ هذا الإِخْلَاصِ ونتيجته، والهَامُ الفجور عقوبةً على خُلُوِّه من الإِخْلَاصِ، هذا هو العَدْلُ وهو تصرُّفُ المالك في ملكه بما يشاء، والمقصودُ في هذا المقام بيانُ أنَّ الله أعلمُ بالمحلِّ الذي يَصْلُحُ لغرس شجرة النِّعمَةِ فتثمرُ بالشكر، من المحلِّ الذي لا يَصْلُحُ لغرسها، فلو عُرسَتْ فيه لم تُثمِرْ، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليقُ بالحِكمة، فالعبد فاعلٌ لفعله حقيقةً، وله قُدْرَةٌ حقيقةً، ولكن مخلوقٌ لله، والله هو الذي جعل العبدَ فاعلاً مختاراً، والله إنَّما يُعَدِّبُ عبده على فعله الاختياري، والفرقُ بين العقاب على الفعل الاختياري والاضطراري مُستقرٌّ في الفِطْرِ والعقول، والحاصل: أنَّ فعلَ العبدِ فعلٌ له حقيقةً، ولكنه مخلوقٌ لله، ومفعولٌ لله، ليس هو نفسَ فعلِ الله، ففرقٌ بين الفعل والمفعول، والخَلْقِ والمخلوق، وإلى هذا المعنى أشار متن الطحاوية: "وأفعالُ العبادِ خلقُ الله وكسبٌ من العباد" أثبتت للعباد فعلاً وكسباً، وأضاف الخلق لله. والكسب: هو الفعلُ الذي يعود على فاعله منه نَفْعٌ أو ضررٌ^(١).

ثالثاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. عذاب الله للمجرمين عدلٌ.
٢. الآية تنويهٌ بأنَّ صحبة الأخيار عظيمة الفائدة، وأنَّ صحبة الأشرار فيها ضررٌ عظيم.
٣. أنَّ الله لا يظلم أحداً، فلا يُنقص من حسنات محسنٍ، ولا يزيد من سيئات مسيءٍ، ولا يُعاقب على غير ذنبٍ.

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي(ص: ٤٢٩-٤٣٧)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية(٣٣٣/١)، ٤٢٧/١٤.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي(ص: ٦٧٧، ٧١١).

المقصد الخامس: الحرب النفسية شرعية

ويدلُّ على هذا المقصد العسكري قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].
أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

كذَّبُوا بِآيَاتِنَا: أي: كذبوا بآياتنا الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع، كالأدلة الدالة على وجود الصانع ووحدته والدالة على النبوة والمعاد ونحو ذلك. فقله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالدلائل الدالة على المسائل التي هي أصول الدين، فالمشركون ينكرون دلائل التوحيد، ومنكرو النبوات يكذبون الدلائل الدالة على صحة النبوات، ومنكرو نبوة محمد ينكرون الدلائل الدالة على صحة نبوته، ومنكرو المعاد ينكرون الدلائل الدالة على صحة المعاد فقله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يتناول الكل.

وَاسْتَكْبَرُوا: الاستكبار شرعاً: "طلبُ الترفعِ بالباطل"، وهذا اللفظ في حقِّ البشر يدلُّ على الذم، والمعنى: أي: بالغوا في احتقارها وعدم الاعتناء بها، ولم يلتفتوا إليها، وضموأ أعينهم عنها ونبذوها وراء ظهورهم ولم يكتسوا بحلل مقتضاها ولم يعملوا به.

لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ: لا تُفَتَّحُ لأعمالِ الكفار ولا لأرواحهم إذا ماتوا أبوابُ السماء، كما تُفَتَّحُ لأعمالِ المؤمنين وأرواحهم.

السَّمَاءِ: السماء في اللغة: اسمٌ لكلِّ ما عَلا وارْتَفَعَ، وهو مأخوذ من السُمُو، وهو العُلُو، وذكر المفسرون أنَّ السماء في القرآن على خمسة أوجه: السماء المعروفة، والسَّحاب، والمطر، وسقف البيت، وسقف الجنَّة، وسقف النَّار. المعنى: لا تفتح لأعمالهم، ولا لدعائهم، ولا لشيء مما يريدون به طاعة الله. أي: لا يقبل ذلك منهم، لأنَّه ليس صالحاً ولا طيباً، أو المعنى: لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنَّة، أو المعنى: لا تفتح لأرواحهم، إذا ماتوا، أبواب السماء، كما تفتح لأرواح المؤمنين. فقله: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخل الجملُ في ثقب الإبرة، وهو غير ممكن، فكذا دخولهم.
يَلِجُ: الولوج: الدخول بشدة، والإيلاج إدخالُ شيءٍ في شيءٍ.

(١) نُزهة الأعين النواظر: ابن الجوزي (ص: ٣٥٨)، والكشاف: الزمخشري (٧٨/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٨١، ٨٠/١٤)، وروح المعاني: الألوسي (١٧٦، ١٧٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٤/٢)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧٧، ٨١/٧)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٧٢/٢)، والبرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٤١/٣)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣٢١، ٣٤٠/١).

الجَمَلُ: الجمل هو البعير إذا بزل، أي: الذكر من الإبل، والجَمَلُ هو هذا الحيوان المعروف، والجمل هو زوج الناقة، وسُمي الجملُ جَمَلًا؛ لأنَّ فيه جَمالًا، والجَمال: كثرةُ الحُسن. سَمُّ: ثقب الإبرة وخُرْمها، والثقب الضيق.

الخِياطُ: ما يخاط به^(١)، وهو الآلة التي يخاط بها، ويقال: لها مخيط أيضاً.

المُجْرِمِينَ: أصلُ الجرم قطعُ الثمرة عن الشجرة، ويستعمل في كلام العرب لاكتساب المكروه، ولا يكاد يقال للكسب المحمود، والمجرمين جمع مجرم، والإجرام ارتكاب الجريمة، وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه عليه النكال، والمجرمون ههنا هم الكافرون؛ لأنَّ الذي تقدم ذكره من صفتهم هو التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

إنَّ المقصود من هذه الآية إتمام الكلام في وعيد الكفار؛ وذلك لأنَّ الله قال في الآية المتقدمة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، ثم شرح الله في هذه الآية كيفية ذلك الخلود في حق أولئك المكذِّبين المستكبرين، فإنَّ الله أحسن تشبيهاً؛ فإنَّ سَمَّ الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خَرَّتِ الإبرة، والجملُ مثل في عظم الجرم، فقيل: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان، الذي لا يلج إلا في بابٍ واسعٍ، في ثقب الإبرة، وحاصلُه أنَّ الجمل لما كان مثلاً في عظم الجسم؛ لأنَّه أكثر الحيوانات جسماً عند العرب، وخرق الإبرة مثلاً في الضيق، ظهر التناسب، على أنَّ في إيثار الجمل، وهو مما ليس من شأنه اللوج في سم الإبرة، مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية:

هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم، وهي تضع قراراً حاسماً منكوداً، وتقرر حكماً مبرماً لا رجعة فيه، وتوضح أنَّ احتمال دخول الكفار الجنة مستحيلٌ أبداً، لا يُحدث بحالٍ، فلا يطمع أحدٌ كفر بالله في دخول الجنة، ولا يتأمل إنسانٌ كذب بآيات الله الوصول إلى دار السلام في الآخرة، فإنَّ الذين كذبوا بآيات الله الدالة على إلهيته وصدق نبيِّه وصحة النبوات وإثبات المعاد، لا يصعد لهم عملٌ صالحٌ، لخبث أعمالهم، وسوء طوبيتهم، ومثلهم الذين تكبروا عن آيات الله في قرآنه لا تُفتح لأرواحهم وأعمالهم ودعائهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة أبداً بحالٍ، فهم مطرودون من رحمة الله، فدخولهم الجنة مستحيلٌ، وهو معنى قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨١)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٨٣، ٨٢)، وحاشية الصاوي على تفسير

الجلالين (٢/٦٧٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٧١٠).

(٢) الكشاف: الزمخشري (٢/٧٨)، والتفسير الكبير: الرازي (٤/٨٠)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٨٣، ٨٢).

الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴿٣٨﴾ أي: حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا أسلوب شائع بين العرب للدلالة على الاستحالة، وفيه ألمٌ نفسي، فالمعنى أن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة في الكتب، والموجودة في الكون، وكذبوا بآيات الله المبتوثة في الأنفس والآفاق، واستكبروا عن الاهتداء بها، ولم يتوبوا ويرجعوا إلى الله فهم مَيئوس من قبول أعمالهم، ورحمة الله بهم ومن دخولهم الجنة، كما أن دخول الجمل في ثقب الإبرة مَيئوس منه، وعلى هذا النحو من العقاب يُعاقبُ الله المكذِّبين المُستكبرين من كلِّ أمّة، والعرب تضرب بالجمل المثل في عظم الخلق، فكأنه قيل: حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم في ثقب الإبرة وهو مثل عندهم أيضاً في ضيق المسلك وذلك مما لا يكون فكذا ما توقف عليه، لعدم إمكانه ما دام العظيم على عظمه والضيق على ضيقه. والممكن الولوج بتصغير العظيم أو توسيع الضيق. ومثل ذلك الجزاء الشديد الشنيع الفظيع يجزي الله كلَّ من أجرم في حق الله، وفي حق نفسه، وفي حق إخوانه المسلمين، ليدلَّ على أن الاجرام هو السبب المؤدي إلى العقاب، وأن كلَّ من أجرم عُوقب، ثم كرر ذلك في آخر الآية التالية، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنَّ كلَّ مجرمٍ ظالمٌ لنفسه^(١).

رابعاً: لطائف بلاغية، ونكتات بيانية في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ الظاهر أن التكذيب أعم من الاستكبار؛ لأنَّ المكذب قد يكون مستكبراً وقد لا يكون.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ دليلٌ على أن الجنة في السماء.

اللطيفة الثالثة: كون السماء لها أبواب، وأنها تفتح للدعاء الصالح، وللأعمال الصاعدة و للأرواح الطيبة، وورد في النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، وهو أمرٌ ممكن أخبر به الصادق، فلا حاجة إلى تأويل، وهذا على قاعدة أهل السنة إذ الأصل في الكلام الحقيقة.

اللطيفة الرابعة: كون السماء كروية لا تقبل الخرق والالتام مما لا يتم له دليلٌ عند أهل السنة، وظاهر كلام أهل الهيئة جواز الخرق والالتام على الأفلاك، وهذا لا ينافي القول بالأبواب.

اللطيفة الخامسة: التضعيف في: ﴿لَا تُفْتَحُ﴾ لتكثير المفعول، لا الفعل لعدم مناسبة المقام.

والتاء في ﴿لَا تُفْتَحُ﴾ لتأنيث الأبواب، والتشديد لكثرتها لا لكثرة الفعل لعدم مناسبة المقام.

اللطيفة السادسة: في قوله: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ جواز فرض المحال.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١٣)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٧٦)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٥٩)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/٨٥).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٥)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٧٦)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٨٣، ٨٠، ٧٩).

اللطيفة السابعة: حُصَّ الجمل من بين سائر الحيوانات؛ لأنه أكبر الحيوانات عند العرب، فجسم الجمل أعظم الأجسام، وثقب الإبرة أضيق المنافذ، فكان ولوج الجمل في تلك الثقب الضيقة محالاً، فلما وقف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط، وكان هذا شرطاً محالاً، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محالٌ وجب أن يكون دخولهم الجنة مأبوساً منه قطعاً.

اللطيفة الثامنة: ختم الآية بقوله: ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ليؤذن أن الاجرام هو السبب الموصل إلى العقاب، وأن كل من أجرم عوقب، وقد كرره فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ لأن كل مجرم ظالم لنفسه، والمعنى: وكذلك الجزاء المتقدم، وهو عدم فتح أبواب السماء لهم، وعدم دخول الجنة، نجزي كل من اتصف بالإجرام من مبدأ الزمان إلى منتهاه^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

قال تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ولم يقل: دخول الجنة مع أنه أجلي وأبين تشديداً عليهم في العذاب؛ لأن الرجاء يتعلق بما هو معيماً بزمان، ولو كانت عاقبة لا يمكن كأنه يتطرق إمكانها، فإذا تعلق الرجاء بها على استحالتها عادة، ولم يقع ذلك؛ كان ذلك أشد على الراجي في حينه حسه مطعمه، وإنما قال: يلج الجمل، ولم يقل: الفيل وهو أكبر؛ لأن العرب إنما يعرفون الجمل، ومعنى الكلام من الآية أنهم لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في سم الخياط أبداً، وضرب المثل بهذا أبلغ في إيأسهم من إرسال الكلام وإطلاقه في النفي والعرب تضرب هذا للمبالغة. والجمل هو أكبر حيوان عند العرب، ولذلك يضربون به المثل في العظم، ومن ثم قال الله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فعلق ذلك على ما هو مُستحيل، وذلك لأنه علقه على ولوج أعظم الأشياء في أضيق الأشياء. فالتكذيب بآيات الله، والتكبر على الحق والخلق من موانع الدعاء ودخول الجنان، ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب، مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة، فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذ أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، فتقبل دعاءهم أو توبتهم، وقد فات الأوان وأن يدخلوا إلى جنات النعيم أمّا الآن، وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا وتلاوموا فيها وتلاعنوا، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء، ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء.

(١) الكشف: الزمخشري (٧٩/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/٨١، ٨٢)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٧٣/٢).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢٢٥/٢)، والنكت والعيون: الماوردي (٢٢٣/٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣٤٠/١)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٢٩١/٣).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(١):

١. تدلُّ الآية على أنَّ الأرواحَ إنّما تكون سعيدةً إمّا بأنَّ ينزل عليها من السماء أنواع الخيرات، وإمّا بأنَّ يصعد أعمال تلك الأرواح الى السموات، وذلك يدلُّ على أنَّ السموات موضعُ بهجة الأرواح، وأماكن سعادتها، ومنها تنزل الخيرات والبركات، وإليها تصعد الأرواح حال فوزها بكمال السعادات، ولما كان الأمرُ كذلك كانت الآية من أعظم أنواع الوعيد والتهديد.
٢. دقة التصوير البياني^(٢) في القرآن؛ حيثُ عبر عن المعنى الذهني بالصورة الحسية؛ فإنَّ الآية بطريقة التصوير الذهني تريد أن تقول إنّ الذين كفروا لن يدخلوا الجنة أبداً، ولكن أسلوب التصوير الحسي عرض الآية بهذه الصورة حيثُ ترك الإنسان يرسم بخياله صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الجمل في سَمَّ الخياط، لاستكمال الصورة، ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير ليستقر في النهاية معنى استحالة دخولهم الجنة في أعماق النفس، وقد وردَ إليها هذا المعنى من طريق العين والحس تخيلاً ومع وروده من طريق الذهن أيضاً.
٣. أنَّ التصوير البياني في القرآن هو لون جديد من ألوان البيان القرآني المعجز، إذ البيان هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة مع وضوح الدلالة عليه.
٤. خروج الكفار من نار جهنم أمرٌ مَيُوسُّ منه، ولا رجاءَ فيه^(٣).
٥. المعلق على المستحيل مستحيلٌ، استقيد من ذلك أنَّ دخول الكفار الجنة مستحيل^(٤).
٦. الكفر والطغيان والفساد سببُ إدخالِ النَّاسِ نارَ جهنم.
٧. الآية تصوير حسي مجسم لمعاني نفسية، تكاد العين تبصره، وهو ما يسمى ب التشخيص وهو من مواضع الجمال في القرآن، ووجه من وجوه الإعجاز البياني في القرآن^(٥).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٨١/١٤).

(٢) يقول يسد قطب: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة وحركة، وإذا النموذج الإنساني شاخصٌ حيٌّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية" ينظر: التصوير الفني في القرآن: سيد قطب(ص:٣٢)، والمعجزة والإعجاز في القرآن الكريم(ص:١٢٣).

(٣) التفسير المنهجي: جمال أبو حسَّان(٨٥/٣).

(٤) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين(٦٧٢/٢).

(٥) المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم: سعد الدين السيد صالح(ص:١٢٦).

المقصد السادس: وعيد الله للظالم ليس بظلم

دلُّ عليه قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

جَهَنَّمَ: وجهنم لفظة لا تتصرف لاجتماع التأنيث فيها والتعريف، واشتقاقها من الجهمة، وهي الغلظ، وسميت بهذا لغلظ أمرها في العذاب.

مِهَادٌ: المهاد جمع مهد، وهو فراشٌ مُسْتَقَرٌّ، وأصل المهد في اللُّغة الفَرَش. والمِهَادُ والمَهْدُ: المكانُ المُوَطَّأ، وذكره بلفظِ المِهَادِ تهكُّماً بهم أو على العكس من الكلام.

غَوَاشٍ: الغواشي: جمع غاشية، هي كلُّ ما يغشاك، وهي أغطيةٌ كاللُّحْفِ، والمِهَادُ: الفرش.

الظَّالِمِينَ: الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الربِّ بالمخالفة، والمعصية فيه أشدُّ من غيرها؛ لأنَّه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنَّما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنَّه لو استتار بنور الهدى لاعتبر، فاذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً، ولفظ (الظلم) بمعنى الكفر أو الشرك، وهذا هو الاستعمال الغالب في القرآن.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

إنَّ الله لما بيَّن من حال المكذِّبين والمستكبرين أنَّهم لا يدخلون الجنَّة البتة، بيَّن أيضاً في هذه الآية أنَّهم يدخلون النَّار.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

إنَّ لهؤلاء المكذِّبين المتكبرين من جهنم فراش يفترشونه، ولهم من فوقهم ظلُّ من العذاب تغاشهم، ومثل هذا الجزاء نجزي المتجاوزين لحدود الله بكفرهم به وإعراضهم عنه.

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٤):

اللطيفة الأولى: عبر في الآية بـ: ﴿لَهُمْ﴾ على جهة التهكم بهم، فهو إليهم لا لهم، والمهاد إنَّما يطلق في الأمر الملائم للحال الموصوفة؛ فإنَّ كانت حالاً حسنةً فهو دليلٌ على شدة حسنها، وإنَّ كانت قبيحةً فهو دليلٌ على شدة قبحها.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٨٢/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٢٠/٤). تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٤/٢)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٦٧/٦)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسَّان (٨٣/٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٥٣٥/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٢/١٤).

(٣) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٥).

(٤) تفسير ابن عرفة (٢٢٦/٢).

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿لَمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ فيه تشبيه؛ حيثُ شَبَّهَ المعنويات بصور المحسوسات؛ فَإِنَّ جَهَنَّمَ فِرَاشٌ لَهُمْ وَمَسْكَنٌ وَمَضْجَعٌ يَتَمَهَدُونَهُ، وهي لهم غواش: جمعُ غاشية، وهي ما يَغْشَى الإنسان، أي: يغطيه ويستتره من جهة فوق، فكأنَّ النَّارَ التي من تحتهم ومن فوقهم ومن جميع جوانبهم مثل الفراش المفترش، واللحاف الذي يَتَغَطَّى به النَّائم^(١).

اللطيفة الثالثة: تنوين لفظة: ﴿مِهَادٌ﴾ للتفخيم، وتنوين ﴿غَوَاشٍ﴾ عوضاً عن الحرف المحذوف أو حركته، والكسرة ليست للإعراب، وهو غيرُ منصرف؛ لأنَّه على صيغة منتهى الجموع^(٢).

اللطيفة الرابعة: قد وردَ أَنَّ سَقْفَ النَّارِ من نحاسٍ، وأرضها من رصاصٍ، وحيطانها من كبريتٍ، ووقودها النَّاسُ والحجارة^(٣).

اللطيفة الخامسة: قدم في الزمر لفظة ﴿فَوْقِهِمْ ظُلُلٌ﴾ وفي هذه الآيةٍ أخرج ﴿فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، وذلك أَنَّهُ هنالك روعي فيه لفظ المهاد، والمهاد غالباً يقتضي المكان الذي يمتهد عليه فهو تحت والظلال من تحت، فعذاب الله تلك أشد؛ لأنَّها نارٌ تحت المهاد^(٤).

اللطيفة السادسة: إنَّما عبر عنهم في الآية بـ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ تارة، وبـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أخرى إشعاراً بأنَّهم بتكذيبهم الآيات، اتصفوا بكلِّ واحدٍ من ذينك الوصفين القبيحين، وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنَّة، والظلم مع التعذيب بالنَّار الذي هو أشد من الحرمان المذكور تنبيهاً على أَنَّهُ أعظم الجرائم^(٥). والمشبه بالشيء لا يقوى قوته فدلَّ على أَنَّ عذاب هؤلاء أشد من عذاب الظالمين^(٦).

اللطيفة السابعة: عن النبيِّ (ﷺ) فيما يروي عن ربِّه أَنَّهُ قال: يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرماً، فلا تظالموا^(٧). وقوله (ﷺ) قال: "الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(٨).

(١) التفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٦٠).

(٢) روح المعاني: الألوسي (٨/١٧٧).

(٣) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٢/٦٧٣).

(٤) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٦).

(٥) روح المعاني: الألوسي (٨/١٧٨)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٨٣).

(٦) تفسير ابن عرفة (٢/٢٢٦).

(٧) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة. باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٠٧٧).

(٨) أخرجه البخاري في كتاب المظالم. باب الظلم ظلمات يوم القيامة، حديث رقم (٢٤٤٧)، (ص: ٢٨٧).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

يخبر الله في هذه الآية أنّ لهؤلاء المجرمين من نار جهنم فراش يفترشونه من تحتهم، وأعطية من فوقهم، والمراد أنّ النار محيطة بهم، مطبقة عليهم من كل جانب، كما قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] وقال: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي الظالمين أنفسهم وغيرهم من الناس، وهذا دليل على أنّ المجرمين والظالمين هم الكافرون، لقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] إنّ هذا الجزاء الحاسم للكفار يتطلب التأمل والاعتبار والاتعاض، فلا يقبل لهم عمل صالح في الآخرة؛ لأنّ قبول العمل مرتكز على قاعدة صحيحة هي الإيمان والتقوى، والله إنّما يتقبل من المتقين، ويقبل العمل الصالح لا الفاسد، ويرفع إليه الكلم الطيب لقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. ولقائل أن يقول: إن كان المراد من قوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: حصل لكلّ أحدٍ من العذاب ضعف ما يستحقه، فذلك غير جائز؛ لأنّه ظلم، وإن لم يكن المراد ذلك فما معنى كونه ضعفاً؟ والجواب: أنّ عذاب الكفار يزيد، فكلّ ألم يحصل فإنّه يعقبه حصول ألم آخر إلى غير نهاية، فكانت تلك الآلام متضاعفة متزايدة لا إلى آخر، ثم بيّن الله تعالى أن أخراهم كما خاطبت أولاهم فذلك تجيب أولاهم أخراهم فقال: وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل أي: في ترك الكفر والضلال، وأنا متشاركون في استحقاق العذاب.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهداف وهدايات^(٢):

١. أنّ المتأمل في إعداد المهاد والغواشي لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة.
٢. أنّ المراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب، فلم منها غطاء ووطاء، وفراش ولحاف، فالنار محيطة به من جميع الجوانب.
٣. أنّ النظر في أخبار المستكبرين وسيرهم مما يخوف النفس البشرية ويحملها على التوبة خشية أن تصير إلى نفس المصير^(٣).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٧٩/١٤)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (١/٦٦٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٢/١٤)، وروح المعاني: الألوسي (٨/١٧٨، ١٧٧).

(٣) آفات على الطريق: السيّد محمد نوح (ص: ١٨١).

المطلب الثاني: الجنة سلعة الله غالية

وفيه مقصد واحد: التكليف بالمحال ممتنع؛ فإنَّ الدِّينَ يسرُّ وطريق الجنة سهلٌ ويدلُّ على هذا المقصد الشريف قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا

إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال

الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، والعرب تطلق لفظة الصالحة على الفعلة الطيبة.

إِلَّا وُسْعَهَا: معنى الوسع: ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة، لا في حال الضيق

والشدة، فالوسع: ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمر، دون ما يضيق به ذرعاً، وأمَّا أقصى

الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً، والوسع الجدة والطاقة كالسعة، والجهد الطاقة والمشقة، والجهد

المشقة، والمبالغة والغاية، والوسع والطاعة، فقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلف أحداً

بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه.

أُولَئِكَ: اسم إشارة، وفيه من معنى البُعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف.

هُم فِيهَا خَالِدُونَ: أي: لا يحولون عنها، ولا يبيغون بها بدلاً؛ لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات،

وأصناف المشتبهات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه، فالخلود في الجنة بقاء الأشياء

التي عليها من غير أعراض فسادٍ تكون عليها.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنَّ الذين آمنوا برَّبِّهم وعملوا من الأعمال الصالحة ما يستطيعون، ولا يكلف الله نفساً

فوق ما تستطيعه، أولئك أصحاب الجنة يدخلونها ماكثين فيها أبداً.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٥٢٠)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٤)، وروح

المعاني: الألوسي (٨/١٧٨)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/٨٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٦٦١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٣)، والتفسير الوسيط:

وهبة الزحيلي (١/٦٦١)، وصفوة التفاسير: الصابوني (١/٤٤٦).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٥).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

لما ذكر الله حال الأشقياء وما أعدّه لهم في الآخرة في الآية السابقة عطف في هذه الآية بذكر حال السعداء ومآلهم؛ فإنّ الله لما استوفى الكلام في الوعيد أتبعه بالوعد، أي: إنّ الله لما ذكر وعيد الكافرين، وعقاب العاصين أتبعه بذكر وعد المؤمنين، وذكر ثواب المطيعين على حكم عادته تعالى في كتابه، ولما كان قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، فقال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعملها في هذه الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها.

رابعاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٢):

اللطيفة الأولى: جاء قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة اعتراضية، للتنبيه على أنّ الجنّة مع عظم مكانها، يسهل الوصول إليها، فقاعدتها الإيمان الصحيح، وطريقها العمل الصالح المؤدي إلى الجنّة، وهو أمر سهل هين على النفوس، لا مشقة فيه ولا حرج، ولا زيادة فيه على مقدور الإنسان وللتغريب في اكتساب ما لا يكتننه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر؛ فائدتها التنبيه على أنّ ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه للكفار على أنّ الجنّة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة، والتغريب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله، وتيسير تحصيله، والذي حسّنه سبق العمل الصالح، أي وإذ علم أنّ مبنى التكليف على الوسع، زادت الرغبة في ذلك الاكتساب، لحصوله بما فيه يسر لا عسر.

خامساً: بيان المقصد في الآية:

أ- عادة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد^(٣):

إنّ أسعد ما يفرح قلوب العاملين في الدنيا والآخرة هو الظفر بالأجر والثواب؛ لأنّ العدل يقتضي ذلك، ولأنّّه يشعر العامل أنّ عمله محفوظ محترم، وثمره جهوده لم تضع سدى، ولهذا

(١) التفسير الكبير: الرازي (٨٣/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣١٢/٢١٥، ٤/٢)، وصفوة التفسير: الصابوني (٤٤٦/١)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٦٧٣/٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٣).

(٢) الكشف: الزمخشري (٧٩/٢)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (٦٦١/١)، وصفوة التفسير: الصابوني (٤٤٦/١)، وروح المعاني: الألوسي (١٧٨/٨)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٨٤/٧).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٦٦١)، والتفسير الوسيط: وهبة الزحيلي (٦٦١/١).

تكرر في القرآن الإخبار بمكافأة العاملين، والوعد بأحسن المنازل، والجزاء في الدار الآخرة بجنان الخلد التي تجري من تحتها الأنهار؛ لذلك فقد جرت سنة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، فبعد أن ذكر الله وعيد الكافرين والعصاة، أتبعه بوعد المؤمنين الطائعين، وهذه الآية وعد وإخباراً قاطعاً بأن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة، ولهم الخلد فيها، والموعودون هم الذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات، بامثال الأوامر واجتتاب النواهي، فهم أهل الجنة دون سواهم، وهم المخلدون فيها أبداً، وتجري الأنهار من تحت غرفهم وبساتينهم النضرة، ودلت الآية على أن العمل لا يكون صالحاً إلا بثلاثة أمور: الأول: أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي، فكل عمل مخالف لما جاء به النبي فليس بصالح، بل هو باطل، الثاني: أن يكون العامل مخلصاً في عمله لله فيما بينه وبين الله، الثالث: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة.

ب- التكليف بالمحال ممتنع^(١):

ذهب جمهور الأصوليين إلى أنه لا يصح التكليف بالمستحيل؛ لأن الله أخبر بعدم وقوع التكليف بما لا يطاق، ولأن من شروط صحة التكليف بالفعل أن يكون المكلف به ممكناً، بحيث يستطيع المكلف أن يفعله أو يتركه، وذلك أن مجال التكليف الشرعي الأفعال التي لا تخرج عن طاقة المكلفين ووسعهم، ثم إن المقصود من التكليف امتثال المكلف، فإذا كان المكلف به مستحيلاً تعذر على المكلف الامتثال، وحينئذ يكون التكليف عبثاً، والله منزّه عن العبث، وذهب بعض العلماء إلى جواز التكليف بالمستحيل، لكن أدلتهم ضعيفة، مخالفة لصريح القرآن، وحاصل المسألة ما أشار إليه أهل السنة أن قبح التكليف بما لا يطاق معلوم بالضرورة، فلا يحتاج إلى استدلال، والمجوز لذلك لم يأت بما ينبغي الاشتغال بتحريه، والتعرض لرده؛ فإن أكثر أصحاب المعاني على أن قوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر، والتقدير: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر؛ لأنه من جنس هذا الكلام، لأنه لما ذكر عملهم الصالح ذكر أن ذلك العمل في وسعهم غير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل السهل من غير تحمل الصعب، وهذا يدل على بطلان مذهب من قال: إن الله كلف العبد بما لا يقدر عليه؛ لأن الله كذبهم في ذلك؛ ولما دلت هذه الآية على نفي التكليف بما لا يطاق ثبت فساد هذا القول، فقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: ما يسعها من الأعمال، وما يسهل عليها ودخل في طوقها وقدرتها، وكل هذا تفضل من الله، وهذه الجملة اعتراض، حكمته تبييت الكفار، وتنبههم على أن الجنة مع عظم قدرها يتوصل

(١) حصول الشرط الشرعي وما يترتب عليه: ماهر حامد الحولي (ص: ٢٠٦). بحث محكم ضمن مجلة الجامعة الإسلامية . غزة، المجلد الثالث عشر . العدد الثاني (ربيع أول ١٤٢٦ هـ . حزيران ٢٠٠٥ م).

إليها بالعمل السهل من غير كلفةٍ ولا مشقةٍ، فإن قيل: وردَ أنَّ الجنَّةَ حُفَّت بالمكاره، فكيف يقال: إنَّ الجنَّةَ يتوصل إليها بالعمل السهل؟ أُجيب بأنَّ المراد بالمكاره مخالفة شهوات النفس، وهي في طاقة العبد، فالمراد بالعمل السهل ما كان في طاقة العبد كان فعلاً أو تركاً^(١). فكلُّ التكليف شاقَّةٌ على النفوس، وإنَّما الرحمة الإلهية كانت في عدم تكليف النفوس فوق طاقتها، وحيثُ قد أمر الله بالإيمان والعمل الصالح علم أنَّ في تحصيله في مقدور العبد^(٢)، فإنَّ تكليف ما لا يُطاق باطل^(٣). فإنَّ الإسلام لا يكلف إلا ما يستطيع، ويمكن الاستمرار على أدائه، فالتكليفات الشرعية في جملتها يمكن أداؤها، ويمكن الاستمرار على ما يكون فيها من مشقة؛ لأنَّ المصلحة التي تتحقق في التكليفات الشرعية لا تكون إلا بالاستمرار عليها، ولذلك كانت المشقة فيها مما يعتاد تحمله، وإذا كانت هناك تكليفات فوق المشقة المعتادة، كالجهد في سبيل الله فهي ليست على كلِّ النَّاس، وليست مما يطالبون به باستمرار، وكان الاستمرار على التكليفات التي تكون مشقتها معتادة محتملة مقصداً من مقاصد الشرع؛ لأنَّ في ذلك الاستمرار مداومة على الطاعة، كما أنَّ الاستمرار على اليسير السهل يؤدي إلى القدرة على الكبير؛ ولهذا جاءت النصوص الدينية الكثيرة تدعو إلى طلب السهل الميسر، وتجنب الشاق المتعب، والنتيجة التي تستنبط من هذا السياق أنَّ الأحكام الإسلامية تتجه إلى تحقيق المصلحة الحقيقية، ولا تتجه إلى ما سواها، وتيسر على النَّاس أسباب الطاعة، والمداومة عليها ليكون المؤمن في تهذيب ديني مستمر؛ لذلك قال الله مخبراً عن يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] واللطيفُ في صفات الله بمعنى الرفيق بعباده حيثُ لم يكلفهم إلا ما يطيقون، والحجَّة على العباد إنَّما تقومُ بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به، فأما العاجزُ عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، والتكفير له شروطٌ وموانعٌ قد تنتقي في حقِّ المعين، كما أنَّ تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه، إمَّا لعدم تمكنه من العلم: مثل أنَّ لا تبلغه الرسالة أو لعدم تمكنه من العمل، لم يكن مأموراً بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقِّه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل؛ بمنزلة صلاة المريض وسائر أهل الأعدار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة، فإنَّ صلاتهم صحيحةٌ بحسب ما قدروا عليه، وقوله: ﴿الْجَنَّةُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو تمام السعادة؛ فإنَّهم مع هذا النعيم في مقام أمينٍ من

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٤، ٨٣)، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٢/٦٧٣).

(٢) لغة القرآن الكريم: عبد الجليل عبدالرحيم (ص: ٧٤)، وشرح المنظومة الحائية: صالح الفوزان (ص: ٥٣).

(٣) الموافقات: الشاطبي (٣/٢٠٩)، ومناهج اللغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٤٣٦).

الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمدٍ أبديٍّ على الدوام؛ فالمؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً^(١).
سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. يؤخذ من الآية عدم التكليف بغير المستطاع؛ فإنَّ الإسلام لا يأمر بالمستحيل، ومن القواعد الأصولية في الفقه الإسلامي: لا تكليف إلا بمقدور، أو لا تكليف بمستحيل.
٢. في الآية دليلٌ على أنَّ القادر على الشيء يطاق وسعه بلا شك.
٣. دلت الآية على أنَّ تكليف الإنسان بما لا يُطاق قبيح.
٤. دلت هذه الآية على نفي التكليف بما لا يطاق، وهذا من كمال التخفيف.
٥. مما تضمنته الآية بيان القاعدة العظيمة المتضمنة رفع الحرج عن الأمة في التشريع؛ إظهاراً لكمال رحمة الله للأمة، وتكريماً لها بعد كمال استجابتها، وإبرازاً لكمال دين الإسلام، بعثاً للنفوس على إكماله وتحذيراً من تركه وإهماله.
٦. أنه لا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.
٧. ينبه الله في هذه الآية على أنَّ الإيمان والعمل به سهلٌ، فالآية ترغيب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر تحصيله.
٨. أنَّ الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحُجَّة، وإزالة الشبهة، والجاهل معذور.
٩. غلبة الجهل الآن وبعْد العهد بآثار النبوة عذْر شرعيٍّ في عدم تكفير صاحب المعصية.
١٠. أنَّ التكاليف الشرعية كلها في وسع النَّاس رحمةً من الله تعالى.
١١. أنَّ الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره.
١٢. أنَّ من عادة الله تعالى أنَّ يشفع الوعيد بالوعد في كتابه^(٣).

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢٤/٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٧٨/١٢)، (٥٩/٢٠)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٦٣/١)، وصفوة التفسير: الصابوني (٤٤٦/١)، وتاريخ المذاهب الإسلامية: محمد أبو زهرة (ص: ٣١٨)، والحكم بغير ما أنزل الله: خالد العنبري (ص: ٤٠).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢٢٦/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (٨٤/١٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٢٧/١١)، وأصول الدعوة: عبد الكريم زيدان (ص: ٨٩)، والوصايا العشر في القرآن الكريم: عبد الحميد كشك (ص: ١٠٠)، وثلاثون مجلساً في التدبير: اللجنة العلمية في مركز تدبير (ص: ٣١).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٣٩/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢١٥/٢)، وروح المعاني: الألوسي (١٧٨/٨)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٣)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٢٣٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٤٩)، والحكم بغير ما أنزل الله: خالد العنبري (ص: ١٨، ٢٤).

المبحث الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٣-٤٦)

الهداية أعظم نعمة ومقصود

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الغلُّ مرضٌ مدمرٌ للمجتمع المسلم.

المطلب الثاني: وعد الله تعالى حقٌّ.

المطلب الثالث: أهل الأعراف مآلهم إلى الجنة.

المطلب الأول: الغلُّ مرضٌ مدمرٌ للمجتمع المسلم

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: الجنة دار سعادةٍ ومحبةٍ

دلُّ عليه قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَنَزَعْنَا: النزع حقيقته جذب الشيء واقتلعه من موضعه، وعن مكانه، ونزع الغلُّ من قلوب أهل الجنة هو إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغلِّ عند تلقي ما يسوء من الغير، بحيثُ طَهَّرَ اللهُ نفوسهم في حياتها العليا عن الانفعال بالخواطر الشرية، فزال ما كان في قلوبهم من غلِّ بعضهم من بعض في الدنيا، وأزال الغلُّ التي في النفوس البشرية بحيثُ لا يخطر في نفوسهم. مَا فِي صُدُورِهِمْ: أطلقت الصدور على ما تحتويه من قلوبٍ ونفوسٍ وأفئدةٍ وألباب.

غِلٌّ: الغلُّ هو الذي يغل بلطفه إلى صميم القلب، أي: يدخل، ومنه الغلول: وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة، ويقال: تغلغل في الشيء، إذا دخل فيه بلطفة، كالحب يدخل في صميم الفؤاد، والغل الحقد والإحنة والضغن، التي تحصل في النفس عند إدراك ما يسوؤها من عمل غيرها، وليس الحسد من الغلِّ بل هو إحساس باطني آخر. والمعنى: أن الله كما خلصهم من الحقد والحسد فقد أنعم عليهم بالذات العظيمة، وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: من رحمة الله وفضله وإحسانه تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادةً في نعيمهم.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تخبر الآية الكريمة أن الله طهر قلوب أهل الجنة من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف، فمن كان في صدره غلُّ لأخيه في الدنيا نزع منه في الجنة، وصاروا إخواناً أحبباً، وهذه منحة يمنحهم الله إياها فوق منحتي دخول الجنة، ومشاعر الخلود فيها، وهي منحة إراحة قلوبهم ونفوسهم من كلِّ ما يُعكِّرُ صفو سعادتهم من غلِّ، ثم قال تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: ومما يكرمهم الله به من نعيم أن الأنهار المتنوعة تجري من تحتهم في الجنة. وقد تكرر في القرآن العظيم وصفُ جنَّة الخلد بأنها تجري من تحتها الأنهار؛ إذ لا كمال لجنَّة بدون أنهارٍ تجري.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٥، ٨٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٣١)، ومعارج التفكير

ودقائق التدبير: الميداني (٤/٢٣٤)، وصفوة التفسير: الصابوني (١/٤٤٦).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبي (١/٣٠١)، وصفوة التفسير: الصابوني (١/٤٤٦)، ومعارج التفكير

ودقائق التدبير: الميداني (٤/٢٣٣).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطفية الأولى: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ للتنبية على تحقق وقوعه في المستقبل، أي: ونزع ما في صدورهم من غلٍ، فصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت. وأيضاً في قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعبيراً بالماضي مراداً به المستقبل، وهذا القول يقولونه بينهم في مجامعهم على معنى التَّوَرَّبِ إلى الله بحمده، وهو تعبيرٌ معروفٌ في القرآن.

اللطفية الثانية: كلمة: ﴿الْأَنْهَارُ﴾ معرفة بـ(أل) التعريف للدلالة على كمالها، ف(ال) هنا للكمال.

اللطفية الثالثة: قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ في موضع الحال، أي: هم في أمكنة عالية تشرف على أنهار الجنة.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

من تمام نعيم المؤمنين في الجنة أن نزع الله ما في قلوبهم من البغضاء والحقد، وأن أجرى الأنهار من تحتهم، ولهذه الآية تأويلان: الأول: أن يكون المراد أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا، ومعنى نزع الغل: تصفية الطباع وإسقاط الوسواس ومنعها من أن ترد على القلوب؛ فإن الشيطان لما كان في العذاب لم يتفرغ لإلقاء الوسواس في القلوب. والثاني: أن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان، فإله أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة، فالآية تخبر أن من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضاً، حتى تصفو قلوبهم، ويود بعضهم بعضاً؛ فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة؛ لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر، والغل: هو الحقد الكامن في الصدور، ونزع الغل في الجنة أيضاً أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل، وقد قيل: إن ذلك يكون عن شراب الجنة، ولهذا قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: يطهر الأوضار من الصدور، فالغل كل ما يدخل في الصدور من عداوة، وضغن، وحقد، وحسد، وبغض، وغش، وإرادة سوء بالآخرين، فالذين يُثبِّههم الله بدخول الجنة ينزع ما في صدورهم من عوامل العداة التي تغلغت إلى باطنها في الدنيا، فلا يجدون في صدورهم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبى (٣٠١/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٣١/٨، ١٣٢)، وصفوة

التفاسير: الصابوني (٤٤٦/١)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٢٣٤/٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٥/١٤)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢٠٨/٧)، وفتح القدير:

الشوكاني (٢٩٠/٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٥)، ومعارج التفكير ودقائق

التدبر: الميداني (٢٣٣/٤).

غلاً على أحد، بل يُطهرهم الله من كلِّ الأرجاس النفسية، وكلِّ ما يُكدرُّ بهم، ويُعكر صفوهم، وهذه سعادة راحةٍ من الأعماق.

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. نزع الغلِّ من صدور البشر من كُبريات عناصر السَّعادة الاجتماعية.
٢. تدلُّ الآية على أنَّ هذا النزاع هو اقتلاع يكون من الجذور، فتخلو فطرثهم من كلِّ العوامل التي تُحدث في الصدور غلاً، يُفسد عليها مشاعر سعادتها بما تصيب من نعيم.
٣. هذا الآية في مقابلة ما ذكره الله من تبري بعض أهل النَّار من بعضٍ ولعن بعضهم بعضاً، ليعلم أنَّ حال أهل الجنَّة في هذا المعنى أيضاً مفارقة لحال أهل النَّار
٤. أنَّ الله وعد بإزالة الحقد والحسد عن القلوب، وما وعد بإزالة شهوة الأكل والشرب عن النفوس.

المقصد الثاني: الحمدة حقُّ محضٌ لله تعالى

ويدلُّ على هذا المقصد الشريف قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا

أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

الحَمْدُ لله: هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ مع المحبة والتعظيم، وهذا ثناءٌ على الله بالكمال، والحمدُ لغةً: الثناء والوصف على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل. وعُرفاً: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب، و(أل) في ﴿الحَمْدُ لله﴾ للاستغراق، أو الجنس، أو العهد، أي: كلُّ الحمدِ مستحقٌّ، أو جنسه مختصٌّ ومملوكٌ ﴿الله﴾ وعلامة (أل) الجنسية إذا تعقبته (لام) الاختصاص كان المعنى: جنس الحمد مختصٌّ ومملوكٌ ﴿الله﴾ وإن كانت (أل) للعهد، فالمعهود ثناء الله على نفسه، وثناء ملائكته ورسله وأنبيائه وخواص خلقه، ولا نظر لغير ثنائهم، واللام في ﴿الله﴾ للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص.

لَوْلَا: كلمة تدلُّ على انتفاء الشيء لثبوت غيره، وهي مركبةٌ من (لو) الدالة على انتفاء الشيء لانتهاء غيره، و(لا) النافية، و﴿لَوْلَا﴾ عند العرب تجيء على ثلاثة أوجهٍ: أحدها: أن تدخل على جملة لتربط امتناع الثانية بوجود الأولى، والثاني: أنَّها تجيء للحض: وهو طلب بحث

(١) التفسير الكبير: الرازي (٨٥/١٤)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٢٣٤/٤).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٥/٣، ١٥٤/١٥٦٧)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٣٧/١)، ومعني المحتاج: الخطيب الشربيني (٢٩/١)، والفتوحات الإلهية: الجمل (٣/٢) والشرح الممتع على زاد المستنقع: محمد بن صالح العثيمين (٣/٤٢، ٩٢).

وازعاج، وللعرض: وهو طلب بلين وأدب، والثالث: أنها تجيء للتوبيخ والتندم^(١). فهي حرف امتناع لوجود، أي: امتناع الجواب لوجود الشرط، ويلزم حذف الخبر بعدها. هَدَانَا: هدى: الهداية دَلَالَةٌ بِلُطْفٍ، والهدى شرعاً: الإرشاد إلى ما فيه صلاح. والمراد بهدّي الله إياهم إرساله محمداً إليهم فأيقظهم من غفلتهم فاتَّبَعُوهُ، ولم يعاندوا، ولم يستكبروا، مع ما يسر الله لهم من قبولهم الدَّعوة وامتثالهم الأَمْرَ، فإنَّه من تمام المِنَّة المحمود عليها، فإنَّ حاجة العبد إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق؛ لأنَّ الهدى التام أعظم ما يحصل به الرزق والنصر^(٢). والهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرُّسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق. بِالْحَقِّ: تدور مادة حقق في العربية على أصلٍ واحدٍ، وهو إحكام الشيء وصحَّته، والحقُّ نقيض الباطل، وفي أسماء الله: (الْحَقُّ) وهو الموجود حقيقةً المتحقَّقُ وجوده والهيئته. والمعنى: ويظهرُ صدقُ ما جاءت به الرُّسلُ، من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد^(٣).
ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٤):

بيَّنت الآية السابقة أنَّ أهل الجنَّة يشنَّد فرحهم بالهبات الثلاث لهم وهي: تملِكُهُم حظوظهم من الجنَّة تَمليكَاً أبدياً، وإراحة قلوبهم ونفوسهم من كلِّ ما يعكر صَفوَ سعادتهم، فلا يجدون فيها غِلاً على أحدٍ، وإسعادهم بالأَنْهار العظيمة التي يتتعمون بما فيها من شراب مختلف الأنواع والأصناف، وبمشاهدة جريانها، عندئذٍ تنطلق ألسنتهم بالثناء العظيم حتى الغاية القصوى على الله الذي هداهم في الدُّنيا الصراط المستقيم، الذي أوصلهم بفضلِهِ إلى هذا النعيم المقيم، وتنطلق ألسنتهم بإعلان أنَّ رَسَلَ رَبِّهم قد جاءوا بالحقِّ، وفي هذا الإعلان تمجيدٌ لرسل الله.
ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٥):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اختار الجملة الاسمية الدَّالة على الدوام والثبات على الجملة الفعلية الدَّالة على التجدد والحدوث؛ لأنَّه مع كونه على نسق الكتاب العظيم أليق بالمقام، وتفاوتاً بذلك، وهي وإن كانت خبرية لفظاً، فهي إنشائية معنىً.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٧/٨٦)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الطبي (٤/٥٥)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص: ٢٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٣٩)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم

الجوزية (١/٥٠)، ومن أسرار اللُّغة في الكتاب والسُّنة: محمود الطناحي (١/٤٠٣).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٨٣٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١/٢٢٥)، (٨/١٣٢)

(٤) معارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٤/٢٣٥).

(٥) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٣٧).

اللطيفة الثانية: اختار مادة الحمد؛ لاشتماله على الحاء الحلقية، والميم الشفوية، والدال اللسانية في استعمالها بالثناء على ربّ البرية، حتى لا يخلو مخرج من نصيبه من ذلك بالكلية^(١).

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ في موضع الحال، أي: هداانا في هذه الحال حال بعدنا عن الاهتداء، وذلك ممّا يؤذن بكبر منّة الله عليهم، وتعتظيم حمدهم وتجزيله، ولذلك جاءوا بجملة ﴿الْحَمْدُ﴾ مشتملة على أقصى ما تشتمل عليه من الخصائص الحميدة، وهذه الآية تعليل منهم للحمد، والتنويه بأنّه حمدٌ عظيمٌ على نعمة عظيمة؛ فإنّهم كانوا منغمسين في ضلالاتٍ قد رسخت في أنفسهم، فأما قادتهم فقد زينها الشيطان لهم حتى اعتقدوها وسئوها لمن بعدهم، وأما دهماؤهم وأخلافهم فقد رأوا قوتهم على تلك الضلالات، وتأصلت فيهم، فما كان من السهل اهتداؤهم، لولا أنّ هداهم الله ببعثة الرّسل وسياستهم في دعوتهم، وأنّ قذف في قلوبهم قبول الدّعوة.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ جملة مستأنفة، استئنافاً ابتدائياً، وهي من قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرّسل عياناً لصدورها عن ابتهاج نفوسهم واغتيالهم بما جاءتهم به الرّسل، فجعلوا يتذكّرون أسباب هدايتهم ويعتبرون بذلك ويغضبون، تلذذاً بالتكلم به؛ لأنّ تذكر الأمر المحبوب والحديث عنه ممّا تلذّ به النفوس، مع قصد الثناء على الرّسل.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ﴾ أكدّ الفعل بلام القسم وب (قد) مع أنّهم غير منكرين لمجيء الرّسل لأنّه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرّسل من النّعيم لما وجدوه، ولأنّهم أرادوا بقولهم هذا الثناء على الرّسل والشّهادة بصدقهم جمعاً مع الثناء على الله، فأتوا بالخبر في صورة الشّهادة المؤكدة التي لا تردد فيها.

اللطيفة السادسة: إثبات الصفات الاختيارية لله هي من تمام حمده، فمن لم يُقر بها لم يمكنه الإقرار بأنّ الله محمود البتة، ولا أنّه ربّ العالمين، فإنّ الحمد ضدّ الذم، والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له، والذم هو الإخبار بمساوئ المذموم مع البغض له، وجماع المساوئ فعل الشر، كما أنّ جماع المحاسن فعل الخير، فإذا كان يفعل الخير استحق الحمد، فمن لم يكن له فعل اختياريّ يقوم به، بل ولا يقدر على ذلك لا يكون خالقاً ولا ربّاً للعالمين.

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمدٌ مطلق؛ فإنّ ﴿الْحَمْدُ﴾ اسم جنس، والجنس له كمية وكيفية، فالثناء كميته، وتكبيره وتعظيمه كفيته، والمجد هو السعة والعلو فهو يعظم كفيته وقدره وكميته المتصلة وذلك أنّ هذا وصف له بالملك، والملك يتضمن القدرة وفعل ما يشاء^(٢).

(١) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (٣٧/١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٦/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٥٩/٦، ٢٦٦)، والتحرير والتنوير: الطاهر

ابن عاشور (١٣٣/٨، ١٣٢).

رابعاً: بيان المقصد من الآية^(١):

الحمد: وصف المحمود بالكمال مع محبته وتعظيمه، فيقال: حَمِدَ فلانٌ ربّه، أي: وصفه بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه، وأنّه ذو احترام في قلبه، وبهذا يُعرف الفرق بين الحمد والمدح؛ فإنّ المدح: وصف الممدوح بالكمال، أو بالصفات الحميدة، لكن لا يلزم منه أن يكون محبوباً معظماً، فقد يمدحه من أجل أن ينال غرضاً له، وقد يمدحه من أجل أن يتقي شره، لكن: الحمد لا يكون إلا مع محبة وتعظيم. وبهذا يُعرف قوة سر اللّغة العربيّة، حيث إنّ الحروف واحدة (حمد) و(مدح) لكن لما اختلف ترتيب الحروف اختلف المعنى، وأمّا مَنْ عرف (الحمد) بأنّه: الثناء بالجميل الاختياري، فهذا قاصر؛ لأنّ الثناء أخصُّ من المدح؛ ولأنّ الثناء هو مدحٌ مكرّر يفرق بين الحمد والثناء. ولأنّ الثناء بالجميل الاختياري يخرجُ الحمد على كمال الصفات اللازمة؛ التي لا تتعدى كالعظمة والكبرياء، والله تعالى محمود على صفات الكمال اللازمة، وصفات الكمال المتعدية، فهو محمودٌ على كماله ومحمودٌ على إحسانه سبحانه. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أحق ما قال العبد، وهذا يقتضي أن يكون حمد الله أحق الأقوال بأن يقوله العبد، وما كان أحقُّ الأقوال كان أفضلها وأوجبها على الإنسان، ولهذا افترض الله على عباده في كلّ صلاةٍ أن يفتتحوها بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وأمرهم أيضاً أن يفتتحوا كلّ خطبةٍ بـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فأمرهم أن يكون مقدماً على كلّ كلامٍ، سواء كان خطاباً للخالق أو للمخلوق، ولهذا يقدم النبي (ﷺ) الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة، ولهذا أمرنا بتقديم الثناء على الله في التشهد قبل الدعاء. وجملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبرية لفظاً إنشائيةً معنويةً؛ لحصول الحمد بالتكلم بها مع الإذعان لمدلولها، ويجوز أن تكون موضوعاً شرعاً للإنشاء، و﴿الْحَمْدُ﴾ مختص بالله، كما أفادته الجملة، سواء أ جعلت فيه (أل) للاستغراق كما عليه الجمهور، وهو ظاهرٌ، أم للجنس؛ لأنّ لام الله للاختصاص فلا فرد منه لغيره تعالى، وإلا فلا اختصاص لتحقق الجنس في الفرد الثابت لغيره، أم للعهد على معنى أنّ الحمد الذي حمد الله به نفسه، وحمده به أنبياءه وأوليائه مختصٌّ به، والعبرة بحمد من ذكر فلا فرد منه لغيره. جاء في أسماء الله (الحميد)، وهو المحمود على كلّ حالٍ، في جميع أقواله وأفعاله وشرّعه وقدره، والحمد أعمُّ من الشكر؛ لأنّ المرء يحمّد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكّره على صفاته، الحمد نوعٌ، والشكر جنسٌ، فكلُّ حمدٍ شكرٌ، وليس كلُّ شكرٍ حمداً. وفي لسان السلف لا يعرف الحمد لفلانٍ، فقولنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حقٌّ لله، فلا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله، فهذا اللفظ صار كالمعتين لجهة الربوبية المقدسة، وعلى ذلك اطراد

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٦٦/٦)، والشرح الممتع على زاد المستقنع: محمد بن صالح العثيمين (٩٩/٣)، ومعني المحتاج: الخطيب الشربيني (٢٩/١)، ومن أسرار اللّغة في الكتاب والسنة: محمود الطناحي (٤٢٥/١).

استعمال السلف والخلف، وعليه فالحمد لفلان ينهى عنه؛ لاختصاصه بالله^(١). والحمد كلمة جامعة تدلُّ على ذكر الخالق المحمود بكمالاته الحسنة الجميلة على سبيل التعظيم والتكبير. فقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كلُّ الحمد لله الذي يعلمه الله هو الله استحقاقاً ذاتياً أصلياً؛ إذ له تعالى كلُّ صفات الكمال التي تستحقُّ كلَّ عبارات الحمد الذي لا نهاية لحدوده، نظراً إلى أنَّ صفات الكمال لله تعالى وعظم سلطانه لا نهايات لها^(٢). ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾^(٣). فالهداية أعظم نعمة ومطلوب، ومقدمة على نعمة الخلق.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ:

١. الآية دليلٌ على أنَّ المهتدي من هداه الله، وإن لم يهده الله لم يهتد^(٤).
٢. أنَّ الألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد، وهو ثناء على الله تعالى^(٥).
٣. في الآية تنويهٌ بأنَّه حمدٌ عظيمٌ على نعمةٍ عظيمةٍ^(٦).
٤. دلت الآية على أنَّ أهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنةً، شهدوا أنعم الله عليهم بها، وأنَّه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين، وجعلهم يقيمون الصلوة، وألهمهم التقوى، وأنَّه لا حول ولا قوة إلا بالله، فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى، وإذا فعلوا سيئةً استغفروا الله وتابوا إليه منها، وأمَّا أهل الغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم الله عليهم بها، فأهل البغي عند الطاعة قديرون، وعند المعصية جبريون^(٧).
٥. أنَّ الهداية أجلُّ المطالب، ونيلُهُ أشرف المواهب، وأنجح الرغائب^(٨).
٦. أنَّ الإنسان مأموراً بأنَّ يشهد الربوبية عند فعل الطاعات وحصول النعم حتى يشكر الله عليها؛ إذ هو المتفضل بها عليه بلا استحقاقٍ^(٩).

(١) معجم المناهي اللفظية: بكر أبو زيد (ص: ٢٣٨).

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٤/٢٣٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤/٣١٤).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٦).

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٩).

(٦) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٣٣).

(٧) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٨٥).

(٨) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (١/٧٢).

(٩) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية (١/د).

المقصد الثالث: الجنة ميراث للمسلمين خالص وهي فضل محض من الله، وشكر المنعم واجب يدل على هذا المقصد قوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَنُودُوا: النداء إعلان الخطاب، وهو أصل حقيقته في اللغة، ويطلق النداء غالباً على دعاء أحد ليقبل بذاته أو بفهمه لسماع كلام.

الْجَنَّةُ: الجنة: اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمسكن والقصور، وهي جنات كثيرة. والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيماً، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم.

أُورِثْتُمُوهَا: الإرث حقيقته مصير مال الميت إلى أقرب الناس إليه، والمعنى: أعطيتموها عطية هنيئة لا تعب فيها ولا منازعة. فيه قولان: الأول: أن معناه: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله، والإرث قد يستعمل في اللغة ولا يراد به زوال الملك عن الميت إلى الحي، ومنهم من يقول: إنهم أعطوا تلك المنازل من غير تعب في الحال فصار شبيهاً بالميراث، والقول الثاني: أن أهل الجنة يورثون منازل أهل النار.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

صلة هذه الآية بما قبلها متسقة وواضحة؛ لأن هذا النداء جواب لثنائهم، ويدل على قبول ما أثنوا به، وعلى رضى الله عنهم، والنداء من قبل الله، ولذلك بُني فعله على ما لم يُسم فاعله لظهور المقصود. وذلك النداء إما أن يكون من الله، أو أن يكون من الملائكة، والأولى أن يكون المنادي هو الله سبحانه.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

تخبر الآية أن الله تعالى يكافئهم . على حمدهم، ورفع ذكر رسل ربهم ببناء عام يتضمن أن ربهم قد أورثهم الجنة العظيمة الرفيعة المنزلة بسبب ما كانوا يعملون من عمل صالح في الحياة الدنيا، وهذا تكريم الله لهم مع أنهم لم يدخلوا الجنة إلا بفضل الله تعالى، وقد جاءت الآية بأسلوب حكاية حدث مضي مع أنه من الأحداث التي سوف تكون مستقبلاً للدلالة على أنه أمر لا بد أن يتحقق الوقوع حينما يكون أهل الجنة في الجنة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٨٦/١٤)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٦٣)، وحادي

الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية (ص: ١٠٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٤/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٦/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٤/٨).

(٣) معارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٢٣٥/٤).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطفية الأولى: قوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خطابٌ عامٌّ في حقِّ جميع المؤمنين.

اللطفية الثانية: قوله: ﴿أَنْ تُلَكُمُ﴾، ﴿أَنْ﴾ تفسيرٌ لـ ﴿نُودُوا﴾؛ لأنَّ النِّداءَ فيه معنى القول، فالأجود أن تكون ﴿أَنْ﴾ في معنى تفسير النِّداء، والمعنى: ونودوا، أي: قيل لهم تلكم الجنة.

اللطفية الثالثة: الإشارة إلى الجنة بـ ﴿تُلَكُمُ﴾ الذي حَقُّه أن يستعمل في المشار إليه البعيد، مع أنَّ الجنة حاضرةٌ بين يديهم، لقصد رفعة شأنها وتعظيم المنَّة بها. وإِنَّمَا قال: ﴿تُلَكُمُ﴾ لأنَّهم وُعدوا بها في الدنيا، فكأنَّه قيل: لهم هذه تلكم التي وعدتم بها.

اللطفية الرابعة: الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سببِيَّةٌ، أي: بسبب أعمالكم، وهي الإيمان والعمل الصَّالح، وهذا الكلام ثناءٌ عليهم بأنَّ الله شكر لهم أعمالهم، فأعطاهم هذا النِّعيم الخالد لأجل أعمالهم، وأنَّهم لما عملوا ما عملوه من العمل ما كانوا ينوون بعلمهم إلا السَّلامة من غضب ربِّهم وتطلبَ مرضاته شكراً له على نعمائه، وما كانوا يمتنون بأنَّ توصلهم أعمالهم إلى ما نالوه، وذلك لا ينافي الطَّمع في ثوابه والنَّجاة من عقابه، وقد دلَّ على ذلك الجمعُ بين ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾، وبين بَاءِ السَّببِيَّةِ.

اللطفية الخامسة: تعلق من قال: العمل يُوجب هذا الجزاء بهذه الآية فإنَّ الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تدلُّ على العلية، وذلك يدلُّ على أنَّ العمل يُوجب هذا الجزاء. والجواب: أنَّ العمل الصَّالح علةٌ للجزاء؛ لكن بسبب أنَّ الشرع جعله علةً له، لا لأجل أنَّه لذاته موجب لذلك الجزاء، والدليل عليه أنَّ نِعَمَ الله على العبد لا نهاية لها، فإذا أتى العبد بشيءٍ من الطاعات وقعت هذه الطاعات في مقابلة تلك النِّعم السالفة فيمتنع أنَّ تصير موجبةً للثواب المتأخر. وقد طعن بعضهم^(٢) فقال: هذه الآية تدلُّ على أنَّ العبد إنَّما يدخل الجنة بعمله، وقوله (ﷺ): "لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله"^(٣)، وإنَّما يدخلها برحمة الله وبينهما تناقضٌ. والجواب: أنَّ العمل لا يُوجب دخول الجنة لذاته، وإنَّما يوجبه لأجل أنَّ الله بفضله جعله علامةً عليه ومعرفةً له، وأيضاً لما كان الموفي للعمل الصَّالح هو الله كان دخول الجنة في الحقيقة ليس إلا بفضل الله تعالى^(٤).

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٧، ٨٦). التحرير والتتوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٣٤).

(٢) المراد به الزمخشري في تفسيره: الكشاف (٢/٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق. باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم (٦٤٦٧)، (ص: ٧٦٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٧).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

دلّ الإيثار في الآية على أنّ الجَنَّةَ عطيةٌ بدون قصدٍ تعاوُضٍ ولا تعاقُدٍ، وأنّها فضلٌ محضٌ من الله؛ لأنّ إيمانَ العبدِ برَبِّه وطاعته إياه لا يوجب عقلاً ولا عدلاً إلا نجاته من العقاب الذي من شأنه أن يترتّب على الكُفْران والعِصيان، وإلا حُصولَ رضى ربّه عنه، ولا يوجب جزاءً ولا عطاءً، لأنّ شكرَ المنعم واجبٌ، فهذا الجزاء وعظمته مجرد فضل من الرّب على عبده شكراً لإيمانه به وطاعته، ولكن لما كان سبب هذا الشكر عند الرّب الشاكر هو عمل عبده بما أمره به، وقد تفضّل الله به فوعد به من قبل حصوله، وباء السببية اقتضت الذي أعطاهم منازل الجنة أراد به شكر أعمالهم وثوابها من غير قصدٍ تعاوُضٍ ولا تقابلٍ فجعلها كالشيء الذي استحقّه العامل عوضاً عن عمله فاستعار لها باء السببية، قال في الكشاف: بسبب أعمالكم، لا بالتفضل. وقد تعقب بأنّه صحّ عن رسول الله (ﷺ) قوله: "أنّه لن يدخل أحدُ الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله بفضلٍ ورحمة"^(٢)، والتصريح بسببٍ لا يستلزم نفي سببٍ آخر، ولولا التفضل من الله على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار، لكان القائلون به محقّة لا مبطلّة، وفي التنزيل: ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥]^(٣). فعند المعتزلة أنّ العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنّها بمنزلة استيفاء أجره الأجير، وقالوا: ولهذا يجعلها الله عوضاً كقوله: ﴿وَتُؤَدُّوا أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، قالوا: وقد سماه الله جزاءً وأجرًا وثواباً؛ لأنّه يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه منه، وقالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثواباً معنى. وقالوا: وبدلٌ عليه الوزن، فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضاؤها لها، وكونها كالأثمان لها لم يكن للوزن معنى، أمّا الجبرية فلم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة، والثواب عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليلٍ ولا سببٍ، ولا حكمةٍ تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب، والمعتزلة جعلت ذلك كلّه بمحض الأعمال وثنماً لها، وأنّ وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منّة الصدقة عليه بلا ثمنٍ، وقابلتهم الجبرية فلم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء البتة. والطائفتان منحرفتان عما جاءت به الرّسل، ونزلت به الكتب، وهو أنّ الأعمال أسبابٌ موصلةٌ إلى الثواب والعقاب، مقتضيةٌ لهما كإقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، وأنّ الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّته، وصدقته على عبده، أنّ أعانه عليها ووقفه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه، وزيّنها في

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٥/٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضى. باب تمنى المريض الموت، حديث رقم (٥٦٧٣)، (ص: ٦٨٨).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢٩٠/٢).

قلبه وكرهه إليه أضعافها، ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها إذا بذل العبد فيها نُصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه ل بقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يحم بشكرها، فلذلك لو عَدَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم^(١)، ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل، وأثبت الله دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ولا تنافي بينهما، إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمعنى استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمناً وعضواً لها، رداً على المعتزلة التي زعمت أنَّ التفضل بالثواب ابتداءً متضمن لتكرير المنَّة، وهذا جهلٌ واضحٌ؛ فلا نقص في منَّة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، فكيف برَبِّ العالمين الذي إنَّما يتقلب الخلائق في بحر مننِّه عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوضٍ منهم ألبته؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم، بأنَّ وفهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم، وقبلها منهم على ما فيها، وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فهذه باءُ السببية، رداً على أهل الأهواء الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، فالآية تبطل قولهم، وتبيِّن مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته، وخلق العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعاً وقدرًا، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً^(٢)، وفي الجمع بين هذا الحديث وقوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ تحمل الآية على أنَّ الجنة تتال المنازل فيها بالأعمال؛ فإنَّ درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، وأنَّ يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها، فطريق الجمع أنَّ الحديث فسر ما أجمل في الآية، وأنَّ من رحمة الله توفيقه للعمل وهدايته للطاعة وكل ذلك لم يستحقه العامل بعمله، وإنَّما هو بفضل الله وبرحمته؛ فإنَّ التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة، إنَّ نفس دخول الجنة برحمة الله واقتسام الدرجات بالأعمال. وعلى ذلك ينتقي التعارض بين الآية والحديث، فالباء المقتضية للدخول غير الباء الماضية، فالأولى السببية الدالة على أنَّ الأعمال سبب الدخول المقتضية له كإقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها. والثانية: بالمعاوضة، فأخبر أنَّ دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنَّه لولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة؛ لأنَّ العمل بمجرد ولو

(١) ينظر: سنن أبي داود في كتاب السنة، حديث رقم (٤٦٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم (٣٩٣٢).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (١/١٩١ . ١٩٧).

تتأهى لا يوجب بمجرد دخول الجنة ولا أن يكون عوضاً لها؛ لأنّه ولو وقع على الوجه الذي يحبه الله لا يقاوم نعمة الله، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها وهو لم يوفها حق شكرها^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنّ دخول الجنة على سبيل التفضل لا على سبيل الاستحقاق.
٢. أنّ الجنة دارٌ أعدها الله للمتقين جزاءً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة^(٣).
٣. الآية ردٌّ على الجبرية الذين أنكروا أنّ تكون الأعمال سبباً في دخول الجنة من كلّ وجهٍ، والمعتزلة الذين زعموا أنّ الجنة عوض العمل، وأنّ دخول الجنة بمحض الأعمال.

المطلب الثاني: وعد الله حقّ

وفيه مقصدان:

المقصد الأوّل: الحوار أدبٌ بين المتخاصمين، فالإسلام دين الأدب

ويدلّ على هذا المقصد العريق في علم المناظرة قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٤):

وَنَادَى: النداء باتفاق أهل اللّغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم، وأهل الكتاب يقولون: إنّ موسى ناداه ربّه نداءً سمعه بأذنه، وناداه بصوتٍ سمعه موسى، والصوت لا يكون إلا كلاماً، والكلام لا يكون إلا حروفاً منظومةً.

وَجَدْنَا: الوجدان: إلقاء الشيء ولقيه، فقوله: ﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ معناه: ألفيناه حال كونه حقاً لا تخلف في شيءٍ منه، فلا يدلّ قوله: ﴿وَجَدْنَا﴾ على سبق بحث أو تطلب للمطابقة، وقد يستعمل الوجدان في الإدراك والظنّ اتساعاً، وهو أسلوبٌ شائع.

قَالُوا نَعَمْ: ﴿نَعَمْ﴾ عدةٌ وتصديقٌ، معناه: أنّه يستعمل تارةً عدةً، وتارةً تصديقاً، فلفظة ﴿نَعَمْ﴾ مختصةٌ بالجواب عن الإيجاب، ولفظة ﴿بَلَى﴾ مختصةٌ بالنفي.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٤/٥٩٨، ٥٩٧).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٨٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٤/٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) شرح أصول العقيدة الإسلامية: نسيم شحادة ياسين (ص: ٢١٩).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٩٠)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٤٠)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٨/١٣٥).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(١):

هذه الآية: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ﴾ معطوفة على آية: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ وهي من باب عطف القول على القول، إذ أخبر عن قولهم المنبئ عن بهجتهم بما هم فيه من النعيم، ثم أخبر عن ما يقولونه لأهل النار حينما يشاهدونهم، ويجوز أن تكون هذه الآية معطوفة على: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من باب عطف القصة على القصة بمناسبة الانتقال من ذكر نداء من قبل الله إلى ذكر مناداة أهل الآخرة بعضهم بعضاً، فعلى الوجهين يكون التعبير عنهم بأصحاب الجنة دون ضميرهم توطئة لذكر نداء أصحاب الأعراف ونداء أصحاب النار، ليعبر عن كل فريق بعنوانه وليكون منه محسن الطباق في مقابلته بقوله: ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾؛ فإن الله لما شرح وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان والطاعات أتبعه بذكر المناظرات التي تدور بين الفريقين، وهي الأحوال التي ذكرها في هذه الآية.

ثالثاً: دقائق التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ هذا النداء خطاب من أصحاب الجنة، عبر عنه بالنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النار من مسافة سحيقة البعد؛ فإن سعة الجنة وسعة النار تقتضيان ذلك لا سيما قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنة إلى أصحاب النار وسيلة عجيبة غير متعارفة، وعلم الله وقدرته لا حدّ لمتعلقاتها، وإذا كانت الجنة في أعلى السموات، والنار في أسفل الأرضين فمع هذا البعد الشديد يصحّ هذا النداء؛ لأنّ البعد الشديد والقرب الشديد ليس من موانع الإدراك.

اللطيفة الثانية: هذا النداء يقع من كلّ أهل الجنة لكلّ أهل النار أو من البعض للبعض؟ الجواب: أنّ قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ يفيد العموم والجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد، وكلّ فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في الدنيا.

اللطيفة الثالثة: ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾ تفسيرية للنداء.

اللطيفة الرابعة: الاستفهام في قوله: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ مستعمل مجازاً مرسلًا بعلاقة اللزوم في توقيف المخاطبين على غلظهم، وإثارة ندامتهم وغمهم على ما فرط منهم، والشماتة بهم في عواقب عنادهم. والمعاني المجازية التي علاقتها اللزوم يجوزُ تعددها مثل الكناية، وقرينة المجاز هي: ظهور أنّ أصحاب الجنة يعلمون أنّ أصحاب النار وجدوا وعده حقاً.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٨٨/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٥/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٨، ٨٩/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٦، ١٣٧/٨).

اللطيفة الخامسة: ﴿مَا﴾ موصولة في قوله: ﴿مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا — مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ ودلت على أن الصلة معلومة عند المخاطبين، على تفاوت في الإجمال والتفصيل، فقد كانوا يعلمون أن الرسول (ﷺ) وعد المؤمنين بنعيم عظيم، وتوعد الكافرين بعذاب أليم، سمع بعضهم تفاصيل ذلك كلها أو بعضها، وسمع بعضهم إجمالها: مباشرة أو بالتناقل عن إخوانهم، فكان للموصولية في قوله: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إيجازٌ بديعٌ.

اللطيفة السادسة: الجواب بـ ﴿نَعَمْ﴾ في قوله: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ تحقيق للمسئول عنه بـ ﴿هَلْ﴾؛ لأنَّ السؤال بـ ﴿هَلْ﴾ يتضمَّن ترجيح السائل وقوع المسئول عنه، فهو جوابُ المقرِّ المتحسّر المعترف. وقد جاء الجوابُ صالحاً لظاهر السؤال وخفيته، فالمقصودُ من الجواب بها تحقيق ما أريد بالسؤال من المعاني حقيقةً أو مجازاً، إذ ليست ﴿نَعَمْ﴾ خاصة بتحقيق المعاني الحقيقية.

اللطيفة السابعة: حذف مفعول ﴿وَعَدَ﴾ الثاني في قوله: ﴿وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ لمجرد الإيجاز لدلالة مقابله عليه في قوله: ﴿مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا﴾ لأنَّ المقصود من السؤال سؤالهم عمّا يخصُّهم. فالتقدير: فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم، أي: من العذاب؛ لأنَّ الوعد يُستعمل في الخير والشر.

اللطيفة الثامنة: دلت الفاء في قوله: ﴿فَأَذَنَ مُؤَذِّنٌ﴾ على أنَّ التأذين مسبب على المحاورَة تحقيقاً لمقصد أهل الجنة من سؤال أهل النار من إظهار غلظهم وفساد معتقدهم.

اللطيفة التاسعة: التعبير عن أصحاب النار بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾، تعريفٌ لهم بوصفٍ جرى مجرى اللقب تعرف به جماعتهم، فلا ينافي أنهم حين وُصفوا به لم يكونوا ظالمين؛ لأنَّهم قد علّموا بطلان الشرك حقّ العلم وشأن اسم الفاعل أن يكون حقيقةً في الحال مجازاً في الاستقبال، ولا يكون للماضي^(١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- الحوار أدبٌ بين المتخاصمين:

إنَّ الله لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دلَّ ذلك على أنَّهم استقروا في الجنة في وقت هذا النداء فلما قال بعده: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ هذا النداء إنما حصل بعد الاستقرار، فقالوا: وجدنا ما وعدنا ربنا في الدنيا من الثواب حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم من العقاب حقاً؟ والغرض من هذا السؤال إظهار أنَّه وصل إلى السعادات الكاملة وإيقاع الحزن في قلب العدو، وهذه الآية إخبار

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٧/٨، ١٣٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٨٨/١٤).

من الله عن حال أهل الجنة، وهو الاغتباط بحالهم، وتتغيص أعدائهم بعلمهم برفاهية حالهم، والتورك على الأعداء إذ كانوا يحسبونهم قد ضلوا حين فارقوا دين آبائهم، وأنهم حرموا أنفسهم طبيبات الدنيا بالانكفاف عن المعاصي، وهذه معانٍ متعدّدة كلّها من لوازم الإخبار، والمعاني الكنائية لا يمتنع تعددها؛ لأنها تبع للوازم العقلية، وهذه الكناية جمع فيها بين المعنى الصريح والمعاني الكنائية، ولكن المعاني الكنائية هي المقصودة؛ إذ ليس القصد أن يعلم أهل النار بما حصل لأهل الجنة ولكن القصد ما يلزم عن ذلك^(١).

ب- يجوز الخلف في وعيد الله دون وعده^(٢):

إنه من الممكن أن يفعل العبد الكبيرة والذنب، ويترك الواجب، ولا يقع عليه العقاب، ويعفو الله عنه، وهذه المسألة تسمى عند أهل السنة والجماعة (الوعد والوعيد)، ومفادها أن الله إن وعد لا يخلف وعده، وإن أوعد فقد يخلف وعيده من باب فضله وكرمه، فإن الوعد غير الوعيد؛ لأن العرب لا تعدّ إخلاف الوعيد عاراً وذماً ولا خُلُفاً، أن تعدّ شراً ثم لا تفعل بل ترى ذلك جوداً وكرماً وفضلاً، والله إذا وعد وقى، وإذا أوعد ثم لم يفعل كان ذلك كريماً وتفضلاً وعفواً، وإنما الخلف أن تعدّ خيراً، ثم لا تفعله، فالمعتزلة جعلت الوعيد مثل الوعد لا يجوز الخلف فيه، فقالوا: إن الله يجب عليه تنفيذ وعيده، لنصر بدعتهم في عصاة المؤمنين أنهم خالدون مُخلّدون في النار، وعقيدة أهل السنة والجماعة من أن الذنوب كلها لا تستوجب تحقق وعيد الله فيها، وأن النهي عن الصغير والكبير ليسا سواء، وإنما نهى الله عنهما لتتم حجته على خلقه، ولئلا يعدل عن أمره، ووزاء وعيده عفوهُ وكرمه، والعرب تتمدح بالوفاء بالوعد والوعيد، وقد يمدح بهما المرء، وقد وافق هذا قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]^(٣). وما ذهب إليه المفسرون من التفريق بين الوعد والوعيد، هو الصحيح الموافق لمذهب أهل السنة والجماعة في الوعد والوعيد؛ فإن الله وعد المطيعين بالثواب، وأوعد العصاة بالعقاب، وما وعد به الطائعين لا بدّ من تحقّقه كريماً منه وتفضلاً؛ لأنه لا يخلف الميعاد، بخلاف الوعيد، فإن خُلفه مدح لا ذم، ويجوز عليه سبحانه وتعالى أن يخلف وعيده؛ لأنه حقّه، وخُلفه له عفو وكرم وجود وإحسان. فالوعد والوعيد حق، فالوعد حقّ العباد على الله، ضمّن لهم إذا فعلوا كذا أن يُعطِيهم كذا، ومن أولى بالوفاء من الله؟ الوعيد حقّه على العباد، قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا، فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ؛ لأنه

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٦/٨).

(٢) التحقيقات والتنقيحات السلفيات على متن الورقات: مشهور بن حسن آل سلمان (ص: ٥٣).

(٣) سير أعلام النبلاء: الذهبي (٤٠٨/٦).

حقّه، وأولاهما برينا تبارك وتعالى العفو والكرم، إنّه غفورٌ رحيمٌ^(١)، فالله لا يُخلف وعده، وأمّا الوعيدُ فمذهب أهل السنة كلهم أنّ إخلافه كرمٌ وعفوٌ وتجاوزٌ يُمدح الربّ تعالى به، ويُثنى عليه به؛ فإنّه حقٌّ له، إن شاء تركه، وإن شاء استوفاه، والكرمُ لا يستوفي حقّه، فكيف بأكرم الأكرمين؟ وقد صرح الله في كتابه في غير موضع بأنّه لا يُخلف وعده، ولم يقل في موضعٍ واحدٍ لا يُخلف وعيده^(٢). وقد قام الدليل على ذكر الموانع من إنفاذ الوعيد، بعضها بالإجماع، وبعضها بالنصّ، فالتوبةُ مانعٌ بالإجماع، والتوحيدُ مانعٌ بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسناتُ العظيمةُ الماحيةُ مانعةٌ، والمصائبُ المكفرةُ مانعةٌ، وإقامةُ الحدودِ في الدنيا مانعٌ بالنصّ، فلا تُعطلُّ هذه النصوص، فلا بُدَّ من إعمال النصوص من الجانبين، ومن ثم قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب ومانعه؛ إعمالاً لأرجمتهما، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما وبناء الأحكام الشرعية والقدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمرأً، وقد جعل الله لكلّ ضدّاً يذافعه ومانعاً يمانعه، ويكون الحكمُ للأغلب منهما، والحاصل كون المذنب الملي وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياها؛ في مشيئة مولاه، إن شاء عذبه، وإن شاء عافاه، فخلود أهل التوحيد في النَّار من المُحال^(٣).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. الآية تدلُّ على أنّ الكفار يعترفون يوم القيامة بأنّ وعد الله ووعيده حقٌّ وصدقٌ، ولا يمكن ذلك إلا إذا كانوا عارفين يوم القيامة بذات الله وصفاته.
٢. بعد دخول أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار يدور بينهم حوارٌ ومناقشةٌ؛ فيذكر كلُّ واحدٍ ما كان منه من عملٍ في الدنيا، وما ناله من جزاءٍ في الآخرة.
٣. إنجاز الوعد واجبٌ الوفاء، وإخلاف الوعيد جائزٌ ممكنٌ.
٤. وعد الله كائن لا محالة، لا يخلف ولا يبدل.
٥. التعويل على مذهب أهل الحقّ من أنّ عصاة الموحدين غير مخلدين في النَّار.

(١) الحجة في بيان المحجة: أبو القاسم الأصبهاني (٧٢/٢).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية (ص: ٣٣٨).

(٣) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (٣٧١/١)، ومناهج اللّغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ (ص: ١٣٣).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٨٩/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٠٠/٣)، وشرح أصول العقيدة

الإسلامية: نسيم شحده ياسين (ص: ٢٢١).

المقصد الثاني: جواز لعن الظالم، وتركه أفضل

ويدلُّ على هذا المقصد العقدي الأصيل قوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَأَذِّنْ: التأذِينُ: رفع الصوت بالكلام رفعاً يُسمع البعيد بقدر الإمكان، وهو مشتقٌّ من الأذن

جارية السمع المعروفة، وهو النداء والتصويت بالإعلام، والأذان للصلاة إعلامٌ بها وبوقتها.

فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ: أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين، وذلك المؤذن من الملائكة، وهو صاحب الصور.

لَعْنَةُ: اللعن الدعاء بالإبعاد من رحمة الله، واللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وهو من

الله في الآخرة عقوبةً، وفي الدنيا انقطاع من قبول توفيق الله، وأمّا من الناس فهو الدعاء بذلك.

الظَّالِمِينَ: المراد بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ المشركون، والظلم اسمٌ لما أخذ بغير حقٍّ، والظلم وضع الشيء في

غير موضعه الشرعي. والظلم نوعان: تقييدٌ في الحقِّ، وتعدٍ للحد، فالأول: ترك ما يجب للغير،

مثل ترك قضاء الديون، وسائر الأمانات، وغيرها من الأموال. والثاني: الاعتداء على الغير، مثل

القتل، وأخذ المال، وكلاهما ظلْمٌ.

سَبِيلِ: سبيل الله: ما به الوصول إلى مرضاته سبحانه، وهو الإسلام.

عِوَجًا: العِوَجُ: ضد الاستقامة، وهو بالفتح في الأجسام، وبالكسر في المعاني، وذلك من محاسن

الاستعمال، فالإخبار عن السبيل بـ "عِوَجٍ" إخبارٌ بالمصدر للمبالغة، أي: ويرومون ويحاولون

إظهار هذه السبيل عوجاء، أي: يختلقون لها نقائص يموهونها على الناس تنفيراً عن الإسلام.

كَافِرُونَ: حيثُ جاء الكفر في لسان الشرع فهو جحد المعلوم من دين الإسلام بالضرورة الشرعية،

وقد ورد الكفر في الشرع بمعنى جحد النعم وترك شكر المنعم، والقيام بحقه.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية الكريمة^(٢):

اللطيفة الأولى: دلَّت الفاء في قوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ﴾ على أن التأذين مسبب على المحاوراة تحقيقاً

لمقصد أهل الجنة من سؤال أهل النار من إظهار غلظهم وفساد معتقدتهم.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٠/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٨٣/٢٨)، وفتح الباري بشرح صحيح

البخاري: ابن حجر العسقلاني (٥٩٩، ٦٠١/١٣)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين

الحلي (٢٧/٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٧، ١٣٩/٨).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٧/٨).

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف لقوله: ﴿فَأَذَنَ﴾ والتقدير: أَنَّ المؤذن أوقع ذلك الأذان بينهم، وفي وسطهم^(١).

اللطيفة الثالثة: التعبير عن أصحاب النار بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب تعرف به جماعتهم، فلا ينافي أَنَّهُمْ حين وُصِفُوا به لم يكونوا ظالمين؛ لأنَّهُمْ قد علّموا بطلان الشرك، وشأن اسم الفاعل أن يكون حقيقةً في الحال مجازاً في الاستقبال، ولا يكون للماضي.

اللطيفة الرابعة: إجراء الصلة على الظالمين بالفعلين المضارعين في قوله: ﴿يُصُدُّونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ لأنَّ شأن المضارع الدلالة على حدث حاصل في زمن الحال، وهم في زمن التآذين لم يكونوا متّصفين بالصدّ عن سبيل الله، ولا يبغى عوج السبيل، فذلك لقصد ما يفيد المضارع من تكرر حصول الفعل تبعاً لمعنى التجدد، والمعنى وصفهم بتكرر ذلك منهم في الزمن الماضي، وهو معنى قول علماء المعاني: استحضار الحالة، وكذلك وصفهم باسم الفاعل في قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فإنَّ حَقَّهُ الدلالة على زمن الحال، وقد استعمل هنا في الماضي، أي: كافرون بالآخرة فيما مضى من حياتهم الدنيا، وكلُّ ذلك اعتماد على قرينة حال السامعين المانعة من إرادة المعنى الحقيقي من صيغة المضارع وصيغة اسم الفاعل، إذ قد علم كلُّ سامعٍ أَنَّ المقصودين صاروا غير متلبّسين بتلك الأحداث في وقت التآذين، بل تلبّسوا بنقائضها، فإنَّهُمْ حينئذٍ قد علموا الحقَّ وشاهدوه كما دلَّ عليه قولهم: ﴿نَعَمْ﴾. وإنَّما عرّفوا بتلك الأحوال الماضية؛ لأنَّ النفوس البشريّة تعرّف بالأحوال التي كانت متلبّسةً بها في مدّة الحياة الأولى، فبالموت تنتهي أحوال الإنسان فيستقر اتّصاف نفسه بما عاشت عليه.

اللطيفة الخامسة: المراد بـ ﴿يُصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إمّا تعرّض المشركين للراغبين في الإسلام بالأذى والصرف عن الدخول في الدين بوجوه مختلفة، فيكون الصدُّ مراداً به المتعدي إلى المفعول، وإمّا إعراضهم عن سماع دعوة الإسلام وسماع القرآن، فيكون الصدُّ مراداً به القاصر.

اللطيفة السادسة: الضمير المؤنث في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ عائِدٌ إلى سبيل الله؛ لأنَّ السبيل يُذَكَّرُ ويؤنثُ اللطيفة السابعة: وورد وصف الظالمين بالكفر بطريق الجملة الاسميّة في قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ للدلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكّنه منهم؛ لأنَّ الكفر من الاعتقادات العقليّة والانفعالات القلبية التي لا يُناسبها التكرّر، فلذلك خُلف بينه وبين وصفهم بالصدّ عن سبيل الله وبغى إظهار العوج فيها؛ لأنَّ ذُنُوبَكَ من الأفعال القابلة للتكرير^(٢).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٠/١٤).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٤٠، ١٣٩/٨).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

هذا التأديب إخبارٌ باللَّعْنِ وهو الإبعادُ عن الخير، أي: إعلامٌ بأنَّ أهلَ النَّارِ مبعدون عن رحمةِ الله، زيادةً في التَّأْيِيسِ لهم، أو دعاءً عليهم بزيادةِ البعدِ عن الرَّحْمَةِ، بتضعيفِ العذابِ أو تحقيقِ الخلودِ، ووقوعِ هذا التَّأْيِيسِ عقبِ المحاورةِ يَعْلَمُ منه أنَّ المرادَ بـ: ﴿الظَّالِمِينَ﴾، وما تبعه من الصِّفَاتِ والأفعالِ، هم أصحابُ النَّارِ، والمقصودُ من تلكِ الصِّفَاتِ تفضيغُ حالهم، والنَّدَاءُ على خُبثِ نفوسهم، وفسادِ معتقدهم. وروي أنَّ المؤذنَ هو جبريلُ (عليه السلام)^(٢).

ويجوزُ أنَّ تكونَ هذه اللَّعْنَةُ كانتِ الملائكةُ يَعْنُونَهُمْ بها في الدُّنْيَا، فجهروا بها في الآخرةِ، لأنَّها صارتِ كالشُّعَارِ للكفرةِ يُنَادُونَ بها، وفي الإخبارِ بذلكِ هنا إعلامٌ لأصحابِ هذه الصِّفَاتِ في الدُّنْيَا بأنَّهم محقَّقون بلعنةِ الله تعالى^(٣). قال ابنُ تيميَّةَ: "والظالم يستحق العقوبة والتعزير، وهذا أصلٌ متفقٌ عليه، أنَّ كلَّ من فعل مُحرماً، أو ترك واجباً، استحق العقوبة، فإن لم تكن مُقدَّرةً بالشرع كان تعزيراً يجتهد فيه ولي الأمر، وقد نصَّ على ذلك الفقهاء"^(٤).

أ- جواز لعن الظالم:

الأصلُ في اللعنِ المنعُ؛ لأنَّه إضرارٌ بالغيرِ، وطلبٌ للإضرارِ به، ولم يردِ جوازُه لكلِّ صاحبِ كبيرةٍ، فلا يجوزُ ذلكِ إلا بالتوقيفِ من الشرعِ، وقد ورد لعنُ صاحبِ الكبيرةِ، فيجوز لعن صاحب تلك المعصية مُعيَّناً وغيرَ مُعيَّنٍ، لا كما قاله بعض الفقهاء، ومع جواز لعن صاحب المعصية يترحم عليه، واللعن جائز، والترحم مندوب إليه^(٥).

وأصلُ اللَّعْنِ إذا كان من الله فهو الطردُ والإبعادُ، وإذا كان من الخلق فهو السُّبُّ والدُّعَاءُ. فعن ثابت بن الضَّحَّاك (رضي الله عنه). وكان من أصحابِ الشَّجَرَةِ. أنَّ رسولَ الله (ﷺ) قال: "لعنُ المؤمنِ كقتله"^(٦)؛ لأنَّه إذا لعنه فكأنَّه دعا عليه بالهلاكِ^(٧). وأنواعُ الظلمِ متغايرةٌ، بعضها أخف من بعضٍ، والسلف قالوا: ظلمٌ دونَ ظلمٍ. وأخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: لَمَّا نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُونَ﴾ [الأَنْعَامُ: ٨٢] قال أصحابُ رسولِ الله (ﷺ): أَيْنَا لَمْ يَظْلِمُوا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لُقْمَانَ: ١٣]^(٨). ووجه الدلالة من الحديث أنَّ

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٧/٨)، وروائع البيان في تفسير آيات الأحكام: الصابوني (٥٦/٢).

(٢) دُرَج الدرر في تفسير القرآن العظيم: الجرجاني (٦٥٤/١).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٣٧/٨).

(٤) السياسة الشرعية: ابن تيميَّة (ص: ٣٦).

(٥) الكبائر: الذهبي (ص: ١٤٩، ٥٧).

(٦) صحيح البخاري كتاب الأدب. باب ما يُنهي عنه من السُّبَابِ واللَّعْنِ، حديث رقم (٦٠٤٧)، (ص: ٧٢٢).

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٦٠٣/١٣).

(٨) صحيح البخاري كتاب الإيمان. باب ظلمٌ دونَ ظلمٍ، حديث رقم (٣٢)، (ص: ١٤).

الصحابه الكرام فهموا من قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ عموم أنواع المعاصي، ولم ينكر عليهم النبي (ﷺ) ذلك، وإنما بين لهم أن المراد أعظم أنواع الظلم، وهو الشرك بالله؛ فدل ذلك على أن للظلم مراتب متفاوتة، وأن المعاصي غير الشرك لا ينسب صاحبها إلى الكفر المخرج عن الملة، ولكن المعاصي بريد الكفر^(١).

والفاسق المعين لا يلعن بخصوصه، إمّا تحريماً، وإمّا تنزيهاً، هذا كما أن نصوص الوعيد عامة في أكل أموال اليتامى، والزاني، والسارق، فلا يُشهد بها عامة على مُعين بأنه من أصحاب النار؛ لجواز تخلف المقتضي عن المقتضى لمعارضٍ راجح: إمّا توبة؛ وإمّا حسنات ماحية؛ وإمّا مصائب مكفرة؛ وإمّا شفاعه مقبولة؛ وإمّا غير ذلك^(٢). وكذلك محبة من يعمل حسنات وسيئات، بل لا يتنافى عند أهل السنة أن يجتمع في الرجل الحمد والذم، والثواب والعقاب؛ كذلك لا يتنافى أن يُصلى عليه ويُدعى له، وأن يلعن ويشتم أيضاً باعتبار وجهين؛ فإن أهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة. وإن دخلوا النار أو استحقوا دخولها فإنهم - لا بد أن يدخلوا الجنة، فيجتمع فيهم الثواب والعقاب؛ ولكن الخوارج والمعتزلة تنكر ذلك، وترى أن من استحق الثواب لا يستحق العقاب، ومن استحق العقاب لا يستحق الثواب، وأمّا جواز الدعاء للرجل وعليه، فإن موتى المسلمين يُصلى عليهم برهم وفاجرهم، وإن لعن الفاجر مع ذلك بعينه أو بنوعه، لكن الحال الأول أوسط وأعدل، ونحن لا نسب أحداً من المسلمين بعينه، وإذا ذُكر الظالمون، يقال كما قال الله: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ولا يحب أهل السنة أن يلعن أحد بعينه واللعن ليس هو من أعمال الصالحين والأبرار، وثبت عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن رجلاً على عهد النبي (ﷺ) كان اسمه عبد الله، وكان يُلقب جماراً، وكان يُضحك رسول الله (ﷺ)، وكان النبي (ﷺ) قد جلدَه في الشراب، فأُتِيَ به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجلٌ من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي (ﷺ): "لا تلعنوه؛ فوالله ما علمتُ إنه يحبُّ الله ورسوله"، وفي رواية: "لا تكونوا عون الشيطان على أخيك"^(٣). وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: "باب ما يُكره من شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة" عبر بالكراهة إشارة إلى أن النهي للتنزيه في حق من يستحق اللعن، إذا قصد به اللاعن محض السب، لا إذا قصد معناه الأصلي، وهو الإبعاد عن رحمة الله، فأما إذا قصد به فيحرم، ولا سيما في حق من لا يستحق اللعن كهذا الذي يحبُّ الله ورسوله، ولا سيما مع إقامة الحد عليه، بل يندب الدعاء له بالتوبة والمغفرة. وعلى هذا التقرير صوّب العلماء منع

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني(١/١٦٣، ١٣/٦٠١).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية(٤/٤٨٧، ٤٨٣).

(٣) صحيح البخاري كتاب الحدود. باب ما يُكره من شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة، حديث

رقم(٦٧٨١، ٦٧٨٠)،(ص:٧٩٩).

لعن الفاسق المُعَيَّن، والجواز في حقِّ غير المُعَيَّن؛ لأنَّه في حقِّ غير المُعَيَّن زجرٌ عن تعاطي ذلك الفعل، وفي حقِّ المُعَيَّن أذى له وسبٌّ، وقد ثبت النهي عن أذى المسلم، وفي معنى اللعن الدُّعاء على الإنسان بالسوء والشر فهو مذموم^(١). وقد لعن النبي (ﷺ) شارب الخمر عموماً، ونهى عن لعنة المؤمن المُعَيَّن، ويستفاد من ذلك منع الدُّعاء على العاصي بالإبعاد عن رحمة الله، كاللعن^(٢)، وفي الحديث الرد على من زعم أنَّ مرتكب الكبيرة كافرٌ؛ لثبوت النهي عن لعنه، والأمر بالدُّعاء له فلا ينبغي لأحدٍ أنَّ يشهد لواحدٍ بعينه أنَّه في النَّار أو ملعون؛ لإمكان أنَّ يتوب، أو يغفر له الله بحسناتٍ ماحيةٍ، أو مصائبٍ مكفرةٍ، أو شفاعاةٍ مقبولةٍ، أو يعفو الله عنه، أو غير ذلك، فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه، والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات، وطاعات ومعاصي، وبر وفجور وشر، فيثيبه الله على حسناته، ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له، ويحب ما فعله من الخير، ويُبغض ما فعله من الشر، فأما من كانت سيئاته صغائر فإنَّ الله يغفرها، وأما صاحب الكبيرة فسلف الأُمَّة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة لا يشهدون له بالنَّار، بل يجوزون أنَّ الله يغفر له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فهذه في حقِّ من لم يشرك، فإنَّه قيدها بالمشيئة، وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمر: ٥٣] فهذا في حقِّ من تاب، والخوارج والمعتزلة يقولون: إن صاحب الكبيرة يُخلَّد في النَّار إذا مات من غير توبةٍ، وقولهم باطل^(٣). مع إجماع أهل السنة على أنَّ مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك، ولا ينبغي تعيين أهل المعاصي ومواجهتهم باللعن، وإنَّما ينبغي أنَّ يلعن في الجملة من فعل ذلك؛ ليكون ردعاً لهم وزجراً عن انتهاك شيءٍ منها، ولا يكون لمُعَيَّنٍ لئلا يقنط، وجوز بعض العلماء لعن المُعَيَّن ما لم يحد؛ لأنَّ الحدَّ كفارةٌ. وليس هذا بسديدٍ لثبوت النهي عن اللعن في الجملة، وقد قيل: إنَّ لعن النبي (ﷺ) لأهل المعاصي كان تحذيراً لهم عنها قبل وقوعها، فإذا فعلوها استغفر لهم ودعا لهم بالتوبة^(٤). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لعنة الفاسق المُعَيَّن ليست مأموراً بها، إنَّما جاءت السنة بلعنة الأنواع، كقول النبي (ﷺ): "لعن الله السارق؛ يسرقُ البيضةَ فنقطعُ يده"^(٥)، والمعروف عن أهل العلم كراهة لعن المُعَيَّن، ومن جَوَّز من أهل السنة والجماعة لعنة الفاسق المُعَيَّن؛ فإنَّه يقول: يجوز أن أصليَّ عليه وأن ألعنه؛ فإنَّه مستحقٌّ للشواب مستحقٌّ للعقاب،

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٥/٥٣٦. ٥٣٨).

(٢) المرجع نفسه (١٥/٥٤٠، ٥٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٤٧٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٥/٥١٥).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٥/٥٤٦، ٥١٢).

(٥) صحيح البخاري كتاب الحدود. باب لعن السارق إذا لم يُسَمَّ، حديث رقم (٦٧٩٩، ٦٧٨٣)، (ص: ٧٩٩).

فالصلاة عليه لاستحقاقه الثواب، واللعنة له لاستحقاقه العقاب، واللعنة البعد عن الرحمة، والصلاة عليه سبب للرحمة، فيرحم من وجهه، ويبعد عنها من وجهه، وهذا كله على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنَّ الفاسق لا يُخلد في النَّار، وأمَّا من يقول بتخليد الفاسق في النَّار كالأخوارج والمعتزلة، فهؤلاء عندهم لا يجتمع في حقِّ الشخص الواحد ثواب وعقاب، وقد استفاضت السنن النبوية بأنَّه يخرج من النَّار قومٌ بالشفاعة، ويخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان، وهذا يقتضي أن هذا الذنب سبب لللعن والعذاب، لكن قد يرتفع مجبه لمعارضٍ راجحٍ: إمَّا توبة، وإمَّا حسنات ماحية، وإمَّا مصائب مكفرة. ونحن نعلم أن أكثر المسلمين لا بُدَّ لهم من ظلمٍ، فإن فُتِح هذا الباب ساغ أن يُلعن أكثر موتى المسلمين. والله أمر بالصَّلَاة على موتى المسلمين، لم يأمر بلعنّتهم، ثم الكلام في لعنة الأموات أعظم من لعنة الحي؛ فإنَّه قد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال: " لا تَسبوا الأموات؛ فإنَّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا"^(١). ومكروه أن يُلعن المعين باسمه، ثم إنَّ الآية تدلُّ على أن ذلك المؤذن أوقع لعنة الله على من كان موصوفاً بصفاتٍ أربعة:

١. كونهم ظالمين؛ لأنَّه قال: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ والمراد منه المشركون، وذلك لأنَّ المناظرة المتقدمة إمَّا وقعت بين أهل الجنَّة وبين الكفار، بدليل أن قول أهل الجنَّة: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ لا يليق ذكره إلا مع الكفار، وإذا ثبت هذا فقول المؤذن بعده ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يجب أن يكون منصرفاً إليهم، فنبت أن المراد بـ﴿الظَّالِمِينَ﴾ المشركون، أنَّه وصف هؤلاء الظالمين بصفاتٍ ثلاثة، هي مختصة بالكفار.
٢. قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومعناه: أنَّهم يمنعون النَّاس من قبول الدِّين الحقِّ تارةً بالزجر والقهر، وأخرى بسائر الحيل.
٣. قوله: ﴿وَيَبْغُوتَهَا عَوجًا﴾ والمراد منه إلقاء الشكوك والشبهات في دلائل الدِّين الحقِّ.
٤. قوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ ثم إنَّ الله لما بيَّن أن تلك اللعنة إمَّا أوقعها ذلك المؤذن على الظالمين الموصوفين بهذه الصفات كان ذلك تصريحاً بأنَّ تلك اللعنة ما وقعت إلا على الكافرين^(٢).

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب ما يُنهى من سبِّ الأموات، حديث رقم (٥٦١٦، ١٣٩٣)، (ص: ١٦٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٩١/١٤).

ب- الظلم فساد:

يقول صاحب الظلال: "إنَّها لفتنةٌ ذات مغزىٍ كبيرٍ، إنَّ سبيلَ الله هو الطريق المستقيم، وما عداه عوج غير مستقيمٍ، وحين يُصد النَّاسُ عن سبيلِ الله وحين يُصد المؤمنون عن منهجِ الله، فإنَّ الأمور كلها تفقد استقامتها، والموازين كلها تفقد سلامتها، ولا يكون في الأرض إلا العوج الذي لا يستقيم إنَّه الفساد، فساد الفطرة بانحرافها، وفساد الحياة باعوجاجها، وهذا الفساد هو حصيلة صد النَّاس عن سبيلِ الله، وصد المؤمنين عن منهجِ الله، وهو فساد في التصور، وفساد في الخلق، وفساد في السلوك، وفساد في المعاملات، وفساد في كلِّ ما بين النَّاس بعضهم وبعض، وما بينهم وبين الكون الذي يعيشون فيه من أواصر، وإمَّا أن يستقيم النَّاس على منهجِ الله فهي الاستقامة والصِّلاح والخير، وإمَّا أن ينحرفوا عنه إلى أية جهة فهو العوج والفساد^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنَّ درجات الظلم تتفاوت، وأنَّ بعض المعاصي لا تُسمَّى شركاً.
٢. لعنُ المُعيَّن جائزٌ، وجمهور العلماء على كراهته والابتعاد عنه.
٣. أنَّ لعن المسلم المصون حرامٌ بإجماع المسلمين، وروي عن أحمد: أنه لم يلعن أحداً.
٤. يؤخذ من الآية تحريم الظلم، وتغليظ عقوبته، وأنه من الكبائر.
٥. في الآية دليلٌ على جواز الدُّعاء على من خالف الحكم الشرعي.
٦. جواز لعن أصحاب المعاصي غير المُعيَّنين، ورُخص للمظلوم أن يدعو على من ظلمه.
٧. أنَّ لعن المُعيَّن والدُّعاء عليه قد يحمله على التماسي أو يقنطه من قبول التوبة، أمَّا المنتصف بالذم، فإنَّ فيه زجراً وردعاً عن ارتكاب ذلك وباعثاً لفاعله على الإقلاع عنه.
٨. أنَّ لعن الحيوانات والبهائم والجماد مذمومٌ.
٩. يحرم سب الأموات، والترخيص في سب الأشرار لمصلحةٍ راجحةٍ.
١٠. الآية لا تدلُّ على لعن المعين، ولو كان كلُّ ذنبٍ لعن فاعله، يُلعن المُعيَّن الذي فعله؛ للعن جمهور النَّاس، وهذا بمنزلة الوعيد المطلق، لا يستلزم ثبوته في حق المُعيَّن إلا إذا وجدت شروطه وانتفت موانعه، وهكذا اللعن.
١١. المؤمن إذا امتحن صبراً واتعظ، واستغفر ولم يتشاغل بدمٍ من انتقم منه.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (١/٤٣٧).

(٢) الأذكار: النووي (ص: ٤٢٩، ٢٠٩)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٤٨٣)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١/١٦٦، ١٥/٢٧٣، ٢٦٥، ٥٣٨)، ومناهج اللُّغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٣٣٩)، ومناهج السُّنة النبوية: ابن تيمية (٤/٥٦٧، ٥٧٤)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (٨/٨١)، ودراسات في السيرة: سالم أحمد سلامة وآخرون (ص: ٦٢)، وأصواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٥٩).

المطلب الثالث: أهل الأعراف مآلهم إلى الجنة

وفيه مقصدان:

المقصد الأول: المفاصلة واجبة بين أهل الإيمان وأهل الكفر

يدل على هذا المقصد القرآني الأصيل قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ

كُلًّا بِسَيِّئِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَبَيْنَهُمَا: يعني بين الجنة والنار أو بين الفريقين، وهو حائط بين الجنة والنار.

حِجَابٌ: الحجب والحجاب: المنع من الوصول، وعني به ما يمنع من وصول لذة أهل الجنة إلى

أهل النار، وأذية أهل النار إلى أهل الجنة^(٢). والحجاب: سور ضرب فاصلاً بين مكان الجنة

ومكان جهنم، وقد سماه القرآن سوراً في قوله: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَهُ بَابٌ﴾ [الحديد: ١٣]، وسمي

السور حجاباً؛ لأنه يُقصد منه الحجب والمنع، كما سُمي سوراً باعتبار الإحاطة^(٣).

الأعراف: جمع عُرْف، وهو كلُّ مكانٍ عالٍ مرتفعٍ، وهو أعلى الشئ، ومنه سُمي عُرْفُ الفرس،

الشعر الذي في أعلى رقبته، وسمي عُرْفُ الديك، الريش الذي في أعلى رأسه، وكلُّ مرتفعٍ من

الأرض عُرْفٌ؛ وذلك لأنه بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض منه^(٤). والأعراف: سورٌ بينالجنة والنار^(٥). والذي عليه أكثر المفسرين أن المراد من الأعراف أعالي ذلك السور المضروب

بين الجنة والنار، فالأعراف عبارة عن الأمكنة العالية الرفيعة على السور المضروب بين الجنة

والنار^(٦). قال ابن حجر: "وأرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قومٌ استوت حسناتهموسيئاتهم، يدخلون الجنة بشفاعَةِ النبي ﷺ"^(٧).يَعْرِفُونَ: المعرفة و العرفان: إدراكُ الشئِ بتفكيرٍ وتدبيرٍ لأثره، ويُضاده الإنكارُ^(٨).

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٢/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٠٩/٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٢١٩).

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٤٩٧/٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٤١/٨).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (٩٢/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٤١/٨).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٥٦٢).

(٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٤٩٧/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (٩٢/١٤).

(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١٠٣/١٥).

(٨) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٥٦٠).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

تبيّن الآية أنّ بين أهل الجنّة وأهل النّار حاجزٌ يُسمى الأعراف، وعلى هذا الحاجز رجالٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم يعرفون أصحاب الجنّة بعلاماتهم كيباض الوجوه، وأصحاب النّار بعلاماتهم كسواد الوجوه، ونادى هؤلاء الرجال أصحاب الجنّة تكريماً لهم قائلين: سلامٌ عليكم. والمعنى إنهم إذا نظروا إلى أهل الجنّة سلموا على أهلها، وعند هذا تمّ كلام أهل الأعراف ثم أخبر الله أنّ أهل الأعراف لم يدخلوا الجنّة، ومع ذلك فهم يطمعون في دخولها.

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٢):

اللطيفة الأولى: تقديم ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، وهو خبرٌ على المبتدأ للاهتمام بالمكان المتوسط بين الجنّة والنّار وما ذكر من شأنه، وبهذا التّقديم صحّ تصحيح الابتداء بالنّكرة.

اللطيفة الثانية: التنكير في قوله: ﴿حِجَابٌ﴾ للتّعظيم.

اللطيفة الثالثة: الضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، يعود إلى لفظي الجنّة والنّار الواقعين في قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ وهما اسما مكان، فيصلح اعتبار التّوسط بينهما، وجعل الحجاب فصلاً بينهما. وتثنية الضمير تُعيّن هذا المعنى، ولو أُريد من الضمير فريقاً أهل الجنّة وأهل النّار، لقال: بينهم.

اللطيفة الرابعة: فإن قيل: وأيّ حاجةٍ إلى ضرب هذا السور بين الجنّة والنّار؟ وقد ثبت أنّ الجنّة فوق السموات، وأنّ الجحيم في أسفل السافلين. الجواب: بُعد إحداهما عن الأخرى لا يمنع أنّ يحصل بينهما سورٌ وحجابٌ.

اللطيفة الخامسة: "أل" في قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ للعهد، وهي الأعراف المعهودة التي تكون بارزةً في أعالي السور ليرقب منها النظارة حركات العدو، وليشعروا به إذا داهمهم، ولم يسبق ذكرٌ للأعراف في الآيات حتى تعرّف بـ "لام العهد"، فتعيّن أنّها ما يعهده الناس في الأسوار.

اللطيفة السادسة: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ لتصحیح الابتداء بالنّكرة، إذ اقتضى المقام الحديث عن رجالٍ مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب، قبل أن يدخلوا الجنّة، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنّة وأحوال أهل النّار، ويعرفون رجالاً من أهل النّار كانوا من أهل العزّة والكبرياء في الدنيا، وكانوا يكذبون وعدّ الله المؤمنين بالجنّة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٥/١٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٦).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٩٢/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٤٠، ١٤١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ هو حائط بين الجنة والنار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: النار، وفي الآية إشارة إلى الفصل بين أهل الإيمان وأهل الشرك بحاجز، وعليه فإن المجتمع الأوربي الغربي مجتمع آسن بكل معنى الكلمة، فأديرة الرهبان عبارة عن بؤرة عفنة فاسدة، حتى الكنيسة؛ مجتمع فاسد منهار منحل، ولذلك مفارقة المشركين، وعدم العيش بينهم مقصود شرعاً وعقلاً وحساً، لا يوجد شيء أصعب من الحياة الإسلامية في الدول الأوروبية، قال رسول الله (ﷺ): "من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله"^(٢)، وعليه فلا يجوز للشباب المسلم أن يدرس في أوروبا إلا لمصلحة راجحة؛ فإن مخالفة اليهود والنصارى، ومجانبة التشبه بهم من أعظم مقاصد الشريعة الغراء^(٣)، كما أن مفارقة المسلم المشرك في اللباس أمر مطلوب للشارع^(٤)؛ لما تقرر في الشرع أنه لا يجوز للمسلمين التشبه بالكفار سواء في عباداتهم أو أعيادهم أو أزيائهم الخاصة بهم، وهذه قاعدة عظيمة في الشريعة الإسلامية خرج عنها اليوم مع الأسف بعض المسلمين جهلاً بدينهم أو تبعاً لأهوائهم أو انجرافاً مع عادات العصر الحاضر وتقاليده أوروبا النصرانية، حتى كان ذلك من أسباب نذل المسلمين وضعفهم، وسيطرة الأجانب عليهم واستعمارهم، وقد نُهينا عن التشبه باليهود في جميع أحوالهم^(٥). قلت: أي: أحوالهم الدنيوية؛ فإن المشابهة في الأمور الظاهرة تُورث تناسباً وتشابهاً في الأخلاق والأعمال، ولهذا نهى الشرع عن مشابهة الكفار، ومشابهة الأعاجم، ومشابهة الأعراب، ونهى كل من الرجال والنساء عن مشابهة الصنف الآخر، والرجل المنتسب بالنساء يكتسب من أخلاقهن بحسب تشبهه، حتى يفضي به الأمر إلى التخنث المحض، والتمكين من نفسه كأثمة امرأة، والمرأة المتشبهة بالرجال تكتسب من أخلاقهم حتى يصير فيها من التبرج والبروز ومشابهة الرجال ما قد يفضي ببعضهن إلى أن تظهر بدنهن كما يظهره الرجال، وتطلب أن تعلقو على الرجال كما يعلقو الرجال على النساء، وتفعل من الأفعال ما ينافي الحياء والخفر المشروع للنساء، وهذا القدر قد يحصل بمجرد المشابهة^(٦). ومن ذلك أيضاً قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ١٦] فهو نهى مطلق عن مشابهتهم، وهو خاص أيضاً في النهي عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم، وقسوة القلوب من

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٠٩/٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٧٨٧)، (٢٢٤/٣)، وصحيح الجامع: الألباني، رقم (٦٠٦٢).

(٣) في ظلال سورة التوبة: عبدالله عزم (ص ١٢، ١١).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ابن تيمية (ص: ١٣١، ١٦٩، ٤١).

(٥) سبل السلام شرح بلوغ المرام: الصنعاني (٢٠٧/١)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢٢٩/١).

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص: ٨)، وجلباب المرأة المسلمة: الألباني (ص: ١٥٨).

ثمرات المعاصي، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بأهل الكتاب في شيء من الأمور الأصلية والفرعية^(١). فقد نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، والغرض من الآية أن الله نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فتبين من الآية القرآنية المتقدمة أن ترك هدي الكفار والتشبه بهم في أعمالهم وأقوالهم وأهوائهم من المقاصد والغايات التي أسسها وجاء بها القرآن الكريم، وقد قام النبي (ﷺ) ببيان ذلك وتفصيله للأمة، وحققه في أمور كثيرة من فروع الشريعة^(٢)، وسر ذلك أن المشابهة في الهدى الظاهر ذريعة إلى الموافقة في القصد والعمل^(٣). ولذلك عندما يؤمر كل رسول أن يصدع بالحق، ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة الإيمانية، وتنبت وشيجة القومية، وشيجة القرابة العائلية، لتقوم وشيجة العقيدة وحدها، وإذا القوم الواحد أمتان متفاصلتان، لا قرى بينهما ولا علاقة، وعندئذ يجيء الفتح، ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالّة، ويأخذ المكذّبين المستكبرين، وينجي الطائعين المستسلمين، وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة، وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ^(٤).

خامساً: ما تومئ إليه الآية من أهداف وهدايات^(٥):

١. هذه الآية إخبار من الله تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله، به وترك ما عنه زجر.
٢. أن الألبسة نوعان: نوعٌ منها مشترك بين جميع الأمم، ليس شعاراً لبعضهم دون بعض، فهذا مباح للمسلم لبسها، ولا ضير على المسلم في ذلك، فإن التشبه بأهل الكتاب لا يكره في كل شيء، وأمّا النوع الآخر: فهو ما كان شعاراً لبعض الأمم الكافرة؛ يتميزون به عن غيرهم من الأمم، فلا يجوز لمسلم أن يقلدهم، وأن يتشبه بهم في ذلك؛ لما في ذلك من تضعيف شوكة المسلمين؛ بتقليل عددهم في الظاهر، وتقوية أعدائهم عليهم بذلك.
٣. تقرر في علم النفس أن للظاهر تأثيراً في الباطن، وذلك مشهود في بعض المظاهر، فاختلف الظواهر سبباً لاختلاف البواطن والقلوب.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص: ٤٣)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤/٣١٠).

(٢) آداب الزفاف في السنة المطهرة: الألباني (ص: ١٢١).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (٥/١٣)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٨/٩٥).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤/٣٠٨)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (١/١٥١).

المقصد الثاني: النساء شقائق الرجال

يدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

رِجَالٌ: جمع رَجُلٍ: وهو اسمٌ لذكور بني آدم بعد البلوغ، الرَّجُلُ: مُخْتَصٌّ بِالذَّكْرِ مِنَ النَّاسِ. قال

الفقهاء: الرجل هو البالغ من الذكور، وكذا المرأة هي البالغة من الإناث.

يَعْرِفُونَ كُلًّا: أي: إنَّ أصحاب الأعراف يعرفون كلاً من أهل الجنَّة وأهل النَّار بسيماهم.

بِسِيَاهُمْ: السِّمَةُ، أي: العلامة المميزة لهم، أي: بعلامةٍ ميَّز اللهُ بها أهل الجنَّة وأهل النَّار.

الْجَنَّةُ: الجنَّة هي في الأصل البستانُ ذو الشجر السائر بأشجاره الأرض، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لسترها

الأرضَ وَمَنْ يَدْخُلُ فِيهَا، وكيفما دارت هذه المادَّة دلَّت على السِّتْرِ، وسُمِّيَتْ الجنَّة في الآخرة

جنَّةً لسترها نِعْمها عن النَّاسِ.

سَلَامٌ: من سلم والسلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، والسلامة الحقيقية ليست

إلا في الجنَّة، إذ فيها بقاء بلا فناء، وَغِنَى بِلا فَقْرٍ، وَعِزٌّ بِلا دُلٍّ، وَصِحَّةٌ بِلا سَقَمٍ.

يَدْخُلُوهَا: الدُّخُولُ نَقِيضُ الخُرُوجِ، وَ يُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي المَكَانِ، وَ الزَّمَانِ، وَالأَعْمَالِ.

يَطْمَعُونَ: الطمع: نُزُوعُ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ شَهْوَةً لَهُ، وَالمَرَادُ مِنْ هَذَا الطَّمَعِ اليَقِينُ؛ لِأَنَّ الله قَالَ

مَخْبِراً عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وَذَلِكَ الطَّمَعُ كَانَ طَمَعاً

يَقِيناً فَكَذَا هَاهُنَا^(٢). وَالأخِرُ طَمَعٌ دُلٌّ وَهُوَ أَكْثَرُهُ؛ لِأَنَّهُ طَمَعٌ مِنْ جِهَةِ الهَوَى.

ثانياً: لطائف التفسير ودقائق التأويل^(٣):

اللطيفة الأولى: التتويُّنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلًّا﴾ عَوْضٌ عَنِ المِضَافِ إِلَيْهِ، المَعْرُوفُ مِنَ الكَلَامِ المَتَقَدِّمِ.

أي: كُلُّ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ.

اللطيفة الثانية: أَصْحَابُ الأَعْرَافِ مِنَ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ خَاصَّةً، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ سَائِرِ

الأُمَمِ المُؤْمِنِينَ بِرُسُلِهِمْ، وَأَيَّامًا كَانَ فَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَاتِ هُمْ مَنْ كَانَ مِنَ الأُمَّةِ المَحْمَدِيَّةِ.

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٤٤، ٤٢١)، ونُزْهَةُ الأَعْيُنِ النَوَاطِرُ فِي عِلْمِ الوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ:

ابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، وَعُمْدَةُ الحِافِظِ فِي تَفْسِيرِ أَشْرَفِ الأَلْفَافِ: السَّمِينِ الحَلْبِيِّ (١/٤١٦، ٣٤٨)، وَكِفَايَةُ

الأَخْيَارِ فِي حَلِّ غَايَةِ الإِخْتِصَارِ: أَبُو بَكْرٍ بِنِ مُحَمَّدٍ الشَّافِعِيِّ (ص: ٣٥٠) وَالتَّفْسِيرُ الكَبِيرُ: الرَّازِيِّ (١٤/٩٥، ٩٣)،

وَالتَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِينُ: ابْنُ عَاشُورٍ (٨/١٤٣)، وَأَضْوَاءُ البَيَانِ فِي إِبْضَاحِ القُرْآنِ بِالقُرْآنِ: الشَّنْقِيطِيُّ (ص: ١٨٢٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٥٢٤، ٣٠٩)، وَالتَّفْسِيرُ الكَبِيرُ: الرَّازِيِّ (١٤/٩٣).

(٣) التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِينُ: ابْنُ عَاشُورٍ (٨/١٤٣).

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ نداؤهم أهل الجنة بالسلام يؤذن بأنهم في اتصال بعيدٍ من أهل الجنة، فجعل الله ذلك أمانة لهم بحسن عاقبتهم ترتاح لها نفوسهم، ويعلمون أنهم صائرون إلى الجنة، فلذلك أخبر الله عن حالهم هذه للناس إيداناً بذلك وبأن طمعهم هو طمعٌ مستندٌ إلى علاماتٍ وقوع المطموع فيه، فهو من صنف الرجاء.

اللطيفة الرابعة: ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تفسيرٌ للدعاء، وهو القول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. وسلامٌ عليكم: دعاءٌ تحيةٍ وإكرامٍ.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية:

أ- أن الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه^(١):

الأعراف: موضعٌ بين الجنة والنار، يُشرف على كلٍّ منهما، وليس هو موضع استقرار، إنما هو موضع أناسٍ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، يمكنون فيه مدةً كما يشاء الله ثم يدخلون الجنة، وفي ذلك حكيمٌ نبه الله تعالى عليها منها:

١. أن هذا منزلٌ به يُستدل على كمال عدل الله وحكمته؛ حيث جعل الله أسباب الثواب والعقاب تتجاذب وتتعارض، ويقاوم بعضها بعضاً؛ فحسناتهم منعتهم من النار، وسيئاتهم منعتهم الجنة في ذلك الوقت فصاروا وسطاً بين الدارين، وفي برزخٍ بين المحلين، لتظهر الحكمة أولاً ثم يأتيها الفضل من ذي الفضل من ذي الفضل العظيم، الذي أحاط بالخلق من جميع الوجوه فيغمرها، ويكون الحكم له، ففي هذا من تنويع حمده، وتصريفه لعباده؛ ما به يعرف العباد كماله وكمال أسمائه وصفاته، وحكمته وعدله وفضله.
٢. أن حالهم من جملة الأدلة على سعة رحمة الله، وأن رحمته سبقت غضبه وغلبيته؛ بحيث إذا تعارض موجبٌ هذا وموجبٌ هذا صار الحكم قطعاً لموجب الرحمة على موجب الغضب، لأنه إذا كان في العبد من موجب الرحمة مثقال ذرةٍ من إيمانٍ فإنه لا بد أن يصير الحكم له، ولو عمل موجب الغضب عمله فالعاقبة لموجب الرحمة.
٣. أن الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه، فلما قضى الله تعالى أنهم سيدخلون الجنة؛ جعل الطمع والرجاء في قلوبهم، والدعاء أن يجريهم من النار، ولا يجعلهم مع القوم الظالمين، على ألسنتهم، والدعاء مع الرجاء والطمع لا تتخلف عنه الإجابة.

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (٧٦).

٤. أن أهل الأعراف جعلهم الله سبباً يُعرف به ما يصير إليه أهل الدارين، وما كان عليه أهل الشقاء من النكال والوبال، وما عليه أهل الجنة من السرور والغبطة، ولهذا ذكر الله توبيخهم لرجال يعرفونهم بسيماهم من أهل النار إلى غير ذلك من الحكم الإلهية فيها يُجريه من الأحكام على البرية.

ب- النساء شقائق الرجال^(١):

وليس تخصيص الرجال بالذكر بمقتضى أن ليس في أهل الأعراف نساءً، ولا اختصاص هؤلاء الرجال المتحدّث عنهم بذلك المكان دون سواهم من الرجال، ولكن هؤلاء رجال يقع لهم هذا الخبر، فذكروا هنا للاعتبار على وجه المصادفة، لا لقصد تقسيم أهل الآخرة وأمكنتهم، ولعلّ توهم أن تخصيص الرجال بالذكر لقصد التقسيم قد أوقع بعض المفسرين في حيرة لتطلب المعنى، لأنّ ذلك يقتضي أن يكون أهل الأعراف قد استحقوا ذلك المكان لأجل حالة لا حظ للنساء فيها، فبعضهم حمل الرجال على الحقيقة فتطلب عملاً يعمله الرجال لا حظ للنساء فيه في الإسلام، وليس إلاّ الجهاد، وأمّا ما نُقل عن بعض السلف أنّ أهل الأعراف: هم قوم استوت موازين حسناتهم مع موازين سيئاتهم، ويكون إطلاق الرجال عليهم تغليباً، لأنّه لا بدّ أن يكون فيهم نساءً، والذي ينبغي تفسير الآية به: أنّ هذه الأعراف جعلها الله مكاناً يُوقف به من جعله الله من أهل الجنة قبل دخوله إياها، وذلك ضرب من العقاب خفيف، فجعل الداخلين إلى الجنة متفاوتين في السابق تفاوتاً يعلم الله أسبابه ومقاديره، وخصّ الله بالحديث في هذه الآيات رجالاً من أصحاب الأعراف. وبعض العلماء قال: قوله: ﴿رِجَالٌ﴾ خرج مخرج الغالب؛ فلا مفهوم له؛ بل الرجال والنساء في ذلك سواء^(٢). المراد بقوله: ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أن سيما الرجل المسلم من أهل الجنة بياض وجهه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكون وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وكون كل واحدٍ منهم أغر محجلاً من آثار الوضوء، وعلامة الكفار سواد وجوههم وكون وجوههم عليها غبرة ترهقها قنرة وكون عيونهم زرقاً، وفي تفسير هذه الآية أنّ أصحاب الأعراف كانوا يعرفون المؤمنين في الدنيا بظهور علامات الإيمان والطاعات عليهم، ويعرفون الكافرين في الدنيا بظهور علامات الكفر والفسق عليهم، فإذا شاهدوا أولئك الأقوام في محفل القيامة ميزوا البعض عن البعض بتلك العلامات التي شاهدوها عليهم في الدنيا^(٣).

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٤٢/٨).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٤٨/٢)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٩٥/١).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (٩٥/١٤).

فالصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال الله فيهم: هم رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول الله يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب أن الرجال اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم ودون سائر الخلق غيرهم^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. حكم المرأة حكم الرجل كما هو مُطَرَّد في جُلِّ الأحكام حيث يدخلن مع الرجال بالتبعية إلا ما خصّه الدليل.
٢. أن بياض الوجوه وحسنها سيما أهل الجنة، وأن سواد الوجوه وقبحها وزرقة العيون سيما أهل النار.
٣. أن الرجل أفضل من المرأة؛ وذلك لأنّ الذكورة شرفٌ وكمالٌ، والأنوثة نقصٌ خلقيّ طبيعيّ، والخلق كأنّه مجمع على ذلك؛ لأنّ الأنثى يُجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي، وذلك إنّما هو لجبر النقص الخلقي الطبيعي الذي هو الأنوثة، بخلاف الذكر فجمال ذكورته يكفيه عن الحلي ونحوه.
٤. الطمع في الآخرة محمودٌ.
٥. من وسائل الإثبات القرائن.
٦. أن الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥٠٢).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١/٣٣٧)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٢٢، ٨٨).

الفصل الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٧-٦٤).

العِبَادُ بَيْنَ فَضْلِ اللَّهِ وَعَدْلِهِ

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٧-٥١).

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٥٢-٥٣).

المبحث الثالث: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٥٤-٥٨).

المبحث الرابع: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٥٩-٦٤).

المبحث الأول

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية

(٤٧-٥١)

الجنّة حرامّ على الكافرين

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الدّعاء عبادة.

المطلب الثاني: رحمة الله واسعة.

المطلب الأول: الدعاء عبادة

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: أهل الجنة من الضعفاء والمساكين غالباً

ويدل على هذا المعنى الشرعي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرفُونَهم بِسِيَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٧، ٤٨].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

صُرِفَتْ: الصَّرَفُ: أمر الحال بمغادرة المكان، والصَّرَفُ هنا مجازٌ في الالتفاتِ أو استعارة. **تِلْقَاءَ:** التَّلْقَاءُ: مكان وجود الشيء، وهو منقولٌ من المصدر الذي هو بمعنى اللِّقَاءِ؛ لأنَّ محلَّ الوجود مُلاقٍ للموجود فيه، واللِّقَاءُ: مصادفةُ الشيءِ للشيءِ ومقابلتهُ له معاً، والتَّلْقَاءُ جهة اللِّقَاءِ، وهي جهة المقابلة، ولذلك كان ظرفاً من ظروف المكان.

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ: إضرار العبد في دينه ودنياه هو ظلم النَّاسِ؛ فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة في الدنيا لا محالة لكف ظلم النَّاسِ بعضهم عن بعض، ثم هو نوعان: أحدهما: منع ما يجب لهم من الحقوق. وهو التفریط، والثاني: فعل ما يضر به، وهو العدوان، والأصل أن تكون العقوبة من فعل الله؛ فإنَّه الذي يجزي النَّاسِ على أعمالهم في الآخرة، وقد يجزيهم في الدنيا، وأمَّا نحن فعقوبتنا للعباد بقدر ما يحصل به أداء الواجبات، وترك المحرمات، ولهذا من تاب من الكفار والمحاربيين وسائر الفساق قبل القدرة عليه سقطت عنه العقوبة التي لحق الله، فإذا أسلم الحرِيُّ قبل القدرة عليه عصم دمه وأهله وماله، وكذلك قاطع الطريق والزاني والسارق والشارب إذا تابوا قبل القدرة عليهم؛ لحصول المقصود بالتوبة، وأمَّا إذا تابوا بعد القدرة لم تسقط العقوبة كلها؛ لأنَّ ذلك يفضي إلى تعطيل الحدود وحصول الفساد؛ ولأنَّ هذه التوبة غير موثوقٍ بها.

بِسِيَاهُمْ: السِيما يتعيَّن أن يكون المراد بها المشخَّصات الذاتية التي تتميز بها الأشخاص. **جَمْعُكُمْ:** يحتمل أن يكون جَمْعُ النَّاسِ، أي: ما أغنت عنكم كثرتكم التي تعتزون بها، ويحتمل أن يراد من الجمع، أي: ما جمعتموه من المال والثروة، فالمراد بالجمع إمَّا جمع المال، وإمَّا الاجتماع والكثرة. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: استكبارهم عن قبول الحقِّ، واستكبارهم على النَّاسِ.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣٧/٤)، والتفسير الكبير: الرازي (٩٦، ٩٧/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٧٣/١٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٤٣/٨، ١٤٥، ١٤٤).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

هذه الآية تخبر بأنه إذا حُولت أبصار هؤلاء الرجال إلى أصحاب النَّار، وشاهدوا ما هم فيه من العذاب الشديد قالوا داعين الله: يا ربنا لا تصيرنا مع القوم الظالمين بالكفر والشرك بك. نادى أصحاب الأعراف رجالاً من أهل النَّار من الكفار يعرفونهم بعلاماتهم كسواد وجوههم وزرقة عيونهم قائلين لهم: لم ينفعكم ما كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله، وما ينفعكم إعراضكم عن الحق تكبراً واستعلاءً.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

إنَّ الله تعالى لما بيّن بقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أتبعه أيضاً بأنَّ أصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أهل النَّار، واستغنى عن ذكر أهل النَّار لأجل أن الكلام المذكور لا يليق إلا بهم، وهو قولهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وذلك لا يليق إلا بمن يبكت ويوبخ، ولا يليق أيضاً إلا بأكابريهم.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: إسناد الصِّرف إلى المجهول جار على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يُنظَّب لها فاعل، وقد تكون لهذا الإسناد فائدة زائدة وهي الإشارة إلى أنَّهم لا ينظرون إلى أهل النَّار إلا نظراً شبيهاً بفعل من يحمله على الفعل حَامِل، وذلك أنَّ النَّفس وإن كانت تكره المناظر السيئة فإنَّ حبَّ الاطلاع يحملها على أن توجه النَّظر إليها أونة لتحصيل ما هو مجهول لديها.

اللطيفة الثانية: التعبير عن أهل الأعراف في الآية بـ ﴿أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ﴾ إظهاراً في مقام الإضمار، إذ كان مقتضى الظَّاهر أن يقال: ونادوا رجالاً، إلا أنَّه لما تعدد في الآية السابقة ما يصلح لعود الضمائر إليه وقع الإظهار في مقام الإضمار دفعاً للالتباس.

اللطيفة الثالثة: النداء في ﴿وَنَادَى﴾ يُؤذن ببعد المخاطب فيظهر أنَّ الأعراف لما تطلَّعوا بأبصارهم إلى النَّار عرفوا رجالاً، أو قبل ذلك لما مرَّ عليهم بأهل النَّار عرفوا رجالاً كانوا جبارين في الدنيا.

اللطيفة الرابعة: إنَّ القرآن يشتمل على أنواع من القواعد الأصلية والفوائد الفرعية، والمحاسن الأدبية يُستعان بها في فهم المراد، منها: كيفية تأدب العباد إذا قصدوا باب ربِّ الأرباب بالتضرُّع والدُّعاء؛ فقد بيّن مساقُ القرآن آداباً استقرت منه، إذ أنَّ نداء الله للعباد لم يأت في القرآن في

(١) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص:١٥٦).

(٢) التفسير الكبير: الرازي(٩٦/١٤).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور(١٤٤/٨، ١٤٥).

الغالب إلا بـ ﴿يَا﴾ المشيرة إلى بُعد المنادي؛ لأنَّ صاحبَ النداء موصوف بالتعالى عنهم والاستغناء، فإذا قرر نداء العباد للربّ أتى بأمر تستدعي القرب، منها: إسقاط حرف النداء المشير إلى قرب المنادي، وأنته حاضر مع المنادي غير غافل عنه؛ فدلَّ على استشعار الراغب هذا المعنى؛ إذ لم يأت في الغالب إلا ﴿رَبَّنَا﴾ كقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا..﴾، ومنها: كثرة مجيء النداء باسم الربِّ المقتضى للقيام بأمر العباد وإصلاحها؛ فكأنَّ العبدُ متعلِّقٌ بمن شأنه التربية والرفق والإحسان، قائلاً: يا من هو المصلح لشؤوننا على الإطلاق وهو مقتضى ما يدعو به.

اللطيفة الخامسة: الخبر في الآية مستعملٌ في الشّماتة والنّوْيف على الخطأ.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: واستكباركم الذي مضى في الدنيا، ووجه صوغه بصيغة الفعل دون المصدر إذ لم يقل: استكباركم ليتوسّل بالفعل إلى كونه مضارعاً فيفيد أنّ الاستكبار كان دأبهم لا يفترّون عنه.

اللطيفة السابعة: الاستفهام في قوله: ﴿أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ مستعملٌ في التّقرير.

اللطيفة الثامنة: الإشارة في الآية بـ ﴿أَهْوَلَاءِ﴾ إلى قوم من أهل الجنة كانوا مستضعفين في الدنيا ومحقرين عند المشركين بقرينة قوله: ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قال المفسّرون: هؤلاء ضعفاء المؤمنين، فإمّا أن يكونوا حينئذٍ قد استقروا في الجنة فجلاهم الله لأهل الأعراف وللرجال الذين خاطبهم، وإمّا أن يكون ذلك الجوار قد وقع قبل إدخالهم الجنة، وقسمهم عليهم لإظهار تصلبهم في اعتقادهم وأنهم لا يخامرهم شكٌ في ذلك^(١).

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ هو المقسم عليه، وقد سلطوا النّفي في كلامهم على مراعاة نفي كلام يقوله الرسول (ﷺ) أو المؤمنون، وذلك أنّ بشارات القرآن أولئك الضّعفاء، ووعده إياهم بالجنة، وتناّه عليهم نزل منزلة كلام يقول: إنّ الله ينالهم برحمته، والتّيل في الآية استعارة، وقد عمدوا إلى هذا الكلام المقدّر فنّفوه فقالوا: ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وهذا النظم الذين أخبر به قسمهم يؤذّن بتهمهم بضعفاء المؤمنين في الدنيا.

اللطيفة العاشرة: قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ مقول قول مقدر اختصاراً لدلالة السياق عليه، وحذف القول في مثله كثيرٌ ولا سيما إذا كان المقول جملةً إنشائيةً، والتّقدير: قال لهم الله: ادخلوا الجنة، فكذب الله قسمكم وخيب ظنكم، وهذا كلّ من كلام أصحاب الأعراف.

اللطيفة الحادي عشر: الأظهر أن يكون الأمر في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ للدّعاء؛ لأنّ المشار إليهم بـ ﴿أَهْوَلَاءِ﴾ هم أناسٌ من أهل الجنة؛ لأنّ ذلك الحين قد استقرّ فيه أهل الجنة في الجنة

(١) الموافقات: الشاطبي(٤/٢٠٣، ٢٠٢)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور(٨/١٤٥، ١٤٦).

وأهل النار في النار، كما تقتضيه الآيات السابقة من قوله: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فلذلك يتعين جعل الأمر للدعاء، وإذ قد كان الدخول حاصلًا فالدعاء به لإرادة الدوام^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

المقصود بهذه الآية ذكرُ شيءٍ من أمر الآخرة، فيه نذارة وموعظة لجبايرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقرون المستضعفين من المؤمنين، وفيهم عبيدٌ وفقراءٌ، فإذا سمعوا بشارات القرآن للمؤمنين بالجنة سكتوا عن من كان من أحرار المسلمين وسادتهم، وأنكروا أن يكون أولئك الضعاف والعييد من أهل الجنة، وذلك على سبيل الفرض، أي: لو فرضوا صدق وجود جنة، فليس هؤلاء بأهل لسكنى الجنة؛ لأنهم ما كانوا يؤمنون بالجنة، وقصدهم من هذا تكذيب النبي (ﷺ)، وإظهار ما يحسبونه خطأً من أقواله، وذلك مثل قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْسِكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَرَّزٍ إِنَّكُمْ لَنِي خَلَقْتُمْ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧]، فجعلوا تمزق الأجساد وفناءها دليلاً على إبطال الحشر، وسكتوا عن حشر الأجساد التي لم تمزق، وكل ذلك من سوء الفهم وضعف الإدراك والتخليط بين العاديات والعقليات. ومعنى الآية: أنه كلما وقعت أبصار أهل الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله في أن لا يجعلهم من زمريتهم، والمقصود من جميع هذه الآيات التخويف حتى يقدم المرء على النظر والاستدلال، ولا يرضى بالتقليد ليفوز بالدين الحق فيصل بسببه إلى الثواب المذكور في هذه الآيات، ويتخلص عن العقاب المذكور فيها وهذا كالدلالة على شماتة أصحاب الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين في العقاب وعلى تكبيت عظيم يحصل لأولئك المخاطبين بسبب هذا الكلام، ثم زادوا على هذا التكبيت، وهو قولهم: ﴿أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فأشاروا إلى فريقٍ من أهل الجنة كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم، وربما هزوا بهم، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية لمن كان مستضعفاً عنده قلق لذلك، وعظمت حسرته وندامتة على ما كان منه في نفسه.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٣):

١. أن التعليق والفرض والتقدير يصح فيما لا يمكن ولا يقع.
٢. على الذين يملكون المال والجاه وكثرة الاتباع أن يعلموا أن هذا كله لن يغني عنهم من الله شيئاً، ولن ينجيهم من عذاب الله.

(١) المرجع السابق (١٤٧/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/٩٧، ٩٦)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٤٧، ١٤٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢١٨)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية (ص: ١٥٦).

٣. أن أهل الجنة يعرفون ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه.

٤. تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار.

المقصد الثاني: الماء مادة الحياة

ويدل على هذا المقصد القرآني قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُوءًا وَلَعِبًا وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥٠، ٥٠].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

خَوْفٌ: الخوف توقع المكروه لأماره مذنونة أو معلومة، والخوف فيه قلق واضطراب، ويكون الخوف في الأمور الدنيوية والأخروية، ويقابله الأمن لما فيه من الطمأنينة. **أَفِيضُوا:** فعل الفيض حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوة، ويستعمل توسعاً في الكثرة، ويجيء أيضاً اتساعاً في السخاء ووفرة العطاء.

الماء: جوهر لطيف سيال شفاف يتلون بلون إنائه، فهو لا لون له، وأفضل المياه ما نبع من بين أصابعه(ﷺ)، ثم ماء زمزم ثم ماء الكوثر ثم نيل مصر ثم باقي الأنهار.

أَصْحَابُ النَّارِ: أصحاب النار مراد بهم من كان من مشركي أمة الدعوة؛ لأنهم المقصود.

الكَافِرِينَ: المراد بـ﴿الكَافِرِينَ﴾ المشركون؛ لأنهم قد عرفوا في القرآن بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وعرفوا بإنكار لقاء يوم الحشر.

هُوءًا: للهو صرف الهم إلى ما لا يحسن أن يصرف إليه. ويعبر به عن كل ما به استمتاع. واللهو الشغل عن مهمات الأمور، ويقترن للهو باللعب متقدماً عليه تارة، ومتأخراً عنه أخرى تفنناً في البلاغة.

وَلَعِبًا: اللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب.

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

إن الله تعالى لما بين ما يقوله أصحاب الأعراف لأهل النار أتبعه بذكر ما يقوله أهل

النار لأهل الجنة من باب المقابلة.

(١) ينظر: صحيح البخاري كتاب الفتن . حديث رقم (٧١٢١)، (ص: ٨٣٨)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف

الألفاظ: السمين الحلبي (٤/١، ٤٥/٥٤٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٤٩، ١٤٨)، وحاشية

قليوبي وعميرة على المحلي (١٨/١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود الحنفي (٣/١٨٥)،

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٩٨/١٤).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

يقول أهل الأعراف للكفار مشيرين إلى المؤمنين: أهؤلاء هم الذين حلفتم أن لا ينالهم الله برحمةٍ من عنده، ويقال للمؤمنين: ادخلوا أيها المؤمنون الجنة بأعمالكم الصالحة لا خوف عليكم فيما تستقبلونه من المكاره، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من حظوظ الدنيا. وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ملتسمين منهم قائلين: أفيضوا علينا يا أصحاب الجنة من الماء أو من الطعام فأجابهم أهل الجنة: إن الله حرّم ماء الجنة وطعامها على الكافرين بسبب كفرهم بالله، ولأنّ هؤلاء الكافرين صيروا دينهم باطلاً ولهواً، وخذعتهم الحياة الدنيا بزُخرفهم وزينتها.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ من كلام الله، ولا بُدَّ من إضمار في الآية، والتقدير: فقال الله لهم هذا، والمراد أنّ الله يحث أصحاب الأعراف بالدخول في الجنة، واللحوق بالمنزلة التي أعدها الله لهم، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ...﴾ من كلام أصحاب الأعراف.

اللطيفة الثانية: الفيض في الآية: ﴿أَنْ أَوْضُوا﴾ إذا حُمِلَ على حقيقته كان أصحاب النار طالبين من أصحاب الجنة أن يصبوا عليهم ماءً ليشربوا منه، وعلى تكون: ﴿مِنْ﴾ بمعنى بعض، أو صفة لموصوف محذوف تقديره: شيئاً من الماء؛ لأنّ: أفيضوا يتعدى بنفسه، ويجوز أنّ يحمل الفيض في الآية على الاتساع، وهو سعة العطاء والسّخاء، من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصبّ بمناسب، بل المقصود الإرسال والتفضّل، ويكون العطف مفرد على مفرد، ويكون سؤالهم من الطعام مماثلاً لسؤالهم من الماء في الكثرة، فيكون في هذا الحمل تعريضٌ بأنّ أصحاب الجنة أهل سخاء، وتكون ﴿مِنْ﴾ على هذا الوجه بيانيةً لمعنى الإفاضة.

اللطيفة الثالثة: الرزق في قوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ مرادٌ به الخبز والطعام، وفي ذلك تكذيبٌ للنّصارى الذين كذبوا بالجنة، فقالوا: لا طعام في الجنة ولا شراب^(٣). ولم يُصرّح الله بذكر الخبز والطعام، لقلّته عنده، وصرّح بذكر الماء؛ لأنّه شرفه؛ لأنّ كلّ شيءٍ خلقه - من الحيوان والفاكهة وغير ذلك - حياته بالماء^(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٥)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٦).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٩٧/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٤٩/٨).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير، حديث رقم (٤٧٢٨)، (ص: ٥٦٩)، والاعتصام: الشاطبي (٨٣/١).

(٤) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: محمد بن عبد الواحد الزاهد (ص: ٢٢٩).

اللطفية الرابعة: قوله: ﴿قَالُوا﴾ الضمير عائدٌ فيه لأصحاب الجنة، وهو جوابهم عن سؤال أصحاب النار، ولذلك فصل على طريقة المحاوره.

اللطفية الخامسة: التحريم في قوله: ﴿حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ مُستعملٌ في معناه اللغوي، وهو المنع، كقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

اللطفية السادسة: ظاهر النظم أن قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُجُورًا﴾ هو إخبار عن كلام أهل الجنة، فيكون: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُجُورًا﴾ صفة للكافرين، وجوز أن يكون: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حُجُورًا﴾ مبتدأ على أنه من كلام الله، وهو يُفصي إلى جعل الفاء في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاءهُمْ﴾ داخلة على خبر المبتدأ، لتشبيه اسم الموصول بأسماء الشرط.

اللطفية السابعة: قوله: ﴿وَعَرَّتْهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ هو من التوسع؛ لأن الحياة الدنيا لا تغر في الحقيقة بل المراد أنه حصل الغرور عند هذه الحياة الدنيا؛ لأن الإنسان يطمع في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقوة الجاه فلشدة رغبته في هذه الأشياء يصير محجوباً عن طلب الدين غرقاً في طلب الدنيا.

اللطفية الثامنة: قوله: ﴿أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ فيه دلالة على أن الجنة فوق النار، وأن أهل الجنة أعلى مكاناً من أهل النار^(١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار بفرج بعد اليأس، فقالوا: يا رب إن لنا قربات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فأمر الله الجنة فتزحزحت، ثم نظر أهل جهنم إلى قرباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلى قرباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم وقد اسودت وجوههم وصاروا خلقاً آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم، وقالوا: ﴿أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق واللهيب بسبب شدة حر جهنم، وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد والجوع الشديد لأصحاب النار، فالماء مادة الحياة، وسيّد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركّنه الأصلي، فقد جعل الله منه كلّ شيء حيّ، وهو بارد رطب، يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته، ويرد عليه بدل ما تحلّل منه، ويُرقّق الغذاء، ويُفدّه في العروق، ثم إن أصحاب النار كانت رغبته وشهوتهم في الدنيا في الشرب والأكل، وفي الآخرة بقوا على هذه الحالة، وذلك يدل على

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٨،٩٩/١٤)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود

الحنفي (١٨٥/٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٤٩/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (٩٨/١٤).

أَنَّ الرجل يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه، ثم بيّن الله أَنَّ هؤلاء الكفار لما طلبوا الماء والطعام من أهل الجنّة قال أهل الجنّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولا شك أَنَّ ذلك يفيد الخيبة التامة، ثم إِنَّ الله وصف هؤلاء الكفار بأنهم: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُؤَالًا وَلَعِبًا﴾ وفيه وجهان: الأول: أَنَّ الذي اعتقدوا فيه أَنَّهُ دينهم تلاعبوا به، وما كانوا فيه مجدين، والثاني: أَنَّهُم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم، فيعاقبهم الله بأن يرسل على أهل النَّار الجوع حتى يزداد عذابهم فيستغيثون فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلايب الحديد فيقطع ما في بطونهم، ويستغيثون إلى أهل الجنّة فيقول أهل الجنّة: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فعند ذلك ييأسون من كلِّ خيرٍ. قال ابن القيم: "والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء، والبارد منه أنفع وألذ، ولا ينبغي شربه على الريق، ولا عقيب الجماع، ولا الانتباه من النوم، ولا عقيب الحمام، ولا عقيب أكل الفاكهة، وأمّا على الطعام، فلا بأس به إذا اضطرَّ إليه، بل يتعين ولا يُكثر منه، بل يتمصّصه مصّاً، فإنّه لا يضره ألبتة، بل يقوّى المعدة، ويُنهض الشهوة، ويُزيل العطش"^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. في الآية ردٌّ على الملاحدة الذين أنكروا حقيقة اليوم الآخر، فجعلوا أهل النَّار يتتعمون كما يتتعم أهل الجنّة.
٢. أَنَّ الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره.
٣. أَنَّ أهل الجنّة آمنون مطمئنون، فرحون بكلِّ خيرٍ.
٤. الآية إخبارٌ عن ذلة أهل النَّار وسؤالهم أهل الجنّة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠٠، ٩٨)، وزاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٤/٣٥٦).

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٤٦)، وتفسير القرآن العظيم: ابن

كثير (٢/٢١٩)، وأضواء البيان: الشنقيطي (ص: ١٢٣٢)، وتيسير الكريم الرحمن: السعدي (ص: ٢٩٥).

المقصد الثالث: الجزاء من جنس العمل

يدلُّ عليه قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

اليَوْمَ: اليومُ عبارةٌ عن مدةِ الزمان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقد يُعبَّرُ باليوم عن مطلقِ الزمان قلَّ أو كثر من ليلٍ أو نهارٍ.

نَسَاهُمْ: النسيان هو الترك. والمعنى: نتركهم في عذابهم في النَّارِ كما تركوا العملَ للقاءِ يومهم هذا، والمراد من هذا النسيان أنَّ الله لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنَّ الكافرين يوم القيامة ينساهم الله ويتركهم يقاسون العذاب، كما نسوا لقاء يوم القيامة فلم يعملوا له، ولم يستعدوا، ولجحدوهم بحجج الله وبراہينه وإنكارهم لها مع علمهم بأنَّها حقٌّ.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

هذه الآية اعتراضٌ أُخبر به كلام يُعلن به، من جانب الله، يسمعه الفريقان، وتغييرُ أسلوب الكلام هو القرينة على اختلاف المتكلم، وهذا الأليق من جعل قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُؤُا وَلَعِبًا﴾ إخباراً عن كلام أصحاب الجنة.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: العطف بالفاء في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ للتفريع على قول أصحاب الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا العطف بالفاء من قبيل ما يسمَّى بـ "عطف التثنيين" الممثل له غالباً بمعطوف بالواو، فهو عطفُ كلام متكلم على كلام متكلم آخر، وتقديرُ الكلام: قال الله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ فحذف فعل القول، وهذا تصديقٌ لأصحاب الجنة، ومن المفسرين من جعل قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُؤُا﴾ كلاماً مستأنفاً من قبل الله، فتكون الفاء تفريراً في كلام واحد.

اللطيفة الثانية: النسيان في الموضعين من الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا﴾ مستعملٌ توسعاً في الإهمال والتَّرك؛ لأنَّه من لوازم النسيان، فإنَّهم لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة، فقد كانوا يذكرونه ويتحدَّثون عنه حديثاً من لا يصدِّق بوقوعه.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣٥٩/٤)، والتفسير الكبير: الرازي (٩٩/١٤).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٦).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٥٠/٨).

(٤) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥١، ١٥٠/٨).

اللطيفة الثالثة: تعليق الظرف في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ بفعل: ﴿نَسَاهُمْ﴾ لإظهار أنّ حرمانهم من الرّحمة كان في أشدّ أوقات احتياجهم إليها، فكان لذكر اليوم أثرٌ في إثارة تحسرهم وندامتهم، وذلك عذابٌ نفسانيّ.

اللطيفة الرابعة: إنّ الكاف في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا﴾ للتشبيه، ويقال: إنّ الكاف في مثله للتعليل، كما في قوله: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وإنّما التعليل معنى يتولّد من استعمال الكاف في التشبيه الاعتباري، وليس هذا التشبيه بمجازٍ، ولكنّه حقيقةٌ خفيّةٌ لخفاء وجه الشبه.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿كَمَا نَسُوا﴾ ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الصّفة لموصوفٍ محذوفٍ دلّ عليه ﴿نَسَاهُمْ﴾ أي: نسياناً كما نسوا.

اللطيفة السادسة: ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، مصدريةٌ، أي: كنسيانهم اللّقاء، وكجحدهم بآيات الله.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

هذه الآية الكريمة تُدندنُ حول سنّةٍ إلهية، وتحوم حول قاعدةٍ عدلية، ألا وهي: أنّ جزء العامل يكون من جنس عمله، إن خيراً فخير، إن شراً فشرٌّ ﴿جَزَاءً وَفَأَقَا﴾ [النبا: ٢٦] وهي قاعدة شريفة، أكدت صحتها أيام الله، فكما تدينُ تُدان، ولقد أودع الله هذا الكون سنناً ثابتةً، لا تتغير ولا تتبدل، وقاعدة: (الجزء من جنس العمل) سنّةٌ من هذه السنن، لو وضعت نُصبَ أعين النّاس لجزّرتهم عن كثيرٍ من شرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ولو أخللناها في قلوبنا المحل الرفيع اللائق بها لأشهدتنا أماراتٍ تُخيّل لنا ما ينتظرنا من عاقبة أعمالنا، ولهذه القاعدة المباركة آثار عظيمةٌ النّفع في إصلاح الدّين والدّنيا، وهذا الانتفاع وقفّ على أولى الأبواب، الذين يحكمون على الأمور بمآلاتها، ويترئون الأفعال بعواقبها، وهي في المقام الأوّل دافعة للأعمال الصالحة، ناهية عن الظلم، زاجرة للظالمين، مؤاسية للمظلومين، فلو استحضر الظالمُ الباغي عاقبة ظلمه، وأنّ الله سيُسقيهِ من نفس الكأس، عاجلاً أو آجلاً، لكفّ عن ظلمه، وتاب إلى الله وأناب، وفي هذه القاعدة الشريفة، والمقصد العظيم أعظم مواساة للمظلوم المستضعف، والمقهور المغلوب؛ حيثُ توّزه على الصبر والثبات، وثوقاً بموعود الله الذي يُمهّل ولا يُهمّل، ويُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، وبمده إيمانه بأنّ: "الجزء من جنس العمل" بوقود إيمانيّ يدفعه للمضيّ قدماً في طريقه صابراً مُحْتَسِباً، وما أجمل ما سطره العلامة ابنُ أبي العز الحنفي في شرحه لمتن الطحاوية، بقوله: "فإنّ الله ما سلّط الأمراء الظلمة علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ

(١) الجزء من جنس العمل: سيد حسين العفّاني (ص: ١٥).

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿الشُّورَى: ٣٠﴾، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم، فليتركوا الظلم^(١). وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ هذا من قول الله مرتب على ما قبله ترتب المسبب على السبب، والمراد باليوم يوم الجزاء، وهو محدود بالعمل الذي هو الجزاء، وإن لم يعرف له مقدار، والمراد: تعاملهم معاملة المنسي الذي لا يفنقه أحد، كما جعلوا هذا اليوم منسياً أو كالمنسي بعدم الاستعداد والتزود له، والظاهر أن الكاف للتعليل كقوله: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: لهدايته لكم - لا للتشبيه - على أنه يصح في هذه الجملة على حد المثل الجزاء من جنس العمل^(٢)، وأكد هذا المعنى ابنُ عاشور بقوله: "ودلَّ معنى كاف التشبيه في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا﴾ على أن حرمانهم من رحمة الله كان مماثلاً لإهمالهم التصديق باللقاء، وهي مماثلة جزاء العمل للعمل، وهي مماثلة اعتبارية، فلذلك يُقال: إنَّ الكاف في مثله للتعليل". لذلك فإنَّ من سنن الله أن جعل الجزاء من جنس العمل، فما من إنسان يعمل عملاً صالحاً إلا كان جزاؤه صالحاً، وما من آخر يعمل عملاً سيئاً إلا كان جزاؤه سيئاً، فكان من قدر الله الكوني الشرعي أن جعل جزاء المنكرين للإيمان بالله في الآخرة من جنس صنيعهم في الدنيا، فكان عقابهم في الآخرة من جنس صنيعهم في الدنيا، والجزاء في الآخرة هو من جنس العمل في الدنيا^(٣). فالثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر الله وفي شرعه؛ فإنَّ هذا من العدل، وقال النبي (ﷺ): "مَنْ لَا يَرْحُمُ لَا يُرْحَمُ"^(٤). ولهذا قطع يد السارق، وشرع قطع يد المحارب ورجله، وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبشار، فإذا أمكن أن تكون العقوبة من جنس المعصية، كان ذلك هو المشروع بحسب الإمكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهَوَّ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]، وفي الحديث: "يُحْشَرُ الْجَبَارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" أمثال الذر يطوهم الناس بأرجلهم"^(٥)؛ فإنَّهم لما أدلوا عباد الله، أدلهم الله لعباده، كما أن من تواضع لله رفعه الله؛ فجعل العباد متواضعين له، وقد بين الله في الآية أن كلَّ هذه التشديدات إنما كان لأنَّهم كانوا بآياته يجحدون، وفي هذه الآية لطيفةٌ عجيبةٌ وذلك لأنَّ الله وصفهم بكونهم كانوا كافرين، ثم بين من حالهم أنَّهم اتخذوا دينهم لهواً أولاً، ثم لعباً ثانياً، ثم غرتهم الحياة الدنيا

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٣٦٨)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٥٧٥).

(٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا (٨/٤٤٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٥١).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/٢٧٦)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن القيم (١/١٠٠).

(٤) البخاري في كتاب الأدب. باب رحمة الولد وتقيله ومعانقته، حديث رقم (٥٩٩٧)، (ص: ٧١٨).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة، حديث رقم (٢٤٩٢)، (٤/٣٧١).

ثالثاً، ثم صار عاقبة هذه الأحوال والدرجات أنهم جحدوا بآيات الله، وذلك يدل على أن حبّ الدنيا مبدأ كل آفة، فقد يؤدي حبّ الدنيا إلى الكفر والضلال^(١).
سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. دلت الآية على أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر.
٢. أن المجازاة تقع من جنس الطاعات.
٣. عدم الإيمان بالبعث سبب مباشر للإقبال على الشهوات.
٤. أن النظر في أحوال الأخيار وسير الصالحين يُعطي صورة صادقة لأثر الإيمان بالله في النفس البشرية.
٥. كأن الكافر لم يخلق إلا للدنيا، وليس أمامه عرض ولا جزاء.

المطلب الثاني: رحمة الله واسعة

وفيه أربعة مقاصد:

المقصد الأول: علم الشريعة عظيم.

يدل عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

بِكِتَابٍ: المراد به القرآن، فالقرآن مشتمل على مهماتٍ وأمورٍ دقيقة، ونواه وأخبار وقصص وغير ذلك، إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهلٌ بها ضالٌّ عنها، والقرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود، منزل غير مخلوق، حيث تصرف "أي: حيث تلي وكتب وقرئ مما هو في نفس الأمر كلام الله، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤوه بحركاتهم وأصواتهم، والقرآن كلام الباري، والصوت صوت القارئ، فالقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد (ﷺ) وسمعه محمدٌ منه وبلغه محمدٌ إلى الخلق، والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض، ويسمعه بعضهم من بعض.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٩/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨/١٢٠، ١١٩)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤٨/١).

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٤٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٢٦٢/٦)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٩٥)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٦)، وتزكية النفس: ابن تيمية (ص: ١٧).

(٣) تهذيب اللغة: الأزهري (٣٧٩/٦)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٥٨٠، ٦٣٨، ٨٣٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٠٠/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٥٦، ٩٨، ١٤/٣٩)، (١٩/٣٠٦)، (٧/٢٩١)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٥١، ١٥٢)، وشرح الأصول الستة: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٣٣).

فَصَلَّنَاهُ: الفصلُ إبانةُ أحدِ الشَّيْئِينَ مِنَ الْآخِرِ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُمَا فُرْجَةٌ، والمعنى أي: بيِّناه، أي: بيَّنَّا ما فيه، وميزنا بعضه عن بعض، تمييزاً يهدي إلى الرُّشْدِ ويؤمِّن عن الغلط والخبث. **عِلْمٌ**: العِلْمُ: إدراكُ الشَّيْءِ بِحَقِيقَتِهِ، والمراد أنَّ ذلك التفصيل والتمييز إنَّما حصل مع العلم التام بما في كلِّ فصلٍ من تلك الفصول من الفوائد المتكاثرة والمنافع المتزايدة، ومسمَّى العلم الشرعي قسماً: الأول: ما أخبر به الشارع، والآخر ما أمر به الشارع. والعلم الشرعي: هو ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى.

هُدًى: الهدايةُ دَلَالَةٌ بِطُفٍّ، ومنه: الهديةُ، والطريق يُسمَّى هُدًى، والهُدْيُ نقيض الضلالة. **يُؤْمِنُونَ**: تفسير الإيمان بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، فإنَّ الإيمان ليس مرادفاً للفظ التصديق في المعنى؛ والإيمان لا يستعمل إلا في الخبر عن غائبٍ، وهو يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر؛ ولهذا لم يوجد قطُّ في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع، والإيمان مشتق من الأمن، والمؤمن المطلق في باب الوعد والوعيد، وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقابٍ، هو المؤدي للفرائض، المجتنب المحارم، وهؤلاء هم المؤمنون عند الإطلاق، لهذا كان الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يضره، فإنَّ المؤمن بالنَّار حقيقة الإيمان حتى كأنه يراها، لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلاً عن أن يسعى فيها بجهد، والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تُطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها، وهذا أمرٌ يجده الإنسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلُّص منه من المضار^(١). ولهذا منع السلف أن يقال: الإيمان مخلوق. وقالوا: لا إله إلا الله من القرآن، والإيمان شرعاً: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبه الله ويرضاه^(٢).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية:

تحدث الآيات عن القرآن وعن تفصيله وعن معانيه وأخباره ووعوده، وأخبرت أن الله جاء النَّاسَ بهذا القرآن، وجعله كتاباً مفصلاً لفظياً وموضوعياً، وجعله هدىً يهتدي به المؤمنون، ورحمةً يرحم به المؤمنون عندما يؤمنون به وينتدبرونه، وينفذون أحكامه^(٣).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات:

صلة هذه الآية بما قبلها أنَّ (الواو) في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ عَاطِفَةٍ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى آيَةٍ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ عطفُ القصة على القصة، والغرض على

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٥٣/١١)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (١٧١/٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨٣/١٥)، (٧٧/١٢).

(٣) التفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي (ص: ٦٨).

الغرض، فهو كلامٌ أنفٌ، انتقل به من غرض الخبر عن حال المشركين في الآخرة إلى غرض وصف أحوالهم في الدنيا، المستوجبين بها لما سيلاقونه في الآخرة، فضمير الغائبين في قوله: ﴿جِنَّاهُمْ﴾ عائدٌ إلى الذين كذبوا في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾، فإن الله لما شرح أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجهٍ يصير سماع تلك المناظرات حاملاً للمكلف على الحذر والاحتراز وداعياً له إلى النظر والاستدلال، بين الله شرفَ هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته^(١).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الباء في قوله: ﴿بِكِتَابٍ﴾ لتعديفة فعل ﴿جِنَّاهُمْ﴾ ومعناه: أجناهم كتاباً، أي: جعلناه جاء يا إياهم، فيؤول إلى معنى أبلغناهم إياه وأرسلناه إليهم.

اللطيفة الثانية: التأكيد في الآية، حيث أكد الفعل: ﴿جِنَّاهُمْ﴾، بلام القسم و﴿قَدْ﴾ إمّا باعتبار صفة ﴿كِتَابٍ﴾ وهي آية: ﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيكون التأكيد جارياً على مقتضى الظاهر، لأنَّ المشركين ينكرون أن يكون القرآنُ موصوفاً بتلك الأوصاف، وإمّا تأكيداً لفعل ﴿جِنَّاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو بلوغ الكتاب إليهم فيكون التأكيد خارجاً على خلاف مقتضى الظاهر، بتزليل المبلَّغ إليهم منزلة من ينكر بلوغ الكتاب إليهم، لأنَّهم في إعراضهم عن النظر والتدبر في شأنه بمنزلة من لم يبلغه الكتاب.

اللطيفة الثالثة: تنكير ﴿بِكِتَابٍ﴾ وهو معروف، فُصد به تعظيم الكتاب، أو فُصد به النوعية، أي: ما هو إلا كتابٌ كالكتب التي أنزلت من قبل.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحال من فاعل ﴿فَصَلَّنَاهُ﴾، أي: حال كوننا على علمٍ، و﴿على﴾ للاستعلاء، تدلُّ على التمكن من مجرورها، ومعنى هذا التمكن أنَّ علمَ الله تعالى ذاتي لا يعزب عنه شيءٌ من المعلومات.

اللطيفة الخامسة: تنكير ﴿عِلْمٍ﴾ للتعظيم، أي: عالمين أعظم العلم، والعظمة هنا راجعةٌ إلى كمال الجنس في حقيقته، وأعظم العلم هو العلم الذي لا يحتمل الخطأ ولا الخفاء، أي: عالمين علماً ذاتياً لا يتخلف عناً ولا يختلف في ذاته، أي: لا يحتمل الخطأ ولا التردد.

(١) التفسير الكبير: الرازي (٩٩/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥١/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٠٠/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥٣/٨، ١٥٢).

اللطفية السادسة: قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من ﴿بِكِتَابٍ﴾، أو من ضميره في قوله: ﴿فَصَلَّنَاهُ﴾. ووصف الكتاب بالمصدرين ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى قوة هديه النَّاسَ وجلب الرَّحمة لهم، وهدى في موضع نصب، أي: فصلناه هادياً وذا رحمة. اللطفية السابعة: وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ المؤمنين هم الذين توصلوا للاهتمام به والرحمة، وأنَّ من لم يؤمنوا قد حُرِّموا الاهتمام والرحمة، والآية تدلُّ على أنَّ القرآن جعل هدىً لقومٍ مخصوصين، والمراد أنَّهم هم الذين اهتموا به دون غيرهم. خامساً: بيان المقصد من الآية^(١):

إنَّ كون القرآن هدى للمتقين يشهد له القرآن، وهو متكرر فيه في أكثر من موطن، فالقرآن كلُّه هدى ورحمة، وجمهور النَّاسِ لا يعرفون معاني الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن يُبينها ويُفسرها لهم، وإن كانوا يعرفون اللُّغة، فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، وهذا هو طلب العلم المفروض على الخلق، وكذلك ما بينه الرَّسول (ﷺ) من معاني الكتاب الذي أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان، كما قال ابنُ عباسٍ: "تفسيرُ القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب"^(٢). قال البخاري باب قول النبي (ﷺ): "لا تزال طائفةٌ من أمَّتِي ظاهرينَ على الحقِّ يُقاتلون". وهم أهلُ العلم^(٣).

والعلم لا بُدَّ فيه من نقلٍ مصدقٍ ونظرٍ محققٍ، وأمَّا النقول الضعيفة لا سيما المكذوبة فلا يعتمد عليها، وكذلك النظريات الفاسدة والعقليات الجهلية الباطلة لا يحتج بها، فإنَّ كلَّ ما يدلُّ عليه الكتاب والسُّنة فإنَّه موافق لصريح المعقول، وإنَّ العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، وليس في المعقول ما يخالف المنقول، كذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً، لا تناقض شيئاً ممَّا قاله الرسول، والقرآن قد دلَّ على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده، وصفاته وصدق رسله، وبها يُعرف إمكان المعاد، ففي القرآن من بيان أصول الدِّين التي تُعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحدٍ من النَّاسِ، بل عامَّة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها، فإنَّ من أسباب ضلال أهل الأهواء والبدع هو تقصيرهم أو قصورهم عن معرفة ما جاء به

(١) المحرَّر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ٢٦١).

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥٧/١)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن

تيمية (٥٣/٢)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (٧/٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة، حديث رقم (٧٣١١)، (ص: ٨٦٠).

الرسول، وما كان عليه السلف، ومعرفة المعقول الصريح؛ فإنَّ هذا هو الكتاب وهذا هو الميزان. وليس من العلم ما لا يُعرَف، إنَّما العلم ما عُرِف وتواطأت عليه الألسن^(١)، ومعلوم أنَّ أصل الإيمان هو الإيمان بالله ورسوله وهو أصل العلم الإلهي، وأنَّ الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد، أي: تصديق الرسول فيما أخبر والانقياد له فيما أمر، كما أنَّ الإقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له، والكفر هو عدم الإيمان سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر ومن المعلوم أنَّ أفضل العلوم هو العلم بالله، ولا تصحُّ به فضيلة لصاحبه حتى يصدق بمقتضاه، وهو الإيمان بالله، والعلم النافع هو ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها^(٢).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. أنَّ الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات.
٢. العلم الذي ورد فيه المدح والثناء هو علم الشرع علم ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، وهو فقه كتاب الله وسنة رسوله، وما عدا ذلك فإن كان وسيلة إلى خير فهو خير، وإن كان وسيلة إلى شر فهو شر، وإن لم يكن وسيلة لهذا وهذا فهو ضياع وقت.
٣. العلماء الربانيون هم الذين يربون النَّاس على شريعة الإسلام.
٤. العلم لا يعدُّه شيء لمن صحَّت نيته؛ فالعلم هو أصل الشرع كله، ولا شرع إلا بعلم.
٥. القرآن كتاب عبادة وهداية وإعجاز، وإنزال القرآن هو النعمة العظمى.
٦. أنَّ الكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق النَّاس.
٧. هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أنَّ الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها هي أنَّ يعبد الله وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء.
٨. في الآية دليل على أنَّ الله عالمٌ بعلمٍ خلافاً لما يقوله المعتزلة: من أنَّه ليس لله علم، فإنَّ الله عندهم لا يوصف بصفة ثبوتية، فلا يقولون: إنَّ الله علماً ولا محبةً ولا رحمةً، فإنَّهم ينكرون ذلك ولا يثبتون له علماً مفصلاً للمعلومات، فضلاً عن إرادة تفصيلية.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٨٢، ٨٠، ٦٣)، وتدريب الراوي: السيوطي (ص: ١٩٢)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبه (ص: ١٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/٦٣٨)، وأسباب زيادة الإيمان ونقصانه: عبد الرزاق البدر (ص: ١٤، ٩).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠٠)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/١١١، ٣٩، ١٩)، (١/٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٨١٥، ٤٠٤) وشرح الأصول الستة: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٣٣، ٣٨)، وشرح الأصول الستة: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٣٣، ٣٨)، وأسباب زيادة الإيمان ونقصانه: عبد الرزاق البدر (ص: ١٥)، والتفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي (ص: ٦٩).

٩. هذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم: إنَّه تعلم هذا القرآن من بشرٍ، بل الله هو الذي علمه إياه.

١٠. أنَّ أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأوَّل عند الذين آمنوا: هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول وحي الله إليه.

١١. كلُّ علمٍ وعملٍ لا يزيد الإيمان قوةً فمدخولٌ، ولا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير.

١٢. بيان أثر القرآن في المؤمنين الذين صدَّقوا بأخباره، وآمنوا بوعوده، فسعدوا في الدنيا، وفازوا وربحوا يوم القيامة.

المقصد الثاني: التأويل الصحيح بيان ومآل

دلُّ عليه قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ

رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

هَلْ: حرف استخبار؛ إمَّا على سبيل الاستيفهام، وذلك لا يكون من الله وإمَّا على التَّقرير تنبيهاً، أو تنكيتاً، أو نفيًا.

يَنْظُرُونَ: النظرُ: تَقْلِبُ البصرِ والبصيرة لإدراكِ الشيءِ ورؤيته، وقد يُرادُ به التأمُّلُ والفحصُ، ويُرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعدَ الفحصِ، وهو الرُّويَّةُ، والنَّظَرُ: الانتظارُ، ومعنى: ﴿يَنْظُرُونَ﴾، ينتظرون من النَّظرة بمعنى الانتظار، والاستثناء من عموم الأشياء المنتظرات، والمراد المنتظرات من هذا النوع، وهو الآياتُ، أي: ما ينتظرون آيةً أعظم إلا تأويل الكتاب، أي: إلا ظهور ما توعدُّهم به، والنظر في الآية بمعنى الانتظار والتوقع.

تَأْوِيلُهُ: التأويل من الأوَّل، أي: الرجوع إلى الأصل، والتأويل مرجع الشيء ومصيره، من قولهم: آل الشيء يؤول، واصطلاحاً: التأويل ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً. والتأويل: توضيحٌ وتفسيرٌ ما خفي، من مقصد كلام أو فعلٍ، والتحقيق أنَّ تأويله في الآية هو حقيقة ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة. والهاء في ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ تعود على القرآن.

بِالْحَقِّ: أصل الحقُّ: المطابقة والموافقة، ولهذا يقال: فعل الله كلُّه حقٌّ، والحقيقة تستعمل تارة في الشيء الذي له ثباتٌ ووجودٌ، وأمَّا في تعارف الفقهاء: فهي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٨٤٣، ٨١٢، ٩٩)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠٠)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٥٣، ١٥٤)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٩٨)،

والتفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي (ص: ٧٠).

أصل اللغة، والحق في لغة العرب: الثابت الذي ليس بزائل ولا مضمحل، وضده الباطل: هو الذاهب المضمحل. قال العلماء:(الحق) في أسماء الله معناه: المتحقق وجوده، وكلُّ شيءٍ صحَّ وجوده وتحقق، فهو حقٌّ، والحقُّ كلُّ شيءٍ متحقق لا شك فيه، فالمراد بالحق في الأسماء الحسنى الموجود الثابت الذي لا يزول ولا يتغير، والحقُّ ما لا يسوغ إنكاره، ويلزم إثباته والاعتراف به، ووجود الباري أولى ما يجب الاعتراف به، ولا يسوغ جوده^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تبيّن الآية حال الكفار يوم القيامة عندما يتم تأويل أخبار القرآن ووعوده التي تتحدث عن مشاهد القيامة ووقوعها فعلاً وحقيقةً، ومشاهدتهم لها عملياً وعيناً عند ذلك يقول الكفار: كان الرُّسل صادقين معنا في الدنيا.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

هذه الآية ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأنَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يثير سؤال من يسأل: فماذا يؤخِّرهم عن التصديق بهذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؟ وهل أعظم منه آية على صدق الرسول؟ فكانت هذه الآية ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ كالجواب عن هذا السؤال الذي يجيش في نفس السامع، فإنَّ الله لما بيّن إزاحة العلة بسبب إنزال هذا الكتاب المفصل الموجب للهداية والرحمة، بيّن بعده حال من كذب.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إنكاري، ولذلك جاء بعده الاستثناء، إذ ينكر على الكفار عدم إيمانهم بالقرآن، وعدم تصديقهم بوعوده.

اللطيفة الثانية: إطلاق الانتظار في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استعارة تهكمية: شبه حال تمهّلهم إلى الوقت الذي سيحلُّ عليهم فيه ما أوعدهم به القرآن بحال المنتظرين، وهم ليسوا بمنتظرين ذلك إذ هم جاحدون ووقوعه، فإن قيل: كيف يتوقعون وينتظرون مع جردهم له وإنكارهم؟ الجواب: لعلَّ

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني(ص: ٢٤٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر

(١٧/٣٢٨)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي(ص: ٦٥٣)، وصفة صلاة النبي(ﷺ):

الألباني(١/٢٦٤).

(٢) التفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي(٧٠).

(٣) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٠٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور(٨/١٥٣).

(٤) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٠٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور(٨/١٥٣.١٥٥)، والتفسير والتأويل

في القرآن: صلاح الخالدي(ص: ٧٠).

فيهم أقواماً تشككوا وتوقفوا، فهذا السبب انتظروه، وأيضاً إنَّهم وإن كانوا جاحدين إلا أنَّهم بمنزلة المنتظرين من حيث إنَّ تلك الأحوال تأتيهم لا محالة.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ الاستثناء على حقيقته، وليس من تأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ لأنَّ المجاز في فعل ﴿يَنْظُرُونَ﴾ فقط، والقصر إضافي، أي: بالنسبة إلى غير ذلك من أغراض نسيانهم وجحودهم بالآيات.

اللطيفة الرابعة: الضمير في قوله: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ عائد إلى (كتاب) من قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾، يريد عاقبة ما وعدوا به على السنة الرُّسل من الثواب والعقاب.

اللطيفة الخامسة: معنى قوله: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ وضوح معنى ما عدَّوه محالاً وكذباً، من البعث والجزاء ورسالة رسول من الله ووحدانية الإله والعقاب، فذلك تأويل ما جاء به الكتاب، أي: تحقيقه ووضوحه بالمشاهدة، وما بعد العيان بيان. وقد بيَّنته آية ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾، فذلك فصلت، لأنَّها تنتزل من التي قبلها منزلة البيان للمراد من تأويله، وهو التأويل الذي سيظهر يوم القيامة، فالمراد باليوم يوم القيامة؛ بدليل تعلقه بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾، فإنَّهم لا يعلمون ذلك، ولا يقولونه إلا يوم القيامة.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ إتيان تأويله مجاز في ظهوره وتبينه بعلاقة اللزوم، والتأويل مراد به ما به ظهور الأشياء الدالة على صدق القرآن فيما أخبرهم وما توعدَّهم.

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ المراد بهم: المشركون، وهم معاد ضمير: ﴿يَنْظُرُونَ﴾، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: يقولون، إلا أنَّه أظهر بالموصولية لقصد التسجيل عليهم بأنَّهم نسوه وأعرضوا عنه وأنكروه، تسجيلاً مراداً به التثنية على خطيئهم والنعي عليهم بأنَّهم يجرون بإعراضهم سوء العاقبة لأنفسهم. والنسيان مستعمل في الإعراض والصد.

اللطيفة الثامنة: المضاف إليه في الآية مقدرٌ منبئ عنه بناءً: ﴿قَبْلُ﴾ على الضم: هو التأويل، أو اليوم، أي: من قبل تأويله، أو من قبل ذلك اليوم، أي في الدنيا^(١).

اللطيفة التاسعة: القول في الآية: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ كناية عن العلم والاعتقاد؛ لأنَّ الأصل في الأخبار مطابقتها لاعتقاد المخبر، أي: يتبين لهم الحق ويصرِّحون به، وهذا القول يقوله بعضهم لبعضٍ اعترافاً بخطيئهم في تكذيبهم الرسول، وما أخبر به عن الرُّسل من قبله، ولذلك جمع الرُّسل، مع أنَّ الحديث عن المكذِّبين محمداً (ﷺ)؛ وذلك لأنَّ رسول الله ضرب لهم الأمثال بالرُّسل السابقين، وهم لما كذبوه جرَّاهم تكذيبه على إنكار بعثة الرُّسل إذ قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥٣/٨ . ١٥٥).

شَيْءٌ ﴿[الأنعام:٩١] أَوْ لِأَنَّهُمْ مُشَاهِدُونَ يَوْمَئِذٍ مَا هُوَ عِقَابُ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ عَلَى تَكْذِيبِ رُسُلِهِمْ، فَيَصْدُرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْقَوْلُ عَنِ تَأَثُّرِ بِجَمِيعِ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ التَّهْدِيدِ لَهُمْ وَلَمَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ.

اللطيفة العاشر: قولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ خَيْرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِقْرَارِ بِخَطِيئِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَإِنْشَاءً لِلْحَسْرَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَإِبْدَاءً الْحِيرَةَ فِيمَا ذَا يَصْنَعُونَ، وَلِذَلِكَ رَبَّبُوا عَلَيْهِ وَفَرَعُوا بِالْفَاءِ قَوْلَهُمْ: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ﴾^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

المراد بالتأويل في الآية معنيان: الأول: ما تؤول إليه حقائق القرآن وأخباره المغيبيّة، وهذا لا يعلمه إلا الله، فلا يعلم متى وقوعها ولا كيفية وقوعها إلا هو سبحانه، ومن ادّعى علمها فقد كذب على الله. والآخر: التفسير والبيان، والتفسير يعلمه الراسخون في العلم بخلاف ما تؤول إليه حقائق القرآن وأخباره التي لا يعلمها إلا الله، فهم يشتركون في معرفة المعنى، حيث إنّه ليس من العلم الذي يختص بالله، لذا لا يجوز أن يقال: إنّ في القرآن آيات لا يُعرف معناها، بل جميع القرآن معلوم المعنى للعلماء، وهم يتفاوتون في معرفة تلك المعاني. وهذان المعنيان متغايران، وليسا متضادين، وهما اللذان يصلح أن ينطبق عليهما معنى التأويل في القرآن الكريم، وأمّا التأويل الفاسد فإنّ أصل خراب الدّين والدّنيا إنّما هو من التأويل الذي لم يُرِدْهُ اللهُ ورسوله بكلامه، ولا دلّ عليه أنّه مراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل البعيد؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل الفاسد؟ وهل أريقَتْ دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل البعيد؟. والمتأولون أصنافٌ عديدة، بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب قصور أفهامهم ووفورها، وأعظّمهم توغلاً في التأويل الباطل من فسَدَ قِصْدُهُ وفهمه، فكلمًا ساء قِصْدُهُ وقصر فهمه كان تأويله أشدَّ انحرافاً، فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق، ومنهم من يكون تأويله لنوع هدى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق، ومنهم من يجتمع له الأمران الهوى في القصد والشبهة في العلم، وبالجملة ما فتح باب التأويل الفاسد إلا مضادة ومناقضة لحكم الله في تعليمه عباده البيان الذي امتنَّ اللهُ في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؛ فالتأويل بالألغاز والأحاجي والأغلوطنات أولى منه بالبيان والتبيين، وهل فرّق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرُّسُلُ عن الله وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رده وعدم قبوله، ولكن هذا رد جحود ومعادنة، وذلك رد خِدَاعٍ ومصانعة^(٣).

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥٥/٨).

(٢) المحرّر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ٢٦٤) والتفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي (ص: ٧٠).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (١٨٧/٦). (١٩٢٠).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. احتج بهذه الآية من ذهب إلى أن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] أي: ما يعلم عاقبة الأمر فيه إلا الله.
٢. القرآن الكريم كتاب هداية فيه تفصيل ما تحتاج إليه البشرية رحمةً من الله.
٣. سوف يقع قطعاً ما وعد الله به، وحينها يتيقن الكفار صدق وعد الله.
٤. أن التأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح.
٥. أن الراسخين في العلم هم أهل التأويل الصحيح.
٦. التأويل في الآية بمعنى الوقوع والحدوث وبيان العاقبة والمآل.
٧. أن الآية تهديدٌ للكفار المنكرين ليوم القيامة.

المقصد الثالث: الشفاعة مطلبٌ لجميع الناس

ويدلُّ على هذا المقصد الشرعي قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

نَسُوهُ: النسيان؛ ترك الإنسان ضبط ما استودع؛ إمّا لضعف قلبه، وإمّا عن غفلة، وإمّا عن قصدٍ حتى ينحذف عن القلب ذكره، وكلُّ نسيانٍ من الإنسان ذمُّه الله به فهو ما كان أصله عن تعمّدٍ، وتركّه على طريق الإهانة، وما عذر فيه فهو ما لم يكن سببهُ منه.
قَبْلُ: قبلُ يُستعملُ في التقدّم المُتّصِلِ والمُنْفَصِلِ، ويُضادُّه بَعْدُ.
شُفَعَاءُ: شفيع كلمة تدلُّ على مقارنة الشيعتين، من ذلك الشفع خلاف الوتر، والشفيع: ضمُّ الشيء إلى مثله، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يُستعملُ في انضمام من هو أعلى حُرمةً ومرتبَةً إلى من هو أدنى، ومنه: الشفاعة في القيامة. والشفعاء جمع شفيع وهو الذي يسعى بالشفاعة، والمشركون يُسمون أصنامهم شفعاءً، وهي مشتقة من الزيادة. والشفاعة في الاصطلاح: التوسط للغير بجلب منفعةٍ أو دفع مضرةٍ.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٠٠/١٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧)، وجنابة التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية: محمد أحمد لوح (ص: ١٢)، والتفسير والتأويل في القرآن: صلاح الخالدي (ص: ٧٢).

(٢) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٠١/٣)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٥٣، ٤٥٧، ٨٠٣)، والنهاية: ابن الأثير الجزري (٤٨٥/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٥٦/٨)، وشرح العقيدة الواسطية: محمد ابن صالح العثيمين (ص: ٥٢٤).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

هذا خبرٌ من الله عن المشركين الذين وصف صفتهم، أنهم يقولون عند حلول سَخَطِ الله بهم، وورودهم أليمٍ عذابه، ومعاينتهم تأويل ما كانت رسلُ الله تُعدهم: هل لنا من أصدقاء وأولياء اليوم فيشفعوا لنا عند ربِّنا، ففتحنا شفاعتهم عنده مما قد حلَّ بنا من سوءِ فعالنا في الدنيا.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الاستفهام في قولهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ﴾ يجوز أن يكون حقيقياً يقوله بعضهم لبعض، لعلَّ أحدهم يرشدهم إلى مخلصٍ لهم من تلك الورطة، وهذا القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهددهم قبل أن يوقنوا بانتقاء الشُّفَعَاءِ المخبر عنهم في قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في التمني، ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في النَّفْيِ، على معنى التَّحَسُّرِ والتَّندَمِ.

اللطيفة الثانية: ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ﴾ للتَّوَكُّيدِ على جميع النَّقَادِيرِ، فتفيد توكيد العموم في المستفهم عنه، ليفيد أنهم لا يسألون عن توهموهم شفعاء من أصنامهم، إذ قد يتسوا منهم، بل هم يتساءلون عن أيِّ شفيعٍ يشفع لهم، ولو يكون الرَّسُولُ الذي ناصبوه العدا في الحياة الدُّنْيَا.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ﴾ عطف فعل ﴿نُرَدُّ﴾ بـ ﴿أَوْ﴾ على مدخول الاستفهام، فيكون الاستفهام عن أحد الأمرين؛ لأنَّ أحدهما لا يجتمع مع الآخر، فإذا حصلت الشَّفَاعَةُ فلا حاجة إلى الردِّ، وإذا حصل الردُّ استغني عن الشَّفَاعَةِ.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

قوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ معناه أنهم صاروا في الإعراض عنه بمنزلة من نسيه، ويجوز أن يكون معنى ﴿نَسُوهُ﴾ أي: تركوا العملَ به والإيمان به، وهذا كما في قوله: ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ ثم بيَّن الله أنَّ هؤلاء الذين نسوا يومَ القيامة يقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ والمراد أنهم أقرؤا بأنَّ الذي جاءت به الرُّسُلُ من ثبوت الحشر والنشر والبعث والقيامة، والثواب، والعقاب، كلُّ ذلك كان حقاً، وإنما أقرؤا بحقيقة هذه الأشياء لأنَّهم شاهدوها وعابنوها، وبيَّن الله أنهم لما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ والمعنى أنه لا طريق لنا إلى الخلاص ممَّا نحن فيه من العذاب الشديد إلا أحد هذين

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥١٣/٥).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥٦/٨).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٠١/١٤).

الأميرين: وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب، أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا نعمل، يعني نوحده الله بدلاً عن الكفر، ونطيعه بدلاً عن المعصية. والشفاعة حقٌ يجبُ الإيمان بها، والمقصود بها: سؤال الله الخيرَ للنَّاسِ في الآخرة، فهي نوعٌ من أنواع الدُّعاء المستجاب، وقد وردت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة الكرام تثبت الشفاعة وتتحدث عنها، وهي ثابتة لرسولنا (ﷺ) وغيره من الأنبياء والصالحين، والشفاعة الشرعية لا تتم إلا بإذن الله، فالأمر كله إليه فلا شريك له، والله يُكرم الشفيع بقبول شفاعته، ولا تكون الشفاعة إلا لمن يرتضي الله أن يشفع له ممن يستحق ذلك^(١).

وجاء في متن العقيدة الطحاوية: "والشَّفَاعَةُ التي ادَّخرها لهم حقٌّ، كما روي في الأخبار"^(٢). والشفاعة الحقّة هي الشفاعة التي استجمعت شروطها، وانتفت موانعها، وقد تواترت النصوص الشرعية في إثبات الشفاعة لعصاة المؤمنين يوم القيامة أدخلتهم ذنوبهم النَّارَ فيخرجون، ولقوم من الكفار في تخفيف عذابهم في النَّار^(٣).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. أن الشفاعة هي سؤال الخير للغير.
٢. الشفاعات يوم القيامة كثيرة، أفضلها الشفاعة العظمى للنبي (ﷺ)، وهي إراحة النَّاسِ من الموقف؛ لذلك يظهر شرفها لكل من في الموقف.
٣. لا شفاعة للكفار المعاندين، ولا رجوع إلى الدنيا، فالشفاعة للكفار مستحيلة شرعاً.

(١) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (٢/٢٠٤)، وشرح أصول العقيدة الإسلامية: نسيم شحدة ياسين (ص: ٢٢٥)، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: صالح الفوزان (ص: ٢٧٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٢٠٠).

(٣) آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشائع (ص: ٥٣٥).

(٤) سبل السلام شرح بلوغ المرام: الصنعاني (١/٢٠٦)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:

الشنقيطي (ص: ٥٤)، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: صالح الفوزان (ص: ٢٧٦).

المقصد الرابع: الإيمان إقراراً وعملً ونيةً

دلّ عليه قوله: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

نُرَدُّ: الرَّدُّ: صَرَفُ الشَّيْءِ بِذَاتِهِ، أَوْ بِحَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِهِ، وَالْإِرْتِدَادُ وَالرَّدَّةُ: الرَّجُوعُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ، لَكِنِ الرَّدُّ تَخْتَصُّ بِالْكَفْرِ، وَهِيَ: الرَّجُوعُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ. وَالرَّدَّةُ ضِدُّ التَّوْبَةِ، وَلَيْسَ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا يَمُحُو جَمِيعَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا الرَّدَّةُ.

فَنَعْمَلْ: الْعَمَلُ: إِيجَادُ الْأَثْرِ فِي الشَّيْءِ، وَهُوَ كُلُّ فِعْلٍ يَكُونُ مِنَ الْحَيَوَانِ بِقَصْدٍ.

غَيْرَ: مَوْضُوعَةٌ لِلنَّفْيِ الْمُجَرَّدِ مِنْ غَيْرِ إِثْبَاتٍ مَعْنَى بِهِ.

خَسِرُوا: الْخُسْرُ وَالْخُسْرَانُ: انْتِقَاصُ رَأْسِ الْمَالِ.

أَنْفُسَهُمْ: قَوْلُهُ: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَي: أَنَّ الَّذِينَ طَلَبُوهُ لَا يَكُونُ؛ فَقَدْ غَبَنُوا أَنْفُسَهُمْ حَظوظَهَا، بِبَيْعِهِمْ مَا لَا خَطَرَ لَهُ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ الدَّائِمِ، بِالْخَسِيسِ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ.

وَضَلَّ: الضَّلَالُ: الْعُدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُضَادُّهُ الْهِدَايَةُ، فَالضَّلَالُ تَرْكُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

يَفْتَرُونَ: الْفَرْيُ: قَطْعُ الْجِلْدِ لِلْخَزَزِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالْإِفْرَاءُ لِلْإِفْسَادِ، وَالْإِفْتِرَاءُ فِيهِمَا، وَفِي الْإِفْسَادِ

أَكْثَرُ، وَكَذَلِكَ اسْتَعْمَلَ فِي الْقُرْآنِ فِي الْكُذْبِ وَالشَّرِكِ وَالظُّلْمِ. فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ﴾ يَرِيدُ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِنَصْرَةِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ

الَّتِي بِالْغَوَا فِي نَصْرَتِهَا.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تخبر الآية بأن الذين نسوا القرآن في الدنيا ولم يعملوا بما جاء فيه يقولون: لقد جاءت

رسول ربنا بالحق الذي لا مرية فيه، ولا شك أنه من عند الله فليت لنا وسطاء يشفعون لنا عند الله

ليعفينا من العذاب، أو لئيتنا نرجع إلى الحياة الدنيا لنعمل عملاً صالحاً ننجو به بدل ما كنا نعمل

من السيئات، قد خسر هؤلاء الكافرون أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك بسبب كفرهم، وغاب عنهم

من كانوا يعبدونهم من دون الله فلم ينفعوهم.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٣)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب

الأصفهاني (ص: ٥٠٩، ٣٤٨، ٢٨١، ٨١٨، ٦٣٤، ٦١٨، ٥٨٧)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠١)، والفروق

اللغوية: العسكري (ص: ١٠٩)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١١/٧٠٠).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: المراد بالعمل في قولهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ما يشمل الاعتقاد، وهو الأهم، مثل اعتقاد الوحدانية والبعث وتصديق الرسول؛ لأن الاعتقاد عمل القلب، ولأنه تترتب عليه آثار عملية من أقوال وأفعال وامتنال.

اللطيفة الثانية: المراد بالصلة في قوله: ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ما كانوا يعملونه من أمور الدين بقريئة قولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: فنعمل ما يغير ما صممنا عليه بعد مجيء الرسول.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ مستأنف استئنافاً ابتدائياً تذييلاً وخلصاً لقصتهم، أي: فكان حاصل أمرهم أنهم خسروا أنفسهم من الآن وضلّ عنهم ما كانوا يفترون. والخسارة مستعارة لعدم الانتفاع بما يرجى منه النفع، والمعنى: أن ما أقحموا فيه نفوسهم من الشرك والتكذيب قد تبين أنه مفض بهم إلى تحقق الوعيد فيهم، يوم يأتي تأويل ما توعدهم به القرآن، فبذلك تحقق أنهم خسروا أنفسهم من الآن، وإن كانوا لا يشعرون.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الضلال مستعار للعدم، طريقة التهكم شبه عدم شفاعتهم المزعومين بضلال الإبل عن أربابها تهكماً عليهم، وهذا التهكم منظور فيه إلى محاكاة ظنهم يوم القيامة المخبر عنهم في قوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ موصولة، ما صدقها الشفاء الذين كانوا يدعونهم من دون الله، وحذف عائد الصلة المنصوب، أي: ما كانوا يفترونه، أي: يكذبونه إذ يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ [يونس: ١٨] وهم جماد لا حظ لهم في شؤون العقلاء حتى يشفعوا، فهم قد ضلوا عنهم من الآن ولذلك عبر بالمضي؛ لأن الضلال المستعار للعدم متحقق من ماضي الأزمنة.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- الإيمان قول وعمل:

في هذه الآية رد واضح على المرجئة الذين رأوا أن الإيمان هو التصديق، ولم يجعلوا أعمال القلوب والجوارح من الإيمان، ومذهبهم في أن الإيمان هو مجرد التصديق الذي في القلب، وإن لم يفتن به قول اللسان ولم يقتض عملاً في القلب ولا في الجوارح. والمرجئة غلطوا في أصول: أحدهما: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة وخشية في القلب؛ وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقاً؛ فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٥٧/٨، ١٥٨).

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول: ابن تيمية (ص: ٤٣١)، وينظر: الإيمان: ابن أبي شيبة (ص: ٤٩)،

والانحرافات العقديّة والعلمية: علي الزهراني (١١٨/١).

النَّاسَ أحوالاً ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين، أو غير ذلك كلُّ ما فيها ممَّا فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب، وفيها ما أحبَّه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحبِّ، فالأوَّل لا بُدَّ لكلِّ مؤمنٍ منه، ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين. وثانيهما: ظنَّهم أنَّ ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب. والأخير: ظنَّهم أنَّ الإيمان الذي في القلب يكون تاماً بدون شيءٍ من الأعمال؛ ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمةً له؛ والتحقيق أنَّ إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتتع أن يقوم بالقلب إيماناً تاماً بدون عمل ظاهر^(١). والإيمان قولٌ وعملٌ، أعني في الأصل قولاً في القلب، وعملاً في القلب؛ فإنَّ الإيمان بحسب كلام الله يتضمن إخباره وأوامره، فيصدق القلب إخباره تصديقاً يوجب حالاً في القلب، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمناً إلا بمجموع الأمرين، فمتى ترك الانقياد كان مستكبراً فصار من الكافرين، وإذا كان مصدقاً فالكفر أعمُّ من التكذيب يكون تكذيباً جهلاً، ويكون استكباراً وظلماً، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، والإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لا بُدَّ أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له وهو التعظيم والمحبة، وذلك أمرٌ لازمٌ كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يُغنِ شيئاً، والإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأنَّ التصديق إنَّما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبرٌ وأمرٌ؛ فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمرُ يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد؛ فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنَّما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز^(٢). وأقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان تارةً يقولون: هو قول وعمل. وتارةً يقولون: هو قول وعمل ونية. وتارةً يقولون: قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارةً يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وكلُّ هذا صحيح، والمعتمد عليه عند أهل السنة أن الإيمان اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٧/٢٠٤، ١٩٠).

(٢) الصارم المسلول: ابن تيمية (ص: ٥١٩، ٤٣٥)، ينظر: الاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٤٢٨).

بالجوارح، وهو يشمل عمل الطاعة، والكف عن المعصية، وأن الطاعات تُسمى إيماناً^(١). والمرجئة الذين أرجئوا العمل، فقالوا: الإيمان قول بلا عمل، أخطؤوا؛ لأن الله ذمَّ قوماً آمنوا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، فلا يصح الإيمان إلا بثلاثة أشياء: نطقً باللسان، وعملً بالجوارح، وعقدً بالقلب^(٢). وهذا عين قول السلف في الإيمان.

ب- إن التكليف ينقطع بدخول دار الجزاء الجنة أو النار

قالت المعتزلة: هذه الآية تدلُّ على بطلان قول الذين يزعمون: أن أهل الآخرة مكلفون؛ لأنَّه لو كان كذلك لما سألوا الرد إلى حالٍ وهم في الوقت على مثلها بل كانوا يتوبون ويؤمنون في الحال، فبطل قول من قال: إنَّ التكليف باقٍ على أهل الآخرة^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد عليهم: قد زعم بعضهم: أن الآخرة لا تكليف فيها. وليس كما قال؛ إنَّما ينقطع التكليف إذا دخلوا دارَ الجزاء الجنة أو النار وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتنون، يقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال: ليتبع كلُّ قومٍ ما كانوا يعبدون، فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ومن كان يعبد القمرَ القمرَ ومن كان يعبد الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة، ويقول: أنا ربُّكم، فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا. وفي رواية: فيسألهم ويثبتهم، وذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الربِّ الذي عرفوا أنَّه الله الذي تجلَّى لهم أول مرة، فيثبتهم الله عند هذه المحنة كما يثبتهم في فتنة القبر، فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون، أتاهم حينئذٍ في الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق، فإذا رأوه خرّوا له سُجداً إلا من كان منافقاً، فإنَّه يريد السجود فلا يستطيعه، يبقى ظهره مثل الطبق، وهذا المعنى مستفيض عن النبي (ﷺ) في عدة أحاديث ثابتة، فدلَّ ذلك على أنَّ المحنة إنَّما تنقطع إذا دخلوا دارَ الجزاء، وأمَّا قبل دار الجزاء امتحان وابتلاء، فإذا انقطع عن النَّاس نورُ النبوة، وقعوا في ظلمة الفتن، وحدثت البدع والفجور، ووقع الشر بينهم^(٤).

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٧٠/٧)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٥١٤/١٥).

(٢) مناهج اللغويين في تقرير العقيدة: محمد الشيخ عليو محمد (ص: ٧٣٩).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٠١/١٤)، ومجالس قرآنية: عويض بن حمود العطوي (ص: ٥١).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٠٩/١٧).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. تدلُّ الآية على أنَّهم كانوا في حال التكليف قادرين على الإيمان والتوبة فلذلك سألو الرد ليؤمنوا ويتوبوا، ولو كانوا في الدنيا غير قادرين لم يكن لهم في الرد فائدةٌ، ولا جاز أن يسألوا ذلك.
٢. الإيمان الصحيح قولٌ وعملٌ، ويزيد وينقص.
٣. دلت الآية على أنَّ أهل النَّار يختصمون فيها.
٤. أنَّ الكفار يوم القيامة يتمنون الرد إلى الدنيا، وأنَّهم يزعمون إنَّ رداً إلى الدنيا كانوا من المؤمنين المصدقين للرُّسل فيما جاءت به.
٥. سؤال الكفار الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذبٌ منهم، مقصودهم به، دفع ما حلَّ بهم.
٦. خسران الكفار أنفسهم حين فوتوها الأرباح، وسلوكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنَّما هذا خسران لا جبران لمصابه.
٧. أنَّ إخراج العمل من مسمى الإيمان أمرٌ مهينٌ ومذهلٌ ومذلٌّ.
٨. أنَّ الإيمان والعمل الصالح هو مناط النجاة من عذاب الله في الآخرة.
٩. أنَّ الإيمان هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمةٌ جامعةٌ للإقرار بالله ورسوله، وتصديق الإقرار بالفعل.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري(١/١٣٣)، والتفسير الكبير: الرازي(١٤/١٠١)، والإيمان: ابن أبي شيبه(ص:٨٧)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي(ص:١٤٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي(ص:٢٩٦)، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول: حافظ الحكمي(٣/١٠٠٧)، والانحرافات العقديّة والعلمية: علي الزهراني(١/١٢٤).

المبحث الثاني

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٤-٥٥)

إنّ الله مستوٍ على عرشه، بانئن من خلقه

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الاستواء معلومٌ لغةً، والكيف غير معقولٍ شرعاً.

المطلب الثاني: التسخير الكوني نعمةً ربانيةً.

المطلب الأول: الاستواء معلوم والكيف غير معقول

وفيه خمسة مقاصد:

المقصد الأول: أسماء الله مشتقة، وهي دالة على صفات الله^(١).

ويدل على هذا المقصد اللغوي المتين قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية:

الله: أصل كلمة ﴿الله﴾ إله، وإله بمعنى مألوه؛ أي: معبود، ف﴿الله﴾ علم على نفس الله، ولا يُسمى به غيره، ومعناه: المألوه؛ أي: المعبود محبةً وتعظيماً وتألهاً وشوقاً، وهو مشتق^(٢). فالاسم المعظم ﴿الله﴾ علم على ذات الرب تعالى^(٣).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٤):

جاءت أغراض هذه السورة متناسبةً متماسكةً، فإنها ابتدأت بذكر القرآن والأمر باتباعه ونبذ ما يصد عنه وهو اتباع الشرك ثم التذكير بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله، ثم الاستدلال على وحدانية الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وخلق أصل البشر وخلقهم، وخلل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان لأصل البشر وللشرك في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وانتقل من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتبعوا فيه تسويل الشيطان من قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً﴾ ثم بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ وبأن المشركين ظلموا بنكث العهد بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتوعدهم وذكرهم أحوال أهل الآخرة، وعقب ذلك عاد إلى ذكر القرآن بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وأنهاه بالتذليل بقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فلا جرم تهيأت الأسماع والقلوب لتلقي الحجة على أن الله إله واحد، وأن آلهة المشركين ضلالٌ وباطلٌ، ثم لبيان عظيم قدرته ومجده، فلذلك استؤنف بآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ﴾ استئنافاً ابتدائياً عاد به التذكير إلى صدر السورة في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فكان ما في صدر السورة بمنزلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ﴾ بمنزلة النتيجة للبرهان، والنتيجة مساوية للمطلوب إلا أنها تؤخذ أوضح وأشد تفصيلاً.

(١) مناهج اللغويين في تقرير العقيدة: محمد الشايع (ص: ٧٣١).

(٢) شرح العقيدة الواسطية: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٢٧)، وشرح لمعة الاعتقاد: ابن عثيمين (ص: ٢٩).

(٣) دفع إيهام التشبيه: محمد السمهوري (ص: ٣٧).

(٤) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٥٨/٨).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

ذهب الأشاعرة^(٢) إلى أنّ اسم ﴿الله﴾ لا يدلُّ إلا على ذات الربِّ تعالى، ولا يدلُّ على صفة؛ لأنَّه اسمٌ جامدٌ غيرٌ مشتقٍّ، والصواب أنّ اسم ﴿الله﴾ مشتقٌّ من (أله) بمعنى: عبد، وأنَّ أصل ﴿الله﴾ الإله، فحذفت الهمزة، وأدغمت اللام في اللام مفخمة، ومعناه: المعبود، فالله ذو الألوهية، وبناءً على هذا فإنَّ اسم ﴿الله﴾ دالٌّ على ذات الربِّ، وصفة الإلهية، ولا يطلق على سواه؛ وهذا الاسم المعظم متضمَّن لجميع معاني الأسماء الحسنى وجميع صفات الكمال؛ لأنَّ الإله الحقَّ لا بُدَّ أن يكون متصفاً بكلِّ كمالٍ منزهاً عن كلِّ نقصٍ، فجميع الأسماء والصفات الإلهية عائدة إلى هذا الاسم المعظم، وإذا تقرر هذا الأصل، فاسم ﴿الله﴾ دالٌّ على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العلى، فإنَّه دالٌّ على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضعافها عنه، وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ويقال: الرحمن، والقدوس، والسلام، والعزیز، من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزیز، ونحو ذلك، فعلم أنّ اسمه ﴿الله﴾ مستلزمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله، واسم ﴿الله﴾ دالٌّ على كونه مألوماً معبوداً، تولَّه الخلائق محبةً وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزمٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله^(٣). وفي هذا أظهر الدلالة على أنّ أسماء الربِّ مشتقةٌ من أوصافٍ ومعاني قامت به، وأنَّ كلَّ اسمٍ يُناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. ثم إنَّ كلمة (إله) على زنة فعال بمعنى مفعول، مثل كتاب بمعنى مكتوب، فيكون معناه (معبود) ويقال: أله يأله

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٣٤٧/١٧).

(٢) الأشاعرة من الفرق المنتسبة للإسلام، وهم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، والمتوفي سنة (٣٢٤هـ)، وكان أبو الحسن الأشعري على مذهب المعتزلة في علم الكلام، وأقام على الاعتزال حتى سن الأربعين حيث جرت بينه وبين أستاذه الجبائي مناظرة، اعتكف الأشعري على إثرها في بيته مدة خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى الناس ودعاهم إلى الاجتماع في المسجد معلناً انخلاءه من الاعتزال، ولزوم مذهب السلف، والأشاعرة يثبتون بعض الصفات الإلهية كالعلم والقدرة، والإرادة ونحوها، ويؤولون القسم الآخر كاليد والمجيء والنزول والمحبة والرضى ونحوها. والإيمان عند الأشاعرة هو التصديق بالقلب، ينظر: الملل والنحل (٩٤/١).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٨٩/١).

إلهة أي: عبادة، ومنه قولهم: ﴿الله﴾ أصله (إلاه) على فعال بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه أي: معبود، فلما دخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة في الكلام، والتأله: التسك والتعبد، والإله ينطلق على المعبود بحق وباطل، وأما ﴿الله﴾ لا ينطلق إلا على المعبود بالحق؛ فإن لفظة (إله) مأخوذة من التأله، وهو التعبد وجمعه آلهة يطلق على كل ما عُبد بأي نوع من أنواع العبادات ولو كان المعبود جماداً، وأما لفظ الجلالة ﴿الله﴾ فلا ينطلق إلا على المعبود بالحق، وهو خالق السموات والأرض، ومدبر الأمر فيهما، وهذا ما يعنيه الاستثناء في قولنا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ لأنَّ المعنى نفي استحقاق العبادة عن جميع الآلهة، وإثباتها لله وحده، أي: لا معبود بحق إلا الله؛ لأنه الخالق الرزاق، وهو تعالى موصوفٌ بجميع الكمالات، ومنزهٌ عن جميع النقائص فعبادة غيره معه أو دونه تعدُّ تنقصاً له تعالى؛ لأنَّ في ذلك تشبيه المخلوق الضعيف العاجز بالخالق القادر على كل شيء، القوي المتين الغني عن كل شيء، والغني وصف ذاتي لله، كما أنَّ الفقر والعجز والضعف أوصاف ذاتية للمخلوق^(١). و﴿الله﴾ علم على الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهو عربي، وزعم بعض العلماء أنَّ اسم الله غير مشتق؛ لأنَّ الاشتقاق يستلزم مادة يشق منها، واسمه تعالى قديم، لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنَّه إن أُريد بالاشتقاق هذا المعنى فهو باطل، ولكن من قال بالاشتقاق لم يرد هذا المعنى، ولا ألم بقلبه، وإنما أراد أنَّه دالٌّ على صفة الله، وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى من العليم والقدير؛ فإنَّها مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، ثم لا يعنى بالاشتقاق إلا أنَّها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنَّها متولدة منها تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة المصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أنَّ أحدهما متولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أنَّ أحدهما متضمن للآخر وزيادة، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مبادئ، وإنما هو اشتقاق تلازم يسمى المتضمن مشتقاً، والمتضمن مشتقاً منه، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله بهذا المعنى^(٢).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. أنَّ الألوهية صفة ثابتة لله تعالى مشتقة من اسمه المعظم (الله).
٢. أنَّ الله تعالى هو الذي يأله كل شيء، ويعبده كل خلق.
٣. أنَّ الألوهية هي العبادة، وأنَّ الإله هو المعبود.

(١) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه: محمد أمان جامي (ص: ٧٧. ٨٠).

(أ) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (١/٨٢)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٣٠. ٣١).

(ب) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (١/٨٢).

المقصد الثاني: التدرج في الخلق والأمر سنة كونية وشرعية

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

خَلَقَ: أي: خلقها على غير مثالٍ سابقٍ، والخلق التقدير، فخلق السموات والأرض إشارة إلى تقدير حالة من أحوالهما، وذلك التقدير يحتمل وجوهاً كثيرة: منها: تقدير ذواتهما بمقدار معين مع أنَّ العقل يقضي بأنَّ الأزيد منه والأنقص منه جائز، فاختصاص كلِّ واحدٍ منهما بمقداره المعين لا بُدَّ وأن يكون بتخصيص مخصصٍ؛ لأنَّ كلَّ ما له قدر فمصنوع مفتقر إلى مخصصٍ، وذلك يدلُّ على افتقار خلق السموات والأرض إلى الفاعل القادر المختار.

الأَرْضُ: إن ذواتها كانت معدومةً في الأزل ثم وجدت، وبالحجَّة الاستقرائية وجد أنَّ الأرض أكتف الأجسام وأقواها حجمية.

أَيَّامٍ: طلوع الفجر أول اليوم شرعاً وأفضل الأيام الجمعة، والليالي ليلة القدر، والشهور رمضان. وهي ستة أيام كأيام الدنيا، وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة، كلُّ يومٍ كألف سنةٍ ممَّا تعدون. فقله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد به في مقدار ستة أيام؛ لأنَّ اليوم من لَدُن طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يوماً من يوم ولا شمس ولا سماء، وكان الله قادراً على خلق السموات والأرض في لمحَّة ولحظةٍ، فخلقهنَّ في ستة أيامٍ تعليماً لخلقهنَّ التثبُّت والتأني في الأمور.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنَّ ربَّكم أيها النَّاس هو الله الذي خلق السموات وخلق الأرض على غير مثالٍ سابقٍ في ستة أيامٍ، ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بكماله وجلاله.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٣):

هذه الآية شروعٌ في بيان مبدأ الفطرة إثر بيان معاد الكفرة، أي: إن خالقكم ومالككم الذي خالق الأجرام العلوية والسفلية في ستة أوقاتٍ أو في مقدار ستة أيامٍ؛ فإنَّ المتعارف أنَّ اليوم زمانُ طلوع الشمس إلى غروبها، ولم تكن هي حينئذٍ، فإنَّ مدار أمر القرآن على تقدير هذه الحقائق الأربع وهي: التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر، ولا شك أنَّ مدار إثبات المعاد على

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٣)، ومعالم التنزيل: البيهقي (٢/١٠٨)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١١٧، ١٠٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٤٠٦)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٤٠)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣/١٥١)، وحاشية الخلوتي على منتهى الإرادات: الجوهري (٢/٢٤٤).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠٢)، وإرشاد العقل السليم: أبو السعود (٣/١٨٦).

إثبات التوحيد والقدرة والعلم، فلما بالغ الله في تقرير أمر المعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد، وكمال القدرة والعلم لتصير تلك الدلائل مقررّة لأصول التوحيد ومقررّة لإثبات المعاد.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ الخطاب موجّه إلى المشركين ابتداءً، ولذلك كان للتأكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾ موقعه لرد إنكار المشركين انفراد الله بالرّبوبيّة والألوهية، وإذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرةً بعظم مجد الله وسعة ملكه، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته، كان الخطاب صالحاً لتناول المسلمين، لصلاحية ضمير الخطاب لذلك، ولا يكون حرف ﴿إِنَّ﴾ بالنسبة إليهم سدى؛ لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر، لأنّ فيه حظاً للفريقين، ولأنّ بعض ما اشتمل عليه ما هو بالموّمنين أعلق وبعضه بالكافرين أنسب.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ جعل المخبر عنه الربّ، والخبر اسم الجلالة؛ لأنّ المعنى: أنّ الربّ لكم المعلوم عندكم هو الذي اسمه الدال على ذاته: ﴿اللَّهُ﴾ لا غيره ممّن ليس له هذا الاسم، على ما هو الشأن، فهي تعريف المسند، فالمقصود من تعريف المسند إفادة ما يسمّى في المنطق بحمل المواطأة، وهو حمل (هُوَ هُو) ولذلك يخيّر المتكلم في جعل أحد الجزأين مسنداً إليه، وجعل الآخر مسنداً؛ لأنّ كليهما معروف عند المخاطب، وإنّما الشأن أن يجعل أقواما معرفة عند المخاطب هو المسند إليه، ليكون الحمل أجدى إفادة.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ أكّد هذا الخبر بحرف التوكيد، وإن كان المشركون يثبتون الرّبوبيّة لله، والمسلمون لا يمترون في ذلك؛ لتنزيل المشركين من المخاطبين منزلة من يتردد في كون الله رباً لهم لكثرة إعراضهم عنه في عباداتهم وتوجهاتهم.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفةً للاسم المعظم، والصفة مؤنّدة بالإيماء إلى وجه بناء الخبر المتقدم، وهو ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾؛ لأنّ خلق السموات والأرض يكفيهم دليلاً على انفراده بالإلهية.

اللطيفة الخامسة: تقديم السموات على الأرض في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك لشرف السماء على الأرض، فقدم ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ لشرفها؛ لأنّها متعبد الملائكة، ولم يقع فيها معصية، ولتقدم وجودها، فإنّ السموات على هذه الهيئة متقدمة على الأرض الكائنة على هذه

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٥٧/٣)، وحاشية الجمل على تفسير الجلالين (٣/٢)، والتحرير والتنوير:

الطاهر ابن عاشور (١٥٩/٨، ١٦١).

الهيئة الموجودة؛ لأنَّ قوله: ﴿أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا... وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النَّازِعَات: ٢٧، ٣٠]. فإنَّه صريح في أنَّ بسط الأرض مؤخَّر عن تسوية السماء.

اللطيفة السادسة: كثير ما يقع ﴿السَّمَوَاتِ﴾ بلفظ الجمع، و﴿الْأَرْضِ﴾ لم تقع إلا مفردة، فجمع السموات دون الأرض، وإن كانت سبعة كالسموات؛ لأنَّه أراد جنس الأرضين^(١).

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تعلِيمٌ بعظيم قدرته، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية، فلا يدلُّ قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ على أنَّ أهل مكة كانوا يعلمون ذلك، وفيه تحدُّ لأهل الكتاب وليس القصد منه الاستدلال على الوحدانية^(٢).

اللطيفة الثامنة: ظاهر قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أنَّ الأيام هي المعروفة للناس، التي هي جمع اليوم الذي هو مدَّة تقدَّر من مبدأ ظهور الشَّمس في المشرق إلى ظهورها في ذلك المكان ثانية، وعلى هذا التفسير فالنقدِير في ما يُماثل تلك المدَّة ستَّ مرَّاتٍ؛ لأنَّ حقيقة اليوم بهذا المعنى لم تتحقَّق إلا بعد تمام خلق السماء والأرض، ليتمكن ظهور نور الشَّمس على نصف الكرة الأرضية وظهور الظلمة على ذلك النصف إلى ظهور الشَّمس مرة ثانية، وأوَّل الأيام يوم الأحد، وآخرها الجمعة، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنَّ الله رفيقٌ حكيمٌ. وقيل المراد: في ستة أوقات، فإنَّ اليوم يُطلق على الوقت ومقصودُ هذا القائل أنَّ السموات والأرض خلقت عالماً بعد عالمٍ، ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها، وأياً ما كان التعمُّق في البحث في هذا خروجٌ عن غرض القرآن.

اللطيفة التاسعة: أوَّل الأيام: يوم الأحد؛ فإنَّ فيه على أصحَّ القولين ابتداء الله خلق السموات والأرض وما بينهما، فإنَّ القرآن أخبر في هذه الآية أنَّ الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وقد ثبت في الصحيح أنَّ آخر المخلوقات كان آدم، خلق يوم الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دلَّ على أنَّ أوله كان يوم الأحد؛ لأنَّها ستة^(٣).

اللطيفة العاشرة: الحكمة في تقييد خلق السموات والأرض وضبطها بالأيام الستة؛ فإنَّ الله خلق السموات والأرض في مدَّة متراخية والأمر في الكلِّ سهل واضح، فإنَّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا اعتراض عليه في أمرٍ من الأمور^(٤).

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٥٧/٣)، وصفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٢٤٥/١).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٦١/٨، ١٦٢)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٧١٢)، ومبشرات النصر والتمكين: ياسين الأغا (ص: ٣١).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٣٥/١٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٠٤/١٤).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

لقد شاء الله بحكمته الباهرة أن يكون خلق السموات والأرض مدرجاً، وأن لا يكون دفعةً؛ لتكون أتقن صنعةً مما لو خلقت دفعةً، وليكون هذا الخلق مظهرًا لصفتي علم الله وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعةً، لكن العلم والحكمة اقتضيا هذا التدرج، وكانت تلك المدة أقل زمن يحصل فيه المراد بعظيم القدرة، ولعلّ تكرر ذكر هذه الأيام في آيات كثيرة لقصد التنبيه إلى هذه النكتة البديعة، من كونها مظهر سعة العلم وسعة القدرة، ومن قال: إن حدوث السموات والأرض دفعةً واحدة أدلّ على كمال القدرة والعلم من حدوثها في ستة أيام. فجوابه أن المقصود منه أن الله وإن كان قادراً على إيجاد جميع الأشياء دفعةً واحدة لكنه جعل لكلّ شيءٍ حداً محدوداً ووقتاً مقدراً، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه، فهو وإن كان قادراً على إيصال الثواب إلى المطيعين في الحال، وعلى إيصال العقاب إلى المذنبين في الحال إلا أنه يؤخرهما إلى أجلٍ معلومٍ مقدّر، فهذا التأخير ليس لأجل أن الله أهمل العباد بل لأنه خصّ كلّ شيءٍ بوقتٍ معينٍ لسابق مشيئته فلا يفتر عنه، وبدل على هذا قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨، ٣٩] بعد أن قال قبل هذا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦] فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به والمكذّبين لأنبيائه من كان أقوى بطشاً من مشركي العرب إلا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة، كما خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام متصلة لا لأجل لغوبٍ لحقه في الإهمال، ولما بيّن بهذا الطريق أنه تعالى إنّما خلق العالم لا دفعةً واحدةً لكن قليلاً قليلاً قال بعده: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الشرك والتكذيب، ولا تستعجل لهم العذاب بل توكل على الله وفوض الأمر إليه، وهذا معنى ما يقوله المفسرون من أن الله إنّما خلق العالم في ستة أيامٍ ليعلم عباده الرفق في الأمور والصبر فيها، ولأجل أن لا يحمل المكلف تأخر الثواب والعقاب على الإهمال والتعطيل، ومن العلماء من ذكر فيه وجهين آخرين: الوجه الأوّل: أن الشيء إذا أحدث دفعةً واحدةً ثم انقطع طريق الإحداث فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذلك إنّما وقع على سبيل الاتفاق، أمّا إذا حدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث حكيم وقادر. والثاني: أنه قد ثبت أن الله يخلق العاقل أولاً ثم يخلق السموات والأرض بعده، ثم إنّ ذلك العاقل إذا شاهد في كلّ ساعةٍ وحين حدوث شيءٍ آخر على التعاقب والتوالي كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته؛ لأنه يتكرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظةً بعد لحظةٍ فكان ذلك أقوى

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٠٥/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٦١/٨).

في إفادة اليقين. وفي هذه الآية ردُّ قاطعٍ على بعض المعتزلة^(١) الذين يقولون: إنَّ الله خلق الخلق دفعةً، والتقدم والتأخر في الكون والظهور^(٢). ولا يخفى بعد هذا التأويل وتكلفه، فقولهم باطلٌ لا يلتفت إليه؛ لأنَّه لا اجتهاد في مورد النص، فالآية نصٌّ صريحٌ في أنَّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيَّامٍ، فأهل الأهواء أنكروا أن تكون السموات والأرض خلقت في ستة أيام^(٣). إنَّ التدرج في الخلق والأمر سنةً ربانيةً من السنن المهمة في حياة البشرية، وبناء الأمم والحضارات، ولهذا خلق الله السموات والأرض في ستة أيَّامٍ، وكان قادراً سبحانه أن يقول: كوني فتكون، ولكنه خلقها في أيَّامٍ ستة من أيَّامِ الله، وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبات، كلها تتدرج في مراحل حتى يبلغ نموؤها وكمالها، هذا من الناحية الكونية، وأمَّا من الناحية الشرعية فقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى التوحيد أولاً، وتثبيت الاعتقاد الصحيح، ثم كان التشريع شيئاً فشيئاً، فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدرج، كما هو ثابتٌ في فرض الصلاة، والزكاة، وتحريم الخمر، وغيرها، وفي هذا المعنى قالت عائشة (رضي الله عنها) واصفةً تدرج التشريع الإسلامي، ونزول القرآن الكريم: "إنَّما نزلَ أوَّلَ ما نزلَ منه سورةٌ من المُفصلِّ، فيها ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ، حتى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسلامِ نزلَ الحلالُ والحرامُ، ولو نزلَ أوَّلَ شيءٍ لا تشربوا الخمرَ، لقالوا: لا ندعُ الخمرَ أبداً، ولو نزلَ لا تزنوا لقالوا: لا ندعُ الزَّنا أبداً"^(٤). فقد أشارت أم المؤمنين (رضي الله عنها) إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأنَّ أوَّلَ ما نزلَ من القرآن الدعاءُ إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنَّة، وللكافر والعاصي بالنَّار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف^(٥)؛ فالتدرجُ سنةٌ كونيةٌ وشرعيةٌ، ومن هنا كان على الذين يدعون إلى استئناف الحياة الإسلامية، وإقامة الخلافة الإسلامية الراشدة في الأرض أن يراعوا سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف سامية، وغايات حميدة، آخذين في الاعتبار سمو الهدف، ومبلغ الإمكانات، وكثرة المعوقات. وقد أحسن الشاطبيُّ في بيان الحكمة في التدرج فقال: "فلهذا المعنى بعينه وضعت العمليات على وجه لا تخرج المكلف إلى مشقة يملُّ بسببها، أو إلى

(١) المعتزلة: أتباع وأصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد وقد كانا من تلامذة الحسن البصري، ولما أحدثا مذهباً وهو: أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، اعتزلا حلقة الحسن، وجلسا ناحية في المسجد، فقال الناس: إنهما اعتزلا حلقة الحسن فسموا معتزلةً، وقيل: إنهم سموا بذلك لأنهم اعتزلوا قول الأمة في حكم مرتكب الكبيرة، بأنَّه لا مؤمن ولا كافر. وهم متفقون على نفي صفات الله، وعلى أنَّ القرآن مخلوق، وأنَّ الله ليس خالقاً لأفعال العباد، بل العباد هم الذين يخلقون أفعالهم. ينظر: اعتقادات فرق المسلمين (ص: ٣٣) والملل والنحل (٤٣/١).

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: السفاريني (٧٨/١)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٢/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٥٤٤، ٥٤٥)، ومعارج القبول: حافظ بن أحمد الحكمي (٧٨٠/٢).

(٤) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن. تأليف القرآن، حديث رقم (٤٩٩٣)، (ص: ٦١٤).

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٢١٣/١١).

تعطيل عاداته التي يقوم بها صلاح دنياه، ويتوسع بسببها في نيل حظوظه، وذلك أن الأُمي الذي لم يزاوُل شيئاً من الأمور الشرعية ولا العقلية. وربما اشمأز قلبه عما يخرجُه عن معتاده. بخلاف من كان له بذلك عهدٌ، ومن هنا كان نزول القرآن نُجوماً في عشرين سنةً، ووردت الأحكام التكليفية فيها شيئاً فشيئاً، ولم تنزل دفعةً واحدةً، وذلك لئلا تتفر عنها النفوس دفعةً واحدةً، وفيما يحكى عن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز^(١) أن ابنه عبد الملك قال له: "ما لك لا تُنفذُ الأمور؟" فوالله ما أبالي لو أن القدر غلت بي وبك في الحق". قال له عمر: "لا تعجلُ يا بُني، فإن الله ذمَّ الخمر في القرآن مرتين، وحرَّمها في الثالثة، وإنِّي أخاف أن أحملَ الحقَّ على النَّاسِ جملةً، فيدفعوه جملةً ويكون من ذا فتنة"^(٢). وهذا معنى صحيح معتبر في الاستقراء العادي، فكان ما كان أجرى بالمصلحة وأجرى على جهة التأنيس، وكان أكثرها على أسباب واقعة، فكانت أوقع في النفوس حين صارت تنزل بحسب الوقائع، وكانت أقرب إلى التأنيس حين كانت تنزل حكماً حكماً وجزئيةً جزئيةً؛ لأنها إذا نزلت كذلك، لم ينزل حكمٌ إلا والذي قبله قد صار عادةً، واستأنست به نفسُ المكلفِ الصائم عن التكليف وعن العلم به رأساً، فإذا نزل الثاني كانت النفسُ أقربَ للانقيادِ له، ثم كذلك في الثالث والرابع. ولذلك أونسوا في الابتداء بأن هذه الملة ملة إبراهيم، كما يؤنس الطفل في العمل بأنّه من عمل أبيه، فلو نزلت دفعةً واحدةً لتكاثرت التكاليفُ على المُكَلَّفِ، فلم يكن لينقادَ إليها انقياده إلى الحكم الواحد أو الاثنين، وإذا اعتادت النفسُ فعلاً من أفعال الخيرِ حصل له به نورٌ في قلبه، وانشرح به صدره، فلا يأتي فعلٌ ثانٍ إلا وفي النفس له القبول؛ هذا في عادة الله في أهل الطاعة، وعادةً أخرى جارية في النَّاسِ أن النفس أقرب انقياداً إلى فعلٍ يكون عندها فعلٌ آخر من نوعه". وذلك لأنَّ الإسلام دينٌ واقعيٌّ، حركيٌّ، جاء يواجه الواقع بوسائل مكافئة، فالإسلام يؤمن أن البشر لا يتغيرون بين يومٍ وليلةٍ، والإسلام هو ناموس، وقانون الله في الحياة، ونواميس الله في الحياة أن المجتمعات البشرية لا تتغير بضغطة زرٍ، أو بخطبةٍ، بل تحتاج إلى سنوات طويلة، مجتمعات تحتاج إلى صبر طويل حتى

(١) أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي، ولد سنة (٦١هـ) بالمدينة النبوية، جدّه من جهة أمه عمر بن الخطاب، اتخذهُ أسوةً له في خلافته بعد أن بُويع له بالخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك سنة (٩٩هـ) وعداً من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين لما له من أعمال جليلة، ومفاخر عظيمة، ومآثر حسنة، عمل على إحقاق الحق ونشر العدل، ورد المظالم إلى أهلها، فتح بابهُ لكل طارق في مظلمة، وكان حسن الخلق والخلق كامل العقل، حسن السمات جيد السياسة، فقيه النفس ظاهر الذكاء، زاهداً متواضعاً، توفي سنة (١٠١هـ) بطلب. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/١٢٠)، والبداية والنهاية (٢/١٩٢)، والتاريخ الإسلامي: علي الصلابي (١/٤٥٨).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز: ابن عبد الحكم (ص ٦٠)، وأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: علي الصلابي (ص: ٥٠)، ومبشرات النصر والتمكين: ياسين الأغا (ص: ٣٢).

تتغير، ولذلك لا بُدَّ من معرفة سنن تغيير المجتمعات، والدعوة الإسلامية دعوة عملية، ودين الله دعوة مرحلية، الأمم لا تتغير بين يومٍ وليلة^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. التدرج في التربية أمرٌ مطلوبٌ؛ لقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. والحكمة والعلم يقتضيان وضع الشيء في موضعه؛ لذلك قال البخاري في الصحيح: (باب العلم قبل القول والعمل) ويقال الرباني: الذي يربيّ النَّاسَ بصِغارِ العِلْمِ قبل كِبَارِهِ.
٢. في خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظَر، وحثٌّ على التَّأني في الأمور.
٣. في هذه الآية بشارةٌ عظيمةٌ للعقلاء؛ لأنَّه قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والمعنى أنَّ الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيثُ خلق هذه الأشياء العظيمة، وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له مربٍ موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات أو يعول على غيره في تحصيل السعادات.
٤. في الآية دقيقةٌ فإنَّه لم يقل: أنتم عبیده بل قال: هو ﴿رَبَّكُمُ﴾، ودقيقةٌ أخرى وهي أنَّه تعالى لما نسب نفسه إلينا سمَّى نفسه في هذه الحالة بالربِّ، وهو مشعرٌ بالتربية وكثرة الفضل والإحسان فكأنَّه يقول: من كان له مربٍ مع كثرة هذه الرحمة والفضل فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره؟.
٥. أنَّ حوادث العالم لها ابتداءً، وقد حدثت بعد أن لم تكن، وقد حدثت شيئاً بعد شيءٍ، وأنَّها حدثت بمُحدِّثٍ.
٦. أنَّ من سنن الله التدرج في كلِّ شيءٍ، لا شيء يأتي فجأة في أحوال النَّاسِ.

(١) الموافقات: أبو إسحاق الشاطبي (٢/١٤٩، ١٤٨)، والسلسلة الصحيحة: الألباني (ح ٦٥١)، وفي ظلال سورة التوبة: عبدالله عزام (ص: ١٩، ٢١).

(٢) صحيح البخاري في كتاب العلم. باب العلم قبل القول والعمل (ص: ٢٠)، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود (٣/١٨٦)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠٦)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٤٣)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٦٢)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٥٥١)، والانحرافات العقدية والعلمية: علي الزهراني (١/٤٧).

المقصد الثالث: استواء الرحمن على العرشِ علوّ وارتفاعٌ وكمالٌ وجمالٌ

ويدلُّ على هذا المقصد الإيماني العظيم قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

ثُمَّ: حرف للتراخي، وهذا يدلُّ على أنَّ الله إنَّما استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض.
اسْتَوَى: الاستواءُ حقيقته الاعتدال، ويؤخذ من كلام المحققين أنَّه حقيقةٌ في الارتفاع والاعتلاء، والعلو والقصد وقد التزم هذا اللفظ في القرآن مسنداً إلى ضمير الجلالة، كما في هذا الآية.
العَرْشِ: العرش لغةً: السرير الخاص بالملك، والعرش السرير الذي للملوك، وفي الشرع: العرش العظيم الذي استوى عليه الرحمن، وهو أعلى المخلوقات وأكبرها، وصفه الله بأنَّه عظيمٌ، وكريمٌ، ومجيدٌ، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها، وهو جسمٌ عظيمٌ محيطٌ بسائر الأجسام.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنَّ ربَّكم أيها النَّاس هو الله الذي خلق السموات وخلق الأرض على غير مثالٍ سابقٍ في ستة أيامٍ، ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بكماله وجلاله، بمعنى ارتفاعه وعلا، ولا ندرك كيفيته.

ثالثاً: لطائف التفسير ودقائق التأويل في الآية^(٣):

اللطفية الأولى: دلت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ على التَّراخي الرُّتبي، أي: وأعظم من خلق السموات والأرض استواؤه على العرش، تنبيهاً على أنَّ خلق السموات والأرض لم يحدث تغييراً في تصرفات الله بزيادةٍ ولا نقصانٍ، ولذلك ذكر الاستواء على العرش عقب ذكر خلق السموات والأرض والمقصد من ذلك إبطال ما يقوله اليهود: "إنَّ الله استراح في اليوم السابع".
اللطفية الثانية: لا عيبَ على من أظهر مذهبَ السلف، وانتسب إليه واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق؛ فإنَّ مذهب السلف لا يكون إلا حقاً، فأفضل مذهب في تفسير الاستواء هو مذهب السلف الصالح في أنَّ الاستواء بمعنى الارتفاع والعلو اللائق بالله تعالى.
اللطفية الثالثة: خصَّ العرش بالاستواء؛ لأنَّ العرش أثقل المخلوقات على الإطلاق وأكبرها.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٢١، ١١٩)، وإرشاد العقل السليم: أبو السعود (٣/١٨٦)، وتفسير القرآن العظيم:

ابن كثير (٢/٤٠٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٦٦)، وشرح لمعة الاعتقاد: ابن عثيمين (ص: ٦٣).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

(٣) الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح الثاني (فقرة رقم: ٣، ص: ٥)، ومجموع الفتاوى: ابن

تيمية (٤/١٤٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٦٦)، والاستهزاء بالدين: أحمد القرشي (ص: ٢٥).

رابعاً: بيان المقصد من الآية^(١):

هذه الآية الكريمة من آيات الصفات فأن الله تعالى وصف نفسه بالاستواء على العرش، وقد تمدح الله في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال، والجلال؛ القاضية بعظمته وجلاله، وأنه الربُّ وحده المستحق لأنَّ يعبد وحده، والحقُّ الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كلَّ وصفٍ وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، فظاهره المتبادر منه السابق إلى الفهم هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث. ثم إنَّ لهذا الفعل (الاستواء) خصوصيةً في كلام العرب، كان بسببها أجدَر بالدلالة على المعنى المراد تبليغُه ممَّا يليق بصفات الله، ويقرب إلى الأفهام معنى عظمتِه، ولذلك اختير في هذه الآيات دون غيره من الأفعال فالاستواء يعبر عن شأنٍ عظيمٍ من شؤونِ عظمة الخالق، وقد فسره أهل التعطيل بالاستيلاء، ورُدَّ عليهم بأنَّه لا يُعرف في لسان العرب بهذا المعنى، وأنَّه يلزم عليه لوازم باطلة، مثل أنَّ العرش لم يكن ملكاً لله ثم استولى عليه بعد. وقد تأوله الأشاعرة بأنَّ المراد بالاستواء الاستيلاء، وعقب ابن عاشور بقوله: "وأراه بعيداً؛ لأنَّ العرش ما هو إلا من مخلوقاته، فلا وجه للإخبار باستيلائه عليه". ومذهب السلف أنَّهم يؤمنون بأنَّ الله مُستَوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، من غير تأويلٍ فاسدٍ؛ فعن الإمام مالك سئل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلومٌ، والكيف غير معقولٍ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ. ثم إنَّ الله أعلمنا أنَّه استوى على عرشه، لم يخبر كيف استوى، ومن اعتقد أنَّ الله مُفْتَقِرٌ للعرش، أو لغيره من المخلوقات، أو أنَّ استواءه على العرش، كاستواء المخلوقات على كرسيه، فهو ضالٌّ مبتدعٌ.

وقاعدة أهل السنة في صفات الله، أن يُنظر في هذا الباب، فما أثبتته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفينا، والألفاظ التي ورد بها النصُّ يُعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفتته النصوص من الألفاظ والمعاني. وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنَّهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، إثباتٌ بلا تمثيلٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ أي: إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، وكذلك ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه، أو نفاه عنه رسوله مع إثبات كمال ضده من غير إلحادٍ، لا في أسمائه ولا في آياته، فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ

(١) منهاج السنة النبوية: ابن تيمية (٥٥٤/٢)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٣٢٩)، وشرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٦٢)، والعين والأثر في عقائد أهل الأثر: عبدالباقي المواهبي الحنبلي (ص: ٥٩)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٦٢/٨)

السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴿١﴾ رد للإلحاد والتعطيل^(١). ونحن نعلم أنّ ما وصف الله به من ذلك فهو حقّ ليس فيه لغز ولا أحاجي؛ بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه، وهو (ﷻ) مع ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله فكما نتيقن أنّ الله له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة وهو ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وكلّ ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإنّ الله منزّه عنه حقيقة؛ فإنّ الله مستحقّ للكمال الذي لا غاية فوقه^(٢).

وأهل البدع والضلال قد اصطاحوا على تسمية استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته وأنّه فوق عباده تحيزاً وتجسيمياً^(٣). ويسمون العرش حيزاً وجهة، فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستكثرة الشنيعة تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوا، فلم يشك أحدٌ الله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الربّ عن ذلك، ولا شكّ أن قولهم هذا يدلّ على انحراف في الفطرة، وفساد في العقل، وقصور في التصور، ولا خلاف بين العقلاء أنّ الله متصفّ بجميع صفات الكمال، منزّه عن جميع صفات النقص^(٤). لذلك فإنّ استواء الله على العرش من صفاته الفعلية الثابتة لله بالكتاب والسنة وإجماع السلف، فقد أجمع السلف الصالح على إثبات استواء الله على عرشه، فيجب إثباته من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكليف، ولا تمثيل، وهو استواءٌ حقيقيّ، معناه العلو والارتفاع والاستقرار على وجه يليق بالله^(٥). وقد اتفقت الكلمة بين المسلمين أنّ الله فوق عرشه فوق سمواته، يعلم ويسمع من فوق العرش لا تخفى عليه خافية من خلقه، ولا يحجبهم عنه شيء، وكلام السلف قاطبة في باب الأسماء والصفات الجميع واحد: إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تحريف وتعطيل^(٦). والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسلّه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل، ولا تفويض، بل يثبتون له ما يستحقّه من صفات الكمال، وينزهونه عن الأكفاء والأمثال، فلا يعطلون الصفات ولا يمتثلونها بصفات المخلوقات؛ فإنّ المعطل يعبد عدماً، والممثل يعبد صنماً، وصفات الله لا تماثل صفات العباد؛ فإنّ الله ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، فإنّ الله لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات، والسلف وصفوا الخالق بخصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله^(٧).

(١) التدمرية: ابن تيمية (ص: ٥٣)، وأحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين (ص: ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٦/٥).

(٣) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٩٣)، ومعجم المناهي اللفظية: بكر أبو زيد (ص: ١٤٥).

(٤) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١٠٤/١).

(٥) شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٦٢).

(٦) معارج القبول بشرح سلم الوصول: حافظ الحكمي (١٩٤/١)، (٧٧٠/٢).

(٧) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٥،٧٣/١٢)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٠٣/١٧).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. في الآية ردٌّ على الجهمية الذين يزعمون أنّ الله ليس فوق العرش. فقولهم مخالفٌ للكتاب والسنة وإجماع السلف، وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم.
٢. الآية دليلٌ على كمال القدرة والعلم، وذلك من صفات المدح والثناء.
٣. إنكار علو الله على عرشه أصل عند أهل الأهواء، وجمهور العقلاء يقولون: قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة.

المقصد الرابع: إنّ الله فوق العالم حقيقةً

لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ: أي: إنّ سيدكم ومصالح أموركم أيها الناس هو المعبود الذي له العبادة من كلّ شيءٍ العرش: العرش جسمٌ عظيمٌ محيطٌ بجميع المخلوقات.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

إنّ ربكم أيها الناس هو الله الذي خلق السموات وخلق الأرض على غير مثالٍ سابقٍ في ستة أيام، ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بجلاله لا ندرك كيفيته، ونعلم معناه.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: خصّ الله تعالى ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لأنّهما أعظم المخلوقات للناظرين.

اللطيفة الثانية: الحكمة في الاختصار على ذكر السموات والأرض دون ذكر خلق سائر الأشياء؛ لأنّ ذكر السموات والأرض في هذه الآية يشتمل أيضاً على ذكر ما بينهما، والدليل عليه أنّ الله ذكر سائر المخلوقات في سائر الآيات القرآنية.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ دليلٌ على أنّ السموات مخلوقةٌ، فإنّ السموات مخلوقةٌ بعد أن لم تكن، كما أخبرت بذلك الرُّسل، وكتب الله.

(١) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٢٠، ١١٦)، ودرء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية(١/٤١)، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول: حافظ بن أحمد الحكمي(١/١٩٤).

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري(٥/٥١٣)، وحاشية الجمل على تفسير الجلالين(٢/٣٤٧).

(٣) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص: ١٥٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٠٥)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية(١٢/٢٧)، وحاشية الجمل على تفسير الجلالين(٢/٣).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

تأول بعض المفسرين من ذوي النزعة الاعتزالية صفة الاستواء بالاستيلاء والقهر والغلبة، فأخرجوها بذلك عن حقيقتها إلى المجاز، وذلك لنفي صفة العلو عن الله، ولهم شبه عقلية فاسدة؛ زعموا أنهم بتلك الحجج يقيمون الحق، وهم لا للإسلام نصرُوا ولا لأعدائه كسروا. وصفة الاستواء من أنواع أدلة علو الله بذاته على خلقه عند أهل السنة والجماعة؛ فإن علو الله على عرشه فوق خلقه ثابتٌ بالكتاب والسنة والإجماع، والعقل والفطرة، وقد ذكر العلماء ثمانية عشر نوعاً من أدلة علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، فقد وصف الله نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله بالعلو والاستواء على العرش وال فوقية في كتابه في آيات كثيرة، حتى قال بعض الشافعية: "في القرآن ألف دليل أو أزيد تدل على أن الله عالٍ على الخلق، وأنه فوق عباده"، وفي ذلك ردٌّ على من أنكر فوقية الله على الخلق بحجة أن الحيز والجهة على الله محال، فلو كان الله مختصاً بالحيز والجهة لكانت ذات البارئ مفتقرة في تحققها إلى الغير، ولكان محدثاً، وهذا ممتنع في حق الله، فثبت أن القول بأن الله حاصل في الحيز والجهة قولٌ باطلٌ على كلِّ الاعتبارات^(٢). والجواب أيضاً أن الحيز والجهة ليس بأمرٍ وجودي حتى يقال: ذات الله مفتقرة إليه ومحتاجة إليه، فإن ذات الله مختصة بجهة علو وفوق، والله مباينٌ للعالم، فلا ريب أن الله فوق العالم، بائنٌ من المخلوقات، فالله تعالى ليس داخلياً في المخلوقات؛ لأن الله أكبر وأعظم من أن يحيط به شيءٌ من مخلوقاته، فإن الله منحازٌ عن المخلوقات، أي: مباينٌ لها، منفصلٌ عنها، ليس حالاً فيها، فإن الله فوق سمواته، بائنٌ من خلقه، ومعنى بائنٌ من خلقه: أنه ليس في ذاته شيءٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، فهو العظيم الذي لا أعظم منه، وهو الكبير المتعالي يمتنع أن يحويه شيءٌ من مخلوقاته، فهو أعظم وأكبر من أن تحيط به مخلوقاته، فضلاً عن أن يحيط به شيءٌ منها^(٣).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى؛ وأنه فعال لما يريد.
٢. أن الله فوق العالم بذاته العلية حقيقةً، وكون الله تحت أهل الدنيا محالاً بالاتفاق.
٣. إثبات صفة الاستواء على العرش لله تعالى حقيقةً على ما يليق بجلاله وكماله وعظمته.

(١) الصواعق المرسلّة: ابن قيم الجوزية (١٢٦/٢)، ودفع إيهام التشبيه: السمهري (ص: ١١٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١١٧/١٤، ١٠٩)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٢٦/٥).

(٣) شرح الرسالة التدمرية: عبدالرحمن بن ناصر البراك (ص: ٢٠٧ - ٢١٠).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١١٥/١٤)، ودفع إيهام التشبيه: السمهري (ص: ١٣٠).

المقصد الخامس: علم الهيئة والفلك جائز

دلَّ على هذا المقصد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

خَلَقَ: الخلق يتناول كلَّ ما سوى الله من المخلوقات، والخلق هو الإبداع بتقديرٍ.

السَّمَاوَاتِ: السموات جمعُ سماءٍ، وهي عبارة عن كلِّ ما ارتفع وسما وعلا، فكلُّ ما له ارتفاع وعلو وسمو كان سماءً.

وَالْأَرْضَ: الأرض باردة يابسة بالطبع، وهي جسمٌ ثقيل يتحرك باستقامة، فإنَّ الله وضع الأرض للخلق؛ لأنَّ وضع الأرض للخلق على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع من أعظم الآيات، وأكبر النعم الإلهية.

اللَّيْلَ: الليل: هو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فالليلُ عبارةٌ عن زمن مغيب الشمس إلى طلوع الفجر أو طلوع الشمس؛ لأنَّه مقابل النهار.

يَطْلُبُهُ: أصل الطلب: الفحص عن وجود الشيء عيناً كان ذلك الشيء أو معنىً. والطلبُ: هي الشيء المقصودُ بالطلب.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنَّ رَبَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ هو الله الذي خلق السموات وخلق الأرض على غير مثالٍ سابقٍ في ستة أيامٍ، ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق بجلاله لا ندرك كلفيته، ونعلم معناه، يُذهب ظلام الليل بضياء النهار، وضياء النهار بظلام الليل، وكلُّ منهما يطلب الآخر طلباً سريعاً بحيث لا يتأخر عنه، فإذا ذهب هذا دخل هذا، وخلق الله الشمس، وخلق القمر، وخلق النجوم مُدَلَّلَاتٍ مُهَيَّاتٍ.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤٥/١٤، ١٢٠)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٦/١٢، ١١١/٦٠)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٨١٧)، وحاشية قليوبي وعميرة على المحلي (٥٢/٢)، ومغني المحتاج: الشربيني (٣/٣٠٩)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤/٢٠، ٤١٠/٤١).

(٢) جامع البيان: الطبري (٥/٥١٣)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

١- علم الهيئة والفلك جائز؛ لأدلة منها:

١. أن الله ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها، والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها.
٢. أن الله قال: ﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق:٦٠] فهو تعالى حث على التأمل في أنه كيف بناها، ولا معنى لعلم الهيئة إلا التأمل في أنه كيف بناها وكيف خلق كل واحدٍ منها.
٣. أن الله قال: ﴿لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] فبيّن أن عجائب الخلقه وبدائع الفطرة في أجرام السموات أكثر وأعظم وأكمل ممّا في أبدان النَّاسِ، ثم إنّه تعالى رغب في التأمل في أبدان النَّاسِ بقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] فما كان أعلى شأنًا وأعظم برهاناً منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب.
٤. أن الله مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران:١٩١] ولو كان ذلك ممنوعاً منه لما فعل.
٥. أن من صنف كتاباً شريفاً مشتملاً على دقائق العلوم العقلية والنقلية بحيث لا يساويه كتاب في تلك الدقائق مدح.
٦. من النَّاسِ من اعتقد أن هذا العالم محدث وكلُّ محدثٍ فله محدثٌ، فحصل له بهذا الطريق إثبات الصانع وصار من زمرة المستدلين، ومنهم من ضم إلى تلك الدرجة البحث عن أحوال العالم العلوي والعالم السفلي على سبيل التفصيل فيظهر له في كلِّ نوع من أنواع هذا العالم حكمةً بالغةً وأسرارٌ عجيبةٌ، فيصير ذلك جارياً مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية على قلبه، فلا يزال ينتقل كلَّ لحظةٍ ولمحةٍ من برهانٍ إلى برهانٍ آخر، ومن دليلٍ إلى دليلٍ آخر، فلكثرة الدلائل وتواليها أترّ عظيمٌ في تقوية اليقين، وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك ظهر أن الله إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٢٧، ١٢٦).

ب- المكان مقدّم على الزمان^(١) في الوجود

في الآية تقديم المكان على الزمان كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: ٣٢، ٣٣]. وهذه مسألة مهمة قلّ مَنْ تعرّض لها، وهي سبق المكان على الزمان، فإنّ الله خلق السموات والأرض قبل خلقه الزمان والأيام والليالي، وقبل الشمس والقمر^(٢).
رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٣):

١. أنّ الليل هو الأصل، والنّهار تبع.
٢. أنّ الزمان قسمان: تحقيقيّ وتقديرِيّ.
٣. ما تضمنت هذه الآية الكريمة من امتنان الله على النّاس بخلق السموات والأرض لهم بما فيهما من المنافع والمصالح، وجعل فيهما آيات لهم دالة على كمال قدرة ربّهم ونفوذ مشيئته، واستحقاقه للعبادة وحده.
٤. خلق الله السموات والأرض في ستة أيّامٍ لحكمة بالغة أرادها، ولو شاء لقال: كن فكانت.

المطلب الثاني: التسخير الكوني نعمة ربانية، فالله هو الخالق

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأوّل: المخلوقات دليل على وجود الخالق الحكيم

دلّ عليه قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٤):

يُغْشِي: الإغشاء والتّغشية: جعل الشّيء غاشياً، والغشيان حقيقته التّغطية والغم. فمعنى: ﴿يُغْشِي- اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أنّ الله يجعل أحدهما غاشياً الآخر. والإغشاء والتّغشية إلباس الشّيء بالشّيء. حَثِيثًا: الحث: الاعجال، والحثيث: المسرع، من حثّه إذا أعجله وكرّر إبعاله لبيادر بالعجلة، فالمعنى يطلبه سريعاً مُجداً في السرعة؛ لأنّه لا يلبث أن يُعفى أثره، والمعنى أنّ الله وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة، والمقصود: التنبيه على سرعتها وسهولتها وكمال إيصالها. الشَّمْسُ: عن عبدالله بن عباس قال: قال النبيّ (ﷺ): "إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يَنكسفان لموت أحدٍ من النّاس، ولا لحياته"^(١). في هذا الحديث إبطال ما كان أهل الجاهلية

(١) الزمان هو ساعات الليل والنهار، وهي قطع الشمس والقمر درجات الفلك، ينظر: تاريخ الطبري (٢١/١).

(٢) تاريخ الأمم والملوك: الطبري (٢٣/١).

(٣) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٣/٢٤١ - ٢٤٢)، ومُعني المحتاج: الخطيب الشربيني (٣/٣١٠)، وأضواء

البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٨١٧)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية (ص: ١٥٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٢٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٦٨).

يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأرض، وقد كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض من موتٍ أو ضررٍ، فأعلم النبي ﷺ أن الشمس والقمر خلقان مسخران لله ليس لهما سلطانٌ في غيرهما ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، وهما آيتان، أي: علامتان من آيات الله الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته أو على تخويف العباد من بأس الله وسطوته، ومن حكمة وقوع الكسوف تبيين أنموذج ما سيقع في القيامة، وصورة عقاب من لم يذنب، والتنبيه على سلوك طريق الخوف مع الرجاء لوقوع الكسوف بالكوكب، ثم كشف ذلك عنه ليكون المؤمن من ربه على خوف ورجاء، وفي الكسوف إشارة إلى تقبيح رأي من يعبد الشمس أو القمر^(٢).

النُّجُوم: خلق الله النُّجُومَ لثلاثٍ: جعلها زينةً للسماء، ورُجُوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتَدَى بها، فمن تأوَّلَ فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكفَّفَ ما لا علم له به^(٣)، النُّجُوم كُلُّها معلقةٌ كالقناديل من السماء الدنيا كتعليق القناديل في المساجد^(٤).

مُسَخَّرَاتٍ: التَّسْخِيرُ حَقِيقَتُهُ تَذْلِيلُ ذِي عَمَلٍ شَاقٍ أَوْ شَاغِلٍ بِقَهْرٍ وَتَخْوِيفٍ أَوْ بِتَعْلِيمٍ وَسِيَاسَةٍ بَدُونِ عَوْضٍ، وَيَسْتَعْمَلُ تَوْسَعًا فِي تَصْرِيفِ الشَّيْءِ غَيْرِ ذِي الْإِرَادَةِ فِي عَمَلٍ عَجِيبٍ أَوْ عَظِيمٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَصْعَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِيهِ، بِحِيلَةٍ أَوْ إِلْهَامٍ تَصْرِيفًا يَصِيرُهُ مِنْ خِصَائِصِهِ وَشَوْنِهِ، كَتَسْخِيرِ الْفُلْكِ لِلْمَخْرِ فِي الْبَحْرِ بِالرِّيحِ أَوْ بِالْجَذْفِ، وَتَسْخِيرِ السَّحَابِ لِلْأَمْطَارِ، وَتَسْخِيرِ النَّهَارِ لِلْعَمَلِ، وَاللَّيْلِ لِلسَّكُونِ، وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ لِلسَّيْرِ فِي الصَّيْفِ، وَالشَّمْسِ لِلدَّفْعِ فِي الشِّتَاءِ^(٥).

الْخُلُقُ: الْخَلْقُ: إِيجَادُ الْمَوْجُودَاتِ، وَالْأَمْرُ تَسْخِيرُهَا لِلْعَمَلِ الَّذِي خَلَقَتْ لِأَجْلِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أَي: اخْتَرَعَ وَأَوْجَدَ وَأَنْشَأَ وَابْتَدَعَ، وَالْخَلْقُ يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِخْتِرَاعِ، وَالتَّقْدِيرِ، وَكِلَاهُمَا مُرَادٌ هُنَا، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حَدُوثِهِمَا فَرَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَهَا مَسْتَوِيَةً مِنْ غَيْرِ أَوْدٍ، وَجَعَلَ فِيهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَيْنِ وَزَيْنًا بِالنُّجُومِ وَأَوْدَعَهَا السَّحَابَ وَالغَيْومَ عَلَامَتَيْنِ، وَبَسَطَ الْأَرْضَ، وَأَوْدَعَهَا الْأَرْزَاقَ وَالنَّبَاتَ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ آيَاتٍ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَسَبَلًا فَجَاجًا، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْبَحَارَ، وَفَجَّرَ فِيهَا الْعَيُونَ مِنَ الْأَحْجَارِ، دَلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، وَبَيَّنَّ بِخَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ^(٦).

(١) صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق . باب صفة الشمس والقمر، حديث رقم (٣٢٠٢)، (ص: ٣٨٣).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٣/٤١٠، ٤٠٢).

(٣) ينظر: صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق . باب في النُّجُوم، (ص: ٣٨٢).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٧/٤٩٩).

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٦٨).

(٦) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٦/٣٨٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٦٩).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

يخبر الله عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، حيث جعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة، ذكر به شيء من عموم فعله المضمن في الاستواء على العرش، وتنبيه على المقصود من الاستواء، ولذلك جاء به في صورة الحال لا في صورة الخبر، وخص هذا التصرف بالذكر لما يدل عليه من عظيم المقدر، وما فيه من عبرة التغير ودليل الحدوث، ولكونه متكرراً حدوثه في مشاهدة الناس كلهم.

اللطيفة الثانية: الغشي في قوله: ﴿يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ مستعار للإخفاء؛ لأنَّ النهار يزيل أثر الليل، والليل يزيل أثر النهار، ومن بديع الإيجاز ورشاقة التركيب: جعل الليل والنهار مفعولين لفعل فاعل الإغشاء، فهما مفعولان كلاهما صالح لأن يكون فاعل الغشي، ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ عن ذكر عكسه، ولم يقل: والنهار الليل، والأصل في ترتيب المفاعيل في هذا الباب أن يكون الأول هو الفاعل في المعنى، ويجوز العكس إذا أمن اللبس.

اللطيفة الثالثة: تقديم الليل على النهار في قوله: ﴿يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾؛ وذلك لأنَّ الليل أسبق بالزمان والإيجاد من النهار، ولذلك اختارت العرب التاريخ بالليالي دون الأيام، وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة، وقاعدتهم تغليب المذكر إلا في التاريخ.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ احتمل الضمير المنصوب فيه أن يعود إلى الليل وإلى النهار، وإن جعل حالاً تعين أن يعتبر حالاً من أحد المفعولين على السواء، فإنَّ كلا الليل والنهار يعتبر طالباً ومطلوباً، تبعاً لاعتبار أحدهما مفعولاً أو ثانياً، ولا مانع من اعتبار التنازع للمفعولين في جملة الحال.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ فيه تشبيه؛ حيث شبه ظهور ظلام الليل في الأفق ممتداً من المشرق إلى المغرب عند الغروب واختفاء نور النهار في الأفق ساقطاً من المشرق إلى المغرب حتى يعم الظلام الأفق بطلب الليل النهار على طريقة التمثيل، وكذلك يفهم تشبيه امتداد ضوء الفجر في الأفق من المشرق إلى المغرب واختفاء ظلام الليل في الأفق ساقطاً في المغرب حتى يعم الضياء الأفق، بطلب النهار الليل على وجه التمثيل.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤٠٧/٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٤١/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٦٦/٨، ١٦٧).

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أطلق التسخير فيه توسعاً على جعلها خاضعة للنظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير، مع أن شأن عظيمها أن لا يستطيع غيره تعالى وضعها على نظام محدود منضبط.

اللطيفة السابعة: تقديم الشمس على القمر في قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾؛ وذلك لشرف وفضيلة الشمس على القمر، فإن نور القمر مستمد من نور الشمس^(١).

اللطيفة الثامنة: قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ جملة مستأنفة استئناف التذييل للكلام السابق من قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لإفادة تعميم الخلق، والتقدير: لما ذكر آنفاً ولغيره^(٢).

اللطيفة التاسعة: افتتحت الآية بحرف التنبيه ﴿أَلَا﴾ لتعني نفوس السامعين هذا الكلام الجامع. **اللطيفة العاشرة:** اللام في قوله: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ جارة لضمير الجلالة، وهي لام الملك، وتقديم المسند هنا لتخصيصه بالمسند إليه.

اللطيفة الحادية عشر: جمع السموات؛ لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووحد الأرض؛ لأنها كلها تراب^(٣).

اللطيفة الثانية عشر: بدأ بذكر خلق السموات؛ لأن الأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخباراً عن عظيمها وسعتها وإما أقساماً بها وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيتها ورافعها وإما استدلالاً من الله بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الخالق وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتثام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر، والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها، فكم من قسم في القرآن بها؛ فلم يقسم الله في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه^(٤).

اللطيفة الثالثة عشر: جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد: أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والنرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذُه

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٥٩/٣).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٦٧/٨، ١٦٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٩٢/٢).

(٤) مفتاح دار السعادة: ابن قيم الجوزية (١٩٦/١).

تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الرؤم: ٦٧]^(١). هذا الحديث يدلُّ على عظمة الله وقوته وقدرته؛ حيثُ يضع السموات كلها على إصبعٍ من أصابع يده الكريمة العظيمة، فكلُّ شيءٍ في الكون من آيات الله الكونية والشرعية يدعو إلى عظمة الله؛ لذلك فإنَّ أصل دين الإسلام مبنيٌّ على تعظيم الخالق وتعظيم دينه، وتعظيم رسوله^(٢).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

إنَّ الله أخبر أنَّه خلق السموات والأرض بالحقِّ ليستدلَّ بهما العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنَّه خلقهما سكناً لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به، في الشرائع التي أنزلها على السنة رسله، فإنَّه الإله حقاً، الذي لا تتبغى العبادة والحبُّ والذلُّ إلا له سبحانه، وإنَّ السماء بهذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة، لشيءٍ يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها، على باريها، فالله ما خلق السموات والأرض عبثاً باطلاً، كما يظنُّ أعداءُ الدِّين، بل خلقهما بالحقِّ الذي منه أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته، وحكمته، وعلمه المحيط، وأنَّه الذي لا تتبغى العبادة إلا له، وحده لا شريك له. والحاصل أنَّه لا ذرة ولا شذرة، ولا ملك ولا فلك، ولا روح ولا نفس، ولا جنٌّ ولا إنس من جميع العالم السفلي والعلوي، إلا وهو مخلوقٌ ومصنوعٌ لله، كان بعد أن لم يكن، فلا يستحقُّ الوجود الواجب شيءٌ سواه، فوجود الخلق دليلٌ على وجود الخالق، ووجود الخالق ليس هو كوجود مخلوقاته؛ فإنَّ الله يُعرف بآياته وبخلقه، ويوصف بصفاته، ويُسمَّى بأسمائه كما وصف في كتابه، فخلق السموات والأرض يدلُّ على وجود الصانع وقدرته وحكمته من وجوه كثيرة؛ والله أرشد العباد إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة الباهرة من خلق الله الأشياء، السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهادٍ وجبالٍ، وأوديةٍ وبرارٍ وقفارٍ، وأشجارٍ وأنهارٍ، وثمارٍ وبحارٍ، كلُّ ذلك دالٌّ على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار^(٤). فقد دلَّت على وجود الله المخلوقاتُ دلالةً عقليةً قطعيةً، والدلالة هي كونُ الشيءٍ بحيثُ يلزم من العلم به العلم أو الظنُّ بشيءٍ آخر، كدلالة العالم على الصانع، وقد استدلَّ بهذا جمعٌ من العلماء، وهو مبني على مقدمتين، إحداهما: أنَّ المخلوقات موجودةٌ، والثاني: أنَّ المخلوق لا يوجد إلا بخالقٍ، وأصرح من ذلك وأوضح أنَّ نفس

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير . باب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الرؤم: ٦٧] حديث رقم (٤٨١١)، (ص: ٥٨٥).

(٢) الاستهزاء بالدِّين: أحمد بن محمد القرشي (ص: ٦، ٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٣٥/١١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٤٦٣، ٤٦١، ٤٥٧)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٤٢/١)، والمختصر المفيد في بيان دلائل

أقسام التوحيد: عبدالرزاق البدر (ص: ٣٩)

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٢٠/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤٠٨/٣).

حدوث المخلوقات دليلٌ على إثبات الخالق لها، وأمَّا المقدمة الثانية وهي أنَّ الحادث لا بدَّ له من مُحدث فلاستحالة حدوث المخلوق بنفسه، كما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطُّور: ٣٥]، يقول الله: أحدثوا من غير مُحدث أم هم أحدثوا أنفسهم، ومعلومٌ أنَّ المحدث لا يوجد بنفسه. وقد ذكر السلف أنَّ هناك طريقين لإثبات الصفات الإلهية: الطريق الأوَّل: الوحي الإلهي، وهو ما جاء في كتاب الله، وفي سُنَّة رسوله. والثاني: وهو دلالة الصنعة عليها؛ فإنَّ المخلوق يدلُّ على وجود خالقه، وعلى حياته وعلى قدرته، وعلى علمه ومشيتته؛ فإنَّ الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزماً ضرورياً، وما فيه من الإتيان والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدلُّ على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفعة، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدلُّ على رحمة خالقه وإحسانه وجُوده، وما فيه من آثار الكمال يدلُّ على أنَّ خالقه أكمل منه؛ فمعطي الكمال أحقُّ بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق، أحقُّ أن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة والعلوم والقُدْر والإرادات أحقُّ بأنَّ يكون هو كذلك في نفسه^(١). وقد أجمع أهل الملل الدنيوية على أنَّ الطريق إلى الله واضح، والآيات الدالة على الصانع ووحدانيته وصفاته أكثر من أن تُحصى، ومن أصدق من الله قِيلاً فيما هدى النَّاس إليه من الاعتبار بخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وما بينهن، فإنَّ صفحة الكون أمامنا زاخرة بالشواهد العديدة الدالة على الخلق، بل إنَّ كلَّ مخلوقٍ في الكون دالٌّ بذاته على قدرة الله وعظمته ووحدانيته؛ ومن ثم فقد جاءت الدعوة في القرآن إلى الوقوف على آثار قدرة الله وبديع صنعه الماثلة للعيان في السموات والأرض، ولذلك كان التأمل والتفكير فيهما طريقاً إلى عبودية الله، فالآية بينت دليل التوحيد، من حيثُ إنَّ هذا العالم والبناء العجيب لا بُدَّ له من بانٍ وصانع، فأية السموات: ارتفاعها بغير عمدٍ من تحتها ولا علائقٍ من فوقها، ودلُّ ذلك على القدرة وخرق العادة، ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغارية نيرة وممحوة آية ثانية. وآية الأرض: بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها، ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنَّه لا بُدَّ لكلِّ مصنوعٍ من صانع، فالمقصود كون السموات والأرض من فعل الله كيفما كانت^(٢)، والذي أرشد الله إليه في كتابه هو النظر في غرائب صنعه، وعجائبه في السموات والأرض، ليستدل

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٣/٣٥٤)، ولوامع الأنوار البهية:

السفاري (١/٤٤)، ودفع إيهاً التشبيه: السمهري (ص/٢٤)، والدين الخالص: محمد صديق خان (ص: ١٥٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢/١٩٢)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤/٢٥)، والإسرائيليات

والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبه (ص: ٢٨٩).

بذلك على كمال قدرته تعالى، واستحقاقه للعبادة وحدَه، وهذا المقصد الأساسي لم يحصل للناظرين في الهيئة من الكفار^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أن الله يُستدلُّ على وجوب وجوده بديع ما له من الأفعال؛ فإنَّ المخلوقات بما فيها من إبداعٍ دليلٌ على وجود الخالق المبدع.
٢. أن من المعلوم بصريح العقل وصحيح النقل أن الخالق المبدع ليس هو بمخلوقٍ ولا جزءاً من أجزائه ولا صفةً من صفاته.
٣. أن الله منزّه عن أن يخلق الخلق سُدىً، أو يشاركه في إحداث شيءٍ من الحوادث شريكاً، بل هو الخالق المختار بلا حاجةٍ ولا اضطرارٍ بقدره قاهرةٍ، لحكمةٍ باهرةٍ.
٤. أن المخلوقات مُستزمنةٌ لثبوت الخالق.
٥. أن كلَّ الدنيا ليس لديها دليلٌ على عدم وجود الله، والنفى يحتاج إلى دليلٍ كما أن الإثبات يحتاج إلى دليلٍ.
٦. أن الخلق التقدير، وكلُّ ما له قدر فمصنوعٌ مفتقرٌ إلى مخصصٍ، وذلك يدلُّ على افتقار خلق السموات والأرض إلى الفاعل القادر المختار.
٧. ما ذكره الله في الآية من الأشياء يُعدُّ من الدلائل الدالة على وجود الله، وعلى قدرته وحكمته وعلمه، والغرض من الآية تعظيم قدرة الله.
٨. أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيامٍ، والقديم الأزلي لا يكون في أيامٍ، وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرُّسل من أن الله خلق كلَّ شيءٍ، وأنه خلق كذا إنَّما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق، وأحدثه بعد أن لم يكن، أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل في الزمان، ولا يكون إلا بعده، وأنَّ الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول.
٩. في الآية ردٌّ على من ابتدع فقال: إنَّ السموات والأرض قديمةٌ أزليةٌ لم تنزل موجودةً بوجود الأوَّل واجب الوجود بنفسه.
١٠. أنَّ السموات مخلوقةٌ بعد أن لم تكن، كما أخبرت بذلك الرُّسل وكتب الله تعالى.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٤٢٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٠٢، ١٢٩، ١٢٠)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٤٦، ٢٧)، ودرء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية (١/٤٢)، والعين والأثر في عقائد أهل الأثر: عبد الباقي المواهبي (ص: ٢٥)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٤٢، ٤٠)، ولطائف قرآنية: محمود محمد غريب (ص: ٣٣).

المقصد الثاني: إنَّ الكواكب ليس لها تأثير مستقل في الوجود

دلَّ على هذا المقصد قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

بأمره: المراد من هذا الأمر الإلهي الكلام الحقيقي؛ فإنَّ الله أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: إنَّ الله لما شرح كيفية تخليق السموات، قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] دلَّت تلك الآية على أنَّ الله خصَّ كلَّ ذلك بلطيفة ربانية.

اللطيفة الثانية: إفراد الشمس والقمر بالذكر في الآية دون سواهما من النجوم؛ وذلك لأنَّ الله جعلهما سبباً لعمارة هذا العالم، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، والشمس تأثيرها في التسخين، والقمر تأثيره في الترطيب، وتولد المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان لا يتم ولا يكمل إلا بتأثير الحرارة في الرطوبة، ثم إنَّ الله خصَّ كلَّ كوكبٍ بخاصةٍ عجيبةٍ وتدبير غريب لا يعرفه بتمامه إلا الله، وجعله معيناً لهما في تلك التأثيرات والمباحث المستقصاة في علم الهيئة تدلُّ على أنَّ الشمس كالسلطان، والقمر كالنائب، وسائر الكواكب كالخدم، فلهذا السبب بدأ الله بذكر الشمس وثنى القمر ثم أتبعه بذكر سائر النجوم.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

النجوم من آيات الله الدالة عليه، المسبحة له، الساجدة له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ...﴾ [الحج: ١٨] ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وهذا التفريق يبيِّن أنَّه لم يرد السجود لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبيته، إذ هذه الدلالة يشترك فيها جميع المخلوقات، فجميع النَّاس فيهم هذه الدلالة وهو قد فرق، فعلم أنَّ ذلك قدرٌ زائدٌ من جنس ما يختص به المؤمن ويتميز به عن الكافر الذي حقَّ عليه العذاب. وهو (ﷺ) مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخر لهم، كما قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ومن منافعها الظاهرة ما يجعله الله بالشمس من الحر والبرد والليل والنهار، وإنضاج الثمار، وخلق الحيوان والنبات والمعادن، وكذلك ما يجعله بها من الترطيب والتبييض وغير ذلك، كما جعل في النَّار الإشراق والإحراق، وفي الماء التطهير والسقي،

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٢٨/١٤).

(٢) المرجع نفسه (١٢٨/١٤، ١٢٤).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٢٧/١٤)، والفتاوى الكبرى: ابن تيمية (٥٧/١).

وأمثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه، كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَاءَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وقد أخبر الله في غير موضع أنه يجعل بعض مخلوقاته ببعض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِيَلِدِ مِنِّي فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] فمن قال من أهل الكلام المذموم إن الله يفعل هذه الأمور عندها لا بها، فعبارته مخالفة لكتاب الله، والأمور المشهورة، كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو شرك مخالف للعقل والدِّين، وقد أخبر في كتابه سبحانه من منافع النجوم أنه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وأخبر أنها زينة السماء الدنيا، وأخبر أن الشياطين ترحم بالنجوم، وإن كانت النجوم التي ترحم بها الشياطين من نوع آخر غير النجوم الثابتة في السماء التي يهتدى بها، فإن هذه لا تزول عن مكانها بخلاف تلك، ولهذه حقيقة مخالفة لتلك، وإن كان اسمُ النجم يجمعها، والغرض من هذه الآية تبين عظمة الله وقدرته. رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أن الآية الكريمة تستهدف بناء أسس الاعتقاد الإسلامي، وإنشاء التصور الإيماني الكوني في القلوب بأسلوب راقٍ، حيث تخاطب الناس باستخدام المؤثرات الكونية والنفسية، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق وهذا الكون الذي خلقه، وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية.
٢. أن في الآية ما قد يكون تعزية عن مصابٍ أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين، ورد الأمر فيها إلى قدر الله، وتثبيت هذا التصور الأصيل.
٣. أن الله أخبر أنه خلق السموات والأرض كما أراد وشاء من غير مُنازِعٍ ولا مدافعٍ؛ لأنه لا تأثير للكواكب في أحوال العالم، وإلا لحصل خالق سوى الله، وذلك ضد مدلول الآية.
٤. هذه الآية تدلُّ على أنه ليس لأحدٍ أن يلزم غيره شيئاً إلا الله تعالى.
٥. أن القول بإثبات الطبائع، وإثبات العقول والنفوس على ما يقوله الفلاسفة وأصحاب الطلسمات باطلٌ، وإلا لحصل خالق غير الله.
٦. أن الله أخبر في هذا الكتاب بما في تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة، والفوائد الجليلة؛ فإن بتعاقبهما يتم أمر الحياة، وتكمل المنفعة المصلحة.
٧. في الآية ردٌّ على من يعتقد أن الكواكب لها تأثير في الوجود أو يقول إن له نجماً في السماء يسعد بسعادته، ويشقى بعكسه.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٢٣، ١٢٩/١٤)، والفتاوى الكبرى: ابن تيمية (٥٧/١)، وفي ظلال القرآن: سيد

المقصد الثالث: الخالق القوي مبينٌ للمخلوق الضعيف

ويدلُّ على هذا المقصد الجليل قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

ألاً: حرف استفتاحٍ وتبنيهِ، يفيد التوكيد يُنبه به المخاطب؛ لينتبه السامع لما بعدها.

الْخَلْقُ: أصلُ الخلق التقدير المستقيم، ويُستعملُ في إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنَّ ربَّكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كلُّ ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمره، ألا الله الخلق كلُّه، والأمر الذي لا يخالف ولا يردُّ أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودنا الذي له عبادة كلِّ شيءٍ.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ يفيد توحيد الربوبية وهو الإقرار بأنَّ الله ربُّ كلِّ شيءٍ، وخالق كلِّ شيءٍ، ومالك كلِّ شيءٍ، ومدبِّر لأمر كلِّ شيءٍ، وهذا التوحيد يسمى: توحيد الأفعال، وهو أمرٌ فطريٌّ في النفس البشرية، والإقرار به وحده لا يدخل العبد في الإسلام، ولا ينجيه من الخلود في النَّار في جهنم؛ لأنَّ مشركي العرب أقرُّوا به، ومع ذلك حاربهم الرسول (ﷺ) وقاتلهم.

اللطيفة الثانية: دلت الآية على أنَّ الله خصَّ كلَّ واحدٍ من أجرام الأفلاك والكواكب التي هي من عالم الخلق بملكٍ من الملائكة، والأحاديث الصحيحة مطابقة لذلك.

اللطيفة الثالثة: التَّعريف في ﴿الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ تعريف الجنس، فتفيد الآية قصر جنس الخلق وجنس الأمر على الكون في ملك الله، فليس لغيره شيءٌ من هذا الجنس، وهو قصر إضافي معناه: ليس لآلهتهم شيءٌ من الخلق ولا من الأمر، وأمَّا قصر الجنس في الواقع على الكون في ملك الله فذلك يرجع فيه إلى القرائن، فالخلق مقصور حقيقة على الكون في ملكه تعالى، وأمَّا الأمر فهو مقصور على الكون في ملك الله قصراً ادعائياً؛ لأنَّ لكثيرٍ من الموجودات تدبيرٌ أمور كثيرة، ولكن لما كان المدبِّر مخلوقاً لله كان تدبيره راجعاً إلى تدبير الله.

اللطيفة الرابعة: ظاهر الآية يقتضي أنَّه كما لا خلق إلا لله، فكذلك لا أمر إلا لله.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٢٤/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/١١٠، ٥٢٦)، ومنحة العلام في شرح بلوغ المرام: عبد العزيز الفوزان (٩/٤٦٠).

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٤).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٢٤/١٤)، والإيمان: ابن تيمية (ص: ٧٣)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٨٠)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٦٩)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٥٥٨).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

أ - الخالق القوي مبينٌ للمخلوق الضعيف:

بعض النَّاسِ تشبَّه عليه الحقائق الأمرية الدِّينية الإيمانية بالحقائق الخَلقية القدرية الكونية، فإنَّ الله له الخلق والأمر، كما قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فهو الله خالقُ كُلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه، لا خالقَ غيره، ولا ربَّ سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكلُّ ما في الوجود من حركةٍ وسكونٍ، فبقضاء الله وقدره ومشيتته وقدرته وخلقته، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله، ونهى عن معصيته ومعصية رسله، وأمر بالتوحيد والإخلاص، ونهى عن الشرك، فأعظم الحسنات التوحيد، وأعظم السيئات الشرك، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنَّ الله لا يحبُّ الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، وإن كانت واقعة بمشيئته، فهو لا يُحبها، ولا يرضاها، بل يُبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم، وأجمع سلفُ الأمة وأئمتها على أنَّ الربَّ تعالى بائنٌ من مخلوقاته، يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله (ﷺ) من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ومن غير تكليفٍ ولا تمثيلٍ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص، ويعلم أنَّه ليس كمثله شيء، ووجودُ السموات ليس هو بعينه وجود الإنسان، فوجود الخالق مبينٌ لوجود مخلوقاته، فإنَّ التوحيد أنَّ يُميز بين الخالق والمخلوق، وليس عند الملاحدة وجود مخلوق مبينٌ لوجود الخالق، وزعموا أنَّ الوجود المشهود موجودٌ بنفسه، لا صانع له، ففي الآية دليلٌ على أنَّ السموات والأرض مخلوق لله ومسبَّح له، وفيها ردٌّ على مذهب الملاحدة الذي حقيقة أمرهم جحدُ الخالق، فإنَّهم جعلوا وجودَ المخلوق هو وجودَ الخالق، وقالوا: الوجود واحدٌ، وهو مذهب باطل^(٢)؛ فإنَّ الله مبينٌ للعالم، وأتته تعالى متقدم على العالم من الأزل إلى الأبد، وهو خارج العالم، فإنَّ كلَّ ما سوى الله مخلوقٌ حادثٌ، كائنٌ بعد أن لم يكن، وهذا يوافق ما أخبرت به الرُّسل وعلى هذا يدلُّ العقل الصريح، فالإنسانُ وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوقٌ كائنٌ بعد أن لم يكن، والربُّ بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غيرُ مخلوقٍ، وقد علَّم بالضرورة أنَّ ما تمَّ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مبينٌ للمخلوق، أي ليس حالاً فيه، فالله ليس في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، ولا في ذاته شيءٌ من مخلوقاته، بل هو بائنٌ من خلقه فوق كلِّ شيءٍ، عالٍ على كلِّ شيءٍ^(٣). ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنَّ القرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوقٍ منه بدأ وإليه يعود، فالله هو المتكلم بالقرآن، فكلام الله قائم بذاته ليس مخلوقاً بانئناً عنه، والله يتكلم بمشيئته وقدرته، ولم يزل الله متكلماً إذا شاء، فكلامه قديمٌ بمعنى أنَّه لم يزل متكلماً إذا شاء،

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٧، ٤٥/١٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١١٦/١٤)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٤٥. ١٧٢)

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٧، ٥٥/١٢)، وشرح الرسالة التدمرية: عبدالرحمن بن ناصر البراك (ص: ٢٠٥).

وكلمات الله لا نهاية لها، والله تكلم بالقرآن العربي. وجمهور العقلاء متفقون على أن الله خلق السموات والأرض؛ بل هو خالق كل شيء، وكل ما سوى الله مخلوق حادث، كائن بعد أن لم يكن، وإن القديم الأزلي هو الله بما هو متصف به من صفات الكمال.

ب- التكليف من الله تشریف وتكريم^(١):

إن الله تعالى بيّن في هذه الآية أنه يحسن منه أن يأمر عباده، وأن يكلفهم بما شاء، والمعنى أن الله لما كان الخلق منه ثبت أنه هو الخالق لكل العبيد، وإذا كان خالقاً لهم كان مالكا لهم، وإذا كان مالكا لهم حسن منه أن يأمرهم وينهاهم؛ لأن ذلك تصرف من المالك في ملك نفسه، وذلك مستحسن، فقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ يجري مجرى الدليل القاطع على أنه يحسن من الله أن يأمر عباده بما شاء كيف شاء، ودلت الآية على أنه يحسن من الله أن يأمر عباده بما شاء بمجرد كونه خالقاً لهم لا كما يقوله المعتزلة من كون ذلك الفعل صلاحاً، ولا كما يقولونه أيضاً من حيث العوض والثواب؛ لأنه تعالى ذكر أن الخلق له أولاً، ثم ذكر الأمر بعده، وذلك يدل على أن حسن الأمر معلل بكونه خالقاً لهم موجداً لهم، وإذا كانت العلة في حسن الأمر والتكليف، هذا القدر سقط اعتبار الحسن، والقبح، والثواب، والعقاب في اعتبار حسن الأمر والتكليف، ودلت هذه الآية على أن الله متكلم أمر ناهٍ مخبرٌ مستخبرٌ، فقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ دلّ على أن له الأمر، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون له النهي، والخبر، والاستخبار.

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. الآية تفرق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيتته، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبتة.
٢. في الآية إشارة إلى كمال قدرة الله وحكمته، ولفظ القرآن مشعرٌ بها، وأن خالق أعمال العباد هو الله، وإلا لحصل خالق غير الله.
٣. احتج السلف بهذه الآية على أن كلام الله غير مخلوق؛ قالوا: إن الله ميّز بين الخلق وبين الأمر، ولو كان الأمر مخلوقاً لما صحّ هذا التمييز.
٤. دلت هذه الآية على أن الله قادرٌ على خلق عوالم سوى هذا العالم كيف شاء وأراد، فلو أراد خلق ألف عالم في أقل من لحظةٍ ولمحةٍ لقدرةٍ عليه؛ لأن هذه الماهيات ممكنة، والله قادرٌ على كلِّ الممكنات.
٥. أن الله خالق كل شيءٍ وربُّه ومليكه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا ربَّ غيره.
٦. أن الله أمر بالطاعة، ونهى عن المعصية.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٣١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٢٠، ١٣٠) والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٨٧).

٧. الآية تدلُّ على أنَّ الله أمراً ونهياً على عباده، وأنَّ له تكليفاً على عباده^(١).
٨. أنَّ من زعم أنَّ الله قد جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كذب وافترى.
٩. أنَّ الله خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة.
١٠. أنَّ الله له معنى الرُّبوبيَّة ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق.
١١. أنَّ الله لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقَّب لحكمه، ولا غالب لأمره.
١٢. أنَّ الله متعالٍ عن الأضداد والأنداد والأمثال^(٢).
١٣. أنَّ الله خلق السموات والأرض؛ بل هو خالق كلِّ شيءٍ، وكلُّ ما سوى الله مخلوقٌ، كائنٌ بعد أن لم يكن، وأنَّ القديم الأزلي هو الله بما هو متصف به من الكمال^(٣).

المقصد الرابع: البركة من الله

ويدلُّ على هذا المقصد الشريف قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(٤):

تَبَارَكَ: البركة: شدة الخير، فبركةُ الله الموصوفُ بها هي مجده ونزاهته وقدسُه، وذلك جامع صفاتِ الكمال، ومن ذلك أنَّ له الخلق والأمر، وشرعاً: اسمٌ لكلِّ خيرٍ صادرٍ من الله على الدوام. ومعنى "تعالى الله" تفاعل من العلو، وتبارك: من البركة، والله متعالٍ، ولا يقال: متبارك؛ لأنَّ اللُّغة سماعٌ، وليست قياساً، والبركةُ كثرةُ الخير وتزايدُه، وحُصَّتِ البركةُ بثبوت الخير الإلهي في الشيء. ﴿تَبَارَكَ اللهُ﴾ أي: تزايدَ خيرُ الله على خلقه، وتعالى وتعاضم. وهو تفاعلٌ من البركة، وهو الكثرة والانتساع، ولا يُقال ذلك إلا لله، فلا يُقال: تبارك فلانٌ.

رَبُّ الْعَالَمِينَ: العالمين جمع عالمٍ، وهو كلُّ موجودٍ سوى الله، فبيَّن الله في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كونه رباً وإلهاً وموجوداً ومحدثاً لكلِّ ما سواه، ومع كونه كذلك فهو ربٌّ ومرب ومحسن، ومفضل، ومالك، أنَّ العالمين اسمٌ لجميع المخلوقات.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣١/١٤).

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥١٤/٥)، وشرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٤٥/١٢، ٣٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٣٣/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١٨٣/١)،

وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ١٣٨٦)، وسبل السلام: الصنعاني (٣٨٤/١)، والتحرير

والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٠/٨)، وأصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٨٧٦/٣)، ومناهج اللُّغويين في

تقرير العقيدة: محمد الشيخ (ص: ٧٣١).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

إنَّ الله لما بيَّن كونه خالقاً للسموات، والأرض، والعرش، والليل، والنَّهار، والشمس، والقمر، والنُّجوم، وبيَّن كون الكلِّ مسخراً في قدرته وقهره ومشينته، وبيَّن أنَّ له الحكم والأمر والنهي والتكليف، بيَّن أنَّه يستحق الثناء والتقدير والتنزيه، فقال: ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. فالآية تذييلٌ معترضة بين آية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ إذ قد نهياً المقام للتذكير بفضلِ الله على النَّاس، وبنافع تصرفاته، عقب ما أجرى من إخبار عن عظيم قدرته وسعة علمه وإتقانِ صنعه.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: لفظة: ﴿تَبَارَكَ﴾ فعلٌ، وهو في صورة اشتقاقه يُؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتَّصف به مثل: تتاقل، أظهر النَّقل في العمل، وتعالل، أي: أظهر العلة، وتعاضم: أظهر العظمة، وقد يُستعمل بمعنى ظهور الفعل على المتَّصف به ظهوراً بيِّناً حتى كأنَّ صاحبه يُظهره، ومنه: ﴿تَعَالَى اللهُ﴾ [النمل: ٦٣] أي: ظهر علوه، ومنه: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: ظهرت بركته.

اللطيفة الثانية: اتباع اسم الجلالة المعظم بالوصف وهو: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد؛ لأنَّه معطي خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبِّر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات.

اللطيفة الثالثة: دلَّ قوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ على أنَّ هذا الدِّين إعلانٌ عامٌ لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحدَه، وربوبيته للعالمين، وأنَّ هذا الدِّين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي، وليس رسالة خاصة بالعرب، بل إنَّ موضوعه هو الإنسان، نوع الإنسان، ومجاله هو الأرض، كلُّ الأرض، وإنَّ الله ليس رباً للعرب وحدهم، ولا حتى لمن يلتزمون العقيدة الإسلامية وحدهم، بل إنَّ الله هو ربُّ العالمين.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

البركة في الآية لها تفسيران: أحدهما: البقاء والثبات، والثاني: كثرة الآثار الفاضلة والنتائج الشريفة. وكلا التفسيرين لا يليق إلا بالله تعالى؛ فإنَّ حُمِلت البركة على الثبات والدوام؛ فالثابت والدائم هو الله؛ لأنَّه الموجود الواجب لذاته العالم لذاته القائم بذاته الغني في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كلِّ ما سواه، فهو الله مقطوع الحاجات ومنهى الافتقارات، وهو غنيٌّ عن كلِّ

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣٣/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٠/٨).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٠/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٤٣٤/٣، ١٤٣٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٢٥/١٤).

ما سواه في جميع الأمور، وأيضاً إن فُسرت البركة بكثرة الآثار الفاضلة فالكلُّ بهذا التفسير من الله؛ لأنَّ الموجود إمَّا واجبٌ لذاته وإمَّا ممكنٌ لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الله، وكلُّ ما سواه ممكنٌ، وكلُّ ممكنٍ فلا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكلُّ الخيرات من الله، وكلُّ الكمالات كائنة وصادرة من وجوده وإحسانه، فلا خير إلا من الله، ولا إحسان إلا من فضله، ولا رحمةً إلا وهي حاصلةٌ من الله تعالى، فلما كان الخلق والأمر ليس إلا من الله، لا جرم كان الثناء المذكور بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يليق إلا بكبريائه وكمال فضله ونهاية جوده ورحمته.

وكلُّ شيءٍ لا يكون لله فبركته منزوعة؛ فإنَّ الربَّ هو الذي يبارك وحده، والبركة كُلُّها منه، وكلُّ ما نُسبَ إليه مُباركٌ، فكلامه مباركٌ، ورسوله مباركٌ، وعبده المؤمنُ النافعُ لخلقهِ مباركٌ، وبيته الحرامُ مباركٌ، وكنانته من أرضه، وهي الشامُ أرضُ البركة، وصفها بالبركة في ستِّ آياتٍ من كتابه، فلا مباركٌ إلا هو وحده، ولا مباركٌ إلا ما نُسبَ إليه، أعني إلى ألوهيته ومحبهته ورضاه، وإلا فالكون كلُّه منسوبٌ إلى ربوبيته وخلقهِ، وكلُّ ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكلُّ ما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه. وضدُّ البركة اللعنة؛ فشخصٌ لعنه الله، أو عملٌ لعنه الله أبعدُ شيءٍ من الخير والبركة، وكلُّ ما اتصلَ بذلك وارتبط به وكان منه بسبيلٍ فلا بركة فيه ألبته^(١). قال الشافعي: "وكلُّ ما ندب الله إليه من فرضٍ أو دلالةٍ فهو بركةٌ على من فعله"^(٢). والأظهر في معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، وعليه فمعنى ﴿تَبَارَكَ﴾ تكاثرت البركات والخيرات من قبله، وذلك يستلزم عظمتَهُ وتقديسه عن كلِّ ما لا يليق بكماله وجلاله؛ لأنَّ من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدرُّ الأرزاق على النَّاسِ هو وحده المنقرِّد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذي لا تأتي من قبله بركةٌ ولا خيرٌ، ولا رزقٌ كالأصنام، وسائر المعبودات من دون الله لا يصحُّ أن يُعبد، وعبادته كفرٌ مخلدٌ في نار جهنم.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. لفظ الآية مشعر بأنَّ البركة مختصة بالله تعالى، وأنَّها لا تكون إلا من الله.
٢. أنَّ قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ فعل جامد لا يتصرف، فلا يأتي منه مضارع، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا غير ذلك، وهو مما يختصُّ به الله، فلا يُقال لغيره تبارك، وإطلاق العرب ﴿تَبَارَكَ﴾ مسنداً إلى الله تعالى معروفٌ في كلامهم.

(١) الجواب الكافي: ابن قيم الجوزية(ص:١٢٨).

(٢) وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: محمد الزحيلي(١/٣١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي(ص:١٣٨٦).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي(ص:١٣٨٧) ولطائف قرآنية: صلاح الخالدي(ص:١٢١)

المقصد الخامس: الدعاء ينفع بشرطه

ويدل على هذا المقصد قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

ادْعُوا: الدعاء حقيقته النداء، ويطلق على النداء لطلب مهم، واستعمل توسعاً في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الرُّكُوع والسُّجُود، والدعاء شرعاً: طلب الخير من الله تعالى تقرباً. وفي قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ قولان: الأول: اعبدوا، والآخر: هو الدعاء، ومن قال بالأول عقل من الدعاء أنه طلب الخير من الله، وهذه صفة العبادة؛ لأنه يفعل تقرباً، وطلباً للمجازاة، والثاني هو الأظهر؛ لأن الدعاء مغاير للعبادة في المعنى.

رَبَّكُمْ: كلمة رب تدل على إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرَّبُّ: المالك، والخالق، والصاحب، والمُصلِح للشيء، والله هو الرَّبُّ؛ لأنه مُصلِح أحوالِ خَلْفِهِ، والرَّبُّ هو السيد، والمدبر، والمربي، والقيِّم، والمنعم، وجميع هذه المعاني ترجع إلى ثلاثة هي: المالك، والسيد، والمصلح، فالرَّبُّ المالك، ويكون الرب السيد المطاع، ويكون الرب المصلح، ويطلق الرب في الشرع ويراد به عين معناه في اللغة، والله هو الرَّبُّ بهذه الاعتبارات كلها، يقول ابن تيمية: "فإنَّ الرَّبَّ سبحانه هو المالك، المدبر، المعطي، المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل"^(٢).

تَضَرُّعًا: التَضَرُّع: إظهارُ التَّدَلُّلِ بهيئةٍ خاصةٍ، ويطلق التَضَرُّعُ على الجهر بالدُّعَاءِ؛ لأنَّ الجهر من هيئة التَضَرُّعِ، لأنه تدلُّلٌ جهريٌّ، وقد فسِّر في هذه الآية بالجهر بالدُّعَاءِ، لأنه أنسبُ بمقابلته بالخُفْيَةِ، وتكون (الواو) للتقسيم، ومن المفسرين من أبقى التَضَرُّعُ على حقيقته، وهو التَّدَلُّلُ، فيكون مصدرًا بمعنى الحال، أي: متدللين؛ لأنَّ التَّدَلُّلَ بعضُ أحوالِ الدُّعَاءِ، فكأنَّه نوعٌ منه. وَخُفْيَةً: الخفية ضد العلانية، وهو الستر؛ فأنَّ الإخفاء معتبرٌ في الدُّعَاءِ؛ لأنَّ الله أمر بالدُّعَاءِ مقروناً بالإخفاء، وظاهر الأمر للوجوب، فإن لم يحصل الوجوب، فلا أقل من كونه ندباً؛ لأنَّ النفس شديدة الميل عظيمة الرغبة في الرياء والسمعة، فإذا رفع صوته في الدُّعَاءِ امتزج الرياء بذلك الدُّعَاءِ فلا يبقى فيه فائدة البتة، فكان الأولى إخفاء الدُّعَاءِ ليبقى مصوناً عن الرياء.

المُعْتَدِينَ: المراد بـ ﴿المُعْتَدِينَ﴾ المشركون؛ لأنه يرادف الظالمين^(٣).

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٩١/١)، وتهذيب اللغة: الأزهر (١٣٣٥/٢)، ومقاييس اللغة: ابن

فارس (٣٨١/٢ - ٣٨٣)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٣٦، ١٣٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن

عاشور (١٧١/٨)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشائع (ص: ١٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٩٢/١)، وبدائع الفوائد: ابن قيم الجوزية (٤/١٣٢).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧١/٨، ١٧٣).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

يقول الله تعالى: ادعوا، أيها النَّاس رَّبِّكُمْ وحدَه، فأخلصوا له الدُّعاء دون ما تدعون من دونه من الآلهة والأصنام تضرعا، أي: تذللاً واستكانةً لطاعته، وخفية، أي: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحْدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحْدانيته وربوبيته، فعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

هذه الآية استئنافاً جاء معترضاً بين ذكر دلائل وْحْدانية الله بذكر عظيم قدرته على تكوين أشياء لا يشاركه غيره في تكوينها، فالآية معترضةً بين قوله: ﴿يُعْشِي- اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز فرص تهيئاً للقلوب للذكرى، فإنَّ الله لما ذكر الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة والرحمة، وعند هذا تمَّ التكليف المتوجه إلى تحصيل المعارف النفسانية، والعلوم الحقيقية، أتبعه بذكر الأعمال اللاتقة بتلك المعارف وهو الاشتغال بالدُّعاء والتضرع؛ فإنَّ الدُّعاء هو العبادة.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: الخطاب بـ: ﴿ادْعُوا﴾ خاصٌّ بالمسلمين؛ لأنَّه تعليمٌ لأدبِ دعاءِ الله وعبادته، وليس المشركون بمتهيئين لمثل هذا الخطاب الإلهي، وهو تقريبٌ للمؤمنين وإدناءٌ لهم وتنبيهٌ على رضى الله عنهم ومحبتِّه، وشاهدُه قوله بعده: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

اللطيفة الثانية: الظاهر أنَّ المراد من الدُّعاء في قوله: ﴿ادْعُوا﴾ الطَّلَب والتَّوَجُّه؛ لأنَّ المسلمين قد عبدوا الله وأفردوه بالعبادة، وإنَّما المهمُّ إشعارهم بالقرب من رحمة ربِّهم وإدناء مَقامهم منها. اللطيفة الثالثة: جيء تعريف الرَّبِّ بطريق الإضافة ﴿رَبِّكُمْ﴾ دون ضمير الغائب ﴿ادْعُوهُ﴾؛ لأنَّ في لفظ الرَّبِّ إشعاراً بتقريب المؤمنين بصلَّة المربوبية، وليتوسَّل بإضافة الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين إلى تشريف المؤمنين وعناية الرَّبِّ بهم.

اللطيفة الرابعة: جعل بعضُ المفسرين قوله: ﴿وَحُفِيَّةٌ﴾ مأموراً به مقصوداً بذاته، أي: ادعوه مُخفين دعاءكم، حتى أوهم كلامُ بعضهم أنَّ الإعلان بالدُّعاء منهيٌّ عنه، وهذا خطأ؛ فإنَّ النبيَّ (ﷺ) دعا علناً غير مرَّة، وعلى المنبر بمسمعٍ من النَّاس، وما رويت أدعيته (ﷺ) إلاَّ لأنَّه جهَرَ

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٤).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٣٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٧٠، ١٧٢).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٣٧)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٧١).

بها يسمعها من رَوَاهَا، فالصَّوَابُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿تَضَرَّعًا﴾ إِذْنٌ بِالدُّعَاءِ بِالْجَهْرِ وَالْإِخْفَاءِ، وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْجَهْرِ، فَإِنَّمَا هُوَ عَنِ الْجَهْرِ الشَّدِيدِ الْخَارِجِ عَنِ حُدِّ الْخُشُوعِ.

اللطيفة الخامسة: فاصلة الآية: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ واقعة موقع التعليل للأمر بالدعاء، إشارة إلى أنه أمر تكريم للمسلمين، يتضمّن رضى الله عنهم، ولكن سلك في التعليل طريق إثبات الشيء بإبطال ضده، تنبيهاً على قصد الأمرين، وإيجازاً في الكلام، ولكون الآية واقعة موقع التعليل افتتحت بـ ﴿إِنَّ﴾ المفيدة لمجرد الاهتمام، بقرينة خلو المخاطبين عن التردد في هذا الخبر، ومن شأن ﴿إِنَّ﴾ إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التعليل والربط، وتقوم مقام الفاء.

اللطيفة السادسة: الأولى إخفاء العبادات أم إظهارها؟ الصواب إن كان العبد خائفاً على نفسه من الرياء الأولى الإخفاء صوتاً لعملة عن البطلان، وإن كان قد بلغ في الصفاء وقوة اليقين إلى حيث صار آمناً عن شائبة الرياء كان الأولى في حقه الإظهار لتحصل فائدة الاقتداء.

خامساً: بيان المقصد في الآية الكريمة^(١):

أ- الدعاء ينفع:

قرر أئمة السنة أنّ السعادة والنجاة في الاعتصام بالكتاب والسنة، واتباع ما شرع كما شرع، والدعاء من أجل العبادات وأفضلها، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة، فإنها معصومة، كما يتحرى في سائر عباداته الصورة المشروعة، ومعنى الآية: ادعوا ربكم؛ لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين، وفيها تعريض بالوعد بإجابة دعاء المؤمنين، وأنه لا يستجيب دعاء الكافرين، وحمل بعض المفسرين النصّ على الخضوع، فعملوا الآية مقصورةً على طلب الدعاء الخفي حتى بالغ بعضهم فجعل الجهر بالدعاء منهيّاً عنه، وتجاوز بعضهم فجعل قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تأكيداً لمعنى الأمر بإخفاء الدعاء، وجعل الجهر بالدعاء من الاعتداء، والجاهرين به من المعتدين الذين لا يحبهم الله، وأحسب أنه خطأ، كيف وقد دعا رسول الله (ﷺ) جهراً ودعا أصحابه الكرام كذلك، وتواترت النصوص في الحث على الدعاء، والتحذير من تركه، فإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه دعاءه والاستعانة به، وجعل استعانته ودعائه سبباً للخير الذي قضاه له، والذي يدل عليه الكتاب، والسنة، والفطرة، والعقل، والمشاهدة، والحس أن الدعاء سبب من الأسباب، وأن له تأثيراً في المطلوب المسؤول كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة، والقول بذلك مذهب أهل السنة، جاء في متن الطحاوية: "وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات، والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات". والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل: أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وإجابة الله لدعاء العبد، مسلماً كان أو كافراً،

(١) قاعدة في الوسيلة: ابن تيمية (ص: ٩١)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٣/٨).

وإعطائه سُؤْلَهُ مِنْ جِنْسِ رِزْقِهِ لَهُمْ، ونصره لهم، وهو مما تُوجِبُهُ الرُّبُوبِيَّةُ للعبد مطلقاً، ثم قد يكون ذلك فتنَةً في حَقِّهِ ومضرةً عليه، إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك، وقد ندبَ اللهُ إلى الدُّعاء، وفي ذلك مَعَانٍ، منها:

١. الوجود؛ فَإِنَّ مَنْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ لَا يُدْعَى.
٢. الغنى؛ فَإِنَّ الْفَقِيرَ لَا يُدْعَى.
٣. السَّمْعُ؛ فَإِنَّ الْأَصْمَّ لَا يُدْعَى.
٤. الكرم؛ فَإِنَّ الْبَخِيلَ لَا يُدْعَى.
٥. الرحمة؛ فَإِنَّ الْقَاسِيَّ لَا يُدْعَى.
٦. القدرة؛ فَإِنَّ الْعَاجِزَ لَا يُدْعَى.

بل في الدُّعاء فوائدٌ عظيمة، من جلبِ منافع، ودفعِ مضار، كما نبّه عليه النبي (ﷺ)، بل ما يُعَجِّلُ للعبد، من معرفته برَبِّهِ، وإقراره به، وبأنّه سميعٌ قريبٌ قديرٌ عليمٌ رحيمٌ، وإقراره بفقره إليه، واضطراره إليه، وما يتبع ذلك مِنَ العلوم العَلِيَّةِ والأحوال الزكِيَّةِ، التي هي من أعظم المطالب. والربُّ سبحانه هو الذي حرَّكَ العبدَ إلى دعائه، فهذا الخيرُ منه، وتمامه عليه، فالله هو الذي يَدْفَعُ في قلب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سبباً للخير الذي يُعْطِيهِ إياه، كما في العمل والثواب، فهو الذي وَفَّقَ العبدَ للتوبة ثم قَبَّلَهَا، وهو الذي وَفَّقَهُ للعمل ثم أَثَابَهُ، وهو الذي وَفَّقَهُ للدُّعاء ثم أَجَابَهُ، فما أُنْزِلَ فيه شيءٌ من المخلوقات، بل هو جعل ما يَفْعَلُهُ سبباً لما يَفْعَلُهُ، فَإِنَّ الدُّعاء سببٌ مقتضى لنيل المطلوب، والسببُ له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصلُ غيره، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلبُ منافع أو دفعُ مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل، تختلف باختلاف قُوَّتِهِ وما يُعِينُهَا، وقد يُعَارِضُهَا مانعٌ من الموانع. فالأدعية والتعوذات والرُقَى بمنزلة السِّلاحِ، والسِّلاحُ بِضَارِبِهِ، لَا بِحَدِّهِ فقط، فمتى كان السِّلاحُ سلاحاً تاماً، والسَّاعِدُ ساعداً قوياً، والمَحَلُّ قابلاً، والمانعُ مفقوداً حصلت به النَّكَايَةُ في العدو، ومتى تخَلَّفَ واحدٌ من هذه الثلاثة تخَلَّفَ التأثيرُ، فإذا كان الدُّعاء في نفسه غيرَ صالحٍ، أو الدَّاعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدُّعاء، أو كان ثمَّ مانعٌ من الإجابة لم يحصل الأثر^(١).

ب- الدُّعاء يفيد معرفة ذلة العبودية، عزة الربوبية.

إنَّ الدُّعاء نوعٌ من أنواع العبادة، بل الدُّعاء يفيد معرفة ذلة العبودية، ويفيد معرفة عزة الربوبية، وهذا هو المقصود الأشرف الأعلى من جميع العبادات، وبيانه أن الداعي لا يقدم على الدُّعاء إلا إذا عرف من نفسه كونه محتاجاً إلى ذلك المطلوب وكونه عاجزاً عن تحصيله وعرف

(١) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٤٥٣)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: الشائع (ص: ٥٨٣).

من ربه وإلهه أنه يسمع دعاءه، ويعلم حاجته وهو قادرٌ على دفع تلك الحاجة، وهو رحيمٌ تقتضي رحمته إزالة تلك الحاجة، وإذا كان كذلك فهو لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف كونه موصوفاً بالحاجة وبالعجز وعرف كون الإله سبحانه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والرحمة، فلا مقصود من جميع التكاليف إلا معرفة ذل العبودية وعز الربوبية، فإذا كان الدعاء مستجعماً لهذين المقامين لا جرم كان الدعاء أعظم أنواع العبادات، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إشارةٌ إلى المعنى؛ لأنَّ التضرع لا يحصل إلا من الناقص في حضرة الكامل فما لم يعتقد العبد نقصان نفسه، وكمال مولاه في العلم والقدرة والرحمة لم يقدم على التضرع، فثبت أنَّ المقصود من الدعاء ما ذكر^(١)، وثبت أنَّ لفظ القرآن دليل عليه والذي يقوي ما ذكر ما روي أنه (ﷺ) قال: " ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء"^(٢). والدُّعاء هو العبادة؛ لأنَّ في الدعاء إظهارُ الفقر والعجز والتذلل والاعتراف بقوة الله وقدرته، إنَّ المقصود من الدعاء أن يصير العبد مشاهداً لحاجة نفسه ولعجز نفسه، ومشاهداً لكون مولاه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والرحمة، فكلُّ هذه المعاني دخلت تحت قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ ثم إذا حصلت هذه الأحوال على سبيل الخلوص، فلا بُدَّ من صونها عن الرياء المبطل لحقيقة الإخلاص، وهو المراد من قوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾ والمقصود من ذكر التضرع تحقيق الحالة الأصلية المطلوبة من الدعاء، والمقصود من ذكر الإخفاء صون ذلك الإخلاص عن شوائب الرياء، وإذا عرف هذا المعنى ظهر أنَّ قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ مشتملٌ على كلِّ ما يراد تحقيقه وتحصيله في شرائط الدعاء، وأنَّه لا يزيد عليه البتة بوجهٍ من الوجوه^(٣).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. أنَّ الدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناهما على السُّنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع.
٢. الخطابُ الإلهيُّ في الآيةٍ مُوجَّهٌ إلى المسلمين بقريئة السياق.
٣. أنَّ إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة.
٤. أنَّ الدعاء اسمٌ يجمع العبادة والاستعانة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣٥/١٤).

(٢) سنن الترمذي كتاب الدعوات. باب ما جاء في فضل الدعاء، حديث رقم (٣٣٧٠)، (٢٨٥/٥)، وأورده الألباني في صحيح الترمذي رقم (٢٦٨٤)، (١٣٨/٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٣٥/١٤)، ودراسات في السيرة: نزار عبدالقادر ريان، وآخرون (ص: ٦١).

(٤) جامع البيان: الطبري (٥١٤/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٣٦/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٣/١٤)، وشرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٢١٠)، وحاشية قليوبي وعميرة على المحلي (٣١٨/١).

٥. أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْعُدْوَانِ مِنْ إِعْطَاءِ السُّؤَالِ مُعْجَلًا، أَوْ مِثْلَهُ مِنَ الْخَيْرِ مُؤَجَّلًا، أَوْ يُصَرَّفُ عَنْهُ مِنَ السُّؤءِ مِثْلَهُ.
٦. لَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ.
٧. فِي الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَزْعَمُ عَدَمَ فَائِدَةِ الدُّعَاءِ، فَإِنَّ هَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالْإِضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِأَنَّ مَنَفْعَةَ الدُّعَاءِ أَمْرٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ تَجَارِبُ الْأُمَّمِ.
٨. أَنَّ التَضَرُّعَ هُوَ التَّنْذِلُ وَالتَّخَشُّعُ، وَهُوَ إِظْهَارُ ذَلِّ النَّفْسِ فِي مَعْرَضِ السُّؤَالِ.
٩. أَنَّ الدُّعَاءَ بَرَفْعِ الضَّرْرِ مَطْلُوبٌ، وَلَيْسَ مَنَافِيًا لِلتَّوَكُّلِ وَالتَّفْوِيضِ لِلَّهِ.

المقصد السادس: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ وَيُحَبُّ

ويدلُّ على هذا المقصد الإيماني العظيم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

يُحِبُّ: قد اختلف العلماء في تحديد المحبة على أقوالٍ، نحو ثلاثين قولاً، والصواب أنَّها لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أو ضَحٍّ منها، فالحدودُ لا تزيدها إلا إخفاءً وجفاءً، فحدها وجودها، ولا تُوصفُ المحبةُ بوصفٍ أظهر من المحبة، وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديدٍ، كالماء والهواء والتراب والجوع، وإنما يتكلم النَّاسُ في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدنا، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة. وهذه المادة تدور في اللُّغة على خمسة أشياء:

الصفاء والبياض، والعلو والظهور، واللزوم والثبات، واللب، والحفظ والإمساك.
المُعْتَدِينَ: أي: المجاوزين ما أمروا به. ومن الاعتداء رفع الصوت في الدُّعاء.

ثانياً: مناسبة الفاصلة للآية^(٢):

الأظهر أن المراد بهذه الفاصلة أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فِي تَرْكِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي الْآيَةِ، وَهُمَا التَضَرُّعُ وَالْإِخْفَاءُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُ، فَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّ مَنْ تَرَكَ فِي الدُّعَاءِ التَضَرُّعَ وَالْإِخْفَاءَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِقَابِ لَا مُحَالَةَ، فَظَهَرَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ كالتهديد الشديد على ترك التضرع والإخفاء في الدُّعاء.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣٨/١٤)، وشرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٢٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٣٦/١٤).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطفية الأولى: يفهم من الآية أنّ كلَّ من خالف أمر الله تعالى ونهيه، فقد اعتدى وتعدى، فيدخل تحت قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال الرازي: فإنَّ من لا يحبه الله فإنَّه يعذبه، فظاهر هذه الآية يقتضي أنّ كلَّ من خالف أمر الله ونهيه، فإنَّه يكون معاقباً.

اللطفية الثانية: المحبة مراتب: أولها: العلاقة وهي تعلق القلب بالمحبيب. والثانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له. والثالثة: الصَّابَةُ، وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه. والرابعة: الغرَامُ، وهي الحبُّ اللازم للقلب، والخامسة: المودَّةُ، والودُّ، وهي صفوُّ المحبة وخالصها ولبُّها، والسادسة: الشَّغْفُ، وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب. والسابعة: العِشْقُ: وهو الحبُّ المفرط الذي يُخَافُ على صاحبه منه، ولكن لا يُوصَفُ به الربُّ، ولا العبدُ في محبة ربِّه، وسبب المنع أنّ العِشْقَ محبةٌ مع شهوةٍ. والثامنة: التَّئِيمُ، وهو بمعنى التَّعَبُّدِ. والتاسعة: التَّعَبُّدِ. والعاشر: الخُلَّةُ وهي المحبة التي تحلَّت رُوحَ المُحِبِّ وقلبه، وهذا الترتيب تقريبٌ حسنٌ.

اللطفية الثالثة: وصف الله بالمحبة والخُلَّة هو كما يليق بجلال الله وعظمته، كسائر صفاته، وإنَّما يوصف الله من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخُلَّة، حسبما وردَّ النص. وإذا عُرِست شجرة المحبة في قلب العبد، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الرسول، أثمرت الإيمان والعمل الصالح، والمحبة لا نهاية لها، فكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره، فلا نهاية لمحبتة، بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت على قلب رجل واحدٍ منهم، كان ذلك دون ما يستحقه الربُّ ولهذا لا تُسمى محبة العبد لربِّه عِشْقاً؛ لأنَّه إفراط المحبة، والعبد لا يصل في محبة الله إلى حدِّ الإفراط ألبتة^(٢).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

ذهب علماء التفسير إلى أنّ الله يُحِبُّ وَيُحَبُّ، كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ومحبة الله لأوليائه ليست كمحبة المخلوق^(٤)، وقد أنكر السلف والأئمة الكبار على المعتزلة والأشاعرة نفهم صفة المحبة عن الله، حيث يؤولون النصوص الشرعية الواردة في المحبة بتأويلات مخالفة لظاهرها. وإنَّ أهل السنة يثبتون كون الله تعالى مرئياً، ثم يقولون: هي رؤية بلا كيفٍ، كذلك محبة الله بلا كيفٍ، فثبت أن جزم المتكلمين بأنَّه لا معنى لمحبة الله إلا

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣٨/١٤)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٢٤).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٣/٤٣٥ - ٤٤٧).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٣٨/١٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٧/٦٤٣).

(٤) محبة العبد لله معناها: مواطأة القلب على ما يُرضي الرب تعالى. ينظر: مدارج السالكين: ابن

القيم (٣/٤٣٩).

إرادة إيصال الثواب والخير إلى العبد ليس لهم على هذا الحصر دليل قاطع، وهي طريقة ضعيفة ساقطة. قال ابن تيمية: "ينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال، إلا إذا تضمن إثباتاً، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال؛ فهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمناً لإثبات مدح^(١). فإن الله عندما نفى عن نفسه أنه لا يحب المعتدين، أثبت بطريق مفهوم المخالفة أنه يحب العادلين، وهذا صريح قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]. فالعبد يفنقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حبَّ إجلالٍ وتعظيمٍ فهو غاية مطلوبه ومراده ومنتهى همته، ولا صلاح له إلا بهذا، وأصل الحركاتِ الحبِّ، والذي يستحق المحبة لذاته هو الله فكلُّ من أحبَّ مع الله شيئاً فهو مشركٌ وحبه فساداً، وإنما الحبُّ الصالح النافع حب الله والحب لله^(٢). ولا يُوصف الله إلا بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله لا نتجاوز القرآن والحديث، فمذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تكليفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تمثيلٍ، وأن الله ليس كمثل شيء لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكلُّ ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فالله منزّه عنه حقيقةً، فإن الله مُستحقُّ الكمال الذي لا غاية فوقه، والله وصف نفسه بالمحبة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] فسلف الأمة وعلماء الأئمة يقررون بهذه الصفة الإلهية، ويثبتونها لله بالمعنى الذي أراد الله مع اعتقادهم التنزيه والتقدیس، عن التشبيه والتنقيص، ومن النَّاس من يجعل حب الله عبارة عما يخلقه من النُّعمة، وهذا ظاهر البطلان، كما أنَّ سلف الأمة وأئمتها على أنَّ الله يُحِبُّ وَيُحَبُّ^(٣)، وإذا علم ذلك فالمتعقد الصحيح إثبات الأسماء والصفات الإلهية، كما وردت بها الآيات القرآنية، ودلت عليه الروايات النبوية الصحيحة، من غير تعطيلٍ لها عن حقائقها ونفيها مع صحة مخارجها، بل نثبتها ونؤمن بها، ولا تشبيه في مجرد إثباتها، ومن غير تمثيلٍ لها بصفات المخلوق، بل إثبات بلا تمثيلٍ، وتنزيه بلا تعطيلٍ. لذلك أجمع السلف على ثبوت المحبة لله، وأنَّ الله يُحِبُّ وَيُحَبُّ، فيجب إثبات ذلك حقيقةً من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكليفٍ ولا تمثيلٍ، وهي محبة حقيقية تليق بالله تعالى^(٤).

(١) التدمرية: ابن تيمية (ص: ٥٨) وأحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين: سليمان الديبخي (ص: ١٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣١/١٤).

(٣) صحيح البخاري كتاب الرقاق . باب التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢)، (ص: ٧٧٠)، وفتح الباري (١٤/٦٧١).

(٤) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/٩٦ - ١٠١)، وشرح لمعة الاعتقاد: محمد بن صالح العثيمين (ص: ٥٤).

إثبات محبة الربِّ لعبده، ومحبة العبد لربِّه^(١):

أهل السُّنة والجماعة على إثبات الطرفين، وأنَّ محبة العبد لربِّه فوقَ كلِّ محبةٍ تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة (لا إله إلا الله)، وكذلك عندهم محبة الربِّ لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه، فإنَّ ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنَّه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتمَّ نصيبٍ، والمعطلة عكس السلف فإنَّ الله عندهم لا يُحبُّ ولا يُحبُّ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص الشرعية، فأولوا نصوص محبة العباد لله على محبة طاعته وعبادته، والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب والأجر. وأولوا نصوص محبة الله للعباد بإحسانه إليهم، وإعطائهم الثواب، وثناء الله عليهم ومدحه لهم، ومن جعل محبة الله للعبد ثناءه عليه ومدحه له، لم يبق عنده بذات الربِّ محبة لعبده، ولا لأنبيائه ورسله ألبتة، فأنكروا محبة العباد، والملائكة، والأنبياء، والرُّسل لله. وقالوا: لا معنى لها إلا إرادة التقرب إليه، والتعظيم له، وإرادة عبادته. فأنكروا خاصة الإلهية، وخاصة العبودية. وجميع طرق الأدلة تدلُّ على إثبات محبة العبد لربِّه، والرب لعبده، والقرآن والسُّنة مملوآن بذكر من يحبه الله من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله؛ فإنَّها روح كلِّ مقامٍ ومنزلة وعمل، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي نفس الإسلام؛ فإنَّه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هي حقيقة شهادة (أن لا إله إلا الله) فإنَّ الإله هو الذي يأله العباد ذلاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعةً له، بمعنى مألوه، وهو الذي تأله القلوب، أي تحبه وتذل له، فإنَّ العقل والفطرة والشرعة والاعتبار، والنظر تدعو كلُّها إلى محبة الله، بل إلى توحيد الله في المحبة، وإنَّما جاءت الرُّسل بتقرير ما في الفطر والعقول.

الأسباب الجالبة لمحبة الله، والموجبة لها وهي عشرة:

١. قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.
٢. التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.
٣. دوام ذكر الله على كلِّ حالٍ باللسان والقلب، والعمل والحال.
٤. إثارة محاب الله على محاب النفس عند غلبات الهوى، وإن صعب المرتقى.
٥. مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.
٦. مشاهدة بر الله وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنَّها داعية إلى محبته.
٧. وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٣/٤٥٠ . ٤٩١) بتصرف.

٨. الخلوة بالله وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.
 ٩. مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر، ولا يتكلم العبد إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلم أن فيه مزيداً لحاله، ومنفعةً لغيره.
 ١٠. مبادعة كل سبب يحول بين القلب وبين الله، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة^(١).
- خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):**

١. أجمع المسلمون على أن المحبة صفة من صفات الله؛ لأن القرآن نطق بإثباتها.
٢. إذا بلغ العبد محبة الله، فقد بلغ الرتبة العليا؛ إذ محبة رب العالمين منتهى غايات المقربين، فإذا أحب الله المرء أيده، وسدد رأيه، وأرشده، وصوب رميته ونصره.
٣. في الآية ردٌّ على الأشاعرة الذين يقولون: محبة الله عبارة عن الثواب.
٤. أن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب إنما نشأ عن المحبة ولأجلها.
٥. كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده.
٦. وجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكل ما سواه.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٤٤٨/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٣٧، ٦٦)، وشرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٥٧)، والمائة الجياد في الشهادة والجهاد: زكريا شحادة (ص: ١٦).

المبحث الثالث

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٦-٥٨)

النهي عن الفساد واجبٌ

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: الفساد شرٌّ كلُّه.

المطلب الثاني: الأمثال من وسائل الهداية.

المطلب الأول: الفساد شرُّ كلِّه

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: المسلم صالحٌ مصلحٌ

وبدلاً على هذا المقصد القرآني قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

الأرض: الأرض هنا هي الجسم الكروي المعبر عنه بالدنيا.

إصلاحها: إذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير، وكذلك الفساد يتناول جميع الشر، والمراد من قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته، بابتعائه فيهم الرُّسل دعاة إلى الحق.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

معنى الآية: ولا تفسدوا في الأرض بارتكاب المعاصي بعد أن أصلحها الله بإرسال الرُّسل

وإعمارها بطاعته وحده.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

في هذه الآية عطف النهي عن الفساد في الأرض على آية: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

عطفاً على طريقة الاعتراض، فإنَّ الكلامَ لما أنبأ عن عناية الله بالمسلمين وتقريبه إياهم إذ أمرهم بأن يدعوه وشرَّفهم بذلك العنوان العظيم في قوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وعرض لهم بمحبته إياهم دون أعدائهم المعتدين، أعقبه بما يحول بينهم وبين الإدلال على الله بالاسترسال فيما تُمليه عليهم شهواتهم من ثوران القوتين الشهوية والغضبيَّة، فإنَّهما تجنَّيان فساداً في الغالب، فذكَّره بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزهاً عن أن يخالطه فساداً، فإنَّهم إن أفسدوا في الأرض أفسدوا مخلوقات كثيرةً وأفسدوا أنفسهم في ضمن ذلك الإفساد، فأشبهه موقع الاحتراس، وكذلك دأب القرآن أن يعقب الترغيب بالترهيب، وبالعكس، لئلا يقع النَّاسُ في اليأس أو الأمن، والاهتمام بدرء الفساد كان مقاماً هنا مقتضياً التعجيل بهذا النهي مُعتزلاً بين جملتي الأمر بالدُّعاء، وفي إيقاع هذا النهي عقب قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تعريضاً بأنَّ المعتدين وهم المشركون مُفسدون في الأرض، وإزباءً للمسلمين عن مشابهتهم، أي: لا يليق بكم وأنتم المقرَّبون من ربِّكم، المأذون لكم بدعائه، أن تكونوا مثلَّ المبعدين منه المبغضين.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٥)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٨٣/٧)، والتحرير والتنوير:

الطاهر ابن عاشور (٨/١٧٤).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٧٣).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ الإفساد في كل جزء من الأرض هو إفسادٌ لمجموع الأرض، وقد يكون بعض الإفساد مؤدياً إلى صلاحٍ أعظم مما جرّه الإفساد من المضرة، فيترجح الإفساد إذا لم يمكن تحصيل صلاحٍ ضروري إلا به، فقد قطع رسول الله (ﷺ) نخلَ يهودِ بني النَّضِير، ونهى أبو بكرٍ الصديق (رضي الله عنه) عن قطع شجرِ العدو، لاختلاف الأحوال.

اللطيفة الثانية: البعدية في قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعديةٌ حقيقية؛ لأنَّ الأرضَ خلقت من أول أمرها على صلاحٍ، وعلى نظامٍ صالحٍ بما تحتوي عليه، فالتصريحُ بالبعدية تسجيلٌ لفظاعة الإفسادِ بأنه إفسادٌ لما هو حسنٌ ونافعٌ، فلا معذرةٌ لفاعله ولا مساعٍ لفاعله عند أهل الأرض.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...﴾ [الأعراف: ٣٢] يدلُّ على أنَّ الأصل في المنافع والذات الإباحة والجل، فدخل تحت هذه الآية جميع أحكام الله، وكذلك في هذه الآية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٥٦]. فإنها تدلُّ على أنَّ الأصل في المضار والآلام، الحرمة. وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله داخلا تحت عموم هذه الآية، وجميع المناهي داخلاً في تلك الآية، فتلك الآية دالة على أنَّ الأصل في المنافع الحل، وهذه الآية دالة على أنَّ الأصل في جميع المضار الحرمة، وكلُّ واحدةٍ من هاتين الآيتين مطابقةٌ للأخرى مؤكدةٌ لمدلولها مقررةٌ لمعناها، وتدلُّ على أنَّ أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات.

خامساً: بيان المقصد في الآية

أ- الإسلام دين الصلاح والإصلاح:

إنَّ الأرضَ خلقت من أول أمرها على صلاحٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا﴾ [فصلت: ١٠] على نظامٍ صالحٍ بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرفُ المخلوقات التي جعلها الله على الأرض، وخلق له ما في الأرض، وعزز ذلك النظام بقوانينٍ وضعها الله على السنة المرسلين والصالحين والحكماء من عباده، الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتوفيق والحكمة، فعملوا النَّاسَ كيف يستعملون ما في الأرض على نظامٍ يحصلُ به الانتفاعُ بنفع النَّافع وإزالة ما في بعض النَّافع من الضر وتجنب ضر الضار، فذلك النظامُ الأصلي، والقانونُ المعززُ له، كلاهما إصلاح في الأرض، لأنَّ الأوَّلَ إيجاد الشيء صالحاً، والثاني جعلُ الضَّار صالحاً بالتهذيب أو بالإزالة، إنَّ الإصلاحَ موضوعٌ للقدر المشترك بين إيجاد الشيء صالحاً وبين جعلِ الفاسد صالحاً. والإصلاحُ في الآية أُريد به إصلاحُ

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٣٩/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٧٤/٨)، وفقه السيرة النبوية: محمد

سعید رمضان البوطي (ص: ١٩٢).

حاصلٌ ثابتٌ في الأرض لا إصلاح هو بصددِ الحصولِ، فإذا غُيِّرَ ذلك النَّظام فأفسد الصَّالحُ، واستعمل الضَّار على ضرِّه، أو استبقي مع إمكانِ إزالته، كان إفساداً بعدَ إصلاحٍ^(١). وللشاطبي كلام جميل في هذا المعنى هذا نصه: " المفهوم من وضع الشارع أنَّ الطاعة أو المعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها، وقد عُلم من الشريعة أنَّ أعظم المصالح جريانُ الأمور الضرورية الخمسة المعتبرة في كلِّ ملةٍ، وأنَّ أعظم المفسد ما يكر بالإخلال عليها، إلا أنَّ المصالح والمفسدَ ضربان: أحدهما: ما به صلاحُ العالم أو فساده، كإحياء النفس في المصالح، وقتلها في المفسد. والثاني: ما به كمالُ ذلك الصلاح أو ذلك الفساد^(٢). ومعنى الآية: ولا تفسدوا شيئاً في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل ويقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الدين بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواط والقذف، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات؛ وذلك لأنَّ المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول. فقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ منعٌ عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة، وأمَّا قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين، بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنَّ الله قال: لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها، ولا تقدموا على تكذيب الرُّسل وإنكار الكتب والتمرد على الشرائع؛ فإنَّ ذلك يقتضي وقوع الهرج والمرج في الأرض، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح، وذلك مستكره في الفطر^(٣)

ب- المعاصي سبب الفساد:

من آثار الذنوب والمعاصي أنَّها تُحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء، والزرع، والثمار، والمساكن؛ فإنَّ الذنوب سبب الفساد، ومن تأثير المعاصي في الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مرَّ رسولُ الله (ﷺ) على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح؛ لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات، فإذا ظهرت الأرض من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله التي محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أنَّ العقوبات التي أنزلها الله في الأرض

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٤/٨).

(٢) الموافقات: الشاطبي (٥١١/٢).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٣٩/١٤).

بقيت آثارها ساريةً في الأرض، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عُذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أنّ هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناستت حكمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخراً، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم الله بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء^(١). إنّ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي، فمن عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأنّ صلاح الأرض والسماء بالطاعة؛ فإذا ارتكبت المعاصي كان سبباً في محاق البركات من السماء والأرض، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض؛ ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان^(٢)، فحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية، وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض أخرجي بركاتك، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله^(٣)، فكلما أُقيم العدل كثرت البركات والخير؛ والإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثيرٌ من السلف: "إنّ قرض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض"^(٤).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٥):

١. الآية تدلُّ على أنّ الأصل في المضار والآلام الحرمة والمنع على الإطلاق.
٢. هذه الآية دالة على أنّ كلّ عقدٍ وقع التراضي عليه بين الخصمين، فإنّه انعقد وصح وثبت؛ لأنّ رفعه بعد ثبوته يكون إفساداً بعد الإصلاح، والنصُّ دلٌّ على أنّه لا يجوز.
٣. في الآية أنّه باستقامة الدين تصحُّ العبادة، وبصلاح الدنيا تتمُّ السعادة.
٤. أنّ الإنسان أشرف المخلوقات.
٥. أنّ الحدود الشرعية إذا أُقيمت، انكف الناس، أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات.
٦. الفساد في الأرض بكلِّ صورته وأشكاله منهجٌ عنه.

(١) الداء والدواء: ابن قيم الجوزية(ص٧٢، ٧٤)، وفقه السيرة النبوية: محمد سعيد رمضان البوطي(ص:٣٠٦).
(٢) صحيح البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء . باب نزول عيسى ابن مريم، حديث رقم(٣٤٤٨)،(ص:٤١٣).
(٣) أشراط الساعة: يوسف بن عبد الله الوابل(ص:٣٦١).
(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٢/٤٨، ٤٧، ٤٣٥).
(٥) آداب الدّين والدنيا: الماوردي(ص:٣٩)، والتفسير الكبير: الرازي(١٣٩/١٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص:١٥٧).

المقصد الثاني: التربية الإيمانية ترغيب في الجنة، وترهيب من النار

ويدل على هذا المقصد العظيم قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَادْعُوهُ: دعو: هو أن تميل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دعوت أدعو دعاء.

خَوْفًا: الخوف كما عرّفه العلماء: توقعُ مكروهٍ عن أمانةٍ مظنونَةٍ أو معلومةٍ.

وَطَمَعًا: الطمعُ توقعُ المحبوبِ لأمانةٍ مظنونَةٍ أو معلومةٍ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يقول الله تعالى: ادعوا الله وحده مستشعرين الخوف من عقابه، ومنتظرين حصول ثوابه.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٣):

هذه الآية عود إلى أمر الدعاء الذي في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾؛ لأن ما قبله من النهي

عن الإفساد أشبه الاحتراس المعترض بين أجزاء الكلام، وأعيد الأمر بالدعاء ليني عليه

قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قصداً لتعليم الباعث على الدعاء بعد أن علّموا كيفيته، وهذا الباعث

تتطوي تحته أغراض الدعاء وأنواعه، فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء، وهذه

الآية في بيان فائدة الدعاء ومنفعته.

رابعاً: لطائف التفسير في النص القرآني^(٤):

اللطيفة الأولى: انتصاب قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على المفعول لأجله، أي: أن الدعاء يكون لأجل

خوفٍ منه وطمعٍ فيه، فحذف متعلق الخوف والطمع لدلالة الضمير المنصوب في ﴿وَادْعُوهُ﴾.

اللطيفة الثانية: الواو في الآية ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ للتقسيم للدعاء بأنه يكون على نوعين: الخوف

من غضبه وعقابه، والطمع في رضاه وثوابه، والدعاء لأجل الخوف نحو الدعاء بالمغفرة،

والدعاء لأجل الطمع نحو الدعاء بالتوفيق وبالرحمة، وليس المراد أن الدعاء يشتمل على خوفٍ

وطمعٍ في ذاته؛ لأن ذلك وإن صح في الطمع لا يصح في الخوف إلا بسماجة.

اللطيفة الثالثة: في الأمر بالدعاء ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ دليل على أن من حظوظ المكلفين في

أعمالهم مراعاة جانب الخوف من عقاب الله والطمع في ثوابه، وهذا ممّا طفحت به الأدلة.

(١) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٧٩/٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٥٤٠)،

والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: صالح الفوزان (ص: ٦٢).

(٢) المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٧).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤٠/١٤).

(٤) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٥/٨)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤١/١٤).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

قد شمل الخوف والطَّمع جميع ما تتعلق به أغراض المسلمين نحو ربِّهم في عاجلهم وآجلهم، ليدعوا الله بأن ييسر لهم أسباب حصول ما يطمعون، وأن يجنبهم أسباب حصول ما يخافون، وهذا يقتضي توجُّه همَّتْهم إلى اجتناب المنهيات؛ لأجل خوفهم من العقاب، وإلى امتثال المأمورات؛ لأجل الطَّمع في الثَّواب، فلا جرم أنَّه اقتضى الأمر بالإحسان، وهو أن يعبدوا الله عبادة من هو حاضر بين يديه فيستحيي من أن يعصيه، فالتَّقدير: وادعوه خوفاً وطمعاً وأحسنوا، بقرينة تعقيبه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا إيجاز، وقد بوب البخاري في الصحيح: "باب الرجاء مع الخوف" أورد فيه حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعتُ رسولَ الله (ﷺ) يقول: "إنَّ الله خلقَ الرحمةَ يومَ خلقها مائةَ رحمةٍ، فأمسكَ عنده تسعاً وتسعينَ رحمةً، وأرسلَ في خلقه كُلِّهم رحمةً واحدةً، فلو يَعْلَمُ الكافرُ بكلَّ الذي عندَ الله من الرحمةِ لم ييأسَ من الجنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المسلمُ بكلَّ الذي عندَ الله من العذابِ لم يأمنَ من النَّارِ"^(٢). وفي الحديث استحباب الرجاء مع الخوف، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ولا في الخوف عن الرجاء لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكلُّ منهما مذمومٌ، والمقصودُ من الرجاء أنَّ من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعةٌ يرجو قبولها، وأمَّا من انهزم على المعصية راجياً عدم المؤاخظة بغير ندمٍ ولا إقلاعٍ فهذا في غرورٍ، فمن علامة السعادة أن تطيع، وتخاف أن لا تُقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي، وترجو أن تتجو، والخوف متفق على استحبابه في حالة الصحة، والأولى أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه وأمَّا عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الإقتصار على الرجاء لما يتضمن من الافتقار إلى الله، ولأنَّ المحذور من ترك الخوف قد تعذر فيتعين حسن الظن بالله برجاء عفوهِ ومغفرته، ولا يُهمل جانب الخوف أصلاً، بحيثُ يجزم بأنَّه آمنٌ^(٣). وعقيدة أهل السنة والجماعة كما في الطحاوية أنَّ الأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحقَّ بينهما لأهل القبلة. علق الشارح ابن أبي العز الحنفي^(٤) بقوله: "يجب أن يكون العبدُ خائفاً راجياً، فإنَّ الخوفَ المحمودَ الصادقَ ما حالَ بينَ صاحبه وبينَ محارمِ الله، فإذا تجاوزَ ذلك خيفَ منه اليأسُ

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٦/٨).

(٢) صحيح البخاري كتاب الرقاق . باب الرجاء مع الخوف، حديث رقم (٦٤٦٩)، (ص: ٧٦٧).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٦٠٦/١٤).

(٤) هو العلامة محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأزرعي الصالحي، ولد بدمشق سنة (٧٣١هـ) اشتغل بالعلوم، وكان ماهراً في دروسه وفتاويه، وخطب بالبقاء مدة، ثم ولي قضاء دمشق ثم ولي قضاء مصر، اعتقل لبيانه ما في قصيدة ابن أبيك من الشرك، وله كتب منها "شرح العقيدة الطحاوية"، وكانت وفاته بدمشق سنة (٧٩٢هـ). ينظر: مقدمة طبعة المكنب الإسلامي لشرح الطحاوية (ص: ١٥).

والقنوط، والرجاء المحمود رجاء رجلٍ عملَ بطاعةِ الله على نورٍ من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجلٍ أذنبَ ذنباً، ثم تابَ منه إلى الله، فهو راجٍ لمغفرته، أمّا إذا كان الرجلُ متمادياً في التقريط والخطايا، يرجو رحمةَ الله بلا عملٍ، فهذا هو التمني والرجاء الكاذبُ. فالرجاءُ يستلزمُ الخوفَ، ولولا ذلك لكان أمنأً، والخوفُ يستلزمُ الرجاءَ، ولولا ذلك لكان قنوطاً وبأساً، وكُلُّ أحدٍ إذا خِفته هَرَبْت منه، إلا الله، فإنَّك إذا خِفته هَرَبْت إليه، فالخائفُ هاربٌ من ربه إلى ربه، والرجاءُ والخوفُ على الوجه المذكور من أشرف منازل العبودية، وعن جابرٍ (رضي الله عنه) قال: سمعتُ رسولَ الله (ﷺ) يقول قبل موته بثلاث: "لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله" (١)، فإنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ رجاءهُ في مرضه أرجحَ من خوفه في حال الإقبال على الله، بخلاف زمن الصحة، فإنَّه يكونُ خوفهُ أرجحَ من رجائه في حال الإقبال على الدنيا، ومن عبدَ الله بالحبِّ والخوفِ والرجاءِ فهو مؤمنٌ موحدٌ (٢). قال العلماء: الرجاء من الله ومن نبيه واقعٌ. والقلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوفُ والرجاءُ جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيدُ الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكلِّ صائدٍ وكاسرٍ، ولكن السلف الصالح استحبوا أن يقوى في الصِّحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، وأكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائقٌ، والله الموصل بمثله وكرمه (٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومما يدلُّ على هذا المعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالمٌ، فقد أخبر الله أن كلَّ من خشى الله فهو عالمٌ، والخشيةُ أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً؛ كما أنَّ الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنأً؛ فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله" (٤).
سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ (٥):

١. الخوف من أعظم مقامات الدِّين وأجلها، فمن صرفه لغير الله فقد أشرك بالله تعالى.
٢. أن من لم يخف عقاب الله ولم يرج ثوابه لم يبال ما ركب من المعاصي.
٣. أن من لم يكن دعاؤه الله خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه فهو بالآخرة من المكذِّبين.

(١) أخرجه مسلم كتاب الجنة . باب الأمر بحسن الظنِّ بالله عند الموت، حديث رقم (٢٨٧٧)، (ص: ١١٥٣).

(٢) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٣١١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٨/٣٥٢).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٢/١٤٥).

(٤) الإيمان: ابن تيمية (ص: ٢٠).

(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٥) والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: صالح الفوزان (ص: ٦٣).

المقصد الثالث: الأمر بالخوف من الله، وأنه من الإيمان

ويدلُّ على هذا قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

خَوْفًا: والخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والخوف مسبوقٌ بالشعور والعلم، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به والخوف: توقُّع المكروه لأمارَةٍ مَظنونَةٍ أو معلومةٍ، ويقابله الأمن لما فيه من الطمأنينة، وخوفُ الله لا يراُدُّ به ما تعارفه النَّاسُ من الرعبِ كاستشعارِ الخوف من الأسد، وإنَّما المرادُّ به الانزجارُ عن المعاصي وتحريِّ الطاعات وعملها، ولهذا لا يُعدُّ خائفًا من لم يكن للذنوبِ تاركاً^(٢).

قَرِيبٌ: القربُ حقيقتهُ دُنوُّ المكان وتجاوره، ويطلق على الرجاء توسعاً، وهو قرب مكانٍ ومكانة، الْمُحْسِنِينَ: المطيعين الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، وإنَّما سمُّوا محسنين؛ اعتباراً للمشاركة والقرب من الفعل ترغيباً وتحريضاً، وليس من شرط كونه محسناً أن يكون آتياً بكلِّ وجوه الإحسان، كما أن العالم ليس من شرطه أن يحصل جميع أنواع العلم.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطفية الأولى: دلَّ قوله: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على مقدِّرٍ في الكلام، أي: وأحسنوا؛ لأنَّهم إذا دَعوا خوفاً وطمعاً فقد تهيَّأوا لنَبذ ما يوجب الخوف، واكتساب ما يوجب الطَّمع، لئلا يكون الخوف والطَّمع كاذبين، لأنَّ من خاف لا يُقدِّم على المخوف، ومن طمع لا يترك طلب المطموع، ويتحقَّق ذلك بالإحسان في العمل ويلزم من الإحسان ترك السيِّئات، فلا جرم تكون رحمة الله قريباً منهم، وسكت عن ضد المحسنين رفقاَ بالمؤمنين وتعريضاً بأنَّهم لا يظن بهم أن يسيئوا فتبعد الرَّحمة عنهم.

اللطفية الثانية: عدم لحاق علامة التَّأنيث لوصفِ ﴿قَرِيبٌ﴾ مع أنَّ موصوفه مؤنَّث اللفظ، وجَّهه علماءُ العربيَّة بوجوه كثيرة، وأحسنها أنَّ قريباً أو بعيداً إذا أُطلق على قرابة النَّسب أو بُعد النَّسب فهو مع المؤنَّث بقاء ولا بُدَّ، وإذا أُطلق على قُرب المسافة أو بُعدها جاز فيه مطابقة موصوفه وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان، وهو الأكثر.

(١) والتفسير الكبير: الرازي(١٤٢/١٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم(ص: ١٤٠)

والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور(١٧٧/٨)، وحاشية الجمل على تفسير الجلالين(٢٠٥/١).

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي(٥٤٠/١).

(٣) التفسير الكبير: الرازي(١٤٢/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور(١٧٧/٨).

اللطفية الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ واقع موقع التفرّيع على قوله: ﴿وَادْعُوهُ﴾،
فلذلك قرنت بـ ﴿إِنَّ﴾ الدّالة على التوكيد، وهو لمجرّد الاهتمام بالخبر، إذ ليس المخاطبون
بمتردّدين في مضمون الخبر، ومن شأن ﴿إِنَّ﴾، إذا جاءت على هذا الوجه أنّ تفيد التعليل وربط
مضمون جملتها بمضمون الجملة التي قبلها، فتغني عن فاء التفرّيع.
ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنّ الله أمر بالخوف وأوجبه، وجعله شرطاً في الإيمان، وفي هذه الآية وجوب الخوف
من الله وحده، وأنّه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف
المحمود ما حجز العبد عن محارم الله. ومن منازل الإيمان منزلة الخوف، وهي من أجل منازل
الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرضٌ على كلّ أحدٍ. وأمّا الأمان فلا سبيل إليه، بل الخوف واجبٌ،
وهو شعار الصالحين، والخوف علامة صحة الإيمان، وترخّله من القلب علامة ترخّل الإيمان
منه، وقد أمر الله بدعائه وعبادته على وجه الخوف من عقابه الوبيل، والرجاء لثوابه الجزيل؛
فقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]. كما أنّه نهى عن الخوف من الكافرين والظالمين
والنّاس أجمعين، وأمر بالخوف منه وحده، المراد من الآية: وادعوه مع الخوف من وقوع التقصير
في بعض الشرائط المعتبرة في قبول ذلك الدّعاء، ومع الطمع في حصول تلك الشرائط بأسرها،
فهذه الآية تدلّ على أنّ الداعي لا بُدَّ وأن يحصل في قلبه هذا الخوف والطمع؛ لأنّ العبد لا
يمكنه أن يقطع بكونه آتياً بجميع الشرائط المعتبرة في قبول الدّعاء ولأجل هذا المعنى يحصل
الخوف، وأيضاً لا يقطع بأنّ تلك الشرائط مفقودة فوجب كونه طامعاً في قبولها فلا جرم بأنّ
الداعي لا يكون داعياً إلا إذا كان كذلك، فقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: أن تكونوا جامعين في
نفوسكم بين الخوف والرجاء في كلّ أعمالكم، ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم فقد أدبتم حق ربكم.

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. دلت هذه الآية على أنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين فوجب بحكم هذه الآية أن تصل
إلى صاحب الكبيرة من أهل الصلاة رحمةً الله.
٢. أنّ الإحسان إلى الخلق يجلب الرحمات الإلهية.
٣. إنّ الله قريبٌ من العباد حقيقةً.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ١٤٢)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد
وإياك نستعين: ابن القيم (ص: ١٣٦)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤١)، والخوف من الله: محمد شومان
الرملي (ص: ١٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٢).

المطلب الثاني: الأمثال من وسائل الهداية

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: العناية من مظاهر الربوبية

دلُّ عليه قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].
أولاً: التحليل اللفظي للآية^(١):

يُرْسِلُ: الإرسال في الريح هو بمعنى الإجراء والإطلاق والإسالة.

الرِّيَّاح: الريح: هواء متحرك، يمنةً ويسرةً، والرياح تطلع الأشجار وتهدم الجبال وتموج البحار.
بَيْنَ يَدَيْ: أي: أنه يكون أمامه بقرب منه، القصد منه الكناية عن الأمام.
رَحْمَتِهِ: الرحمة في هذه الآية المطر.

أَقَلَّتْ: معنى أَقَلَّتْ: حملت مشتق من القلة، لأنَّ الحاملَ يَعدُّ محموله قليلاً، فالهمزة فيه للجعل. وإقلالُ الريح السَّحاب هو أنَّ الرِّيَّاح تمرُّ على سطح الأرض فيتجمَّع بها ما على السَّطح من البخار، وترفعه الرِّيَّاح إلى العلوِّ في الجوّ، حتى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجوّ، فهناك ينقبض البخار وتتجمَّع أجزاءه فيصير سحابات، وكلِّما انضمت سحابةٌ إلى أخرى حصلت منهما سحابةٌ أثقل من إحداها حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقل انتشارها إلى أن تصير سحابةً عظيماً فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطراً.
ثِقَالًا: أي البطيئةُ التثقل لما فيها من رطوبة الماء، وهو البخار وهو السَّحاب المرجو منه المطر.
لِبَلَدٍ: البلد: السَّاحةُ الواسعةُ من الأرض.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يقول الله منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجب منه الكفار مستبشرين لوقوع المعاد، هذه الأرض التي كانت هامدةً، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثالٌ للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٣٨)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٦، ١٤٥)،

والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٨٣، ١٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤/٢٢٢).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(١):

وجه العلاقة بين هذه الآية والتي قبلها أن آية ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا﴾ عطف على آية ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ وقد حصلت المناسبة بأنه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضاً من رحمته العامة وهو المطر، فذكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم؛ لأنه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك جعل معطوفاً على آية ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتتان في الاستدلال وذلك لا يقتضي أن الرياح لا ترسل إلا للتبشير بالمطر، ولا أن المطر لا ينزل إلا عقب إرسال الرياح، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجو، وإذ ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة، وفيه تعريضٌ ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع.

رابعاً: لطائف بلاغية في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ أطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فأرسل الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه فشبهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء، فتصرف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ كناية عن الأمام، حيث إن الأمام القريب أوسع من الكون بين اليبدين، وساغ أن تستعمل توسعاً في التقدّم والسبق القريب، ومعنى الآية: يرسل الرياح سابقة رحمته، أي: أمام رحمته وقدامها.

اللطيفة الثالثة: الرحمة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أريد بها المطر، فهو من إطلاق المصدر على المفعول؛ لأن الله يرحم به، والقرينة على المراد بقية الآية، وإضافة الرحمة إلى اسم الجلالة في هذه الآية تبعد دعوى من ادعى أن الرحمة من أسماء المطر؛ فإن ذلك لم يثبت.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿تُشْرًا﴾ أي: منشرة متفرقة، فجزء من أجزاء الريح يذهب يمنة، وجزء آخر يذهب يسرة، وكذا القول في سائر الأجزاء فإن كل واحدٍ منها يذهب إلى جانب آخر، ولا شك أن طبيعة الهواء طبيعة واحدة ونسبة الأفلاك والأنجم والطبائع إلى كل واحدٍ من الأجزاء

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٧٨/٨).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٣٩/٥)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن

عاشور (١٧٨/٨، ١٨٠).

التي لا تتجزأ من تلك الرياح نسبة واحدة فاختصاص بعض أجزاء الرياح بالذهاب يمنةً، والجزء الآخر بالذهاب يسرةً، وجب أن لا يكون ذلك إلا بتخصيص الفاعل المختار وهو الله^(١).

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ فيه تشبيه، أي: بين يدي المطر الذي هو رحمته، والسبب في حسن هذا التشبيه أن اليمين يستعملهما العربُ في معنى التقدمة على سبيل الاتساع فإنَّ يدي الإنسان متقدماته فكلُّ ما كان يتقدم شيئاً يطلق عليه لفظ اليمين توسعاً، فإن قيل: فقد نجد المطر ولا تتقدمه الرياح، فليس في الآية أن هذا التقدم حاصلٌ في كلِّ الأحوال فلم يتوجه السؤال، يجوز أن تتقدمه هذه الرياح، وإن كنا لا نشعر بها.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿حَتَّى﴾ ابتدائيةً، وهي غايةٌ لمضمون قوله: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: تتقدمها مدة وتنتشر أسحبتها حتى إذا أقلت سحاباً أنزلنا به الماء، فإنزال الماء هو غاية تقدم الرياح وسبقها المطر، وكانت الغاية مجزأة أجزاء فأولها مضمون قوله: ﴿أَقَلَّتْ﴾ أي: الرياح السحاب، ثم مضمون قوله: ﴿ثِقَالًا﴾ ثم مضمون ﴿سُقْنَاهُ﴾ أي: إلى البلد الذي أراد الله غيئه، ثم أن ينزل منه الماء. وكلُّ ذلك غاية لتقدم الرياح؛ لأنَّ المفرغ عن الغاية هو غاية.

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿سَحَابًا﴾ السحاب اسمٌ جمع لسحابة، فلذلك جاز إجراؤه على اعتبار التذكير نظراً لتجرد لفظه عن علامة التأنيث، وجاز اعتبار التأنيث فيه نظراً لكونه في معنى الجمع ولهذه النكتة وصف السحاب في ابتداء إرساله بأنها ﴿ثُيْرٌ﴾ ووصف بعد الغاية بأنها ﴿ثِقَالًا﴾ وهذا من إعجاز القرآن العلمي، وقد ورد الاعتباران في هذه الآية فوصف السحاب بقوله: ﴿ثِقَالًا﴾ اعتباراً بالجمع، وأعيد الضمير إليه بالإفراد في قوله: ﴿سُقْنَاهُ﴾.

اللطيفة الثامنة: في الآية استعارة وتمثيل، حيث إن حقيقة السُّوقِ أنه تسيير ما يمشي ومُسَيْرُهُ وراءه يُزجيه ويحُثُّه، وهو هنا مستعارٌ لتسير السحاب بأسبابه التي جعلها الله، وقد يجعل تمثيلاً إذا روعي قوله: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ أي: سقناه بتلك الرياح إلى بلد، فيكون تمثيلاً لحالة دفع الرياح السحاب بحالة سوق السائق الدابة.

اللطيفة التاسعة: اللام في قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ﴾ هي لامُ العلة، أي: لأجل بلدٍ مَيِّتٍ، وفي هذه اللام دلالةٌ على العناية الربانية بذلك البلد، فلذلك عدل عن تعديده ﴿سُقْنَاهُ﴾ بحرف (إلى).

اللطيفة العاشرة: الميت في قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ مجاز أطلق على الجانب الذي انعدم منه النبات، وإسناد الموت المجازي إلى البلد هو أيضاً مجازٌ عقلي؛ لأنَّ الميت إنما هو نباته وثمره.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤٧/١٤، ١٤٦)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٨٢/٨).

اللطيفة الحادية عشر: الضمير المجرور بالباء في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ يجوز أن يعود إلى البلد، فيكون حرف الباء بمعنى (في) ويجوز أن يعود إلى الماء فيكون الباء للآلة.

اللطيفة الثانية عشر: الاستغراق في قوله: ﴿كُلُّ الثَّمَرَاتِ﴾ استغراقٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ البلد الميِّت ليس معيَّناً، بل يشمل كلَّ بلدٍ ميِّتٍ ينزلُ عليه المطر، فيحصل من جميع أفرادِ البلد الميِّت جميع الثَّمرات قد أخرجها الله بواسطة الماء، والبلد الواحدُ يُخرج ثمراته المعتادة فيه، أي: من كلِّ الثَّمراتِ المعروفةِ في ذلك البلد. وحرف (من) للتبويض.

اللطيفة الثالثة عشر: قوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ جملةٌ معترضةٌ استطراداً للموعظةِ والاستدلالِ على تقريبِ البعثِ الذي يستبعدونه، والإشارة بـ ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى الإخراجِ المتضمَّن له فعلٌ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ باعتبار ما قبله من كون البلد ميتاً، ثمَّ إحيائه، أي: إحياء ما فيه من أثر الزرع والثمر، فوجه الشَّبه هو إحياء بعد موت، ولا شكَّ أنَّ لذلك الإحياءَ كفيَّةً قدرها الله وأجمل ذكرها

اللطيفة الرابعة عشر: الفاصلة القرآنية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مستأنفة، والرجاء ناشئٌ عن الجمل المتقدِّمة من قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا﴾ لأنَّ المراد التَّذكر الشَّامل الذي يزيد المؤمن عبرةً وإيماناً، والذي من شأنه أن يقلع من المشرك اعتقادَ الشُّرك ومن مُنكرِ البعث إنكاره^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

قال ابنُ عطية^(٣): "هذه آيةٌ اعتبارٍ واستدلالٍ"^(٤). والمقصدُ الأوَّلُ من الآية هو تقييدُ المشركين وتفنيدُ إشراكهم، ويتبعه تذكيرُ المؤمنين وإثارةُ اعتبارهم؛ لأنَّ الموصولَ دلَّ على أنَّ الصِّلة معلومة الانتسابِ للموصولِ؛ لأنَّ المشركين يعلمون أنَّ للرِّيَّاحَ مُصرِّفاً، وأنَّ للمطر مُنزِلاً، غير أنَّهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنيةً إلى المجهولِ غالباً، فيقولون: "مُطرنا بنوء الثُّريا"، فأخبر الله بأنَّ فاعلَ تلك الأفعال هو الله الخالقُ، وذلك بإسناد هذا الموصولِ إلى ضميرِ الجلالة المعظم في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ أي: الذي علمتم أنَّه يرسل الرِّيَّاحَ، وينزلُ الماءَ، هو الله، فالخبرُ مسوقٌ لتعيين

(١) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٨٣/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤٧/١٤)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (١٨١/٨).

(٣) القاضي ابن عطية: أبو محمد عبدالحق بن أبي بكر غالب بن عطية الغرناطي، ولد سنة (٤٨٠هـ) اعتنى به والده، كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، قويَّ المشاركة، ذكياً فطناً مدركاً، من أوعية العلم، ولي قضاء المرية، توفي بحصن لُورقة في رمضان سنة (٥٤١هـ) وكان واسع المعرفة، قويَّ الأدب، متقناً في العلوم، أخذ النَّاسَ عنه، من مؤلفاته: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أحسن فيه وأبدع، وطار لحسن نيته كلَّ مطارٍ، وهو أصدق شاهدٍ لمؤلفه بإمامته في التفسير والعربية، وغيرها. ينظر: السير: الذهبي (٥٨٧/١٩).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٣٥/٥).

صاحب هذه الصلّة، فهو بمنزلة الجواب عن استفهام مقصود منه طلب التعيين، ولذلك لم يكن في هذا الإسناد قصر، لأنّه لم يقصد به رد اعتقاد، فإنّهم لم يكونوا يزعمون أنّ غير الله يرسلُ الرّياح، ولكنّهم كانوا كمن يجهل ذلك من جهة إشراكهم معه غيره، فروعى في هذا الإسناد حالهم ابتداءً، ويحصل رعي حال المؤمنين تبعاً، لأنّ السّياق مناسبٌ لمخاطبة الفريقين.

في تلك الرياح تحصل فوائد:

١. أنّ أجزاء السحاب ينضم بعضها إلى البعض ويتراكم وينعقد السحاب الكثيف الماطر.
 ٢. أنّ بسبب تلك الحركات الشديدة التي في تلك الرياح يمناً ويسرّة يمتنع على تلك الأجزاء المائية النزول فلا جرم يبقى متعلقاً في الهواء.
 ٣. أنّ بسبب حركات تلك الرياح ينساق السحاب من موضع إلى موضع آخر، وهو الموضع الذي علم الله احتياجهم إلى نزول الأمطار وانتفاعهم بها.
 ٤. أنّ حركات الرياح تارة تكون جامعة لا جزاء السحاب موجبة لاتضمام بعضها إلى البعض حتى ينعقد السحاب الغليظ وتارة تكون مفرقة لا جزاء السحاب مبطله لها.
 ٥. أنّ هذه الرياح تارة تكون مقوية للزروع والأشجار مكملة لما فيها من النشو والنماء وهي الرياح اللواقح، وتارة تكون مبطله لها كما تكون في الخريف.
 ٦. أنّ الرياح تارة تكون طيبة لذيدة موافقة للابدان، وتارة تكون مهلكة إمّا بسبب ما فيها من الحر الشديد كما في السموم أو بسبب ما فيها من البرد الشديد كما في الرياح الباردة.
 ٧. أنّ الرياح تارة تكون شرقية، وتارة تكون غربية وشمالية وجنوبية، وهذا ضبط ذكره بعض النّاس، وإلا فالرياح تهب من كلّ جانبٍ من جوانب العالم، ولا ضبط لها ولا اختصاص لجانب من جوانب العالم بها، فاختلف الرياح بسبب هذه المعاني عجيبة، فإذا عرف هذا فاختلف الرياح في الصفات مع أنّ طبيعة الهواء واحدة وتأثيرات الطبائع والأنجم والأفلاك واحدة يدلُّ على أنّ هذه الأحوال لم تحصل إلا بتدبير الفاعل المختار الله.
- سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(١):

١. أشارت هذه الآية إلى برهانٍ ساطعٍ من براهين البعث بعد الموت، وهو إحياء الأرض بعد موتها؛ فإنّه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت.
٢. أنّ الرياح آيةٌ عجيبةٌ.
٣. في الآية ردٌّ على من قال: إنّ قوى الكواكب هي التي تُحرك هذه الرياح وتوجب هبوبها؛ لأنّ الموجب لهبوب الرياح ومحركها هو الله الفاعل المختار.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٦، ١٤٥)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٤٥).

المقصد الثاني: إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بِالْأَسْبَابِ لَا عِنْدَهَا

لقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

بُشِّرًا: أي: تبشر بالمطر.

أَقْلَّتْ: يقال: أقل فلان الشيء إذا حملة، ومعناه: رفعت من الأرض واستقلت بها.

سَحَابًا: جمع سحابة، فقوله: ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: بالماء، والمعنى حتى إذا حملت هذه الرياح

سحاباً ثقالاً بما فيها من الماء العظيم إنما يبقى معلقاً في الهواء.

ثِقَالًا: معناه: من الماء، والعرب تصف السحاب بالثقل والدلج.

لِيَلِدَ: البلد كل موضع من الأرض عامرٌ أو مهجور، خال أو مسكون فهو بلدٌ، والجميع البلاد.

سُقْتَاهُ لِيَلِدَ مَيِّتٍ: المعنى أنا نسوق ذلك السحاب إلى بلدٍ ميتٍ لم ينزل فيه غيثٌ ولم ينبت فيه

خضرةً، والريح تسوق السحاب من ورائها فهو سوق حقيقة.

به: حرف الباء هو أبدأ يفيد الإصاق والسبب؛ وبالأسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض.

الماء: مادة الحياة، وسيّد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركّنه الأصلي، وقد جعل الله منه كل

شيء حيٍّ، وهو باردٌ رطبٌ، يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته، ويرد عليه بدل ما تحلّل

منه، ويرقق الغذاء، ويُنفذه في العروق.

لَعَلَّكُمْ: لعلّ في الأصل حرفٌ ترجّ وإشفاقٍ، وذلك في حقّ الله محالٌ، فإنّ لعلّ من الله واجبةٌ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

إنّ الله الذي يرسل الرياح لينا هبوبها، طيباً نسيماً، أمام غيئه الذي يسوقه بها إلى

خلقه، فينشئ بها سحاباً ثقالاً حتى إذا أقلتها، والإقلال بها، حملها، ساقه الله لإحياء بلد ميت، قد

تعفّت مزارعه، ودرست مشاربه، وأجذب أهله، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات، ثم

يقول الله: كما نحى هذا البلد الميت بما نزل به من الماء الذي نزل به من السحاب، فنخرج به

من الثمرات بعد موته وجدويته وقحوط أهله، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم

ودروس آثارهم، وضربت لكم، هذا المثل الذي ذكرت لكم من إحياء البلد الميت بقطر المطر

(١) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥/١٧٧)، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن

عطية (٥/٥٤٠)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٨، ١٤٧) ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٦/٢٢٢)، وزاد المعاد

في هدي خير العباد: ابن القيم (٤/٣٠٥٦)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤/٢٦).

(٢) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥/١٧٧).

الذي يأتي به السحاب الذي تنتشره الرياح التي وصفت صفتها لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن من كان ذلك من قدرته، فيسير في قدرته إحياء الموتى بعد فنائها، وإعادتها خلقاً سوياً بعد ذُروسها.
ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(١):

وجهُ العلاقة بين هذه الآية والتي قبلها أن الله لما ذكر دلائل الإلهية، وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي، وهو السموات والشمس والقمر والنجوم أتبعه بذكر الدلائل من بعض أحوال العالم السفلي واعلم أن أحوال هذا العالم محصورة في أمور أربعة: الآثار العلوية، والمعادن، والنبات، والحيوان ومن جملة الآثار العلوية الرياح والسحاب والأمطار، ويترتب على نزول الأمطار أحوال النبات وذلك هو المذكور في هذه الآية، فإن الله لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد.
رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الضمير في قوله: ﴿سُقْنَاهُ﴾ عائدٌ على السحاب، واستند الفعل إلى ضمير اسم الله من حيث هو إنعام.

اللطيفة الثانية: اللام في قوله: ﴿لِيَبْدِ﴾ بمعنى من أجل، والتقدير: سقناه لأجل بلدٍ ميتٍ ليس فيه حياً يسقيه.

اللطيفة الثالثة: في قوله: ﴿لِيَبْدِ مَيِّتٍ﴾ وصفة البلد بالموت استعارة؛ بسبب شعثه وحدوبته وتصويح نباته.

اللطيفة الرابعة: عود الضمير في قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ جائز أن يكون فأنزلنا بالبلد الماء، وجائز أن يكون فأنزلنا بالسحاب الماء؛ لأنَّ السحاب آلة لإنزال الماء، ويحتمل أن يعود على الماء، وهو أظهرها.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

إنَّ أهل السنة والجماعة يقررون ويؤمنون بأنَّ الله خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه، وأنَّه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وكلِّ شيءٍ أحصاه في كتابٍ مبينٍ، وهم مع هذا لا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب، التي يخلق بها المسببات، كما قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فأخبر الله أنه يفعل بالأسباب،

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٤).

(أ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٠)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٨).

(ب) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٤٨)، وشرح الرسالة التدمرية: عبد الرحمن بن ناصر البراك (ص: ٤٩٢، ٤٩٣)،

وشرح أصول العقيدة الإسلامية: نسيم شحدة ياسين (ص: ٢٤٥).

والأسباب نوعان: الأول: أسباب كونية، ومنها إنزال الماء بالسحاب، وإنبات الزرع بالماء، كما في قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فالبَاءُ في الآية سببية، وهكذا سائر الأسباب التي تحصل من المخلوقات هي أسباب كونية. الثاني: أسباب شرعية، منها الهداية والإضلال بالقرآن، كما في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] فالقرآن في ذاته خيرٌ ورحمةٌ وهدى، فالقرآن سببٌ لهداية من أراد الله هدايته فيحصل له الانتفاع به، ويكون سبباً لضلال من أراد الله إضلاله وشقاوته، فيكذب ويعرض عنه، فالطاعات والمعاصي أسباب شرعية، والواقع منها يكون أسباباً شرعية وكونية، وأهل السنة كما يثبتون عموم خلق الله للأشياء، فإنهم يثبتون الأسباب، وأن الله يخلق بها، فيخلق الأرزاق بأسباب، ويخلق الولد بأسباب، ومن قال: "إن الله يفعل عند الأسباب لا بها" فقد خالف ما جاء به القرآن، وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع، وقولهم: إن الله يخلق النبات عند وجود الماء في الأرض لا أن الماء مؤثرٌ في حصول النبات، فالباءُ عندهم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ للمصاحبة، وليست للسببية، وقولهم مخالفٌ للشرع والحس، والكناية في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ عائدةٌ إلى الماء؛ لأنَّ إخراج الثمرات كان بالماء، وجاءت أن يكون التقدير: فأخرجنا بالبلد من كل الثمرات؛ لأنَّ البلد ليس يخص به بلد دون بلد. وعلى القول الأول: فالله إنما يخلق الثمرات بواسطة الماء. وقال جمهور العلماء: لا يمتنع أن يقال إنَّ الله أودع في الماء قوةً طبيعية، ثم إنَّ تلك القوة الطبيعية توجب حدوث الأحوال المخصوصة عند امتزاج الماء بالتراب وهذا يدلُّ على أنَّها حدثت بإحداث الفاعل المختار وهو الله. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل مقصدين: أحدهما: أن يراد: كهذه القدرة

العظيمة في إنزال الماء وإخراج الثمرات به من الأرض المجدبة، هي القدرة على إحياء الموتى من الأجدات، وهذه مثالٌ لها. ويحتمل أن يراد أن هكذا بالأموات من نزول المطر عليهم حتى يحيوا به، فيكون الكلام خبيراً لا مثلاً^(١). وفي تفسير الآية قولان: الأول: أن المراد هو أن الله كما يخلق النبات بواسطة إنزال الأمطار فكذلك يحيي الموتى بواسطة مطر ينزله على تلك الأجسام الرميمة، فإنَّ الله يمطر على أجساد الموتى فيما بين النفختين مطراً أربعين، وأنهم ينبتون عند ذلك، ويصيرون أحياء^(٢). فإذا أراد الله أن يبعثهم أمطر السماء عليهم حتى تنشق عنهم الأرض كما ينشق الشجر عن النور والثمر، ثم يرسل الأرواح فتعود كلُّ روحٍ إلى جسدها^(٣).

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤١/٥).

(٢) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) بطوله وفيه: "ثم يرسل الله أو قال: ينزل الله مطراً كأنه الطلُّ أو الظلُّ، فتنبت منه أجساد الناس" أخرجه مسلم في كتاب الفتن. باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض، حديث رقم (٢٩٤٠)، (ص: ١١٨٠)، ينظر: معارج القبول: حافظ الحكمي (٧٩٧/٢).

(٣) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥١٨/٥).

والقول الثاني: أَنَّ التشبيه إِنَّمَا وقع بأصل الإحياء بعد أن كان ميتاً والمعنى: أَنَّ الله كما أحيا هذا البلد بعد خرابه فانبت فيه الشجرة وجعل فيه الثمر، فكذلك يحيي الموتى بعد أن كانوا أمواتاً؛ لأنَّ من يقدر على إحداث الجسم، وخلق الرطوبة والطعم فيه فهو أيضاً يكون قادراً على إحداث الحياة في بدن الميت، والمقصود منه إقامة الدلالة على أَنَّ البعث والقيامة حق^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أَنَّ الله يخلق الأشياء بالأسباب، فالقوى التي جعلها الله في الحيوان والجماد هي من الأسباب التي بها يحدث الحوادث.

٢. أَنَّ الله خالق كلِّ شيءٍ بمشيئته وقدرته، وأتته ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٣. قدرة الله نافذة ومطلقة.

ويدلُّ على هذا المقصد العقدي قوله

المقصد الثالث: الأمثال القرآنية^(٣) تقريباً للمعاني وتجسيداً للحقائق

ويدلُّ على هذا المقصد التربوي الجليل قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي

خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٤):

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ: أي: الأرض الكريمة التربة التي لا سبخة ولا حرة، واستعمال البلد بمعنى القرية عرف طار، ومن قبيل ذلك إطلاقه على مكَّة المكرمة. والبلد: المكان المحيط المحدود المتأثر باجتماع قُطَّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بلاد وبلدان.

الطَّيِّبُ: أصلُ الطَّيِّبِ: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفْسُ. والطَّيِّبُ ضدُّ الخبيث، والطَّيِّبُ من الإنسان مَنْ تَعَرَّى مِنْ نَجَاسَةِ الْجَهْلِ وَالْفِسْقِ وَقَبَائِحِ الْأَعْمَالِ، وَتَحَلَّى بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ. وَطَيَّبَتْهُ مَدِينَةُ الرَّسُولِ (ﷺ) وَالطَّيِّبُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ: الْمُسْتَلَذُّ، وَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ: الْحَلَالُ،

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤٩/١٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: السفاريني (١٥١/١).

(٣) المثل: هو القول السائر وفق الحال التي ضرب لها، ولا بُدُّ فيه من غرابة. ينظر: عمدة الحفاظ: السمين الحلبي (٦٨/٤).

(٤) مقاييس اللغة: ابن فارس (٤٣٥/٣)، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٢/٥)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ١٤٢، ٥٢٧)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤٢٩/٢)، (٢٢٦/١)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥٠٠/٤٠٢، ٧/٣)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الألوسي (٢١٩/٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٨٦/٨)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥١/١٤)، وصفوة التفاسير: الصابوني (٤٤٩/١)، و معارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٣١٢/٤)، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة: محمود الطناحي (٤٢٦/١).

وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ لِرُؤْمِ التَّكْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ إِشَارَةٌ إِلَى الْأَرْضِ الرَّيِّبَةِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى تَدْبِيرِ أَحَدٍ فِيهَا، وَالطَّيِّبُ: هُوَ الْجَيِّدُ التَّرَابِ الْكَرِيمِ الْأَرْضِ. حَبْتُ: الْخَبِيثُ هُوَ السَّبَاحُ وَنَحْوُهَا مِنْ رَدِيءِ الْأَرْضِ.

نَكِدًا: مَصْدَرُ نَكَدَ الشَّيْءُ إِذَا كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ يَجْزُ عَلَى مَسْتَعْمَلِهِ شَرًّا، وَالنَّكَدُ الشَّيْءُ الْعَسِيرُ الْقَلِيلُ الَّذِي لَا يَنْفَعُ، الْمَمْتَنِعُ مِنْ إِعْطَاءِ الْخَيْرِ عَلَى جِهَةِ الْبُخْلِ، وَالنَّكَدُ: وَاللُّؤْمُ وَقِلَّةُ الْعَطَاءِ. نُصْرَفُ: أَصْلُ التَّصْرِيفِ تَبْدِيلُ حَالٍ بِحَالٍ، وَمِنْهُ تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ، التَّصْرِيفُ شَرْعًا: التَّدْبِيرُ وَالتَّوَجِيهُ وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّنْوِيعُ، وَاتِّخَاذُ مَخْتَلَفِ الْوُجُوهِ الْمُمْكِنَةِ لِتَحْقِيقِ الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ.

الآيَاتِ: هِيَ آيَاتُ اللَّهِ الْكُونِيَّةُ الدَّالَّاتُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، إِذْ جَاءَتْ بَيَانًا لِسُنَّةِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ عَنْ أَنْوَاعِ الْأَرْضِ، وَآيَاتِ اللَّهِ: أَيُّ: الدَّالَّةُ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ. يَشْكُرُونَ: الشُّكْرُ عَلَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ: شُكْرُ الْقَلْبِ، وَهُوَ: الْإِعْتِقَادُ الْجَازِمُ بِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّ النِّعَمِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وَشُكْرُ اللِّسَانِ، وَهُوَ: إِظْهَارُ النِّعْمَةِ بِالذِّكْرِ لَهَا وَالثَّنَاءِ عَلَى مُسَدِّهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وَشُكْرُ الْعَمَلِ، وَهُوَ: إِدَابُ النَّفْسِ بِالطَّاعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

ثانيًا: المعنى الإجمالي للآية^(١):

يقول الله تعالى: والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحيا، بإذنه، طيباً ثمرة في حينه ووقته، والذي حبت فردوت تربته، وملحت مشاربه، لا يخرج نباته إلا نكداً أي: إلا عسراً في شدة. ثم يقول: كذلك التصريف في أقسام الأرض؛ إذ جعلناها أنواعاً مختلفة، نصرف في كل الآيات المُنْبِتَّةِ فِي الْكُونِ، فَلَا نَجْعَلُ كُلَّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِنَا صِنْفًا وَاحِدًا، وَهَذَا مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، لِكُلِّ مَا خَلَقَ مِنْ كَوْنِهِ.

ثالثًا: المناسبة في الآيات القرآنية:

أ- مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ آيَةٌ مُتَمِّمَةٌ لِلْمَعْنَى الْأُولَى فِي الْآيَةِ قَبْلِهَا، مُعْرِفَةٌ بِعَادَةِ اللَّهِ فِي إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثلاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد به ذلك، ولكن قال غير واحد: هو مثال لفهيم وللبلد^(٣).

(١) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥/٥١٨)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٤/٣١٢).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٨٤).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٢).

فالآية هي جملة معترضة بين آية: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وبين آية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩] تتضمن تفصيلاً لمضمون آية: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] إذ قد بين فيها اختلاف حال البلد الذي يصيبه ماء السحاب، دعا إلى هذا التفصيل أنه لما مثل إخراج ثمرات الأرض بإخراج الموتى منها يوم البعث تذكيراً بذلك للمؤمنين، وإبطالاً لإحالة البعث عند المشركين، مثل هنا باختلاف حال إخراج النباتات من الأرض اختلاف حال الناس الأحياء في الانتفاع برحمة هدى الله، ولذلك ذيلت هذه الآية بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ كما ذيل ما قبله بقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. والمعنى: كذلك نخرج الموتى وكذلك ينتفع برحمة الهدى من خلقت فطرته طيبة قابلة للهدى كالبلد الطيب ينتفع بالمطر، ويحرم من الانتفاع بالهدى من خلقت فطرته خبيثة كالأرض الخبيثة لا تنتفع بالمطر فلا تنبت نباتاً نافعاً.

ب- مناسبة هذه الفاصلة القرآنية لصدر الآية^(١):

إن من الأرض ما هي طيبة لزراعة صنف من أصناف النباتات، لكنها ليست كذلك لزراعة صنف آخر، وإن الأرض السبحة التي لا يخرج فيها النبات إلا خروجاً نكداً عسيراً، قد تكون صالحة ذات نفع عظيم لمصالح أخرى يحتاج إليها الناس، غير حاجتهم لاستنبات الزروع، واستخراج الثمار، فالتنوع في الأرض اختيار في الخلق اقتضته حكمة مطابقة المخلوقات المتنوعة، للحاجات المتنوعة لدى الأحياء، ولا سيما الناس، وهذا من نعم الله على عباده، ونعم الله على العباد تستوجب منهم أن يشكروه، فقال: ﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: مثل ذلك التصريف في أنواع الأرض والتنوع فيها، نُصْرَفُ ونُتَوَّعُ الْآيَاتِ في كل أشياء الكون، لتكون دلائل على الرحمة بهم، والعناية بتهيئة مطالب حياتهم المختلفة والمتنوعة، أما المؤمنون الذين لديهم الاستعداد لشكر الله على نعمه، فهم الذين يستفيدون من ملاحظة هذه الآيات، ويسعون أنافاً لأداء واجب شكر الله على نعمه، وفضله على عباده، وإنما ختم هذه الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ لأن الذي سبق ذكره هو أن الله يحرك الرياح اللطيفة النافعة ويجعلها سبباً لنزول المطر الذي هو الرحمة ويجعل تلك الرياح والأمطار سبباً لحدوث أنواع النبات النافعة اللطيفة اللذيذة، فهذا من أحد الوجهين ذكر الدليل الدال على وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته، ومن الوجه الثاني تنبيهه على إيصال هذه النعمة العظيمة إلى العباد فلا جرم كانت من حيث إنها دلائل على وجود الصانع وصفاته آيات ومن حيث إنها نعم يجب شكرها.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٥٢/١٤)، ومعارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٣١٣/٤).

رابعاً: لطائف بلاغية بيانية في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ كناية عن النفوس الطاهرة الزكية، ويعكسه عن النفوس

النجسة الخبيثة، وهو مثل ضرب للكفار كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها بركة.

اللطيفة الثانية: الطيب في الآية ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ وصف على وزن فِعِل وهو صيغة تدل على

قوة الوصف في الموصوف، وهو المتَّصف بالطيب، والبلد الطيب الأرض الموصوفة بالطيب،

وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النباتات الصالح وللزرع والغرس النافع وهي الأرض النقية.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ المراد به أمر العناية به ليدل على تشريف ذلك النبات،

والمعنى: البلد الطيب يخرج نباته طيباً زكياً مثله، وقد أشار إلى طيب نباته بأنَّ خروجه بإذن

ربه، فأريد بهذا الإذن إذن خاص هو إذن عناية وتكريم، وليس المراد إذن التقدير والتكوين فإنَّ

ذلك إذن معروف لا يتعلّق الغرض ببيانه في مثل هذا المقام، فخصَّ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ مدحاً وتشريفاً.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿وَالَّذِي خَبَثَ﴾ حملة جميع المفسرين على أنه وصف للبلد، أي: البلد

الذي خبث وهو مقابل البلد الطيب، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلا نباتاً لا ينفع، ولا يسرع

إنباتها، مثل السباح، وحملوا ضمير ﴿يَخْرُجُ﴾ على أنه عائد للنبات، والتقدير: والذي خبث لا

﴿يَخْرُجُ﴾ نباته إلا نكداً، فحذف المضاف في التقدير، وهو نبات، وأقيم المضاف إليه مقامه.

اللطيفة الخامسة: في الآية احتباك، إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر

الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر، والتقدير: والبلد الطيب

يخرج نباته طيباً بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكداً من البلد الخبيث، وهذا دقيق بليغ.

اللطيفة السادسة: دلّ قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ على أنّ كل ما يعمله المؤمن من خيرٍ وطاعة لا يكون

إلا بتوفيق الله.

اللطيفة السابعة: التعبير أولاً بـ ﴿الطَّيِّبُ﴾ وثانياً بـ ﴿الَّذِي خَبَثَ﴾ دون الخبيث للإيذان بأنَّ

أصل الأرض أن تكون طيبة منبته، وخلافه طارئ عارض.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب

الأصفهاني (ص: ١٤٣)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٥٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الالفاظ: السمين

الطبي (١/٢٢٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٧/٥٠٠)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن

عاشور (٨/١٨٥، ١٨٧)، ومحاسن التأويل: القاسمي (٧/١٥٦)، وصفوة التفاسير: الصابوني (١/٤٥٢). روح

المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الألوسي (٨/٢١٩).

اللطيفة الثامنة: الإشارة بقوله: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ إلى تنويع وتفنن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانية، والدالة أيضاً على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابلية الناس للهدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البين المقرب في جميع ذلك.

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وإنما خصَّ الشاكرين بالذكر؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن، والمراد بهم المؤمنون، تنبيهاً على أنهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأن غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث.

اللطيفة العاشرة: ذكرت فاصلة الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ بعد فاصلة الآية السابقة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ من باب الترفي؛ لأن من تذكر آلاء الله عرف حق النعمة فشكر.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

أ- المثل القرآني تقريباً للمعنى وتجسيداً للحقيقة:

المقصود من هذه الآية التمثيل، وليس المقصود مجرد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر؛ لأن الغرض المسوق له الكلام يجمع أمرين: العبرة بصنع الله، والموعظة بما يماثل أحواله. فالمعنى: كما أن البلد الطيب يخرج نباته سريعاً بهجاً عند نزول المطر، والبلد الخبيث لا يكاد ينبت فإن أنبت أخرج نباتاً خبيثاً لا خير فيه، فالآية مثل ضربته الله للمؤمن، يقول: هو طيب، عمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب، ﴿وَالَّذِي خَبَثَ﴾ ضرب مثلاً للكافر كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث، وبناءً عليه ففي الآية قولان: الأول: أن هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر بالأرض الخيرة والأرض السبخة، وشبهه نزول القرآن بنزول المطر فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار، وأمّا الأرض السبخة فهي وإن نزل المطر عليها لم يحصل فيها من النباتات إلا النزر القليل، فكذلك النفس الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطاعات والأخلاق الحميدة، والنفس الخبيثة الكدرة وإن اتصل به نور القرآن لم يظهر فيه من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل، والقول الثاني: إنما المراد أن الأرض السبخة يقل نفعها وثمرتها، ومع ذلك فإن صاحبها لا يهمل أمرها بل يتعب نفسه في إصلاحها طمعاً منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة، فمن طلب هذا النفع اليسير بالمشقة العظيمة، فلأن يطلب النفع العظيم الموعود به في الدار الآخرة بالمشقة التي لا بد من تحملها في أداء الطاعات كان ذلك أولى.

(١) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥/٥١٩)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٥٠)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٨٤).

ب- التنوع والتصريف ظاهرة كونية وقانون ثابت^(١).

إنَّ ظاهرة التنوع في الأشياء ضِمَّنَ الجنس الواحد، ظاهرةً مُنتشرةً، في كلِّ ما تُشاهدُ من شيءٍ في هذا الكون، وفي النَّوع الواحدِ أصناف، وفي الصنف الواحدِ مختلفات، وما لا يصلحُ لأمرٍ من الأمور يصلحُ لغيره، وحاجاتُ الأحياء كثيرةٌ على مقدار اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف، وإذ كان التنوع والتصريف من نعم الله على عباده في ظاهرات كونه فإنَّ الله يقول: كذلك: تُبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلاً بعد مثلاً، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنُّبهم ما أمرهم بتجنُّبه من سبيل الضلالة، فمِثْل ذلك التصريف البديع نردُّ الآيات الدَّالة على القدرة الباهرة، ونكرها لقوم يشكرون النعم ومنها تصريف الآيات، وشكر ذلك بالتفكر فيها والاعتبار. سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. في الآية مشروعية ضرب المثل، وتشبيه شيء موصوف بصفةٍ بمثله مسلوب الصفة.
٢. في الآية إظهار بلاغة القرآن العالية.
٣. كلُّ شيء يشبَّه بشيءٍ ما فإثماً يشبهه في بعض الأشياء دون بعضٍ، ولا يشبهه من جميع أحواله؛ لأنَّه إذا كان مثله في جميع أحواله كان هو لا غيره.
٤. ضرب الله في هذه الآية مثلاً لما جاء به الرسول من الهدى والعلم بالغيث الذي أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، وأخرى خبيثة قيعان لا تمسك ماء.
٥. أنَّ السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه، وأنَّ النفس الطاهرة يخرج نباتها من المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة بإذن ربِّها والنفس الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدًا قليل الفائدة والخير كثير الفضول والشر.
٦. هذه الآية دالةٌ على أنَّ السعيد لا ينقلب شقياً وبالعكس.
٧. قال غير واحدٍ من أهل العلم الآية مثلاً للفهم وللبليد.
٨. تفاوت النَّاس في أفهامهم ومداركهم وميولهم وغرائزهم، فمنهم العبقريُّ الفذ الذي يبتكر كلَّ جديدٍ، ومنها الغبي الذي يستعصي عليه إدراك بديهي الأمور، وبين المنزلتين درجاتٌ.
٩. ضَرَبَ المِثْلَ لتقريب الصور المعنوية بجعلها في ثوب حسي مقصد تربوية عظيم.

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥١٩)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الألويسي (٨/٢١٩)، ومعارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٤/٣١٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٥١)، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٢)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٢/٩١)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١١/٣٤٢)، وأصواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٤٣)، ومباحث في علوم القرآن: مناع خليل القطن (ص: ٢٧).

المبحث الرابع

الدّراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٩-٦٤)

الإقرار بالنبوات واجبٌ

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأوّل: القصص القرآني تاريخٌ مقدسٌ.

المطلب الثاني: جنس الرّجال أفضل من جنس النّساء.

المطلب الأول: القصص القرآني تاريخ مقدس

وفيه خمسة مقاصد:

المقصد الأول: حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات ضرورية

دلّ على هذا المقصد الرباني قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَرْسَلْنَا: رسل كلمة تدلّ على الانبعاث والامتداد، والرسل: السير السهل والإرسال التوجيه، فإذا بعثت شخصاً في مهمة فهو رسولك، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، وعلى ذلك فالرسل إنّما سموا بذلك لأنهم وُجّهوا من قبل الله، وهم مبعوثون برسالة معينة مكلفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

الآية هذه نذارة من نوح لقومه، دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر.

ثالثاً: مناسبة هذا المقطع القرآني لما قبله^(٣):

هذا المقطع القرآني شروع في ذكر قصص ستة من الرسل وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى (ﷺ)، والمراد من ذكر هذا القصص القرآني هو تنويع أسلوب الدعوة ليشاهد المدعون من كفّار قريش صوراً ناطقة ومشاهدة حياة الأمم سبقت وكيف كانت بدايتها وبم ختمت نهايتها، وهي لا تختلف إلا يسيراً عما هم يعيشونه من أحداث الدعوة والصراع الدائر بينهم وبين نبيهم لعلمهم يتعظون، ومع هذا فالقصص القرآني يقرر نبوة محمد (ﷺ) إذ لو لم يكن رسولاً يُوحى إليه لما تأتى له أن يقصّ من أخبار الماضين ما بهر العقول، كما أنّ المؤمنين مع نبيهم يكتسبون من العبر ما يحملهم على الثبات والصبر، ويجنبهم القنوط واليأس من حسن العافية والظفر والنصر^(٤). والكفار بالرسل من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وموسى ومشركي العرب وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم وأهواءهم ويعرضون عن ذكر الله الذي آتاهم من عنده.

(١) مقابيس اللغة: ابن فارس (٣٩٢/٢)، والرسل والرسالات: عمر سليمان الأشقر (ص: ١٣).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٣/٥).

(٣) نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنّها حقيقة، فلذلك صُرّفت. ينظر: المحرر الوجيز: ابن عطية (٥٤٣/٥).

(٤) أيسر التفاسير لكلام علي الكبير: أبو بكر الجزائري (١٨٧/٨).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: معنى الإرسال في الآية أن الله حملة رسالة يؤديها، فالرسالة على هذا التقدير تكون متضمنة للبعث، فيكون البعث كالتابع لا أنه الأصل.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فيه إشارة إلى سنة الله في إرسال كل رسول من قومه، ولسانهم، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم، وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف، وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة الإلهية، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشرٍ مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة! وإن هي إلا تعلقة، وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى، مهما جاءهم من أي طريق.

اللطيفة الثالثة: أن الله أخبر عن نوح في هذه الآية ثلاثة أشياء: الأول: أن نوحاً أمرهم بعبادة الله، والثاني: أنه حكم أن لا إله غير الله، والمقصود من الكلام الأول إثبات التكليف، والمقصود من الكلام الثاني الإقرار بالتوحيد، ثم قال عقيبه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولا شك أن المراد منه عذاب يوم القيامة، وعلى هذا فهو قد خوفهم بيوم القيامة، وهذا هو الدعوى الثالثة، والحاصل أن الله أخبر عنه أنه ذكر هذه الدعاوى الثلاثة، ولم يذكر على صحة واحدٍ منها دليلاً ولا حجةً، فإن كان قد أمرهم بالإنذار بها على سبيل التقليد، فهذا باطل؛ فالله قد ملأ القرآن من ذم التقليد، فكيف يليق بالرسول المعصوم الدعوة إلى التقليد؟ وإن كان قد أمرهم بالإقرار بها مع ذكر الدليل فهذا الدليل غير مذكور، وقد ذكر الله في أول سورة البقرة دلائل التوحيد والنبوة، وصحة المعاد، وذلك تنبيه منه تعالى على أن أحداً من الأنبياء لا يدعو أحداً إلى هذه الأصول إلا بذكر الحجة والدليل، وأن الله ما أخبر عن نوح تلك الدلائل في هذا المقام إلا أن تلك الدلائل لما كانت معلومة لم يكن إلى ذكرها حاجة في هذا المقام، فترك الله ذكر الدلائل لهذا السبب.

اللطيفة الرابعة: تصوير الصور، وتعظيم القبور كان من أعظم أسباب عبادة الأصنام في بني آدم من عهد نوح؛ لذلك تكره الصلاة في المكان الذي فيه صور؛ لكونها مظنة الشرك، وكان غالب كفر الأمم من جهة الصور؛ فإن الشرك في قوم نوح كان أصله من عبادة الصالحين، أهل القبور ثم صوروا تماثيلهم^(٢).

اللطيفة الخامسة: كان الناس أمةً واحدةً على الإسلام، فلما اختلفت بنو آدم وحدث فيهم الشرك والاختلاف بعث الله النبيين^(٣).

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٥٥/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣٠٨/٣)

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٥٥/٦)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٤٠٩/٩).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢٥٨/٢)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن

حجر (٦١٨/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٣/٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٧/٢).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ الإيمان بالرُّسل يجب أن يكون جامعاً عاماً مؤتلفاً لا تفريق فيه، ولا تبعض ولا اختلاف؛ بأنَّ يؤمن بجميع الرُّسل وبجميع ما أنزل إليهم. فمن آمن ببعض الرُّسل وكفر ببعض أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر؛ فإنَّه لم يؤمن بجميع المنزل، وطاعة الرُّسل واجبة؛ فإنَّ المسلمون مقرُّون في الأصل بكمال الرسالة والنبوة، ووجوب الاعتصام بالرسالة، وبيان أنَّ السعادة والهدى في متابعة الرسول، وأنَّ الضلال والشقاء في مخالفته، وأنَّ كلَّ خيرٍ في الوجود، إمَّا عام، وإمَّا خاص فمنشؤه من جهة الرسول، وأنَّ كلَّ شرٍ في العالم مختصُّ بالعبد فسببه مخالفة الرسول، أو الجهل بما جاء به، وأنَّ سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة، والرسالة ضروريةٌ للعباد لا بدُّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلِّ شيءٍ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته والدُّنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، فالرسالة الإلهية ضروريةٌ في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنَّه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودينه إلا باتباع الرسالة؛ فإنَّ الإنسان مضطَّر إلى الشرع؛ فإنَّه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه؛ وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس؛ فإنَّ ذلك يحصل للحيوانات العجم؛ فإنَّ الجمار والجمل يميز به بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده كنفع الإيمان والتوحيد؛ والعدل والبر والتصديق والإحسان، والأمانة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإخلاص العمل لله والتوكل عليه، والاستعانة به، والتسليم لحكمه والانقياد لأمره، والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه، وتصديق رسله في كلِّ ما أخبروا به؛ وطاعته في كلِّ ما أمروا به؛ مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته؛ وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته، ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منَّة عليهم أنَّ أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبيَّن لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، فالرُّسل هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق، وهم إنَّما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٠/١٢)، (٩٩.٩٣/١٩) والرُّسل والرسالات: عمر سليمان الأشقر (ص: ٢٩).

تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣٧٧/١)

الحكمة من إرسال الرُّسل^(١):

النفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به الرسول واتباعه منها إلى الطعام والشراب؛ فإنَّ هذا إذا فات حصل الموتُ في الدُّنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب، فحقَّ على كلِّ أحدٍ بذلَّ جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به الرسول وطاعته؛ إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم، والسعادة في دار النعيم، والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل، بل كما أنَّ نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة، فلهذا كان تبليغ الدِّين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجباً على جميع الأنام، فالحكمة التي وراء إرسال الرُّسل والتي على أساسها يمكن تبرير إرسالهم إلى النَّاس، تقوم على أساس تفرُّد الله بالربوبية والألوهية، فهو ربُّ العالمين وإلههم، فلا ربَّ لهم سواه، ولا إلهَ لهم غيره، ومن لوازم ربوبيته وألوهيته قيامه بتدبير شؤون خلقه، والتكفُّل بمصالحهم وما يصلح لهم ويصلحون به، والتصرف فيهم بالأمر والنهي، ولا شكَّ أنَّ الإنسان لا يحتاج فقط إلى الغذاء ونحوه مما هو ضروري لإدامة حياته الجسدية، وإنَّما هو بحاجة وضرورة إلى ما يفي بحاجات روحه التي امتاز بها عن غيره، وإلى ما يوصله إلى الكمال اللائق به، وعلى هذا فأهمُّ مصالح الإنسان على الإطلاق إبلاغه السعادة والكمال المقدر له بتعريفه بخالقه ومعبوده، وطريق الوصول إليه، ووضعَه على الصراط المستقيم الذي لا يضل فيه ولا يشقى، وحيثُ إنَّ الإنسان بنفسه لا يستطيع أن يعرف هذه الأمور على وجه صحيح سالم من الخطأ؛ لأنَّها فوق قدرة العقل، فقد اقتضت حكمة الربِّ ورحمته بالإنسان أن يرسل للبشر رسلاً من جنسهم، يكلمونهم بلغتهم، ويبلغونهم رسالات ربِّهم، ويعرفونهم به، ويبينون لهم طرق الوصول إليه، وما يسعدون به في حياتهم وأخراهم، ولهذا كان من لوازم الإيمان بالله رباً وإلهاً الاعتقاد برسول الله، وأنَّ إنكار رسله يتضمن الجهل بالله وتنقيصه وعدم تقديره حقَّ قدره، ومن هنا يعلم اضطراب العباد فوق كلِّ ضرورةٍ إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنَّه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدُّنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرُّسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزانُ الراجحُ الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، فأبي

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٨/١)، وأصول الدعوة: عبد الكريم زيدان (ص: ٢٧).

ضرورة حاجة فُرِضَتْ، فضرورةُ العبد وحاجته إلى الرُّسل فوقها بكثيرٍ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرُّسل كحال الحوت إذا فارق الماء، بل أعظمُ^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنَّ البشرية في حاجةٍ ماسةٍ إلى تعاليم الرسالة السماوية، فحاجتها إليها أشد من حاجتها إلى الطعام والشراب.
٢. أنَّ إرسال الرُّسل وإنزال الكتب من أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصاً محمداً (ﷺ)، فالواجبُ اتباعُ المرسلين، واتباع ما أنزله الله عليهم.
٣. أنَّ العباد في ضرورة وحاجة ملحةٍ إلى الرسالة؛ لأنَّ فيها الهداية لكل خيرٍ وإحسانٍ.
٤. أنَّ نوحَ (ﷺ) أوَّل رسولٍ إلى أهل الأرض.
٥. الإيمان بالرُّسل أصلٌ من أصول الإيمان.
٦. الآية ردُّ على مَنْ زعم أنَّ إرسال الرُّسل عبثٌ، لا يليق بالحكيم؛ لإغناء العقل عن الرُّسل.

المقصد الثاني: القصص القرآني حقائق تاريخية، وقيم إيمانية

دلَّ عليه قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]

أولاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

أقسم الله للمخاطبين بهذه الآية: أنَّه أرسل نوحاً إلى قومه، منذرهم بأسه، ومخوِّفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العباد، ودلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنَّه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادَةَ غيره، فإنِّي أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك عذابَ يومٍ يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربكم.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٦٨/١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٢١٦، ٢١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٧١٢)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (٢/٢٥٦)، والرُّسل والرسالات: عمر سليمان

الأشقر (ص: ١٥، ٣٤).

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥٢٠).

ثانياً: بيان المقصد في الآية^(١):

١. نوحٌ أولُ رسولٍ إلى أهل الأرض.

وبالجملة فنوحٌ (ﷺ) إنما بعثه الله لما عبدت الأصنام وشرع النَّاس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمةً للعباد، فكان أولَ رسولٍ بعث إلى أهل الأرض، كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة، والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض، وعمَّ البلاء بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحاً يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في الصحيح في حديث الشفاعة الطويل: "قال فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أولُ الرُّسلِ إلى أهل الأرض"^(٢). فلما بعث الله نوحاً دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحْدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، كما أمر الله من بعده من الرُّسل الذين هم كلُّهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصَّافَات: ٧٧] فكلُّ من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى نوح. وقد أغرق الله عام الطوفان جميع ذرية آدم إلا من في السفينة، وأهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح، وجميع النَّاس من أولاده، لذلك يخبر الله أنه منذ بعث نوحاً لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشرٍ من بعده، إلا وهو من سلالة^(٣)، وقد أفرد الله لنوح سورةً كاملةً في القرآن لحكمة، وهي طول لبثه (ﷺ) في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك^(٤).

ب- القصص القرآني حقائق تاريخية، وقيم إيمانية^(٥):

لا يُساق القصص القرآني لمجرد حكايات تُروى، ولكنه لمسات وإبحاءات مقدرة تقديراً. فالقرآن الكريم دستورٌ ثقافي شامل، وتبيان لكلِّ شيء يوضح كلَّ ما يحتاجه المسلمون مما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة، ويعرفنا كيف نعيش، وكلُّ ذلك نجده في قصص الأنبياء وتجاربهم، فهي خلاصة الحياة البشرية. فمن رحمة الله بالإنسان أن لا يتركه وحده، لذلك في سورة الأعراف نلتقي بموكب الإيمان، يرفع أعلامه رسل الله الكرام: نوح. وهود. وصالح. ولوط. وشعيب. وموسى. ومحمد (ﷺ) ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كلِّ زمان. كما نشهد

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (١٠٠ - ١٢٠)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٣/١).

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٣٤٠)، (ص: ٣٩٦).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٩٣/٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣١٥/٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٩٧٢).

(٥) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٨١٩/٣)، وصناعة الثقافة: طارق السويدان، ويفصل باشرا حيل (٥١/١).

مواقف التدافع بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، وبين الرُّسل الكرام وشياطين الجنِّ والإنس، ثم نشهد مصارع المكذِّبين في نهاية كلِّ مرحلةٍ، ونجاة المؤمنين، بعد الإنذار والتذكير، والقصص في القرآن لا يتبع دائماً ذلك الخط التاريخي، ولكنه في سورة الأعراف يتبع هذا الخط، ذلك أنَّه يعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى، ويعرض موكب الإيمان، وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضلَّ تماماً عن معالم الطريق، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم، إنَّ هذا القصص القرآني يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر، ويعرض أنموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان، وأنموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للكفر، وإنَّ الذين آمنوا بكلِّ رسولٍ لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله، ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليلبغهم وينذرهم. فأما الذين كفروا بكلِّ رسولٍ فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم الله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم^(١).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. أنَّ في القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا.
٢. أنَّ الهدف من إيراد قصص الأنبياء التنبيه على أنَّ إعراض النَّاس عن قبول دعوة الأنبياء ليس مقتصراً على قريش قوم محمد (ﷺ)، بل هذا موقف متبع في جميع الأمم السابقة، والمصيبة إذا عمت خفت، وفي ذلك تسلية للرسول وتعزية وتخفيف على قلبه.
٣. في القصص بيان العاقبة، عاقبة المنكرين وهي اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة، وعاقبة المؤمنين، وهي العزة في الدنيا والسعادة في الآخرة.
٤. في إيراد القصص التنبيه إلى أنَّ الله وإنَّ كان يُمهِّل هؤلاء المبطلين، فلا يهملهم، بل ينتقم منهم، وفي هذا من العظة والعبرة للأجيال ما يكفي.
٥. وفي سرد القصة من غير تحريفٍ ولا خطأ دليل على نبوة محمد (ﷺ) الذي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، إذ يدلُّ ذلك على أنَّه إنَّما عرف القصة بالوحي من الله، مما يدلُّ على صحة نبوته^(٣).

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٦، ١٣٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٥/١٧٩).

(٣) التفسير المنير: وهبة الزحيلي (٨/٢٤٩)، وأيسر التفاسير: أسعد حومد (١/١٠١٤).

المقصد الثالث: إفراد الله بالعبودية دعوة الأنبياء جميعاً

ويدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

لَقَدْ أَرْسَلْنَا: أي: وعزتنا لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه كما أرسلناك أنت يا محمد إلى قومك من العرب والعجم، فقد أقسم الله تعالى أنه أرسل نوحاً.

نُوحًا: نوح هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، وما قيل من أن إدريس قبل نوح (عليه السلام)، فإنه وهم لا دليل عليه، فإدريس ليس من أجداد نوح، ولم يكن جداً لنوح، وإنما هو من بني إسرائيل. ونوح هو أبو الأدميين الذين حدثوا بعد الطوفان، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح، ونوح هو أول الرسل وهو أحد أولى العزم الخمسة من الرسل عاش داعياً وهادياً ومعلماً ألف سنة إلا خمسين عاماً^(٢).

اعْبُدُوا: العبادة: أصل معناها الذل والخضوع، يقال: طريق معبد إذا كان مُدلاً قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له، فمن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، والعبادة شرعاً: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة^(٣).

إِلَهِ: من (أله) وهو أصل واحد، وهو التعبُد، فالإله الله، وسمي بذلك؛ لأنه معبود، ويقال: تأله الرجل: إذا تعبد، وفسر الإله بالمعبود الحق، فالإله اسم جنس لكل معبود، ثم استعمل في المعبود بحق. وليس كمن زعم أن الإله هو الرب الخالق؛ فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية، وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يؤلهون مع الله غيره، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله^(٤).

(١) جامع البيان في تأويل أي القرآن: الطبري (٥/٥٢٠)، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٣)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢/٢٤٢)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٨٨). فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٧/٦٢١). فتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٥).
(٢) المحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٣)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١/١١٥)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٧)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٨٧).
(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٠/١٤٩. ١٥٣)، ومقاييس اللغة: ابن فارس (١/١٢٧)، والقاموس المحيط: الفيروز آبادي (ص: ١٦٠٣)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد بن عبدالعزيز الشايع (ص: ١٣٨).
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٣/٤٥٢).

أَخَافُ: الخَوْفُ شرعاً: انفعالٌ في النَّفسِ يَحْدُثُ عند تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ قَادِمٍ، أو تَوَقُّعِ قَوَاتٍ مَحْبُوبٍ أو مَرغُوبٍ فِيهِ^(١). فقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن لم تَؤْمِنُوا، وهو وَعِيدٌ وَبَيَانٌ لِلدَّاعِي إِلَى عِبَادَتِهِ، وَالْيَوْمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَالْمَعْنَى: أَنذَرَهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ هُمْ أَصْرُوا عَلَى الشَّرِكِ وَالْعَصِيانِ^(٢).

إِلَى: حَرْفٌ جَرٌّ، مَعْنَاهُ انْتِهَاءُ الْغَايَةِ، وَهُوَ يَدْخُلُ مَا بَعْدَهَا فِي مَا قَبْلَهَا.

عَذَابٌ: يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ عَذَابَ الدُّنْيَا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ عَذَابَ الْآخِرَةِ^(٣).

ثَانِيًا: مَنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا^(٤):

لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَبَدِيعَ صَنْعَتِهِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَذَكَرَ هُنَا أَقَاصِيصَ الْأُمَمِ وَمَا فِيهَا مِنْ تَحْذِيرِ الْكُفَّارِ وَوَعِيدِهِمْ لِتَنْبِيهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى الصَّوَابِ، وَأَنْ لَا يَقْتَدُوا بِمَنْ خَالَفَ الْحَقَّ مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ، وَهَذِهِ الْقِصَصُ حَلْقَةٌ مِنْ سُلْسَلَةٍ طَوِيلَةٍ اسْتَعْرَقَتْ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ السُّورَةِ وَقَدْ جَاءَتْ عَقِبَ فُصُولٍ اِحْتَوَتْ إِذْكَارًا وَتَنْذِيرًا بِالْكَفَّارِ وَتَنْوِيهًا وَتَثَاءً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَصُورًا لِمَصَائِرِ الْفَرِيقَيْنِ وَبِرَاهِينٍ عَلَى عِظَمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَشُمُولِ مَلَكِهِ، جَرِيًّا عَلَى الْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ فِي إِيرَادِ الْقِصَصِ بَعْدَ مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ، فَالسُّلْسَلَةُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ مُتَّصِلَةٌ بِمَا سَبَقَهَا اتِّصَالَ تَعْقِيبٍ وَاسْتِطْرَادٍ وَتَمَثِيلٍ وَتَذْكَيرٍ وَعِظَةٍ، وَبِنَاءٍ عَلَيْهِ فُوجِهَ اتِّصَالَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ اسْتِنْتَفَافٌ انْتَقَلَ بِهِ الْغَرَضُ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْمُنَّةِ الْمَبْتَدِئَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وَتَنْبِيهُ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَنَّهُمْ غَارِقُونَ فِي كَيْدِ الشَّيْطَانِ، الَّذِي هُوَ عَدُوٌّ نَوْعِهِمْ، ثُمَّ التَّهْدِيدُ بِوَصْفِ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَأَحْوَالِ النَّاسِ فِيهِ، وَمَا تَحَلَّلَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالتَّعْرِيفِ إِلَى غَرَضِ الِاعْتِبَارِ وَالمَوْعِظَةِ بِمَا حَلَّ بِالأُمَمِ المَاضِيَةِ، فَهَذَا الِاسْتِنْتَفَافُ لَهُ مَزِيدُ اتِّصَالٍ بِقَوْلِهِ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وَقَدْ أَفِيضَ الْقَوْلُ فِيهِ فِي مَعْظَمِ السُّورَةِ وَتَنَبَّأَ هَذَا الِاعْتِبَارُ أَغْرَاضَ أُخْرَى، وَهِيَ تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ، وَتَعْلِيمُ أُمَّتِهِ بِتَارِيخِ الْأُمَمِ الَّتِي قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَمِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، لِيَعْلَمَ الْمَكْذِبُونَ مِنَ الْعَرَبِ أَنَّ لَا غَضَاظَةَ عَلَى مُحَمَّدٍ (ﷺ)، وَلَا عَلَى رِسَالَتِهِ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ، وَلَا يَجْعَلُهُ ذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، بَلْهُ أَنْ يُؤَيِّدَ زَعْمَهُمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ صَادِقًا فِي رِسَالَتِهِ لِأَيِّدِهِ اللهُ بِعِقَابِ مَكْذِيبِيهِ، وَلِيَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَغَيْرَهُمْ أَنَّ مَا لَقِيَهِ مُحَمَّدٌ (ﷺ) مِنْ قَوْمِهِ هُوَ شَنْشَنَةٌ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ تَلْقَاءُ دَعْوَةِ

(١) معارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٣٢١/٤).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٣/١)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٨٨/٨).

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١١١/١)، والمحرم الوجيز: ابن عطية (٥٤٣/٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٣/٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٥/٢)، والتفسير الحديث: محمد عزة

دروزة (٤١٧/٢)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (١٨٧/٨).

رسل الله، وأيضاً في الآية مناسبة لما قبلها أنه بعد أن ذكر الله قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه، شرع الله في سرد وذكر قصص الأنبياء الكرام الأوّل فالأوّل، فابتدأ بنوح الذي هو أبو البشر الثاني، ولأنّه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم، وقد تنبّه سيد قطب إلى مناسبة رائعة بين هذا المقطع القرآني وما قبله من الآيات، فقال: "إنّ موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته رسل الله الكرام، مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله، ففي الآيات السابقة مباشرة تقرر أنّ الدينونة لهذا الإله، الذي خلق السموات والأرض، والذي استوى على العرش، والذي يحرك الليل ليطلب النّهار، والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، والذي له الخلق والأمر، فإنّ العبودية لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرّسل كافة، هي التي يدعون إليها البشرية كلها، والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه، والإسلام لله الذي أسلم له الكون كلّهُ، والذي يتحرك مسخراً بأمره، ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيلاً بأنّ يهز القلب البشري هزاً، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة، فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كلّهُ! إنّ الرّسل الكرام لا يدعون البشرية لأمرٍ شاذٍ؛ إنّما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله، وإلى الحقيقة المركوزة في فطرة البشر والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات، ولا يقودها الشيطان بعيداً عن حقيقتها الأصيلة"^(١). وهذه هي اللمسة البيانية المستفادة من تتابع السياق القرآني في سورة الأعراف على النحو الذي تتابع به.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

بعد أن ذكر الله الإنسان ومعادَه وأن مرده إلى الله في يوم تُجازى فيه كلُّ نفس بما كسبت، قفّى على ذلك بذكر قصص الأنبياء مع أمهم وإعراضهم عن دعوتهم، ليبين للرسول أنّ الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس ببِدع في قومك، بل سبق به أقوامٌ كثيرون، وفي ذلك تسليّة له (ﷺ) إلى ما فيه من التنبيه إلى أنّ الله لا يُهمل أمرَ المبطلين، بل يُمهّلهم، وتكون العاقبة للمتقين، ومن العظة والاعتبار بما حلّ بمن قبلهم من النكال والوبال.

رابعاً: لطائف تفسيرية ونكات بلاغية في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: أكّد الله هذه الآية بلام القسم وحرف التّحقيق: ﴿لَقَدْ﴾؛ لأنّ الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذّبة رسلها بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمّد (ﷺ) وكثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القسم بـ ﴿قَدْ﴾؛ لأنّ القسم يُهيئ نفس السّامع لتوقع خبر

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٧).

(٢) تفسير المراغي (٣/٢٢٥).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٨٨)، ومجالس قرآنية: عويض بن حمود العطوي (ص: ٧٩).

مهم، فيؤتى بـ ﴿قَدْ﴾، لأنها تدلُّ على تحقيق أمرٍ متوقَّعٍ، والثَّوَقُّ قد يكون توقُّعاً للمخبر به، وقد يكون توقُّعاً للخبر كما في الآية، وإنما كان كذلك؛ لأنَّ الجملة القسمية لا تُساق إلا تأكيداً للجملة المُقسَم عليها التي هي جوابها، فكانت مَظِنَّة لمعنى التَّوَقُّع الذي هو معنى ﴿قَدْ﴾ عند استماع المخاطب كلمة القسم، و﴿لَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع (قد)؛ لأنها مَظِنَّة التَّوَقُّع، فإنَّ المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها^(١).

اللطيفة الثانية: كان قومُ نوحٍ يسكنون الجزيرة والعراق، حسب ظن المؤرِّخين، وعبر عنهم القرآن بطريق القومية المضافة إلى نوحٍ إذ لم يكن لهم اسمٌ خاصٌّ من أسماء الأمم يعرفون به، فاللتعريف بالإضافة في الآية لأنها أخصر طريق.

اللطيفة الثالثة: عطف جملة ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ على جملة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالفاء إشعاراً بأنَّ ذلك القول صدرَ من نوحٍ بغير إرساله، فهي مضمون ما أرسل به.

اللطيفة الرابعة: خاطب نوح قومَه كلَّهم، بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ لأنَّ الدعوة لا تكون إلا عامَّة لهم، وعبر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بأصرة القرابة، ليتحقَّقوا أنَّه ناصحٌ ومريدٌ خيرهم ومشفقٌ عليهم، وأضاف ﴿قَوْمِ﴾ إلى ضميره للتحيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم.

اللطيفة الخامسة: في قول نوح لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ إبطالٌ للحالة التي كانوا عليها، وهي تحتمل أن تكون حالة شرك، وتحتمل أن تكون حالة وثنية باقتصارهم على عبادة الأصنام دون الله، وآيات القرآن صالحة للحالين، والمنقول في القصص أنَّ قومَ نوحٍ كانوا مشركين.

اللطيفة السادسة: قول نوح لهم: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بيانٌ للعبادة التي أمرهم بها، أي أفردوا الله بالعبادة دون غيره، إذ ليس غيره لكم بالإله، وهي جملةٌ في حكم العلة لقوله: ﴿اعْبُدُوا﴾، أي: اعبدوه؛ لأنه لم يكن لكم إلهٌ غيره حتَّى يستحقَّ منكم أن يكون معبوداً^(٢). وقد ذكر أولاً قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وثانياً قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ والثاني كالعلة للأول؛ لأنه إذا لم يكن لهم إلهٌ غيره كان كلُّ ما حصل عندهم من وجوه النفع والإحسان والبر واللطف حاصلًا من الله، ونهاية الإنعام توجب نهاية التعظيم، فإنَّما وجبت عبادة الله لأجل العلم بأنَّه (لا إله إلا الله) ويتفرع على هذا القول أن العلم بالتوحيد شرطٌ للعلم بحسن العبادة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٥٣/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٣/١)، والتحرير والتنوير:

ابن عاشور (١٨٩، ١٨٨/٨)

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٥٦/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٥/٢).

اللطيفة السابعة: ظاهر الآية يدلُّ على أنَّ (الإله) هو الذي يستحق العباداة؛ لأن قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إثباتٌ ونفيٌّ، فيجب أن يتواردا على مفهومٍ واحدٍ حتى يستقيم الكلام، فكان المعنى: اعبدوا الله ما لكم من معبودٍ غيره، حتى يتطابق النفي والإثبات.

اللطيفة الثامنة: قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في موقع التعليل، أي لمضمون قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ كأنه قيل: اتركوا عبادة غير الله خوفاً من عذاب يوم عظيم فالفاصلة هذه متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة. أي: إن لم تعبدوه، فإني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة. ويُبنى نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم، دلالة على إحاضه التُّصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتَّى جعل ما يُضر بهم كأنه يُضرُّ به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم، وذلك لأنَّ قوله هذا كان في مبدأ خطابهم بما أرسل به، ويحتمل أنه قاله بعد أن ظهر منهم التَّكذيبُ: أي: إن كنتم لا تخافون عذاباً فإني أخافه عليكم، وهذا من رحمة الرُّسل بقومهم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ استئناف بعد قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لقصد الإرهاب والإنذار.

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ العذاب المخوف ويومه يحتمل أنَّهما في الآخرة، عذاب النَّار، وهو الصواب؛ لأنَّ جوابهم بأنَّه في ضلالٍ مبينٍ يُشعر بأنَّهم أحوالوا الوحدانية، وأحوالوا البعث فحالهم كحالٍ مشركي العرب؛ لأنَّ عبادة الأصنام تمحض أهلها للاقتصار على أغراض الدنيا. وفي الآية أنَّ ديانة نوح أقدم ديانة وكانت فيها عقيدة الآخرة، عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب^(١).

اللطيفة العاشرة: قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هل هو يقين وجزم أو خوف بمعنى الظن والشك؟ قال قوم: المراد منه الجزم واليقين؛ لأنَّه كان جازماً بأنَّ العذاب ينزل بهم إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة إن لم يقبلوا ذلك الدِّين. وقيل: بل المراد منه الظنُّ، لأنَّه جوِّز أن يؤمنوا كما جوِّز أن يستمروا على كفرهم ومع هذا التجويز لا يكون قاطعاً بنزول العذاب، ولأنَّ حصول العقاب على الكفر والمعصية أمرٌ لا يُعرف إلا بالسمع، ولعل الله ما بيَّن له فلا جرم بقي متوقفاً مجوزاً أنَّ الله هل يعاقبهم على ذلك الكفر أم لا؟ ويحتمل أن يكون المراد من الخوف الحذر، لأنَّه بتقدير أن يكون قاطعاً بنزول أصل العذاب، لكنه ما كان عارفاً بمقدار ذلك العذاب^(٢).

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٥٦/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٥/٢)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (١٩٠/٨)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٣/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣٠٨/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٥٦/١٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٣٤٧/١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

أ- إفراد الله بالعبودية دعوة الأنبياء جميعاً:

إنَّ الله هو ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، فأفراد الله وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدِّين كله لله وحده هذا هو توحيد الألوهية، أي: توحيد العبادة، وهو معنى (لا إله إلا الله)، فتوحيد الألوهية هو مقصود دعوة الرُّسل من أولهم إلى آخرهم؛ لأنَّ الألوهية التي هي صفة تعمُّ أوصاف الكمال، وجميع أوصاف الربوبية والعظمة؛ فإنَّه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والإفضال، فتوحده سبحانه بصفات الكمال، وتقده بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحدٌ سواه، وبناءً عليه فالنَّصارى فيهم الشرك بالله، واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله، والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره، كما أنَّ اليهود من شأنهم التكذيب بالحقِّ، والنَّصارى من شأنهم التصديق بالباطل، فإنَّ اليهود كذبوا بالأنبياء وقد جاءوا بالحقِّ، والنَّصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع؛ كما صدقوا بالتثليث ونحوه من الممتهات، إنَّه لا بُدَّ من عبودية، فإن لم تكن لله وحده تكن لغير الله، والعبودية لله وحده تطلق النَّاس أحراراً كراماً شرفاء أعلیاء، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية النَّاس وكرامتهم وحریاتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية، من أجل ذلك كله تتال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله وفي كتبه، وسورة الأعراف أنموذج من تلك العناية ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تقرير ألوهية الله وربوبيته وحده للعباد، وذلك أنَّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له، التي خلق الخلق لها، وبها أرسل جميع الرُّسل، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وكذلك قال هود وصالح وشُعيب وغيرهم لأقوامهم، فالدِّين كلُّه داخل في العبادة، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له والذل، وقد أخبر الله عن جميع المرسلين أنَّ كلاً منهم يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وعبادته تكون بطاعته وطاعة رسوله، وذلك هو الخير والبرُّ والتقوى والحسنات والقربات والباقيات الصالحات والعمل الصالح، ومعنى الإيمان بالرُّسل هو التصديق الجازم بأنَّ الله بعث في كلِّ أمة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنَّ جميعهم صادقون صادقون بأرون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء هداة مهتدون، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربِّهم مؤيدون، وأنَّهم بلَّغوا جميع ما أرسلهم الله به، لم يكتموا منه حرفاً ولم يغيروه ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم ينقصوه، وأنَّهم كلهم كانوا على الحقِّ المبين والهدى المستبين، وقد اتفقت دعوتهم من أولهم إلى آخرهم في أصل الدِّين وهو توحيد الله بالهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته،

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيميَّة (٢/٢٦٢)، ونور التوحيد وظلمات الشرك: سعيد بن علي

القحطاني (ص: ١٤٠ . ١٩).

ونفي ما يُضاد ذلك أو ينافي كماله، وأمّا فروع الشرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف، لحكمةٍ بالغَةٍ وغايةٍ محمودةٍ قضاها ربُّنا؛ ابتلاءً^(١). إنّ جميع الأمم لم تُرسل إليهم الرُّسل إلا لطلب توحيد العبادة، لا للتعريف بأنّه هو الخالق للعالم، وأنّه ربُّ السموات والأرض؛ فإنّهم كانوا مُقرّين بهذا بباعث الفطرة، ومما سبق يُعلم أنّ المشركين لم يتخذوا الأصنام والأوثان شركاء لله في الربوبية؛ أي: أنّهم ما اعتقدوا فيهم أنّهم شركاء لله في الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، كلا؛ فإنّهم نفوا ذلك بأنفسهم، وإنّما اتخذوهم شركاء لله في العبودية والألوهية؛ فهم مقرّون بأنّ المقصود بالذات هو الله، وأنّهم إنّما عبدوا أوثانهم؛ وسيلةً توصلهم إلى الله، ومعنى عبادة المشركين لأوليائهم وأصنامهم هو أنّهم خصّوهم بنوع من العبادات كالاستغاثة بهم، والنذر، والنحر لهم، وغيرها؛ مما يدلُّ على منتهى الخشوع والخضوع، وهم لم يفعلوا ذلك إلا لاعتقادهم أنّها تقربهم إلى الله، وتشفع لهم لديه، فأرسل الله الرُّسلَ تأمر بترك عبادة كلِّ ما سواه، وأنّ هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، والتقرب إليهم باطل، وأنّ ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهو توحيد العبادة^(٢). يقول ابن القيم: "ولهذا اتفقت دعوة الرُّسل من أولهم إلى آخرهم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأصل العبادة وتامها وكمالها هو المحبّة، وإفراد الربِّ بها، فلا يشرك العبد به فيها غيره"^(٣). وقد أكّد هذا المعنى سيد قطب فقال: "إنّ التركيز في كلّ رسالة كان على أمرٍ واحدٍ هو تعبيدُ النَّاسِ كلهم لربِّهم وحده رب العالمين، ذلك أن هذه العبودية لله الواحد، ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه، هو القاعدة التي لا يقوم شيءٌ صالحٌ بدونها في حياة البشر، ولم يذكر القرآن إلا قليلاً من التفاصيل بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرِّسالات جميعاً؛ ذلك أن كلّ تفصيلٍ في الدِّين، إنّما يرجع إلى هذه القاعدة، ولا يخرج عنها، وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي التي جعلت المنهج القرآني يبرزها ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان، بل في القرآن كله، فإنّ هذا كان هو موضوع القرآن المكي كله، كما كان هو موضوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه، إنّ لهذا الدِّين حقيقةً، ومنهجاً لعرض هذه الحقيقة، والمنهج في هذا الدِّين لا يقلُّ أصالة ولا ضرورة عن الحقيقة فيه، وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية؛ ومن ذلك التوكيد والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة^(٤). إنّ هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيميّة (٢/٢٦٥)، ومجموع الفتاوى: ابن تيميّة (١٠/١٥٠، ١٥٢)، (٢٨/٦١)، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول: حافظ الحكمي (٢/٦٧٧)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٧٥٥).

(٢) أصل صفة صلاة النبي (ﷺ): الألباني (٣/٨٧٨).

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (٢/١٦٥).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٦).

العبودية للعباد، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده، وربوبيته للعالمين، ورفض كل وضع في أرجاء الأرض الحكم ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، ثم إن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، فقد ذكر الله نبيه (ﷺ) باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة^(١).

ب- الدعوة إلى الله وظيفته رسل الله^(٢):

الواقع أن الدعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعاً، ومن أجلها بعثهم الله إلى الناس، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله، وإفراده بالعبادة على النحو الذي شرعه لهم، قال الله مخبراً عن نوح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال عن هود: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] وعن صالح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وعن شعيب: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] وهكذا جميع رسل الله دعوا إلى الله، إلى عبادته وحده، التبرؤ من عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فرسل الله هم الدعاة إلى الله، وقد اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس. فقولهم جميعاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ معناه: أي ليس لكم على الحقيقة إله غير؛ إذ الإله الحق من يخلق ويرزق ويدبر فيحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويسمع ويبصر، فأين هذا من آلهة نحتموها بأيديكم، ووضعتموها في بيوتكم عمياء لا تبصر، صماء لا تسمع، بكماء لا تتنطق.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهداف وهدايات^(٣):

١. أن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان.
٢. أن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع من الله وحده، وبهذا يكون الدين كله لله، أي: تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله.

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٠٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/٤٣٣) (١).

(٢) أصول الدعوة: عبدالكريم زيدان (ص: ٢٩٥)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٨٨).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١٠٨). في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/٤٣٥)، ونور التوحيد وظلمات الشرك: سعيد بن علي القحطاني (ص: ٩)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٨٩)، والرسل والرسالات: عمر سليمان الأشقر (ص: ٤٥).

٣. أن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام، وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده، ولو لم تلتزم بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام.

٤. أن تقرير نبوة محمد (ﷺ) كنبوة نوح (ﷺ).

٥. تقرير التوحيد وتأكيد، وبيان معنى (لا إله إلا الله)، وأن الأنبياء كلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

٦. التحذير من عذاب يوم القيامة بالتذكير به.

٧. أن النبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال.

٨. لا تقف مهمة الرسل عند حد بيان الحق وإبلاغه، بل عليهم دعوة الناس إلى الأخذ بدعوتهم، والاستجابة لها، وتحقيقها في أنفسهم اعتقاداً وقولاً وعملاً.

المقصد الرابع: الملاءم الذين يقفون في وجه الدعوات غالباً

ويبدل على هذا المعنى قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

الملاءم: الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد؛ لأنهم يمالئ بعضهم بعضاً، أي: يعاونه ويوافقه، ويطلق الملاءم على أشرف القوم، ورؤسائهم، وقادتهم والسادة الكبراء؛ لأن شأنهم أن يكون رأيهم واحداً عن تشاور، ولأنهم يملؤون العيون بهجة ورؤاء بتأنقهم في زيهم وتجميل منظرهم، وروح الآية يلهم أن المقصود من الكلمة زعماء القوم وكبرائهم، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة ﴿مِنْ﴾ الدالة على التبعية، أي: أن قادة القوم هم الذين تصدوا لمجادلة نوح والمناضلة عن دينهم بمسمع من القوم الذين خاطب جميعهم، وهم الجمهور، قال الطبري: "هم الرجال خاصة لا امرأة فيهم". فالملاءم: الجماعة الشريفة، والرّهط، والنفر، والقوم، وهم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تمالؤوا على أمرٍ تمّ، والملاءم صفة غالبية^(٢).

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (١/١٠٧)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٤٣)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٩٠)، وتفسير المراعي (٣/٢٢٥)، والتفسير الحديث: محمد عزة دروزة (٢/٤١٧)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤/١٠٦).

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٥/٥٢٠)، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٩٠).

لنَرَكَ: الرؤية قلبية بمعنى العلم، أي: إننا لنوقن أنك في ضلالٍ مبينٍ، ويحتمل أن يُجعل من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب وهو الأظهر، فهذه الرؤية ولا بُدَّ وأن تكون بمعنى الاعتقاد والظن دون المشاهدة والرؤية^(١).

ضَلَالٍ: الضلال: اسم مصدر ضلَّ إذا أخطأ الطريق الموصِّل. والضلال شرعاً: العدول عن طريق الحقِّ والذهاب عنه، ومعنى الآية: أي في إتلافٍ وجهالةٍ بما تسلك.

مُبِينٍ: المبين: اسم فاعلٍ من أبان، أي: ظاهر وواضح، فقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، وهكذا حال الفجار إنَّما يرون الأبرار في ضلالةٍ، والمعنى: إننا لنراك في دعائك إلى عبادة الله وحدَه في ضلالٍ عن طريق الحقِّ^(٢).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٣):

إنَّ الله لما ذكر في أول السورة قصة آدمَ، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت، أي: أنَّ الله لما ذكر في تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة، وبيانات قاهرة، وبراهين باهرة أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وفيه فوائد: أحدها: التنبيه على أنَّ إعراض النَّاس عن قبول هذه الدلائل والبيانات، ليس من خواص قوم النبيِّ (ﷺ)، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلةً في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمَّت خفت، فكان ذكر قصصهم، وحكاية إصرارهم على الجهل، والعناد يفيد تسليية الرسول (ﷺ) وتخفيف ذلك على قلبه. ثانيها: أنَّ الله يخبر في هذه القصص أنَّ عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا، والخسارة في الآخرة، وعاقبة أمر المحققين إلى الدولة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحققين، ويكسر قلوب المبطلين، وثالثها: التنبيه على أنَّ الله وإن كان يُمهِّل هؤلاء المبطلين، ولكنه لا يُهمِّلهم، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه، ورابعها: بيان أنَّ هذه القصص دالة على نبوة (ﷺ)؛ لأنَّه كان أمياً، وما طالع كتاباً، ولا تلمذ أستاذاً، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريفٍ ولا خطأ دلَّ ذلك على أنَّه إنَّما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدلُّ على صحة نبوته.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٥٧)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٩٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٢٣)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٦).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٥٢).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: فصلت جملة: ﴿قَالَ الْمَلَأُ...﴾ على طريقة الفصل في المحاورات، واقترن جوابهم بحرف التأكيد: ﴿إِنَّا﴾ للدلالة على أنهم حققوا وأكدوا اعتقادهم أن نوحاً منغمساً في الضلالة. فقولهم: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خطأ ظاهر وضلال بين، ولا بُدَّ وأن يكون مرادهم نسبة نوح إلى الضلال في المسائل الأربع التي ذكرها نوح وهي: التكليف والتوحيد والنبوة والمعاد.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ لم يوصف الملاء بالذين كفروا، أو بالذين استكبروا كما وصف الملاء في قصة هود بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استغناءً بدلالة المقام على أنهم كذبوا وكفروا.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ جملة ظرفية تعبيراً عن تمكُّن وصف الضلال منه حتى كأنه محيطٌ به من جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف.

اللطيفة الرابعة: قول الملاء من قوم نوح: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ذلك هو الضلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحق، وهذه شبهة منهم، فإنهم توهموا أن الحق هو ما هم عليه، فلا عجب إذا جعلوا ما بُعد عنه بعداً عظيماً ضلالاً بيئناً؛ لأنه خالفهم، وجاء بما يعدونه من المحال، إذ نفى الإلهية عن آلهتهم، فهذه مخالفة، وأثبتها لله وحده، فإن كانوا وثنيين فهذه مخالفة أخرى، وتوعدهم بعذاب على ذلك، وهذه مخالفة أيضاً، وإن كان العذاب الذي توعدهم به عذاب الآخرة، فقد أخبرهم بأمر محال عندهم وهو البعث، فهي مخالفة أخرى، فضلاله عندهم مبین، وقد يتفاوت ظهوره، وادعى أن الله أرسله، وهذا في زعمهم تعمد كذب وسفاهة عقل وادعاء محال.

اللطيفة الخامسة: فإن قيل: إن القوم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فأجاب نوح بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ﴾ الأصل أن يكون جوابه: (ليس بي ضلال) فلم ترك هذا الكلام وقال: ﴿لَيْسَ بِضَلَالَةٍ﴾؟ لأن قوله: ﴿لَيْسَ بِضَلَالَةٍ﴾ أي: ليس بي نوع من أنواع الضلالة البتة، فكان هذا أبلغ في عموم السلب، وجواب نوح هو مبالغة في حُسن الأدب في الألفاظ، والإعراض عن الجفاء منهم، وتناول رفيق وسعة صدرٍ حسبما يقتضيه خلق النبوة.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

قال المفسرون: الملاء: الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أصداد الأنبياء، والدليل عليه أن قوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ يقتضي أن ذلك الملاء بعض قومه، وذلك البعض لا بُدَّ وأن يكونوا

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٥/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥٧/١٤)، ومجالس

قرآنية: عويض بن حمود العطوي (ص: ٧٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٠/٨، ١٩١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٥٦/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣٠٥/٣).

موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملؤون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء، وذلك يدلُّ على أنَّ المراد من الملاء الرؤساء والأكابر، وفي كلِّ مرة يقف ﴿الملاء﴾ من علية القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحقِّ هذه، ويرفضوا الاستسلام لله ربِّ العالمين، وأبوا أن تكون العبودية لله وحدَه، وهي القضية التي قامت عليها الرِّسالات كُلُّها، وقام عليها دين الله كله، وهنا يصدع كلُّ رسولٍ بالحقِّ في وجه الطاغوت. فأما الذين كفروا بكلِّ رسولٍ فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم الله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحدٍ منهم، كانوا هم ﴿الملاء﴾ من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم؛ فالملاء كانوا يحسون دائماً ما في قول رسولهم لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ كانوا يحسون أنَّ الألوهية الواحدة تعني نزع السلطان المغتصب من أيديهم، ورده إلى صاحبه الشرعي إلى الله ربِّ العالمين، وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، وأخيراً فإنَّ الباطل لا يطيق مجرد وجود الحقِّ، وحتى حين يريد الحقُّ أن يعيش في عزلةٍ عن الباطل، تاركاً مصيرهما لفتح الله وقضائه، فإنَّ الباطل لا يقبل منه هذا الموقف، بل يتابع الحقَّ ويطارده، ولم يطبقوا رؤية الحقِّ يعيش، ولا رؤية جماعة تدين الله وحدَه.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أصحاب المنافع من مراكز وغيرها هم الذين يردون دعوة الحقِّ لمنافاتها للباطل.
٢. أنَّ سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء، لينالوا درجة الشكر والصبر.
٣. دلت الآية على رفق الأنبياء وحسن دعائهم إلى الدِّين؛ فيقتدى بهم.
٤. أنَّ السادة الكبراء والرؤساء، وقادة الأقسام كانوا كلما دُعوا إلى الله جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرُّوا واستكبروا استكباراً.

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن: عبد الجبار الهمداني (ص: ١٨٤)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١١٣)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٨٩/٨)، دراسات في السيرة: نزار ريان (ص: ٤٨).

المقصد الخامس: واجب الرسول التبليغ والنصح

ويدلُّ على هذا المقصد الشرعي قوله: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَبْلَغُكُمْ: التبليغ والإبلاغ: جعل الشيء بالغاً، أي: واصلاً إلى المكان المقصود، وهو في الآية

انتقالاً بالأمر المقصود علمه من مكان إلى مكان.

رَسُولَاتِ: الرسالات: ما أرسله الله به إليهم ممّا أوحاه إليه.

أَنْصَحُ: النصح والنصيحة كلمة جامعة، يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل،

ويكثر إطلاق النصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه، ويدفع عنه الضرر.

وضده الغش، وحقبة النصح: الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه،

فمعنى أنصح في الآية: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ﴾ فيه وجوه: الأول: وأعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان، والثاني: وأعلم أنه

يعاقبكم في الآخرة عقاباً شديداً خارجاً عما تتصوره عقولكم. والثالث: يجوز أن يكون المراد:

وأعلم من توحيد الله وصفات جلاله ما لا تعلمون، ويكون المقصود من ذكر هذا الكلام: حمل

القوم على أن يرجعوا إليه في طلب تلك العلوم. قال ابن عطية: "قول الرسول وإن كان لفظاً عاماً

في كل ما علمه فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم، لا سيما وهم لم يسمعوا قطُّ بأمة

عذبت، فاللفظ مضمن الوعيد".

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

إنَّ نوحَ (عليه السلام) لما نفى عن نفسه العيب الذي وصفه به، ووصف نفسه بأشرف الصفات

وأجلها، وهو كونه رسولاً إلى الخلق من ربِّ العالمين، ذكر ما هو المقصود من الرسالة وهو

أمران: الأول: تبليغ الرسالة، والثاني: تقرير النصيحة.

ثالثاً: لطائف التفسير نكتات بيانية في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: النداء في جواب نوحٍ إياهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ للاهتمام بالخبر، ولم يخصَّ خطابَه

بالذين جاوبوه، بل أعاد الخطاب إلى القوم كلهم؛ لأنَّ جوابه مع كونه مجادلةً للملأ من قومه هو

أيضاً يتضمَّن دعوةً عامةً.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٦/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥٧/١٤)، وفتح

القدير: الشوكاني (٣٠٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٤/٨، ١٩٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٥٦/١٤).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٢/٨، ١٨٨).

اللطيفة الثانية: خاطب نوح قومه كلهم، بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾؛ لأنَّ الدعوة لا تكون إلا عامةً لهم، وعبرَ في نداءهم بوصف القوم لتذكيرهم بأصرة القرابة، ليتحقَّقوا أنَّه ناصحٌ ومريدٌ خيرهم ومشفقٌ عليهم، وأضاف: ﴿قَوْمِ﴾ إلى ضميره للتحبُّيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم، وأعاد نوحَ ذلك مرة ثانيةً استنزالاً لطائرِ نفوسهم مما سيَعقبُ النداء من الرد عليهم وإبطال قولهم.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، الضلالةُ مصدرٌ، مثل الضلال، فتأنيثه لفظي محضٌ، والعرب يستشعرون التأنيث غالباً في أسماء أجناس المعاني، مثل الغواية والسفاهة، فالتاء لمجرد تأنيث اللفظ، وليس في هذه التاء معنى الوحدة؛ لأنَّ أسماء أجناس المعاني لا تراعى فيها المُشخَّصات، فليس الضلال بمنزلة اسم الجمع للضلالة، والفرق بين قول قومه له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وقوله هو: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أنَّ التخالُف بين كلمتي ضلال وضلالة اقتضاه التَّنقن حيثُ سبق لفظ ضلال، وموجب سبقه إرادة وصفه بـ ﴿مُبِينٍ﴾، فلو عبَّر هنالك بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبيِّنة غير مألوف الاستعمال، ولما تقدَّم لفظ: ﴿ضَلَالٍ﴾، استحسِن أن يعاد بلفظ يغيِّره في السورة دفعاً لثقل الإعادة؛ فقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾، ردُّ لقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، بمساويه لا بأبلغ منه^(١).

اللطيفة الرابعة: الباءُ في قوله: ﴿لَيْسَ بِي﴾ للمصاحبة أو الملابس، وهي تناقض معنى الظرفية من قولهم: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾، فإنَّهم جعلوا الضلال متمكناً منه، فنفي هو أن يكون للضلال متلبس به. وبالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات، وعرض لهم به^(٢).

اللطيفة الخامسة: تجريد ﴿لَيْسَ﴾ من تاء التأنيث مع كون اسمها مؤنث اللفظ جرى على الجواز في تجريد الفعل من علامة التأنيث، إذا كان مرفوعه غير حقيقي التأنيث.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ صفةً لرسولٍ، أو مُستأنفٌ لبيان حال الرسول، والمقصودُ منه إفادة التجدُّد، وأنَّه غيرُ تاركِ التبليغ من أجل تكذيبهم تأييساً لهم من متابعتهم إياهم، ولولا هذا المقصد لكان معنى هذه الجملة حاصلاً من معنى قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾، ولذلك جمع الرِّسالات؛ لأنَّ كلَّ تبليغٍ يتضمَّن رسالةً بما بلَّغَه، ثمَّ إنَّ اعتُبرت جملة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ صفةً، يَكُن العدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلُّم في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وقوله: ﴿رَبِّي﴾ التفاتاً، باعتبار كون الموصوف خبيراً عن ضمير المتكلم، وإنَّ اعتُبرت استئنفاً، فلا التفات^(٣).

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣٠٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٢/٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٣/١).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٣/٨).

اللطيفة السابعة: دلّت صيغةُ الجمع في كلمة ﴿رِسَالَاتٍ﴾ على أنّ تنزيلَ البياناتِ الرّبّانيةِ عليه، قد كان وفقِ سُنّةِ التّدريجِ نجماً فنَجْماً، في أزمانٍ متعدّدةٍ، وكلُّ بيانٍ منها كان لرسالةٍ مضافةً إلى ما سبقها، وبعدَ أن تجتمع الرّسالاتُ كلّها، وتكونُ جميعُها منضمةً في رسالةٍ واحدةٍ، وبدلً على أنّ الله حمّله أنواعاً كثيرةً من الرسالة، وهي أقسام التكاليف من الأوامر والنواهي، وشرح مقادير الثواب والعقاب في الآخرة، ومقادير الحدود والزواجر في الدنيا^(١). قال البيضاوي: "وجمع الرّسالات؛ لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواعظ والأحكام"^(٢).

اللطيفة الثامنة: العدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿رِسَالَاتٍ رَبِّي﴾ هو ما تُؤذن به إضافة الرّب إلى ضمير المتكلم من لزوم طاعته، وأنّه لا يسعه إلا تبليغ ما أمره بتبليغه، وإن كره قومه.

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ يكثر أن يُعدّى معنى النّصح إلى المفعول بلامٍ دالةً على معنى الاختصاص للدلالة على أنّ النّاصح أراد من نصحه ذات المنصوح، لا جلب خير للنّاصح، ففي ذلك مبالغةٌ ودلالةٌ على إحاض النّصيحة لهم، وأنّها وقعت خالصةً للمنصوح، مقصوداً بها جانبه لا غير، فربّ نصيحة ينتفع بها النّاصح فيقصد النّفيعين جميعاً، وربّما يقع تفاوت بين النّفيعين فيكون ترجيحُ نفع النّاصح تقصيراً أو إجحافاً بنفع المنصوح.

اللطيفة العاشرة: في الإتيان بالمضارع دلالةً على تجديد النّصح لهم، وأنّه غير تاركه من أجل كراهيتهم وبيداعتهم؛ فإنّ صيغة الاستقبال الموجودة في المضارع تدل على الاستمرار التجددي^(٣).

اللطيفة الحادية عشر: هناك فرق بين تبليغ الرسالة وبين النّصيحة، هو أنّ تبليغ الرسالة معناه: أن يعرفهم أنواع تكاليف الله، وأقسام أوامره ونواهي، وأمّا النّصيحة: فهو أنّه يرغبهم في الطاعة، ويحذرهم عن المعصية، ويسعى في تقرير ذلك الترغيب والترهيب لأبلغ وجوه.

اللطيفة الثانية عشر: كانت فاصلة الآية ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جمعاً لمعانٍ كثيرةٍ مما تتضمنه الرّسالة وتأييداً لثباته على دوام التّبليغ والنّصح لهم، والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم؛ لأنّه يعلم ما لا يعلمونه ممّا يحمله على الاسترسال في عمله ذلك، فجاء بهذا الكلام الجامع، ويتضمّن هذا الإجمالُ البديعُ تهديداً لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل، وتنبئها للتأمل فيما أتاهم به، وفتحاً لبصائرهم أن تتطلب العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكلُّ ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبول ما جاء به.

(١) معارج التفكير ودقائق التدبر: الميداني (٣٢٤/٤)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥٧/١٤).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٤/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٤/٨).

(٣) فتح القدير (٣٠٦/٢)، التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٤/٨)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٤٤/١)، ومجالس قرآنية: عويض بن حمود العطوي (ص: ٣٨).

اللطيفة الثالثة عشر: ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ ابتدائية، أي: صار لي علمٌ واردٌ من الله، وهذه المعاني التي تَضَمَّنَهَا هذا الاستدراك هي ما يُسَلَّمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهَا من الهدى والصَّلاح، وتلك هي أحواله، وهم وصفوا حاله بأنه ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ففي هذا الاستدراك نعي على كمال سفاهة عقولهم، وفيه تقريرٌ لما أوعدهم به، فإنَّ معناه: أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

هذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً بليغاً، أي فصيحاً ناصحاً، أعلم النَّاسَ بالله، لا يدركهم أحدٌ من خلق الله في هذه الصفات؛ لذلك كان الأنبياءُ أكملَ النوع الإنساني، فقد أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ"^(٣). والنَّصِيحُ مظهرٌ من مظاهر الإخلاص لله في الدَّعوة، ومظهر من مظاهر الرَّحمة والشفقة والغَيْرِيَّةِ بِحِرْصِ النَّاصِحِ عَلَى الْمَنْصُوحِ، دون ملاحظة ثوابٍ منه، والمرسلون كلُّهم نَصِيحَةٌ لأقوامهم، وكذلك يجب أن يكون الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ، والمفروض في المؤمنين أن يكون بعضهم لبعضٍ وادِّينَ نَصِيحَةً، والدينُ الحقُّ الصادقُ هو النصيحة لله ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامَّتِهِمْ^(٤). وحقيقةُ النصحِ الإرسالُ إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه. والمعنى: أنِّي أبلغ إليكم تكاليف الله، ثم أرشدكم إلى الأصوب الأصح، وأدعوكم إلى ما دعاني، وأحب إليكم ما أحبه لنفسي، ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله، وكلُّ رسولٍ قال لقومه: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ معبراً عن ثقل التبعة، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة، ورغبته في هداية قومه، وهو منهم وهم منه، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم لا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جُعلاً، بل هو مخلصٌ لله في الدعوة إليه والنصح لخلق لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإنَّ خير الدنيا والآخرة كله

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٤/١)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥٧/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٤/٨).

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير (١٠٧/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٣/٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٤١١)، (ص: ٤٠٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٥٧/١٤)، ومعارج التفكير ودقائق التدبير: الميداني (٣٢٥/٤).

في يديه وأمره إليه^(١). وفي الصحيح أنّ النبي (ﷺ) قال: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ"^(٢)، فالنصيحة كلمة جامعة معناها: حيازة الحظ للمنصوح له، وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن هذه الكلمة، وأمّا نصيحة عامة المسلمين فأرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، وترك غشهم وحسدهم، وأن يحبّ لهم ما يجب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع الفضائل، وتنشيط همهم إلى الطاعات^(٣). إنّ من عَرَفَ ما جاءت به الرُّسُلُ من الشرائع ونفاصيل أحوالها، تبين له أنّهم أعلمُ الخلق، وأنّه لا يحصلُ مثلُ ذلك من كذاب جاهل، وأنّ فيما جاءوا به من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم، ما يبيّن أنّه لا يصدرُ إلا عن راحمٍ برّ يقصدُ غاية الخير والمنفعة للخلق، فإنكار الرسالة طعنٌ في الربِّ، بل جحد للربِّ بالكلية^(٤).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٥):

١. عماد الدّين وقوامه النصيحة.
٢. أنّ الناصح هو الخالص من الغلّ، وكل شيءٍ خلص فقد نصح.
٣. أنّ النبي يختص بعلم أشياء لا يعلموها النّاس؛ وذلك بإخبار الله له.
٤. أنّ نصيحة المسلم واجبة.
٥. الأنبياء والمرسلون يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمّهاتهم.
٦. أنّ الرُّسُل بذلوا في سبيل دعوة النّاس إلى الله جهوداً عظيمةً.
٧. الرُّسُل سفراء الله إلى عباده، وحملة وحيه، ومهمتهم الأولى هي إبلاغ الدّين.
٨. أنّ البلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصانٍ ولا زيادةٍ، البلاغ يكون ببيان الأوامر والنواهي والمعاني والعلوم التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير.
٩. أنّ البيان من الرسول للوحي الإلهي قد يكون بالقول أو بالفعل.

(١) البداية النهاية: ابن كثير (١/١٢٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٨، ١٣٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان. باب بيان أنّ الدّين النصيحة، حديث رقم (٥٥)، (ص: ٥٤).

(٣) شرح صحيح مسلم: النووي (١/٣٧)، وآراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية: محمد الشائع (ص: ٦٤٨).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ١١٥).

(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥/٥٣٥)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٦)، المختصر في

التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٨)، والرسول والرسالات: عمر سليمان الأشقر (ص: ٤٣).

المطلب الثاني: جنس الرجال أفضل من جنس النساء

وفيه مقصدان:

المقصد الأول: بشرية الرسول شرط في الرسالة

دلُّ عليه قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَوْعَجِبْتُمْ: فتحت الواو لكونها العاطفة، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم، والاستفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وعجبهم الذي وقع إنمّا كان على جهة الاستبعاد والاستحالة. وحقيقة العَجَبِ أَنَّهُ انفعالٌ نفسانيّ يحصل عند إدراكِ شيءٍ غير مألوفٍ، وقد يكون العَجَبُ مشوباً بإنكار الشيء المتعجب منه واستبعاده وإحالاته، والذي في هذه الآية كنايةً عن الإنكار. ذِكْرٌ: أي: رسالة أو وحي وموعظة.

مِنْكُمْ: أي: من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر، فقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: تعرفون نسبه، فهو منكم نسباً؛ وذلك لأنّ كونه منهم يزيل التعجب؛ لأنّ المرء بمن هو من جنسه أعرف، وبطهارة أحواله أعلم، وبما يقتضي السكون إليه أبصر.

لِيُنذِرَكُمْ: الإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في تخويف. أي: لينذركم عاقبة الكفر والمعاصي. وَلَعَلَّكُمْ: لعلّ حرف ترجّ وإشفاق وتعليل، وذلك في حقّ الله محالّ، فإنّ لعلّ من الله واجبة. والآية ترجّ بحسب حال نوح ومعتقده؛ لأنّ هذا الخبر إنمّا هو من تلقاء نوح.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

يقول الله إخباراً عن نوح أنّه قال لقومه: لا تعجبوا من هذا، فإنّ هذا ليس بعجبٍ أن يوحى الله إلى رجلٍ منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم، لينذركم ولتنتقوا نعمة الله ولا تشركوا به، ولعلكم ترحمون. فكأنمّا عجبوا أن يختار الله رسولاً من البشر من بينهم، يحمله رسالةً إلى قومه، وما من عجب في هذا الاختيار، ثم يكشف نوح (ﷺ) لقومه عن هدف الرسالة، إنّه الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى، ليظفروا في النهاية برحمة الله.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٦/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥٩/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٤/١)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٤١٥/١)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٥/٨)، ومختار الصحاح، باب (نذر) (ص: ٦٥٣)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الالفاظ: السمين الحلبي (٢٦/٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٣/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣٠٩/٣).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ انتقال من نوح إلى كشف الخطأ في شبهتهم، مُفتتحاً الكلام بالاستفهام الإنكاري بعد (واو) العطف، وهذا مشعرٌ بأنهم أحالوا أن يكون رسولاً، مستدلّين بأنه بشرٌ مثلهم، والهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف، أي: أكذبتكم وعجبتم، واختير الاستفهام دون أن يقول: "لا عجب" إشارةً إلى أن احتمال وقوع ذلك منهم ممّا يتردّد فيه ظنُّ العاقلِ بالعقلاء.

اللطيفة الثانية: تتكبير كلمتي ﴿ذِكْرٌ﴾ و﴿رَجُلٍ﴾ في الآية للتوعية؛ إذ لا خصوصية لذكرٍ دون ذكرٍ، ولا لرجلٍ دون رجلٍ، فإنَّ النَّاسَ سواءً، والذكر سواء في قبوله لمن وفقه الله ورده لمن حُرّم التّوفيق، أي: هذا الحديث الذي عظمتوه وضججتم له ما هو إلا ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم.

اللطيفة الثالثة: وصف: ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ بأنه منهم، أي: من جنسهم البشري فضح لشبهتهم، وفيه ردٌّ لها، بأنهم أحقاء بأن يكون ما جعلوه موجب استبعادٍ واستحالةٍ هو موجب القبول والإيمان، إذ الشأن أن ينظروا في الذكر الذي جاءهم من ربهم وأن لا يسرعوا إلى تكذيب الجائي به، وأن يعلموا أن كونَ المُذَكَّر رجلاً منهم أقرب إلى التّعقل من كون مُذَكَّرهم من جنس آخر من ملك أو جنّي، فكان هذا الكلام من جوامع الكلم في إبطال دعوى الخصم.

اللطيفة الرابعة: معنى ﴿عَلَى﴾ من قوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ يشعرُ بأنَّ: ﴿جَاءَكُمْ﴾ ضَمَّن معنى نَزَلَ: أي: نزل ذكر من ربكم على رجلٍ منكم، إذ كلُّ ما يأتي من الله فله حكم النزول.

اللطيفة الخامسة: المجرور في قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحال من رجلٍ، وهو زيادةٌ في تشويه حَظِّهم إذ جعلوا ذلك ضلالاً مبيناً، وإنّما هو هدي واضح لفائدتكم بتحذيركم من العقوبة، وإرشادكم إلى تقوى الله، وتقريبكم من رحمته.

اللطيفة السادسة: وقد رُتبتَ الجمل في الآية على ترتيب حصول مضمونها في الوجود؛ فإنَّ الإنذارَ مقدّمٌ؛ لأنّه حملٌ على الإقلاع عمّا هم عليه من الشرك أو الوثنية، ثم يحصل بعده العمل الصّالح فترجى منه الرّحمة.

اللطيفة السابعة: فائدة حرف الترجي: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ التّنبية على أنّ التقوى غيرُ موجبٍ، والترحم من الله تفضّلٌ، وأنّ المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله^(٢).

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٦/٥)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٤٤/١)، والتفسير الكبير: الرازي (١٥٩/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٦/٢)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (١٩٥، ١٩٦/٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٤/١) فتح القدير: الشوكاني (٣٠٦/٢).

رابعاً: بيان المقصد من الآية^(١):

أ- الرُّسل والأنبياء رجالٌ من بني آدم:

إنَّ الكفار استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً؛ لأنَّه بشرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قالوا: ﴿أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ [التغابن:٦] وهذه الشبهة أدلى بها كثيرٌ من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً، لذلك فإنَّ أهل الكتاب يعلمون أنَّ الله إنَّما أرسل إلى النَّاس بشراً مثلهم، لم يرسل إليهم ملكاً، وإنَّ من الكفار من كان يزعم أنَّ الله لا يرسل إلا ملكاً أو بشراً معه ملكٌ، ويتعجبون من إرسال بشرٍ ليس معه ملكٌ ظاهرٌ، فقال الله رداً على من أنكر بعثة الرُّسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء:٧] أي: جميع الرُّسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحدٌ من الملائكة، وإنَّما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم. والآية تدلُّ على أنَّ مراد القوم من قولهم لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هو أنَّهم نسبوه في ادعاء النبوة إلى الضلال وذلك من وجوه: أحدها: أنَّهم استبعدوا أن يكون الله رسولاً إلى خلقه؛ لأجل أنَّهم اعتقدوا أن المقصود من الإرسال هو التكليف، والتكليف لا منفعة فيه للمعبود؛ لكونه متعالياً عن النفع والضرر، ولا منفعة فيه للعابد، لأنَّه في الحال يوجب المضرة العظيمة، وكلُّ ما يرجى فيه من الثواب ودفع العقاب فالله قادرٌ على تحصيله بدون واسطة التكليف، فيكون التكليف عبثاً، والله متعالٍ عن العبث، وإذا بطل التكليف بطل القول بالنبوة. وثانيها: أنَّهم وإن جوزوا التكليف إلا أنَّهم قالوا: ما علم حسنه بالعقل فعلناه، وما علم قبحه تركناه، وما لا نعلم فيه لا حسنه ولا قبحه فإن كنا مضطرين إليه فعلناه؛ لعلنا أنَّه متعالٍ عن أن يكلف عبده ما لا طاقة له به، وإن لم تكن مضطرين إليه تركناه للحذر عن خطر العقاب. وثالثها: أن بتقدير: أنَّه لا بُدَّ من الرسول، فإنَّ إرسال الملائكة أولى؛ لأنَّ مهابتهم أشد، وطهاراتهم أكمل، واستغنائهم عن المأكول والمشروب أظهر، وبعدهم عن الكذب والباطل أعظم. ورابعها: أن بتقدير: أن يبعث رسولاً من البشر، ففعل القوم اعتقدوا أن من كان فقيراً، ولم يكن له تبع ورئاسة؛ فإنَّه لا يليق به منصب الرسالة، ولعلمهم اعتقدوا أنَّ الذي ظن نوح أنَّه من باب الوحي، فهو من جنس الجنون والعتة وتخيلات الشيطان، فهذا هو الإشارة إلى مجامع الوجوه التي لأجلها أنكر الكفار رسالة رجل معين. ثم إنَّ نوحاً أزال تعجبهم، وقال: إنَّ الله خالق الخلق، فله بحكم الإلهية أن يأمر عبده ببعض الأشياء، وينهاهم عن بعضها، ولا يجوز أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة لقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] فبقي أن

(١) التفسير الكبير: الرازي(١٥٨/١٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية(٣٦٠/٢)، والبداية

والنهاية: ابن كثير(١٢٤/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(١٧٣،١٧٤/٣).

يكون إيصال تلك التكاليف إلى الخلق بواسطة إنسان، وذلك الإنسان إنما يبلغهم تلك التكاليف لأجل أن ينذرهم ويحذرهم، ومتى أنذرهم اتقوا مخالفة تكليف الله، ومتى اتقوا مخالفة تكليف الله استوجبوا رحمة الله، ثم بين الله ما لأجله يبعث الرسول فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ وما لأجله ينذر فقال: ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ وما لأجله يتقون فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال الرازي: "وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة"^(١). وفي قصة نوح إشارة إلى سنة الله في إرسال كل رسول من قومه، ولسانهم، تأليفاً لقلوب الذين لم تقصد فطرتهم، وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف، وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة الإلهية، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشرٍ مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة! وإن هي إلا تعلقة، وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى، مهما جاءهم من أي طريق. وفي قوله: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ بيان لشبهتهم على الرسالة، وهي أن الرسول بشرٌ مثلهم، فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك في البشرية والصفات العامة يقتضى التساوي في جميع الخصائص والمزايا ويمنع الانفراد بشيءٍ منها، والمشاهدة أكبر برهانٍ على بطلان هذا، فالتفاوت في الغرائز والصفات الفاضلة والاختلاف في القوى العقلية والمعارف والأعمال الكسبية جدٌ عظيم في البشر ولو فرض التساوي بينهم، فهل هذا يمنع أن يختص الله بعض عباده بما هو فوق المعهود في الغرائز؟ كلا، إن الله قديرٌ.

ب- لا نبوة في النساء:

عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ"^(٢). هذا الحديث يستدلُّ به من يقول: بنبوة النساء، ونبوة آسية ومريم، والجمهور على أنها ليستا بنبيتين، بل هما صديقتان ووليتان من أولياء الله، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء، وتناهيه في بابه، والمراد هنا: التناهي في جميع الفضائل، وخصال البر والتقوى. قال النووي^(٣): "وهذا الذي نُقِلَ من القول بنبوتها غريبٌ ضعيفٌ". وقد ذكر العلماء الإجماع على أنه ليس في النساء نبية، والقرآن والسنة دلا على ذلك كما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]،

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٥٩/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣٠٨/٣)، وتفسير المراغي (٢٢٦/٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، حديث رقم (٣٤١١)، (ص: ٤٠٧).

(٣) النووي: هو الشيخ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، فقيه حافظ زاهد كان مع تجرته في العلم وسعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك. رأساً في الورع والقناعة، عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. توفي بقرية نوى سنة (٦٧٦هـ)، وله مصنفات عديدة منها: المجموع في الفقه، والمنهاج شرح صحيح مسلم، وكتاب الأذكار، ورياض الصالحين. ينظر: تذكرة الحفاظ: الذهبي (١٤٧٠/٤)، وشذرات الذهب (٣٥٤/٥).

ذكر أنّ غاية ما انتهت إليه أمه الصديقية^(١). وقد عقد ابن حزم^(٢) في كتابه "الفصل" فصلاً بعنوان: "نبوة النساء" وانتصر فيه للقول بنبوة النساء، وحصرهن في ست: حواء وسارة وهاجر وأم موسى وآسية بنت مزاحم ومريم^(٣). وجمهور العلماء على خلافه، قال النووي: "إنّ الجماهير من العلماء على أنّها ليست نبيّة، وقد شدّد من قال: نبيّة، ولا التفات إليه، ولا تعريج عليه"^(٤). فليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ، قال ابن كثير: "وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنّهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن"^(٥). والصحيح قول جمهور العلماء أنّه لا نبوة في النساء، وأنّ أدلة الذين يقولون: بنبوة النساء لا تنهض لإثبات ذلك، وذهب ابن تيمية إلى أنّ مريم صديقة، وليست بنبيّة، بل ليس في النساء نبيّة^(٦). والخلاصة أنّ مريم صديقة هذا غايتها، أن كانت من الصديقين، الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء. والصديقية هي: العلم النافع، المثمر لليقين، والعمل الصالح. وهذا دليل على أنّ مريم لم تكن نبيّة، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى ذلك فضلاً وشرفاً، وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيّة؛ لأنّ الله جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهداف وهدايات^(٧):

١. أنّ فائدة الإنذار هي التقوى الموجبة للرحمة.
٢. العجب كلمة تدلّ على كبر واستكبار للشّيء.
٣. الإنسان مؤهل لتحمل الأمانة العظمى والرسالة الإلهية.
٤. أنّ الرُّسل يُعدون إعداداً خاصاً لتحمل النبوة والرسالة، ويصنعون صنعاً فريداً.
٥. أنّ الله اختار الرُّسل بشراً لا ملائكة؛ لأنّه أعظم في الابتلاء والاختبار.
٦. أنّ البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٩٦/٤).

(٢) ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، الإمام الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام العظام، ولد بإقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، وتوفي سنة (٤٥٦هـ)، فقيه وأصولي متكلم، وعالم بالفرق والديانات، من مؤلفاته: المُحلى في الفقه، الفصل في الملل والأهواء والنحل. ينظر: نفح الطيب: أحمد المقري (٢٨٣/٢)، وفيات الأعيان (٣٢٥/٣)، والأعلام: الزركلي (٢٥٤/٤).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم (١٨٦/٣)، والجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٩٠/٨٣، ١١/٤).

(٤) كتاب الأذكار: النووي (ص: ١٥٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٥، ١٦، ٥٤، ٥٨/٨).

(٥) البداية والنهاية: ابن كثير (١٥٢/١)، والرسائل والرسالات: عمر سليمان الأشقر (ص: ٨٦، ٨٩).

(٦) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٣٤٩/٢، ١٧١)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن

حجر (٦٥٣/٧)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٣٦).

(٧) مقاييس اللغة: ابن فارس (٢٤٣/٤)، وتفسير الرازي (١٦٣/٤)، والرسائل والرسالات: عمر سليمان

الأشقر (ص: ٦٩).

المقصد الثاني: البقاء في الوجود للأصلح الأفضل

ويدلُّ عليه قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا

قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

الْفُلْكِ: الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظيرٌ قبلها ولا يكون بعدها مثلها.

عَمِينَ: جمع عمٍ وزنه فعٍ، مشتق من العمى، وأصله فقدان البصر، ويطلق توسعاً على فقدان الرأي النافع، ويقال: عمى القلب، وقد غلب في الكلام على ثبوت الصفة، وتمكُّنها بأن تكون سجيةً، وإنما يصدَّق ذلك في فقد الرأى؛ لأنَّ المرءَ يخلق عليه غالباً، بخلاف فقد البصر، فالمعنى أنه يريد في الآية عمى البصائر، والذين كذَّبوا كانوا عمين؛ لأنَّ قادتهم دَاعُونَ إِلَى الضَّلَالَةِ مؤيدونها، ودهماؤهم متقبَّلون تلك الدَّعوة سمَّاعون لها، والمعنى: أي: عمين عن الحقِّ، لا يبصرونه ولا يهتدون له، فلا يبصرون الآياتِ، ولا يرون النذر والشواهد.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تُخبر الآية أن نوحاً (عليه السلام) بعدما قال لقومه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأنا على علمٍ بما عليه ربِّي من عظمةٍ وسلطانٍ، وجلالٍ، وجمالٍ، وما عنده من رحمةٍ وإحسانٍ، وما لديه من نكالٍ وعذابٍ، وأنتم لا تعلمون فانتقوا الله إذا وأطيعوني يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى آجالكم، ولا يعجل بفنائكم، وواصل حديثه معهم وقد دام ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً قائلاً: أكذبتُم بما دعوتكم إليه وجنتكم به وعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم، ولتنتقوا الله بتوحيده وعبادته وطاعته رجاءً أن ترحموا فلا تعذبوا، أمن هذا يتعجب العقلاء؟ وكانت النتيجة لهذه الدعوة المباركة الخيرة أن كذبوه فأنجاه ربُّه والمؤمنين معه، وأغرق الظالمين المكذِّبين؛ لأنَّهم كانوا قوماً عمين فلا يستحقون البقاء والنجاة. ثم أخبر الله عنهم أنَّهم بعد تلطُّفهم بهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به في السفينة. فإنَّ الفطرة البشرية حين تبلغ حداً معيناً من الفساد، لا تنفكر ولا تتدبر ولا تتذكر، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير، فبعماهم عن الهدى والنصح المخلص والندبر كذبوا، وبعماهم لاقوا هذا المصير.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٧/٥)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١٠٩/١)،

وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٣/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٨/٨)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٨٩/٨).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٧/٥)، وأيسر التفاسير: أبو بكر

الجزائري (١٨٨/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣٠٩/٣).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

لما بيّن الله أنّ الملائكة من قومه مع ذلك كذبوا نوحاً في ادعاء النبوة وتبليغ التكليف من الله، وأصروا على ذلك التكذيب، بيّن أنّه تعالى أنجاه في الفلك وأنجى من كان معه من المؤمنين، وأغرق الكفار والمكذّبين، وبيّن العلة في ذلك بأنهم كانوا قوماً عمين. رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: ضمير الجمع في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عائدٌ إلى القوم، وقد وقع التّكذيبُ من جميع قومه من قاداتهم، ودهمائهم، عدا بعضَ أهل بيته ومن آمن به عقب سماع قول نوح، فغُطف على كلامه بالفاء، أي: صدر منهم قولٌ يقتضي تكذيب دعوى أنّه رسولٌ من ربِّ العالمين يبلغ وينصح، فصار تكذيباً أعم من التّكذيب الأوّل، فهو بالنسبة للملائكة يؤول إلى معنى الاستمرار على التّكذيب، وبالنسبة للعامة تكذيبٌ أنف، بعد سماع قول قاداتهم وانتهاء المجادلة بينهم وبين نوح. **اللطيفة الثانية:** الفاء في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ للتعقيب، وهو تعقيبٌ عرفي؛ لأنّ التّكذيب حصل

بعده الوحي إلى نوح، بأنّه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ولا يرجى زيادة مؤمن آخر. **اللطيفة الثالثة:** في الآية تقديم وتأخير؛ حيثُ قدم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، مع أنّ مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار بإغراق المنكرين، فقدم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين وتعجيلاً لمسرة السّامعين من المؤمنين بأنّ سنة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرّسولَ والمؤمنين، فلذلك التّقديم يفيدُ التّعريض بالندارة، وإلا فإنّ الإغراق وقع قبل الإنجاء، إذ لا يظهر تحقّق إنجاء نوح ومن معه إلا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به، فالمعقب به التّكذيب ابتداءً هو الإغراق، والإنجاء واقع بعده، وليتأتى هذا التّقديم عطف الإنجاء بالواو المفيدة لمطلق الجمع. **اللطيفة الرابعة:** قوله: ﴿فِي الْفُلِكِ﴾ متعلق بمعنى قوله: ﴿مَعَهُ﴾؛ لأنّ تقديره: استقرّوا معه في الفلك، وبهذا التّعليق علم أنّ الله أمره أن يحمل في الفلك معشراً، وأنهم كانوا مصدّقين له، فكان هذا التّعليق إيجازاً بديعاً.

اللطيفة الخامسة: الإتيان بالموصول في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دون أن يقال: وأغرقنا سائرهم، أو بقيتهم، لما تُؤذن به الصلّة من وجه تعليل الخبر في قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ أي: أغرقناهم لأجل تكذيبهم.

اللطيفة السادسة: قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقتضي أنّ نوحاً (ﷺ) كانت له آيات ومعجزات.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٠).

(٢) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٨/١٩٧).

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ يتنزل منزلة العلة لجملة: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ كما دل عليه حرف (إن)؛ لأنه هنا لا يقصد به ردُّ الشك والتردد، إذ لا شك فيه، وإنما المقصود من الحرف الدلالة على الاهتمام بالخبر، ومن شأن (إن) إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فاء التقرُّيع، وتقيد التعليل وربط الجملة بالتي قبلها، ففصل هذه الجملة كلاً فصل. والمعنى: أغرقنا المكذِّبين لكونهم عمي القلوب، لا تتجح فيهم الموعظة، ولا يفيدهم التذكير.

اللطيفة التاسعة: وقد أنكرت طائفة من الجهلة وقوع الطوفان، وهذه سفسطة منهم وكفر فظيغ وجهلٌ بليغٌ ومكابرةٌ للمحسوسات وتكذيبٌ لربِّ العالمين، وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان، وأنه عمَّ جميع البلاد ولم يبق الله أحداً من كفره العباد؛ استجابةً لدعوة نبيه وتنفيداً لما سبق في القدر المحتوم^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

قد دلت هذه القصة على معنى عظيم في إرادة الله تطوّر الخلق الإنساني: فإن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وخلق له الحسَّ الظاهر والحسَّ الباطن، فانتفع باستعمال بعض قواه الحسيّة في إدراك أوائل العلوم، ولكنّه استعمل بعض ذلك فيما جلب إليه الضر والضلال، وذلك باستعمال القواعد الحسيّة فيما غاب عن حسّه وإعانتها بالقوى الوهميّة والمخيّلة، ففكر في خالقه وصفاته فتوهم له أنداداً وأعواناً وعشيرةً وأبناءً وشركاء في ملكه، وتفاقم ذلك في الإنسان مع مرور الأزمان حتّى عاد عليه بنسيان خالقه، إذ لم يدخل العلمُ به تحت حواسه الظاهرة، وأقبل على عبادة الآلهة الموهومة حيث اتّخذ لها صوراً محسوسة، فأراد الله إصلاح البشر وتهذيب إدراكهم، فأرسل إليهم نوحاً فأمن به قليلٌ من قومه وكفر به جمهورهم، فأراد الله انتخاب الصّالحين من البشر الذين قبِلت عقولهم الهدى، وهم نوح ومن آمن به، واستئصال الذين تمكّنت الضلالة من عقولهم لينشئ من الصّالحين ذريّةً صالحةً ويكفيّ الإنسانيّة فساد الضّالّين، فكانت بعثة نوح وما طرأ عليها تجديداً لصّلاح البشر وانتخاباً للأصلح. وقد بيّن الله في هذه القصة أنّه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أنّ العاقبة للمتقين، والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين، ولكن لا بُدّ من التنبيه إلى ملحظٍ مهمٍّ أنّه لم يكن هناك تطور في مفهوم العقيدة الأساسي، الذي جاءت به الرُّسل كلها من عند الله، فإن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة، ثم تتحرف إلى جاهلية ضالة مشرّكة وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٨)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٠)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١/١١٨)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٢٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٩٩).

كانت عليها قبل أن تضل وتشرك. فيهلك من يهلك، ويحيا من يحيا. والذين يحيون هم الذين أبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة، هم الذين علموا أن لهم إلهاً واحداً، واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد، هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرُّسل جميعاً على مدار التاريخ، وعلى أساسها تدور المعركة بين الحقِّ والباطل، وعلى أساسها يأخذ الله المكذِّبين بها وينجي المؤمنين، والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبّر بها جميعُ الرُّسل مع اختلاف لغاتهم في نصِّ واحدٍ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية على مدار التاريخ حتى في صورتها اللفظية؛ ولأنَّ عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسيّاً^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أنَّ الإنسان وإن أعطي الملك والغنى والرئاسة، فهذا لا ينجيه من عذاب الله؛ إنَّما ينجيه الإيمان والتقوى.
٢. تقرير مبدأ العقاب للمتقين.
٣. عمى القلوب أخطر من عمى العيون على صاحبه.
٤. الإيمان حياة ونجاة، والكفر موت وهلاك.
٥. من سنَّ الله إنجاء المؤمنين، وإهلاك المشركين المعرضين.

(١) في ضلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦/٢٦٥)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٨٩)، والمختصر في التفسير:

مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٩).

الفصل الرابع

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٦٥-٨٧)

الإقرار بالنبوات واجبٌ

وينسبك من أربعة مباحث:

- المبحث الأول: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٦٥-٧٢).
- المبحث الثاني: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٧٣-٧٩).
- المبحث الثالث: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٠-٨٤).
- المبحث الرابع: الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٥-٨٧).

المبحث الأول

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٦٥-٧٢)

هود رسول الله

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الدين السماوي واحد.

المطلب الثاني: الأخلاق الحميدة سمة المسلمين.

المطلب الأول: الدِّين السَّمَاوِي واحدٌ

وفيه أربعة مقاصد:

المقصد الأول: المسلمون قادة البشرية

دلَّ عليه قوله: ﴿وإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(١):

عَادٍ: عَادٌ أمةٌ عظيمةٌ من العرب العاربة البائدة، وكانوا عشرَ قبائل، وهم أبناءُ عاد من ذرية نوح، وكانت منازلُ عادٍ ببلاد العرب بالشَّحْر من أرض اليمن وحضرموت وعمان والأحقاف.

أَخَاهُمْ: أي: صاحبهم ورسولهم، والعرب تُسمي صاحب القوم أخَ القوم، ومنه قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: صاحبتها وشبيهتها. والمعنى: وأرسلنا إلى قوم عادٍ أخاهم، أي:

واحداً من قبيلتهم، أو صاحبهم، وسماهم أخاً لكونه ابن آدم مثلهم. أي: أخاهم في النسب لا في الدِّين، والأخ في الأصل مَنْ ولده أبواك أو أحدهما، ويُستعار الأخ في كلِّ مشاركٍ لغيره في القبيلة أو الصنعة أو الدِّين أو المعاملة أو المودة أو غيرها من المناسبات، الأخوة إذا كانت في غير الولادة كانت للمشاكله والاجتماع في الفعل.

هُودًا: هودٌ من ذرية نوح (عليه السلام) كان من قبيلةٍ يقال لها عادٌ، وكانوا عربياً يسكنون الأحقاف^(٢)، وهي جبال الرمل، وكانوا ينزلون الرمل بأرض الشَّحْر وما والاهما، وهي ساحل اليمن ممتداً إلى حضرموت، وكانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جناناً، فلما سخط الله عليهم جعلها مفاوِزَ وصحارى، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام نوات الأعمدة الضخام؛ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم^(٣).

اعْبُدُوا اللَّهَ: العبادة: اسمٌ يجمع غاية الحب له وغاية الدَّل له، فمن ذل لغيره مع بغضه لم يكن عابداً، ومن أحبه من غير ذلٍ له لم يكن عابداً، والله سبحانه يستحق أن يُحَب غاية المحبة؛ بل يكون هو المحبوب المطلق الذي لا يجب شيء إلا له، وأن يعظم ويذل له غاية الذل؛ بل لا يذل لشيءٍ إلا من أجله، ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم؛ فإنَّ الشرك يوجب نقص المحبة.

(١) معالم التنزيل: البغوي (١١٤/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (١٦١/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف

الألفاظ: السمين الحلبي (٧٤/١)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٦٢٥/٧)، وفتح القدير:

الشوكاني (٣٠٧/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٠/٨) وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٩٠/٨).

(٢) الأحقاف جمع حقف، وهو المعوج من الرمل. ينظر: فتح الباري: ابن حجر (٦٢٥/٧).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٦٢/١٥)، وفتح القدير: الشوكاني (٣٠٧/٢)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢٠٠/٨)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١٢٠/١).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(١):

قبيلة عاد قوم هود من أقدم الأمم وجوداً وآثاراً في الأرض، وهم على ما يظهر أقدم من إبراهيم (عليه السلام)، لذا ناسب ذكرها بعد قصة نوح مع قومه، بدليل قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ فأصبح النَّاسُ على علم بواقعة قوم نوح العظيمة وهي الطوفان العظيم؛ لذا كان قول هود لقومه عاد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إشارةً إلى التخويفِ بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا. فيقول الله: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً؛ لذلك فإنَّ ألفاظ قصة هود موافقة للألفاظ المذكورة في قصة نوح إلا في أشياء يسيرة، فالمناسبة بين قصة نوح وقصة هود إنَّها نفس الرسالة، ونفس الحوار، ونفس العاقبة، إنَّها السُّنة الماضية، والناموس الجاري، والقانون الواحد؛ فإنَّ قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح، والذين نجوا معه في السفينة، وما من شكٍّ أنَّ أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح وهو الإسلام، كانوا يعبدون الله وحده، وكانوا يعتقدون أنَّه ربُّ العالمين، فهكذا قال لهم نوح: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] فلما طال عليهم الأمد، وتفرقوا في الأرض، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية، وقادهم من شهواتهم، وفي أولها شهوة الملك وشهوات المتاع، عاد قوم هود يستتكرون أن يدعواهم نبيُّهم إلى عبادة الله وحده من جديد، وقد ساروا في الطريق الذي سار فيه من قبل قوم نوح، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حلَّ بمن ساروا في هذا الطريق.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

بعد أنْ أخبرت السورة الكريمة قصَّة نبيِّ الله نوحٍ أخذتْ في بيان قصَّة هودٍ مع قومه، فقال الله: وكما أرسلنا نوحاً إلى قومه داعياً إلى التوحيد أرسلنا إلى عادٍ واحداً منهم، علاقته بهم علاقة الأخ بأخيه وهو هودٌ فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، ليس لكم إلهٌ غيره، وإنَّ ذلك سبيلُ الاتقاء من الشرِّ والعذاب، وهو الطريق المستقيم، فهلاً سلكتموه لتتقوا الشرَّ والفساد^(٣). قال ابن عطية: "هذه الآية نذارةٌ من هود (عليه السلام) لقومه"^(٤). فإنَّ عاداً كانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها، فبعث الله إليهم هوداً، وكان من أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يُوحِّدوه، وأن يكفوا عن ظلم النَّاسِ، فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِمَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٦١/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٤/٢)، والتفسير المنير: وهبة

الزحيلي (٢٦٠/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٠/٣).

(٢) تفسير المراغي (٢٢٧/٣).

(٣) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٣/٣).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٩/٥).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطفية الأولى: قدم المجرور على المفعول الأصلي في قوله: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ليتأتى الإيجاز بالإضمار حيثُ أريد وصف هود بأنه من إخوة عاد ومن صميمهم، من غير احتياج إلى إعادة لفظ ﴿عَادِ﴾، ومع تجنُّب عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبةً، فقيل: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، و﴿هُودًا﴾ بدلٌ أو بيانٌ من ﴿أَخَاهُمْ﴾.

اللطفية الثانية: الأخ في الآية: ﴿أَخَاهُمْ﴾ مستعملٌ في مطلق القريب على وجه الاتساع، ومنه قولهم: يا أخا العرب، فالمرادُ أنَّ هوداً كان من ذوي نسبِ قومه عاد، وإنَّما وصف هود وغيره بذلك، ولم يُوصف نوحٌ بأنه أخ لقومه؛ لأنَّ النَّاسَ في زمنِ نوحٍ لم يكونوا قد انقسموا شعوباً وقبائلَ، والعربُ يقولون: للواحد من القبيلة: أخو بني فلان، قصداً لعزوه ونسبته تمييزاً للنَّاسِ؛ إذ قد يشتركون في الأعلام، ويؤخذ من الآية ونظائرها أنَّ نظامَ القبائلِ ما حدث إلا بعدَ الطوفانِ، وسماه أخاً لهما لكونه من قبيلتهم لا من جهة أخوة الدِّينِ؛ لأنَّهم اتفقوا على أنَّ هوداً ما كان أخاً لهم في الدِّينِ، وإنَّه كان واحداً من تلك القبيلة؛ ليكون الفهم والأنس بكلامه وأفعاله أكمل.

اللطفية الثالثة: فُصِّلَ قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ولم يُعطف بالفاء كما عطف نظيره في قصة نوح؛ لأنَّ الحالَ اقتضى هنا أن تكون الآية مستأنفةً استئنافاً بيانياً؛ لأنَّ قصَّةَ هودٍ لما وردت عقب قصَّة نوحِ المذكور فيها دعوتُه قومه صار السَّماعُ مترقباً معرفة ما خاطب به هودٌ قومه حيثُ بعثه اللهُ إليهم، فكان ذلك مثار سؤال في نفس السَّماعِ أن يقول: فماذا دعا هودٌ قومه وبماذا أجابوا؟ فيقع الجوابُ بأنه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ مع ما في هذا الاختلاف من النَّقْنِ في أساليب الكلام.

اللطفية الرابعة: الحكمة في كون رسول القوم منهم؛ أن يُفهمهم ويفهم منهم، وأن يكونوا أقرب إلى إجابة دعوتهم لمعرفة شمائله وأخلاقه.

اللطفية الخامسة: في القرآن من قصص الأنبياء ما لا يوجد في التوراة والإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك^(٢). وهذا من أدلة صدق النبوة.

اللطفية السادسة: في الآية دليلٌ على أنَّ العرب الأوائل في جزيرتهم كانوا أصحاب ديانة سماوية قبل غيرهم، فقد بعث اللهُ إليهم من بلغهم رسالة ربِّهم، قبل أن يسمع النَّاسُ باليهودية والنصرانية؛ ذلك أنَّ نبي الله هوداً ونبي الله صالحاً قد بعثهما اللهُ إلى عاد وثمود قبل بعثة موسى

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦١)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٧/٦٢٥)، وفتح القدير:

الشوكاني (٢/٣٠٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٠، ٢٠١).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢/٧٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠١)،

وتفسير المراعي (٣/٢٢٨).

وعيسى، بل قبل بعثة الخليل إبراهيم، فالعرب الأقحاح أُمَّةٌ من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجوداً، وفي ذلك ردٌّ على مزاعم المستشرقين القائلين بأنَّ العرب لا عهد لهم بالأديان^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- المسلمون أمة قيادة:

لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشئ في الأرض طريقها على منهج الله وحدّه، متميزة متفردة ظاهرة، ولقد انبثق وجودها ابتداءً من منهج الله لتؤدي في حياة البشر دوراً خاصاً لا ينهض به سواها، لقد وجدت لإقرار منهج الله في الأرض، وتحقيقه في صورة عملية، ذات معالم منظورة، تترجم فيها النصوص الشرعية إلى حركات وأعمال، ومشاعر وأخلاق، وأوضاع وارتباطات، وهي لا تحقق غاية وجودها، ولا تستقيم على طريقها، ولا تنشئ في الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة، إلا إذا تلقّت من الله وحدّه، وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما تتلقاه من الله وحدّه، قيادة البشرية، لا التلقي من أحدٍ من البشر، ولا اتباع أحدٍ من البشر، ولا طاعة أحدٍ من البشر، إمّا هذا وإمّا الضلال والانحراف، هذا ما يؤكد القرآن ويكرره في شتى المناسبات، وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة، فهو التوجيه الدائم لهذه الأمة، في كلِّ جيلٍ من أجيالها؛ لأنّه هو قاعدة حياتها، بل قاعدة وجودها. لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية. وحين تتخلى عن مهمة القيادة فليس لوجودها من غاية، لقد وجدت للقيادة: قيادة التصور الصحيح، والاعتقاد الصحيح، والشعور الصحيح، والخلق الصحيح، والنظام الصحيح، وفي ظل هذه الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول، وأن تتفتح، وأن تتعرف إلى هذا الكون، وأن تعرف أسرارها، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته، ولكن القيادة الأساسية التي تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله، وتوجهه لخير البشر لا لتهديدهم بالخراب والدمار، ولا لتسخيره في المآرب والشهوات، ينبغي أن تكون للإيمان، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة، مهتدية فيها بتوجيه الله من خلال الرُّسل والرسالات. والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة، إنّ وظيفة الإسلام هي إقصاء أنظمة الكفر من قيادة البشرية، وتولي القيادة على منهجه الخاص المميز، المستقل الملامح، الأصيل الخصائص الشريف الغايات؛ ليعبد الله وحدّه، ويكون الدِّينُ كُلُّهُ لله، فالإسلام يمزج بين الدِّين والدُّنيا، وبين المسجد والدولة، فهو دينٌ ودولةٌ، وعبادةٌ وقيادة^(٣).

(١) لغة القرآن الكريم: عبدالجليل عبدالرحيم (ص: ١٩٥. ٢٠٣).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (١/٤٣٧ . ٤٣٩)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٤٠٨).

(٣) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه: عبد القادر عودة (ص: ٨).

ب- هود رسول الله:

المقصود أنّ عاداً، وهم عاد الأولى كانوا أوّل من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله فيهم أخاهم هوداً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وقد جرى ذكر عاد في القرآن كثيراً، فعاد هم أوّل الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وكان الله قد أنعم عليهم بأن جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلق والشدة والبطش. ولكن عاداً كانوا عرباً جفاةً، كافرين عتاةً، متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له ورجبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة، فكذبوه وخالفوه وتقصوه، واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً، واستبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحامٌ تدفعُ وأرضٌ تبلعُ. وهذا كله كذبٌ وكفرٌ وجهلٌ وضلالٌ وأقوالٌ باطلةٌ وخيالٌ فاسدٌ بلا برهانٍ ولا دليلٍ يستميل عقلَ الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون. فأخذهم الله وأهلكهم بريحٍ صرصرٍ عاتية^(١). وهذا فيه فائدة أن مساكن عاد كانت باليمن، بين عُمان وحضرموت وأن هوداً (عليه السلام) دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً؛ لأنّ الرُّسل إنّما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق؛ وكانوا قد فشا في الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً نبياً، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً وحسباً، فأمرهم ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه. وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وعتوا، واستمر ذلك منهم إلى أن أراد الله إنفاذ أمره، فأمسك الله عنهم القطر (المطر)، فشقوا بذلك حتى جهدهم ذلك. عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: "نصرت بالصبا، وأهلك بالدبور"^(٢). وهذا قصص وقع في تفسير السلف مطولاً، وفيه اختلافٌ، فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز

(١) معالم التنزيل: البغوي (١١٦/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٥/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٤/٢)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١٢٠/١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء. باب قوله: ﴿وَالِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ حديث رقم (٣٣٤٣)، (ص: ٣٩٧)، الصبا هي الريح الشرقية، والدبور مقابلها، يشير (صلى الله عليه وآله) إلى قوله تعالى في قصة الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] وفي هذا الحديث تفضيل بعض المخلوقات على بعض، وفيه إخبار المرء عن نفسه بما فضله الله به على سبيل التحدث بالنعمة لا على الفخر، وفيه الإخبار عن الأمم الماضية وإهلاكها. ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٥٠٩/٧).

ج- دعوة الرُّسُلِ واحدة^(١):

وقد شابته دعوة هودٍ قومَه دعوة نوحٍ قومَه في المهم من كلامها؛ لأنَّ الرُّسُلَ مرسلون من الله، والحكمة من الإرسال واحدة، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم، فجميع الرُّسُلِ يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فدينُ الأنبياء والمرسلين دينٌ واحدٌ، وإن كان لكلٍّ من التَّوراة والإنجيل والقرآن شرعةً ومنهاج، فالإسلام دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، وهو الملة التي أمر الأنبياء جميعاً بها، يقول ابن تيمية: "فصلٌ في توحُّد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحُّد الدين الملي دون الشرعي، والأنبياء كلُّهم دينهم واحدٌ، وتصديق بعضهم مستلزمٌ تصديق سائرهم، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم، وكذلك التكذيب والمعصية، ولهذا كان من صدَّق محمداً فقد صدَّق كلَّ نبيٍّ، ومن أطاعه فقد أطاع كلَّ نبيٍّ، ومن كذبه فقد كذب كلَّ نبيٍّ؛ ومن عصاه فقد عصى كلَّ نبيٍّ" فالمقصود أن كلَّ نبيٍّ إنَّما تعبدَه الله بشريعةٍ خاصة به، أمَّا الدين الجامع وهو الإسلام؛ فإنَّه عامٌّ لجميع الأنبياء، وهذا معنى توحُّد الملة والدين، وتعدد الشرائع والمناهج وتنوعها، ولهذا قال رسول الله (ﷺ): "الأنبياءُ إخوةٌ لعلاتٍ أمهاتهم شتَّى، ودينهم واحدٌ"^(٢)، قال جمهورُ العلماء معنى الحديث أن أصل إيمانهم واحدٌ، وشرائعهم مختلفةٌ، وأنهم متفقون في أصول التوحيد وأصل طاعة الله، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف^(٣). فأصل دينهم واحدٌ، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع. فالدين الذي بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرُّسُل جميعاً، كالأمر بالتوحيد، والصدق، والعدل، وبر الوالدين وصلة الأرحام، والنهي عن الشرك، والظلم، والفواحش، ولذلك فقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجبُ الإيمانُ بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله الله من الكتب الإلهية، فمن كفر بنبيٍّ واحدٍ تُعلم نبوته، مثل إبراهيم ونوح ولوط وصالح وشعيب وموسى فهو كافرٌ عند جميع المسلمين، وإن كان مرتداً استتيب، فإن تاب وإلا قتل، ومن سب نبياً واحداً من الأنبياء قُتل باتفاق المسلمين، وما علم المسلمون أن نبياً من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به؛ كما يصدقون بما أخبر به محمد (ﷺ) وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف، وحينئذٍ

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٩/١٨٥، ١٠٦)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن

تيمية (١/٢٦٤، ٣٤٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٢٨)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠١)، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة: الجيزاني (ص: ٢٣٠).

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ حديث رقم (٣٤٤٣)، (ص: ٤١٠)، العلات الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب، وأولاد العلات الإخوة من الأب، وأمهم شتى. ينظر: فتح الباري: ابن حجر (٨/٨٤).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: النووي (١٥/١١٩)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٨/٨٤).

فالأنبياءُ كلُّهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون به عن الله لا يجوز أن يثبت في خبرهم عن الله خبرٌ باطلٌ لا عمداً ولا خطأً، ولا يجوزُ أن يخبر أحدُهم بخلاف ما أخبر به غيره، بل ولا يفترون في الدين الجامع^(١). فالرسلُ جميعاً بُعثوا بتحصيلِ المصالحِ وتكميلها، وتعطيلِ المفسادِ وتقليلها، وتقديمِ خيرِ الخيرينِ على أديانها حسب الإمكان، ودفعِ شرِّ الشرينِ بخيرهما، لذلك كان أكبر نعمةٍ من الله بها على البشر هي إرسال الرسل، وإنزال الكتب الإلهية، وقول الرسل كلهم لأقوامهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرسل جميعاً على مدار التاريخ، وعلى أساسها يأخذ الله المكذِّبين بها وينجي المؤمنين، فالعقيدة الإسلامية جاءت بحقيقة واحدة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم إليه هو الله ربُّ العالمين الذي يحاسب النَّاسَ في يومٍ عظيمٍ، لقد جاءت الرُّسلُ - رسولاً بعد رسول - بالتوحيد الخالص، إنَّ كلَّ رسولٍ من الرُّسلِ قد جاء إلى قومه، بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه، فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لربِّ العالمين - كما كانت معتقد آدم وزوجه - ثم نشأ انحراف في توحيد الألوهية فبعث الله نوحاً داعياً إلى توحيد ربِّ العالمين ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون، وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لربِّ العالمين حتى إذا طال عليهم الأمد انحرف بعضهم إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم، حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم، ثم تكررت القصة، وهكذا^(٢).

ثالثاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. الآية دالة على أنَّ إرسال الرُّسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده.
٢. الاغترار بالقوة المادية والجسدية يصرف صاحبها عن الاستجابة لأوامر الله ونواهيها.
٣. النبي يكون من جنس قومه، لكنه أشرفهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم معشراً، وأرفعهم خلقاً وأدباً.
٤. أنَّ نتيجة التمردِّ والعنوت والطغيان هي الانهيار والدمار.
٥. دلت الآية على أنَّ دين الله واحدٌ، وهو الإسلام وهو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، وهو عامٌّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فالأنبياءُ كلُّهم دينهم الإسلام، الذي هو عبادة

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢/٢١٥، ٣٨٧، ٣٧١، ٣٦٣).

(أ) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٤)، وفي ظلال سورة التوبة: عبدالله عزام (ص: ١٨٥).

(ب) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١١٦)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (ص: ٤٠٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٩، ٥٨، ٤٥٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٥)، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: صالح الفوزان (ص: ١٨٢)، وتفسير الكريم الرحمن: السعدي (ص: ١٠١)، والعقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد القاضي، (ص: ٨٨).

- الله وحده لا شريك له، وهذا هو الإسلام بالمعنى العام؛ الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك. وأمّا الإسلام بالمعنى الخاص؛ فهو ما بعث الله به نبيه محمداً من الهدى ودين الحق؛ من عقائد صحيحة، وشرائع عادلة، وأعمال صالحة، وأخلاق قويمه، وجعله ناسخاً لما سبقه من الشرائع، فلا يقبل ديناً سواه.
٦. دينُ الأنبياءِ واحدٌ، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وإن تنوّعت شرائعهم، فدعوة الأنبياءِ واحدة، والرّسالةُ الرّبانيةُ واحدة.
٧. أنّ شرائع الأنبياء كلهم داخله في ضمن معنى (لا إله إلا الله) لأنّ معناها خلع جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، وإفراده تعالى وحده بجميع أنواع العبادات، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية، والفعلية، والاعتقادية.
٨. الرسالات الإلهية كلها اتفقت على كلمة عدلٍ واحدة، وهي توحيد الله والنهي عن الشرك.
٩. التوحيد ملة جميع الأنبياء ودعوتهم.

المقصد الثاني: التَّقْوَى جَمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ

دلّ على هذا المعنى الأدبي العظيم قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(١):

تَتَّقُونَ: التقوى لغة: الحجز بين الشئين، وشرعاً: التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه. والمراد بالتَّقْوَى الحذر من عقاب الله على إشراكهم غيره في العبادة واعتقاد الإلهية. والمتقي من اتصف بالاتقاء، وأصله من وقى وقايةً والوقاية بمعنى الصيانة والحفظ من المكروه، فالمتقي هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر، والمراد هنا المتقين الله، أي الذين هم خائفون غضبه واستعدوا لطلب مرضاته واستجابة طلبه، والتقوى الشرعية: هي امتثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر، وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهراً وباطناً، أي: اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيه موجباً غضبه وعقابه، فالكبائر كلّها متوعّد فاعلها بالعقاب دون اللمم. والتقوى: لفظٌ جامعٌ يراد منه فعلٌ كلٌّ خيرٍ، واجتنابٌ كلٌّ شرٍ، ومحل التقوى هو القلب. والمعنى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أتصرون على الشرك فلا تتقون عذاب الله بالإيمان به وتوحيده، والاستفهام إنكاري، أي: ينكر عليهم عدم تقواهم لله.

(١) لوامع الأنوار البهية: السفاريني (٥٣/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٢/١، ٢٢٦)، وتفسير آيات الأحكام: الصابوني (١٨١/٢)، وغاية الأمان في تفسير الكلام الرباني: أحمد الكوراني (٢٨/١) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٩٠/٨).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

هذا هو القصص القرآني الثاني في السورة، قصص هود مع قومه عاد الأولى التي أهلكها الله بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ، فقوله: ﴿وإلى عادٍ﴾ أي: وأرسلنا إلى قبيلة عادٍ أخاهم من النسب هوداً فماذا قال لهم ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحدوه في العبادة ولا تعبدوا معه آلهة أخرى. وقوله: ﴿ما لكم من إله غيري﴾ أي: ليس لكم أي إله غير الله، إذ الله هو الإله الحق، وما عداه فآلهة باطلة؛ لأن الله يخلق وهم لا يخلقون، ويرزق وهم لا يرزقون، ويدبر الحياة بكل ما فيها وهم مدبرون لا يملكون نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فكيف يكونون آلهة، ثم حضهم على التقوى وأنكر عليهم تركهم لها فقال لهم: ﴿أفلا تتقون﴾ أي: الله ربكم فنتركوا الشرك وتوحدوه، والآية مشعرة بالتهديد والتخويف بالوعيد.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ما لكم من إله غيري﴾ أفلا تتقون ﴿مستأنف ابتدائي.

اللطفة الثانية: قوله: ﴿أفلا تتقون﴾ استفهام إنكاري معطوف بفاء التفریع على قوله: ﴿ما لكم من إله غيري﴾ وفيه تعريضٌ بوعيدهم إن استمروا على ذلك، وإنما ابتدأ بالإنكار عليهم إغلاظاً في الدعوة وتهويلاً لفظاعة الشرك، إن كان قال ذلك في ابتداء دعوته، فالآية استنكاراً لقلّة خوفهم من الله، ومن ذلك المصير المرهوب.

اللطفة الثالثة: في قوله: ﴿أفلا تتقون﴾ استعطافٌ إلى التقى والإيمان، فالتقوى أمرٌ يسعى إليه كل مؤمن؛ لما لها من العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة.

اللطفة الرابعة: إن الله قال في قصة نوح ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيري﴾ أي: أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ ﴿بينما قال في قصة هود: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيري﴾ أفلا تتقون﴾، والفرق بين الصورتين أن قبل نوح لم يظهر في العالم مثل تلك الواقعة العظيمة، وهي الطوفان العظيم، فلا جرم أخبر نوح(عليه السلام) عن تلك الواقعة فقال: ﴿إني أخاف عليكم..﴾ وأما واقعة هود فقد كانت مسبوقةً بواقعة نوح، وكان عند الناس علم بتلك الواقعة قريباً؛ فلا جرم اكتفى هود بقوله: ﴿أفلا تتقون﴾

(١) التفسير الكبير: الرازي(١٦٥/١٤)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري(١٩٠/٨).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٥٤٩/٥)، والتفسير الكبير: الرازي(١٦١/١٤)،
والتحريير والتنوير: ابن عاشور(٢٠٢،٢٠١/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب(١٣١٠/٣)، ومجالس قرآنية:
عويض بن حمود العطوي(ص:٨).

والمعنى: تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله ولم يطيعوه نزل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خيره في الدنيا، فكان قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المتقدمة المشهورة في الدنيا.
رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

التقوى وصية الله للأولين والآخرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده، وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه، وإذا أضيفت التقوى إلى اسم الله كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، فالله أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه، لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش، وشدة البأس، ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهي أعلى درجات التقوى، فالتقوى هي من الوقاية بأن يجعل بينه وبين ما يخشاه وقايةً تقيه، فتقوى الله أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من غضب الله وسخطه وقايةً تقيه بفعل الأوامر، وترك المناهي، ولهذا أفضل ما فسرت به التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله. وهذا من أحسن ما عرفت به التقوى، ومن تأمل كلمة التقوى في كلام الله ورسوله علم أن التقوى هي أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله ربه وقايةً له من كل ما يكره، ويخاف من الخيبة والخسران في الأولى والأخرى، ويتحرى بكل يقظة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سبباً لفلاحه في الدنيا والآخرة، مؤمناً بأن كل ما آتاه ربه في نفسه وماله وولده وما سخر له صالح أن يكون سبباً للفلاح وسبباً للخسران^(٢). وما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام، وإنما سموا متقين؛ لأنهم اتقوا ما لا يتقى، فالمتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسامهم الله متقين، وفي الجملة، فالتقوى هي وصية الله لجميع خلقه، ووصية رسول الله ﷺ، ولأمته، وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو صاه في خاصة نفسه بنقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً. فتقوى الله

(١) الإيمان: أبو بكر ابن أبي شيبة (ص: ٦٧)، وجامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي (ص: ٢١١).

(٢) تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: عبد المنعم صالح العلي العزي (ص: ١٨٤)، والتحفة السنية شرح منظومة

ابن أبي داود الحائثية: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (ص: ٢٦).

جماع كل خير، ولم يزل السلف الصالح يتواصلون بها، فإنها خير زاد الآخرة والأولى، فقد توكل الله لأهلها بالنجاة مما يحذرون، والرزق من حيث لا يحتسبون وفي الجملة فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين^(١).
خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهداف وهدايات^(٢):

١. أن الشرع جاء بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام، وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى.
٢. أن التقوى زمام القلوب الذي يمكن أن تقاد منه طائفة ذلولة في يسر وفي هودة، وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى الإصلاح.
٣. في الآية دليل على أهمية التقوى في حياة المسلم؛ فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانفتاح بكتاب الله، وهي التي تفتح مغاليق القلب له فيدخل ويؤدي دوره، وهي التي تهيب لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب. ولا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة، وعندئذ يفتح القرآن عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً، خائفاً، حساساً، مهياً للتلقي.
٤. أن التقوى حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواق الطريق، طريق الحياة الذي تتجاذبه أشواق الرغائب والشهوات، وأشواق المطامع والمطامح، وأشواق المخاوف والهواجس.
٥. المتقون هم قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله بالعبادة.
٦. أن التقوى واجبة.
٧. أن من معاني التقوى أن يطاع الله فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات.
٨. أن التقوى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

(١) جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي(ص:٢١٦).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر(٦٠٤/١٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب(١٤٧٤/٣)،

(٣٨،٣٩/١)، والفتوحات الإلهية: الجمل(٢٠٩/١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية(ص:١٥٨).

المقصد الثالث: الكفر ملّة واحدة في مواجهة النبوة

دلّ عليه قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

المَلَأُ: المَلَأُ الأشراف؛ سُموا بذلك لأنّهم يملؤون القلوب هيبَةً، والعيونَ جلالَةً، وسُمي الرؤساء بذلك لأنّهم ملأى بالرأي والعناء، والمَلَأُ: القوم يجتمعون على رأيٍ فيملؤون القلوب هيبَةً، ثم أُطلق على كلّ جماعةٍ؛ لأنّهم كانوا يملؤون على ما يريدون، أي: يتعاونون.

سَفَاهَةٌ: السّفاهة سخافة العقل وخِفْثُهُ، وقلة الإدراك والحلم؛ حيث جعلوا قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ كلاماً لا يصدرُ إلا عن مُخْتَلِ العقل؛ لأنّهُ من قول المُحال عندهم، والسّفاهة مصدرٌ عبّر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسّفَةُ في الثوب خِفَّة نسجه.

وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ: الظنُّ على بابهِ؛ لأنّهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص، وقد كان تكذيبهم إياه على الظنِّ لا على اليقين، فكفروا به ظانين لا متيقنين، وهذا يدلُّ على أنّ حصول الشك، والتجويز في أصول الدّين يوجب الكفر، وقال بعضُ المفسرين: المراد منه القطع والجزم.

سَفَاهَةٌ: خِفَّة عقلٍ، وضلالة عن الحقِّ، وحمق وجهالة، أي: تدعونا إلى دين لا نعرفه^(٢).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

قال الكبراء والسادة من قوم هود الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله: إنّنا لنعلم أنّك يا هود في حمقٍ وطيشٍ حين تدعونا إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، وإنّا لنعتقد جازمين أنّك من الكاذبين فيما تدعيه من أنّك مرسلٌ، فكأنّما كُبر على المَلَأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحدٌ من قومهم إلى الهدى، وأن يستنكر منهم قلة التقوى، ورأوا فيه سفاهةً وحماقةً، وتجاوزا للحدِّ، وسوء تقدير للمقام، فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً في غير تحرجٍ ولا حياءٍ، هكذا جُزافاً بلا تروٍّ، ولا تدبّرٍ، ولا دليلٍ، فقد نسبوه إلى الخِفة والحمق والطيش، ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا مؤكدين لظنّهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة، أي: أخبرت الآية أنّ الأغنياء الذين كفروا من قوم هود قالوا له: إنّنا لنراك في خِفة عقلٍ، راسخاً فيها حيث هجرت دين قومك إلى دينٍ آخر، وإنّا لنظنُّكَ من الكاذبين في دعوى التبليغ عن الله، وهذا ردُّ قبيحٍ منهم^(٤).

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٤٩)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٢)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤/١٠٦)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٢٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٢)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٩٠)، وتفسير المراغي (٣/٢٢٧).

(٢) معالم التنزيل: البغوي (٢/١١٥)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٢).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/٣٠٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٠).

(٤) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٣)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٩٠).

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: وصف الملأ بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وصفٌ كاشفٌ وليس للتقيد تقنناً في أساليب الحكاية، ووصف ﴿الملأ﴾ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح؛ لأنَّ في أشرف قوم هود من كان قد آمن. اللطيفة الثانية: قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي رُؤْيَا قَلْبِيَّةٍ، أَي: إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ.

اللطيفة الثالثة: أطلقوا الظنَّ على اليقين في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهو استعمال شائع وكثيرٌ، وفي قولهم هذا إيماءٌ إلى تكذيبهم كلَّ رسول، إذ هم قد عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين، وجعلوه واحداً منهم.

اللطيفة الرابعة: تعريفهم بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للإشعار بعراقتهم في الكفر، ولبيان ذمهم بهذا الوصف (الكفر) حيث إنَّه وصفهم الذي به يُعرفون، ولإيضاح شناعة جرهم.

اللطيفة الخامسة: أن الله أخبر عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأخبر عن قوم هود أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ..﴾ والفرق بين الصورتين أن نوحاً كان يخوف الكفار بالطوفان العام، وكان أيضاً مشتغلاً بإعداد السفينة، فعند هذا، القوم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ولم يظهر شيءٌ من العلامات التي تدلُّ على ظهور الماء في تلك المفازة، أمَّا هود فما ذكر شيئاً إلا أنه زيف عبادة الأوثان، ونسب من اشتغل بعبادتها إلى السفاهة وقلة العقل، فلما ذكر هود هذا الكلام في أسلافهم قابله بمثله ونسبوه إلى السفاهة، والكذب في ادعاء الرسالة. اللطيفة الثانية: إنَّ القوم لما قالوا لـ هود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فهو لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة، بل قابلها بالحلم والإغضاء، ولم يزد على قوله: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ وذلك يدلُّ على أن ترك الانتقام أولى، لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطةٍ وصدقٍ.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- الكفرُ ملةٌ واحدةٌ في مواجهة النبوة:

إنَّ الأنبياء جميعاً أمةٌ واحدةٌ مهما اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، وإنَّ أهل الباطل كذلك، وقد تشابهت أقوال قوم هودٍ وأقوال قوم نوحٍ في تكذيب الرسول؛ لأنَّ ضلالة المكذِّبين متَّحدةٌ، وشبهاتهم متَّحدةٌ، كما قال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] فكأنَّهم لَقَّن بعضهم بعضاً، كما

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٦٢/١٤، ١٦٣)، وتفسير المراغي (٢٢٨/٣)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢٠٢/٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١١/٣)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية (ص: ١٥٨)، ومجالس قرآنية: عويض بن حمود العطوي (ص: ٥٧).

(٢) مُعني المحتاج: الخطيب الشربيني (٣٠/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٣/٨)، وفقه السنة: السيد

سابق (٣٣٢/٤)، والقصص القرآني: فضل حسن عباس (ص: ٣٤).

قال تعالى: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]. فكما أنّ دين الأنبياء واحدٌ ألا وهو الإسلام، فكذلك الكفار يمثلون ملة واحدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَعْلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. وذلك لأنّ جميع ملل الكفر في البطلان كالملة الواحدة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. قال الفقهاء: أمّا غير المسلمين، فإنّ بعضهم يرثُ بعضاً؛ لأنّهم يعتبرون أهل ملة واحدة.

ب- الاستهزاء بالرُّسل دأب الملحدين في التنفير من الدِّين:

إنّ من سنن الله في هذا الكون التدافع بين الحقّ والباطل، وهو ما يعرف في لغة القرآن بـ(سنة المدافعة) قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فما من نبيّ بعثه الله إلى أمةٍ من الأمم إلا كان له أعداءٌ من قومه، يناصرونه العداوة، ويصدون الناس عن دعوته، يفسدون في الأرض بعد إصلاحها، فكان من صنوف الأذى وصور الابتلاء للرُّسل وأتباعهم السخرية والاستهزاء بهم، قال أهل التفسير في ردهم على ما عارض به المشركون أهل التوحيد والإيمان: "وقد تضمنت معارضتهم مسبة من دعا إلى التوحيد وأنكر الشرك أسوة أعداء الرُّسل كقوم نوح إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقال قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فالظلم والزور في كلام هؤلاء المنكرين للتوحيد أمرٌ ظاهرٌ، فقد تناولت مسبتهم كل من دعا إلى الإسلام، وعمل به من الأولين والآخرين، كما أنّ من كذب رسولاً بما جاء به من الحقّ فقد كذب المرسلين، كما ذكره الله في قصص الأنبياء، فمن أنكر ما جاءت به الرُّسل فهو عدوٌّ لهم، فهذه العداوة من المجرمين للرُّسل وأتباعهم أمرٌ ظاهرٌ للعيان، كأنّما هم متواصون به، فقد قالوا ذلك تقليداً لأبائهم، واقتداءً لأثارهم، فمورد جهالتهم مؤتلف، ومشروع تعنتهم متحد. فقولته: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ﴾ إنكارٌ وتعجيبٌ من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحدٍ من العقلاء، فضلاً عن التفوّه بها، أي: أوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه^(١) مع بُعد الديار، وطول الأحقاب بينهم، ما يقال لك يا محمّد إلا ما قيل للمرسلين قبلك من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الرُّسل، وفي الكتب المنزّلة، فلا يكون هذا الأذى، وهذا الاستهزاء دافعاً لك في ترك تبليغ رسالة ربك، وإنذار قومك، فكلُّ هذه الآيات البيّنات تدلُّ دلالة واضحة على ما واجه به أعداء الرُّسل رسلم بالاستهزاء والسخرية، إمعاناً في تكذيبهم، واستخفافاً بقولهم، وبناءً عليه فإنّ الاستهزاء بالرُّسل وأتباعهم سنة ماضية، وهي طريقةٌ للمجرمين، والملاّ المستكبرين^(٢).

(١) محاسن التأويل: القاسمي (٤٥/٩).

(٢) الاستهزاء بالدين: أحمد محمد القرشي (ص: ١٧٩، ٢٠٦).

ومن صور الاستهزاء بنوح ما ذكر الله عن قومه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فهذا وصف الملأ المستكبرين لنوح، وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعو إلى الهدى هو الضال، هكذا تتقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوى، ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله، وماذا تقول الجاهلية اليوم إنَّها تسمي الطهارة والنظافة رجعيةً وتخلفاً وجموداً، وينفي نوح عن نفسه الضلال، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه، إنَّ نوحاً يتلقى هذا الاتهام والإعراض والاستكبار، في سماحة النبي وفي استعلائه، وفي ثقته بالحق الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربِّه الذي أرسله؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره، فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقته، ثم تكون العاقبة للمتقين، والهالك والغرق للمكذِّبين المستكبرين ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ما وقع لـ(هود) من قومه المستكبرين(عاد)، من وصفه بالسفه، والكذب، والجنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي: إنا لنراك يا هود في سفه، أي: حمق وخفة عقل^(١)، وكان هذا الاستهزاء من قومه عندما دعاهم إلى التوحيد، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام، وإفراد الله وحده بالعبادة. وهذا من استهزائهم بهود، فكان جواب نبي الله هود في مقابلة هذا السفه والجهل من قومه أن وعظهم موعظة بليغة، ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ما وقع لنبي الله صالح من قومه ثمود، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ... أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٧٥] وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، لأنَّهم يعلمون بأنَّهم عالمون بذلك. وقد نصَّ العلماء على أنَّ قولهم هذا استهزاء، فقالوا: ومن استهزائهم بصالح قولهم: ﴿يَا صَالِحُ اثْبِتْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. ومن صور الاستهزاء بالأنبياء ما حصل لنبي الله لوط من قومه أهل قرية سدوم عندما دعاهم إلى دين الله وتوحيده، والتطهر من الفاحشة، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقولهم هذا سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، هذا هو منطق المستكبرين في الأرض يقابلون الحجج والبراهين بالسخرية والاستهزاء والسب والشتم، ومن حكمة الله أن يجعل الجولة الأولى للكافرين في معركة التدافع بين الحق والباطل، ثم تكون العاقبة للمتقين، ويُنزِلُ اللهُ عقابه الدنيوي على أهل الكفر والعناد والاستكبار، الذين اخذوا دينهم هزواً ولعباً. قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأأنعام: ١٠] أي: نزل بأمرهم من العذاب ما أهلكوا به جزاء استهزائهم بأنبيائهم. ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي(٧/٢٣٦)،(٦/٣٩٤)، ومحاسن التأويل: القاسمي(٥/١٢٧، ١٣٩).

المصائب؛ فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال، وأنَّ الطاعة سبب النعمة، فإحسان العمل سبب لإحسان الله، وقد أخبر الله بما عاقب به أهل السيئات من الأمم؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وقوم فرعون في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة؛ ولهذا يذكر الله في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا وما أعدَّ لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط؛ إذ عذاب الآخرة أعظم؛ وثوابها أعظم؛ وهي دار القرار، وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب في الدنيا تبعاً، فكان من عقوبات الله الدنيوية التي حلت بأصحابها ما نزل بقوم نوح، وقد دعا قومه إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، فقبول بالاستهزاء والسخرية فأغرقهم الله بالطوفان، فصار قوم نوح مثلاً وعبرة للأمم من بعدهم، ومن عقوبات الله التي حلت بالمستهزئين ما نزل بعاد قوم هود من اللعنة والريح التي فيها عذاب أليم، فصاروا كغيرهم من المستكبرين المستهزئين مثلاً وعبرة، ومن العقوبات التي حاقت بالمستهزئين الساخرين ما نزل بتمود قوم صالح حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما يُعبد من دون الله من الأوثان فقابلوه بالكذب والسخرية، وعقروا الناقة التي جعلها الله لهم آيةً، فعاقبهم الله بالصيحة، ومن العقوبات التي أحاطت بالمستهزئين من أهل قرية سدوم قوم لوط، وقد أعلنوا بالفاحشة وتكذيب نبي الله ورسوله إليهم، ومن عقوبات الله للمستهزئين من أهل مدين قوم شعيب ما نزل بهم من الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، فكانت نهاية أليمة للظالمين المستكبرين، الذين اتخذوا دينهم ونبيهم هُزواً وسخرية^(١). هذه صور ونماذج لبعض ما أوقعه الله على المستهزئين من عقوبات في الدنيا، وما ينتظرهم وأمثالهم في الآخرة أشدُّ وأنكى.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. أن الله أقام الحجة وقطع العذر عن الخلق بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب التي تهدي للحق وتحذر من الباطل.
٢. يجب الإقرار والإيمان بجميع الأنبياء الذين أرسلهم الله، وجميع ما أنزل عليهم من الكتب الإلهية.
٣. الملاءمة الجمهور والسادة والقادة من الأمة.
٤. تدلُّ الآية على أنَّ حصول الشك، والتجوز في أصول الدين يوجب الكفر.
٥. الاستهزاء بالأنبياء والرُّسل عاقبته وخيمة.
٦. الأنبياء وورثتهم يقابلون السفهاء بالحلم، ويغضُّون عن قول السوء بالصفح والعفو.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٣٨/٢٨)، والاستهزاء بالدين: أحمد محمد القرشي (ص: ٥٦٠ . ٥٧٥).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٦٢/١٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٤/٢)، والمختصر في التفسير:

مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٥٩، ٦١)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٥/٣).

المقصد الرابع: مدح النفس جائزٌ للحاجة

ويدلُّ على هذا قول الله إخباراً عن هودٍ: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ

رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨]

أولاً: المعنى الإجمالي للآية الكريمة^(١):

الآية تشير إلى أن هوداً أخذ يدافع عن نفسه، ويبيِّن لقومه وظيفته بأسلوبٍ حكيم، فقال: يا قوم ليس في هذه الدعوة أيُّ قدرٍ من خِفةِ العقل، وليس بي سفاهةٌ أو حماقةٌ حيثُ دعوتُكم إلى دين التوحيد الخالص والعبادة الصادقة، وأنا رسول الله إليكم اختارني لأداء هذه المهمة، وهو ربُّ العالمين الذي خلقكم ورزقكم ودبركم، وإنِّي أكثرُكم نُصحاً، وإخلاصاً لكم، وأنا أمينٌ فيما أُخبرُكم به، مريدٌ لكم الخير، أمينٌ على وحي الله إليّ، لا أغشكم ولا أخونكم ولستُ من الكاذبين، فلقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطةٍ وصدقٍ.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الاستدراك الذي في قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ لرفع ما توهموه من أنه في ضلالٍ حيثُ خالف دينهم، أي: هو في حال رسالةٍ عن الله، مع ما تقتضي الرسالة من التبليغ والنصح والإخبار بما لا يعلمونه، وذلك ما حسبه ضلالاً، وشأن (لكن) أن تكون جملتها مفيدةً معنى يغاير معنى الجملة الواقعة قبلها، ولا تدلُّ عليه الجملة السابقة وذلك هو حقيقة الاستدراك الموضوعه له (لكن) فلا بد من مناسبة بين مضموني الجملتين، وأكثر وقوعها بعد جملة منفية؛ لأنَّ النفي معنى واسع، فيكثر أن يحتاج المتكلم بعده إلى زيادة بيان، فيأتي بالاستدراك.

اللطيفة الثانية: اختيار طريق الإضافة في تعريف المرسل في قوله: ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لما تُؤذن به من تفخيم المُضاف ومن وجوب طاعته على جميع النَّاس، تعريضاً بقومه إذ عصوه.

اللطيفة الثالثة: أثر التعبير بالرسول دون النبي؛ لأنَّه أليق بسياق الكلام، فالرسول في اللُّغة الذي يُتابع أخبار الذي بعثه، ولأنَّ من خصائص الرسول الكشف عن مراد الله وتبليغه للنَّاس.

اللطيفة الرابعة: في قصة نوح قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وهو صيغة الفعل، بينما في قصة هود قال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ وهو صيغة اسم الفاعل، فنوح قال ما يدلُّ على أنه غير مُقلعٍ عن

(١) في ظلال القرآن (٣/١٣١١)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٣)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٩١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٤٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/١٩٢، ٢٠٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣٠٥)، والتدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير: عبد الله عبد الغني سرحان (ص: ١٢٧).

النُّصْح؛ حيثُ جاء بالمضارع دلالة على تجديد النَّصْح لهم، وأتته غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاتهم. وهود قال ما يدلُّ على أنَّ نصَّحه لهم وصفٌ ثابتٌ فيه متمكِّنٌ منه، وأنَّ ما زعموه سفاهاً هو نصَّحٌ، صيغة الفعل تدلُّ على التجدد ساعةً فساعةً، وأمَّا صيغة اسم الفاعل فإنَّها دالةٌ على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل.

اللطيفة الخامسة: قول كلِّ رسولٍ لقومه: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ معبراً عن ثقل التبعة، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة، ورغبته في هداية قومه، وهو منهم. **اللطيفة السادسة:** في قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم عرفوه بالأميرين.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استدراكٌ باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدى، كأنَّه قال: ولكنني على هدى في الغاية؛ لأنِّي رسولٌ من الله، قال الرازي: "وهو مدحٌ للنفس بأعظم صفات المدح؛ وإنما فعل ذلك؛ لأنَّه كان يجب عليه إعلام القوم بذلك، وذلك يدلُّ على أنَّ مدح الإنسان نفسه إذا كان في موضع الضرورة جائزاً".

وفي إجابة الأنبياء (ﷺ) الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال النَّصْح والشفقة، وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكلِّ ناصِحٍ، والنَّصْح والنَّصيحة كلمةٌ جامعةٌ، يُعبَّر بها عن حسن النِّيَّة، وإرادة الخير من قولٍ أو عملٍ، ويكثر إطلاق النَّصْح على القول الذي فيه تنبيهٌ للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضرر^(٢).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. مشروعية دفع الاتهام، وتبرئة الإنسان نفسه ممَّا يُتهم به من الباطل؛ فإنَّ سعي الإنسان في دفع أسباب التهمة السيئة عن نفسه ليس بعارٍ، بل من سيماء الأخيار.
٢. أنَّ من وظائف الرُّسل البلاغ لما أمروا بإبلاغه.
٣. فضيلة النَّصْح، وحُلُق الأمانة.
٤. الأنبياء نصَّحوا، والمنافقون غشَّوا.
٥. على الداعية بذل الجهد في الدعوة، والنتائج بيد الله.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٦٣/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٣/١).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٥/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (١٩٤/٨).

(٣) المواهب الريفانية من الآيات القرآنية: السعدي (ص: ٥١)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٩٢، ١٩١/٨).

والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٣٥٧).

المطلب الثاني: الأخلاق الحميدة سمة المسلمين

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأول: الأخلاق من الإيمان

دلَّ على هذا المقصد الأخلاقي قوله إخباراً عن هودٍ: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَمِينٌ: الآمنُ من كلِّ سوءٍ وآفةٍ ومكروهٍ، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، قال تعالى عن أصحاب الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدُّحَان: ٥١] أمين هو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهلُه آمنون فيه من الخروج والنقص والنكد. والأمين المعروف بالأمانة، وهو الثقة، والمعنى: أمينٌ لا أخونكم ولا أغشكم ولا أكذبكم، كما أنني مأمونٌ على رسالتي، لا أفرط في إبلاغها.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: أتبع: ﴿نَاصِحٌ﴾ ب: ﴿أَمِينٌ﴾ وهو الموصوف بالأمانة، لردِّ قولهم له: ﴿وَأَنَا لَنظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ لأنَّ الأمين هو الموصوف بالأمانة، ووصف هود نفسه بكونه أميناً، مقصود منه أمور: أحدها: الرد عليهم في قولهم: إنك من الكاذبين، وثانيها: أن مدار أمر الرِّسالة والتبليغ عن الله على الأمانة، فوصف نفسه بكونه أميناً تقريراً للرِّسالة والنبوة، وثالثها: كأنه قال لهم: كنت قبل هذه الدعوى أميناً فيكم، ما وجدتم مني غدرًا ولا مكرًا ولا كذبًا، فكيف نسبتُموني الآن إلى الكذب؟

اللطيفة الثانية: تقديم الجار والمجرور: ﴿لَكُمْ﴾ على عامله للإيدان باهتمامه بما ينفعهم.

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

أ- الأمانة خلق المسلمين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وينبغي أن يُعرف الأصلح في كلِّ منصبٍ؛ فإنَّ الولاية لها ركنان: القوَّة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. واجتماع القوَّة والأمانة في النَّاسِ قليلٌ، فالواجبُ في كلِّ ولايةٍ الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانةً، والآخر أعظم قوَّةً قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، والقوَّة في كلِّ ولايةٍ بحسبها؛ فالقوَّة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والخادعة فيها،

(١) التفسير الكبير: الرازي(١٦٣/١٤)، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية(ص:٩٨)، وفتح

القدير: الشوكاني(٣٠٨/٢)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري(١٩٠/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي(١٦٣/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(٢٠٤،٢٠٣/٨).

(٣) السياسة الشرعية: ابن تيمية(١٠٢/١).

فإنَّ الحرب خُدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال، من رمي وطعن وضرب وركوب، وكر، وفر، ونحو ذلك، والقوة في الحكم بين النَّاس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة تُرجع إلى خشية الله، وترك خشية النَّاس". والأمانة حالة في الإنسان تبعته على حفظ ما يجب عليه من حقِّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه، وضدَّها الخيانة، والأمانة من أعز أوصافِ البشر، وهي من أخلاق المسلمين، والصِّدق من الأمانة، والكذب من الخيانة؛ لأنَّ الكذب: الخبر بأمر غير واقع في صورة توهم السَّامع واقع، فذلك خيانة للسَّامع، والصِّدق: إيلاخ الأمر الواقع كما هو، فهو أداء لأمانة ما علمه المخبر، فقوله في الآية ﴿أَمِينٌ﴾ وصفٌ يجمع الصِّفات التي تجعله محلَّ التُّقة من قومه، ومن ذلك إبطال كونه من الكاذبين، ويُحتمل أن يريد على الوحي والذكر النازل من قِبَلِ الله، ويُحتمل أن يريد أنَّه أمينٌ عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم، ويُحتمل أن يريد به أمينٌ من الأمن، أي: جهتي ذات أمنٍ من الكذب والغش^(١).

ب- الأخلاق الحميدة الفاضلة أسُّ الحضارة والتقدم والبناء^(٢).

في إجابة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم بتلك الإجابة الصادرة عن الحكمة والإغضاء عما قالوا من وصفهم إياهم بالسفاهة والضلالة أدبٌ حسنٌ وخلقٌ عظيمٌ وتعليمٌ لعباده كيف يقابلون السفهاء، وكيف يغضون عن قالة السوء التي تصدر عنهم، فالأخلاق عنصر أصيل في تقويم شؤون الحياة وصلاح المجتمع، ولا يغني عنها أي تقدم في مجال الثقافة والعلوم والصناعات، وآية ذلك ما نراه اليوم في العالم المعاصر، فإنَّ الأزمة التي يمرُّ بها العالم المعاصر إنما هي أزمة أخلاقية في أساسها وجوهرها. وبناء الإسلام يقوم أصلاً على أساس من الأخلاق الفاضلة الكريمة، قال تعالى لنبيه (ﷺ): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤] أي: وإِنَّكَ لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ، وهو الإسلام. وقيل لعلَى أدبٍ عظيم. وقد جمع الله لنبيه (ﷺ) مكارم الأخلاق في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فقد أمر الله نبيه (ﷺ) بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وأخبر رسول الله (ﷺ) "أَنَّ الْبِرَّ: هُوَ حُسْنُ الْخُلُقِ"^(٣).

والدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدِّين، وحسن الخُلُق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبنائها على أربعة أركان:

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٥٠)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤/٤٠٢)، وتفسير المراغي (٣/٢٢٨)، والثقافة الإسلامية: خالد تريان،

ومحمود عجور (ص: ١٢).

(٣) صحيح مسلم في كتاب البر والصلة، حديث رقم (٢٥٥٣).

الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب، لذلك فإن تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد؛ والرسول الكرام أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكية النفوس وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم^(١). فمراعاة قواعد الأخلاق الحميدة هي من صميم الإسلام العظيم.

المقصد الثاني: الإنسان خليفة في الأرض

دلّ عليه قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]

أولاً: المفردات اللغوية في النص القرآني^(٢):

وَأذْكُرُوا: الذكر: لفظٌ عامٌ للمواعظ والأوامر والنواهي.

خُلَفَاءَ: الخلفاء جمع خليفة، وهو الذي يخلف غيره في شيء، أي: يتولى عمل ما كان يعمله

الآخر، فالمراد: جعلكم خلفاء في تعمير الأرض، وجعلكم سكان الأرض بعد قوم نوح.

وَزَادَكُمْ: المعنى: وزادكم بصطة في الناس بأن جعلكم أفضل منهم فيما تتفاضل به الأمم من

الأمر كلها، فيشمل رجحان العقول وقوة الأجسام وسلامتها من العاهات والآفات وقوة البأس.

فِي الْخَلْقِ: الخلق في اللغة عبارة عن التقدير، فهذا اللفظ إنما ينطلق على الشيء الذي له مقدار

وجثة وحجمية، فكان المراد حصول الزيادة في أجسامهم، ومن العلماء من حمل هذا اللفظ على

الزيادة في القوة؛ وذلك لأنّ القوى والفُدر متفاوتة فبعضها أعظم وبعضها أضعف.

بَسْطَةً: البصطة: الوفرة والسعة في أمر من الأمور، فالبصطة الزيادة في القوى الجبلية، أي:

زادهم قوة في عقولهم وأجسامهم، فخلقهم عقلاء أصحاء، والبصطة الكمال في الطول والعرض،

وقيل زادكم على أهل عصركم، واللفظ يقتضي أنّ الزيادة هي على جميع العالم.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

تخبر الآية أنّ هوداً ذكرهم بنعم الله عليهم لعلها تُحدث لهم ذكراً في نفوسهم فيتراجعون

بعد عنادهم وإصرارهم فقال: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: بعد أن أهلكهم

بالطوفان لإصرارهم على الشرك، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: جعل أجسامكم قوية وقاماتكم

طويلة، هذه نعم الله عليكم ﴿فَأذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ لأنكم إن ذكرتموها بقلوبكم شكرتموها بأقوالكم

وأعمالكم، وبذلك يتم الفلاح، وهو نجاتكم من المرهوب وظفركم بالمحبيب وهو الفوز المطلوب.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٣/٦٦ . ١٠٧).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٥٠، ٥٥١)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٤)،
والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٨/١٩١).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

يجوز أن يكون قوله: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ عطفاً على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥] ويكون ما بينهما اعتراضاً حكى به ما جرى بينه وبين قومه من المحاوراة التي قاطعوه بها عقب قوله لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فلما أتمَّ جوابهم عمّا قاطعوا به كلامه عاد إلى دعوته، فيكون رجوعاً إلى الدّعى، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: لا تنتكروا أن جاءكم ذِكْرٌ من ربِّكم، واذكروا نعمته عليكم، فيكون تكملة للاستدلال، وأياً ما كان فالمآل واحدٌ.
رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطفية الأولى: ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ﴾ اسمُ زمانٍ منصوب على المفعول به، والتّحقيق أن ﴿إِذْ﴾ لا تلازم الظرفية، بل هي ظرف متصرّف، والمعنى: اذكروا الوقت الذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوح في تعمير الأرض، والهيمنة على الأمم، فإنَّ عاداً كانوا ذوي قوّة ونعمة عظيمة ولهذا أتى بـ ﴿إِذْ﴾ الدالة على تذكر تلك الحال وتصويرها.

اللطفية الثانية: لفظ الآية يدلُّ على حصول الزيادة واعتداد تلك الزيادة فليس في اللفظ البتة ما يدلُّ عليه إلا أنَّ العقل يدلُّ على أنَّ تلك الزيادة يجب أن تكون زيادةً عظيمةً واقعةً على خلاف المعتاد، وإلا لم يكن لتخصيصها بالذكر في معرض الأنعام فائدةً.

اللطفية الثالثة: قوله: ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحال من ضمير المخاطبين.

اللطفية الرابعة: في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ.

خامساً: بيان المقصد من الآية^(٣):

إنَّ المقصود من الآية أنَّ قوم هود خلفاء قوم نوح، فعاد أولُ أمةٍ اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان، وكان بنو نوح قد تكاثروا وانتشروا في الأرض، في العراق وبلاد العرب، وكانوا أماً كثيرةً، أو كانت عادٌ عظم تلك الأمم وأصحاب السيادة على سائر الأمم، وليس المراد أنهم خلفوا قوم نوح في ديارهم؛ لأنَّ منازل عادٍ غير منازل قوم نوح عند المؤرّخين، وهذا التذكيرُ تصريحٌ بالنعمة، وتعريضٌ بالندارة والوعيد بأنَّ قوم نوح إنَّما استأصلهم وأبادهم عذابٌ من الله على شركهم، فمن اتبعهم في صنعهم يوشك أن يحلَّ به عذاب أيضاً، وقال قومٌ من المفسرين يحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ كونهم من قبيلةٍ واحدةٍ متشاركين في القوّة

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٤/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٦٤/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٥/١)، والمواهب الريانية من الآيات القرآنية: السعدي (ص ٢٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٦، ٢٠٥/٨).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٦٤/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٠٥/٨).

والشدة والجلادة، وكون بعضهم محباً للباقيين ناصراً لهم، وزوال العداوة والخصومة من بينهم؛ فإنَّ الله لما خصهم بهذه الأنواع من الفضائل والمناقب فقد قرر لهم حصولها.
سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. الآية تعديداً للنعم على العباد.

٢. جواز البناء الرفيع كالقصور ونحوها؛ لأنَّ من آثار الصنعة البناء الحسن مع شكر المنعم.

المقصد الثالث: نسيان النعم كفر بالمنعم، وشكر المنعم واجب شرعاً

ويدلُّ على هذا المقصد العقدي قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

فَاذْكُرُوا: ليس المراد بالذكر مجرد الذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني، وذكر الله يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

آلَاءَ: النعم جمع (إلى) والإلى: النعمة والمِنَّةُ، و﴿آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله عليكم.

لَعَلَّكُمْ: لعلَّ في الأصل حرف ترجُّ وإشفاقٍ، وذلك في حقِّ الباري محالً، ومن ثم قال السلف: "إنَّ لعلَّ من الله واجبةٌ، وقد تردُّ تعليلاً فإنَّ المعنى: كي تُفْلِحُوا، و(لعلَّ) هي في كلام الله للتعليل مجردة من معنى الترجي، فإنَّها إنَّما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق.

تُفْلِحُونَ: تدركون البُغية والأمال، والفلاح: اسمٌ جامعٌ لكلِّ مطلوبٍ محبوبٍ، وسلامة من كلِّ مكروهٍ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

المعنى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه؛ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٥٠)، والمختصر في التفسير (ص: ١٦٠).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٥١)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٤)،

والفوائد: ابن قيم الجوزية (ص: ١٢٨)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤/٢٦)، والتحرير

والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٧)، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم

الجوزية (٣/١٠٤٨)، ومُنحة العلام في شرح بلوغ المرام: عبد الله الفوزان (٩/٤٤٢).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٤٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢/٢٢٤).

ثالثاً: مناسبة فاصلة الآية لما قبلها^(١):

علاقة هذه الفاصلة القرآنية: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بما قبلها وهو قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ أنه من حقّ هذا الاستخلاف، وهذه القوة والبسطة، أن تستوجب شكر النعمة، والحذر من البطر، واتقاء مصير الغابرين، وهم لم يأخذوا على الله عهداً أن تتوقف سنته التي لا تتبدل، والتي تجري وفق الناموس المرسوم، بقدر معلوم، وذكر النعم يوحى بشكرها، وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة.

رابعاً: لطائف التفسير في النصّ القرآني^(٢):

اللطيفة الأولى: الفاء في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ فصيحة، أي: إن ذكرتم وقت جعلكم الله خلفاء في الأرض ووقت زادكم بصطة فاذكروا نعمه الكثيرة تفصيلاً، فالكلام جاء على طريقة القياس من الاستدلال بالجزئي على إثبات حكم كلي؛ فإنه ذكرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء ونعم مجملة، وهي زيادة بصطتهم، ثم ذكرهم بقية النعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف.

اللطيفة الثانية: في الآية إضمار، والتقدير: واذكروا آلاء الله واعملوا عملاً يليق بتلك الإنعامات لعلمكم تفلحون، وإنما أضمر العمل؛ لأنّ الصلاح الذي هو الظفر بالثواب لا يحصل بمجرد التذكر، بل لا بدّ له من العمل، واستدل الطاعنون في وجوب الأعمال الظاهرة بهذه الآية، وقالوا: إنّ الله رتب حصول الصلاح على مجرد التذكر؛ فوجب أنّ يكون مجرد التذكر كافياً في حصول الصلاح، وجوابه إنّ سائر الآيات القرآنية ناطقة بأنّه لا بدّ من العمل.

اللطيفة الثالثة: في الآية رتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا؛ لأنّ ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

في هذه الآية انتقل هودٌ (عليه السلام) من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي لا ينكرون أنّها من نعم الله دون غيره؛ لأنّ الخلق والأمر لله لا لغيره، تذكيراً من شأنه إيصالهم إلى أفراد الله بالعبادة، وإنما أمرهم بالذكر؛ لأنّ النفس تنسى النعم فتكفر بالمنعم، فإذا تذكّرت النعمة رأّت حقاً عليها أنّ تشكر المنعم، ولذلك كانت مسألة شكر المنعم من أهم مسائل التكليف، وشكر المنعم واجبٌ شرعاً^(٤)، وهو اعتراف وإقرار بنعم الله على جهة الخضوع والإذعان، وصرف كلّ نعم الله في طاعته، وأول نعم الله الدينية على المؤمن وأعظمها أن هداه للإيمان، وأول نعم الله

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٥).

(٤) لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الدُّنْيوية الحياة العرية عن ضرر، فإنَّ إدراك اللذات ونيل المشتهيات، التي لا يتعقبها ضرر لأجلها، وهو يعم كل حيوانٍ، ولكن يقيد المكلف بالشكر، وهو اعترافه بنعمة المُنعم على جهة الخضوع والإذعان، وصرف كل نعمةٍ في طاعةٍ، فشكر المُنعم واجبٌ شرعاً، فيجب على كلِّ مكلفٍ شرعاً أن يعرف الله بصفات الكمال^(١). ومعنى قول العلماء: شكرُ المنعم واجبٌ، أن شكر المنعم واجب شرعاً عند أهل السنة، فالشكر هو اعتقاد القلب أن ما بالعبد من نعمة فمن الله هو المنعم بذلك فضلاً من غير وجوبٍ، والتحدث باللسان بالمنعم والخضوع بالجوارح، والشكر: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله؛ فالسمع خلق ليصرف إلى تلقي ما يرد عليه من الأوامر والنواهي الإلهية، والمواعظ وما ينتظم في سلوكها، وإلى ما يدلُّ بها على متعلقها ليرتكب ويجتنب ونحو ذلك، والبصر ليصرف إلى رؤية المصنوعات فيستدل بها على وجوب وجود الصانع واتصافه بصفات الكمال، واللسان ليصرف إلى الذكر والتذكير والدراسة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبه ذلك، وعلى هذا المنوال جميع القوى والمدارك والجوارح، لأنَّ جميع الطاعات مندرجة في عبادة الشكر؛ لأنَّه خضوع في مقابلة النعمة وهو واجب^(٢). فلقد كان من حقِّ هذا الاستخلاف، وهذه القوة والبسطة، أن تستوجب شكر النعمة، والحذر من البطر، واتقاء مصير الغابرين، وهم لم يأخذوا على الله عهداً أن تتوقف سننُّه التي لا تتبدل، والتي تجري وفق النَّاموس المرسوم، بقدر معلوم، وذكر النَّعم يوحى بشكرها، وشكر النَّعمة تتبعه المحافظة على أسبابها، ومن ثم يكون الفلاح في الدُّنيا والآخرة.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. أنَّ المقصود من الآية أن تذكر النَّعم العظيمة يوجب الرغبة والمحبة وزوال النفرة والعداوة، وقد ذكر هود نوعين من الإنعام: الأوَّل: أن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح؛ وذلك بأنَّ أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، والثاني: أن الله زادهم في الخلق بصطةً.
٢. أن نعمة الله على النَّاس ذريعةٌ للطاعة، وسببٌ للتقوى، ووسيلةٌ للشكر.

(١) لوامع الأنوار البهية: السفاريني(١/١١٤)، والعين والأثر في عقائد أهل الأثر: عبد الباقي المواهي (ص: ٣٠)

وشرح العقيدة الواسطية: عبد الكريم بن عبد الله الخضير(٦/٧)، وحاشية ابن عابدين الحنفي(١/٣٥٦).

(٢) الفتاوى الحديثية: ابن حجر الهيتمي(١/١٥٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب(٣/١٣١١)، ومجالس قرآنية:

عويض بن حمود العطوي(ص: ٦٥).

(٣) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٦٤)، وتصويبات في فهم بعض الآيات: صلاح الخالدي(ص: ١٨٣).

المقصد الرابع: الاستعجال بالعذاب انحراف في الفطرة

ويدلُّ على هذا المقصد النفسي قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١، ٧٠].
أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَجِئْنَا: معنى المجيء إمّا المجيء من مكان اعتزل به عن قومه، أو من السماء على التهكم.
وَقَعَ: معناه: وجبَ وحق وثبت ونزل، من قولهم للأمر المحقق: هذا واقعٌ، فالمعنى حقٌّ وقُدرا عليكم رجسٌ وغضب أو نزل عليكم، على أنّ المتوقع كالواقع، والواقع انحدار الشيء من علوٍ، **رِجْسٌ:** الرجس هو الشيء الخبيث، أطلق في الآية توسعاً على خُبث الباطن، أي: فساد النفس والمعنى: أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم فلا يقبلون الخير ولا يصيرون إليه، والجمهور فسروا الرجس هنا بالعذاب، فيكون فعلٌ ﴿وَقَعَ﴾ من استعمال صيغة الماضي في معنى الاستقبال، إشعاراً بتحقيق وقوعه، ورجسٌ: عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب، وقد يأتي الرجس بمعنى النّزن والقدر، وهذا الرجس هو المستعار للمحرمات، أي ينبغي أن يُجتنب كما يُجتنب النتن. **وَعَصَبٌ:** حقيقة الغضب: انفعال تنشأ عنه كراهية المغضوب عليه وإبعاده وإضراره.

ثانياً: المعنى العام للآية^(٢):

يقول الله مخبراً عن تمرد عاد، وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، فأثمّ كانوا يعبدون أصناماً، ولهذا قال هود: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجسٌ وغضب، فقد استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والأعراض عما أشرك به آبائهم انهماكاً في التقليد وحباً لما ألقوه، قال ابن عطية: "أعلمهم هودٌ بأنّ القضاء قد نفذ، وحلّ عليهم الرجس، وهو السخط والعذاب".

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: إنّ قوم هود قد جاوبوا هوداً بما أنبأ عن ضياع حجته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري، وهذا الجواب أقلّ جفوة وغلظة من جوابهم الأوّل، إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ كأنّهم راموا استنزل نفس هود ومحاولة إرجاعه

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٥/٥٥٧)، ومعالم التنزيل: البغوي(٢/١١٦)، وأنوار

التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي(١/٣٤٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(٨/٢٠٩، ٢١٠)

(٢) معالم التنزيل: البغوي(٢/١١٦)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٥/٥٥٦)، وأنوار

التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي(١/٣٤٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٢/٢٢٥).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور(٨/٢٠٧، ٢٠٨). ومجالس قرآنية: عويض بن حمود

العطوي(ص: ١٣٨، ٣٦، ٨٧).

عمّا دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار، وذكره بأنّ الأمر الذي أنكره هو دينُ آباء الجميع تعريضاً بأنّه سَفَهَ آباءه، وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصولية في قولهم: ﴿مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إيماءً إلى وجه الإنكار عليه، وإلى أنّه حقيقٌ بمتابعة دين آباءه.

اللطيفة الثانية: اجتلاب (كان) في قوله: ﴿مَا كَانَ يَعْْبُدُ﴾ لتدلُّ على أنّ عبادتهم أمرٌ قديمٌ مضت عليه العصور، ففي ذكر هذا الفعل من الإشعار بعراقتهم في تلك الأعمال، وقدم شأنهم فيها.

اللطيفة الثالثة: التعبير بالفعل وكونه مضارعاً في قوله: ﴿مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ليدلُّ على أنّ ذلك متكرر من آباءهم، ومتجدد مستمر، وأنّهم لا يفترّون عنه.

اللطيفة الرابعة: معنى ﴿أَجْتَنَّا﴾ أقصدت واهتممت بنا لنعبد الله وحده، فاستعير فعل المجيء لمعنى الاهتمام والتّحفز والتصلب، فقصدوا مما دلَّ عليه فعل المجيء زيادة الإنكار عليه وتسفيهه على اهتمامه بأمر مثل ما دعاهم إليه.

اللطيفة الخامسة: كلمة ﴿وَحَدَهُ﴾ في قوله: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدَهُ﴾ حال من اسم الجلالة، وهو اسم مصدر أوحدته: إذا اعتقده واحداً، فقياس المصدر الإيجاد، وانتصب هذا المصدر على الحال، إمّا من اسم الجلالة بتأويل المصدر باسم المفعول عند الجمهور، أي: مُوحّداً، أي: محكوماً له بالوحدانية، هو بمعنى اسم الفاعل، أي: موحّدين له فهو حال من الضمير في ﴿لِنَعْبُدُ﴾.

اللطيفة السادسة: الفاء في: ﴿فَأْتِنَا بِهَا﴾ لتفريع طلب تحقيق ما توعدهم به، وتحديداً لهود، وإشعاراً له بأنّهم موقنون بأنّ لا صدق للوعيد الذي يتوعدّهم فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب.

اللطيفة السابعة: الأمر في قولهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ للتّعجيز، والإتيان بالشيء حقيقةً أن يجيء مصاحباً إياه، ويستعمل توسعاً في الإحضار والإثبات، والمعنى فعجل لنا ما تعدنا به من العذاب، أو فحقّق لنا ما زعمت من وعيدنا.

اللطيفة الثامنة: أسندوا الفعل إلى ضميره في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ تعريضاً بأنّ ما توعدهم به هودٌ هو شيءٌ من مختلفاته، وليس من قبل الله؛ لأنّهم يزعمون أنّ الله لا يحبُّ منهم الإقلاع عن عبادة آلهتهم؛ لأنّه لا تتعلق إرادته بطلب الضلال في زعمهم.

اللطيفة التاسعة: الوعد الذي أرادوه في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وعُد بالشر، وهو الوعيد، ولم يتقدم ما يفيد أنّه توعدّهم بسوءٍ، فيحتمل أن يكون وعيداً ضمنياً تضمّنّه قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنّ إنكاره عليهم انتقاء الانتقاء دليلٌ على أنّ ثمة ما يُحذر منه، ولأجل ذلك لم يُعيّنوا وعيداً في كلامهم، بل أبهموه بقولهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾، ويحتمل أن يكون الوعيد تعريضاً من قوله: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ

خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿المؤمنون﴾ بأن الله استأصل قوم نوح، وأخلفهم بعباد، فيوشك أن يستأصل عاداً وبخلفهم بغيرهم، وتمكن قولهم: ﴿تَعِدُنَا﴾ لما كان هذا الوعد مصرحاً به في الشرِّ.

اللطفية العاشرة: عَقَّبُوا كَلَامَهُمْ بِالشَّرْطِ فَقَالُوا: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استقصاء لمقدرته قصداً منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب، فلا يسعه إلا الاعتراف بأنه كاذب، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله تقديره: أتيت به وإلا فلست بصادق، فأجابهم هود بأن أخبرهم بأن الله قد غضب عليهم، وأنهم وقع عليهم رجس من الله.

اللطفية الحادية عشر: قد أخبر هود بذلك عن علمٍ بوحى في ذلك الوقت أو من حين أرسله الله؛ إذ أعلمه بأنهم إن لم يرجعوا عن الشرك بعد أن يُبَلِّغُهُمُ الْحُجَّةَ، فإنَّ عدم رجوعهم علامة على أنَّ خُبْتُ قلوبهم مُتَمَكِّنٌ لا يزول، ولا يُرْجَى منهم إيمانٌ، وهذا الذي أخبر الله عنه بأنه وقع لا يجوز أن يكون هو العذاب؛ لأنَّ العذاب ما كان حاصلًا في ذلك الوقت، إلا أنَّ يُحْمَلُ قَوْلُهُ: ﴿وَقَعَ﴾ على معنى وجد وحصل والمعنى: إرادة إيقاع العذاب عليكم حصلت من الأزل إلى الأبد، أو أنه جعل التوقع الذي لا بُدَّ من نزوله بمنزلة الواقع.

اللطفية الثانية عشر: تأخير الغضب عن الرجس في قوله: ﴿رَجَسٌ وَغَضَبٌ﴾؛ لأنَّ الرجس، وهو خبث نفوسهم، قد دلَّ على أنَّ الله فطرهم على خبث بحيث كان استمرارهم على الضلال أمراً جبلياً، فدلَّ ذلك على أنَّ الله غضب عليهم، فوقع الرجس والغضب عليهم حاصل في الزمن الماضي بالنسبة لوقت قول هود، واقتترانه بـ ﴿قَدْ﴾ للدلالة على تقريب زمن الماضي من الحال.

اللطفية الثالثة عشر: تقديم: ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على فاعل الفعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب، إيقاظاً لبصائرهم لعلمهم ببادرون بالتوبة، ولأنَّ المجرورين متعلقان بالفعل فناسب إيلاؤهما إياه، ولو ذكرا بعد الفاعل لثوهم أنَّهما صفتان له، وقُدِّمَ المجرور الذي هو ضميرهم، على الذي هو وصف ربهم؛ لأنَّهم المقصود الأوَّل بالفعل^(١).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- الاستعجال بالعذاب نهج المعاندين:

إنَّ هوداً (عليه السلام) دعا قومَه إلى التَّوْحِيدِ وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع؛ وذلك لأنَّه بيَّن أنَّ نِعْمَ اللهُ عليهم كثيرة عظيمة، وصريح الفطر يدلُّ على أنَّه ليس للأصنام شيءٌ من النِّعَمِ على الخلق؛ لأنَّها جمادات، والجماد لا قدرة له على شيءٍ أصلاً، وظاهر أنَّ العبادة نهاية التعظيم،

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٥٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٦)،
والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٠٩، ٢١٠).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥/٥٥٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٥).

ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وذلك يدلُّ على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يعبدوا شيئاً من الأصنام، ومقصود الله من ذكر أقسام إنعامه على العبيد هذه الحُجَّة التي ذكرها ثم إنَّ هوداً لما ذكر هذه الحُجَّة اليقينية لم يكن من القوم جواباً عن هذه الحُجَّة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد الأعمى، وظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم، ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، ويُحتمل أن يكونوا منكرين لله، ويكون قولهم: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أي على قولك يا هود، والتأويل الأوَّل أظهر فيهم وفي عبَاد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله من الكفرة إلا من أفرطت غباوته، وإلا من ادعاها لنفسه كفرعون ونمرود، وإنما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ لأنَّهم كانوا يعتقدون كونه كاذباً بدليل أنهم قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فلما اعتقدوا كونه كاذباً قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ والغرض أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذباً، وإنما قالوا ذلك؛ لأنَّهم ظنوا أن الوعد لا يجوز أن يتأخر، فلا جرم استعجلوه على هذا الحدِّ، فقولهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ تصميماً على التكذيب، واحتقاراً لأمر النبوة، واستعجالاً للعقوبة، والفطرة حين تتحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر، وهكذا أخذت الملامعة بالإنثم، واختصروا الجدل، واستعجلوا العذاب استعجال من يستنتقل النُّصح، ويهزأ بالإنذار، كأنما كان يدعوهم نبيهم إلى أمرٍ منكرٍ لا يطبقون الاستماع إليه، ولا يصبرون على النظر فيه، إنَّ قولهم هذا مشهدٌ بانسٍ لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير، ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه، ويغلق عليه كلَّ بابٍ للمعرفة وكلَّ نافذةٍ للنور، وهكذا استعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحقِّ، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد، وقالوا لنبيهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ومن ثم كان الجواب حاسماً وسريعاً في ردِّ الرسول: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾ لقد أبلغهم العقاب التي أنبأ بها ربُّه، والتي قد حققت عليهم فلم يعد عنها محيص؛ إنَّه العذاب الذي لا دافع له، وغضب الله المصاحب له^(١).

ب- الخير والشر من الله:

الرجس ضد التزكية والتطهير، قال تعالى في صفة أهل البيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] والمراد التطهر من العقائد الباطلة، والأفعال المذمومة، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الرجس عبارة عن العقائد الباطلة والأفعال المذمومة، وإذا ثبت هذا فقوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ يدلُّ على أن الله خصَّهم بالعقائد المذمومة والصفات القبيحة، وذلك يدلُّ على أن الخير والشر من الله تعالى، ويجوز أن يكون

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١١).

الرجس هو الازدياد في الكفر بالرين على القلوب كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] أي: قد وقع عليكم من الله رينٌ على قلوبكم عقوبةً منه لكم بالخذلان لإفكم الكفر وتماديكم في الغي، والآية تدلُّ على أنَّ كفرهم من الله، والحاصل أنَّ القوم لما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرًا، ثمَّ خصَّهم بمزيد الغضب^(١).

خامساً: ما ترشد إليه آيات قصة هود مع قومه من عبر وعظات^(٢):

١. ضرورة التَّحَلِّي بالصبر بسبب معاناة الأنبياء في دعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ورفض الإشراف به، فقد دعا هود قومه إلى عبادة الله وحده، وذكرهم بنعم الله وأفضاله عليهم من التمكين في الأرض وزيادة القوة البدنية وطول القامة.
٢. خيبة الآمال بالتفوق حين استمر عناد قوم عاد وتمردهم وإنكارهم دعوة نبيهم، فقد حملهم غرورهم بقوتهم الجسدية والمادية في البناء والمصانع على الاستهانة بتهديد النبي ووعيده، فاستعجلوا إنزال العذاب عليهم.
٣. النبي يكون عادةً من جنس قومه، فهو بشرٌ مثلهم، وهو أيضاً واحداً من القبيلة، لكنَّه يكون من أوسطهم نسباً وأفضلهم حساباً، وأكرمهم معشراً، وأرفعهم خلقاً وأدباً. وهذا كلُّه كان منطبقاً على هود (عليه السلام)، بدليل إجابته لقومه الذين اتهموه بالسفاهة إجابة صادرة عن الحكمة، والترُّفَع عمَّا قالوا ووصفوه بالسفاهة والضلالة، وهذا منهج أصحاب السُّمو والرِّفعة، يقابلون السفهاء بالحلم، ويغضون عن قول السوء بالصَّفح والعفو والمغفرة.
٤. أنَّ نتيجة التمرد والعنوة والطُّغيان هي الانهيارُ والدَّمارُ، وقد دمر الله عاداً بسبب تكذيبهم بآيات الله، وكفرهم وعدم إيمانهم، فعصف بهم بالريح العاتية.
٥. أنَّ الاستكبار يتولد غالباً من كثرة المال والجاه، وقلة المال والجاه تحمل على الإيمان والانقياد غالباً.
٦. نجى الله هوداً وجماعةَ الإيمان لاستحقاقهم الرِّحمة بسبب إيمانهم، وأنزل على عاد عذاب الاستئصال الذي هو الرِّيح، معجزةً لهود (عليه السلام).
٧. التعجيل بالعذاب منافع للإيمان.
٨. في الآية دليلٌ على علو الله على خلقه.
٩. عبادة الله وفعل الخيرات سببٌ للفلاح.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٦).

(٢) التفسير المنير: وهبة الزحيلي (٨/٢٦٦)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات

القرآنية (ص: ٣٤١، ١٦٠).

المقصد الخامس: الأسماء موضوعةً للمسميات

دل عليه قوله: ﴿أَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

أَجَادِلُونِي: معناه: إنَّما يريد أَنَّهُم يخاصمونهُ في أن تُسَمَّى آلهة، فالجدل إنَّما وقع في التسميات لا في المُسمَّيات، والاسم يَرِدُ في كلام العرب بمعنى التسمية، وهذا بأبه الذي استعمله به النحويون، وقد يُرَادُ به المسمَّى ويدلُّ عليه ما قاربه من القول.

أَسْمَاءٍ: أسماء جمع اسم، وهو مشتق من السُمُو، وهو العلو، فإنَّ العلو مقارن للظهور، كلما كان الشيء أعلى كان أظهر، وكلُّ واحدٍ من العلو والظهور يتضمن المعنى الآخر؛ لأنَّ الظهور يتضمن العلو والفوقية، فالاسم يظهر به المسمَّى ويعلو، والاسم هو اللفظ الدالُّ على المسمَّى.

سَمَّيْتُمُوهَا: معناه: ذكرتموها بألسنتكم، كما يقال: سم الله، أي ذكركم اسمه، فيكون سمي بمعنى ذكر لفظ الاسم، والألفاظ كلها أسماء لمدلولاتها، وأصل اللُّغة أسماء.

سُلْطَانٍ: الحجة والبرهان التي يصدَّق بها المخالف، سُميت سلطاناً؛ لأنَّها تتسلَّط على نفس المعارض وتقنعه، فقوله: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ عبارة عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبيِّنة.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

في الآية الكريمة ردَّ جميل من رسول الله هود على قومه بقوله: إنَّ ما تعبدون مع الله ليس شيئاً ذا حقيقة، إنَّها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم من عند أنفسكم، لم يشرعها الله ولم يأذن بها، فما لها إذن من سلطانٍ ولا لكم عليها من برهانٍ. والمعنى: أي: فالآية تخبر أن هوداً قال لقومه: أتحتاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجةً ولا دليلاً، فهي أشياء سميتوها آلهة وليس فيها معنى الإلهية؛ لأنَّ المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكلِّ، وأنَّها لو استحققت كان استحقاقها بجعل الله إمَّا بإنزال آيةٍ أو بنصب حجةٍ، فبيِّن أنَّ منتهى حجتهم وسندهم أنَّ الأصنام تسمى آلهة من غير دليلٍ يدلُّ على تحقق المسمى، وإسناد الاطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم.

(١) الكتاب: سيبويه (١٥٥/١، ٩٦/٢)، ومعالم التنزيل: البغوي (١١٦/٢)، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٥٧/٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٦٧/١٤)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٠٧/٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٢/٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٥/١)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٥/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٢/٣).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

ولمَّا قَدَّمَ إِنْذَارَهُمْ بِغَضَبِ اللَّهِ عَادَ إِلَى الْإِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِفَسَادِ مَعْتَقَدِهِمْ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجَادِلُوا فِي شَأْنِ أَصْنَامِهِمْ.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿أَتَجَادِلُونَني﴾ استفهام على سبيل الإنكار؛ وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة، مع أن معنى الإلهية فيها معدومٌ، وسموا واحداً منها بالعزى مشتقاً من العز، والله ما أعطاه عزاً أصلاً، وسموا آخر منها باللات وليس له من الإلهية شيءٌ، ثم إنَّ هوداً ذكر لهم وعيداً مجدداً فقال: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ فانتظروا ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام.

اللطيفة الثانية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الذين يقولون: إنَّ الاسم للمسمى كما يقوله أكثر أهل السنة فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول فإنَّ الاسم مقصوده إظهار المسمى وبيانه".
اللطيفة الثالثة: الاسم مشتقٌ من السمو، وهو العلو، فهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز، كيدٍ ودمٍ لكثرة الاستعمال، بنيت أوائلها على السكون، وأدخل عليها همزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، وفيه عشر لغاتٍ، والاسم إن أُريد به اللفظ فغير المسمى؛ لأنَّه يتألف من أصوات مقطعة غير قارة، ويختلف باختلاف الاسم والأعصار، ويتعدد تارةً، ويتحد أخرى، والمسمى لا يكون كذلك، وإن أُريد به ذات الشيء فهو المسمى.

اللطيفة الرابعة: عبّر عن الأصنام بأنَّها أسماء، أي: هي مجرد أسماء ليست لها الحقائق التي اعتقدوها ووضعوا لها الأسماء لأجل استحضارها، فبذلك كانت تلك الأسماء الموضوعية مجرد ألفاظ، لانتهاء الحقائق التي وضعوا الأسماء لأجلها.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَبَاؤُكُمْ﴾ عطف على ضمير المخاطبين ﴿أَنْتُمْ﴾؛ لأنَّ من آبائهم من وضع لهم تلك الأسماء، فالواضعون وضعوا وسمَّوا، والمقلِّدون سمَّوا ولم يضعوا، واشترك الفريقان في أنَّهم يذكرون أسماء لا مسميات لها.

اللطيفة السادسة: التعبير المتكرر في القرآن: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ هو تعبيرٌ موحٍ عن حقيقة أصيلة، إنَّ كلَّ كلمةٍ أو شرعٍ أو عرفٍ أو تصورٍ لم ينزله الله، خفيف الوزن، قليل الأثر، سريع الزوال، فإنَّ الفطرة تتلقى هذا كله في استخفافٍ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه، وكم من كلماتٍ براقيةٍ، وكم من

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١١/٨)

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٠٧/٦)، ومغني المحتاج: الخطيب الشربيني (٢٧/١)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢١١/٨).

مذاهبٍ ونظرياتٍ، وكم من تصوراتٍ مزوقة، وكم من أوضاعٍ حشدت لها كلُّ قوى التزيين والتمكين، ولكنها تتذابوب أمام كلمة من الله^(١).

اللطيفة السابعة: في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ نَفَى أَنْ تَكُونَ الْحُجَّةَ مَنْزَلَةً مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْحُجَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَكُونَ مَخْبِرًا بِهَا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ أُمُورَ الْغَيْبِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، وَأَعْظَمَ الْمَغْيِبَاتِ ثُبُوتَ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ يَقْصُرُ الْعَمَلُ عَنِ إِدْرَاكِهَا فَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُنْتَلَقَى مِنْ قِبَلِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ.

اللطيفة الثامنة: استدلت بالآية على أَنَّ الاسم هو المسمى، وَأَنَّ اللُّغَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَتَوَجَّهْ الذَّمُّ وَالْإِبْطَالُ بِأَنَّهَا أَسْمَاءٌ مَخْتَرَعَةٌ لَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ بِهَا سُلْطَانًا^(٢).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

تتازع النَّاسُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِتَنَازُعِهِمْ فِي مَبْحَثِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، فَذَهَبَ الْمَعْتَزِلَةُ إِلَى أَنَّ الْأِسْمَ غَيْرَ الْمُسَمَّى؛ بِنَاءً عَلَى قَوْلِهِمْ بِخَلْقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَذَهَبَ مُحَقِّقُو أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ إِلَى أَنَّ اللَّفْظَ . الْأِسْمَ . الْمُؤَلَّفَ مِنَ الْحُرُوفِ لَهُ حَقِيقَةٌ مَوْجُودَةٌ فِي اللِّسَانِ، مَسْمُوعَةٌ بِالْأَصْوَاتِ، مُتَمَيِّزَةٌ عَنِ الْمُسَمَّى، وَمُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْأِسْمُ غَيْرَ الْمُسَمَّى مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَوْلُ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْأِسْمَ لِلْمُسَمَّى، هُوَ الصَّوَابُ، وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ مِنْ أَنَّ الْأِسْمَ لِلْمُسَمَّى. أَيُّ: أَنَّ الْأِسْمَ دَالٌّ عَلَى الْمُسَمَّى، لَا هُوَ بَعِينُهُ، كَمَا وَذَهَبَ السَّلَفُ إِلَى أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ غَيْرَ مَخْلُوقَةٍ، وَأَنَّ مَنْ يَقُولُ بِخَلْقِهَا فَهُوَ زَنْدِيقٌ، فَإِنَّ الْأِسْمَ فِي أَصْلِ الْوَضْعِ لَيْسَ هُوَ الْمُسَمَّى، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّبْرِيُّ، وَابْنُ تَيْمِيَّةٍ، وَجَمَاهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَنَّ الْأِسْمَ عَمٌّ لِلْمُسَمَّى، وَدَالٌّ عَلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ يُرَادُ بِالْأِسْمِ الْمُسَمَّى، كَقَوْلِنَا: قَالَ اللَّهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْأِسْمُ، كَقَوْلِنَا: اللَّهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرَّحْمَنُ كَذَلِكَ، وَلِذَلِكَ لَا يُطْلَقُ الْأَمْرُ بَلْ يُسْتَفْصَلُ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالْمَغَايِرَةِ أَنَّ اللَّفْظَ غَيْرَ الْمَعْنَى فَحَقٌّ، وَإِنْ أُرِيدَ بِذَلِكَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ غَيْرَ ذَاتِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ^(٤). فَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْأِسْمَ لِلْمُسَمَّى، هُوَ قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَنَّ الْأِسْمَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّمُو؛ لِأَنَّهُ يَعْلُو صَاحِبَهُ، فَالْأَلْفَاظُ كُلُّهَا أَسْمَاءٌ لِمَدْلُولَاتِهَا، وَأَصْلُ اللُّغَةِ أَسْمَاءٌ^(٥)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وَبِنَاءً عَلَيْهِ فَإِنَّ الْأَسْمَاءَ

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور(٢١٢/٨، ٢١٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب(٣/١٣١٢).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي(١/٣٤٥) ونهاية السؤل في شرح منهاج الوصول: الإسنوي(١/١٨٥)

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: اللالكائي(٢/٢١٢).

(٤) مجموع الفتاوى: ابن تيمية(٦/١٨٦ . ٢١٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(١/١٨)، ومناهج اللغويين في

تقرير العقيدة: محمد الشيخ(ص: ٢٠٧، ١٧٢، ٣٥٢).

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور(٨/٢١٢)، وحكمة الدعوة وصفة الدعاة: أبو الحسن الندوي(ص: ٢٧).

توضع للمسميات المقصودة من التسمية، وهم إنّما وضعوا لها الأسماء واهتمّوا بها باعتبار كون الإلهية جزءاً من المسمى الموضوع له الاسم، وهو الداعي إلى التسمية، فمعاني الإلهية وما يتبعها ملاحظة لمن وضع تلك الأسماء، فلمّا كانت المعاني المقصودة من تلك الأسماء منتقيةً كانت الأسماء لا مسميات لها بذلك الاعتبار، سواء في ذلك ما كان منها له ذوات وأجسام كالنماتيل والأنصاب، وما لم تكن له ذات، فلعلّ بعض آلهة عاد كان مجرد اسم يذكرونه بالإلهية ولا يجعلون له تمثالاً ولا نُصباً، فهي أسماء من غير مسميات، إنّها أسماء لا حقيقة لها، أسماء عند الوثنيين، وأسماء عند غيرهم من أمثالهم، إنّ الإعجاز القرآني يكمن في أنّه أطلق عليها كلمة (الأسماء) وإنّ الذي يقرأ تاريخ الديانات يعرف إعجاز هذه الآية أنّه ليس هناك إلا أسماء محضة، أين الآلهة الباطلة؟ أين إله المطر، وإله الحرب وإله الحب؟ أين هذه الآلهة التي لا وجود لها إلا في الذهن والخيال، فلا تزال هذه الآية معجزةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليست الوثنية إلا أسماء، وقد فصح القرآن الوثنية بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهدايات^(١):

١. تدل الآية على أنّ أصل اللّغة أسماء.
٢. أنّ اللّغة إلهامٌ وتوقيفٌ من الله، لا اصطلاحٌ اصطلاح عليه العقلاء.
٣. أنّ المراد من التسمية في اللّغة وضع الاسم للمسمى.
٤. الأسماء قوالب للمعاني، ودالةٌ عليها، وللأسماء تأثيرٌ في المسميات، وللمسميات تأثيرٌ عن أسمائها في الحُسن والقبح، والخفة والنقل.
٥. كلّ الآلهة التي تُعبد من دون الله ما هي إلا أسماءٌ على غير مسمياتٍ، ليس لها من الألوهية نصيبٌ.

(١) نهاية السؤل: الإسنوي(١/١٨٤)، والمواهب الربانية في الآيات القرآنية: السعدي(ص:٣١)، وحكمة الدعوة وصفة الدعاة: أبو الحسن الندوي(ص:٢٧)، وزاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية(١/٣٠٧)، وثلاثون مجلساً في التدبير: اللجنة العلمية بمركز تدبير(ص:٥٢)، والمختصر في التفسير(ص:٢٤٠).

المقصد السادس: الثقة بالله أولاً وأخيراً

دل عليه قوله: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الأعراف: ٧١]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَانْتَظِرُوا: الانتظار افتعال من النَّظَرَ بمعنى الترقُّب، كأنَّ المخاطب أُمر بالتَّرقُّب فارتقَبَ، أي: فانتظروا لما وضح الحقُّ وأنتم مصررون على العناد نزول العذاب بكم.

وَالَّذِينَ مَعَهُ: هم من آمن به من قومه، فالمعِيَّةُ هي المصاحبة في الدِّين، وهي معِيَّةٌ معنوية.

دَابِرٌ: الدابر هو آخر واحدٍ في الركب يتبع أدبار القوم، ويأتي خلفهم، والمعنى: أرسل الله عليهم

الريح الدبور، فأفناهم جميعاً، ولم يبق منهم أحدٌ، والظاهر أنَّ الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم

نسلٌ، وأمَّا الآية فلا تقتضي إلا انقراض نسل الذين كذبوا ونزل بهم العذاب، أي: استأصلناهم

وأهلكناهم عن آخرهم، فقطع الدابر: هو الاستئصال، فدلَّ بهذا اللفظ أنَّ الله ما أبقى منهم أحداً،

ودابر الشيء آخره، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك لم يبق أحدٌ.

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا: قال ابن عطية: "دالٌّ على المعجزة، وإن لم تتعين لها".

وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ: معنى نفي الإيمان نفي الأمان من عذاب الله؛ لأنَّ إيمان مشتق من الأمان.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطفة الأولى: قوله: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ هذا تهديدٌ ووعيدٌ من الرسول لقومه.

اللطفة الثانية: الفاء في: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لتفريع هذا الإنذار والتهديد السابق؛ لأنَّ وقوع الغضب

والرجس عليهم، ومكابرتهم واحتجاجهم لما لا حجةَ له، ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب.

اللطفة الثالثة: صيغة الأمر في قوله: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ للتهديد.

اللطفة الرابعة: مفعول ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ مقدرٌ دلَّ عليه قوله: ﴿رَجِسْ وَعَظْبُ﴾ أي: فانتظروا عقاباً.

اللطفة الخامسة: قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ تهديده إياهم يثير سؤالاً

في نفوسهم، أن يقولوا: إذا كنا ننتظر العذاب فماذا يكون حالك، فبيَّن أنَّه ينتظر معهم، وهذا مقام

أدب مع الله، فهود(عليه السلام) يخاف أن يشمله العذاب النازل بقومه، وذلك جائزٌ، فيجوز أن ينزل بهم

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٥/٥٥٨)، ومعالم التنزيل: البغوي(٢/١١٦)، وأنوار

التنزيل وأسرار التأويل: البضاوي(١/٣٤٥)، والتفسير الكبير: الرازي(٤/١٦٧)، وفتح الباري بشرح صحيح

البخاري: ابن حجر(١٥/٥١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(٨/٢١٣، ٢١٥، ٢١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد

قطب(٣/١٣١٢).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية(٥/٥٥٨)، والتفسير الكبير: الرازي(٤/١٦٧)، وتفسير

القرآن العظيم: ابن كثير(٢/٢٢٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور(٨/٢١٣).

العذاب، ويراه هود ولكنّه لا يُصيّبه، وقد روي ذلك في قصته، ويجوز أن يبعده الله، وقد روي أيضاً في قصته بأن يأمره بمبارحة ديار قومه قبل نزول العذاب.

اللطيفة السادسة: قد ذكر الله صفة إهلاكهم في مواضع آخر من القرآن، بأنّه أرسل عليهم الريح فقال: ﴿فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦٠] لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على رأسه فتتلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته^(١).

اللطيفة السابعة: الفاء في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ للتعقيب: أي فعجل الله استئصال عاد، ونجّى هوداً والذين معه، أي المؤمنين من قومه، فالمعقب به هو قطع دابر عاد، وكان مقتضى الظاهر أن يكون النظم هكذا: فقطعنا دابر الذين كذبوا إلخ، ونجينا هوداً إلخ، ولكن جرى النظم على خلاف مقتضى الظاهر للاهتمام بتعجيل الإخبار بنجاة هود ومن آمن معه.

اللطيفة الثامنة: الضمير في قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ عائذ على هود، أي: أخرج الله سالماً ناجياً مع من أتبعه من المؤمنين برحمة الله وفضله.

اللطيفة التاسعة: قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ الباء فيه للسببية، وتكثير ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ للتعظيم، وكذلك وصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها و﴿مِن﴾ للابتداء، ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة أي: فأنجيناه ورحمناه، فكانت الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم، وموقع ﴿مِنَّا﴾ على هذا الوجه موقع رشيق جداً يؤذن بأن الرحمة غير منقطعة عنهم.

اللطيفة العاشرة: قوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾ استعارة تستعمل فيمن يُستأصل بالهلاك.

اللطيفة الحادية عشر: قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فهو من الصلّة، وفائدة عطف الإشارة إلى أنّ كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم، وهما التكذيب والإشراك، تعريضاً بمشركي قريش، ولموعظتهم ذكرت هذه القصص، وقد كان ما حلّ بعادٍ من الاستئصال تطهيراً أوّل لبلاد العرب من الشرك، وقطعاً لدابر الضلال منها في أوّل عصور عمرانها، إعداداً لما أراد الله من انبثاق نور الدعوة المحمّدية فيها.

اللطيفة الثانية عشر: فإن قيل: لما أخبر الله عنهم بأنهم كانوا مكذّبين بآيات الله لزم القطع بأنهم ما كانوا مؤمنين، فما الفائدة في قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ معناه أنّهم مكذبون، وعلم الله منهم أنّهم لو بقوا لم يؤمنوا أيضاً، ولو علم الله أنّهم سيؤمنون لأبقاهم^(٢).

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٥٨/٥)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٢٢٥/٢)،

والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٤/٨)

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٦٧/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٥/٨).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

أ- الثقة بالله:

في ثقة المطمئن، وقوة المتمكن، يواجه هود قومه بالتحدي: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ إِنَّ هَذِهِ الثِّقَةُ هِيَ مَنَاطُ الْقُوَّةِ الَّتِي يَسْتَشْعَرُهَا صَاحِبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، إِنَّهُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ هَزَالِ الْبَاطِلِ وَضَعْفِهِ وَخَفَةِ وَزْنِهِ مَهْمَا انْتَفَشَ وَمَهْمَا اسْتَطَالَ، كَمَا أَنَّهُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ سُلْطَانِ الْحَقِّ الَّذِي مَعَهُ وَقُوتُهُ بِمَا فِيهِ مِنْ سُلْطَانِ اللَّهِ، وَلَا يَطُولُ الْإِنْتَظَارُ فِي السِّيَاقِ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فَهُوَ الْمُحِقُّ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ بِقَطْعِ الدَّابِرِ. وَهَكَذَا طَوَيْتُ صَفْحَةً مِنْ صَحَائِفِ الْمَكْذِبِينَ، وَتَحَقَّقَ النَّذِيرُ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ إِذْ لَمْ يَنْفَعِ التَّذْكَيرُ.

ب- النجاة للمؤمنين:

إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ عَاقِبَةِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ فَقَالَ: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إِذْ كَانُوا مُسْتَحْقِينَ لِلرَّحْمَةِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ وَقَطْعِ اللَّهِ دَابِرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا مَعْجَزَةً لِهَوْدٍ، وَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابَ الْإِسْتِئْصَالِ الَّذِي هُوَ الرِّيحُ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ كَيْفِيَّتَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. رَابِعاً: مَا تَرشُدُ إِلَيْهِ الْآيَةُ مِنْ أَهْدَافٍ وَهَدَايَاتٍ^(٢):

١. في الآية تعريضٌ بمن آمن منهم، وتنبيةٌ على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان، وأنه نجاة ورحمة في الدنيا والآخرة.
٢. التقطيع سنةً إلهيةً لعقاب المكذبين.
٣. الشرك سبب لقطع النسل والذرية.
٤. ليس من مقصود الآية تعيين كيفية إنجاء هود ومن معه من المؤمنين.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٦٧/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٢/٣).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٥/١).

المبحث الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٧٣-٧٩)

قصة صالح

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: لكلِّ نبيٍّ معجزةٌ.

المطلب الثاني: الكِبْرُ بَطْرُ الحقِّ وغمط النَّاسِ.

المبحث الثاني

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٧٣-٧٩)

قصة النبي صالح

تمهيداً وتوطئة^(١):

قد ذكر المفسرون أنَّ ثمود عندما رأوا الناقة رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرةً باهرةً ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً، فأمن كثيرٌ منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] أي جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أي: أكثرهم، ثم إنَّ عاداً لما هلكت وانقضى أمرها عمّرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمرُوا، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وكانوا في سعة من معاشهم فعثوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله، فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً، وكان صالح من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً وموضعاً، فدعاهم إلى عبادة الله، فما تبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألحَّ عليهم صالح بالدُّعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يُريهم آيةً تكون مصداقاً لما يقول فكانت الناقة فأمن به بعضهم، كفر أشرفهم، وقد أخبرت كتب السنة أن الرسول (ﷺ) مرَّ بديار ثمود الحجر في مسيره إلى غزوة تبوك، فنزل بالناس في ديارهم واستقى أصحابه من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله (ﷺ) فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل به حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُدُّوا إلا باكين، معللاً نهيهم بقوله: "إني أخشى أن يصيبكم ما أصابهم"^(٢). ثم أشار النبي (ﷺ) إلى الطريق الذي كانت ترد منه الناقة البئر، وأخبرهم أن الناقة كانت تقاسم قوم صالح الماء، فتشرب ماء البئر في اليوم التي ترد فيه، وفي اليوم التالي لم تكن تذوق من الماء شيئاً ومن عجيب أمرها أنَّ قوم صالح كانوا يأخذون من لبنها بمقدار ما شاءوا، فيستعيضون عن الماء الذي كانوا يستقونه في يوم شربها بمقداره من لبنها من غير كدٍ ولا عناءٍ، وعلى الرغم من استفادة ثمود من الناقة هذه الاستفادة العظيمة إلا أنَّهم ضاقوا بها ذرعاً، وكرهوا وجودها بينهم فعقروها، فلما عقروها وعدهم نبيهم صالح العذاب بعد ثلاثٍ، وفي اليوم الثالث جاءهم العذاب، فقد أخذتهم الصيحة^(٣)

(١) معالم التنزيل: البغوي (١٢٢/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٧/١)، والتفسير الكبير:

الرازي (١٦٩/١٤)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١٣٤/١)، وتيسير الكريم الرحمن: السعدي (ص: ٤٠٥).

(٢) صحيح البخاري (ح: ٣٣٧٨)، وصحيح مسلم (ح: ٢٩٨١)

(٣) معالم التنزيل: البغوي (١٢٧/٢)، وصحيح القصص النبوي: عمر سليمان الأشقر (ص: ٢٩)، والبداية والنهاية:

ابن كثير (١٣٧/١)

المطلب الأول: لكل نبي معجزة

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَذْرَى؛ لذلك فإنه يُمهّل ولا يُهمل

وبدلاً على هذا قوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].
 أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَإِلَى ثَمُودَ: أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فهو عطفٌ على نوح.

صَالِحًا: صالحٌ من العرب من ذرية نوح، وكان من قبيلة مشهورة يقال لها ثمود، وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحِجْر، الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرَّ به رسول الله (ﷺ)، وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين سنة تسع.

ثَمُودَ: ثمودُ أمةٌ عظيمةٌ من العرب البائدة، وهم من ذرية نوح، وكانت مساكنهم بالحِجْر بين الحجاز والشَّام، وهو المكان المسمَّى الآن مَدَائِنِ صَالِح، وسُمِّي في حديث غزوة تبوك: حِجْر ثَمُودَ، وسُمِّيَت ثموداً لقلَّةِ مائها من الثَّمَد، وهو الماء القليل، وقيل: سُمِّيَت ثمود؛ لأنَّه اسمُ أبيهم الأكبر، وهو ثمود بن عاد من ذرية نوح، فثمود قبيلة عربية كانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو صالح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام ولا يشركوا به شيئاً، فأمنت به طائفةٌ منهم وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجةً عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

أَخَاهُمْ: أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النَّسَب، لا في الدِّين، والأخوة أخوة القرابة، ويحتمل أن تكون أخوة الآدمية، وسُمِّي أخاهم لما بُعث إليهم، وهم قوم عرب، وهود وصالح عريبان.

صَالِحًا: صالح من ذرية نوح، ولما هلك قومه ارتحل بمن معه إلى مكة فأقاموا بها حتى ماتوا.

اعْبُدُوا اللَّهَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا خُلِقَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ، فصلاحه وكمالته ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربَّه ويُنيب إليه، والطاعة والعبادة هي مصلحةُ العبد التي فيها سعادته ونجاته.

(١) معالم التنزيل: البغوي (١١٩/٢)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٥٩/٥)، والتفسير

الكبير: الرازي (١٦٨/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٦/١)، ومجموع الفتاوى: ابن

تيمية (٣٢/١٤ . ٣٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (١٦٩/٢)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢١٦/٨)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١٣٤/١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:

السعدي (ص: ٤٠٥).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

ما زالت السورة الكريمة تتلو على المسلمين قصص الأمم الغابرة المهلكة بسبب تكذيبها لرسول الله، وفي هذا المقطع القرآني تقص علينا السورة قصة نبي الله صالح مع قومه، فأخبرت أن الله أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً الذي يُشاركهم في النسب والوطن، وكانت دعوته كدعوة الرسل قبله وبعده، فقال لقومه: يا قوم أخلصوا العبادة لله وحده، ما لكم من إله غيري، وهي ذات الكلمة الواحدة وذات المنهج الواحد في الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

بعد أن ذكر الله في أول السورة قصة آدم الدالة على قدرته وتوحيده وربوبيته، وأقام الأدلة الدامغة على صحة البعث بعد الموت، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وموقف أقوامهم المعاندين لهم، فذكر قصة نوح ثم قصة هود، ثم قصة ثمود، وكان قوم ثمود يتلون قوم عاد في الوجود والظهور بين الأمم، كما قال تعالى عن صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ فإن هذا المقطع هو القصة الثالثة، وهو قصة صالح، فالمعنى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين ذكر عاد وثمود، ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى، والمقصود ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحاً، ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم، وهي صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل ومصراع جديد من مصارع المكذابين^(٣).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطيفة الأولى: كلمة ثمود في قوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾ ممنوع من الصرف؛ لأن المراد به القبيلة لا جدّها، وأسماء القبائل ممنوعة من الصرف على اعتبار التأنيث مع العلمية، وهو الغالب في

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٦٨/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٢/٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٨/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٦٨/١٤)، والتفسير المنير: وهبة الزحيلي (٢٦٩/٨) ينظر: سورة إبراهيم آية (٨ - ٩).

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير (١٣٠/١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٠٤)،

وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٢/٣).

(٤) التفسير الكبير: الرازي (١٦٨/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٦/١)، والتحرير والتنوير:

ابن عاشور (٢١٦/٨).

القرآن، وقد ورد في بعض آيات القرآن مصروفاً، على اعتبار الحي، فينتفي موجب منع الصِّرف؛ لأنَّ الاسمَ عربيّ، أو باعتبار الأصل؛ لأنَّه اسم أبيهم الأكبر.

اللطيفة الثانية: دلَّ قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ على أنَّ ثمودَ كانوا مشركين، والظاهر أنَّهم عبدوا الأصنامَ التي عبدتها عادٌ؛ لأنَّ ثمودَ، وعاداً أبناءُ نسبٍ واحدٍ، فيشبهه أن تكون عقائدهم متماثلةً، فإنَّ ثمودَ قامت بعد عادٍ، فنمت وعظمت واتسعت حضارتها، وكانوا مُوحدين، ولعلَّهم اتَّعظوا بما حلَّ بعادٍ، ثمَّ طالت مدَّتْهم ونعم عيشهم فعتوا ونسوا نعمةَ الله، وعبدوا الأصنامَ، فأرسل الله إليهم صالحاً يدعوهم إلى التَّوحيد، فلم يتَّبِعْه إلا قليلٌ منهم، وعصاه سادتهم وكبرؤهم.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿فِيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(١):

ذكر في آية سورة هود أنَّ قومَه لم يُغظوا له القول كما أغلظت قومُ نوحٍ وقومُ هودٍ لرسولهم، وتدلُّ آيات القرآن، وما فسرت به من القصص على أنَّ صالحاً أجَّلهم مدَّةً للتأمل، وجعل النَّاقَةَ لهم آيةً، وأنَّهم تاركوها ولم يُهيجوها زماناً طويلاً، وقد أشعرت مجادلتهم صالحاً في أمر الدِّين على أنَّ النَّعقل في المجادلة أخذ يدبُّ في نفوس البشر، وأنَّ غُلواءهم في المكابرة أخذت تقصر، وأنَّ قناة بأسهم ابتدأت تلين، للفرق الواضح بين جواب قوم نوحٍ وقوم هودٍ، وبين جواب قوم صالحٍ، ومن أجل ذلك أمهلهم الله ومادَّهم لينظروا ويفكِّروا فيما يدعوهم إليه نبيُّهم، وليزيّنوا أمرهم، وجعل لهم الانكفاف عن مسِّ النَّاقَةِ بسوءٍ علامةً على امتداد الإمهال؛ لأنَّ انكفافهم ذلك علامةً على أنَّ نفوسهم لم تحنق على رسولهم، فرجاؤهم إيمانهم مستمرٌّ، والإمهال لهم أقطع لعذرهم، وأنهض بالحجَّة عليهم، فلذلك أحرَّ الله العذابَ عنهم، إكراماً لنبيِّهم الحريص على إيمانهم بقدر الطَّاقة، وقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمةُ الإصابة

بالسوء الجامع لأنواع الأذى، مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهدايات^(٢):

١. عذاب الله إنَّ وقع كان مؤلماً، والله يُمهِّل ولا يُهمِّل.

٢. الأصل في العقوبة أنَّها لله تعالى.

٣. الآخرة دار الجزاء أصالةً، والدُّنيا دار أجر تبعاً.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٦/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٧/٨، ٢١٦).

(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٠/٣).

المقصد الثاني: الناقَةُ آيةً ريبانيةً

وبدلُّ على هذا المقصد العظيم قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(١):

بَيِّنَةٌ: الحجَّة على صدق الدَّعوى، وهي الآية، والمعنى: حجةٌ من ربِّكم على صدقي، ومعجزةٌ ظاهرةٌ الدَّلالة على صحة نبوتي، والبيينة: اسمٌ لكلِّ ما يبين الحقَّ من شهودٍ أو دلالةٍ.

رَبُّكُمْ: الربُّ المصلح والسيد والقيم والمربي، والتربية: بلوغ النفس البشرية كمالها المهيأ لها شيئاً فشيئاً، والمربي على الحقيقة هو الله؛ لأنَّه خالق الخلق، وواهب المواهب، فمن أجل ذلك نسبت التربية إلى الربِّ؛ فقيل: التربية الربانية، وإنَّ الطريق المؤدي إلى التربية الربانية والتزكية الإيمانية هي العبادة، كما أنَّ التربية الربانية تقوم على استعداد النفس البشرية للترويض والتوطين، ومن ثم تقوم التربية الربانية على المحافظة على الفطرة الأولى؛ فطرة الإنسان ورعايتها، ومن ثم تنمية مواهب الإنسان واستعداداته كلها، ثم توجيه ذلك كله نحو كمالها المهيأ لها.

نَاقَةُ اللَّهِ: وهي المعجزة التي صاحبت دعوة صالح، حين طلبها قومه للتصديق، أي: هذه ناقه شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله، لكم فيها آيةٌ عظيمةٌ، وهي ناقه خلقها الله من صَخْرٍ.

آيَةٌ: هي العلامة الظاهرة، واشتقاق الآية من التأبي الذي هو التثبُّت والإقامة على الشيء، وقيل للبناء العالی آية، والناقَة آيةٌ على القدرة الإلهية، وعجيب قدرة الخالق، فَذَرُوهَا: اتركوها وشأنها.

أَرْضٍ: مراد بها جنس الأرض كما تقتضيه الإضافة، وهي أرضُ الحجر بينَ الحجاز والشَّام^(٢). **بِسُوءٍ**: كلُّ ما يَغْمُ الإنسانَ من الأمور الدُّنيوية، والأخروية، ومن الأحوال النَّفسيَّة، والبدنيَّة،

والخارجة من قوَاتِ مالٍ، وجاهٍ، وَقَدِّ حَمِيمٍ. والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القبيحةُ، هي ضدُّ الحَسَنَةِ. **عَذَابُ أَلِيمٍ**: العَذَابُ: هو الإيجاعُ الشَّدِيدُ، التَّعْذِيبُ هو الضَّرْبُ، الأَلَمُ: الوجع الشديدُ، وعَذَابُ

أَلِيمٍ، أي: مؤلِّمٌ موجعٌ.

(١) معالم التنزيل: البغوي (١٢٠/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٦/١)، وإعلام الموقعين عن ربِّ العالمين: ابن قيم الجوزية (١٦٨/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٨/٨)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٥٤٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٣/٣)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٣٠٠)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٧/٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ١٠١، ٨٠)، (ص: ٤٤١، ٥٥٤، ٨٢)، والقصص القرآني لإيحاؤه ونفحاته: فضل حسن عباس (٣٨٠، ٣٨٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٨، ٢١٩/٨)، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبه (ص: ٢٨٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٧/٣).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

بيّنت الآية الكريمة أنّ نبيّ الله صالحاً قال لقومه ثمود: قد جاءتكم حجةٌ ودليلٌ على رسالتي من ربكم هي ناقةٌ ذاتُ خلقٍ اختصتُ به، فيها الحُجّة، وهي ناقةُ الله، فاتركوها حرّةً طليقةً تأكل في أرض الله التي لا يملكها أحدٌ سواه، ولا تعتدوا عليها بأيّ لونٍ من الاعتداء، لأنّكم إنّ فلعتم ذلك نالكم عذابٌ شديداً، فالأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربّها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من إنباتكم، ولا تمسوها بسوءٍ ولا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوا منها شيئاً من أنواع الأذى.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

ارتباط الآية بما قبلها أنّ السياق القرآني في الآيات السابقة كان يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة، ولعاقبة الإيمان بها، وعاقبة التكذيب من خلال قصة صالح، ولا يذكر تفصيل طلب قومه للخارقة، وهي الناقة، بل يعلن في هذه الآية وجودها عقب الدعوة مباشرة، ويجعلها آيةً على صدق نبوة صالح (عليه السلام)، فإنّ الله لما أهلك عاداً قام ثمود مقامهم وطال عمرهم وكثر تنعمهم، ثم عصوا الله، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً وكان منهم.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هي من مقول صالح في وقتٍ غير الوقت الذي ابتدأ فيه بالدعوة؛ لأنّه قد طوي هنا في هذه الآية جواب قومه وسؤالهم إياه آيةً.

اللطيفة الثانية: جملة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحدّه، لأنّه جعل لكم آيةً على تصديقي فيما بلغت لكم، وعلى انفراده بالنّصرف في المخلوقات.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهذه الجملة مذكورة في قصة صالح، ولم تذكر في قصتي نوح وهود، وهي تدلّ على أنّ كلّ من كان قبله من الأنبياء كانوا يذكرون الدلائل على صحة التوحيد والنبوة؛ لأنّ التقليد وحدّه لو كان كافياً لكانت تلك البينة هنا لغوا.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ صفةٌ حذف الموصوف وأقيمت مقامه، وذلك قبيح في النكرة أن تحذف وتقام صفتها مقامها، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأخبار والأمم زال القبح، والمعنى آيةٌ أو حجةٌ أو موعظةٌ بينة، وقال بعض النّاس إنّ صالحاً

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٧٠/١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٨/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٦٩/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٣/٣).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٦٠/٥)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل:

البيضاوي (٣٤٦/١)، والتفسير الكبير: الرازي (١٦٨/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢١٧، ٢١٨/٨)،

وتفسير المراغي (٢٣١، ٢٣٠/٣).

جاء بالناقاة من تلقاء نفسه، وقال الجمهور: بل كانت مقترحةً، وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم، وروي أن بعضهم قال: يا صالح إن كنت صادقاً فاذعُ ربك يخرج لنا من هذه الصخرة بالحجر ناقاةً عُشراءً، قال: فدعا الله فتمخضت تلك الصخرة وتنفضت وانشقت عن ناقاةٍ عظيمةٍ. اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنها ليست من فعله، ولا مما ينالها كسبُه، وهكذا سائر ما يؤيدُ به الله تعالى الرسلَ من خوارق العادات والسنن.

اللطيفة السادسة: اسم الإشارة في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ يقتضي أن الناقاة كانت حاضرةً عند قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنها نفس الآية و﴿هَذِهِ﴾ إشارةٌ إلى الناقاة التي جعلها الله آيةً لصدق صالح، ولما كانت الناقاة هي البيينة كانت جملةً: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ منزلةً من التي قبلها منزلة عطف البيان.

اللطيفة السابعة: قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أضاف الناقاة إلى الله تعظيماً لشأنها، ولأنها لم تأت بنتاج معتاد وأسباب معهودة، ومن ثم كانت آيةً، وأي آية؟ وإنما استشهد صالح على صحة نبوته بالناقاة؛ لأنهم سألوه إياها آية دالة على صدق دعوته وصحة نبوته، ثم ذكر ما يترتب على كونها آيةً أنه لا ينبغي التعرض لها.

اللطيفة الثامنة: كلمة: ﴿آيَةً﴾ حالٌ من اسم الإشارة في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ لأن اسم الإشارة فيه معنى الفعل، واقترائه بحرف التثنية يقوي شبهه بالفعل، فلذلك يكون عاملاً في الحال بالاتفاق و﴿آيَةً﴾ نصب على الحال، أي: أشير إليها في حال كونها آيةً^(١).

اللطيفة التاسعة: فإن قيل: تلك الناقاة كانت آيةً لكلٍ أحدٍ، فلماذا خصَّ أولئك الأقوام بها؟ فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ فيه وجوه: أحدها: أنهم عاينوها، وغيرهم أخبروا عنها، وليس الخبر كالمعاينة. وثانيها: لعله يثبت سائر المعجزات، إلا أن القوم التمسوا منه هذه المعجزات نفسها على سبيل الاقتراح، فأظهرها الله لهم، فلهذا المعنى حسن هذا التخصيص.

اللطيفة العاشرة: الفائدة في تخصيص تلك الناقاة بأنها ناقاة الله أنه أضافها إلى الله تشریفاً وتخصيصاً، ولأن الله خلقها بلا واسطة ولأنها لا مالك لها غير الله، ولأنها حجة الله على القوم. اللطيفة الحادية عشر: أكدت جملة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾، وزادت على التأكيد إفادة ما اقتضاه قوله: ﴿لَكُمْ﴾ من التخصيص وثبتت أنها آية، وذلك معنى اللام، أي: هي آية مقنعة لكم

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٦/١)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧٠/١٤)، والتحرير والتنوير:

ابن عاشور (٢١٨/٨).

ومجوعة لأجلكم. فقوله: ﴿لَكُمْ﴾ ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحال من: ﴿آيَةً﴾، وأصله صفةٌ، فلَمَّا قُدِّم على موصوفه صار حالاً، وتقديمه للاهتمام بأنَّها كافيةٌ لهم على ما فيهم من عنادٍ.

اللطفية الثانية عشر: أنيط النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ بالمسِّ بالسُّوءِ، لأنَّ المسَّ يصدق على أقلِّ اتصال شيءٍ بالجسم، فكلُّ ما ينالها ممَّا يراد منه السُّوء فهو منهى عنه، وذلك لأنَّ الحيوان لا يسوؤه إلا ما فيه ألم لذاته، لأنَّه لا يفقه المعاني النَّفسانية.

اللطفية الثالثة عشر: انتصب قوله: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ في جواب النَّهي ليعتبر الجواب للمنهى عنه، لأنَّ حرف النَّهي لا أثر له، أي: إن تمسوها بسوءٍ يأخذكم عذابٌ.

اللطفية الرابعة عشر: الباء في قوله: ﴿بِسُوءٍ﴾ للملابسة، وهي في موضع الحال من فاعل تمسوها، أي: بقصد سُوءٍ.

اللطفية الخامسة عشر: قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ مقدمةٌ لقوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ أي: بسوءٍ يعوقها عن الرعي إمَّا بموتٍ أو بجرح، وإمَّا لأنَّهم لما كذبوه وكذبوا معجزته راموا منع النَّاقة من الرعي لتموت جوعاً على معنى الإلجاء النَّاشئ عن الجهالة^(١).

اللطفية السادسة عشر: جُزم: ﴿تَأْكُلُ﴾ على أنَّ أصله جوابُ الأمر بتقدير: إن تذروها تأكل.

اللطفية السابعة عشر: انبعث للناقة رجلٌ عارمٌ عزيزٌ منيعٌ في رهطه مثل أبي رَمْعَةَ^(٢).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

إضافة النَّاقة إلى اسم الله تشریفٌ لها؛ لأنَّ الله أمرَ بالإحسان إليها، وعدم النَّعْرَض لها بسوءٍ، وعظَّم حرمتها، كما يُقال: الكعبةُ بيتُ الله، أو لأنَّها وُجِدَت بكيفية خارقة للعادة، فلانتفاء ما الشأنُ أن تضاف إليه من أسباب وجود أمثالها أُضيفت إلى اسم الجلالة كما يُقال: عيسى كلمةُ الله، وأمَّا إضافة: ﴿أَرْضٍ﴾ إلى اسم الله المعظم فالمقصود منه أنَّ النَّاقة حقا في الأكل من نبات الأرض؛ لأنَّ الأرضَ لله، وتلك النَّاقة من مخلوقاته فلها الحقُّ في الانتفاع بما يصلح لانتفاعها. وقد جعل الله سلامة تلك النَّاقة علامةً على سلامتهم من عذاب الاستئصال لحكمة رجاء إيمانهم، وإكراماً لنبيهم، وأنَّ ما أوصى الله به في شأنها شبيهه بالحرم، وشبيهه بحمي الملوك

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٠)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢١٨)، المراحل الثمان لطالب فهم القرآن: عصام بن صالح العويد (ص: ٩٥، ٧٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء. باب قوله: ﴿وَالِي تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ [الأعراف: ٧٣]، حديث رقم (٣٣٧٧)، (ص: ٤٠٢).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٦٩)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢١٩، ٢١٨)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٣).

لما فيه من الدلالة على تعظيم نفوس القوم لمن تُنسب إليه تلك الحُرمة، ولذلك قال لهم صالح: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾^(١) لأنهم إذا مسَّها أحدٌ بسوءٍ، عن رضى من البقيَّة، فقد دلُّوا على أنَّهم خلَعوا حُرمةَ الله وحَنَقوا على رسوله، واختلف العلماء في وجه كون النَّاقَة آيةً، فقال بعضهم: إنَّها كانت آيةً بسبب خروجها بكمالها من الصخرة، هذا إن صحَّ فهو معجزةٌ من جهات: خروجها من الجبل، وكونها لا من ذكر وأنثى، وكمال خلقها من غير تدريجٍ. والقول الثاني: إنَّها إنَّما كانت آيةً؛ لأجل أنَّ لها شرب يوم، ولجميع ثمود شرب يوم، واستيفاء ناقة شرب أمةٍ من الأمم عجبٌ، وكانت مع ذلك تأتي بما يليق بذلك الماء من الكأ والحشيش. والثالث: إنَّ وجه الإعجاز فيها أنَّهم كانوا في يوم شربها يخلبون منها القدر الذي يقوم لهم مقام الماء في يوم شربهم. والقول الرابع: أنَّ وجه الإعجاز فيها أنَّ يوم مجيئها إلى الماء كان جميع الحيوانات تمتنع من الورود على الماء، وفي يوم امتناعها كانت الحيوانات تأتي، والخاصة أنَّ القرآن قد دلَّ على أنَّ فيها آيةً، فأما ذكر أنَّها كانت آيةً من أيِّ الوجوه، فهو غيرُ مذكورٍ، والعلم حاصلٌ بأنَّها كانت معجزةً من وجهٍ ما لا محالة، ثم إنَّ السياق القرآني لا يذكر تفصيلاً عن النَّاقَة أكثر من أنَّها بيَّنةٌ من ربِّهم، وأنَّها ناقةُ الله، وفيها آيةٌ منه، ومن هذا الإسناد نستلهم أنَّها كانت ناقةً غيرَ عاديةٍ، أو أنَّها أُخرجت لهم إخراجاً غيرَ عادي، ممَّا يجعلها بيَّنةً من ربِّهم، وممَّا يجعل نسبتها إلى الله ذات معنىً، ويجعلها آيةً على صدق نبوة صالح، وأمَّا إضافة: ﴿أَرْضِ﴾ إلى اسم الله المعظم فالمقصود منه أنَّ للنَّاقَة حقاً في الأكل من نبات الأرض؛ لأنَّ الأرض لله، وتلك النَّاقَة من مخلوقاته فلها الحقُّ في الانتفاع بما يصلح لانتفاعها.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. التحذير من نقمة الله وغضبه وانتقامه، بتكذيب رسله وكتبه.
٢. النَّاقَة التي أعطها الله لنبيه صالح كانت آيةً عظيمةً، على خلقه جسيمةً، وصورة باهرة، وهي ذات خصائص لا توجد في غيرها من الإبل، وهي مُعجزةٌ نبيِّ الله صالح (عليه السلام).
٣. الرفق بالحيوانات والدواب والإحسان إليها عبادة وقرية لله.
٤. المضاف إلى الله تشريف وتكريم، يدلُّ إضافة النَّاقَة إلى الله على التفضيل والتخصيص.
٥. إضافة النَّاقَة إلى الله؛ لتعظيمها ولأنَّها جاءت من عنده بلا وسائط، وأسباب معهودة، ولذلك كانت آيةً.

(١) معالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٠)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٤٦)، وصحيح القصص النبوي: عمر سليمان الأشقر (ص: ٣٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٠).

المقصد الثالث: العربُ في القديم كانوا أهلَ مدينةِ وعمران

ويدلُّ على هذا قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ: معناه: أنزلكم وأسكنكم، ومكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون، مشتقٌّ من البوّء، وهو الرجوع،؛ لأنَّ المرء يرجع إلى منزله ومسكنه، والمبوّأ: المنزل من الأرض، أي: في أرض الحجر بين الحجاز والشام.

سُهُولُهَا: السهول جمع سهل، وهو المستوي من الأرض، وضده الجبل.

وَتَنْحِتُونَ: والنحت: بَرَى الحَجَرِ والخَشَبَ بآلَةٍ على تقديرٍ مخصوص.

الْجِبَالَ: الجبال: جمع جبل وهو الأرض النائثة على غيرها مرتفعة، والجبال: ضد السهول.

بُيُوتًا: البيوت: جمع بيت وهو المكان المحدد المتخذ للسكنى، سواء كان مبنياً من حجرٍ أم كان من أثواب شعرٍ أو صوفٍ. وفعل النحت يتعلّق بالجبال؛ لأنَّ النَّحْتَ يتعلّق بحجارة الجبال.

قُصُورًا: القصور: جمع قصر، وهو المسكن، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يشيدون القصور، وآثارهم تنطق بذلك وهو مشاهد إلى الآن، ثم إنَّ القصور إنَّما تُبنى من الطين واللبن والآجر.

فَاذْكُرُوا: فعل اذكر مشتقٌّ من المصدر، وهو التذكر بالعقل والنظر النَّفْسَانِي.

وَلَا تَعْتُوا: معناه: لا تفسدوا، والعَتُو بمعنى أفسد أشد الإفساد، والعَيْثُ: الإسراع في الفساد.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

أخبر الله في هذه الآية أنه لما أهلك عاداً عمراً ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض، وكثروا وعمروا أعماراً طويلاً، فقال لهم صالحٌ: تذكروا أن الله جعلكم وارثين لأرض عادٍ، أنزلكم في الحجر، وجعل لكم منازلَ طيبةً تتخذون من السهول قصوراً فخمةً، وتنتحون الجبال فتجعلون منها بيوتاً، فاذكروا نعم الله إذ مكّنكم من الأرض ذلك التمكن، وقد كانوا يسكنون السهول في الصيف، والجبال في الشتاء، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا متنعمين مترفين، وكانوا يقبون في الجبال البيوت، ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبال، ومحلُّ الامتتان هو أن

(١) معالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٠)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٠)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٢١، ٢٢٠)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٣٠٠)، وفتحة اللغّة: الثعالبي (ص: ٢١٠)

(٢) معالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٠)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٠، ١٧١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٢١)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٨).

جعل منازلهم قسامين: قسم صالح للبناء فيه، وقسم صالح لنحت البيوت، كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال.
ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها^(١):

بعد أن بين صالح لقومه وظيفته، وكشف لهم عن معجزته، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا خالفوا أمره، أخذ في تذكيرهم بنعم الله عليهم وبمصائر الماضين قبلهم، فوجه الارتباط بين الآية وما قبلها أنه بعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة، يأخذ صالح في النصح لقومه بالتدبر والتذكر، والنظر في مصائر الغابرين، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين، فالآية تفريع الأمر بذكر ﴿آلاء الله﴾ على قوله: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً﴾ تفريع الأعم على الأخص؛ لأنه أمرهم بذكر نعمتين، ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها، فكان هذا بمنزلة التذييل.
رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: انتصب: ﴿يُبُوتًا﴾ على الحال^(٣) من ﴿الجبال﴾ أي: صائرة بعد النحت بيوتاً، كما يقال: خط هذا الثوب قميصاً، وأبر هذه القصبه قلماً، وهي من الحال المقدره؛ لأنَّ الجبل لا يكون حاله حال البيوت وقت النحت، ولكن يصير بيوتاً بعد النحت.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تعريف الأرض للعهد، أي: في أرضكم هذه، وهي أرض الحجر، ويجوز للجنس؛ لأنه لما بواهم في أرض معينة فقد بواهم في جانب من جوانب الأرض.
اللطيفة الثالثة: ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ سُهُولِهَا﴾ للظرفية، أي: تتخذون في سهولها قصوراً.
اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لمعنى ﴿تَعَثُّوا﴾ وهو وإن كان أعم من المؤكد.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٤):

أ- العرب أهل عمران:

لقد ثبت علمياً أنَّ جزيرة العرب في القديم كانت جنةً فيحاء كثيرة الأشجار والأنهار، فإنَّه من المعلوم أنَّ جزيرة العرب كانت في الماضي البعيد غابة لفاء كغابات الهند وأواسط أفريقيا تخترقها أنهار عديدة كبيرة وصغيرة وتغاديها أمطار غزيرة فكانت كثيرة السكان وافرة النبات

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٢١)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٤٦)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٢١).

(٣) الحال: هو وصف، فضلة، مُنتصبٌ للدلالة على هيئة. ينظر: شرح ابن عقيل (١/٢٩١).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٣)، ولغة القرآن الكريم: عبد الجليل عبدالرحيم (ص: ١٩٥، ١٩٤)، ومغامرات لغوية: عبد الحق فاضل (ص: ١٨٨).

والحيوان، فإنَّ القرآن الكريم ينطق بهذه الحقيقة في صراحةٍ وهو يتحدث عن أقدم من سكن الجزيرة من قبائل عاد وثمود ويبيِّن ما كانوا فيه من الرخاء والنَّعيم قال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤] فالمرج الفيحاء والبقاع المخصبة لم تكن مجهولة قطُّ في الجزيرة العربية، بل كانت مشهورة بالمراعي الواسعة والعيون الثرارة والأمطار الغزيرة والمرج المعشبة، وفي هذا دحض وردُّ على الذين يرون أنَّ العرب عاشوا حياةً بدويةً لا شأن لهم بالحضارة ومقوماتها ولا علم لهم بالزراعة والصناعة وأدواتها. يؤكد ذلك الأستاذ سيد قطب حيثُ قال: "ونلمح من تذكير صالحٍ لهم، أثر النعمة والتَّمكين في الأرض لثمود، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه، فهو سهلٌ وجبلٌ، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور، وينحتون في الجبال البيوت، فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النَّصِّ القرآني القصير، وصالحٌ (عليه السلام) يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عادٍ، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنَّهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عادٍ، وأنَّ سلطانهم امتد خارج الجبر أيضاً، وبذلك صاروا خلفاءً ممكِّنين في الأرض، محكمين فيها، وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد، اغتراراً بالقوة والتَّمكين، وأمامهم العبرة ماثلةً في عادٍ الغابرين". ومما يؤيد ذلك المعنى القرآني أنَّ النبيَّ (ﷺ) أخبر أنَّ من أشراط الساعة في آخر الزمان عود أرض العرب مروجاً وأنهاراً، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّ رسول الله (ﷺ) قال: "لا تقوم الساعةُ حتى تعود أرض العرب مروجاً^(١) وأنهاراً"^(٢). في هذه الحديث الصحيح دلالةٌ على أنَّ أرض العرب كانت مروجاً وأنهاراً، وأنها ستعود كما كانت مروجاً وأنهاراً^(٣). فإنَّ بلاد العرب كانت بساتين وأنهاراً قديماً، وسوف تعود بلاد العرب بساتين وأنهاراً، هذه حقيقةٌ علميةٌ، لا يُمكن أن تكون إلا بوحى^(٤). لذلك فإنَّ القرآن الكريم عندما وصف العرب قبل نزول الوحي بأنَّهم في جاهليةٍ، لم يقل قطُّ: إنَّ العرب كانوا في جاهليةٍ؛ لأنَّهم لا يعرفون الفلك والطبيعة والكيمياء والطب، ولا لأنَّهم لا يعرفون النظم السياسية، ولا لأنَّهم متأخرون في ميدان الإنتاج المادي والعلمي، ولا لأنَّهم خلوا من بعض الفضائل والقيم، إنَّما قال القرآن الكريم لهم إنَّهم جاهليون؛ لأنَّهم يحكِّمون أهواءهم، ويرفضون حكم الله، فالجاهلية مصطلح قرآني يُقصد به الجهل بحقيقة الألوهية^(٥).

(١) المروج: جمع مرج، وهو الفضاء الواسع، ويقال للأرض ذات الكأ: مرج. ينظر: لسان العرب (٣٦٤/٢).

(٢) صحيح مسلم في كتاب الزكاة. باب كل نوع من المعروف صدقة (٩٧/٧) مع شرح النووي.

(٣) أشراط الساعة: يوسف بن عبدالله الوابل (ص: ٢٠١).

(٤) مبشرات النَّصر والتَّمكين: سيد بن حسين العفَّاني (ص: ٩٥)، والسلسلة الصحيحة: الألباني (١٠/١).

(٥) حاضر العالم الإسلامي: صالح حسين الرقب (ص: ٨).

ب- ذكر النعم مدعاةً لشكرها^(١):

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ يعني قد ذكرت لكم بعض أقسام ما آتاكم الله من النعم، وذكر الكل طويل، فاذكروا أنتم بعقولكم ما فيها ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قيل المراد منه: النهي عن عقر الناقة، والأولى أن يحمل على ظاهره وهو المنع عن كل أنواع الفساد؛ فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل. وتذكّر الآلاء يبعث على الشكر والطاعة وترك الفساد، فلذلك عطف نهيبهم عن الفساد في الأرض على الأمر بذكر آلاء الله، فإن شكر النعم من أعظم أسباب عون الله وإمداده ونصره، وأن كفر النعم ونسيان شكرها من أعظم أسباب الخذلان، وأن شكر الله حافظٌ للنعمة، ودافعٌ للنقمة^(٢).

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. أنه ينبغي للعبد كلما أحدث الله له نعمةً أحدث لذلك شكراً، وأن أفضل أنواع الشكر الإكثار من ذكر الله.
٢. من وسائل الدعوة إلى الله تذكير العبد بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ.
٣. أن ذكر النعم يدعو إلى الشكر.

المطلب الثاني: الكبر بظن الحقّ وغمط الناس

وفيه أربعة مقاصد:

مقصد الأول: أكثر أتباع الرسل من الضعفاء

دلّ على ذلك المقصد الكريم قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا مِنْ أَمْنٍ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٥]

أولاً: المفردات النغوية في الآية^(٤):

المَلَأُ: عبارة عن القوم الذين تمتلئ القلوب من هيبتهم، وعني بهم الأشراف والقادة الذين تعظّموا عن الإيمان بصالح.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٧١/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢١/٨)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٠٧).

(٢) ثلاثون مجلساً في التدبر: اللجنة العلمية بمركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية (ص: ١٦٦، ١١٥).

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٩٤/١٦)، والمواهب الربانية من الآيات القرآنية: السعدية (ص: ١٠١)، وليدبروا آياته: اللجنة العلمية بمركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية (ص: ١٢).

(٤) معالم التنزيل: البغوي (١٢٠/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧١/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢٢/٨).

اسْتَضْعَفُوا: يريد المساكين الذين آمنوا به، يعني الأتباع، وهم عامة الناس الذين أذلهم عظماءهم واستعبدهم؛ لأن زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيوية الخلية عن خلال الفضيلة، من العدل والرأفة وحب الإصلاح، فلذلك وُصف المأل بالذين استكبروا، وأُطلق على العامة وصف الذين استضعفوا.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

أخبر الله في هذه الآية أن هؤلاء المستكبرين سألوا المستضعفين عن حال صالح، فقال المستضعفون: نحن موقنون مصدقون بما جاء به صالح، وقال المستكبرون: بل نحن كافرون بما جاء به صالح، أي: قال المترفون المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين الذين هداهم الله للحق، أتعلمون أن صالحاً مُرسلاً من ربِّه إليكم لعبادته وحده لا شريك له؟ وهذا سؤالٌ فُصِدَ منه الاستهزاء بالمؤمنين، وتهديدهم؛ ذلك أنهم يعلمون أن المؤمنين يعلمون أن صالحاً رسولُ الله إليهم جميعاً، فالمأل هم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض، وترده إلى إله واحد هو ربُّ العالمين، ولا بُدَّ أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد، وهكذا نرى المأل المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: عدل المأل الذين استكبروا عن مجادلة صالح إلى اختبار تصلب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشك في نفوسهم، ولما كان خطابهم للمؤمنين مقصوداً به إفساد دعوة صالح كان خطابهم بمنزلة المحاوراة مع صالح، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصل جمل حكاية المحاورات.

اللطيفة الثانية: وصفهم الله تعالى بـ ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لتفضيع كبيرهم وتعاضمهم على عامة قومهم واستذلالهم إياهم، وللتنبية على أن الذين آمنوا بما جاءهم به صالح هم ضعفاء قومه.

اللطيفة الثالثة: اختيار طريق الموصولية في وصفهم ووصف الآخرين بـ ﴿الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا﴾ لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم، أي: أن استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم، وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إياهم إلى الخير والهدى، ولهذا لم يوصفوا بالكفر كما وصف به قوم هود.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٧٢/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٣/٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٩/٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٧٢/١٤)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٧/١) والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢٣/٨)، والمراحل الثمان لطالب فهم القرآن: عصام العويد (ص: ٩٢)، وفي ظلال القرآن: (١٣١٣/٣).

اللطيفة الرابعة: أن الله تعالى وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين، وكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم، وكون المؤمنين مستضعفين معناه: أن غيرهم يستضعفهم ويستحقروهم، وهذا ليس فعلاً صادراً عنهم، بل عن غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم.

اللطيفة الخامسة: اللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ لتعدية فعل القول، وقوله: ﴿لَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ بإعادة حرف الجر الذي جر بمثله المبدل منه.

اللطيفة السادسة: الاستفهام في قولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ﴾ للتشكيك والإنكار، أي: ما نظنكم آمنتم بصالح عن علم بصدقه، ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين، وفي ذلك شوب من الاستهزاء.

اللطيفة السابعة: وقد جيء في جواب ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ بالجملة الاسمية للدلالة على أن الإيمان متمكّن منهم بمزيد الثبات، فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعاً في تشكيكهم، بله صرفهم عن الإيمان برسولهم.

اللطيفة الثامنة: قولهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قالوه على جهة الاستهزاء، قال صاحب الظلال: "وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف، ولاستتكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه".

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

عامّة من كذب الرسل علموا أن الحقّ معهم، وأنهم صادقون، لكن إمّا لحسدهم وإمّا لإرادتهم العلو والرياسة، وإمّا لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم مع علمهم بأنهم على الباطل، والرسل على الحقّ، ولهذا لا يذكر الكفار حجةً صحيحةً تقدح في صدق الرسل، إنّما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَدُنْكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ومعلوم أن اتباع الأرنئين له لا يقدر في صدقه؛ لكن كرهوا مشاركة أولئك، كما طلب المشركون من النبيّ (ﷺ) إبعاد الضعفاء، كخبّاب بن الأرت وعمار بن ياسر وبلال ونحوهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، فإذا رأى الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الدليلَ قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حمى وأنف أن يسلم، فيكون مثله، والملا هم السادة والكبراء من الكافرين، قالوا لنوح: ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (١٩١/٧)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيم الجوزية (٢٠١/٢).

كالباعة والحاكة، وأشباههم ولم يتبعك الأشراف، ولا الرؤساء، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرٍ ولا نظرٍ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ فهذا اعتراض الكافرين على نوحٍ وأتباعه، وهو دليلٌ على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ فإنه ليس بعارٍ على الحقِّ رذالة من اتبعه، فإنَّ الحقَّ في نفسه صحيحٌ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحقُّ الذي لا شك فيه أنَّ أتباع الحقِّ هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحقَّ ضعفاء النَّاس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته^(١). ويشهد لهذا المعنى حديث أبي سفيان لما سأله هرقل ملك الروم عن صفات النبي (ﷺ)، قال له فيما قال: أشرفُ النَّاسِ يَنبِعونَه أمْ ضُعفاؤُهُم؟ فقلتُ: بل ضُعفاؤُهُم. فقال هرقل: هم أتباعُ الرُّسل^(٢). والأشراف في الحديث هم أهل النخوة والتكبر منهم، لا كلُّ شريفٍ، وأتباع الرُّسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً، ولا يعيب الأنبياء أن كان أتباعهم من الضعفاء^(٣). وإنَّما كان أكثر أتباع الرُّسل من الضعفاء والمساكين لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير، والفقير خليٌّ عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا.

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. هذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أنَّ الفقر خيرٌ من الغنى؛ وذلك لأنَّ الاستكبار إنَّما يتولد من كثرة المال والجاه، والاستضعاف إنَّما يحصل من قلتها، فبين الله تعالى أنَّ كثرة المال والجاه حملهم على التمرد، والإباء، والإنكار، والكفر، وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان، والتصديق والانقياد، وذلك يدلُّ على أنَّ الفقر خيرٌ من الغنى.
٢. الترف مانعٌ من موانع الاستقامة وسببٌ في الهلاك.
٣. الكبر مانعٌ من وصول الهداية إلى القلوب.
٤. الغالب في دعوة الأنبياء أن يبادر الضعفاء والفقراء إلى الإصغاء لكلمة الحقِّ التي جاؤوا بها، وأمَّا السادة والزعماء فيتمردون ويستعلون عليها.

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي(٢٣/٩)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٤٤٢/٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي . باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله (ﷺ)، حديث رقم: (٧)، (ص: ١٠).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني(٧٠/١)، ودراسات في السيرة: نزار ريان(ص: ٤٧).

(٤) التفسير الكبير: الرازي(١٧٢/١٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية(ص: ٣٤٦، ١٦٠).

المقصد الثاني: الإيمان قوة وثقة ويقين

ويدلُّ على هذا المقصد قول قوم صالح: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

مُؤْمِنُونَ: الإيمان اسمٌ جامعٌ للشرائع الظاهرة والباطنة، ولأقوال اللسان وأقوال القلب، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأصل الإيمان والتقوى هو: الإيمان برسول الله، وجماع ذلك: الإيمان بخاتم الرُّسل محمدٍ (ﷺ)، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسوله، والإيمان هو أعلى الخصال وأشرف المراتب وأكمل المناقب.

ثانياً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: أكد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ لإزالة ما توهموه من شك الذين استكبروا في صحّة إيمانهم، والعدول في حكاية جواب الذين استضعفوا عن أن يكون بنعم إلى أن يكون بالموصول صلته؛ لأنَّ الصلّة تتضمن إدماجاً بتصديقهم بما جاء به صالح من التوحيد وإثبات البعث، والدلالة على تمكنهم من الإيمان بذلك كله بما تفيد الجملة الاسمية من الثبات والدوام، وهذا من بليغ الإيجاز. اللطيفة الثانية: قولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو (نعم) تنبيهاً على أنّ إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقلٌ، ويخفى على ذوي رأي.

اللطيفة الثالثة: مراجعة الذين استكبروا بقولهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ تدلُّ على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه؛ إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة.

اللطيفة الرابعة: الموصول في قولهم: ﴿بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ هو ما أُرسِلَ به صالح، وهذا كلامٌ جامعٌ لرد ما جمعه كلام المستضعفين حين قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فهو من بلاغة القرآن في أخباره، وقد قالوه على وجه المقابلة، ووضعوا ﴿آمَنُتُمْ بِهِ﴾ موضع ﴿أُرْسِلَ بِهِ﴾.

اللطيفة الخامسة: تقديم المجرورين في قوله: ﴿بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾ و﴿بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ﴾ على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم، وليس له معادل في كلامهم المحكي، وإنما هو لتتقوّم الفاصلتان، ويجوز أن يكون من المحكي: بأن يكون في كلامهم ما دلّ على الاهتمام.

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٦٠)، والمواهب الربانية من الآيات القرآنية:

السعدي (ص: ٨٧).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٧/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢٤/٨، ٢٢٣)، والمراحل

الثمان لطالب فهم القرآن: عصام بن صالح العويد (ص: ٩٢).

ثالثاً: بيان المقصد في الآية^(١):

عندما عَلِمَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ سَوَالَ الْمُسْتَكْبِرِينَ قُصِدَ مِنْهُ الْإِسْتِهْزَاءُ بِهِمْ كَانَ جَوَابُهُمْ دَالًّا عَلَى شَجَاعَتِهِمْ فِي الْحَقِّ، وَعَلَى قُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ، وَسَلَامَةِ يَقِينِهِمْ إِذْ قَالُوا فِي مُسَارَعَةٍ مِنْهُمْ إِلَى إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّ أَمْرَ صَالِحٍ مِنَ الْوُضُوحِ بِحَيْثُ لَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا الْجَدِيْرُ بِالسُّوَالِ عَنْهُ هُوَ الْإِيْمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيْمُ كَانَ أَكْثَرَ هَوْلَاءَ مِنَ الضَّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِيْنِ فَصَارُوا فِي النَّاسِ شَامَةً، تَزْدَانُ بِهِمُ الْبِلَادُ، فَالضَّعَافُ لَمْ يَعُودُوا ضِعَافًا، لَقَدْ سَكَبَ الْإِيْمَانُ بِاللهِ الْقُوَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَالثَّقَّةَ فِي نَفْسِهِمْ، وَالْإِطْمِنَانُ فِي مَنْطِقِهِمْ، إِنَّهُمْ عَلَى يَقِيْنٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَمَاذَا يَجْدِي التَّهْدِيْدُ؟ وَمَاذَا تَجْدِي السُّخْرِيَّةُ وَالْإِسْتِكْرَارُ مِنَ الْمَلَأِ الْمُسْتَكْبِرِيْنَ، إِنَّ الْفَنَاءَ الْمُؤْمِنَةَ إِنَّمَا تَمْتَازُ بِأَنَّهَا تَعْرِفُ طَرِيْقَهَا، وَتَفْقَهُ مِنْهَجَهَا، وَتَدْرِكُ حَقِيْقَةَ وَجُودِهَا وَحَقِيْقَةَ غَايَتِهَا، إِنَّهَا تَفْقَهُ حَقِيْقَةَ الْإِلَهِيَّةِ وَحَقِيْقَةَ الْعِبُوْدِيَّةِ، فَتَفْقَهُ أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَرَّدَ وَتَسْتَعْلِي، وَأَنَّ الْعِبُوْدِيَّةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتَفْقَهُ أَنَّهَا هِيَ الْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ الْمَهْتَدِيَّةُ بِهَدْيِ اللهِ، الْمُنْتَطَلِقَةُ فِي الْأَرْضِ بِإِذْنِ اللهِ لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهَا هِيَ الْمُسْتَخْلَفَةُ عَنِ اللهِ فِي الْأَرْضِ الْمُمَكَّنَةُ فِيهَا لِأَنَّهَا تَسْتَعْلِي هِيَ وَتَسْتَمْتَعُ؛ وَلَكِنْ لَتَعْلِي كَلِمَةَ اللهِ وَتَجَاهِدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ؛ وَلَتَعْمُرَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْقِسْطِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فَفَقَهُ يَسْكُبُ فِي قُلُوبِ الْعُصْبَةِ الْمُسْلِمَةِ النُّورَ وَالثَّقَّةَ وَالْقُوَّةَ وَالْيَقِيْنَ وَيُدْفَعُ بِهَا إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيْلِ اللهِ فِي قُوَّةٍ وَفِي طَمَآنِيْنَةٍ لِلْعَاقِبَةِ تَضَاعَفَ الْقُوَّةُ، بَيْنَمَا أَعْدَاؤُهَا قَوْمٌ قُلُوبُهُمْ مَغْلَقَةٌ، وَبِصَائِرِهِمْ مَطْمُوسَةٌ، وَقُوَّتُهُمْ كَلِيْلَةٌ عَاجِزَةٌ مَهْمَا تَكُنْ مَتَفَوِّقَةٌ ظَاهِرَةٌ، إِنَّهَا قُوَّةٌ مَنَقُطَعَةٌ مَعْرُوضَةٌ عَنِ الْأَصْلِ الْكَبِيْرِ.

المقصد الثالث: الاعتداء يجلب النقمات، والكفر عناد

ويدلُّ عليه قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٦، ٧٨]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

كَافِرُونَ: أصل الكفر والنفاق، هو: الكفر بالرُّسُل، وبما جاؤوا به، فإنَّ هذا هو الكفر الذي يستحقُّ صاحبه العذابَ في الآخرة، فإنَّ الله أخبر أنَّه لا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ بَلُوغِ الرِّسَالَةِ.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٥٥٠، ١٣١٤)، ودراسات في السيرة: نزار ريان (ص: ٤٧)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١٠٩).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٤٤٤، ٥٤٦، ٤٩٠)، ومعالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٠)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٢)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ٦٠)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٢٧، ٢٢٥)، والفقهاء المنهجي: مصطفى الخن، وآخرون (١/٤٧٧)،

فَعَقَّرُوا: العَقْرُ عند العرب: كشف (قطع) عرقوب البعير، ولما كان العقر سبباً للنحر أطلق العقر على النحر إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، والعقر: حقيقته الجرح البليغ، ويطلق العقر على قطع عضو الحيوان، فالعقر: جرح الحيوان، أي: مُزهِقٌ للروح، في أيِّ موضعٍ من جسمه. وَعَتَّوْا: العَتْوُ: النبؤُ عن الطاعة. يقال: عتا يعنو عُنُوًّا إذا استكبر، ومنه يقال: جبارٌ عاتٍ، والعنُوُّ الغلو في الباطل، فقوله: ﴿وَعَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ معناه استكبروا عن امتثال أمر ربهم، أو أنّ يكون المعنى وصدر عتوهم عن أمر ربهم، فكأن أمر ربهم بتركها صار سبباً في إقدامهم على ذلك العتو، والمعنى: عصوا الله وتركوا أمره في الناقاة، وكذبوا نبيهم. فَأَخَذَتْهُمُ: أصل الأخذ تناول شيء باليد، ويستعمل توسعاً في ملك الشيء، بعلاقة اللزوم، ويستعمل في القهر.

الرَّجْفَةُ: الرجفُ: الاضطرابُ الشديدُ، والزلزلةُ الشديدة، والرَّجْفَةُ: اضطراب الأرض وارتجاجها وحركتها، فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصَّواعق، وتكون من أسباب أرضية كالزلازل، فالرجفة اسمٌ للحالة الحاصلة، وقد سماها في سورة هود بـ ﴿الصَّيْحَةُ﴾ [هود:٦٧] فَعُلِمَ أَنَّ الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم صَعِقِينَ، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضية، وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم إحاطة الآخذ، ولا شك أنّ الله نجَّى صالحاً والذين آمنوا معه، وقد روي أنهم نزلوا رملةً فلسطين، ومن أهل العلم من يقول: إنّ ثقيفاً من بقايا ثمود، أي: من ذرية من نجا منهم من العذاب، ولم يذكر القرآن أنّ ثموداً انقطع دابرهم، فيجوز أن تكون منهم بقية.

دَارِهِمُ: الدَّارُ: المكان الذي يحتلّه القوم، وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ بمعنى صاروا.

جَائِمِينَ: استعارةٌ للمقيمين، من قولهم: جنم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض، والجثوم للناس والطير، بمنزلة البروك للابل، والمعنى: أنّهم أصبحوا جائمين خامدين لا يتحركون موتى، يقال: النَّاسُ جنم أي: قعود لا حراك بهم ولا يحسون بشيء، فإنهم لما سمعوا الصيحة العظيمة تقطعت قلوبهم، وماتوا جائمين على الركب، وسقطوا على وجوههم عند نزول العذاب عليهم وسقط بعضهم على بعض، فقوله: ﴿جَائِمِينَ﴾ أي: خامدين ميتين^(١).

فَتَوَلَّى: والتَّوَلَّى هو الانصراف عن فراقٍ وغضبٍ، ويطلق توسعاً على عدم الاكتراث بالشيء.

(١) معالم التنزيل: البغوي (١٢١/٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ١٨٧)، والتفسير الكبير:

الرازي (١٧٣/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢٧/٨).

ثانياً: المعنى العام للآية الكريمة^(١):

قال المُستكبرون رداً على الفقراء من المؤمنين: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ولم يقولوا: إِنَّا بما أرسل به كافرون؛ إظهاراً لمخالفتهم إيَّاهم، ورداً على مقالتهُم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وفي إعلان الملام عن موقفهم هذا في صراحةٍ يحمل طابع التهديد، على الرغم من البيّنة التي جاءهم بها صالح (عليه السلام)، والتي لا تدع ريبة لمستريب، إنّه ليست البيّنة هي التي تنقص الملام للتصديق، إنّه السلطان المهذب بالخضوع للرّب الواحد، إنّه عقدة الحاكمية والسلطان، إنّه شهوة الملك العميقة في الإنسان، إنّه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الخطام، ولم يكتفِ المُستكبرون من قوم صالح بالردّ القبيح على المؤمنين، وإنما أتبعوه بفعلٍ أقبَح منه، فأتبعوا القول بالعمل، وذلك باستهزائهم واستخفافهم بمعجزة نبي الله صالح، فاعتدوا على ناقة الله التي جاءتهم آيةً من عند الله على صدق نبيه في دعواه، والتي حذرهم نبيّهم أن يمسوها بسوءٍ فيأخذهم عذاب أليم، إنّه التبحر الذي يُصاحب المعصية، ولا يستأني السياق في إعلان الخاتمة، إنّه العذاب. ثم يترك القرآن قوم صالح الذين استكبروا، وما حلّ بهم، ليُحدّثنا عن نبيّ الله صالح الذي كذّبوه وتحذوه، فأخبر عن نبيّهم صالح أنّه أعرَض عنهم، وتركهم للمصير الذي جلبوه على أنفسهم، وأخذ يقول مُقيماً عليهم الحُجّة أنّه أبلغهم دينَ الله: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربيّ كاملةً غير منقوصة، ونصحتُ لكم بالترغيب تارةً، وبالترهيب أخرى، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بُغض النَّاصحين وعداوتهم، إنّه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح، والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب، وهكذا طُوِّبَتْ صفحةٌ أخرى من صحائف المكذّبين، وحلّت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها، وحقّ النذير بعد التذكير على المستهزئين.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: الفاء في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]، أي: قالوا ذلك فعقروا، والتعقيب في كلّ شيء بحسبه؛ وذلك أنّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتكذيب، وصمّموا عليه، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكايّة والإغاية لصالح ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة التي جعلها صالح لهم، وأقامها علامةً موادعةً ما داموا غير متعرّضين لها بسوءٍ، ومقصدهم من نيّتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آيةً صالح لئلا يزيد عدد المؤمنين به؛ لأنّ مشاهدة آية نبوته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٠، ١٠٩).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (١/٣٤٧)، والتحرير والتنوير:

ابن عاشور (٨/٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٤).

كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشربها؛ ولأنَّ في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بتحزهم للإضرار بصالح ويمن آمن به بعد ذلك، وليزوا صالحاً أنهم مستخفون بوعيده.

اللطيفة الثانية: الضمير في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ عائد إلى ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحداً منهم؛ لأنه كان عن تمالي ورضى من جميع الكبراء، أو للملابسة. قال الفخر الرازي: "أسند الله العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم، مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم".

اللطيفة الثالثة: العتو تجاوز الحد في الكبر، وتعديته بـ ﴿عَنْ﴾ لتضمينه معنى الإعراض.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿أَمْرٍ رَبِّهِمْ﴾ معناه ما أمرهم به على لسان صالح من قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ فعبّر عن النهي بالأمر؛ لأنَّ النهي عن الشيء مقصود منه الأمر بفعل ضده؛ فإنَّ النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده الذي يحصل به تحقق الكف عن المنهي عنه.

اللطيفة الخامسة: التعبير عن عصيانهم بـ ﴿وَعَتَوْا﴾ لإبراز سمة التبجح فيها، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالندير. **اللطيفة السادسة:** في قولهم: ﴿يَا صَالِحُ﴾ هكذا باسمه المجرد؛ تهويناً لشأنه، وتعريضاً بما يظنون من عجزه، واستخفافاً به وتحدياً.

اللطيفة السابعة: أرادوا بقولهم: ﴿بِمَا تَعَدُّنَا﴾ العذاب الذي توعددهم به مجملاً، وجيء بالموصول للدلالة على أنهم لا يخشون شيئاً مما يريد من الوعيد المجمل، فالمراد بما تتوعدنا به، وصيغت صلة الموصول من مادة الوعد؛ لأنه أخف من مادة الوعد.

اللطيفة الثامنة: دلَّ حرف ﴿إِنْ﴾ على الشك في حصول الشرط، فقد فرضوا كونه ﴿مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إن كنت من الرسل عن الله، فالمراد بـ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ من صدق عليهم هذا اللقب. وهؤلاء لجهلهم بحقيقة تصرف الله وحكمته، يحسبون أن تصرفات الله كتصرفات الخلق، فإذا أرسل رسولاً ولم يصدِّقه المرسل إليهم غضب الله واندفع إلى إنزال العقاب إليهم، ولا يعلمون أن الله يمهل الظالمين ثم يأخذهم متى شاء.

اللطيفة التاسعة: جملة: ﴿فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ معترضة بين جملة: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ وبين جملة: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أريد باعتراضها التَّعَجُّلُ بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم بعقب عتوهم، فالتعقيب عرفيٌّ، أي: لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمنٌ طويلٌ، كان بينهما ثلاثة أيام^(١).

(١) معالم التنزيل: البغوي (١٢١/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧٢/١٤، ١٧٣)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢٢٦/٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٩/٣).

اللطفية العاشرة: قوله: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَكْذِبِينَ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

اللطفية الحادية عشر: قوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ يَعْنِي فِي بِلَدِهِمْ وَأَرْضِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ وَحَدَّ الدَّارَ، وَجَمَعَ فِي آيَةٍ أُخْرَى فَقَالَ: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود:٦٧]؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِالدَّارِ مَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِ الْخَاصِّ بِهِ.

اللطفية الثانية عشر: الفاء قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ لِلتَّعْقِيبِ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّجْفَةَ أَخَذَتْهُمْ عَقِيبَ مَا ذَكَرُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥] وَالْجَوَابُ: أَنَّ الَّذِي يَحْصُلُ عَقِيبَ الشَّيْءِ بِمَدَّةٍ قَلِيلَةٍ قَدْ يُقَالُ فِيهِ: إِنَّهُ حَصَلَ عَقِيبَهُ.

اللطفية الثالثة عشر: طعن قومٌ من الملحدِّين في القصة بأنَّ ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرجفة والطاغية والصيحة، وزعموا أنَّ ذلك يوجب التناقض، والجواب: الطاغية اسمٌ لِكُلِّ مَا تَجَاوَزَ حُدُودَهُ، فَالْمُسْلِمُونَ يَسْمَوْنَ الْمَلِكَ الْعَاتِي بِالطَّاغِيَةِ وَالطَّاغُوتَ، وَهُوَ مَنْ غَلَبَ وَتَجَاوَزَ عَنِ الْحَدِّ، وَأَمَّا الرَّجْفَةُ فَهِيَ الزَّلْزَلَةُ فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ حَرَكَةٌ خَارِجَةٌ عَنِ الْمَعْتَادِ، فَلَمْ يَبْعُدِ إِطْلَاقَ اسْمِ الطَّاغِيَةِ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الصَّيْحَةُ فَالْغَالِبُ أَنَّ الزَّلْزَلَةَ لَا تَتَفَكَّعُ عَنِ الصَّيْحَةِ الْعَظِيمَةِ الْهَائِلَةِ، وَأَمَّا الصَّاعِقَةُ فَالْغَالِبُ أَنَّهَا الزَّلْزَلَةُ، وَكَذَلِكَ الزَّجْرَةُ فَيَبْطُلُ مَا قَالَ الطَّاعِنُ.

اللطفية الرابعة عشر: أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ شَاهَدُوا خُرُوجَ النَّاقَةِ عَنِ الصَّخْرَةِ، وَذَلِكَ مَعْجَزَةٌ قَاهِرَةٌ تَقْرُبُ حَالَ الْمَكْلَفِينَ عِنْدَ مَشَاهِدَةِ هَذِهِ الْمَعْجَزَةِ مِنَ الْإِلْجَاءِ، وَشَاهَدُوا أَنَّ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ شَرِيبًا لِكُلِّ أَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ فِي أَحَدِ الْيَوْمَيْنِ، كَانَ شَرِيبًا لِنَتِيقِ النَّاقَةِ الْوَاحِدَةِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، وَذَلِكَ مَعْجَزَةٌ قَاهِرَةٌ، ثُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا نَحَرُواهَا، وَكَانَ صَالِحٌ قَدْ تَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ إِنْ نَحَرُواهَا، فَلَمَّا شَاهَدُوا بَعْدَ إِقْدَامِهِمْ عَلَى نَحْرِهَا آثَارَ الْعَذَابِ، فَمَعَ مَشَاهِدَةَ تِلْكَ الْمَعْجَزَاتِ الْقَاهِرَةِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، ثُمَّ شَاهَدُوا نَزُولَ الْعَذَابِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، هَلْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَبْقَى الْعَاقِلُ مَعَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مَصْرًا عَلَى كُفْرِهِ غَيْرَ تَائِبٍ مِنْهُ؟ الْجَوَابُ أَنَّ يُقَالُ: إِنَّهُمْ قَبِلُوا أَنَّ شَاهَدُوا تِلْكَ الْعَلَامَاتِ كَانُوا يَكْذِبُونَ صَالِحًا فِي نَزُولِ الْعَذَابِ، فَلَمَّا شَاهَدُوا الْعَلَامَاتِ خَرَجُوا عِنْدَ ذَلِكَ عَنِ حُدِّ التَّكْلِيفِ، وَخَرَجُوا عَنِ أَنْ تَكُونَ تَوْبَتُهُمْ مَقْبُولَةً.

اللطفية الخامسة عشر: قوله: ﴿جَائِمِينَ﴾ كِنَايَةٌ؛ لِأَنَّ الْجَائِمَ هُوَ الْمَكْبُوعُ عَلَى صَدْرِهِ فِي الْأَرْضِ مَعَ قَبْضِ سَاقِيهِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ سَكُونًا وَانْقِطَاعًا عَنِ اضْطِرَابِ الْأَعْضَاءِ اسْتَعْمَلَ كِنَايَةً عَنِ هُمُودِ الْجَنَّةِ بِالموتِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ تَشْبِيهِ حَالِهِ وَقَوَعِهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ حِينَ صَعِقُوا بِحَالَةِ الْجَائِمِ تَفْظِيلًا لِهَيْبَةِ مَيْتَتِهِمْ، فَأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا جَائِمًا هَامِدَةً مَيْتَةً عَلَى أَشْبَعِ مَنْظَرٍ لِمَيْتٍ.

اللطفية السادسة عشر الفاء في قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ عَاطِفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾.

اللطفية السابعة عشر: الاستدراك بـ: ﴿وَلَكِنْ﴾ نَاشِئٌ عَنِ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي مَعَالِجَةِ كُفْرِهِمْ، وَلِذَلِكَ التَّبَرُّؤُ يُؤْذَنُ بِدَفْعِ تَوْهَمِ

تقشير في الإبلاغ والنصيحة لانعدام ظهور فائدة الإبلاغ والنصيحة، فاستدرك بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: تكرهون الناصحين فلا تطيعونهم في نصحتهم؛ لأنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع، فأراد بذلك الكناية عن رفضهم النصيحة.

اللطيفة الثامنة عشر: استعمال المضارع: ﴿لَا تُحِبُّونَ﴾ إن كان في حال سماعهم قوله فهو للدلالة على التجديد والتكرير، أي: لم يزل هذا دأبكم فيكون ذلك آخر علاج لإقلاعهم إن كانت فيهم بقیة للإقلاع عمًا هم فيه، وإن كان بعد انقضاء سماعهم فالمضارع لحكاية الحال الماضية.

اللطيفة التاسعة عشر: نجى الله صالحاً ومن أسلم معه إلى الشام، فنزل الرملة من فلسطين^(١).
رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- الكفر عناد:

ولجَّ العناد بأولئك المُستكبرين، فتحدوا الله ورسوله (ﷺ) وذبحوا الناقة، وتجاوزوا الحدَّ في استكبارهم، وأعرضوا عن أمر ربِّهم، وقالوا لصالح على سبيل تعجُّل العذاب الذي توعدَّهم به مستخفِّين به ومتحدِّين له: ائتنا بما توعدُّتنا به إن كنت من صادقاً في رسالتك، ولقد كان ردُّ الله عليهم وعلى تبجُّحهم واستكبارهم سريعاً، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: فأخذت أولئك المُستكبرين الرِّزلة الشديدة، فأهلكتهم، فأصبحوا في بلادهم ومساكنهم باركين على الرُّكب، ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحرَّكون، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. والرجفة والجنوم، جزاء مقابل للعتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفزع، والجنوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف، وما أجدر المعتدي أن يعجز؛ جزاءً وفاقاً في المصير، وفي التعبير عن هذا المصير بالتصوير.

ب- من لا يقبل لا يقبل؛ بل يُعرض عنه^(٣):

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه قولان: الأوَّل: أنَّه تولى عنهم بعد أن ماتوا، والدليل عليه قوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ والفاء تدلُّ على التعقيب؛ فدلَّ على أنَّه حصل هذا التولي بعد جنومهم. والثاني: أنَّ صالح تولى عنهم قبل موتهم بدليل: أنَّه خاطب القوم وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وذلك

(١) معالم التنزيل: البغوي (١٢٥/٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٧/١)، والتفسير الكبير:

الرازي (١٧٤/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢٩/٨، ٢٢٧).

(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١٠٩/٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٤).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٣٤٨/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢٨/٨)، والتفسير

المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٠).

يدلُّ على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه: أحدهما: أنَّه قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ والأموات لا يوصفون بالقوم؛ لأنَّ اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام، وذلك في حقِّ الميت مفقودٌ. الثاني: أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك، وخطاب الميت لا يجوز. والثالث: أنَّه قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ فيجب أن يكونوا بحيثُ يصحُّ حصول المحبة فيهم. والفائدة في ذكر هذا الكلام إمَّا لأن يسمعه بعض الأحياء فيعتبر به وينزجر عن مثل تلك الطريقة، وإمَّا لأجل أنَّه احترق قلبه بسبب تلك الواقعة، فإذا ذكر ذلك الكلام فرجت تلك القضية عن قلبه. وقيل: يخف عليه أثر تلك المصيبة. وقيل: خاطبهم ليكون عبرةً لمن خلفهم، وقيل: إنَّ صالحاً خاطبهم بعد كونهم جاثمين كما أنَّ نبينا (ﷺ) خاطب المشركين من قتلى بدر حين ألقاهم في القليب، فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم^(١). ويحتمل أن يكون التولي حقيقةً، فيكون المراد به أنَّه فارق ديار قومه حين علم أنَّ العذاب نازلٌ بهم، فيكون التعقيب لقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ لأنَّ ظاهر تعقيب التولي عنهم وخطابه إياهم أن لا يكون بعد أن تأخذهم الرَّجفة وأصبحوا جاثمين. ويحتمل أن يكون من با التوسع بقرينة الخطاب أيضاً، أي: فأعرض عن النَّظر إلى القرية بعد أصابتها بالصاعقة، أو فأعرض عن الحزن عليهم واشتغل بالمؤمنين. فعلى الوجه الأوَّل: يكون قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ مستعملاً في التوبيخ لهم والتسجيل عليهم، وعلى الوجه الثاني: يكون مستعملاً في التحسر أو في التبري منهم، فيكون النداء تحسر فلا يقتضي كون أصحاب الاسم المنادى ممَّن يعقل النداء حينئذٍ، مثل ما تتادى الحسرة في: يا حسرة.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. كلُّ قومٍ جاءتهم معجزةٌ نبيٍّ طلبوها ثمَّ كفروا بها عاجلهم الله بالعقوبة.
٢. الكبر والمُلك مانعٌ من قبول الدَّعوات.
٣. أنَّ الجنوم عبارة عن السكون والخمود.
٤. نبيُّ الله صالح (ﷺ) على منهج الأنبياء الذين قبله.
٥. من قواعد القضاء الشرعي في الإسلام أنَّ من ترك ترك.
٦. أهل الكفر يكرهون النَّصيحة.
٧. من لا يقبل لا يقبل؛ بل يُعرض عنه؛ فإنَّه أصلٌ تريوي.

(١) صحيح البخاري في كتاب المغازي . باب قتل أبي جهل (ح٣٩٧٦)، (ص: ٤٧٠)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٣٩/٩)، ومعالم التنزيل: البغوي (١٢١/٢)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧٤/١٤).
(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٠/٣)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٣٤٦).

المبحث الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٠-٨٤)

قصة لوط عليه السلام

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: من رأى منكم منكراً فليغيره.

المطلب الثاني: النجاة على الله واجبة.

المبحث الثالث

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٠-٨٤)

قصة لوط (عليه السلام)

تمهيدٌ وتوطئةٌ:

لوط هو ابن أخي إبراهيم (عليه السلام)، يقال: إن قوم لوط لم يكن فيهم أحدٌ يجتمع معه في نسبه، لأنهم من سدوم، وهي من الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم (عليه السلام) إلى الشام هاجر معه لوط، فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم، وهي بغور زَعْر^(١) من البلاد الشامية، وقد قصَّ الله قصته مع قومه في سورة الأعراف وهود والشعراء والنمل والصفافات وغيرها، وحاصلها أنهم ابتدعوا وطء الذكور فدعاهم لوط (عليه السلام) إلى التوحيد وإلى الإقلاع عن الفاحشة، فأصروا على الامتناع، ولم يتفق أن يساعده منهم أحدٌ، فلما أراد الله إهلاكهم بعث جبريل وميكائيل وإسرافيل إلى إبراهيم (عليه السلام) فاستضافوه، فكان ما قصَّ الله في سورة هود، ثم توجهوا إلى لوط فاستضافوه، فخاف عليهم من قومه وأراد أن يخفي عليهم خبرهم، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداءً، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه^(٢)، فنمَّت عليهم امرأته فجاءوا إليه وعاتبوه على كتمانهم أمرهم، وظنوا أنهم ظفروا بهم، فأهلكهم الله على يد جبريل (عليه السلام) فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوطٌ بأهل بيته إلا امرأته، فإنها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب، فقلب جبريل (عليه السلام) المدائن بطرف جناحه، فصار عاليها سافلها وصار مكائنها بحيرةً منتنةً لا ينتفع بمائها ولا بشيء مما حولها^(٣).

فلوط (عليه السلام) أحد أنبياء الله ورسله الذين واجهوا قوماً قساة القلوب، غلاظ الطباع، جمعوا بين انحراف الاعتقاد وانحراف السلوك، وكان انحرافهم شذوذاً في التاريخ الإنساني، فقد كانوا يأتون الذكران من العالمين، ويأتون في ناديهم المنكر، فجاهدهم لوط (عليه السلام) جهاداً عظيماً، حتى أنزل الله بهم العذاب^(٤). وفي هذا المقطع القرآني من سورة الأعراف طرفٌ من أخبار لوط (عليه السلام)، جاء ليضيف إلى قصة لوط (عليه السلام) أخباراً لم تذكر من قبل.

(١) زَعْر: على وزن صُرْد، بليدة من الشام بينها وبين بيت المقدس ثلاثة فراسخ على طريق بحيرة طبرية، وزَعْرُ اسم ابنة لوط، قال في القاموس: وزَعْرُ قريةٌ بالشام سميت بذلك؛ لأن ابنة لوط نزلت بها، قال: وبها عين غور مائها علامة خروج الدجال. ينظر: لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١١١/٢)، ومقاييس اللُّغة: ابن فارس (١٤/٣).

(٢) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء . باب قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ حديث رقم (٣٣٧٥)، (ص: ٤٠٢).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٧/٦٨٤، ٧/٨).

(٤) صحيح القصص النبوي: عمر سليمان الأشقر (ص: ٦٣).

المطلب الأول: من رأى منكم منكراً فليغيره

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: إنكار المنكر واجب ديني

دل عليه قوله: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَلَوْطًا: لوطٌ اسمٌ علمٌ للنبيِّ المشهور ابن أخي إبراهيم الخليل، آمن بإبراهيم واهتدى بهديه، وتبع إبراهيم في رحلاته فيما بين النهرين، ثم بلاد الشام، حيثُ فارق إبراهيم عمه، وسكن في سدوم في شرقي الأردن، ويحملُ لفظُ: لَوَطٌ في لسان العرب معنى: الحب، والإلصاق، والإلحاق، لكن لا يُعرف أن مصدره: (اللواط) هو بمعنى اكتفاء الرجال بالرجال في الأدبار، إلا أن المعنى لغةً لا يأبي دخوله في مشموله؛ لتوفر معانيه في هذه (الفِعْلة) من جهة قوة الباعث: الحب والشهوة للذكران، ولهذا صار (لَوَطٌ) اسم علم من لاط بالقلب، أي: لصق حبه بالقلب، هذا من جهة قوة الباعث على الفعل (الحب) وكذا من جهة (الفعل) الذي فيه إلصاق، وإلحاق، ولم يمتنع هذا الإطلاق (اللواط) على هذه الفِعْلة الشنعاء، (واللوطي) على فاعلها.

لِقَوْمِهِ: قوم لوط هم أهل سدوم، وذلك أن لوطاً شخصٌ من أرض بابل سافر مع عمه إبراهيم مؤمناً به مهاجراً معه، فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطاً الأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم. أَتَأْتُونَ: الإتيان كنايةً عن عمل الفاحشة، أي: أتفعلون السيئة المتبادية في القبح، وهي إتيان الذكران.

الْفَاحِشَةُ: ما عَظُمُ قُبْحُهُ من الأفعال والأقوال، والفاحشة شرعاً: الفعلُ الدنيءُ الذميمة، والمراد في الآية فاحشةٌ معروفةٌ، وهي: اللواط، والفاحشة: هي ما ظهر قُبْحُها لكلِّ أحدٍ، واستفحشهُ كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ، ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله (فاحشة) لتناهي قُبْحِهما، وكذلك القبيح من القول يسمى فحشاً، وهو ما ظهر قبحه جداً من السبِّ القبيح، والقذف ونحوه، فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة.

سَبَقَكُمْ: أصلُ السَبَقِ: التقدُّمُ في السير، ثم يُتَجَوَّزُ به في غيره من التقدُّم، والسبق حقيقته: وصولُ الماشي إلى مكانٍ مطلوبٍ له ولغيره قبلَ وصولِ غيره، ويُستعمل توسعاً في التقدم في

(١) معالم التنزيل: البيهقي (١٢٧/٢)، ومفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٦٢٦، ٧٥٠)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٥٠/٤)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧٥/١٤)، ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٦٤٣/١)، ومعجم المناهي اللفظية: بكر أبو زيد (ص: ٤٧٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣١/٨)، والتفسير الوسيط: الزحيلي (٦٨٨/١)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٢/٣).

الزمان، أي: الأوليّة والابتداء، وهو المراد في الآية، والمقصود أنهم سبقوا النَّاسَ بهذه الفاحشة، إذ لا يُقصد بمثل هذا التّركيب أنهم ابتدأوا مع غيرهم في وقتٍ واحدٍ. قال بعض السلف: "ما نزا ذكرٌ على ذكرٍ في الدُّنيا حتى كان من قومٍ لوطٍ".

العَالَمِينَ: العَلَمُ: الأثرُ الذي يُعَلِّمُ به الشيء، والعَالَمُ: اسمٌ لِلْفَلَكِ وما يحويه من أشياء، والعَالَمُ آلةٌ في الدلالة على صانعه^(١).

ثانياً: مناسبة الآية لما قبلها^(٢):

ما زالت السُّورَةُ الكريمةُ توالي ذِكرَ قِصصِ الأنبياء، وفي هذا المقطع القرآني تُحدِّثنا سورة الأعراف عن قِصَّة نبيِّ الله لوطٍ (عليه السلام) مع قومه، أهل سدُوم، وهي القِصَّةُ الرَّابِعَةُ، ذكرت بعد قِصَّة نوح، وهود، وصالح (عليهم السلام)، لبيان ما حلَّ بهم من العذابِ والنكالِ حينما أعرضوا عن نُصح الأنبياء، وعتوا عن أوامر الله، وقد تنبَّه صاحب الظلال إلى نكتة جميلة في علم المناسبات، حيث يقول: "وتمضي عجلةُ التاريخ، فيظننا عهد إبراهيم (عليه السلام) ولكن السياق القرآني في سورة الأعراف لا يتعرض لقِصَّة إبراهيم، وذلك أنَّ السياق يتحرى مصارع المكذِّبين متناسقاً مع ما جاء في أوَّل السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ وهذا القصص الوارد في السورة إنّما هو تفصيلٌ لهذا الإجمال في إهلاك القرى التي كذبت بالندير، وقوم إبراهيم لم يُهلكوا؛ لأنَّ إبراهيم لم يطلب من ربِّه هلاكهم، بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله، إنما تجيء هنا قِصَّة قوم لوطٍ، بما فيها من إنذارٍ وتكذيبٍ وإهلاكٍ، يتمشى مع ظلال السياق، على طريقة القرآن".

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٣):

لم يترك الله تعالى قوماً أو أمةً من غير رسولٍ ينذرهم ويبيِّنهم؛ لذا أرسل الله لوطاً في عصر إبراهيم (عليه السلام)، لإنذار أمةٍ تُسمى سدُوم قرب البحر الميت، ومن أجل استئصال المفساد والمنكرات التي شاعت فيهم؛ فأخبرت الآية أنَّ الله أرسل لوطاً إلى قومه، يدعوهم إلى التَّوحيد، ويُنبِّههم إلى وجوب التَّخْلِى عن أقبح جريمةٍ يفعلونها قاتلاً لهم: أتأتون تلك الفِعلَةَ التي بلغتْ نهايتها في الفُجْحِ والفُحْشِ، والتي تجاوزت الحدَّ في الخروج على الفِطْرَةِ، وقد ابتدئتم تلك الفاحشة

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٣٩٥، ٥٨١)، ومعالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٣٠).

(٢) التفسير المنير: وهبة الزحيلي (٨/٢٨١)، في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٢).

(٣) معالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٧)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٥)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٢)، والتفسير الوسيط: الزحيلي (١/٦٨٧).

بشذوذكم، فلم يسبقكم بها أحدٌ من النَّاسِ، وقد كانوا ينكحون الرِّجال في أدبارهم، وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء، وقد استحکم ذلك فيهم حتى فعل بعضهم ببعضٍ.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: عطف ﴿وَلُوطًا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ فالتقدير: وأرسلنا لوطاً، وتغيير الأسلوب في ابتداء قصة لوط وقومه إذ ابتدئت بذكر ﴿وَلُوطًا﴾ كما ابتدئت قصة بذكر نوح؛ لأنه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به.

اللطيفة الثانية: لفظة: ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ المقدر يعني أرسلناه وقت قال لقومه وجعل وقت القول ظرفاً للإرسال لإفادة مبادرته بدعوة قومه إلى ما أرسله الله به، والمقارنة التي تقتضيها الظرفية بين وقت الإرسال ووقت قوله، مقارنة عرفية بمعنى شدة القرب بأقصى ما يستطاع من مبادرة التبليغ.

اللطيفة الثالثة: ابتداء قوله: بلفظة: ﴿إِذْ﴾ لأنها دالة على تذكر تلك الحال وتصويرها.

اللطيفة الثالثة: لم يقل الله: ﴿أَخَاهُمْ لُوطًا﴾ لأنَّ قوم لوط كانوا خليطاً من الكنعانيين وممن نزل حولهم، ولذلك لم يُوصف بأنه أخوهم إذ لم يكن من قبائلهم، وإنما نزل فيهم واستوطن ديارهم. وكان لوط من أهل العراق والقوم الذين أرسل إليهم لوط هم أهل قرية سدوم وعمورة من أرض كنعان، ولم يكن بينهم وبينه قرابة، وكانت بلاد سدوم على شاطئ بحر الملح، وهو البحر الميت المدعو (بحيرة لوط) بقرب بيت المقدس، وكانت قرى سدوم ومن معهم أحدثوا فاحشة استمتع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطاً أن ينهاهم وينكر ويغلظ عليهم.

اللطيفة الرابعة: الاستفهام في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ إنكارى توبيخي، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل، أي: أتعملون الفاحشة، وكُنِيَ بالإتيان على العمل المخصوص، وهي كناية مشهورة.

اللطيفة الخامسة: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ جملة مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافية ابتدائية في التوبيخ لهم؛ فإنه بعد أن أنكر عليهم إتيان الفاحشة، وبخهم بأنهم أحدثوها، ولم تكن معروفة في البشر، فقد سنوا سنة سيئة للفاحشين في ذلك.

اللطيفة السادسة: حرف الباء في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ لتعدية فعل (سَبَقَ) لاستعماله بمعنى (ابتدأ) فالباء ترشيح للتبعية.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٥)، والمواهب الربانية من الآيات القرآنية: السعدي (ص: ٢٥)، والتحرير

والتتوير: ابن عاشور (٨/٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٠).

اللطيفة السادسة: فإن قيل: كيف يجوز أن يقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ مع أن الشهوة داعية إلى ذلك العمل أبداً؟ الجواب: أن كثيراً من الناس يستقذرون ذلك العمل، فإذا جاز في الكثير منهم استنقذاره لم يبعد أيضاً انقضاء كثير من الأعصار بحيث لا يقدم أحدٌ من أهل تلك الأعصار عليه، ويمكن أن يقال: لعلمهم بكلبيتهم أقبلوا على ذلك العمل، والإقبال بالكلية على ذلك العمل مما لم يوجد في الأعصار السابقة.

اللطيفة السابعة: حرف ﴿مِنْ﴾ الداخل على ﴿أَحَدٍ﴾ لتوكيد النفي للدلالة على معنى الاستغراق في النفي، و﴿مِنْ﴾ الداخلة على ﴿الْعَالَمِينَ﴾ للتبويض^(١).

اللطيفة الثامنة: يؤخذ من الآية أن مجالسة الفسقة على وجه المؤانسة حرامٌ بلا خلافٍ، وقد عدّها جمعٌ من العلماء من الكبائر، وهم على ارتكاب ذلك لا يهونهم عن منكر، وذلك سبب إرسال المصائب على الأمم، بل سبب هلاكهم ولعنهم على لسان الأنبياء^(٢).

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

كان أهل سدوم يعملون الخبائث دون حياءٍ ولا عفةٍ، وأمام الناس، ويقطعون الطريق على التجار، ويأخذون بضائعهم، وقد ابتدأت القصة على هذا النحو: واذكر يا محمد لوطاً حين قال لقومه باستفهام على جهة التوبيخ والتشنيع: ﴿تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وهي إتيان الرجال في الأدبار! وروي: أنه لم تكن هذه المعصية في أممٍ قبلهم، لذا قال لهم: ما فعلها أحدٌ قبلكم في أي زمان، بل هي مبتدعةٌ منكم، وعليكم وزر كل من يفعلها في المستقبل؛ لأن من سنَّ سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وهذا دليلٌ على أن تلك الفاحشة أمر مناقض للفطرة. ففي قصة لوطٍ (عليه السلام) دليلٌ قاطعٌ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أجمعت عليه الشرائع، واتفقت على وجوبه الأديان، فعليه قد قامت الدعوة إليها، ومن ينبوعه تغذت النفوس البشرية غذاءها الحضاري، ومن ضوئه اقتبست هدايتها، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كثيرة في الشريعة الإسلامية، حتى لقد عدت بحق شريعة التواصي بالحق، والتناهي عن المنكر.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٧٥/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣١/٨).

(٢) كفاية الأخيار: أبو بكر بن محمد الحُصني (ص: ٢٠١).

(٣) إحياء علوم الدين: أبو حامد العزالي (٢/٢٠٦)، والخطابة أصولها وتاريخها: محمد أبو زهرة (ص: ١٥٢)،

والتفسير الوسيط: الزحيلي (١/٦٨٨).

يقول ابن تيمية: "وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمرٌ ونهيٌ؛ فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي والمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. وهذا واجبٌ على كلِّ مسلمٍ قادرٍ، وهو فرضٌ على الكفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره، والقدرة هو السلطان والولاية فذووا السلطان أقدر من غيرهم، وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم؛ فإن مناط الوجوب هو القدرة، فيجب على كلِّ إنسانٍ بحسب قدرته، وجميع الولايات الإسلامية إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى، مثل نيابة السلطنة، والصغرى مثل ولاية الشرطة، وولاية الحكم أو ولاية المال، وهي ولاية الدواوين المالية، وولاية الحسبة"^(١). وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفٌ عظيمٌ، وأمرٌ جديرٌ بعناية الدين الإسلامي، ولا غرابة في أن يعنى به، فإنَّ بناء الأمم وحفاظ الجماعات من التزدي في مهاوي الضلال والفساد، وما الرأي العام الذي تعترف له الأمم بالسلطان وتجعله مقياس الرقي فيها ودليل التقدم أو علامة التأخر إلا وليد الإرشادات، وثمره التواصل بالخير، والتناهي عن المنكر، وإن تركه مهلكة وإثم، وضياح، وإنَّما كان السكوت عن المنكر موجبا للعقوبة، لما فيه من المفاصد العظيمة"^(٢):

١. أن مجرد السكوت، فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنَّه كما يجب اجتناب المعصية فإنَّه يجب الإنكار على مَنْ فعل المعصية.
٢. أنه يدلُّ على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.
٣. أن ذلك يجرى العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي، إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أوّلاً.
٤. أن في ترك الإنكار للمنكر يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإنَّ المعصية مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها يظنُّ أنّها ليست بمعصية، وربما ظنَّ الجاهل أنّها عبادةٌ مستحسنة، وأي مفسدةٍ أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟
٥. أن بالسكوت على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولعٌ بالافتداء بأضرابه وبني جنسه، فلما كان السكوت عن

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٦٦/٢٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٢٣٧).

الإنكار بهذه المثابة، نصَّ الله أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أن من مقاصد القضاء رفع التهاجر، ورد التواثب، وقمع المظالم، ونصر المظلوم، وقطع الخصومات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٢. أن أخصَّ أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام.
٣. التحذير من ارتكاب الفواحش، وبخاصة التي تتنافى والفطرة الإنسانية، وأن أصحاب المعاصي يَقلِبونَ الحقَّ باطلاً، والباطل حقاً.
٤. الآية دليلٌ على أن تلك الفاحشة أمرٌ مناقض للفطرة.
٥. أن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة.
٦. قد يعمُّ عذاب الله المجتمع كله إذا كثرت الخبث، وعدم فيه الإنكار.

المقصد الثاني: اللواط عمل قوم لوطٍ محرّم ومجرّم

دلُّ عليه قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

لَتَأْتُونَ: الإتيان: يقال للمجيء بالذات وبالأمر والتدبير، وفي الخير والشر، ويُكنى بالإتيان عن الوطء، وهو من أحسن الكنايات.

شَهْوَةٌ: الشهوة: الرغبة في تحصيل شيء مرغوب، جاءت على صيغة الفعلة وليس مراداً به المرة، وقوله: ﴿شَهْوَةٌ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ يعني: أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء.

مُسْرِفُونَ: أي: المُسْرِفون في الباطل والجرم، ومتجاوزو الحدِّ الإلهي، مجاوزون الحلال إلى الحرام. فقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ معناه: كأنه قال لهم: أنتم مسرفون في كلِّ الأعمال، فلا يبعد منكم أيضاً أقدامكم على هذا القبيح، فالإسرافُ: مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه.

(١) السياسة الشرعية: ابن تيمية (ص: ٢١٧)، ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني (ص: ٩)، وأصول الدعوة: عبد الكريم زيدان (ص: ٢٩٦)، والتفسير الوسيط: الزحيلي (١/٦٨٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٤)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٦٠).

(٢) معالم التنزيل: البغوي (٢/١٢٧)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (١/٥٥)، والتفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٨، ١٧٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٣٢، ٢٣١)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٢).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(١):

في الآية السابقة أنكر نبيُّ الله لوطٌ (عليه السلام) على قومه فاحشة اللواط، وفي هذه الآية أضاف لوطٌ (عليه السلام) إنكاراً آخرَ وتوبيخاً أشدَّ، فقال لهم: إِنَّ الفاحشة التي تأتونها هي أنكم أيُّها القومُ الممسوخو الطبايع تأتون الرجال، ولا حاملَ لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة، أنتم شأنكم الإسراف، ولذلك خرجتم على الفطرة، وفعلتم ما لم يفعله الحيوان البهيم.

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(٢):

يُبين صاحب الظلال وجه ارتباط قصة لوطٍ بما قبلها من القصص في سورة الأعراف بقوله: "وتكشف لنا قصة قوم لوطٍ عن لونٍ خاصٍّ من انحراف الفطرة، وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق، ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد؛ فإن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه، وقد شاء الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى، وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل وأن يكون النسل من النقاء ذكر وأنثى، ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة الربانية صالحين للالتقاء، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء، وجعل اللذة التي ينالونها عندئذ عميقة، والرغبة في إتيانها أصيلة، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة، ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية، من حملٍ ووضعٍ ورعايةٍ، ومن نفقةٍ وتربيةٍ وكفالةٍ، ثم لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أسرةٍ تكفل الأطفال الناشئين، ويحتاجون إلى رعايةٍ أطول من الجيل القديم، هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد في الله وحكمته وتقديره؛ ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلاً بالانحراف عن العقيدة، وعن منهج الله للحياة".

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: الجملة القرآنية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ مبينةً لجملة ﴿آتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، والتأكيد بـ (إِنَّ واللَّام) كناية عن التوبيخ؛ لأنه مبنيٌّ على تنزيلهم منزلةً من ينكر ذلك لكونهم مسترسلون عليه غير سامعين لنهي النَّاهي، والإتيان كناية عن عمل الفاحشة.

اللطيفة الثانية: انتصب لفظة ﴿شَهْوَةً﴾ على المفعول لأجله، والمقصود من هذا المفعول تفضيح الفاحشة وفاعليها؛ بأنهم يشتهون ما هو حقيقٌ بأن يُكره ويُستقطع.

(١) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٣/٣).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٥/٣).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور (٢٣١/٨).

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿مِنْ دُونِ النَّسَاءِ﴾ زيادةً في التَّقْطِيعِ وقطعٍ للعدر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيداً للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقل من الآخر فطاعةً، ولكن المراد أن إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء.

اللطيفة الرابعة: كلمة ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، أي: الانتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير، والتنبية إلى حقيقة حالهم.

اللطيفة الخامسة: وصفهم لوطاً (عليه السلام) بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ بالإسراف بطريق الجملة الاسمىة الدالة على الثبات واللزوم، أي: أنتم قومٌ تمكّن منهم الإسراف في الشهوات، فلذلك اشتهاوا شهوةً غريبةً لما سئموا الشهوات المعتادة، وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء.

اللطيفة السادسة: وجه تسمية هذا الفعل الشنيع ﴿فَاحِشَةً﴾ و﴿إِسْرَافًا﴾ أنه يشتمل على مفسدٍ كثيرة: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغرورة في غير ما غرزت عليه؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه وفطرته، ففضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداءً على الفطرة وعلى النوع، ولأنه يغير خصوصية الرُجْلة بالنسبة إلى المفعول به، إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته، ولأن فيه امتهاناً محضاً للمفعول به، إذ يجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً، ولأنه مفضٍ إلى قطع النسل أو تقليعه، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له^(١).

اللطيفة السابعة: قال الخليفة العباسي الوليد بن عبد الملك^(٢): لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكراً يفعل هذا بذكر^(٣). وكانت لا تعرف بين العرب قديماً.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٢/٨).

(٢) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو العباس الأموي، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعده في شوال سنة (٨٦هـ)، وكان أكبر ولده، والولي من بعده، وكان مولده سنة (٥٠هـ)، سمع سعيد بن المسيب، بنى الوليد جامع دمشق سنة (٨٦هـ) ومكث في بنائه عشر سنين، ووسع مسجد النبي (ﷺ) حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر فيه، وله آثار حسان كثيرة جداً، كانت وفاته سنة (٩٦هـ)، وكان الذي صلى عليه عمر بن عبدالعزيز. وكانت خلافته عشر سنين. ينظر: البداية والنهاية: ابن كثير (١٦٠/٩، ١٦٦).

(٣) البداية والنهاية: ابن كثير (١٦٤/٩، ١٦٢/٩)، والمراحل الثمان لطالب فهم القرآن: عصام بن صالح

العويد (ص: ١٥٣).

اللطيفة الثامنة: يقول صاحب الظلال: وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي، أن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة؛ ولكن شهادة الواقع تخرق العيون، ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابطاً واحداً للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى، وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص، ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال، بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء (السحاق)، ولكن هذه الأجهزة الموجهة ما تزال تردد هذه الأكذوبة، وتسندها إلى حجاب المرأة؛ لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون، ووصايا مؤتمرات المنصرين^(١).

خامساً: بيان المقصد في الآية:

أ- اللواط حرام

إن جريمة اللواط^(١) . وهي عمل قوم لوط . من أكبر الجرائم، وهي من الفواحش المفسدة للخلق وللطرة، وللدين والدنيا، بل وللحياة نفسها، وقد عاقب الله عليها بأفسى عقوبة، فحسف الأرض بقوم لوط، وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة، وجعل ذلك قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة؛ ليكون درساً وعبرة، وقد أمر الرسول (ﷺ) بقتل فاعله، فعن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) قال: "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به"^(٢). ورحم الله الشوكاني؛ فإنه قال: "وما أحق مرتكب هذه الجريمة، ومقارن هذه الرذيلة الذميمة، بأن يعاقب عقوبةً يصير بها عبرةً للمعتبرين، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين، أن يصلّى من العقوبة بما يكون من الشدة والشناعة مشابهاً لعقوبتهم، وقد حسف الله بهم، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبتهم"^(٣). وإنما شدد الإسلام في عقوبة جريمة اللواط؛ لآثارها السيئة، وأضرارها في الأمة، منها:

١. الرغبة عن المرأة؛ فمن شأنه أن يصرف الرجل عن المرأة، وقد يبلغ به الأمر إلى حدّ العجز عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد النسل.
٢. التأثير في الأعصاب؛ فإن هذه العادة تغزو النفس، وتصيبها بالانعكاس النفسي في خلق الفرد، فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلاً، وينقلب الشعور إلى شذوذ.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٦).

(٢) اللواط: هو إتيان الرجل الرجل، أي: إيلاج فرج (حشفة الذكر) في فرج (الدبر، فتحة الشرج) ينظر: فقه السنة: سيد سابق (٣/١٨٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود . باب فيمن عمّل قوم لوط (٤/١٩٠٨) حديث رقم (٤٤٦٢)، والترمذي في كتاب الحدود . باب ما جاء في حدّ اللوطي (٣/٤٧٣) حديث رقم (١٤٥٦)، وصححه الألباني في "إرواء الغليل" (١٦/٨) حديث رقم (٢٣٥٠).

(٤) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار: الشوكاني (٧/٢٨٨).

٣. اللواط يسبب اختلالاً في توازن عقل المرء، وارتباكاً في تفكيره، وركوداً غريباً في تصوراتهِ، وبلاهة واضحة في عقله، وضعفاً شديداً في إرادته.
 ٤. اللواط علة شاذة، وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية؛ وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، وبعدم صلاحية الموضع، وفقد ملاءمته للموضع الشاذ.
 ٥. ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه، وفقد السيطرة على المواد البرازية، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة، بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور.
 ٦. اللواط مضر بالرجال؛ لأنّ لفرج المرأة خاصية في اجتذاب الماء المحتقن وراحة الرجل منه، والوطء في الدُّبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن.
 ٧. لأنّه محل القدر والنجو، فيستقبله الرّجل بوجهه ويلايسه.
 ٨. أنّه يضر بالنساء جداً؛ لأنّه وارد غريب بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة.
 ٩. أنّه يُسوّد الوجه، ويُظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة.
 ١٠. أنّه يُوجب الهم والغم والنفرة والتباغض الشديد، والتقاطع بين الفاعل والمفعول، ولا بدّ.
 ١١. أنّه يذهب بالمحاسن منهما، ويذهب المودة بينهما، ويبدلهما بها تباغضاً وتلاعناً.
 ١٢. كما أنّه يذهب بالحياة جملةً، والحياة هو حياة القلوب، فإذا فقدتها القلب؛ استحسن القبيح واستقبح الحسن، وحينئذٍ فقد استحكم فسادُه.
 ١٣. أنّه يحيل الطباع عما ركبها الله، ويُخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يُركب الله عليه شيئاً من الحيوان، بل هو طبع منكوس، وإذا نُكس الطبع انتكس القلب والعمل والهدى، فيستطيب حينئذٍ الخبيث من الأعمال والهيئات، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره.
 ١٤. أنّه يُورث من الوقاحة والجراة والمهانة والسّفال والحقارة ما لا يورثه غيره.
 ١٥. أنّه يكسو العبد من حلة المقت والبغضاء، وازدراء النَّاس له، واحتقارهم إياه، واستصغارهم له ما هو مشاهد بالحسّ^(١).
- إنّ اللواط لوثة أخلاقية، ومرض نفسي خطير، فتجد جميع من يتصفون به سيئي الخلق، فاسدي الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل، ضعيفي الإرادة، ليس لهم وجدان يؤنبهم، ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم، ولا يردعه رادع نفسي، عن السطو على الأطفال والصغار، واستعمال العنف والشدة؛ لإشباع عاطفته الفاسدة، والتجرؤ على ارتكاب الجرائم، مما تقدم يتبين حكمة التشريع الإسلامي في تحريم اللواط، وتظهر دقة أحكامه في التكيل بمقتريه، والأمر بالقضاء عليهم، وتخليص العالم من شرورهم^(٢) فإنّ فاحشة اللواط خصلة قبيحة شنيعة،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٤/٢٤١، ٢٤٠)، الكبائر: الذهبي (ص: ٤٩٤).

(٢) فقه السنة: السيد سابق (٣/١٧٨، ١٨٢) بتصرف.

وفاحشة مذمومة، لذلك عذّب الله أهلها بأنواع العقوبات، وأحلّ بهم أنواعاً من المثلات، التي لم يُعاقب بها أحداً من الأمم السالفات، فإنّ في اللواط من المفاصد ما يفوت الحصر والتعداد، ولهذا تنوعت عقوبات فاعليه، ولأنّ يقتل المفعول به خير من أن يؤتى في دبره، فإنّه يفسد فساداً لا يُرجى له بعده صلاح أبداً، إلا أن يشاء الله؛ لأنّ الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الايمان، فيقع في سوء الخاتمة، وسوء الخاتمة لا يقع فيها من صلح ظاهره وباطنه مع الله، وصدق في أقواله، وأعماله، فإنّ هذا لم يسمع به، وإنّما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً، وظاهره عملاً، ولمن له جرأة على الكبائر، وإقدام على الجرائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفاصد، وإنّما قد أمر الشرع بقتل الفاعل والمفعول به؛ لأنّه لا خير في بقائهما بين الناس، لفساد طوبيتهما، وخُبث بواطنهما، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه، فإذا أراح الله الخلق منهما صلح لهم أمر معاشهم ودينهم، واللوطي قد عكس الفطرة، وقلب الأمر، فأتى ذكراً، فقلب الله قلبه، وعكس عليه أمره، بعد صلاحه وفلاحه، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى. ومع إجماع العلماء على حرمة هذه الجريمة، وعلى وجوب أخذ مقترفيها بالشدة، إلا أنّهم اختلفوا في تقدير العقوبة المقررة لها على مذاهب ثلاثة: مذهب الحنفية: لا حدّ فيه، وفيه التعزير، ومذهب المالكية حد اللواط الرجم، ولا يراعى فيه الإحصان. (القتل)، ومذهب الشافعي أنّ حد اللوطي حد الزنا سواء، فيجلد البكر ويرجم المحصن. والراجح أنّ اللواط يقتل الفاعل والمفعول به، محصنين كانا أو غير محصنين، حُرّين أو مملوكين، أو كان أحدهما مملوكاً والآخر حرّاً، فإنّ كان أحدهما غير بالغ عوقب بما دون القتل، وقتلها بالرجم، قاله ابن تيمية، وزاد: "وهو الصحيح الذي اتفقت عليه الصحابة: أن يقتل الاثنان؛ الأعلى والأسفل، سواء كانا محصنين أو غير محصنين" وقد قرر بعض المحققين من العلماء أنّ الصحابة الكرام متفقون على قتل اللوطي، وأنّ الخلاف بينهم إنّما هو في كيفية قتله^(١). وفي بيان ذلك يقول ابن القيم: "وأطبق أصحاب رسول الله (ﷺ) على قتله، لم يختلف منهم فيه رجلان، وإنّما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن بعض النّاس أن ذلك اختلافاً منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع"^(٢). وقد عدّ العلماء اللواط من الكبائر وقد قصّ الله علينا قصّة قوم لوط، وأنّه أهلكهم بفعلهم الخبيث، وأجمع المسلمون من أهل الملل أنّ التلوّط من الكبائر، واللواط أفحش من الزنا وأقبح؛ فاللواط هو الداء العضال، والسُّمّ

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٣٤/٢٨)، وزاد المعاد في هدي خير العباد: ابن القيم (٣٧/٥)، والكبائر:

الذهبي (ص: ٢٠٧)، والبداية والنهاية: ابن كثير (١٦٤.١٦٢/٩).

(٢) الداء والدواء: ابن قيم الجوزية (ص: ١٨٦)، وروضة المحبين: ابن القيم (ص: ٣٦٣).

القتال، ولم يبذل الله بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين، وعاقبهم عقوبةً لم يعاقب بها أمةً غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة، وقتل المفعول به خير له من وطنه، فإنّه إذا وطئه قتله قتلاً لا ترجى الحياة معه بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته^(١).

ب- النكاح عبادة:

إنّ المقصد الأصلي من النكاح ابتغاء الولد، ولا يتحصل هذا مع الوطء في الدبر ألبتة؛ فإنّ الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يُخلق له، وإنّما الذي هُيئ له فرج المرأة، فالعادلون عنه إلى دبر الصبيان خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً، واللواط شذوذ وإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها وبيعثرونها في غير موضع الإخصاب، فهي مجرد شهوة شاذة؛ لأنّ الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية، فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة الربانية، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق، إنّ التكوين العضوي للأنثى هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء، الذي لا يقصد به مجرد الشهوة، إنّما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته في امتداد الحياة، مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف، فأما التكوين العضوي للذكر فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة^(٢). وهذا بيان الوجوه الموجبة لقبح اللواط وحسن النكاح^(٣):

١. أن أكثر الناس يحترزون عن حصول الولد؛ لأنّ حصوله يحمل الإنسان على طلب المال وإتباع النفس في الكسب، إلا أنّ الله جعل الوقاع سبباً لحصول اللذة العظيمة حتى إن الإنسان بطلب تلك اللذة يقدم على الوقاع، وحينئذٍ يحصل الولد شاء أم أبى، وبهذا الطريق يبقى النسل ولا ينقطع النوع، فوضع اللذة في الوقاع كشيء الإنسان الذي وضع الفخ لبعض الحيوانات؛ فإنّه لا بُدّ وأن يضع في ذلك الفخ شيئاً يشتهيّه ذلك الحيوان حتى يصير سبباً لوقوعه في ذلك الفخ، فوضع اللذة في الوقاع يشبه وضع الشيء الذي يشتهيّه الحيوان في الفخ، والمقصود منه إبقاء النوع الإنساني.

(١) الداء والدواء: ابن قيم الجوزية(ص:١٩٢،١٨٤).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب(٣/١٣١٥).

(٣) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٧٦).

٢. لو تمكن الإنسان من تحصيل تلك اللذة بطريق لا تُقضي إلى الولد لم تحصل الحكمة المطلوبة، ولأدى ذلك إلى انقطاع النَّسل وذلك على خلاف حكم الله فوجب الحكم بتحريمه قطعاً، حتى تحصل تلك اللذة بالطريق المُفضي إلى الولد.
 ٣. أنّ الذكورة مَظنة الفعل، والأنوثة مَظنة الانفعال، فإذا صار الذكر منفِعلاً والأنثى فاعلاً كان ذلك على خلاف مقتضى الطبيعة، وعلى عكس الحكمة الإلهية.
 ٤. أنّ الاشتغال بمحض الشهوة تشبهُ بالبهيمة، وإذا كان الاشتغال بالشهوة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة فليكن قضاء الشهوة من المرأة يفيد فائدة أخرى سوى قضاء الشهوة، وهو حصول الولد وإبقاء النوع الإنساني، فأما قضاء الشهوة من الذكر فإنه لا يفيد إلا مجرد قضاء الشهوة، فكان ذلك تشبهاً بالبهائم، وخروجاً عن الغريزة الإنسانية.
 ٥. هب أن الفاعل يلتذ بذلك العمل إلا أنه يبقى في إيجاب العار العظيم، والعيب الكامل بالمفعول على وجه لا يزول ذلك العيب عنه أبد الدهر، والعاقل لا يرضى لأجل لذة خسيصة منقضية في الحال إيجاب العيب الدائم الباقي بالغير
 ٦. أنه عملٌ يوجب استحكام العداوة بين الفاعل والمفعول، وربما يؤدي ذلك إلى إقدام المفعول على قتل الفاعل لأجل أنه ينفر طبعه عند رؤيته، أو على إيجاب إنكائه بكلِّ طريقٍ يقدر عليه. أما حصول هذا العمل بين الرجل والمرأة، فإنه يوجب استحكام الألفة والمودة وحصول المصالح الكبيرة.
 ٧. أنّ الله أودع في الرحم قوة شديدة الجذب للمني، فإذا واقع الرجل المرأة قوي الجذب فلم يبقَ شيءٌ من المنى في المجاري إلا وينفصل، أما إذا واقع الرجل فلم يحصل في ذلك العضو المعين من المفعول قوة جاذبة للمني، وحينئذٍ لا يكمل الجذب، فيبقى شيءٌ من أجزاء المنى في تلك المجاري ولا ينفصل، ويعفن ويفسد ويتولد منه الأورام الشديدة والأسقام العظيمة، فهذه هي الوجوه الموجبة لقبح اللواط.
- سادساً: ما ترشد إليه الآيات من أهدافٍ وهدايات^(١):

١. على الإنسان المسلم أن يُنكر الفواحش، لكن بالطريقة التي تُبين فسادها.
٢. لقد كان انحرافُ الفِطرة واضحاً في قصة قوم لوطٍ، وأنهم بدعٌ دون خلق الله فيها، وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين.
٣. على الرجل حفظ ولده في حال صغره وبعد بلوغه، وأنَّ يجنبه مخالطة الشواذ.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٧٧/١٤)، ومُغني المحتاج: الخطيب الشربيني (١٥٤/٣)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٥/٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٤/٣)، والكبائر: الذهبي (ص: ٣٦٤، ٢٠١)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ١٦١).

٤. أن اللواط من أكبر أسباب زوال النعم، وحُلُول النقم، فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله وإعراضه عن فاعله وعدم نظره إليه، فأى خير يرجوه بعد هذا، وأى شر يأمنه.
٥. اللواط يجعل المرء عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة وعلل نفسية شائنة، تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة.
٦. قد ثبت بالتواتر الظاهر من دين الإسلام حرمة اللواط، والمبالغة في المنع منه.
٧. أن قبح اللواط أمر مقرر في الطباع.
٨. أن من أعمال قوم لوط الذين غضب الله عليهم، وخسف بهم وبدارهم إتيان الذكور.
٩. من مقاصد النكاح طلب الولد لبقاء النوع الإنساني.
١٠. اللواط فاحشة تدل على انتكاس الفطرة، وأضرار عظيمة، وعقابه شديد.
١١. الأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد.
١٢. النكاح عبادة دينية لما فيه من عمارة الدنيا.

المقصد الثالث: من صور الابتلاء والتمحيص الإخراج من الديار

لقوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

جَوَابٌ: الجوابُ شرعاً: الكلامُ الذي يُقَابَلُ بهِ كلامٌ آخرُ تقريراً، أو ردّاً، أو جزاءً.

قَرْيَتِكُمْ: هي سدوم، وتقع جنوب البحر الميت باتجاه معان.

يَتَطَهَّرُونَ: والطهارة: النظافة والتخلص من الأدناس حسيّة أو معنوية، ثم الطهارة ضربان: طهارة جسم، وطهارة نفس، والطهارة شرعاً: رفع حدث، وإزالة نجس، أو ما في معنى ذلك، والتطهر تكلف الطهارة، وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة توسعاً على تركية النفس، والحذر من الرذائل، وهي المراد في الآية، وتلك صفة كمال، فمعنى: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: المزيلين للنجاسات، والمتحررين في الطهارات؛ لأنّ الطهارة أسُّ العبادة، التاركين للذنوب، العاملين للصالح.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط المرتكبين لهذه الفاحشة إلا أن قال بعضهم لبعض معرضين عن الحق: أخرجوا لوطاً وأتباعه من قريبتكم التي استوطنتموها، ثم قالوا: إن لوطاً وأتباعه أناس يترفعون عن إتيان الرجال وعن كل عمل من أعمالنا ولا يروئه

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٤١٨/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٥/٨)،

والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٢/٣)، والفقاه المنهجي: مصطفى الخن وآخرون (٢٧/١).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٦/٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٣/٣)

مُناسباً لهم، إنَّهم أناس يتنزهون عن عملنا هذا، فلا يليق بنا أن يبقوا بين ظهرانينا، يا عجباً! أو من ينطهر يخرج من القرية إخراجاً، ليبقى فيها الملوثون المدنسون.
ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: انتصب قوله: ﴿جَوَابٌ﴾ على أنه خبرٌ ﴿كَانَ﴾ مقدّم على اسمها الواقع بعد حرف الاستثناء المفرغ، وهذا هو الاستعمال الفصيح في مثل هذا التركيب، إذا كان أحد معمولي كان مصدراً مُنسباً من (أن) والفعل، ولذلك أجمعت القراءات على نصب المعمول الأوّل.
اللطيفة الثانية: الضمير المنصوب في قوله: ﴿أَخْرَجُوهُمْ﴾ عائدٌ على محذوفٍ علم من السياق، وهم لوط(عليه السلام) وأهله. فالمراد منه أخرجوا لوطاً وأتباعه؛ لأنَّ الله في غير هذه السورة قال عنهم: ﴿أَخْرَجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] ولأنَّ الظاهر أنَّهم إنَّما سعوا في إخراج من نهاهم عن العمل الذي يشتهونه ويريدونه، وذلك النَّاهي ليس إلا لوطاً وقومه.
اللطيفة الثالثة: جملة: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ علّةٌ للأمر بالإخراج، وذلك شأن (إن) إذا جاءت في مقام لا شك فيه ولا إنكار، بل كانت لمجرد الاهتمام فإنَّها تفيّد مفاداً فاء التّقرّيع، وتدلُّ على الربط والتّعليل.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي من أفعالنا، قالوا ذلك على سبيل التّهكم.
رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٢):

أ- الابتلاء بالإخراج من الوطن:

لقد كان جواب قوم لوطٍ أبلغ ما يكون من الرد، قوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فليس بعد هذا فيهم مطمع، ولا رجاء، فإنَّهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتقب، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعّدوا لوطاً وأهله بالإخراج من ديارهم، ووطنهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أنّ الرسول لا حقّ له فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإنَّ الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمّره بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته، فمن استعان بذلك على عبادة الله حلّ له ذلك، وخرج من التّبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحلّ له، فعلم أنّ أعداء الرّسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعّدوا الرّسل بإخراجهم منها، وإن رجعنا إلى مجرد العادة، فإنَّ الرّسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة

(١) التفسير الكبير: الرازي(١٧٨/١٤) وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي(٤١٩/٢)،
والتحريير والتتوير: ابن عاشور(٢٣٥/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي(ص:٤٤٩) وفي ظلال القرآن: سيد قطب(١٣١٦/٣)،
والابتلاء والمحن في الدعوات: محمد أبو فارس(ص:٨٤).

بالكلية؟ ولهذا لما انتهى مكزهم بنبيه لوط(عليه السلام) إلى هذه الحال، ما بقي حينئذٍ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه بأنواع العقوبات، إنَّ الدول الظالمة تطارد الذين يتطهرون، فلا يغمسون في الوحل الذي تنغمس فيها وتسميه تقديمية وتحطيماً للأغلال أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم ولا تطيق أن تراهم يتطهرون؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين، إنَّه منطلق الفجور في كلِّ حين، لقد أصبحت الرذيلة عند قوم لوط فضيلة يدافع عنها، ويهاجم الذين يرفضونها، لقد انقلبت الموازين، وتغيرت القيم، ولقد أصبح التطهر من الفحش والتفحش جريمة تستوجب النفي من الوطن، وأصبح التدنس وسوء الخلق وانحراف الفطرة والطبع واللواط أموراً عادية، يحارب الذين يستهجنونها وينكرونها، ويطردون من ديارهم وأوطانهم، والمعنى أن قوم لوطٍ أفضحوا عن ترويح شنعاتهم والمجادلة في شأنها، وابتدروا بالتآمر على إخراج لوط(عليه السلام) وأهله من القرية؛ لأنَّ لوطاً كان غريباً بينهم، وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم، شأن من يشعرون بفساد حالهم، الممنوعين بشهواتهم عن الإقلاع عن سيئاتهم، المصمِّمين على مداومة ذنوبهم، فإنَّ صدورهم تضيق عن تحمُّل الموعظة، وأسماعهم تصمُّ لقبولها، ولم يزل من شأن المنغمسين في الهوى تجهُّم حُلُول من لا يشاركونهم بينهم^(١).

ب- الدِّين طهارة:

تطلق الطهارة على تزكية النَّفس والحذر من الرذائل، وهي المراد في الآية، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمردوا على الفسوق كانوا يعدُّون الكمال منافراً لطباعهم، فلا يطبقون معاشرَةَ أهل الكمال، ويذمُّون ما لهم من الكمالات فيسمُّونها ثقلاً، ولذا وصَفُوا تنزَةَ لوطٍ وآله تطهراً، بصيغة التكلف والتصنع، ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التَّهكُّم بلوطٍ وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الدِّميمة، وأهل المُجون والانخلاع، يسمُّون المتعفِّف عن سيرتهم بالتائب أو نحو ذلك، فقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قصدوا به ذمَّهم، وهُم قد علموا هذا التَّطهر من خُلُق لوط(عليه السلام) وأهله، لأنَّهم عاشروهم، ورأوا سيرتهم، ولذلك جيء بالخبر جملةً فعليةً مضارعيةً، لداليتها على أنَّ التَّطهر متكرِّرٌ منهم، ومتجدِّدٌ، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم والغضب عليهم وتجهُّم إنكار لوط(عليه السلام) عليهم^(٢). ففي قوله: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ وجوه: الأوَّل: أنَّ ذلك العمل تصرف في موضع النجاسة، فمن تركه فقد تطهر. والثاني: أنَّ البعد عن الإثم يُسمَّى طهارة، فقله: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتباعدون عن المعاصي والآثام. الأخير: أنَّهم إنَّما قالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ على سبيل السخرية بهم وتطهرهم من الفواحش.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٤/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٧٨/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٥/٨).

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. ما أعجب العقول حين تنتكس والأخلاق عندما ترتكس، إنها تستكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش، وتعمل على إخراجها ليبقى لها الملوثون الممسوخون، وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين الذين انحطت طباعهم وانقلبت موازينهم، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأروها حسنةً.
٢. من صور مطاردة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن التضيق عليهم ومطاردتهم وارغامهم على ترك الأوطان والديار.
٣. من سنن الله في الدعوات سنة النفي والتشريد والإخراج من الوطن.
٤. لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص شرعي.
٥. الإيمان طهر ونقاء، والكفر نجس وشفاء
٦. الطهارة ضربان: طهارة القلب من الشرك والغل، والبغضاء لعباد الله المؤمنين، وطهارة البدن، ولا يمكن أن تقوم طهارة البدن مع وجود نجس الشرك.
٧. أن الطهارة تخليئة من الأذى.
٨. أن الطهارة من دواعي الفطرة، فالإنسان يميل إلى النظافة بفطرته، وينفر بطبعه من الوساخة والقذارة.

(١) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٣/٣)، والابتلاء والمحن في الدعوات: محمد أبو فارس (ص: ١٢٣).
الشرح الممتع على زاد المستنقع: محمد بن صالح العثيمين (٢٥/١)، الفقه المنهجي: مصطفى الخن
وأخرون (٢٩/١).

المطلب الثاني: النجاة واجبة على الله

وفيه ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: الإيمان نجاةً

ويدل على هذا المقصد قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

وَأَهْلُهُ: أهل لوطٍ هم ابنتان له بكران، ويحتمل أن يكون المراد أنصاره وأتباعه الذين قبلوا دينه. امْرَأَتُهُ: أمّا امرأة لوطٍ، فقد أخبر الله عنها في الآية أن الله لم يُنَجِّها، فهلكت مع قوم لوطٍ، وذكر في سورة هود ما ظاهره أنّها لم تمتثل ما أمر الله لوطاً (عليه السلام) أن لا يلتفت هو ولا أحدٌ من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب فالتفتت امرأته فأصابها العذاب، وذكر في سورة التحريم أن امرأة لوط كانت كافرة، كانت تُسرُّ الكفر وتُظهرُ الإيمان، ولعل ذلك سبب النجاتها؛ لأنها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوطٍ، فقوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ أي: زوجته.

الْغَابِرِينَ: المهلكين، فمعنى ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الهالكين، والغابر يطلق على المنقضي، ولذلك يُقال: غبر بمعنى هلك، وهو المراد: أي كانت من الهالكين، أي هلكت مع من هلك من أهل سدوم، ويقال: غبر الشيء إذا مكث وبقي، فمعنى الآية أيضاً: أنّها كانت من الغابرين عن النجاة أي: من الذين بقوا عنها، ولم يدركوا النجاة فإنها لم تسر مع لوطٍ وأهله، بل تخلفت عنه.

ثانياً: المعنى العام للآية^(٢):

لقد أخبرت الآية أنّ كلمة العذاب حقّت على قوم لوطٍ، وأن الله نجّى لوطاً وأهله إلا امرأته؛ فإنّ الله لم يُنَجِّها لِحُبَّتْها وعدم إيمانها، فبقيت مع الذين وقع عليهم عذابُ الله وسخطه.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ تعقيباً لجملة ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وهذا التعقيب يؤذن بأنّ لوطاً (عليه السلام) أرسل إلى قومه قبل حلول العذاب بهم بزمانٍ قليل.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ مقدّم من تأخير، والنقدير: فأمطرنا عليهم مطراً وأنجيناه وأهله، فقدّم الخبر بإنجاء لوط (عليه السلام) على الخبر بإمطارهم مطر العذاب، لقصد إظهار الاهتمام بأمر

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٧٨/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٦/٨)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٢/٣).

(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٣/٣).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٦/٨).

إنجاء لوطٍ، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أن تلك سنة الله في عباده.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

أخبر الله أنه أنجى لوطاً وأهله المؤمنين به، واستثنى امرأته من أهله؛ لكونها لم تؤمن به؛ إنها النجاة لمن تهددهم العصاة، كما أنها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج، فأمرته وهي ألصق الناس به لم تتج من الهلاك؛ لأن صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه في المنهج والاعتقاد.

خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. الكفر والإجرام يحل رابطة الأخوة والقربان بين أصحابه والبراءة منه.
٢. هلاك الأمم السابقة كان سببه ارتكابهم المعاصي والظلم.
٣. من مظاهر إكرام الله لعباده الصالحين نجاة المؤمنين وعقاب الكافرين.

المقصد الثاني: القياس على فعل الله في الدنيا جائز ما لم يرد مانعٌ

ويدل على هذا المقصد الجليل قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف: ٨٤].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

وَأَمْطَرْنَا: الإمطار مشتق من المطر، والمطر شرعاً: اسمٌ للماء النازل المنسكب من السحاب، وقد كثر الإمطار في معنى العذاب، فإن التفرقة بين مُطِرٍ وأَمْطَرَ أن مُطِرَ للرحمة وأَمْطَرَ للعذاب، وهي تفرقة أغلبية. والمراد أن الله أَمْطَرَ عليهم حجارةً من السماء قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]. وقال أهل التفسير: إِنَّ (مَطَرَ) يقال في الخير، و(أَمْطَرَ) في الشر.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٤):

أخبر الله أنه أرسل على قوم لوطٍ نوعاً من المطر العجيب، وقد بينه الله في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] أي: جازبناهم بالعقوبة التي تناسبُ شناعة جرمهم؛ فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجالَ دون النساء، أهلكناهم بالعقوبة التي قلبت عليهم قريبتهم فجعلت أعلاها أسفلها، وأمطرنا عليهم حجارةً من طينٍ متحجرٍ، فقد

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣١٥/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٦/٣).

(٢) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢٠٠/٢)، والمختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص: ٢٠٩، ١٦٢).

(٣) مفردات في ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٧٧٠)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٩٧/٤)، والتفسير الكبير: الرازي (١٧٩/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٧/٨).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٦/٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٣/٣).

أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف، ترى كان هذا المطر المغرق، والماء الدافق؛ لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه على أية حال لقد طويت صفحة أخرى من صحائف المكذّبين المجرمين.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: من المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذابٍ من السماء يعثّمهم، كما أهلك قوم نوح وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وفرعون وغيرهم، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار، كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى (ﷺ) بقتال الجبابرة.

اللطيفة الثانية: كان الذي أصاب قوم لوطٍ حجراً من أعلى القرى، وكان الدخان يظهر من الأرض مثل دخان الأتون، وقد ذكر في آية أخرى في القرآن أن الله جعل عالي تلك القرى ساقلاً، وذلك هو الخسف وهو من آثار الزلازل، ومن المستقرب أن يكون البحر الميت هنالك قد طغى على هذه الآبار أو البراكين من آثار الزلازل.

اللطيفة الثالثة: تتكبير ﴿مَطَرًا﴾ للتعظيم والتعجب أي: مطراً عجباً من شأنه أن يهلك القرى.

اللطيفة الرابعة: قوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الظاهر أن المراد من هذه العاقبة هو إنزال الحجر عليهم، ومن المجرمين الذين يعملون عمل قوم لوطٍ؛ لأن ذلك هو المذكور السابق فينصرف إليه فصار تقدير الآية: فانظر كيف أمطر الله الحجارة على من يعمل ذلك العمل المخصوص وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم فهذه الآية تقتضي كون هذا الجرم المخصوص علة لحصول هذا الزاجر المخصوص وإذا ظهرت العلة وجب أن يحصل هذا الحكم أينما حصلت هذه العلة^(٢).

رابعاً: بيان المقصد من الآية^(٣):

حدثت هذه الفاحشة بين المسلمين في خلافة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) من رجل يسمى الفجاءة، كتب فيه خالد بن الوليد (رضي الله عنه) إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أنه عمل قوم لوطٍ وإذ لم يحفظ عن النبي (ﷺ) فيها حدٌ معروفٌ جمع أبو بكر أصحاب النبي (ﷺ) واستشارهم فيه، فقال علي (رضي الله عنه): أرى أن يحرق بالنار، فاجتمع رأي الصحابة الكرام على ذلك، فكتب أبو بكر (رضي الله عنه) إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه، وكذلك قضى ابن الزبير (رضي الله عنه) في جماعة عملوا الفاحشة في زمانه، ولعله قياس على أن الله أمطر عليهم ناراً، وقال المالكية: يُرجم الفاعل والمفعول به، إذا أطاع الفاعل وكانا بالغين، رجم الزاني المحصن، وقاسوا عقوبتهم على عقوبة الله لقوم لوطٍ إذ

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢/٢٥١) والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٣٨، ٢٣٧).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٧٩).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٣٣).

أمطر عليهم حجارةً، والذي يُؤخذ من مذهب مالك أنه يجوز القياس على ما فعله الله في الدنيا. قال ابن تيمية: "والصحيح الذي اتفقت عليه الصحابة الكرام: أن يقتل الاثنان، الأعلى والأسفل، سواء كانا محصنين أو غير محصنين، ولم تختلف الصحابة في قتله؛ ولكن تنوعوا فيه، فروي عن بعضهم: أنه يرفع على أعلى جدار في القرية، ويرمى منه، ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، قال بعض السلف: لأن الله رجم قوم لوط، وشرع رجم الزاني تشبيهاً برجم قوم لوط، فيرجم الاثنان سواء كانا حرين أو مملوكين أو كان أحدهما مملوكاً والآخر حراً، إذا كانا بالغين فإن كان أحدهما غير بالغ عوقب بما دون القتل ولا يرمى إلا البالغ^(١). ورؤي أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مرَّ في خلافته الراشدة على امرأة، وكان راكباً على جمارٍ، والناس معه، فاستوقفته تلك المرأة طويلاً، ووعظته، وقالت له: عهدي بك يا عمر وأنت صغيرٌ تُدعى عُميراً، ثم قيل لك: يا عمر، ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فأنق الله يا عمر في الرعية، واعلم أن من أيقن بالموت خاف القوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وهو واقفٌ يسمع كلامها. فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره، لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هذه خولة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر!^(٢). أقول: رضي الله عنك يا أمير المؤمنين يا عمر الفاروق، فهذه أخلاق الصديقين.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. أن الله تعالى إذا أخذ الظالم فإن أخذ أليم شديد.
٢. العقوبة الإلهية هي رادعةٌ وزاجرةٌ لما فيها من التأنيب والتأديب.
٣. بيان عظم جريمة اللواط، وبيان عظم العقوبة التي حلت بمرتكبي هذه الجريمة، وأن هذه العقوبة غير بعيدة عن الظالمين الذين يفعلون فعل قوم لوط.
٤. أنه ثبت في شريعة لوط (عليه السلام) رجم اللواط.
٥. هذه الآية تدل على أن شرع من قبلنا حجةٌ علينا ما لم يرد ناسخ.

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٣٣٥/٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٢٦٩/١٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣١٨/٤)، والدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي (٢٦٣/٦)، وروائع البيان في تفسير آيات الأحكام: الصابوني (٣٧٨/٢)، وليدبروا آياته: مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية (ص: ٩٨).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٧٩/١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٤/٣)، وصحيح القصص النبوي: عمر الأشقر (ص: ٦٨).

المقصد الثالث: إنَّ شأنَ الرُّسُلِ انتِظارُ العواقبِ

ويدلُّ على هذا المقصد العظيم قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(١):

المُجْرِمِينَ: هم فاعلوا الجريمة، وهي المعصيةُ والسيئةُ، والمراد: المفسدين للعقائد والأخلاق والأعراض.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

اختتمت قصّة لوطٍ (عليه السلام) بالدعوة إلى التّعقل والتدبّر والاعتبار، فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: فانظر أيها العاقل نظرة تدبّرٍ واتعاطٍ في مآل أولئك الكافرين المُقْتَرِفِينَ لأشنعِ الفواحش، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يُصيبك ما أصابهم، وسِر في الطريق المُستقيم لتتال السعادة في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: ظاهر القرآن أنّ الله عاقب قوم لوطٍ بذلك العقاب على هذه الفاحشة، وأنّ لوطاً (عليه السلام) أرسل لهم لنهيهم عنها، لا لأنهم مشركون بالله، إذ لم يُتعرّض له في القرآن بخلاف ما قُصَّ عن الأمم الأخرى، لكنّ تماثلهم على فعل الفاحشة واستحلالهم إياها يدلُّ على أنّهم لم يكونوا مؤمنين بالله، فيكون إرسال لوطٍ بإنكار تلك الفاحشة ابتداءً بتطهير نفوسهم، ثمّ يصف لهم الإيمان، إذ لا شك أنّ لوطاً بلغهم الرسالة عن الله، وذلك يتضمّن أنّه دعاهم إلى الإيمان، إلا أنّ اهتمامه الأوّل كان بإبطال هذه الفاحشة، ولذلك وقع الاقتصار في إنكاره عليهم ومجادلتهم إياه على ما يخصُّ تلك الفاحشة، وقد علّم أنّ الله أصابهم بالعذاب عقوبةً، على تلك الفاحشة، وأنّهم لو أقفلوا عنها لترك عذابهم على الكفر إلى يوم آخر أو إلى اليوم الآخر.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ظاهر هذا اللفظ وإن كان مخصوصاً بالرسول (ﷺ) إلا أنّ المراد سائر المكلفين ليُعتبروا بذلك فينجزوا، فإن قيل: كيف يعتبرون بذلك وقد أمنوا من عذاب الاستئصال؟ الجواب: إنّ عذاب الآخرة أعظم وأدوم من ذلك، فعند سماع هذه القصّة يذكرون عذاب الآخرة مؤنبه على عذاب الاستئصال، ويكون ذلك زجراً وتحذيراً.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٨/٨)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (١٩٩/٢).

(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٣/٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٧٩/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٨/٨).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

تفرّع عن هذه القصّة العجيبة الأمر بالنظر في عاقبتهم بقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فالأمر للإرشاد والاعتبار، والخطاب يجوز أن يكون لغير مُعَيَّن بل لكلّ من يتأتّى منه الاعتبار، كما هو شأن إيراد التّذييل بالاعتبار عقب الموعظة، لأنّ المقصود بالخطاب كلّ من فُصد بالموعظة، ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ تسليّةً له وتعزيّةً على ما يُلاقيه من قومه الذين كذّبوا بأنّه لا ييأس من نصر الله، وأنّ شأن الرّسلِ انتظارُ العواقبِ، فالآية خطابٌ عامٌّ لكلّ من يسمع هذا القصص ليعتبر به؛ حيثُ شاهد عاقبة المجرمين دماراً كاملاً وعذاباً أليماً.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. أخذ العظة والعبرة بما حلّ بالأُمم السالفة، فقد أمر الله بالسير في الأرض والتفكر في

مصارع الغابرين، وأخذ العظة والعبرة من مصيرهم.

٢. الصبر من شيم الرجال، وهو مفتاح الفرج.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٣٨/٨)، وأيسر التفاسير: قال أبو بكر الجزائري (٢٠٠/٢).

(٢) صحيح القصص النبوي: عمر سليمان الأشقر (ص: ٣٣).

المبحث الرابع

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٥-٨٧)

شُعَيْب (عليه السلام) خطيبُ الأنبياءِ

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الإسلام دين الإصلاح.

المطلب الثاني: الحفاظ على النسل من مقاصد الشريعة الغراء.

المبحث الرابع

الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٥-٨٧)

شُعَيْبٌ (ﷺ) خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ

تمهيدٌ وتوطئة^(١):

شُعَيْبٌ (ﷺ) من قبيلة معروفة يقال لها مَدِينٌ، سُمِّيَتْ باسمِ جَدِّهَا مَدِينٍ من ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي أَدْنَى فِلَسْطِينَ، عِنْدَ خَلِيجِ الْعَقْبَةِ، وَقَاعِدَةُ بِلَادِهِمْ (وَجُّ) عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَتَنْتَهِي أَرْضُهُمْ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى حُدُودِ مَعَانَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَإِلَى نَحْوِ تَبُوكَ مِنَ الْحِجَازِ، وَتَسْمَى بِلَادُهُمْ (الْأَيْكَةَ)، فَعَلَى هَذَا هِيَ مِنْ بِلَادِ مَدِينٍ، وَكَانَتْ بِلَادُهُمْ قَرَى وَبُوَادِي، وَكَانَ شُعَيْبٌ مِنَ الْقَرِيَّةِ، وَهِيَ (الْأَيْكَةُ) وَقَدْ تَعَرَّبُوا بِمَجَاوِرَةِ الْأُمَمِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ يُقَالُ لِشُعَيْبٍ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، لِحَسَنِ مَرَاجَعَتِهِ قَوْمَهُ، وَكَانُوا أَهْلَ بَخْسٍ لِلْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ.

وَقِيلَ إِنَّ شُعَيْبًا أُرْسِلَ إِلَى أُمَّتَيْنِ: أَصْحَابِ مَدِينٍ، وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ مَدِينٍ هُمُ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ، وَشُعَيْبٌ هُوَ رَسُولٌ لِأَهْلِ مَدِينٍ، وَهُوَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: "وَكَانَ مُوسَى (ﷺ) لَمَّا خَرَجَ مِنْ مِصْرَ نَزَلَ بِبِلَادِ مَدِينٍ، وَزَوَّجَهُ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ، وَأَقَامَ مُوسَى (ﷺ) عِنْدَهُ عَشْرَ سَنِينَ أُجْبِرًا". قُلْتُ: وَهَذَا الرَّأْيُ مَرْجُوحٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ أَهْلَكَ أَهْلَ مَدِينٍ بِالظُّلْمَةِ لَمَّا جَاءَهُمْ شُعَيْبٌ (ﷺ) وَذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ مُوسَى أَتَاهَا وَتَزَوَّجَ بِنْتًا وَاحِدَةً مِنْهَا، فَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ شُعَيْبُ النَّبِيِّ (ﷺ) وَهَذَا غَلَطٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، حَيْثُ ذَكَرُوا أَنَّ الَّذِي صَاحَرَهُ مُوسَى لَيْسَ هُوَ شُعَيْبُ النَّبِيِّ (ﷺ) وَحَكَى أَنَّهُ شُعَيْبٌ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ يُقْرُونَ بِأَنَّ الَّذِي صَاحَرَهُ مُوسَى لَيْسَ هُوَ شُعَيْبًا، بَلْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَدِينٍ، وَعَدَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ شُعَيْبًا (ﷺ) فِي الْعِمْيَانِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. رَوَى أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعَرَبِ أَنْبِيَاءَ: هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَمُحَمَّدٌ.

(١) الكشاف: الزمخشري (٩٣/٢)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢/٢٥٠، ٢٤٩)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٨/٢٠، ١٨)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٠٧)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (٨/٢٣٩، ٢٤١).

المطلب الأول: الإسلام دين الإصلاح

وفيه ستة مقاصد:

المقصد الأول: التوحيد أولاً

دل عليه قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

مَدِينٌ: مَدِينٌ أُمَّةٌ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدِّهَا مَدِينٍ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، مَوَاطِنُهُمْ بَيْنَ الْحِجَازِ وَخَلِيجِ الْعَقَبَةِ بِقَرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَقَاعِدَةُ بِلَادِهِمْ (وَجْ) عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَتَنْتَهِي أَرْضُهُمْ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى حُدُودِ مَعَانٍ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَإِلَى نَحْوِ تَبُوكَ مِنَ الْحِجَازِ، وَتَسْمَى بِلَادُهُمْ (الْأَيْكَةَ). وَيُقَالُ: إِنَّ الْأَيْكَةَ هِيَ مِنْ بِلَادِ مَدِينٍ، وَكَانَتْ بِلَادُهُمْ قَرَى وَبُوَادِي، وَكَانَ شُعَيْبٌ مِنَ الْقَرْيَةِ وَهِيَ (الْأَيْكَةَ)، وَقَدْ تَعَرَّبُوا بِمَجَاوِرَةِ الْأُمَّمِ الْعَرَبِيَّةِ وَكَانُوا فِي مُدَّةِ شُعَيْبٍ (ﷺ) تَحْتَ مُلُوكِ مِصْرَ، وَقَدْ اكْتَسَبُوا بِمَجَاوِرَةِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَمَخَالَطَتِهِمْ عَرَبِيَّةً، فَأَصْبَحُوا فِي عِدَادِ الْعَرَبِ. أَخَاهُمْ: إِنَّ هَذِهِ الْأَخُوَّةَ كَانَتْ فِي النَّسَبِ لَا فِي الدِّينِ.

شُعَيْبًا: شُعَيْبٌ هُوَ رَسُولٌ لِأَهْلِ مَدِينٍ، وَهُوَ مِنْ أَبْنَاءِ الْقَبِيلَةِ، فَهُوَ أَخُوهُمْ فِي النَّسَبِ حَقِيقَةً. اعْبُدُوا اللَّهَ: الْعِبَادَةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، وَالْعِبَادَةُ أَيْلُوحٌ؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ التَّذَلُّلِ، وَلَا تَلِيقُ إِلَّا بِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْإِفْضَالِ، وَهُوَ اللَّهُ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ، بَلِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا كَذَلِكَ؛ بَعْضُهَا بِالتَّسْخِيرِ، وَبَعْضُهَا بِالِاخْتِيَارِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْعِبَادَاتِ: إِجْلَالُ اللَّهِ وَتَعْظِيمُهُ وَمَهَابَتُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالتَّقْوِيضُ إِلَيْهِ. ثانيًا: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

أخبرت الآية أن الله أرسل إلى مدين أخاهم شعيباً فقال مُنادياً لهم على منهج جميع الأنبياء الذين سبقوه في أممهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، فليس لكم ولا لي أيُّ إلهٍ غيرِه، وقد جاءتكم الحججُ المبيِّنةُ للحقِّ من ربِّكم، المثبتةُ رسالتي إليكم، وجاءتكم رسالةُ ربِّكم بالإصلاح بينكم والمعاملة العادلة، فقد أخبر الله عن شعيب في هذه الآية أنه أمرَ قومه بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غير الله، وهذا أصلٌ معتبرٌ في شرائع جميع الأنبياء.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٨٠/١٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٢٢/٣)، وقواعد

الأحكام: العز ابن عبد السلام (٧٢/٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٣١٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن

عاشور (٢٤٠/٨)، التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٥/٣)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢٠١/٢)،

ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني (ص: ٥٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٨٠/١٤)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٦/٣).

ثالثاً: مناسبة الآية لما قبلها من الآيات^(١):

بعد أن بيّن الله جزاء المُكذِّبين نبيّهم انتقلتِ السورةُ لتُحدِّثنا عن قوم شعيبٍ وما أحدثوه من الجرائم، هي القصص الخامس في سورة الأعراف، وهي الصفحة الأخيرة من صحائف الأقسام المكذّبة في تلك الحقة من التاريخ، صفحة مدين.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطيفة الأولى: تجريد فعل ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ من الفاء في الآية يترجّح أنه للدلالة على أن كلام شعيب هذا ليس هو الذي فاتحهم به في ابتداء رسالته، بل هو ممّا خاطبهم به بعد أن دعاهم مراراً، وبعد أن آمنَ به مَنْ آمنَ منهم.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿وإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: إلى أهلِ مَدِينٍ، لأنَّ مَدِينٍ بلدٌ، أو مَدِين اسم قبيلةٍ، وهو أولى، وسمّيت القبيلة باسم أبيهم مدين.

اللطيفة الثالثة: العبادة نوعان: الأول: نوع بالتسخير وهو الذي يكونُ عبداً بشهادة حاله، وإن تأبى في الصورة كقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] والآخر: نوع بالاختيار وهي التي أمر الله بها الخلق، وكلفهم بها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٣):

ابتدأ شعيبٌ (عليه السلام) الدعوة بالإيمان؛ لأنَّ به صلاح الاعتقاد والقلب، وإزالة الزيف من العقل، فهي قاعدة الدّعوة التي لا تغيير فيها ولا تبديل، وحرف الفاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ مفيدٌ للتفريع على مضمون معنى ﴿بَيِّنَةٌ﴾؛ لأنَّ البيّنة تدلُّ على صدقه، فلمّا قام الدليل على صدقه وكان قد أمرهم بالتوحيد بادئ بدء، لما فيه من صلاح القلب، شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان، كما دلَّ عليه قوله: ﴿بَيِّنَةٌ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فتلك دعوة لمن آمن من قومه بأن يكملوا إيمانهم بالتزام الشرائع الفرعية، وإبلاغ لمن لم يؤمن بما يلزمهم بعد الإيمان بالله وحده، وفي دعوة شعيب (عليه السلام) قومه إلى الأعمال الفرعية بعد أن استقرت الدعوة إلى التوحيد ما يؤذن بأنّ البشر في ذلك العصر قد تطوّرت وسائل الحياة تطوّراً هيأهم لقبول الشرائع الفرعية، فإنّ دعوة شعيب (عليه السلام) كانت أوسع من دعوة الرُّسل من قبله هود وصالح؛ إذ كان فيها تشريع

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٦)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٥)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢/٢٠١).

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي (٣/٢٢)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر (٨/١٨)، فتح القدير: الشوكاني (٢/٣١٦)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٣٩).

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٤١)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٧).

أحكام فرعية، وقد كان عصر شعيب قد أظلمَّ عصر موسى الذي جاء بشريعة عظيمة ماسية نواحي الحياة كلها، يقول صاحب الظلال: "يبدأ شعيب (عليه السلام) بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده بالألوهية، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان في أمر الحياة كله، فشعيب (عليه السلام) بدأ في دعوتهم من هذه القاعدة التي يعلم أنه منها تنبثق كلُّ مناهج الحياة وكلُّ أوضاعها كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل، ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة"^(١).

فإنَّ عِلْمَ أصول الدِّين أشرف العلوم؛ إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وحاجة العباد إليه فوق كلِّ حاجة، وضرورتهم إليه فوق كلِّ ضرورة؛ لأنَّه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأنَّ تعرف ربِّها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه، ومن المحال أن تستقلَّ العقول بمعرفة ذلك، وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرُّسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم مُنذرين، وجعل مِفْتَاحَ دعوتهم، وزيدة رسالتهم، معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تُبنى مطالبُ الرِّسالة كلها من أولها إلى آخرها؛ لذلك فإنَّ التوحيد أولُّ دعوة الرُّسل، وأولُّ منازل الطريق، وأولُّ مقامٍ يقومُ فيه السالك إلى الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وقال هود لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال صالح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال شعيب لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ولهذا كان الصحيح^(٢) أنَّ أولَّ واجبٍ يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، بل أئمة السلف كلُّهم متفقون على أنَّ أولَّ ما يُؤمر به العبدُ الشهادتان، ومتفقون على أنَّ مَنْ فعل ذلك قبل البلوغ لم يُؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يُؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميَّز، ولم يُوجب أحدٌ من العلماء على وليِّه أن يُخاطبه حينئذٍ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبقُ وجوب الصلاة، لكن هو أدنى هذا الواجب قبل ذلك. فالتوحيد أولُّ ما يُدخَلُ به في الإسلام، وآخر ما يُخرَجُ به من الدنيا، كما قال النبي (ﷺ): "مَنْ كَانَ آخِرُ كَلِمَةٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ"^(٣). فهو أولُّ واجبٍ وآخر واجب، فالتوحيد أولُّ الأمرِ وآخره، أعني: توحيد الإلهية، فإن التوحيد يتضمن ثلاث أنواع: أحدها: توحيد الأسماء والصفات الإلهية. والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كلِّ شيء. والثالث: توحيد الإلهية، وهو

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٢٥، ٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز. باب في التلقين (٣/١٣٦١)، حديث رقم (٣١١٦). حديث صحيح، ينظر:

صحيح سنن أبي داود: الألباني (٢/٢٧٩)، حديث رقم (٣١١٦).

استحقاق الله أن يُعبدَ وحده لا شريكَ له، فحاجة النَّاسِ إلى الأنبياء والرُّسل ضرورية، والله بعث الأنبياءَ ليبينوا ذلك التوحيد، وجعله مفتاح دعوة الرُّسل يدعون أولَ ما يدعون إلى معرفة الله وتوحيده في أسمائه وصفاته وأفعاله، وما يستحقه على العباد من أنواع الطاعات والتعبادات، فلا تستقل العقول ولا تتفرد بمعرفة هذا؛ لأنَّ هذا الدِّينَ العظيم ليس مما يدرك بالنظر والعقول، وليس مما تتفرد به الأفهام والأذهان، وإلا لو كان كذلك لما احتيج للأنبياء، ولا يصل الإنسان أبداً إلى اليقين والحقيقة إلا من طريق الوحي^(١).

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. نبِيُّ الله شُعيبٌ يسير على منهج الأنبياء والمرسلين قبله؛ لأنَّ دعوة الرُّسل واحدة في باب العقيدة؛ إذ كلُّها تقوم على أساس التوحيد والطاعة، فالتوحيد أساس الدعوة إلى الله.
٢. إضفاء الصفة الإسلامية على فروع المعرفة والعلم لازمٌ حتميٌّ لجميع الدراسات، وأن تعيد تنظيم نفسها تحت لواء مبدأ التوحيد، توحيد الله الخالق؛ حتى تجلب السعادة والهناء للبشر.

٣. الإيمان والتوحيد أساس قبول الأعمال عند الله.

المقصد الثاني: لكلِّ نبيٍّ آيةٌ تدلُّ على صدقه

ويدلُّ على هذا المقصد الاستدلالي قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

بَيِّنَةٌ: آيةٌ واضحةٌ، قال الفخر الرازي: "ويجب أن يكون المراد من البيِّنة هاهنا المعجزة؛ لأنَّه لا بُدَّ لمدعي النبوة منها".

ثانياً: لطائف التفسير في الآية:

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ لا يذكر السياق القرآني نوع هذه البيِّنة كما ذكرها في قصَّة صالح ولا يُعرف لها تحديداً من مواضع القصَّة في السور الأخرى، ولكنَّ النصَّ القرآني يشير إلى أنَّه كانت هناك بيِّنَةٌ جاءهم بها، تثبت دعواه أنَّه مرسلٌ من عند الله، ويرتب على هذه البيِّنة ما يأمرهم به نبيُّهم من توفية الكيل والميزان، والتَّهْيي عن الإفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على النَّاسِ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذي ارتضوه.

(١) شرح العقيدة الطحاوية: سفر بن عبد الرحمن الحوالي(ص:١٩).

(٢) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري(٢/٢٠٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان(٣/١١٧)، وليدبروا آياته: مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية(ص:٤٩)، وصياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية: إسماعيل الفاروقي(ص:٢٠).

(٣) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٨٠)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان(٣/١١٥).

اللطيفة الثانية: الفاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ للتفريع على مضمون معنى: ﴿بَيِّنَةٌ﴾؛ لأنَّ البيِّنَةَ تدلُّ على صدقه، فلمَّا قام الدليلُ على صدقِهِ، وكان قد أمرهم بالتَّوْحِيدِ بادئِ بدءٍ، لما فيه من صلاح القلبِ، شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان^(١).
ثالثاً: بيان المقصد من الآية^(٢):

بيِّنَةٌ شُعَيْبٍ (عليه السلام) التي جاءت في كلامه: يجوزُ أن تكون أطلقت على الآية لمعجزة أظهرها لقومه، عَرَفوها، ولم يذكرها القرآن، والأظهر أن يكون المراد بالبيِّنَةِ حُجَّةً أقامها على بُطلان ما هم عليه من الشُّرك، وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها، فقامت عليهم الحُجَّةُ، مثل المجادلة التي أخبر الله بها في سورة هود، فتكون البيِّنَةُ أطلقت على ما يُبَيِّنُ صدق الدَّعْوَى، لا على خصوص خارق العادة، أو أن يكون أراد بالبيِّنَةِ ما أشار إليه شعيبٌ بقوله: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: يكون أنذرهم بعذابٍ يحلُّ بهم إن لم يؤمنوا، فيكون التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ﴾ مراداً به المستقبل القريب، تنبيهاً على تحقيق وقوعه، أو أن يكون عرض عليهم أن يظهر لهم آية، أي: معجزة ليؤمنوا، فلم يسألوها، وبادروا بالتكذيب، فيكون معنى: ﴿قَدْ جِئْتُمْ﴾ قد أعدت، لأنَّ تجيئكم إذا كنتم تؤمنون عند مجيئها. فإن كان قصدهم بالبيِّنَةِ البيِّنَةُ التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبيُّ بآيةٍ تدلُّ على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنَّه لم يأتهم ببيِّنَةٍ، تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنَّه ما جاء نبيُّ لقومه، إلا وبعث الله على يديه، من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله، وحده لا شريك له، والأمر بكل عملٍ صالح، وخلقٍ جميل، والنَّهي عن كل خلقٍ ذميمٍ من الشرك بالله، والفواحش، والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتملٌ عليه شعيبٌ، من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول، وأولو الألباب يرون أنَّ هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق، التي يراها بعض النَّاس، هي المعجزات فقط، ومن آياته، وبيئاته الدَّالة على صدقه، أنَّه شخصٌ واحدٌ، ليس له أنصارٌ ولا أعوانٌ، وهو يصرخ في قومه، ويناديهم، ويعجزهم، ويقول لهم: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥] وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور بأيِّ طريقٍ كان، وهو غيرُ مكرثٍ منهم، ولا مبالٍ بهم، وهم عاجزون لا يقدرُّون أن ينالوه بشيءٍ من السوء، إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلُونَ؛ فإنَّ الله لكامل عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعُذر وإقامة الحُجَّة لم يبعث نبياً

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٣١٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٤١).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٤١)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي (ص: ٤٠٣).

إلا ومعه آيةٌ تدلُّ على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] حتى إن من أخفى آيات الرُّسل آيات هود، حتى قال له قومه: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، ومع هذا فبيِّنُته من أوضح البيِّنات لمن وَّفَّقه الله لتدبرها، وقد أشار إليها بقوله: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحداً يخاطبُ أمةً عظيمةً بهذا الخطاب، غير جَزَعٍ ولا فَزَعٍ ولا خَوَارٍ، بل هو واثقٌ بما قاله، جازمٌ به، فأشهدَ الله أولاً على براءته من دينهم، وما هم عليه، إَشهاداً واثقاً به معتمدٍ عليه، معلِّمٍ لقومه أن الله وليُّه وناصرُهُ وغيرُ مُسلِّطٍ لهم عليه، ثم أشهدَهُم إَشهاداً مجاهرٍ لهم بالمخالفة أنه بريءٌ من دينهم وآلهتهم التي يُوالون عليها ويُعادون عليها، ويبذُلون دماءهم وأموالهم في نصرتهم لها، ثم أكَّد ذلك عليهم بالاستهانة بهم، واحتقارهم وازدراءهم، ولو يجتمعون كلُّهم على كَيْده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجِلُونه ولا يُمهَلُونه، ثم قرَّر دعوتهم أحسنَ تقرير، وبيَّن أن ربَّه وربَّهم الذي نواصيهم بيده هو وليُّه ووَكِيلُهُ القائمُ بنصره وتأييده، وأنَّه على صراطٍ مستقيمٍ، فلا يَخْذُلُ من توكَّل عليه وأقرَّ به، ولا يُشْمِتُ به أعداءه، فأبى آيةً وبرهانٍ أحسنُ من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادةٌ من الله لهم، بيَّنَّها لعباده غايةً البيان، ومن أسماء الله (المؤمن) وهو المصدِّق الذي يُصدِّقُ الصَّادِقِينَ بما يُقيمُ لهم من شواهد صدقهم، فإنَّه لا بُدَّ أن يُبريَ العبادَ من الآيات الأُفقيَّة والنفسية ما يُبيِّنُ لهم أنَّ الوحي الذي بلَّغته رسُلُهُ حقٌّ^(١). فقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ تعريض لمن يريد النظر والبحث والتأمُّل في المعجزة، ونُقَدِّر - ولا بُدَّ - أن نوحاً، وكلَّ نبيٍّ مبعوثٍ إلى الخلق كانت له معجزةٌ تخرق العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته، ومنهم من لم يُعرف^(٢).

رابعاً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٣):

١. ما بعث الله نبياً إلا ومعه آيةٌ تدلُّ على صدقه.
٢. هذه الآية دلَّت على أنه حصلت لشعيبٍ معجزةٌ دالَّةٌ على صدقه، فأما أن تلك المعجزة من أيِّ الأنواع كانت فليس في القرآن دلالةٌ عليه، كما لم يحصل في القرآن الدلالة على كثيرٍ من معجزات رسولنا (ﷺ).

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٤٣).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية (٥٤٥/٥).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٨٠/١٤).

المقصد الثالث: الخيانة في الكيل والوزن من الكبائر

يدلُّ على هذا المقصد قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

فَأَوْفُوا: معنى إيفاء المكيال والميزان أن تكون آلة الكيل وآلة الوزن بمقدار ما يقدر بها من الأشياء المقدرة.

الْكَيْل: الكيل مصدر، ويطلق على ما يُكال به، وهو المكيال وهو المراد: لمقابلته بالميزان.

وَلَا تَبْخَسُوا: البخس: النقص وهو يكون بالتعيب للسلعة أو التزهد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكلُّ ذلك من أكل أموال النَّاسِ بالباطل.

والبَخْسُ: هو نقص الشيء على سبيل الظلم، والمعنى: لا تظلموهم أموالهم، وكلُّ ظالمٍ باخِسٌ.

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تخبر الآية أن شعيباً (عليه السلام) أمرهم بإيفاء الكيل والميزان؛ لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن، وكانوا لا يوفونهما، فقال لهم: أوفوا الكيل والميزان في بيعكم وشرائكم، ولا تُنقصوا حقوق النَّاسِ، بل أعطوهم ما تستحقه بضائعهم من الثمن بحسب جودتها ورياءتها، ثم إنَّ عادة الأنبياء إذا رأوا قومهم مقبلين على نوعٍ من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف؛ فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

ثالثاً: مناسبة هذا الجزء من الآية لما قبله^(٣):

الفاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ توجب أن تكون للأمر بإيفاء الكيل كالمعلول والنتيجة

عما سبق ذكره وهو قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والوجه فيه كأنه يقول: البخس والتطفيف عبارة عن الخيانة بالشيء القليل، وهو أمرٌ مستنبحٌ في الفطرة، ومع ذلك قد جاءت البيئنة والشريعة الموجبة للحرمة، فلم يبقَ لكم فيه عذرٌ ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾.

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣١٧/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٤/٨)، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة: محمود الطناحي (١٢٨/١).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٨١/١٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٣١٧/٢)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢٠٢/٢)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٦/٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٨١/١٤).

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(١):

اللطيفة الأولى: في الآية ذكر الكيل الذي هو المصدر، وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للآلة توجيه ذلك أن المراد بالكيل المكيال؛ فتناسب عطف الميزان عليه، وقيل: المراد بالميزان الوزن، فيناسب الكيل. فقال: الكيل والميزان، ولم يقل: المكيال والميزان كما في سورة هود: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤] لأنه أراد بالكيل آلة الكيل، وهو المكيال، أو يسمّى ما يكال به بالكيل.

اللطيفة الثانية: الفاء في قوله: ﴿فَأَوْفُوا﴾ للعطف على قوله: ﴿اغْبُدُوا اللَّهَ﴾.

اللطيفة الثالثة: فائدة النهي في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أن قوم شعيب، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده، وأنهم ما كانوا يرجعون في معاملاتهم إلى شرع الله العادل إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل، ولعل شركهم إنما كان في هذه الخصلة، وأنهم لذلك كانوا سيئي المعاملة في البيع والشراء، كما كانوا مفسدين في الأرض، يقطعون الطريق على سواهم، ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله ويكرهون الاستقامة التي في سبيل الله، ويريدون أن تكون الطريق عوجاءً منحرفةً.

اللطيفة الرابعة: في الآية دليل على أن نقصان الكيل والميزان جريمة من الجرائم الكبرى التي من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين، ولعل المرء يلمح ذلك في اقتران الأمر بعبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، ثم بعد ذلك يعتبر عدم الإيفاء بخساً لحقوق الناس، وكفى بهذا ظلماً وافترافاً؛ لذلك تعدد الأمر بإيفاء الكيل والميزان في القرآن.

خامساً: بيان المقصد في الآية^(٢):

حاصل ما أمر به شعيب (عليه السلام) قومه، بعد الأمر بالتوحيد ينحصر في ثلاثة أصول: هي حفظ حقوق المعاملة المالية، وحفظ نظام الأمة ومصالحها، وحفظ حقوق حرية الاستهداء. فالأول قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ بإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشتريين؛ لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حب الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمن الشيء الوافي، كما يحسبه المشتري. وأمّا النهي عن بخس الناس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع؛ لأن المشتري هو الذي يبخر شيء البائع ليهيئه لقبول العبن في ثمن شيء، وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال، وإنما خص هذين التحليلين بالأمر والنهي المذكورين؛ لأنهما كانا شائعين عند مدين، ولأن التحليلات في المعاملة المالية تنحصر فيهما إذ كان التعامل بين أهل البوادي منحصرًا في

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٨١)، وفتح القدير: الشوكاني (٣/٣١٧)، وفي ظلال القرآن: سيد

قطب (٣/١٣١٧)، والوصايا العشر في القرآن الكريم: عبد الحميد كشك (ص: ١١٠).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٤٥، ٢٤٣).

المبادلات بأعيان الأشياء عرضاً وطلباً، وبهذا يظهر أنّ النهي في قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ أفاد معنى غير الذي أفاده الأمر في قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ وليس ذلك النهي جارياً مجرى العلة للأمر، أو التأكيد لمضمونه، وما جاء في هذا التشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمة؛ لأنّ المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنّما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل فالمنتج يزداد إنتاجاً وعرضاً في الأسواق، والطالب من تاجر أو مستهلك يقبل على الأسواق آمناً لا يخشى غبناً ولا خديعةً ولا خلابةً، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها، فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين، ويعيش الناس في رخاءٍ وتحابٍ وتآخٍ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار نقشي ضدّ ذلك. وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذا الأصل الثاني من أصول دعوة شعيب النهي عن كلّ ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصّلاح في الأرض، والإشارة بـ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى مجموع ما تضمّنه كلامه، أي: ذلك المذكور، ولذا أفرد اسم الإشارة، والمذكور: هو عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وتجنّب بخرس أشياء الناس، وتجنّب الفساد في الأرض، وقد أخبر عنه بأنّه خير لهم، أي: نفعٌ وصلاحٌ تنتظم به أمورهم؛ وإنّما كان ما ذكر خيراً؛ لأنّه يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الوُدّ بين الأمة وزوال الإحن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات، فإذا تمّ ذلك كثرت الأمة وعزّت وهابها أعداؤها وحسنت أحداثتها وكثر مالها بسبب رغبة الناس في التجارة والزراعة لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله؛ وفيه خير الآخرة؛ لأنّ ذلك إنّ فعلوه امتثالاً لأمر الله أكسبهم رضى الله، فنجّوا من العذاب، وسكنوا دار النّواب.

سادساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. أنّ الله حتّ على الاحتياط في أمر الأموال لكونها سبباً لمصالح المعاش والمعاد.
٢. أنّ الخيانة في الكيل والوزن من الكبائر.
٣. حرمة التطفيف في الكيل والميزان، ويدخل في ذلك الصناعات والمهن وما إلى ذلك.
٤. التّقص في الميزان وبخرس الناس أشياءهم من الجرائم الاجتماعية الخطيرة على أخلاق المجتمع واقتصاده.
٥. أنّ الله أهلك أهل مدين ودمرهم؛ لأنّها أمة أنت ذنوباً كان منها نقصان المكيال والميزان.
٦. أنّ المؤمن يُطبع على الخلال كلّها إلا الخيانة والكذب.

(١) الكبائر: الذهبي(ص:٤١)، وحاشية الجمل على تفسير الجلالين(٢٤٩/١)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري(٢٠٣/٢)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان(١١٧/٣)، والإيمان: أبو بكر ابن أبي شيبة(ص:٥٨)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير(٤٨٣/٤)، والوصايا العشر في القرآن الكريم: عبد الحميد كشك(ص:١٠٩).

المقصد الرابع: الإنصاف من أخلاق النبوة

ويدلُّ على هذا المقصد الجميل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

تَبَخَّسُوا: البخس في لسان العرب هو النَّقْصُ بالتَّعْيِيبِ والتَّزْهِيدِ أو المخادعة عن القيمة أو الاحتيال في التزيد في الكيل والتقصان منه، والبخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيقٌ بكمالٍ في نوعه، ففيه معنى الظلم والتحيُّل، والمقصود من البخس أن ينتفع الباخس الرَّاغب في السلعة المَبخوسة بأن يصرف النَّاسَ عن الرَّغبة فيها فتبقى كلاً على جالبها فيضطرُّ إلى بيعها بثمنٍ زهيدٍ، وقد يقصد منه إلقاء الشكِّ في نفس جالب السلعة بأن سلعته هي دون ما هو رائج بين النَّاسِ، فيدخله اليأس من فوائد نتاجه فتكسل الهمم، وبهذا يُعلم أن البخس هو بمعنى النَّقْصِ الذي هو فعل الفاعل بالمفعول، لا النَّقْصِ الذي هو صفة الشيء الناقص، فهو أخصُّ من النَّقْصِ في الاستعمال، وهو أخصُّ منه في المعنى، ظاهر قوله: ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ أنهم كانوا يبخسون النَّاسَ في كلِّ الأشياء. وقيل: كانوا مَكَّاسِينَ^(٢) يمكسون كل ما دخل إلى أسواقهم.

ثانياً: مناسبة هذا الجزء من الآية لما قبله^(٣):

أنَّ شعيباً (عليه السلام) لما منع قومَه من البخس في الكيل والوزن منعهم بعد ذلك من البخس والتتقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة وأخذ الرشوة وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل، فهو من ذكر العام بعد الخاص.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٤):

اللطفية الأولى: إِنَّ حَقَّ فَعَلٍ بَخَسَ أَنْ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا عُدِّيَ إِلَى مَفْعُولَيْنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ هُنَا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ فذلك على معنى التحويل لتحصيل الإجمال ثمَّ التفصيل، وأصل الكلام: "ولا تبخسوا أشياء النَّاسِ" فيكون قوله: ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿النَّاسِ﴾، وبهذا يُعلم أن بين البخس والتتقيص فرقا.

اللطفية الثانية: قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يدخل تحته قليل الفساد وكثيره، ودقيقة وجليله.

اللطفية الثالثة: التنكير في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ للتعظيم والكمال؛ لأنَّه جامع خيري الدنيا والآخرة.

اللطفية الرابعة: قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ مُقَيَّدٌ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣١٧/٢)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (٢٤٢/٨).

(٢) ينقصون الثمن، ماكسه في البيع مماكسه أي: طلب منه أن ينقص الثمن.

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٨١/١٤).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣١٧/٢)، والتحرير والتتوير: ابن عاشور (٢٤٣، ٢٤٥/٨).

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

إنَّ الأخلاق الفاضلة الحميدة من عناصر بقاء الأمم عزيزة قوية، لذلك؛ فالأخلاق تؤثر على قيام المجتمع سلباً وإيجاباً؛ لأنَّ الأخلاق الحسنة أصلٌ تقوم عليه أوامر الله في النفس البشرية، فإذا طُوِّعت هذه النفس على الخُلُق الكريم والسلوك القويم؛ فإنَّها لا شك رغبة في تعظيم شعائر الله، والتزام منهجه، ومن أصدق من الله حديثاً، فهو القائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] فالأخلاق الكريمة صُلب الشريعة، وجماع الدين الذي بعث الله به محمداً (ﷺ)، فلا بُدَّ من تحقيقها في النفس المسلمة حتى تفلح، وتقوم على أمر الله فتفوز، فإنَّ الله بيِّن آياته وفصلها للنَّاس؛ لتستقيم نفوسهم على محاسن الأخلاق وصالحها؛ فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ولما كانت هذه الحقيقة سُنَّة كونية شرعية؛ فإنَّ جميع المرسلين دعوا أقوامهم إلى تحقيقها، فهذا نوح أول رسولٍ إلى أهل الأرض يخاطب قومه؛ كما أخبر عنه تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٠] وكذلك هود ينذر قومه قائلاً، كما أخبر عنه تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٦] وكذلك صالح، ولوط، وشعيب، وجميع المرسلين، فهذه آيات تحضُّ على التقوى، والأخلاق هي عنوان التقوى؛ فإنَّ التقوى هي معين الأخلاق الفاضلة تمدها؛ فنرى غضة طرية في حياة المسلمين؛ فلقد كان رسول الله (ﷺ) أحسن النَّاس خُلُقاً، وأتقاهم الله وأعلمهم به، وبذلك تكون الأخلاق الطيبة هي التقوى التي يراها المسلمون خيراً ونماءً وبركةً وعطاءً في حياة المجتمع الرِّباني، وأصلها ثابت في قلب المؤمن الذي يغذيها بخشية الله في السرِّ والعلن، لذلك ينبغي على كلِّ داعٍ إلى الله على بصيرةٍ أن يولي قضية الأخلاق اعتناءً كبيراً، ومما يؤكد هذه البديهة قوله (ﷺ): "إنَّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"^(٢). حيث بيَّن رسولُ الله (ﷺ) أنَّ إحدى مهماته هي إرساء قواعد مكارم الأخلاق، وإتمام صالحها، وبيان معاليها؛ ألا يدلُّ هذا كله على أنَّ للأخلاق دوراً هاماً في إنشاء مجتمع الخلافة الراشدة، وأثراً بارزاً لاستئناف الحياة الإسلامية.

(١) الجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٣٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بإسناد حسن.

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. في الآية ردٌّ على من قال: إنَّ الأخلاق لا تُكوَّنُ أُمَّةً ولا تُقِيلُ عَثْرَةً، ولا تنهض حضارة؛ فالأخلاق لا تؤثر في قيام المجتمع ولا في رقيه أو انحطاطه،
٢. أنَّ الأخلاق من مقومات المجتمع الصالح.
٣. لأهمية الأخلاق الحميدة في حياة المجتمع المسلم كانت ركناً أصيلاً في دعوة جميع المرسلين؛ فالأخلاق الحميدة تركية للنفس البشرية، وهي من شعب الإيمان،
٤. إنَّ الفضائل الصالحة كالأحكام الشرعية تُعدُّ من دعائم الدِّين الأساسية، بل إنَّها من الأهداف السامية التي جاء الإسلام لترسيخها في النفس الآدمية، ومن المثل العليا التي بعث من أجلها الرسول (ﷺ).
٥. تزداد الجرائم زيادة مطردة في البلاد التي تطبق القوانين الوضعية، وتضعف الأخلاق فيها، ويكثر المجرمون في الطبقات المستنيرة تبعاً لزيادة الفساد الخلفي في هذه الطبقات.
٦. أنَّ البخس نقص الشيء على سبيل الظلم.

المقصد الخامس: الإيمان شرطٌ للخيرية، والشرك مضرٌ بالآدمية

دلُّ عليه قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٢):

بَعْدَ إِصْلَاحِهَا: أي: بعد أن صلحت الأرض بمجيء النبي بعد أن كانت فاسدةً بخلوها منه، فنهاهم عن الفساد، وقد صارت صالحةً، والمراد أن لا تفسدوا بعد أن أصلحها الله بتكثير النعم فيهم، والتي منها إرسال الرُّسل.

ذَلِكُمْ: إشارة إلى العمل بما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه.

خَيْرٌ: المراد بالخيرية في الآية: الزيادة المطلقة؛ لأنَّه لا خيرَ في عدم إيفاء الكيل والوزن، وفي بخس النَّاسِ، وفي الفساد في الأرض أصلاً.

إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ: أي: ذلك خيرٌ لكم إن كنتم تؤمنون بالله وبالحقِّ الواضح البيِّن.

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه: عبد القادر عودة(ص: ١١)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي(ص: ٤٩٣، ٣٧٠).

(٢) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٨١)، وفتح القدير: الشوكاني(٢/٣١٧)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان(٣/١١٦).

ثانياً: مناسبة هذا الجزء من الآية لما قبله^(١):

وذلك لأنه لما كان أخذ أموال الناس بغير رضاها يوجب المنازعة والخصومة، وهما يوجبان الفساد، لا جرم قال بعده: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: لا تقدموا على البخس في الكيل والوزن؛ لأن ذلك يتبعه الفساد، وقيل: قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ منع من مفسد الدنيا وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ منع من مفسد الدين، حتى تكون الآية جامعةً للنهي عن مفسد الدنيا والدين.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٢):

اللطفية الأولى: قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا التعقيب يرد كثيراً في القرآن لتقرير معنى أصيل، وهو أن الإيمان لا بد له من صورة عملية واقعية، يتجلى فيها، ليثبت وجوده، ويترجم عن حقيقته. فليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل، وذلك لتعريف الإيمان وتحديد وإخراجه من أن يكون كلمة تُقال باللسان، أو تمنياً لا واقعية له في عالم الواقع.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(٣):

حاصل دعوة شعيب (عليه السلام) أنه دعا قومه إلى تكاليف خمسة ترجع إلى أصليين هما: الأول: التعظيم لأمر الله، ويدخل فيه الإقرار بالتوحيد والنبوة. والثاني: الشفقة على خلق الله، ويدخل فيه ترك البخس وترك الفساد، وحاصلها يرجع إلى ترك الإيذاء، كأن الله يقول: إيصال النفع إلى الكل متعزراً، وأما كف الشر عن الكل فممكن، ثم إن الله لما ذكر هذه الخمسة تكاليف الشرعية، قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو إشارة إلى هذه الخمسة والمعنى: خير لكم في الآخرة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالآخرة. والمراد: ترك البخس وترك الإفساد خير لكم في طلب المال في المعنى؛ لأن الناس إذا علموا منكم الوفاء والصدق والأمانة رغبوا في المعاملات معكم فكثرت أموالكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين لي في قولي. فالمؤمنون في الآية لقب للمتصفين بالإيمان بالله وحده، كما هو مصطلح الشرائع، وحمل المؤمنين على المصدقين لقوله، ونصحه، وأمانته، حمل على ما ياباه السياق، بل المعنى، أنه يكون خيراً إن كنتم مؤمنين بالله وحده، فهو رجوع إلى الدعوة للتوحيد بمنزلة رد العجز على الصدر في كلامه، ومعناه أن حصول الخير من الأشياء المشار إليها لا يكون إلا مع الإيمان، لأنهم إذا فعلوها وهم مشركون لم يحصل منها الخير؛ لأن مفسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير، أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٨١).

(٢) شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص: ٣٢١)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣/١٤٧٤).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٨٢).

فإنَّ الشَّرْكَ يدعو إلى أضرار تلك الفضائل أو يدعو إلى مفسد لا يظهر معها نفع تلك المصالح. والحاصل أنَّ المراد بالتَّقييد نفي الخير الكامل عن تلك الأعمال الصَّالحة إن لم يكن فاعلوها مؤمنين بالله حقَّ الإيمان، وتأويل الآية بغير هذا عدولٌ بها عن مَهيع الوُضوح. وفي الآية حجة لمن قال: إنَّ النهي يدلُّ على أنَّ المنهي عنه فساده راجحٌ على صلاحه، ولا يشرع التزام الفساد ممن يشرع له دفعه، وأصل هذا أنَّ كلَّ ما نهى الله عنه وحرمه في بعض الأحوال، وأباحه في حالٍ أخرى، فإنَّ الحرام لا يكون صحيحاً نافذاً كالحلال يترتب عليه الحكم، كما يترتب على الحلال، ويحصل به المقصود كما يحصل به، وهذا معنى قول العلماء: النهي يقتضي الفساد، فكلُّ ما كان من الفساد ليس من الصَّلاح؛ فإنَّ الله لا يحب الفساد، ويحب الصَّلاح، ولا ينهى عما يحبه، وإنَّما ينهى عما لا يحبه، فَعُلِمَ أنَّ المنهي عنه فاسدٌ، ليس بصالح، وإن كانت فيه مصلحةٌ فمصلحته مرجوحة بمفسدته، فإنَّ مقصود الشرع رفع الفساد ومنعه؛ لا إيقاعه والإلزام به. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١] أي: لا تعملوا بمعصية الله، فكلُّ من عمل بمعصية الله فهو مفسدٌ، والمحرماتُ معصيةٌ لله، فالشارع ينهى عنه ليمنع الفساد ويدفعه ولا يوجد قطُّ في شيءٍ من صور النهي صورةٌ ثبتت فيها الصحة بنصٍّ ولا إجماعٍ^(١). ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، وهي التي تم حصرها تحت اسم الضروريات الخمس في الشريعة، وبعبارة جامعة حاسمة إنَّ حفظ الأصول الخمسة يستحيل أن لا تشتمل عليه ملءٌ من الملل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر، والقتل، والزنى، والسرقة، وشرب المسكر^(٢). وقد نصَّ العلماء على أنَّ معظم مقاصد القرآن: الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها، كما أنَّ الشريعة الإسلامية كلها معللة بجلب المصالح ودرء المفسد، فالشريعة كلها مصالح: إما تدرأ مفسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٥٣] فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيراً يحثك عليه، أو شراً يزجرك عنه، أو جمعاً بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفسد حثاً على اجتناب المفسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح، والتكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، والله غنيٌّ عن عبادة الكل، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين^(٣). لذلك فإنَّ الرسالة والنبوة لا تفتأ تؤكد وتثبت أنَّ

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨١/٢٩ - ٢٨٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٦/٨).

(٢) المستصفى: العزالي (٢٨٨/١)، ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني (ص: ٣٤).

(٣) قواعد الأحكام: العز ابن عبد السلام (٧٣/٢)، وينظر: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد

الريسوني (ص: ٥١).

الشرعية الربانية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفساد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيريين وشر الشريرين، وتحصل أعظم المصلحتين بتقويت أدناهما، وندفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وقد أمر الله العباد بأن يبذلوا غاية وسعهم في التزام الأصلاح فالأصح، واجتنب الأفسد فالأفسد، وهذا هو الأساس الأكبر للتشريع الإسلامي^(١)؛ فإن مدار الشرع على قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] المفسر لقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفساد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتقويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما، هذا هو المشروع. خامساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. دلت الآية على المنع من كل ما كان فساداً حملاً للفظ على عومه.
٢. أن النهي يقتضي الفساد.

المقصد السادس: الضرائب الباهظة فيها نوعٌ ظلم

قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦] أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(٣):

صِرَاطٍ: الطريق، وفي الصراط قولان: الأول: حقيقي، حيث يحمل الصراط على الطريق الذي يسلكه الناس؛ فأنهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من آمن بشعيب. والثاني: معنوي بأن يحمل الصراط على مناهج الدين. تُوعِدُونَ: تُخَوِّفُونَ وتُهدِّدُونَ. وَتَصُدُّونَ: المراد صدُّ الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه، ومنعهم من الوصول إلى شعيب فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله. سَبِيلِ اللَّهِ: سبيل الله الدين؛ لأنه مثل الطريق الموصل إلى الله، وحفظ أصل الدين يكون نظراً إلى مقصوده وثمرته من نيل السعادة الأبدية في جوار رب العالمين. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا: معناه: تبغون لسبيل الله عوجاً؛ إذ كانوا يزعمون أن ما يدعو إليه شعيب باطل،

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية (٢٨/٢٠، ٢٨/٤٨، ٢٨٤/٤٨)، ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني (ص: ٥٣).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٨١).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٤/١٨٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/٣١٧)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (٣/١١٥)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٨/٢٤٧)، ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: أحمد الريسوني (ص: ٤٣).

عَوَجًا: العوج عدم الاستقامة في المعاني، فكسر العين ﴿عَوَجًا﴾ في المعاني، والفتح ﴿عَوَجًا﴾ في الإجرام والذوات، والمعنى: تُحاولون أن تصفوا دعوة شعيب المستقيمة بأنها باطلٌ وضلالٌ، كمن يُحاول اعوجاج عودٍ مستقيمٍ، أي: تطلبون سبيل الله أن تكون معوجةً غير مستقيمة^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

انتقل نبيُّ الله شعيبٌ بعد أن دعاهم إلى التوحيد والإيمان إلى نهيهم عن رذائل كانوا مُتلبسين بها، فقال لهم: ولا تقعدوا بكلِّ طريقٍ من الطُّرق المسلوكة تُهدِّدون مَنْ آمَنَ بي بالقتل، وتُخيفونه بأنواع الأذى، وتُلتصقون بي وأنا نبيكم التَّهم التي أنا بريءٌ منها، بأن تقولوا لمن يريدُ الإيمان برسالتي: إنَّ شعيباً كذَّابٌ، وأنه يريدُ أن يفتنكم عن دينكم، وتصرفون النَّاسَ عن دين الله وطاعته، وتطلبون لطيفه العوجَ بإلقاء الشُّبه أو بوصفها بما يُقصُّها، مع أنَّها هي الطريق المستقيم الذي هو أبعدُ ما يكونُ عن شائبة الاعوجاج، فقد كانوا يجلسون في مداخل البلاد، وعلى أفواه السكك، ويتوعدون المارة بالعذاب إن هم اتصلوا بالنبيِّ شعيب وجلسوا إليه صرفاً للنَّاس عن الإيمان والاستقامة، كما أنَّهم يقطعون الطرق ويسلبون النَّاس ثيابهم وأمتعتهم أو يدفعون إليهم ضريبة خاصة.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: القعود في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ مستعملٌ كناية عن لازمة وهو الملازمة والاستقرار، أي: ولا تقتدوا بالشيطان في قوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] اللطيفة الثانية: لفظة ﴿كُلٌّ﴾ في الآية للعموم وهو عمومٌ عرفي، أي: كلُّ صراطٍ مبلغ إلى القرية أو إلى منزل شعيب (ﷺ)، ويجوز أن تكون كلمة ﴿كُلٌّ﴾ مستعملة في الكثرة.

اللطيفة الثالثة: الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ للإلصاق، أو هي بمعنى (في) كشأنها إذا دخلت على أسماء المنازل.

اللطيفة الرابعة: جملة: ﴿تُوْعِدُونَ﴾ حال من ضمير ﴿تَقْعُدُوا﴾ والإيعاد: الوعد بالشر، والمقصود من الإيعاد الصدُّ، فيكون عطف جملة: ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ عطفُ علةٍ على معلولٍ، أو أريد تُوعدون المصمِّمين على اتباع الإيمان، وتصدُّون الذين لم يصمِّموا فهو عطف عامٍ على خاصٍّ. أي: لا

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٧/٨)، وأيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢٠٢/٢).

(٢) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢٠٢/٢)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٦/٣).

(٣) التفسير الكبير: الرازي (١٨٣/١٤، ١٨٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٢، ٣١٧)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٦، ٢٤٧/٨).

تفعدوا بكلّ طريقٍ موعدين لأهله صادين عن سبيل الله، باغين لها عوجاً. والحاصل: أنّ شعيباً نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال بأحد هذه الأمور الثلاثة.

اللطفية الخامسة: التعبير بالماضي في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ عوضاً عن المضارع، حيثُ المراد بمن آمن قاصدُ الإيمان، فالتعبير عنه بالماضي لتحقيق عزم القاصد على الإيمان فهو لولا أنّهم يصدّونه لكان قد آمن، و ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ مفعول ﴿تَصُدُّونَ﴾، و ﴿مَنْ آمَنَ﴾ يتنازعه كلُّ من ﴿تُوَعِدُونَ﴾ و ﴿تَصُدُّونَ﴾، فالضمير في ﴿آمَنَ بِهِ﴾ يرجع إلى الله، أو إلى سبيل الله، أو إلى كلّ صراطٍ، أو إلى شعيبٍ.

رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

هذه الآية هي الأصل الثالث من دعوة شعيب (عليه السلام)، وهو النهي عن التعرّض للنّاس دون الإيمان، فإنّه بعد أن أمرهم بالإيمان بالله وما يتطلّبه من الأعمال الصّالحة، وفي ذلك صلاح أنفسهم، أي: أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه ذلك أنّهم كانوا يصدّون وفود النّاس عن الدّخول إلى المدينة التي كان بها شعيب (عليه السلام) لئلا يؤمنوا به، فالمراد بالصّراط الطّريق الموصلة إلى لقاء شعيب (عليه السلام)، وإنّما أحرّ النهي عن الصدّ عن سبيل الله، بعد جملة ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يجعله في نسق الأوامر والنّواهي الماضية ثم يعقبه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأنّه ربّ الكلام على الابتداء بالدّعوة إلى التّوحيد، ثم إلى الأعمال الصّالحة لمناسبة أنّ الجميع فيه صلاح المخاطبين، فأعقبها ببيان أنّها خيرٌ لهم إن كانوا مؤمنين فأعاد تنبيههم إلى الإيمان وإلى أنّه شرطٌ في صلاح الأعمال، وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي عن صدّ الرّاعبين فيه، ثم إنّ الله لما عطف بعض هذه الثلاثة على البعض، وجب حصول المغايرة بينها فقوله: ﴿تُوَعِدُونَ﴾ يحصل بذلك إنزال المضار بهم وأمّا الصد في قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ فقد يكون بالإيعاد بالمضار، وقد يكون بالوعد بالمنافع بما لو تركه، وقد يكون بأن لا يمكنه من الذهاب إلى الرسول لسمع كلامه. أمّا قوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فالمراد إلقاء الشكوك والشبهات. والمراد من الآية أنّ شعيباً منع القوم من أن يمنعوا النّاس من قبول الدّين الحقّ بأحد هذه الطرق الثلاثة، وإذا تأملت علمت أن أحداً لا يمكنه منع غيره من قبول مذهبٍ أو مقالةٍ إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة. ومعنى الآية: أي: لا تفعدوا بكلّ طريقٍ توعدون النّاس بالعذاب، فقد منع شعيب قومه من أن يقعدوا على طرق الدّين ومناهج الحقّ؛ لأجل أن يمنعوا النّاس عن قبوله، فقد روي أنّهم كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه، أو القعود على طرق الدّين ومنع من أراد سلوكها، وقيل: المراد بالآية: النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب،

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٨٣/١٤)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٧/٨).

وكان ذلك من فعلهم، فإنهم كانوا عشَّارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال النَّاس، فنهوا عن ذلك، ولا مانع من حمل النَّهي على جميع هذه الأقوال^(١). فمن الكبائر المكَّاس^(٢)؛ فإنَّ المكَّاس فيه شَبَهٌ من قاطع الطريق، وهو شرٌّ من اللِّصِّ؛ فإنَّ مَنْ عَسَفَ النَّاسَ وجدَّد عليهم ضرائب، فهو أظلمُّ وأغشمُ ممَّن أنصفَ في مكَّسه ورفقَ برعيَّته، وجابي المكَّس، وكاتبه، وآخذه من جنديٍّ، وشيخٍ، وصاحبِ زاويةٍ شركاء في الوزر، أكَّالون للُّسحت، ولا يدخل صاحب مكَّسِ الجنَّة^(٣).
خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٤):

١. الآية نهى عن قطع الطريق وأخذ السلب وكان ذلك من فعل قوم شعيب.
٢. حرمة التلصص، وقطع الطرق وتخويف المارة، وزعزعة الأمن والاستقرار.
٣. حرمة الضرائب الفادحة التي تضرب على المسلمين في بلادهم، والمكوس التي في الأسواق وغيرها مما اقتدى فيه المسلمون بالكافرين.
٤. حرمة الصدِّ عن سبيل الله بمنع النَّاس من التدين والالتزام بالشريعة ظاهراً وباطناً.
٥. الإيمان بالله ورسله شرطاً في صلاح الأعمال.

المطلب الثاني: الحفاظ على النسل من مقاصد الشريعة الغراء

وفيه أربعة مقاصد:

المقصد الأول: تكثير النسل مطلب شرعي

دلُّ عليه قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(٥):

فَكَثَّرَكُمُ: هذا اللفظة تحتل ثلاثة أوجه: كثر عددكم بعد القلة، وكثركم بالغنى بعد الفقر، وكثركم بالقدرة بعد الضعف، ووجه ذلك أنهم إذا كانوا فقراءً أو ضعفاءً فهم بمنزلة القليل في أنه لا يحصل من وجودهم قوَّةٌ وشوكةٌ. معنى الآية: تذكروا عاقبة المفسدين، وما لحقهم من الخزي والنكال ليصير ذلك زاجراً لكم عن العصيان والفساد.

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣١٧/٢).

(٢) المكَّاس: العَشَّار، أي: الذي يأخذ عُشَرَ الأموال، والمقصود: جابي الضرائب التي تُفرض على النَّاس ظلماً. ومن معاني (المكَّس): النقص والظلم. ينظر: الكبائر: الذهبي (ص: ٨٩).

(٣) الكبائر: الذهبي (ص: ٨٩)، وسنن أبي داود كتاب الإمارة، حديث رقم (٢٩٣٧).

(٤) أيسر التفاسير: أبو بكر الجزائري (٢٠٢/٢).

(٥) التفسير الكبير: الرازي (١٨٣/١٤).

ثانياً: مناسبة هذا الجزء من الآية لما قبله^(١):

قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ﴾ المقصود منه أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا، وقوله: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ المقصود منه أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولاً، والترهيب ثانياً.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

تبين الآية الكريمة أن شعبياً ذكرهم بنعم الله عليهم قائلاً لهم: اذكروا ذلك الذي كنتم فيه قليلي العدد، فكثركم الله بأن جعلكم موفوري العدد، وأن تُفردوه وحده بالعبادة والطاعة، ثم خوّفهم شعيب عواقب الإفساد قائلاً لهم: انظروا نظر تأملٍ واعتبارٍ كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية والقرون الماضية، كقوم لوط، وقوم صالح وغيرهم، فسترون أنهم قد دُمروا تدميراً بسبب إفسادهم في الأرض وتكذيبهم لرسلهم، فاتقوا الله ولا تُطيعوا أمر المفسدين؛ لأن سيركم على طريقهم سيؤدّي بكم إلى الدمار، فالمعنى: وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين من الأمم الماضية، فإن الله أهلكهم وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم ومحا أثرهم.

رابعاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطفة الأولى: كلمة قليل في الآية ﴿قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ﴾ وصف يلزم الإفراد والتذكير، مثل كثير. اللطفة الثانية: ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ اسم زمان، غير ظرفٍ فهو في محلّ المفعول به أي: اذكروا وقت وزمان كنتم قليلاً عدداً فكثركم بالنسل فأعقبه بأن كثركم في مدة قريبة. خامساً: بيان المقصد في الآية^(٤):

إن شعبياً (عليه السلام) في دعوته قومه كان يستصحب بعض المؤثرات الموحية، فقد كان يذكرهم نعمة الله عليهم؛ حيث ذكرهم شعبياً (عليه السلام) عقب ذلك بتكثير الله إياهم بعد أن كانوا قليلاً، وهي نعمة عليهم، إذ صاروا أمة بعد أن كانوا معشراً، ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوى فيهم قوة التناسل، وحفظهم من أسباب الموتان، ويسرّ لنسلهم البفاعة حتى كثرت مواليدهم وقلّت وفيأتهم، فصاروا عدداً كثيراً في زمنٍ لا يُعهد في مثله مصير أمة إلى عددهم، فبعد منعهم الناس من الدخول في دين الله سعياً في تقليل حزب الله، وذلك كفراناً لنعمة الله عليهم بأن كثرتهم، وليقابلوا اعتبار هذه النعمة باعتبار نعمة تعالى من الذين غضب عليهم، إذ

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٨٣/١٤).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٢)، التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٦/٣).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٩/٨).

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب (١٣١٧/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٩/٨).

استأصلهم بعد أن كانوا كثيراً فذلك من تمايز الأشياء بأضدادها. فذلك أعقبه بقوله: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وفي هذا الكلام جمع بين طريقي التَّغْيِيبِ والتَّزْهِيْبِ، والمراد بـ ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشُّرْكِ وبأعمال الضَّلَالِ، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشَّرَائِعِ، وأفسدوا النَّاسَ بإمدادهم بالضَّلَالِ وصدَّهم عن الهدى، ولذلك لم يُؤْت: لـ ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ بمتعلِّقٍ؛ لأنَّه اعتُبر صفةً، وقطع عن مشابهة الفعل، أي الذين عرفوا بالإفساد، وهذا الخطاب مقصودٌ منه الكافرون من قومه ابتداءً، وفيه تذكيرٌ للمؤمنين منهم بنعمة الله، فإنَّها تشملهم وبالإعتبار بمن مَضَوْا فإنَّه يَنْفَعُهُمْ، وفي هذا الكلام تعريضٌ بالوعد للمسلمين وبالنَّسَلِية لهم على ما يُلاقونه من مفسدي أهل الشُّرْكِ لانطباق حال الفريقين على حال الفريقين من قوم شُعَيْبٍ.

سادساً: ما ترشد إليه الآية الكريمة من أهدافٍ وهداياتٍ^(١):

١. تذكيرُ النَّاسِ بماضيهم من الأمور التي تُعِينُ على تَهْذِيبِ سُلُوكِهِمْ.
٢. ضَرُورَةُ تذكِيرِ النَّاسِ لِأَخْذِ العِبْرَةِ مِنَ المَاضِيْنَ.
٣. المقصود من الآية أنَّهم إذا تذكروا كثرة إنعام الله عليهم أنَّ ذلك يحملهم على الطاعة والبعد عن المعصية.

المقصد الثاني: الصبر أحد دعائم الإيمان

ويدلُّ على هذا المقصد الأسمى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]

أولاً: المفردات اللُّغوية في الآية^(٢):

طَائِفَةٌ: الطائفة: الجماعة من النَّاسِ ذات العدد الكثير، وتقع على الواحد، ويسمَّى الرجل طائفة. فلفظ طائفة يتناول الواحد فما فوقه، ولا يختص بعددٍ معينٍ. والطائفة في الأصل الجماعة من النَّاسِ، والقطعة من الشيء، وهي المرادة في الآية في هذا الموضوع.

فَاصْبِرُوا: الصبرُ: الإمساكُ في ضيقٍ، والصبرُ: حبسُ النفسِ على ما يفتَضِيهِ العَقْلُ والشَّرْعُ. وهذه الآية من باب التهديد والوعيد الشديد لهم، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر. والصبر في اللُّغة الحبس والكف، والصبر يعني: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، ولكن مهما تنوعت العبارات في بيان الصبر،

(١) التفسير الكبير: الرازي(١٤/١٨٣)، والتفسير المنهجي: جمال أبو حسان(٣/١١٧).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني(ص: ٤٧٤)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي(٢/٤٢٥)، وفتح القدير: الشوكاني(٢/٣١٨)، والتحرير والتنوير: تفسير ابن عاشور(٨/٢٤٩)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي(ص: ٣٨٦)، وتهذيب مدارج السالكين: عبد المنعم صالح العزي(ص: ٣٠٥).

فإنه لا خلاف بين أهل العلم أنّ أظهر معاني الصبر: حبس النفس على المكروه، وعقل اللسان عن الشكوى. والصبر: حبس النفس في حال الترقّب، سواءً كان ترقّب محبوبٍ أم ترقّب مكروهٍ، وأشهر استعماله أنّ يطلق على حبس النفس في حال فقدان الأمر المحبوب، وقد جاء في هذه الآية مستعملاً في القدر المشترك؛ لأنه خُوطب به الفريقان: المؤمنون والكافرون، وصبر كلٌّ بما يُناسبه، ولعلّه رجح فيه حال المؤمنين، ففيه إيذانٌ بأنّ الحكم المترقّب هو في منفعة المؤمنين، وقد قال بعضُ المفسّرين: إنّه خطابٌ للمؤمنين خاصة^(١).

ثانياً: المعنى الإجمالي للآية^(٢):

توضح الآية أنّ نبيّ الله شعيباً نصّح قومه بأن يأخذوا أنفسهم بشيءٍ من العدل وسعة الصدر، وأن يتركوا أتباعه أحراراً في عقيدتهم، فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم، حتى يحكم الله بين الفريقين، ثم قال لهم: فإن كان بعضكم قد آمن بما أرسلني الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلتُ به بل أصرّ على شركه وعناده، فتربّصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحُكمه العادل الذي يتجلّى في نُصرة المؤمنين وإهلاك الظالمين، وهو سبحانه خيرُ الحاكمين، وإلى هنا تكون السورة قد بينت لنا جانباً من الحجج النَّاصعة، والنصائح الحكيمة والتوجيهات الرشيّدة التي وجّهها شعيبٌ (عليه السلام) إلى قومه.

ثالثاً: لطائف التفسير في الآية^(٣):

اللطيفة الأولى: في الآية تقديم وتأخير؛ حيث إنّ التقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة؛ فإنّ العرب أتوا به دلالة على تمكّنهم في الفصاحة، وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقعٍ وأعذب مذاق، وهو أنواع، وله أسرار جليّة، وحكم بالغة، فمنها ما قدّم للشرف، كقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ حيث قدّم الذين آمنوا على الذين لم يؤمنوا؛ وذلك لشرف الإيمان، وكذلك تقديم المسلمين على الكافرين في كلّ موضعٍ والطائع على العاصي وأصحاب اليمين عن أصحاب الشمال.

اللطيفة الثانية: الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ﴾ أفاد تعليق حصول مضمون الجزاء في المستقبل، يعني ما تضمّنه الوعيد للكافرين به والوعد للمؤمنين، على تحقّق حصول مضمون فعل الشرط، لا على ترقّب حصول مضمونه، لأنّه معلوم الحصول، فالماضي الواقع فعلاً للشرط هنا ماضٍ حقيقيٍّ وليس مؤولاً بالمستقبل، كما هو الغالب في وقوع الماضي في سياق الشرط

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٤٣٦/٢)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٥٠/٨).

(٢) التفسير المنهجي: جمال أبو حسان (١١٧/٣).

(٣) البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٢٥٣/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٤٩/٨، ٢٥١).

بقريئة كونه معلوم الحصول، وبقريئة النَّفِي بِ﴿لَمْ﴾ المعطوف على الشَّرْطِ فَإِنَّ ﴿لَمْ﴾ صريحة في المضي. فالمعنى: إن تبين أن طائفة آمنوا وطائفة كفروا فسيحكم الله بيننا فاصبروا حتى يحكم ويؤول المعنى: إن اختلفتم في تصديقي فسيظهر الحكم بأنِّي صادق.

اللطيفة الثالثة: كلمة ﴿حَتَّى﴾ في الآية تفيده غاية للصبر.

اللطيفة الرابعة: أدخل شعيب (عليه السلام) نفسه في المحكوم بينهم بضمير المشاركة؛ لأن الحكم المتعلق بالفريق الذين آمنوا به يعتبر شاملاً له؛ لأنه مؤمن برسالة نفسه.
رابعاً: بيان المقصد في الآية^(١):

كلمة ﴿حَتَّى﴾ في الآية تفيده غاية للصبر، وهي مؤذنة بأن التقدير: وإن كان طائفة منكم آمنوا وطائفة لم يؤمنوا فسيحكم الله بيننا فاصبروا حتى يحكم، وحكم الله أريد به حكم في الدنيا، فيظهر المحق من المبطل، وهذا صدر عن ثقة شعيب بأن الله سيحكم بينه وبين قومه استناداً لوعد الله إياه بالنصر على قومه أو لعلمه بسنة الله في رسله ومن كذبهم بإخبار الله إياه بذلك، ولولا ذلك لجاز أن يتأخر الحكم بين الفريقين إلى يوم الحساب، وليس هو المراد من كلامه؛ لأنه لا يناسب قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ إذا كان خطاباً للفريقين فإن كان خطاباً للمؤمنين خاصة صح إرادة الحكمين جميعاً، وهذا الآية الكريمة توضح أن طائفة آمنت، وطائفة لم تؤمن، ثم جاء الأمر للطائفتين، فأمر الله المؤمنين بالصبر تأنيساً لهم، وأمر الكافرين بالصبر تهديداً لهم، وهذه دقة القرآن في الأداء، وعظمة البيان والبلاغة والإعجاز؛ فكلمة: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أفادت في التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا، وأيضاً في كشف المصير الذي ينتظر الذين لم يؤمنوا، فصبر الكافرين مآله وعاقبته، إما أن يخلطوا من أنفسهم فيؤمنوا، وإما أن يجدوا العذاب، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة، والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] فأمره بالصبر على المصائب، والاستغفار من المعاييب، والصبر واجب باتفاق العلماء، الصبر من أهم صفات المؤمنين، بذلك نزل الكتاب، وجاءت السنة، وهي صفة لازمة مع التواصي بالحق، ولا بد منها، كما أنها صفة المؤمنين الذين استثناهم الله من الخسارة في سورة العصر، فالصبر إحدى دعائم الإيمان، ومن عزائم التقوى، وقد ذكر الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً، ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وأخبر النبي (ﷺ) في الحديث الصحيح أن الصبر

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ابن تيمية (ص: ١٨٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٥٠/٨)، وتفسير الشعراوي (٤٢٤٤/٧).

ضياء^(١). وقال: "مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ"^(٢)، وقوله: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له"^(٣). والصبر على ضربين: أحدهما: بدني، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة في أعمال دينية أو دنيوية. والآخر: نفساني، كالصبر عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى^(٤). وهذا الضرب إن كان صبرا عن شهوة البطن سمي عفة، وإن كان الصبر في قتالٍ سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظٍ سمي حلما، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمرٍ سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيشٍ سمي زهدا، وإن كان صبرا على قدرٍ يسيرٍ من الحظوظ سمي قناعة^(٥). وبهذا يظهر أن أكثر أخلاق الإيمان داخلية في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات، وهو واجب بإجماع الأمة، والصبر نصف الإيمان؛ فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر؛ فالإنسان يشكر على السراء، ويصبر عند الضراء، وقد أمر الله في كتابه بالصبر الجميل وهو صبر بلا شكوى، والصبر نصف الإيمان، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر، كما قال بعض السلف: الإيمان والصبر ثلاثة أنواع: الأول: صبر على فرائض الله، فلا يضيعها، والثاني: صبر عن محارمه، فلا يرتكبها، والأخير: صبر على أفضيته وأقداره، فلا يتسخطها، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر، ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما، لا يصل إليه أحدٌ إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحدٌ إلى الجنة إلا على الصراط، وإذا تأمل المسلم مراتب الكمال المكتسب في العالم، رآها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأمل النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيت أنه كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة، وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والثرياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله، فإن الله مع الصابرين ومحبه لهم، فإن الله يحب الصابرين، ونصره لأهله، فإن النصر مع الصبر، وإنه خير لأهله، ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وإنه سبب الفلاح^(٦). فالصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة . باب فضل الوضوء، حديث رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة . باب الاستعفاف في المسألة، حديث رقم (١٤٦٩)، (ص: ١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد . باب المؤمن أمره كله خير، حديث رقم (٢٩٩٩).

(٤) مسافر في قطار الدعوة: عادل الشويخ (ص: ١٦٩).

(٥) مختصر منهاج القاصدين (٦٦/٤)، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (٤٥/١).

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية (٣٠٥/٤).

والثقة بوعده الله الحق، والثبات بلا قلقٍ ولا زعزعةٍ ولا حيرةٍ ولا شكوكٍ، فالصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين، ومن تكذيبهم للحقّ وشكهم في وعد الله، ذلك أنّهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين، فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم هو الصبر والثقة واليقين، مهما يطل هذا الطريق، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم. والمقصود من الآية تسليّة قلوب المؤمنين، وزجر من لم يؤمن؛ لأنّ قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ تهديداً، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ والمراد: إعلاء درجات المؤمنين، وإظهار هوان الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدنيا، فإن لم تظهر في الدنيا فلا بدّ من ظهورها في الآخرة^(١).

خامساً: ما ترشد إليه الآية من أهدافٍ وهداياتٍ^(٢):

١. في الآية إحياء للمسلمين بالصبر واليقين، وبيان للصفة التي تستحق بها الإمامة في الأرض والتمكين، وفيها تقرير بأنّه بالصبر واليقين تنال الإمامة والقيادة في الدين.
٢. الآية إيماء بالصبر على ما يلقاه الدعاة إلى الإسلام من كيدٍ ومن تكذيبٍ.
٣. الآية أمرٌ للمؤمنين بالصبر على ما يحلّ بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم.
٤. التحلّي بالصبر من شيم الأفاضل الذين يتلقون المكاره برحابة صدرٍ، وبقوة إرادة ومناعة أبية.
٥. أنّ من حسن التوفيق، وأمارات السعادة الصبر على الملمات، والرفق عند النوازل.
٦. أنّ الصبر سترٌ من الكروب، وعونٌ على الخطوب، ودفعة للهموم، وحصنٌ من الغموم.
٧. أشارت الآية إلى أنّ فقه المآلات معتبرٌ شرعاً.
٨. الثقة بالله أولاً وأخيراً.
٩. أنّ الإيمان: صبر وسماحة.

(١) التفسير الكبير: الرازي (١٨٣/١٤)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٢٧٧٨/٥).

(٢) آداب الدّين والدّنيا: الماوردي (ص: ٥٣٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٢)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٢٨٠٤، ٢٨١٤/٥)، ولا تحزن: عائض عبد الله القرني (ص: ٦٥)، والإيمان: أبو بكر ابن أبي شيبة (ص: ٤٠).

المقصد الثالث: حكم الله عدلٌ مَحضٌ (الحاكم هو الله)

ويدلُّ على هذا المقصد القرآني الشريف قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]

أولاً: المفردات اللغوية في الآية^(١):

يَحْكُمُ: حَكَمَ أصله: منعٌ منعاً لإصلاح، والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة، فإن الحكم أن يُقضى بشيء على شيء. والحكمة عند العرب: ما منع من الجهل، وكذلك الحكم، هو المنع من الظلم، ويقال: أحكمت الشيء: إذا جعلته ممتنعاً من العيب، وبه سُمِّي الحاكم؛ لأنه يمنع الظالم. والإحكام: الإتيان. وفي أسماء الله: الحكيم، وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي. والحكيم فعيل بمعنى فاعل أو هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها، فهو فعيلٌ بمعنى مُفعل. وقيل: الحكيم: ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. والحكم: هو القيم بما يُسند إليه، وحكم الله بين الفريقين: هو نصر المحقِّين على المبطلين. خَيْرٌ: الخير: ما يرغب فيه الكل، وضده: الشر، وخيرٌ اسمٌ تفضيل.

ثانياً: بيان المقصد من الآية^(٢):

فالحاكم بين الناس هو الله وحكمه في كتبه المنزلة؛ فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول، والردُّ إلى الله هو الردُّ إلى كتابه فأمرهم بالردِّ إلى كتابه ورسوله، وقد ذمَّ الله من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني أن الله حاكمٌ مُنزَّه عن الجور والميل والحيف، فلا بُدَّ وأنَّ يخصَّ المؤمن التقي بالدرجات العالية، والكافر الشقي بأنواع العقوبات، فإنَّ الله هو الحاكم الذي لا مُعقبَ لحكمه، ولا يعترض عليه أحدٌ لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه، فإنَّ أصل التحليل والتحريم لله؛ فهو المُشرِّع ابتداءً وانتهاءً، فعلى المسلم أن يؤمن بأنَّ الحكم لله وحده، وليس لسواه حقُّ التشريع، ولذا نقول: إنَّ النبي (ﷺ) مُبلِّغٌ، وليس بمشرِّع؛ لأنَّه لم يشرِّع شيئاً من عنده وإنَّما بوحى من الله؛ لذلك فإنَّ مبدأ الحاكمية لله مبدأً إسلاميًّا أصيلاً، قرره جميع الأصوليين؛ فقد اتفقوا على أنَّ الحاكم هو الله، والنبيُّ مُبلِّغٌ عنه، فالله هو الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويحكم ويشرع، وحاكمية الله للخلق

(١) مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ص: ٢٤٨، ٣٠٠)، وفتح القدير: الشوكاني (٣١٨/٢)، ومن أسرار اللغة في الكتاب والسنة: محمود الطناحي (٤٠٨/١)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٥١/٨).

(٢) التفسير الكبير: الرازي (١٨٣/١٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (٢٤٠/٢)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١٧٥/٣)، والتحقيقات والتتقيقات السلفيات على متن الورقات: مشهور بن حسن آل سلمان (ص: ٣٨)، والجماعات الإسلامية: سليم الهلالي (ص: ٣٨١، ٥٦٠)، ومن فقه الدولة في الإسلام: يوسف القرضاوي (ص: ٦١، ١٤٠)، وفي ظلال القرآن: سيد قطب (٣١٨/٣).

ثابتةً بيقين، وهي نوعان: الأول: حاكمية كونيةً قدريةً، بمعنى أن الله هو المتصرف في الكون، المدبر لأمره الذي يجري فيه أقداره، ويحكمه بسننه التي لا تتبدل، والآخر: حاكميةً تشريعيةً أمريةً، وهي حاكمية التكليف والأمر والنهي، والإلزام والتخيير، وهي التي تجلت فيما بعث الله به الرُّسلَ، وأنزل الكتب، وبها شرع الشرائع، وفرض الفرائض، وهي التي دعاهم شعيبٌ إليها فهي أعدل خطة، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعةٍ من النَّاس لا تدين للطاغوت، فإنَّ وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلا الله، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه، إنَّ وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت، حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي مواعده، فإنَّ الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة فإنَّ وجود الحق في ذاته يزجج الباطل، وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل؛ إنَّها سنة الله لا بُدَّ أن تجري. وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ تذييلٌ بالثناء على الله بأنَّ حكمه عدلٌ مَحضٌ لا يحتملُ الظلمَ عمداً ولا خطأً، وغيره من الحاكمين يقعُ منه أحدُ الأمرين أو كلاهما. والله تعالى عندما يبعث أيَّ نبيٍّ إنَّما يبعثه بشرحٍ ليتحاكم النَّاسُ إليه، وليحكموا به، فالحاكم هو الله، والحياة إنَّما هي في القرآن، أحيا الله به العالمين وأخرجهم من الظلمات إلى النور ورحمهم به، وشفى ما كان يعتلج وبختلج في صدورهم من الأوهام والظنون والنظريات الباطلة؛ فإنَّ القرآن يروي ظمأ القلب، فكأنَّه شبه القرآن بالماء الذي يرد إليه كلُّ عطشان، فيشرب حتى يروي ظمأه، فكذلك القرآن يروي ظمأ القلوب ويحييها بعد موتها ويجليها من صدئها والله هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقبَ لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعَدَلُ^(١).

ثالثاً: ما ترشد إليه آيات قصة شعيب (عليه السلام) من أهدافٍ ومقاصدٍ وأحكام:

شعيب كان يُسمَّى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر، شيءٌ كثيرٌ منها:

١. أن الكفار كما يعاقبون، ويخاطبون، بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأنَّ شعيباً دعا قومه إلى التوحيد، وإيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد، مرتباً على مجموع ذلك.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٤٠٨/٣)، والتحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٥١/٨)، وشرح العقيدة الطحاوية: سفر الحوالي (ص: ٢٣)، والمحزَّر في علوم القرآن: مساعد الطيار (ص: ٢٤٥) وجمال القراء: السخاوي (٣٨٣/١).

٢. أن نقص المكاييل والموازين، من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة، على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقته في المكاييل والموازين، موجبة للوعيد، فسرقته. على وجه القهر والغلبة. من باب أولى وأحرى.
٣. أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخرس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم.
٤. أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بِقِيَّةِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ففي ذلك من البركة، وزيادة الرزق ما ليس في التكاليف على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة.
٥. أن ذلك، من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به، على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.
٦. أن الصلاة، لم تنزل مشروعة للأنبياء، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه منقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها، تختل أحواله الدينية.
٧. أن المال الذي يرزقه الله الإنسان. وإن كان الله قد حوله إياه. فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه، بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار، ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله، أو خالفه.
٨. أن من تكلمة دعوة الداعي وتامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].
٩. أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفسد وتقليلها، وبراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة، وحقيقة المصلحة: هي التي تصلح بها أحوال العباد وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.
١٠. أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.
١١. أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق فلينسبه لموليه ومسديه ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

١٢. الترهيبُ بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاعُ العقوباتِ بالمجرمين في سياقِ الوعظِ والزجرِ.

١٣. كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل النُّقوى عندَ الترغيبِ، والحث على النُّقوى.

١٤. أنَّ التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه فإنَّ الله يُحبه ويوده، ولا عبرة بمن يقول: إنَّ التائب إذا تاب فحسبه أن يُغفر له ويعود عليه بالعفو، وأما عود الود والحب فلا يعود" فإن الله قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]

١٥. أنَّ الله يدفع عن المؤمنين بأسبابٍ كثيرةٍ، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار كما دفع الله عن شعيبٍ رجم قومه بسبب رهطه وأنَّ هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك؛ لأنَّ الإصلاح مطلوبٌ على حسب القدرة والإمكان. فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدنيوية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدنيوية والدنيوية، وتحرص على إبادتها وجعلهم عملاً وخدمًا لهم، فإن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المُتعيَّن ولكن عدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة^(١).

١٦. أنَّ الله يتصف بالحكمة البالغة، ومن أسمائه الحسنى الحكيم، وهو الذي يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر، والحكيم هو الذي ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في صفحة الكون وتضاعيفه، في السماء والأرض، وفي الليل والنهار، وفي مصارع القرون الأولى، وفي قصص الرُّسل فيهم، وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود.

١٧. أنَّ الله هو العادل بمطلق العدل، ولا يظلم أحداً.

١٨. الحاكم هو الله، فهو المشرِّع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم ويحلُّ لهم ويحرِّم عليهم. وبالجملة؛ فحيثُ ذكر قصص الأنبياء كنوحٍ، وهود، وصالح، ولوطٍ، وشعيب، وموسى؛ فإنَّما ذلك تسليةً لمحمدٍ (ﷺ) وتثبيتٌ لفؤاده لما كان يلقي من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وسورة الأعراف ذكرت قصص المرسلين واحداً بعد واحدٍ، وهي سبع: قصة موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب^(٢).

(١) الموافقات: الشاطبي(٢٧٤/٤)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المئان: السعدي(ص: ٤١٠، ٤٠٩).

في ظلال القرآن: سيد قطب(٣/١٧٥٩)، وتفسير الشعراوي(٧/٤٢٤٤)، ومن فقه الدولة في الإسلام: يوسف القرضاوي(ص: ٦١).

(٢) مجموع الفتاوى: شيخ الإسلام ابن تيمية(١٢/١٨).

الخاتمة

وتحتوي على بندين:

أولاً: أهم النتائج.

ثانياً: أهم التوصيات.

الخاتمة

وفي الختام أقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَِّّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فالحمد لله الذي أعانني ووفقني إلى إتمام هذا العمل المتواضع سائلاً الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين؛ والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المجاهدين نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين أما بعد:

أولاً: نتائج البحث:

إنَّ المقصود من هذا البحث العلمي بيان معاني القرآن "الحزب السادس عشر" وما اشتمل عليه من مقاصد وأهداف، وما أَرادَه اللهُ تعالى من عبادته، وفي هذه الآيات الكريمات من سورة الأعراف وما قصَّه اللهُ علينا من أخبار الرُّسل مع أقوامهم التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب الأولين، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير، وسنن الله لا تحابي ولا تجامل أحداً من الخلق، ولا تجاري أهواء البشر، وإنما تساير أعمالهم، وفيما يلي أبرز وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث، وهي:

١. أن علم مقاصد السور يُعين على فهم كتاب الله فهماً صحيحاً، ويُعين على استخراج دقائق معانيها وتدبرها، ويوصل إلى معرفة الصواب في تفسير كلام الله، ومقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه.
٢. معرفة المقصد للسورة يُبين نظم السورة، والمناسبات بين آيات السورة، وكذلك بمعرفة مقاصد السور يظهر بيان إعجاز القرآن وبلاغته.
٣. اشتمل القرآن الكريم على العديد من الحقائق العقديّة، والأحكام الشرعية، والأخلاق الحميدة، والمواعظ، والقصص، وغيرها من مقاصد القرآن، التي جعلها الله هدايةً للبشر، والتي تدور جميعها على الدعوة إلى الله وعبادته، والقرآن يبيّن هذا المعاني الربانية من خلال المقاصد والأهداف، والأغراض الموزعة على كافة الآيات والسور.
٤. اعتنت سورة الأعراف ببناء المجتمع الإسلامي بناءً إيمانياً مُحكماً.
٥. من خلال العيش مع سورة الأعراف التي كانت تستهدف بناء أسس الاعتقاد الإسلامي، وإنشاء التصور الإيماني في القلوب بأسلوب راقٍ، حيثُ تخاطب النَّاسَ باستخدام المؤثرات الكونية والنفسية، وهذا التصور الإيماني الكوني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة الإسلامية، ولقد جاءت الرسائل الإلهية كلها بألوهية الخالق ووحدانيته، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق، ورعايته وعنايته لكل كائنٍ في الوجود.

٦. تستعرض سورة الأعراف مصائر الغابرين من المكذّبين، وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث، وتوكيده توكيداً شديداً، يدلُّ على أنّ المخاطبين به من المنكرين الجاحدين، كما أنّ فيها ما قد يكون تعزية عن مصابٍ أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين، ورد الأمر فيها إلى قدر الله، وتثبيت هذا التصور الأصيل.
٧. إنّ من مقاصد القرآن ذكر وبيان إهلاك الأمم المكذّبة للرُّسل، والقرى الظالمة، وأنّ أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وإنجاء الله لعباده المؤمنين، وإنّ صنيع الله هذا وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين فيه آياتٌ وحججٌ ودلالاتٌ واضحاتٌ على صدق الأنبياء فيما جاءوا به، وأنّ الله فاعلٌ لما يشاء قادرٌ على كلّ شيءٍ، عليمٌ بكلِّ شيءٍ.
٨. أنّ من نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين عرف أنّ ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم، وأنّهم إذا أقاموا كتاب الله، وسُنّة رسوله، مكّن لهم في الأرض ونصرهم على أعدائهم.
٩. إنّ التاريخ البشري لا يكرر نفسه، لكن سنن الله التي مضت في الذين خلوا من قبل تظل فاعلةً ومهيمنةً في حياة النَّاس اليومَ وغداً، ومن خلال ذلك نستطيع صياغة المستقبل واستشرافه، وفهم الحاضر واستخلاص العبر.
١٠. الأنبياء نعمة من الله، وفي إرسالهم اختبار للعباد، وإرسالهم هو من لوازم ربوبية الله وألوهيته.
١١. القرآن مشتملٌ على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتي تستحق بها الندارة وهو ضد ذلك، من الكفر بالله، وتكذيب رسله، وجدد النعم، وفعل المنكرات، والمعاصي.
١٢. إنّ الأحكام الدّينية تدور مع مقاصدها ومصالحها وجوداً وعدماً.
١٣. إنّ رسول الله (ﷺ) إنّما بُعثَ هادياً، وداعياً إلى الله، وإلى جنّته، ومُعرفاً بالله، ومُبيناً للأُمَّةِ مواقعَ رضاه وأمرأ لهم بها، ومواقعَ سخطه ونهاياً لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرُّسلِ وأحوالهم مع أممهم، وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها وأسباب ذلك.
١٤. أنّ الإيمان الصحيح، والعمل الصالح عنوانٌ على سعادة صاحبه، وأنّه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله.
١٥. إنّ المعارضين للرُّسل، المخالفين لهم كانوا قد تواصلوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب، وكما دلت آيات الكتاب العزيز على أنّ الله لا يعذب إلا من خالف الرُّسل.
١٦. لا نشهد بالإيمان والجنّة إلا لمن شهدت له الرُّسل.
١٧. أنّ يعمل الإنسان في الدُّنيا على اكتساب ما هو من أسباب رحمة الله من القربات والطاعات، والابتعاد عن أسباب عذاب الله وعقابه، وهي المعاصي والمنكرات.

١٨. إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ، كَمَا لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ.
١٩. إِنَّ الاستمرار على المعاصي والمنكرات يفسد الدين والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.
٢٠. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْحُكْمِ الْجَزَائِيِّ، وَهُوَ إِثَابَةُ الطَّائِعِينَ، وَرَحْمَتُهُمْ، وَتَعْذِيبُ الْعَاصِينَ وَالتَّكْيِيلُ بِهِمْ.
٢١. كُلُّ مَا وَصَلَ وَيَصِلُ إِلَى الْخَلَائِقِ مِنَ النِّعَمِ فَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَجَمِيعُ مَا انْدَفَعَ وَيَنْدَفِعُ مِنَ النِّعَمِ عَنِ الْخَلْقِ، فَاللَّهُ تَعَالَى الدَّافِعُ لَهَا.
٢٢. نِعَمُ الْأَقْوَامِ الْمَكْذُوبَةِ هِيَ نِعَمٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ.
٢٣. إِنَّهُ يَجِبُ تَصْدِيقُ الرَّسْلِ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنَ الْغَيْبِ، وَطَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا أَمَرُوا بِهِ وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِمَا أَوْتَوْهُ، وَلَمْ يَوْجِبِ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ مَا يَأْتِي بِهِ غَيْرُهُمْ.
٢٤. اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مِنْ كَذِبِ نَبِيًّا مَعْلُومِ النُّبُوَّةِ فَهُوَ كَافِرٌ مَرْتَدٌّ، وَمَنْ سَبَّ نَبِيًّا وَجَبَّ قَتْلُهُ، بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا أَوْتِيَهُ النَّبِيُّونَ كُلُّهُمْ، وَأَنَّ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ مِنْهُمْ.
٢٥. إِنَّ الْقُرْآنَ بَرَهَانٌ سَاطِعٌ دَالٌّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ (ﷺ) وَصَدَقَهُ، وَعَلِمَ الْمَقَاصِدَ يُوَكِّدُ ذَلِكَ.
٢٦. كُلُّ خَيْرٍ يَوْجَدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْ آثَارِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ وَتَوْفِيقِهِ.
٢٧. مِنْ أَغْرَاضِ الْقُرْآنِ التَّصَدِّيُّ لِتَعْلِيمِ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَى الَّتِي لَهُ أَثَرٌ فِي التَّرْكِيبِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَوْعِظَةِ.
٢٨. لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَغْتَرَّ بِإِمْهَالِ اللَّهِ لَهُ، بَلْ عَلَيْهِ الْمَبَادِرَةُ إِلَى التَّوْبَةِ مَا دَامَ فِي زَمَنِ الْمُهْلَةِ قَبْلَ فَوَاتِهَا.
٢٩. إِنَّ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ مَخْلُوقَةً نَاقِصَةً، لَا تَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، وَلَا رِزْقًا، وَأَنَّ مِنْ هَذَا وَصْفِهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّأَلُّهِ.
٣٠. إِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ لَا بُدَّ أَنْ تَطْلُبَ مَعْبُودًا تَأَلَّهُهُ، وَتَسْأَلُهُ حَوَائِجَهَا، وَهُوَ اللَّهُ الْمَسْتَحَقُّ لِلْأُلُوهِيَّةِ.
٣١. كُلُّ مَنْ لَهُ قَصْدٌ صَحِيحٌ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْقُرْآنِ؛ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَالْحُجُجِ الْوَاضِحَاتِ، فَهُوَ يَمْتَعُ الْعَوَاطِفَ، وَيَقْنَعُ الْعُقُولَ، وَيُوقِظُ الْمَشَاعِرَ، وَيَهْزِ الْنَفُوسَ، وَيَتَلَجُّ الصُّدُورَ، وَيَطْمِئِنُّ الْقُلُوبَ.
٣٢. إِنَّ الْأَمْثَالَ الَّتِي يَضْرِبُهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، إِنَّهَا هِيَ لِلْأُمُورِ الْكُبْرَى، وَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَسَائِلِ الْجَلِيلَةِ، وَلِهَذَا أَكْثَرَ مَا يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ وَنَحْوِهَا.
٣٣. حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ جَاءَ فِي سِيَاقَاتِ الْمَدْحِ وَالتَّنْأَةِ الْجَمِيلِ عَلَيْهِمْ، فَفِي الْقُرْآنِ تَنَاءٌ عَطَّرَ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَحَثٌّ وَتَحْرِيبٌ عَلَى التَّنَاسِيِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ، فَهَمَّ الَّذِينَ بَلَّغُوا أَرْفَعَ الدَّرَجَاتِ وَأَعْلَى الْمَنَاصِبِ، وَأَكْمَلَ الرُّتَبِ.

٣٤. إنَّ الكفار المعاندين للرُّسل لا خير فيهم يُرَجَى، ولا نفع يُرْتَقَب، فلا ينفَعهم توالي الآيات لفساد مشاعرهم، وسوء قسودهم.
٣٥. إنَّ أعداء الرُّسل يحرصون على تهجين سبيل الله وتقبيحها؛ للتنفير منها، ومن هنا قال علماء الأصول: إنَّ الملاحدة وضعوا أحاديثَ مخالفةً لمقتضى العقل، ونسبوا إلى الرُّسول تنفيراً للعقلاء عن شريعته، ولكن يأبى الله إلا أن يُتم نوره، ولو كره الكافرون.
٣٦. إنَّ القرآن الكريم مُشتمل على تعظيم جميع الرُّسل، والصالحين، وجميع الكتب الإلهية المنزلة، وأنَّ الذي جاءت به جميع الرُّسل يخرج من مشكاة واحدة، كما قاله النَّجاشيُّ.
٣٧. إنَّ الكتب الإلهية المنزلة تضمنت أصليين: الإخبار، والأمر. والإيمانُ بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أُخبرت، وإيجاب طاعتها فيما أوجبت.
٣٨. إنَّ القرآن الكريم هو كنيةُ الشريعة وينبوع لها، وهو كتابُ عبادةٍ وهدايةٍ وإعجازٍ.
٣٩. قصص الأنبياء في القرآن في ضمنها تزهيدٌ في الدنيا، وتشويقٌ للآخرة.
٤٠. إنَّ الرسول مطالبٌ بالوعظ والتذكير، والإنذار والتحذير، والتبليغ والنصح، والحساب على الله.
٤١. في القرآن من قصص الأنبياء ما لا يوجد في التوراة والإنجيل، مثل قصة هودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وغير ذلك.
٤٢. الإقرار بأنَّ دين الله واحدٌ منذ أولى الرِّسالات إلى خاتمة الرِّسالات.
٤٣. الأنبياء كلُّهم كانوا يقولون لأممهم وأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩] أي: اعبدوا الله وحدَه؛ لأنَّه مستحقٌّ للعبادة، فهو الخالق الرزَّاق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوقٌ مُدَبَّرٌ.
٤٤. بدع التفاسير التي وجدت في دواوين التفسير هي من كلام من لم يفهم مقاصد الشرع.
٤٥. علم القرآن، وعلم التوحيد لا يكفي فيهما غلبة الظنِّ، بل لا بُدَّ من اليقين، بخلاف علم الفقه العملي، فإنَّه يكفي فيه غلبة الظنِّ وقوة القرينة.
٤٦. القرآن الكريم كتابٌ كليّات لا ينتهي عطاؤه أبداً، فهو عطاءٌ متجددٌ بين طياته دليل صدقه لأهل العصور على مرِّ الدهور.
٤٧. الواقع أنَّ الشريعة الإسلامية ما شرَّعت إلا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أي: في الدنيا والآخرة، ودرء المفساد والأضرار عنهم في العاجل والآجل، حتى إنَّ بعض الفقهاء قال: "إنَّ الشريعة الإسلامية كلُّها مصالحٌ، إمَّا درءُ مفسدٍ أو جلبُ مصالحٍ".
٤٨. إنَّ تعليل الأحكام الشرعية بجلب المصلحة ودرء المفسدة لإعلام البشر بأنَّ تحقيق المصالح هو مقصود الإسلام، وأنَّ الأحكام ما شرَّعت إلا لهذا الغرض.

٤٩. القرآن الكريم ذو غاياتٍ ومواقف، محفوظٌ في القلوب، مقروءٌ بالألسن، مكتوبٌ في المصاحف.
٥٠. على المسلم امتثال كلِّ خيرٍ واجتناب كلِّ شرٍّ والاعتناظ بكلِّ مرققٍ.
٥١. من تنبيهات هذا البحث بيان أهمية مراعاة المقاصد، وأنَّ من لم يتفطن لوقوع المقاصد في الأوامر والنواهي، فليس على بصيرةٍ في وضع الشريعة.
٥٢. إنَّ إصلاحَ البدنِ بدون إصلاحِ القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرُّه سيرةٌ جداً، وهي مضرَّةٌ زائلةٌ تعقبها المنفعة الدائمة التامة.
٥٣. أمر الله باتباع وحيه وتنزيله، وهو القرآن العظيم، وذلك بامتنال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه.
٥٤. إنَّ من انقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن طريق الأنبياء، فهو الشقي.
٥٥. إنَّ معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والجزر عن اكتساب المفساد وأسبابها.
٥٦. أنَّ مقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم.
٥٧. من خلال البحث تبين للباحث أن لاستنباط مقاصد القرآن العظيم رُكنين: أحدهما: علمُ لسان العرب. وثانيهما: علمُ أسرار الشريعة ومقاصدها.
٥٨. أنَّ مقصد سورة الأعراف الرئيس هو التركيز على سنَّة التدافع بين الإيمان والكفر وعاقبته من خلال عرض سير الأنبياء مع أقوامهم.
٥٩. من أهم القضايا التي جاءت سورة الأعراف لتحقيقها هي: وجوب إخلاص العبادة لله وحده، وإقامة الأدلة على صدق نبوة محمدٍ (ﷺ)، وعلى البعث والجزاء.
٦٠. الاستمساك بكتاب الله وسنَّة رسوله أعظم وسيلة للسعادة في الدنيا، والفوز في الآخرة.
٦١. النظر في أحوال الأمم السابقة من أعظم ما يورث العبرة والعظة.
٦٢. أقام الله الحُجَّةَ وقطع العذر عن الخلق بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب التي تهدي للحقِّ وتحذر من الباطل.
٦٣. أنَّ التوفيق والهداية من الله تعالى.

وقد أكدَّ البحث وأظهر أنَّ في إنزالِ الكتابِ مقاصدُ وحكمٌ كثيرةٌ

والله وليُّ التوفيقِ والمتقين

ثانياً: أهم التوصيات:

لما كان الكتاب العزيز هو كُليّة الشريعة، وعمدة الملة، وكانت السنة راجعةً في معناها إليه؛ نُفصلُ مجمله، وتُبينُ مشكله، وتبسّطُ موجزه؛ كان لا بدّ لمُريد اقتباس مقاصد الآيات القرآنية من الرجوع إلى الكتاب والسنة، أو إلى ما تفرّع عنهما بطريقٍ قطعيٍّ من الإجماع والقياس، والإمام الواسع بأقوال المفسرين القدامى والمحدثين لاستنباط مقاصد القرآن العظيم، وفي ضوء هذه الدّراسة التي قمتُ بها، والنتائج التي توصّلت إليها، فإنّني أودُّ أن أشير وأوصي بمراعاة ما يلي:

١. أوصي نفسي وإخواني بتقوى الله، والعمل على مرضاته، واتباع هدي النبي (ﷺ) والعمل بمقاصد وأهداف آيات القرآن الكريم؛ فإنّ في ذلك الفوز العظيم والنجاح المبين.
٢. أنّ يوجّه طلاب العلم الشرعي عامّة والدراسات العليا بقسم التفسير وعلوم القرآن خاصّة؛ لدراسة كافّة مقاصد وأهداف القرآن الكريم، لتستفيد منها الأمة المسلمة وطلاب العلم الشرعي من خلال السلسلة الكريمة التي وضعتها الجامعة الإسلامية.
٣. أوصي طلبة العلم والبحث بالعمل الجاد على جمع مثل هذه الجهود؛ نظراً لمساهمة هذه العلوم في خدمة كتاب الله؛ حيثُ تظهر معانيه وحكمه وبلاغته وإعجازه.
٤. محاولة ترجمة هذه البحوث إلى لغاتٍ أخرى حيةٍ خصوصاً التي يسهل على غير العرب إدراكها وفهمها؛ لأنّ هذا سوف يكون مدعاة لدخول النّاس في الإسلام.
٥. العمل على زيادة التّأصيل لهذا العلم الشريف: علم مقاصد القرآن؛ لأنّه يُستثمر في معرفة غايات جنس الأحكام القرآنية، وحكمها، ومقاصدها، وهداياتها العملية.
٦. العناية الفائقة في اعتبار المقاصد في تفسير القرآن الكريم .
٧. إبراز المقاصد القرآنية في عبارات قوية سديدة متينةً في ألفاظها مُحكمة النّظم والصياغة، وسبكها سبكاً مُحكماً لا يقبل الانحرام.
٨. العمل على ربط الترجيح والاختيار من أقوال المفسرين بالنظر إلى مقاصد القرآن.
٩. العمل على ضبط مقاصد القرآن الكريم، وتحقيق هذه المقاصد، وتحريّ بسطها، واستقصاء تقاريعها، واستثمارها.
١٠. علم مقاصد القرآن بحرّ ذاخِر، يحتاج إلى تفاصيلٍ واسعةٍ، وقواعدٍ كُليّةٍ، لتأصيل مباحثه وأصوله، وتأسيس كليّاته المتضمنة لمقاصد الشارع الحكيم.
١١. علم المقاصد القرآني قادرٌ على معالجة قضايا العصر ومشكلاته ووقائعه ومستجداته ونوازلها، ونتحصل من خلال هذا على الإيمان العميق بصلاحية التفسير القرآني في الدعوة إلى الله على بصيرةٍ وعلمٍ.

١٢. علم المقاصد القرآني علمٌ دقيقٌ تحتاجه الأمة المسلمة إذا ادلهمت بها الخطوب وضافت بها الضوائق.
١٣. العمل على زيادة التأصيل لعلم مقاصد القرآن من خلال تدريسه ضمن مساقات الجامعة.
١٤. بناء نظرية علمية متكاملة في علم المقاصد خاصة بعلم التفسير.
١٥. العمل على إنشاء هيئة علمية عالمية تعتنى بالمقاصد القرآنية وترجمتها إلى واقع عملي.
- وختاماً الله أسألُ أن أكون قد ساهمت في خدمة كتابه العزيز، وأن يتقبل مني هذا الجهد الطيب، فإنني قد تحرّيت أثناء جمع معلومات هذا البحث أن أتجنّب الخطل والزّلل، وحرصت أن أصل بهذا الجهد العلمي المتواضع إلى أقرب درجات التمام؛ لأنني على يقين بأن الكمال المطلق لله، فإن كنت قد وفّقت للوصول إلى ما كنت أصبو إليه وأتمنى تحقيقه فما توفّيقى إلا بالله، وإن كنت قد أخطأت أو قصرت أو زللت فمن نفسي، وأستغفرُ الله العظيمَ على كلّ خطأ وأتوب إليه من كلّ زلّلٍ، وأدعوه سبحانه أن يتقبل مني ما قدّمت وأن يغفر لي ما قصّرت وأن يرزقني الإخلاص في السرّ والعلن والسّداد في القول والعمل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله، والله الموفق للخيرات والصواب والهادي للصالحات والفلاح

الفهارس العامّة

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية.

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم.

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع.

خامساً: فهرس الموضوعات.

أولاً : فهرس الآيات القرآنية:

الرقم	طرف الآية القرآنية	رقمها	رقم الصفحة
سورة الفاتحة			
١.	﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	٢	٢٩١
سورة البقرة			
٢.	﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾	١٩٥	٨٣
٣.	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾	١١٤	١٨١
٤.	﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾	٣١	٤٨٢
٥.	﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾	٢٥١	٤٦٣
٦.	﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾	١٤٣	٢٠٧
٧.	﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ﴾	١٢٦	٢٢٢
٨.	﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾	٢٦	٤٠٣
سورة آل عمران			
٩.	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾	٣٣	٩٥
١٠.	﴿ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ ﴾	١١٢	٩٨
سورة النساء			
١١.	﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾	٨٢	ج
١٢.	﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾	١٣١	٥٢٦
١٣.	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾	٤٨	٢٣٥
١٤.	﴿ فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾	١٧٥	٢٩٥
١٥.	﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾	١٣١	٤٥٩
سورة المائدة			
١٦.	﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾	١٠١	٥٢
١٧.	﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾	١٠٩	٥٣
١٨.	﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيِ الْهِنِينَ مِنْ دُونِ ﴾	١١٦	٥٣

٥٣	١١٩	﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾	١٩.
٣٠٨	٤٨	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾	٢٠.
٣٨٦	٥٤	﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾	٢١.
٣٨٧	٤٢	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾	٢٢.
٨٤	١٠٩	﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ... ﴾	
سورة الأنعام			
١١	١٥٥	﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾	٢٤.
١١	١٦٤	﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾	٢٥.
١١	١٦٥	﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾	٢٦.
٢٦٢	١٣٠	﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ... ﴾	٢٧.
٣٠٦	٨٢	﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾	٢٨.
٤٤٢	٩	﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾	٢٩.
٤٦٤	١٠	﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾	٣٠.
سورة الأعراف			
٤	٤٦	﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾	٣١.
١١	٣	﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	٣٢.
١١	٦	﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾	٣٣.
١٣	٢٠٤	﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾	٣٤.
٩٨	١٤٦	﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾	٣٥.
١٤١	٣٢	﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾	٣٦.
١٨٥	٢٩	﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾	٣٧.
١٩٥	٣١	﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾	٣٨.
٢٠٠	٣١	﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾	٣٩.
٢٠٦	١٧٠	﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾	٤٠.
٢١٣	٣١	﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾	٤١.

٢٢٤	٥٦	﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾	٤٢ .
٣٤٩	١٨٠	﴿ وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾	٤٣ .
سورة التوبة			
٤٧٩	١٢٥	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾	٤٤ .
سورة هود			
٢٥٢	٨٨	﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾	٤٥ .
سورة الحجر			
١٠٠	٣٨	﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾	٤٦ .
٥٣٣	٧٤	﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾	٤٧ .
سورة النحل			
٦	٨٩	﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ﴾	٤٨ .
٢٤٠	١١٦	﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾	٤٩ .
٤٢٩	٣٦	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾	٥٠ .
سورة الإسراء			
٢٢٨	٣٣	﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾	٥١ .
٣٢٩	٧٢	﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾	٥٢ .
٤٢٩	١	﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾	٥٣ .
سورة الكهف			
٦١	١٠٥	﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾	٥٤ .
٦٦	٨٤	﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾	٥٥ .
٨٢	٥٠	﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾	٥٦ .
١٥٨	٥١	﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾	٥٧ .
سورة مريم			
٣٢	٩٧	﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾	٥٨ .
١٥٣	١٧	﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾	٥٩ .

١٥٧	٨٣	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾	.٦٠
سورة طه			
٧٩	٤١	﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾	.٦١
١٤١	٥٩	﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ مُجَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾	.٦٢
٢٠٨	١٤	﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾	.٦٣
سورة الأنبياء			
١٩	١٠٧	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾	.٦٤
٢٣٨	١٠٧	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾	.٦٥
٤٤٢	٧	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾	.٦٦
سورة الحج			
٢٥٤	٢	﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ﴾	.٦٧
٣٧٢	١٨	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾	.٦٨
سورة المؤمنون			
٢٢٢	٥١	﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾	.٦٩
سورة الفرقان			
٦٢	٢٣	﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾	.٧٠
٣٧٣	٤٨	﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مِّيتًا ﴾	.٧١
سورة الشعراء			
٣١٣	٨٢	﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾	.٧٢
سورة النمل			
ب	٤٠	﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾	.٧٣
سورة القصص			
٥٤	٦٥	﴿ وَيَوْمَ يَنَادِهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾	.٧٤
٤٦٨	٢٦	﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾	.٧٥
سورة الروم			

١٨٥	٢٧	﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾	٧٦.
سورة لقمان			
٤٠	٣	﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴾	٧٧.
٥٧٥	١١١	﴿ قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾	٧٨.
٣٤	٤	﴿ الَّذِينَ يُتِّيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُوْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ ﴾	٧٩.
٣٠٦	١٣	﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾	٨٠.
سورة الأحزاب			
٤٧٨	٣٣	﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ ﴾	٨١.
٤١	٣٦	﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا... ﴾	٨٢.
سورة سبأ			
٣٢٢	٧	﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنْكُمْ لَفِي... ﴾	٨٣.
سورة فاطر			
٣٩٢	١٠	﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾	٨٤.
٣٩٧	٢٨	﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾	٨٥.
سورة يس			
٣٣	١١	﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾	٨٦.
٤٥	٢٠	﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾	٨٧.
سورة ص			
٦	٢٩	﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾	٨٨.
١٥٤	٣٥	﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾	٨٩.
سورة الزمر			
١٧٢	٦٢	﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾	٩٠.
٣٠٨	٥٣	﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾	٩١.
٣٦٩	٦٧	﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾	٩٢.
سورة غافر			

٩٨	٢٧	﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي عُدْتُ لِرَبِّي وَإِنِّي مُتَكَبِّرٌ ﴾	٩٣
١٨٥	٥٧	﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾	٩٤
سورة فصلت			
٣٧٢	١٢	﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي... ﴾	٩٥
سورة الشورى			
٣٢٨	٣٠	﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾	٩٦
سورة الزخرف			
١٩٠	٣٦	﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾	٩٧
سورة الجاثية			
١٩٥	١٣	﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾	٩٨
سورة الأحقاف			
٦٦	٢٦	﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ ﴾	٩٩
٢٧٠	١٤	﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	١٠٠
سورة ق			
٦٤	١٠٥	﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾	١٠١
٣٥٤	٣٨	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾	١٠٢
سورة الذاريات			
٢٦٢	٥٦	﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	١٠٣
سورة الطور			
٣٧٠	٣٥	﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾	١٠٤
سورة الحديد			
٤	١٣	﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾	١٠٥
٦	٢٥	﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾	١٠٦
سورة الحشر			
٤١	٧	﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾	١٠٧

سورة التغابن		
٤٤٢	٦	﴿ أَبَشِّرْ يَهُودَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾
سورة القلم		
٥٣٧	٤	﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
سورة الحاقة		
٤٥	٥	﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾
سورة نوح		
٣٢٨	٢٣	﴿ وَلَا تَدْرِنَّ وِدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾
سورة المدثر		
٢٠٣	٤٢	﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴾
سورة الإنسان		
٢٨٨	٢١	﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١]
سورة النبأ		
٣٢٨	٢٦	﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾
سورة التكاثر		
٢٠٧	٨	﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية:

رقم الصفحة	المصنف	طرف الحديث النبوي	المسلسل
ب	الترمذي	مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ	١.
٤	النسائي	قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ الْأَعْرَافَ	٢.
٦	البخاري	الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبَلَّغُوا	٣.
٥٢	البخاري	إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُزْأً	٤.
٥٢	البخاري	دَعَوْنِي مَا تَرَكْتُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ	٥.
٥٩	البخاري	كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ...	٦.
٦٠	مسلم	اقْرَعُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً	٧.
٦٠	مسلم	يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ	٨.
٦٠	الترمذي	إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ	٩.
٦١	البخاري	إِنَّهُ لِيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمَ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	١٠.
٧٢	البخاري	خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ	١١.
٧١	البخاري	قَالَ رَجُلٌ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ أَبِي؟	١٢.
٦٩	البخاري	كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ	١٣.
٩١	البخاري	أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمَّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَتَهُ؟	١٤.
٩٣	البخاري	سُئِلَ النَّبِيُّ (ﷺ) عَنْ فَارَةٍ سَقَطَتْ فِي سَمَنِ	١٥.
٩٨	البخاري	تَأْتِي الْإِبِلُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرٍ مَا كَانَتْ	١٦.
١١٥	البخاري	رَشَحَ كَرَشِحِ الْمِسْكِ	١٧.
١٤٥	البخاري	أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ	١٨.
١٥٤	البخاري	إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَقَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ	١٩.
١٥٤	مسلم	إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ، جَاءَ بِشَهَابٍ مِنْ نَارٍ	٢٠.
١٨٧	البخاري	كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الدَّنْبِ	٢١.
١٥٨	البخاري	يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ..	٢٢.
١٩٥	مسلم	كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ	٢٣.
١٩٨	البخاري	لَا يَصَلِّي أَحَدُكُمْ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ	٢٤.
٢٠٥	البخاري	كَانَ رِجَالٌ يَصَلُّونَ مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) عَاقِدِي أَرْزَمِ	٢٥.
٢٠٦	البخاري	رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَأْكُلُ الرُّطْبَ بِالْقَتَاءِ	٢٦.

٢٠٨	البخاري	٢٧. إِنَّ الْمَسْلُومَ يَأْكُلُ فِي مَعِيٍّ وَاحِدٍ
٢١١	البخاري	٢٨. رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَأْكُلُ الرُّطْبَ بِالْقِتَاءِ
٢١١	البخاري	٢٩. كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ
٢١٤	مسلم	٣٠. لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
٢١٥	البخاري	٣١. كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) يُعْجِبُهُ الْحَلَوَاءُ وَالْعَسَلُ
٢٢٦	البخاري	٣٢. لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ
٢٢٩	البخاري	٣٣. إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ
٢٤١	البخاري	٣٤. مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ
٢٦٤	البخاري	٣٥. لَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَاحِشاً
٢٧٠	البخاري	٣٦. لَنْ يَدْخَلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ
٢٧٨	مسلم	٣٧. يَا عِبَادِي إِنَّي حَرَمْتُ الظِّمَّ عَلَى نَفْسِي
٣٠٧	البخاري	٣٨. لَا تَسْبُوا الْأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى ..
٣٢٩	الترمذي	٣٩. يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٣٢٩	البخاري	٤٠. مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ.
٣٥٥	البخاري	٤١. إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ
٣٦٥	البخاري	٤٢. إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
٣٦٩	البخاري	٤٣. إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ
٣٨٤	الترمذي	٤٤. لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدَّعَاءِ
٣٩٦	البخاري	٤٥. إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةً رَحْمَةً
٣٩٧	مسلم	٤٦. لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ
٤٣٨	البخاري	٤٧. كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ
٤٥٤	البخاري	٤٨. نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ
٤٥٥	البخاري	٤٩. الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتِ أُمَّهَاتِهِمْ شَتَّى
٥٣٧	مسلم	٥٠. أَنَّ الْبِرَّ: هُوَ حُسْنُ الْخُلُقِ
٥٧١	مسلم	٥١. لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مَرُوجاً

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم:

رقم الصفحة	العلم	الرقم المسلسل
١٢	البقاعي	.١
١٦	ابن منظور	.٢
١٦	الزركشي	.٣
١٦	ابن عاشور	.٤
١٧	ابن جني	.٥
١٧	الشاطبي	.٦
٢٢	سيد قطب	.٧
٢٤	ابن تيمية	.٨
٢٥	الرازي	.٩
٢٥	مجاهد	.١٠
٢٦	الزَمَخْشَرِي	.١١
٣٦	سُفْيَانُ الثَّوْرِي	.١٢
٣٧	الشافعي	.١٣
٣٩	حسان بن عطية	.١٤
٥٩	الراغب الأصفهاني	.١٥
٥٩	الطبري	.١٦
٧٧	ابن فارس	.١٧
٨٣	التفتازاني	.١٨
١٤٥	ابن القيم	.١٩
٢٢٢	الصاوي	.٢٠
٣٥٦	عمر بن عبد العزيز	.٢١
٣٩٦	ابن أبي العز الحنفي	.٢٢
٤٠٣	ابن عطية	.٢٣
٤٤٢	النووي	.٢٤

رابعاً : فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم: كلامُ ربِّ العالمين.
- أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين: سليمان بن محمد الديبخي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الرياض، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ).
- إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم: القاضي محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (٩٨٢هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ . ٢٠٠١م).
- أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير: أبو بكر جابر الجزائري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع . مصر، الطبعة الرابعة (١٤١٢هـ . ١٩٩٢م).
- الأساس في التفسير: سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة . مصر، الطبعة السادسة (١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م).
- الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان.
- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد العزالي (٥٠٥هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان، بدون طبعة.
- آداب الدين والدنيا: علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: علي عبد المقصود رضوان، دار ابن الجوزي - الدمام - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ).
- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار: محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) تحقيق: محمد ناجي العمر، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع . الأردن . الزرقاء، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ . ١٩٩٠م).
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي . بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م).
- الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره: أحمد بن محمد بن حاسن القرشي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية، الدمام، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م).
- أشراف الساعة: يوسف بن عبد الله بن يوسف الوابل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الدمام، الطبعة السابعة عشرة (١٤٢٣هـ).
- أصول المحاكمات الشرعية: أحمد محمد علي داود، الناشر: مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن - عمان، الطبعة الأولى (٢٠٠٤هـ).

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي(ت:١٣٩٣هـ)، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية - جدة، الطبعة الأولى(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).
- الاعتصام: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي(ت:٧٩٠)، تحقيق: سليم بن عبد الهلالي، دار ابن عفان للنشر والتوزيع . مصر . الجيزة، الطبعة الأولى(١٤٢١هـ).
- إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر أيوب، المعروف بـ(ابن قيم الجوزية)، تعليق وتخریج: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الدمام، الطبعة الأولى(١٤٢٣هـ).
- أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر- مصر، الطبعة الثانية(١٤٢٧هـ - ٢٠١٠م).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: القاضي عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي(٧٩١هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م).
- الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة: علي بن بخيت الزهراني، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية . مكة المكرمة، الطبعة الأولى(١٤١٨هـ . ١٩٩٨م).
- الأنوار الكاشفة لما في كتاب " أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني . عالم الكتب . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى(١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م).
- الإيمان: الحافظ أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة(ت:٢٣٥هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى(١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).
- باهر البرهان في مشكلات معاني القرآن: نجم الدين محمود بن علي النيسابوري القزويني(٥٥٣هـ) تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى(٢٠١١هـ).
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي(٧٩٤هـ)، دار المعرفة . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٣٧٦هـ . ١٩٧٥م).
- البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(٧٤٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: محمد بن أحمد بن محمد بن رُشد الحفيد(٥٩٥هـ)، تحقيق: محمد صبحي حسن الحلاق، الناشر: مكتبة ابن تيمية . القاهرة، الطبعة الأولى(١٤١٥هـ).

- تاريخ الأمم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الثالثة(١٤١١هـ . ١٩٩١م).
- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية: الإمام محمد أبو زهرة(١٣٩٣هـ) دار الفكر العربي.
- التفسير الحديث: محمد عزت دروزة(١٤٠٤هـ) دار الغرب الاسلامي . بيروت، الطبعة الثانية (١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م).
- تفسير ابن عرفة: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي(٨٠٣هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(٢٠٠٨م).
- تفسير القرآن: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي(٦٦٠هـ)، دار ابن حزم . للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٢٢هـ . ٢٠٠٢م).
- تفسير القرآن الحكيم: محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت . لبنان، الطبعة الثانية.
- تفسير القرآن العظيم: عبد الله شحاتة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة.
- تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٢١هـ . ٢٠٠١م).
- تفسير الشعراوي: محمد متولى الشعراوي، الطبعة الأولى.
- التفسير الكبير: فخر الدين محمد بن عمر الرازي(٦٠٦هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٠١هـ . ١٩٨١م).
- التفسير الوسيط: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر . بيروت . لبنان، الطبعة الثانية(١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م).
- التفسير الكامل: أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية(٧٢٨هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م).
- التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبى، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤١٥هـ . ١٩٩٥م).
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤١١هـ . ١٩٩١م).
- التفسير الواضح: محمد محمود حجازي، دار الجيل . بيروت، الطبعة العاشرة(١٤١٣هـ . ١٩٩٣م).

- **التحرير والتنوير:** الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، دار سُحنون للنشر والتوزيع . تونس، الطبعة الأولى (١٩٩٧م).
- **التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية:** عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الميراث النبوي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء - الجزائر العاصمة، الطبعة الأولى (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).
- **التحقيقات والتنقيحات السلفيات على متن الورقات:** أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الإمام مالك . الإمارات العربية المتحدة . أبو ظبي، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م).
- **التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير:** عبد الله عبد الغني سرحان، دار الحضارة للنشر والتوزيع . الرياض، الطبعة الثانية (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).
- **تركيب النفس:** شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (٧٢٨هـ)، مكتبة الصفا . القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م).
- **تصويبات في فهم بعض الآيات:** صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٦هـ . ١٩٩٥م).
- **تفسير الإمام مجاهد:** تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة - مصر، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
- **التفسير المنهجي:** جمال محمود أبو حسّان، دار المنهل . عمّان، الأردن، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م).
- **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم:** إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن . بإشراف: مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة . الطبعة الأولى (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).
- **التفسير والتأويل في القرآن:** صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس للنشر والتوزيع . عمّان . الأردن، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ . ١٩٩٦م).
- **تفسير القرآن العظيم:** الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ)، مكتبة دار التراث . مصر . القاهرة، الطبعة الأولى.
- **تقريب التهذيب:** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الثانية (١٤١٥هـ . ١٩٩٥م).
- **تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي:** خالد فوزي عبد الحميد حمزة، مكتبة السوادي للتوزيع . المملكة العربية السعودية . الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م).

- تهذيب اللُّغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى(٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة، الطبعة الأولى(١٣٨٤هـ . ١٩٦٤م).
- تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة . الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى(١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- التوهّم . رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة: الحارث بن أسد المحاسبي(ت:٢٤٣) دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان . الطبعة الثانية(١٤١٤هـ . ١٩٩٤م).
- ثلاثون مجلساً في التدبر: اللجنة العلمية بمركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، دار الحضارة للنشر والتوزيع . الرياض، الطبعة الأولى(١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م).
- جامع البيان في تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت:٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ . ١٩٩٢م).
- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد القرطبي(٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٩٦٥م).
- جناية التأويل الفاسد على العقيدة الإسلامية: محمد أحمد لوح، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية . الدمام، الطبعة الأولى(١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م).
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني(٧٢٨هـ) تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وآخرون، دار العاصمة للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الرياض، الطبعة الثانية(١٤١٩هـ . ١٩٩٩م).
- حاشيتا قليوبي وعميرة على شرح المحلي على منهاج الطالبين: أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي(ت: ١٠٦٩هـ)، وشهاب الدين أحمد البرلسي(ت:٩٥٧هـ)، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.
- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: أحمد بن محمد الصاوي المصري(١٢٤١هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).
- حكمة الدعوة وصفة الدعاة: أبو الحسن علي الندوي، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى(١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- خواص القرآن الكريم(دراسة نظرية تطبيقية): تركي بن سعد بن فهيد الهويمل، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الدمام، الطبعة الأولى(١٤٢٩هـ).
- درج الدرر في تفسير القرآن العظيم: عبد القاهر الجرجاني(٤٧١هـ)، دار الفكر . الأردن . عمان، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

- **الدر المنثور في التفسير المأثور:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى (١٤١١هـ . ١٩٩٠م).
- **دراسات في السيرة:** سالم أحمد سلامة وآخرون، الجامعة الإسلامية . غزة . فلسطين، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م).
- **روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن:** محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م).
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** شهاب الدين محمود الألوسي (١٢٧٠هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان.
- **زهرة التفاسير:** محمد أبو زهرة (١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي . القاهرة.
- **زاد المسير في علم التفسير:** أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ) المكتب الاسلامي . بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م).
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها:** محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية (١٤١٥هـ . ١٩٩٥م).
- **سُنن ابن ماجه:** الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ . ١٩٩٨م).
- **سُنن أبي داود:** أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، تحقيق: عبد القادر عبد الخير، وسيد محمد سيد، وسيد إبراهيم، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م).
- **سير أعلام النبلاء:** محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة التاسعة (١٤١٣هـ . ١٩٩٣م).
- **السيرة النبوية:** علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية . مصر . القاهرة، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م).
- **شرح أصول العقيدة الإسلامية:** نسيم شحدة ياسين، الجامعة الإسلامية . غزة . فلسطين، الطبعة الخامسة (١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م).
- **شرح الأصول الستة:** محمد بن صالح العثيمين (ت:١٤٢٠)، مكتبة عبد المصور محمد عبدالله . مصر، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م).

- شرح الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية: عبدالرحمن بن ناصر البراك، الناشر: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الرياض، الطبعة الأولى (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٤ م).
- شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ت: ٧٩٢) تحقيق: مصطفى العدوي، الناشر: دار ابن رجب، مصر . المنصورة. الطبعة الأولى (١٤٢٣ هـ . ٢٠٠٢ م).
- شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد . لابن قدامة: محمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢٠) تحقيق وتخریج: أشرف بن عبدالمقصود . مكتبة أضواء السلف . الرياض . المملكة العربية السعودية . الطبعة الثالثة (١٤١٥ هـ . ١٩٩٥ م).
- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (٢٥٦ هـ)، ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع . مصر . القاهرة، الطبعة الأولى (٢٠١٠ م).
- صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع . الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م).
- صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ)، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع . الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م).
- الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه: أبو أحمد محمد أمان بن علي جامي علي (١٤١٥ هـ)، الناشر: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية . المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٠٨ هـ).
- صناعة الحياة: محمد أحمد الراشد، دار البشير للثقافة والعلوم، الطبعة الثالثة (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).
- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة التاسعة.
- صياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية: إسماعيل الفاروقي (ت: ١٤٠٧)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي . لندن، طبعة (١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩ م).
- عالم الجن والشياطين: عمر سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان . الأردن، الطبعة الحادية عشر (١٤١٩ هـ . ١٩٩٩ م).
- العقيدة الميسرة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة: أحمد بن عبد الرحمن القاضي، الناشر: مجلة البيان . الرياض، الطبعة الرابعة (١٤٣٣ هـ).

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت:٨٥٢هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الرياض، الطبعة الرابعة(١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني(ت:١٢٥٠هـ) تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - مصر - المنصورة، الطبعة الثالثة(١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
- فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي(١٣٠٧هـ)، دار إحياء التراث الاسلامي . قطر، الطبعة الأولى(١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
- في رحاب التفسير: الشيخ عبد الحميد كشك، الناشر المكتب المصري الحديث.
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية(٧٢٨هـ)، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى(١٤٢٨هـ).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي(٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة الثالثة(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).
- فقه السيرة النبوية: محمد سعيد رمضان البوطي(ت:١٤٣٣هـ) دار الفكر . سورية . دمشق، الطبعة الرابعة عشر(١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).
- فقه العبادات: محمد بن صالح العثيمين، دار الصفوة للنشر والتوزيع . مصر، الطبعة الأولى(١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
- فن التدبر في القرآن الكريم: عصام بن صالح العويد، الناشر مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة(١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).
- الفوائد: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية(٧٥١هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابي، دار الحديث . القاهرة، الطبعة الأولى(١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- في ظلال القرآن: سيد قطب(ت:١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - القاهرة، الطبعة الثانية والثلاثون(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).
- القواعد التأصيلية دليل المتفهمين إلى ضبط المعارف الفقهية: أحمد بن مسفر العتيبي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).
- قواعد قرآنية: عمر بن عبد الله المقبل، دار الحضارة للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الرياض، الطبعة الثانية(١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(٥٣٨هـ)، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي . مصر، الطبعة الأخيرة(١٣٩٢هـ . ١٩٧٢م).
- لا تحزن: عائض عبد الله القرني، الناشر مكتبة العبيكان . الرياض، الطبعة الثانية(١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م).
- لطائف قرآنية: صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ . ١٩٩٢م).
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: محمد بن أحمد السفاريني(ت:١١٨٨هـ)، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها . دمشق، الطبعة الثانية(١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م).
- ليدبروا آياته: اللجنة العلمية بمركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، دار الحضارة للنشر والتوزيع . الرياض، الطبعة الأولى(١٤٣٤هـ . ٢٠١٢م).
- المائة الجياد في الشهادة والجهاد: زكريا بن طه شحادة، مكتبة سمير منصور للطباعة والنشر والتوزيع - فلسطين - غزة، الطبعة الأولى(١٤٣٦هـ . ٢٠١٥م).
- مجالس قرآنية، وقفات بيانية ودلالات تربوية: عويض بن حمود العطوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع . الرياض، الطبعة الأولى(١٤٣٤هـ . ٢٠١٣م).
- مجموع فتاوى: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية(٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام ابن عطية الغرناطي(ت:٥٤٢هـ)، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري وآخرون، الدوحة، الطبعة الأولى(١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م).
- المحرر في علوم القرآن: مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، الناشر: مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي . جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية(١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م).
- المختصر المفيد في بيان دلائل أقسام التوحيد: عبدالرزاق عبدالمحسن العباد البدر، غراس للنشر والتوزيع . الكويت، الطبعة الأولى(١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م).
- المختصر في التفسير: مركز تفسير للدراسات القرآنية، مكتبة روائع المملكة، المملكة العربية السعودية . جدة، الطبعة الأولى(١٤١٤هـ).
- مسافر في قطار الدعوة: عادل عبدالله الشويخ(١٤١٤هـ) دار المنطلق للنشر والتوزيع . الإمارات العربية . دبي، الطبعة الأولى.

- مطالع الأنوار على صحاح الآثار: أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الوهراني ابن قُرْقُول (٥٦٩هـ) تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث . قطر، الطبعة الأولى (١٤٣٣هـ . ٢٠١٢م).
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: حافظ بن أحمد الحكمي (١٣٧٧هـ) دار ابن القيم للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الدمام، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م).
- معالم التنزيل: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦هـ) دار طيبة للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية . الرياض، الطبعة الثالثة (١٤٣١هـ . ٢٠١١م).
- معارج التفكير ودقائق التدبير: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم . دمشق، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م).
- محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي (١٣٣٢هـ) دار الفكر بيروت . الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ . ١٩٧٨م).
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أحمد بن محمود النسفي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . لبنان، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ . ١٩٩٨م).
- مُعجم المناهي اللفظية وفوائد في الالفاظ: بكر عبد الله أبو زيد (١٤٢٩هـ) الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع . الرياض . الطبعة الثالثة (١٤١٧هـ . ١٩٩٧م).
- مُغني المُحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: محمد بن محمد الخطيب الشربيني، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية (٢٠٠٩م).
- مفاتيح الغيب المشتهر بـ(التفسير الكبير): محمد بن عمر الرازي (٦٠٦هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . لبنان . بيروت . الطبعة الأولى (١٤٠١هـ . ١٩٨١م).
- مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ . ١٩٩٢م).
- مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل . بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م).
- من أدب الإسلام: عبد الفتاح أبو غدة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الثالثة (١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م).
- من أسرار اللغة في الكتاب والسنة: محمود محمد الطناحي (١٤١٩هـ)، المكتبة المكية . مكة المكرمة . المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ . ٢٠٠٨م).

- من فقه الدولة في الإسلام: يوسف القرضاوي، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الثالثة (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).
- منحة العلام في شرح بلوغ المرام: عبدالله بن صالح الفوزان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - الدمام - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٢٨ هـ).
- الموافقات: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي (ت: ٧٩٠)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم للنشر والتوزيع - الدمام، الطبعة الأولى (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).
- المواهب الربانية من الآيات القرآنية: عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦ هـ)، دار الحضارة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى (١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م).
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) دراسة وتحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الرازي - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م).
- نور التوحيد وظلمات الشرك في ضوء الكتاب والسنة: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مؤسسة الجريسي - الطبعة الأولى (١٤١٩ هـ).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٨٨٥ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).
- النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠ هـ) دار الكتب بالعليمة - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، طبعة (١٩٧٣ م).
- الواضح في أصول الفقه: محمد سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، الطبعة الأولى (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).
- وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية: محمد مصطفى الزحيلي، مكتبة دار البيان - دمشق، الطبعة الأولى (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).
- الوصايا العشر في القرآن الكريم: عبد الحميد عبد العزيز محمد كشك، الناشر: المكتب المصري الحديث - القاهرة، طبعة (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م).

خامساً: فهرس الموضوعات

.....	الإهداء
.....	خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.
ب	شكرو وتقدير
د	مقدمة
١	الفصل التمهيدي: بين يدي سورة الأعراف
٢	المبحث الأوّل: اسم السورة وعدد آياتها وترتيبها وفضلها ومحورها
٣	المطلب الأوّل: تعريف سورة الأعراف
٤	المطلب الثاني: تسمية سورة الأعراف
٥	المطلب الثالث: زمن السورة ومكانها
٦	المطلب الرابع: ترتيب السورة وعدد آياتها
٨	المطلب الخامس: المحور الرئيس لسورة الأعراف
١٠	المبحث الثاني: علاقة السورة بغيرها من السور
١١	المطلب الأوّل: مناسبة سورة الأعراف لما قبلها الأنعام
١٢	المطلب الثاني: مناسبة سورة الأعراف لسورة الأنفال الآتية بعدها
١٣	المطلب الثالث: مناسبة أول سورة الأعراف بآخرها
١٤	المطلب الرابع: محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة
١٥	المبحث الثالث: مفهوم التفسير المقاصدي
١٦	المطلب الأوّل: تعريف التفسير لغةً واصطلاحاً
١٧	المطلب الثاني: تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً
٢	المبحث الأوّل
٣	المبحث الأوّل: اسم السورة وعدد آياتها وترتيبها وفضلها ومحورها
٣	المطلب الأوّل
٣	تعريف سورة الأعراف
٤	المطلب الثاني
٤	تسمية سورة الأعراف
٥	المطلب الثالث
٥	زمن السورة ومكانها
٦	المطلب الرابع
٦	ترتيب السورة وعدد آياتها
٨	المطلب الخامس
٨	المحور الرئيس لسورة الأعراف
١٠	المبحث الثاني

١٠	علاقة السورة بغيرها من السور
١١	المطلب الأول
١١	مناسبة سورة الأعراف لما قبلها الأنعام
١٢	المطلب الثاني
١٢	مناسبة سورة الأعراف لسورة الأنفال الآتية بعدها
١٣	المطلب الثالث
١٣	مناسبة أول سورة الأعراف بآخرها
١٤	المطلب الرابع
١٤	محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة
١٥	المبحث الثالث
١٥	مفهوم التفسير المقاصدي
١٦	المطلب الأول
١٦	تعريف التفسير لغةً واصطلاحاً
١٧	المطلب الثاني
١٧	تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً
١٨	التفسير المقاصدي:
٢٠	الفصل الأول
٢٠	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (١-٣٠)
٢٠	القرآن الكريم كتابٌ هدايةٌ وإعجازٌ
٢٢	المبحث الأول
٢٢	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١-١٠)
٢٤	المطلب الأول: الحروف المقطعة من دلائل الإعجاز
٤٣	المطلب الثاني: زوال الظالمين حتمية قرآنية
٧١	المبحث الثاني
٧١	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١١-١٨)
٧٢	المطلب الأول: نشأة الحياة دليلٌ على وجود الخالق
٨٩	المطلب الثاني: الأصل في الوجود التفاضل
١٠٩	المبحث الثالث
١٠٩	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١٩-٢٥)
١١٠	المطلب الأول: الجنة مخلوقة
١٢٣	المطلب الثاني
١٢٣	الإسلام حضارة وتقدم
١٣٧	المبحث الرابع
١٣٧	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٢٦-٣٠)
١٣٨	المطلب الأول: نعم الله كثيرة لا تُحصى
١٦٢	المطلب الثاني: تقليد الآباء في القبيح صدٌّ عن شرع الأنبياء الصريح
١٩١	الفصل الثاني
١٩١	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٣١-٤٦)
١٩١	الإسلام هو الدين السماوي المنزل
١٩٢	المبحث الأول
١٩٣	المبحث الأول

١٩٣	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣١-٣٧)
١٩٥	المطلب الأول: الإسلام يحث على الجمال
٢٢٥	المطلب الثاني: إيجاب التوحيد وتحريم الشرك
٢٥٩	المبحث الثاني
٢٥٩	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣٨-٤٢)
٢٦٠	المطلب الأول: ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان
٢٨٠	المطلب الثاني: الجنة سلعة الله غالية
٢٨٦	المطلب الأول: الغل مرضٌ مدمرٌ للمجتمع المسلم
٢٩٧	المطلب الثاني: وعد الله حقٌ
٣٠٩	المطلب الثالث: أهل الأعراف مآلهم إلى الجنة
٣١٩	الفصل الثالث
٣١٩	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٧-٦٤)
٣١٩	العباد بين فضل الله وعدله
٣٢٠	المبحث الأول
٣٢٠	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٧-٥١)
٣٢١	المطلب الأول: الدعاء عبادة
٣٣٢	المطلب الثاني: رحمة الله واسعة
٣٥٠	المطلب الأول: الاستواء معلومٌ والكيفٌ غيرٌ معقولٌ
٣٦٧	المطلب الثاني: التسخير الكوني نعمةٌ ربانيةٌ، فالله هو الخالق
٣٩٢	المبحث الثالث
٣٩٢	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٦-٥٨)
٣٩٣	المطلب الأول: الفساد شرٌ كله
٤٠٢	المطلب الثاني: الأمثال من وسائل الهداية
٤٢١	المقصد الثاني: القصص القرآني حقائق تاريخية، وقيم إيمانية
٤٢٢	ب- القصص القرآني حقائق تاريخية، وقيم إيمانية ^(١)
٤٤١	المطلب الثاني: جنس الرجال أفضل من جنس النساء
٤٥٠	الفصل الرابع
٤٥١	المبحث الأول
٤٥١
٤٧٠	المطلب الثاني: الأخلاق الحميدة سمة المسلمين
٤٩٢	المطلب الأول: لكل نبيٍّ معجزةٌ
٥٠٣	المطلب الثاني: الكبر بطن الحقِّ وغمط الناس
٥١٧	المبحث الثالث
٥١٧	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٠-٨٤)
٥١٨	المطلب الأول: من رأى منكم منكراً فليغيره
٥٣٥	المطلب الثاني: النجاة واجبة على الله
٥٤٢	المبحث الرابع
٥٤٢	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٥-٨٧)
٥٤٣	المطلب الأول: الإسلام دين الإصلاح
٥٦٠	المطلب الثاني: الحفاظ على النسل من مقاصد الشريعة الغراء
٥٧٣	الخاتمة

٥٧٨	ثانياً: أهم التوصيات:
٢	المبحث الأوّل.....
٣	المبحث الأوّل: اسم السورة وعدد آياتها وترتيبها وفضلها ومحورها.....
٣	المطلب الأوّل.....
٣	تعريف سورة الأعراف.....
٤	المطلب الثاني.....
٤	تسمية سورة الأعراف.....
٥	المطلب الثالث.....
٥	زمن السورة ومكانها.....
٦	المطلب الرابع.....
٦	ترتيب السورة وعدد آياتها.....
٨	المطلب الخامس.....
٨	المحور الرئيس لسورة الأعراف.....
١٠	المبحث الثاني.....
١٠	علاقة السورة بغيرها من السور.....
١١	المطلب الأوّل.....
١١	مناسبة سورة الأعراف لما قبلها الأنعام.....
١٢	المطلب الثاني.....
١٢	مناسبة سورة الأعراف لسورة الأنفال الآتية بعدها.....
١٣	المطلب الثالث.....
١٣	مناسبة أول سورة الأعراف بآخرها.....
١٤	المطلب الرابع.....
١٤	محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة.....
١٥	المبحث الثالث.....
١٥	مفهوم التفسير المقاصدي.....
١٦	المطلب الأوّل.....
١٦	تعريف التفسير لغةً واصطلاحاً.....
١٧	المطلب الثاني.....
١٧	تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً.....
١٨	التفسير المقاصدي:.....
٢٠	الفصل الأوّل.....
٢٠	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (١-٣٠).....
٢٠	القرآن الكريم كتابٌ هدايةٌ وإعجازٌ.....
٢٢	المبحث الأوّل.....
٢٢	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١-١٠).....
٢٤	المطلب الأوّل: الحروف المقطعة من دلائل الإعجاز.....
٤٣	المطلب الثاني: زوال الظالمين حتمية قرآنية.....
٧١	المبحث الثاني.....
٧١	الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١١-١٨).....
٧٢	المطلب الأوّل: نشأة الحياة دليلٌ على وجود الخالق.....
٨٩	المطلب الثاني: الأصل في الوجود التفاضل.....

١٠٩ المبحث الثالث
١٠٩ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (١٩-٢٥)
١١٠ المطلب الأول: الجنّة مخلوقة
١٢٣ المطلب الثاني
١٢٣ الإسلام حضارة وتقدم
١٣٧ المبحث الرابع
١٣٧ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٢٦-٣٠)
١٣٨ المطلب الأول: نعم الله كثيرة لا تُحصى
١٦٢ المطلب الثاني: تقليد الآباء في القبيح صدُّ عن شرع الأنبياء الصريح
١٩١ الفصل الثاني
١٩١ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٣١-٤٦)
١٩١ الإسلام هو الدين السماوي المنزل
١٩٢ المبحث الأول
١٩٣ المبحث الأول
١٩٣ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣١-٣٧)
١٩٥ المطلب الأول: الإسلام يحثُّ على الجمال
٢٢٥ المطلب الثاني: إيجاب التوحيد وتحريم الشرك
٢٥٩ المبحث الثاني
٢٥٩ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٣٨-٤٢)
٢٦٠ المطلب الأول: ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان
٢٨٠ المطلب الثاني: الجنّة سلعة الله غالية
٢٨٦ المطلب الأول: العُلُّ مرضٌ مدمرٌ للمجتمع المسلم
٢٩٧ المطلب الثاني: وعد الله حقٌّ
٣٠٩ المطلب الثالث: أهل الأعراف مآلهم إلى الجنّة
٣١٩ الفصل الثالث
٣١٩ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية: (٤٧-٦٤)
٣١٩ العبادُ بين فضل الله وعدله
٣٢٠ المبحث الأول
٣٢٠ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٤٧-٥١)
٣٢١ المطلب الأول: الدعاء عبادة
٣٣٢ المطلب الثاني: رحمة الله واسعة
٣٥٠ المطلب الأول: الاستواء معلومٌ والكيفٌ غيرُ معقولٍ
٣٦٧ المطلب الثاني: التسخير الكوني نعمة ربانية، فالله هو الخالق
٣٩٢ المبحث الثالث
٣٩٢ الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٥٦-٥٨)
٣٩٣ المطلب الأول: الفساد شرٌّ كلُّه
٤٠٢ المطلب الثاني: الأمثال من وسائل الهداية
٤٢١ المقصد الثاني: القصص القرآني حقائق تاريخية، وقيم إيمانية
٤٢٢ ب- القصص القرآني حقائق تاريخية، وقيم إيمانية^(١)
٤٤١ المطلب الثاني: جنس الرجال أفضل من جنس النساء

٤٥٠ الفصل الرابع
٤٥١ المبحث الأوّل
٤٥١
٤٧٠ <i>المطلب الثاني: الأخلاق الحميدة سمة المسلمين</i>
٤٩٢ <i>المطلب الأوّل: لكلّ نبيّ معجزة</i>
٥٠٣ <i>المطلب الثاني: الكبر بطن الحقّ و غمط الناس</i>
٥١٧ المبحث الثالث
٥١٧ <i>الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٠-٨٤)</i>
٥١٨ <i>المطلب الأوّل: من رأى منكم منكراً فليغيره</i>
٥٣٥ <i>المطلب الثاني: النجاة واجبة على الله</i>
٥٤٢ المبحث الرابع
٥٤٢ <i>الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف سورة الأعراف من آية (٨٥-٨٧)</i>
٥٤٣ <i>المطلب الأوّل: الإسلام دين الإصلاح</i>
٥٦٠ <i>المطلب الثاني: الحفاظ على النسل من مقاصد الشريعة الغراء</i>
٥٧٢ الخاتمة
٥٧٧ ثانياً: أهم التوصيات:
٥٧٧ الفهارس العامّة:

ملخص الرسالة باللُّغة العربية
دراسة تحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم
(سورة الأعراف من الآية ١-٨٧)

تناول فيها الباحث مقاصد وأهداف الحزب السادس عشر من القرآن الكريم (سورة الأعراف من الآية ١ . ٨٧)، وقد جاء هذا البحث مشتمل على مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، وأسباب اختيار الموضوع، وأهداف البحث وغاياته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث.

التمهيد: بيّن التعريف العام لسورة الأعراف، وعلاقتها بما قبلها من السور وما بعدها، مع بيان مفهوم التفسير المقاصدي للقرآن.

الفصل الأول: تمّ إبراز وبيان مقاصد وأهداف سورة الأعراف من الآية (١-٣٠)، ودراستها دراسة تحليلية وموضوعية.

الفصل الثاني: تمّ إبراز وبيان مقاصد وأهداف سورة الأعراف من الآية (٣١-٤٦)، ودراستها دراسة تحليلية وموضوعية.

الفصل الثالث: تمّ إبراز وبيان مقاصد وأهداف سورة الأعراف من الآية (٤٧-٦٤)، ودراستها دراسة تحليلية وموضوعية.

الفصل الرابع: تمّ إبراز وبيان مقاصد وأهداف سورة الأعراف من الآية (٦٥-٨٧)، ودراستها دراسة تحليلية وموضوعية.

وكان من أبرز مقاصد وأهداف آيات الدراسة ما يلي:

القرآن الكريم كتاب عبادة وهداية وإعجاز.

أعمال القلوب خيرٌ من أعمال الجوارح.

العدل أساس الملك وميزان الشرع، والظلم مؤذنٌ بخراب العمران.

العاصي يعاقب بنقيض قصده شرعاً وقدرًا

ترك الاعتراض على الكبراء محمودٌ.

ثم الخاتمة: وضمنتها أهم النتائج والتوصيات.

Abstract

Analytical study of the purposes and principles of the Sixteenth section from the Koran(Surah AL-ARAF of verses 1-87)

The researcher deals with the aims and objectives of the Sixteenth section from the Koran (Surah AL-ARAF of verses 1-87), this research includes an introduction, review, four chapters and a conclusion, as follows:

Introduction: It includes the importance of the subject, and the reasons for choosing the topic, research objectives and goals, and previous studies, as well as research methodology.

preface: it shows the general definition of Surat AL-ARAF, and its relationship with previous surah and beyond it , with an indication of the concept of Makassed interpretation of the Koran.

Chapter One :It shows the explanation of the purposes and objectives of Surat AL-ARAF of verses (1-30), and studied it analytically and objectively.

Chapter II: It shows the explanation of the purposes and objectives of Surat AL-ARAF of verses (13-46), and studied it analytically and objectively.

Chapter III : It shows the explanation of the purposes and objectives of Surat AL-ARAF of verses (47-64), and studied it analytically and objectively.

Chapter IV It shows the explanation of the purposes and objectives of AL-ARAF of verses (65-87), and studied it analytically and objectively.

The main purposes and objectives of the verses of the study include:
The Holy Quran is a worship book of guidance and miracles.

Actions of the heart are better than the work of senses.

Justice is the basis of rule and the balance Surat, and injustice is the reason for ruin and destruction.

Asi should be not punished according to the opposite of his purpose .

It is better to leave objections on Supremes.

Then Conclusion: It includes the most important findings and recommendations.

